الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي

الثغر الجماني

في ابتِسام الثغر الوهراني

تأليف

أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الرّاشدي

تحقيق وتقديم

الشَّيخ المهدي البوعبدلي

اعتنى به

عبد الرحمن دويب

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين

بمناسبة الذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر

الثغر الجماني
في ابتِسام الثغر الوهراني

تأليف

أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الرّاشدي

تحقيق وتقديم
الشَّيخ المهدي البوعبدلي

اعتنى به
عبد الرحمن دويب

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي

الثغر الجماني

في ابتِسام الثغر الوهراني

V

الطبعة الأولى

2013

الإيداع القانوني: 2012-4290

ردمك: ISBN 978-9947-912-44-7

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع

حي باحة 02، فيلا رقم 07، تماريس المحمدية / الجزائر

هاتف/ فاكس: 96 -92-21-021

البريد الإلكتروني: alemelmaarifa@yahoo.fr

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسول الله، وبعد.

فإنَّ مِن الكتب العظيمة التي عَنيت بتدوين تاريخ الجزائر وذكر مآثر بعض حكَّامِها وتراجم جملة مِن علمائها في الحقبة العثمانية، كتاب: (**الثَّغر الجماني في ابتسام الثَّغر الوهراني**) للإمام **أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي**.

وقد حظيَ هذا العلق النفيس بالنشر لأوَّل مرَّة سنة 1973م، بمطبعة البعث بقسنطينة (**الجزائر**) ضِمن **سلسلة التراث** التي نشرتها وزارة التعليم الأَصلي والشؤون الدينية بالجزائر، بتحقيق وتقديم الشَّيخ المهدي البوعبدلي (رحمه الله تعالىٰ).

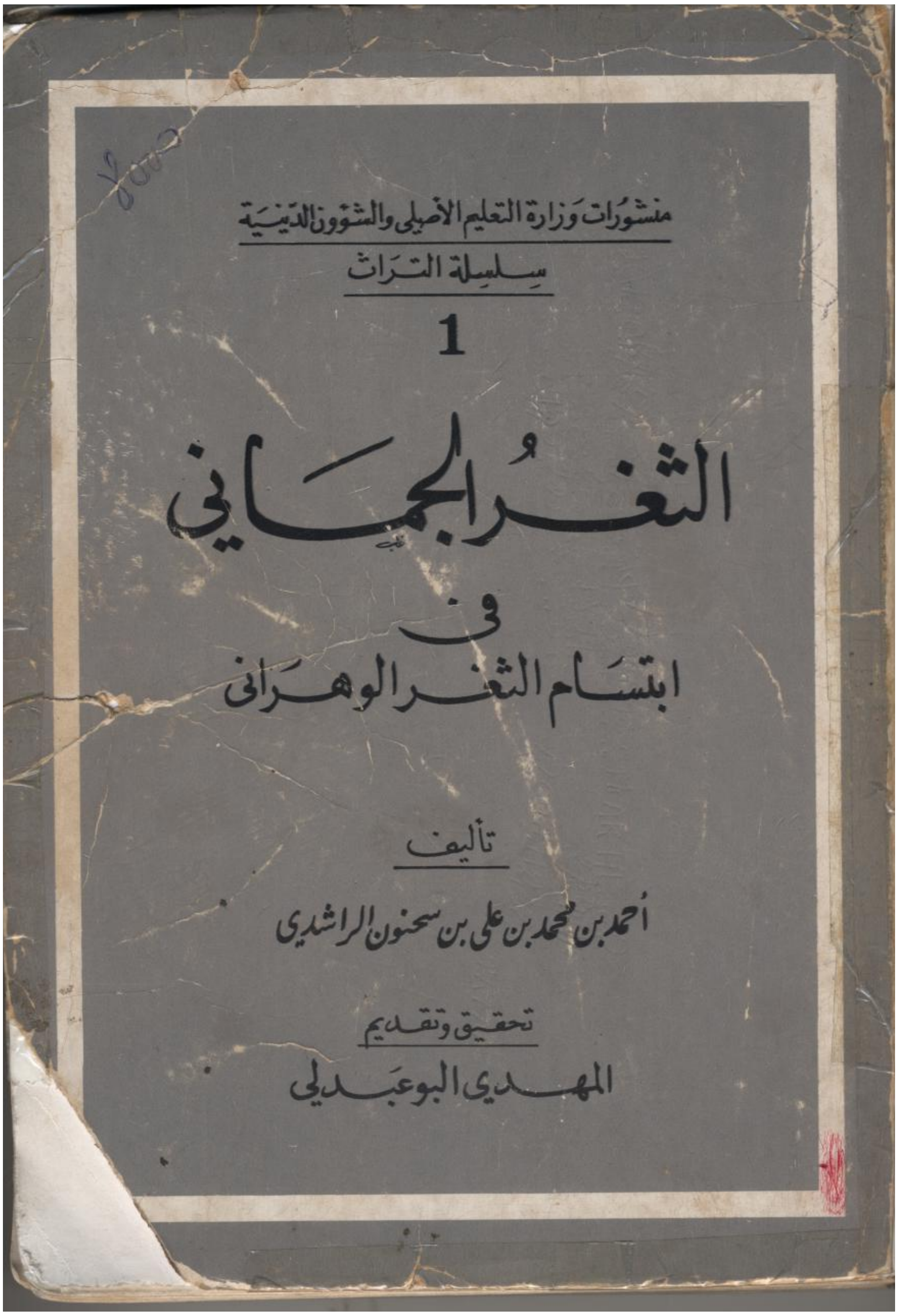
وهذا الكتاب كما وصفه الوزير السابق الأستاذ **مولود قاسم** (رحمه الله) هو صفحات ذهبية في تاريخ مقاومة هذا البلد الأمين، وورقات من صمود هذا الشعب الذي كان شِعاره دائما: **الانكسار ولا الانحناء**.

قُمنا بإعادة تصفيفه، ومراجعة مضمونه، وتصحيح كثير مِن التصحيفات التي وقعت في طبعته الأولىٰ، مع اجتناب التعليق عليها، هروبا من إثقال هوامشه،

وستقف أخي القارئ في نشرتنا هذه علىٰ نصٍّ مصحَّح أقرب ما يكون مِن مراد المؤلِّف مِن حيث مَبانيه ومَعانيه.

كان اعتمادنا الأساسي علىٰ نشرة الطبعة الأولىٰ، وهي كما ذكرنا بها كثير من التصحيف، وخلط في بعض الفقرات تقديما وتأخيرا، بلغ في بعض الأحيان بضع صفحات، والظاهر أنها أخطاء مطبعية في التنضيد والإملاء.

عبد الرحمن دويب



صورة عن غلاف الكتاب المنشور سنة 1973م

مقدمة المحقق

الشيخ المهدي البوعَبدلي

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا التَّأليف الذي نقدِّمه اليوم للقرَّاء، هو من التَّآليف النَّادرة القيِّمة التي تميط اللِّثام عن جوانب كثيرة من **تاريخ (الجزائر) في العهد التُّركي**، الذي ما زال يكتنفه الغموض.

اعتنى كثيرٌ من الباحثين بدراسة هذه الفترة من تاريخ **(الجزائر)** إلاَّ أنَّ جُلَّهم اعتمدوا على ما كتبه المستشرقون أو ترجموه من المصادر العربيَّة.

إنَّ أكثر المستشرقين اهتمامًا بتاريخ العهد التُّركي هم الإسبان، الذين خصَّصوا مئات التَّآليف لهذا العهد، وما زالت خزائن الوثائق في إسبانيا مملوءةً بها، وقد نشر الكاتب الإسباني **(رودريقيز مارن)** (Rodriguez Marin)[1] (فهرسًا) لهذه الوثائق يحتوي على: (900) تسعمائة صفحة.

كما اعتنى كثيرٌ من المؤرِّخين، والرَّحَّالين، والتُّجَّار، والقِسِّيسين من مختلف الأجناس بتدوين مذكِّرات انطباعاتهم للمدَّة التي أقاموها بـ **(الجزائر)**، ثمَّ ظهرت بعد ذلك تآليفُ أخرى خصوصًا بعد الاحتلال الفرنسي (1830)، جلُّ أصحابها من الفرنسيِّين، اعتنَوا بالمصادر العربيَّة فترجموا معظمها أو لخَّصوه، وساعدهم على مهمَّتهم استحواذهم على كثير من بقايا التُّراث، فدرسوها في المؤتمرات العلمية بعد أن حقَّقوها، ونشروا نتائج بحوثهم في سجلات تلك المؤتمرات، وفي المجلاَّت الخاصَّة بهذا النَّوع من

(1) Rodrigues Marin: guia historica y descriptiva de los (1) archivos, bibliotéchas y muscos arqueologicos de Espana 1 qrchios historicos Madrid surprenta de la revista de archios 1916 N°: 827.

الدِّراسات، كـ (**المجلَّة الإفريقيَّة**) التي كانت تصدر بـ (**الجزائر**)، و(**المجلَّة الآسيويَّة**) التي تصدر بـ (**باريز**)، فأحيَوا فيها كثيرًا من الآثار التَّاريخية التي اكتشفوها في بعض الخزائن العامَّة والخاصَّة، وبعثوها من مرقدها.

هذا وإنَّنا وإن كنَّا نعترف بالفضل لبعض هؤلاء الكتَّاب على ما بذلوه من جهود في سبيل المحافظة على تراثنا وإحيائِه، وعلى ما استفدناه من بحوثهم، فإنّنا نلاحظ أنَّه إن كان الهدف للكثير منهم البحثَ العلميَّ النَّزيه، فإنَّ الآخرين شوَّهوا الحقائق، بعضهم جهلًا والبعض الآخر عمدًا، جريا على ما كانت تتطلَّبه المصالح الاستعماريَّة، أو التَّعصُّب العقائدي، وقد وصل الكثير منهم إلى أهدافهم، حيث بذروا الشَّكَّ في عقول كثير من المواطنين، ولقَّنوا حقائق تاريخيَّة، أقلُّ ما يُقال فيها إنَّها مشوَّهة، ولهذا فنحن في أشدِّ الحاجة إلى إعادة النَّظر في البحث عن ماضينا، وإلى معرفتنا بقيمنا الحقيقيَّة، والاعتناء بدراسة هذا الماضي دراسة علميَّة دقيقة، مجرَّدة عن الأغراض والارتجال.

وهذا يتوقَّف قبل كلِّ شيء على جمع الوثائق المختلفة لذلك العهد، ودرسها من جديد، وتقديمها للقرَّاء، حتَّى يتسنَّى للخلف أن يعرفوا حقائق ماضي البلاد بصورة واضحة، وأن يطَّلعوا على المشاكل التي واجهت السَّلف وتغلَّب عليها أو تغلَّبت عليه، ولهذا يُشترط في الباحث أن يتحرَّى الصِّدق في النَّقل، وأن لا يتسرَّع بالتَّصرُّف في النُّصوص أو بالحكم على الأحداث حسبما تُمليه عليه الأهواء، أو التيَّاراتُ الفكريَّة، فيُؤوِّل النُّصوص، أو يُلفِّق منها ما يُؤَيِّدُ به رأيَه، أو مذهبَه في الظُّروف التي يعيش فيها، إذ لا تخلو مِن تياراتٍ أو مذاهبَ تجتاح المرَّة بعد المرَّة البلاد، فيندفعُ معها الرَّأي العام على غير هُدًى ورَوِيَّة، ثمَّ لا تلبثُ أن تهدأ فورتها، فتخبو وتنطفي، ولهذا قيل: «إنَّ المؤرِّخ ينبغي له أن يكون أمينا كالفنَّان المصوِّر»، كما يُشترط في الباحث أن لا يحكم على أحداث الماضي بمقاييس ومناظر العصر الحاضر، فمثلا إنَّ الوطنيَّة الضَّيِّقة الحدود،

كانت مجهولة آنذاك في كثيرٍ من بلاد الإسلام، حيث كان المسلم أينما حلَّ فهو في بلاده ووطنه، وبهذه النَّظرة يمكننا أن نتصوَّر عهد الحروب التي كانت متواصلة بين ملوك بني زيان (**ملوك تلمسان**)، وبين بني مرين (**ملوك المغرب**)، ثمَّ بينهم وبين ملوك بني حفص (**ملوك تونس**)، و كان الجزائريُّون كثيرًا ما ينتصرون للمرينيِّين ولبني حفص على ملوك بلادهم **بني زيان**.

إنَّ أثر الاحتلال الإسباني لـ (**الجزائر**) الذي أعقبه الاحتلال التُّركي، ومقاومة البلاد طيلة قرون، شحذ قرائح الكتَّاب الجزائريِّين وجعلهم يهتمُّون بالأحداث التي اجتازتها البلاد، فألَّفوا تآليف كثيرة لها أهمِّيَّة، خصوصًا بعد انتصاراتهم على الإسبان، وطردِهم من (**وهران**)، التي دام احتلالهم لها ما يقرب من ثلاثة قرون، إذ احتلَّها الإسبان سنة 914هـ وأُخرِجوا منها سنة 1119هـ، ثمَّ استرجعوها سنة 1144هـ وبقَوا بها ربع قرن إلى أن أُخرِجوا منها نهائيًّا سنة 1206هـ على يد الباي محمَّد بن عثمان الكبير الكردي، باي الولاية الوهرانيَّة، فعندئذ تسابق الكتَّاب والشُّعراء إلى تخصيص هذا الفتح بعدَّة تآليف، كما سبق أن خصَّص سلفهم للفتح الأوَّل الذي وقع سنة 1119هـ في عهد محمَّد بكداش (**باشا الجزائر**)، وخليفته مصطفى بوشلاغم (**باي الولاية الوهرانيَّة**)، إذ خصَّصوا الفتح الأوَّل بعدَّة تآليف وملاحم وقصائد، وصلنا منها ما جمعه العالم الأديب **محمَّد بن ميمون الجزائري**، وسمَّاه: (**التُّحفة المرضيَّة في الدَّولة البكداشيَّة في بلاد الجزائر المحميَّة**)[1]، والذي ترجم فيه للباشا الفاتح، وكتاب: (**بهجة النَّاظر في أخبار الدَّاخلين تحت ولاية الإسبانيِّين من الأعراب كبني عامر**)، للشَّيخ **عبد القادر بن عبد الله المشرفي**، خصَّه للمتعاونين مع العدوِّ، وبعد أن بيَّن أصول القبائل

(1) حقَّقها وقدَّمها الأستاذ **محمَّد بن عبد الكريم الزَّمُّوري** لنيل: شهادة الدِّراسات العليا، بـ (جامعة الجزائر).

المتعاونة وفصولها، تعرَّض لحكم الله فيها.

ثمَّ شَرْحُ (أرجوزة الحلفاوي)، للرَّحَّالة **عبد الرَّحمـٰن الجامعي الفاسي**، صاحب (**الرِّحلة**) المشهورة، الذي ساهم مع المهنِّئين للباشا **بكداش** في الفتح بقصيدة بليغة ذكرها صاحبُ (**التُّحفة المرضيَّة**).

أمَّا الكتَّاب الذين خصَّصوا تآليفهم للفتح الثاني والأخير الذي وقع على يد **محمَّد ابن عثمان**، فهو المؤرخ **محمد أبو راس النَّاصري** في تأليفه: (**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**)، و**محمد المصطفى بن عبد الله بن زَرْفَةَ الدَّحاوي** في (**الرِّحلة القمريَّة في السِّيرة المحمَّديَّة**)، و أحمد بن سحنون في: (**الثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني**)، موضوع مقدِّمتنا هذه، وهو كما ذكرنا من أهمِّ وأنفس ما أُلِّف في ذلك العهد، إذ هو عبارةٌ عن مذكِّرات دوَّنها مؤلِّفها الذي كان يعيش في بلاط الباي، وكان ملازمًا لولده (وَلِيِّ عهده)، وسنتعرَّض للحديث عن التَّأليف بالتَّفصيل في آخر هذا التَّقديم.

كانت هذه الحرب المشهورة بـ (**حرب الإسبان**) حربًا صليبيَّة تجدَّدت في شمال (**المغرب الأقصى**)، حيث هاجم الإسبان والبرتغال شواطئ (**المغرب**)، وسقطت بعض مدنه السَّاحلية كـ (**سبتة**) سنة 817هـ، و(**القصر الصَّغير**) سنة 862هـ، ثمَّ (**تطوان**) و(**طنجة**) و(**مليلية**)، وبعد سقوط (**غرناطة**) آخر معقل للمسلمين بـ (**الأندلس**) سنة 897هـ صَفَا الجوُّ للإسبان، وأدَّت بهم نشوة الانتصار إلى تتبُّع المسلمين في عُقر دارهم، فكان احتلال (**وهران**) سنة 914هـ بعد احتلال (**المرسى الكبير**)، ثمَّ احتلال (**بجاية**)، فـ (**تونس**) و(**طرابلس**).

كان ملك إسبانيا آنذاك **فردينان** (Ferdinand)، وقد استشاره الصليبيُّون على شنِّ هذا الهجوم، فوافقهم مبدئيًّا و اعتذر لهم عن تأخيره للعجز المالي، فتقدَّم إذاك الكاردينال **كسيمنيز** (Ximenez) أُسقف (**طُليطلة**) وتعهَّد بتحمُّل نفقات هذه الحرب

بشرط أن يكون ذلك قرضًا من الكنيسة، كانت صِلة الكاردينال **كسيمنيز** هذا وثيقةً بالملكة إيزابيل المشهورة **بالكاثوليكية** زوج الملك **فردينان**، والمتعصبة للحرب الصليبية، إذ هي التي تدخلت في الصُّلح بين قومها والبرتغال، فطلبت من البابا ألكسندر (Alexandre 6) السادس التدخل في هذا الصُّلح ليتقاسم فيه الإسبان والبرتغال مناطق النُّفوذ بينهما، فكان الاجتماع المشهور باجتماع **طرود زيلا** (Trodesillas) سنة 1492م، فخصَّص البابا للبرتغال مدن شواطئ المحيط الأطلنطيكي، والبقية أي: شواطئ البحر الأبيض للإسبان، وبعد احتلال شواطئ **(الجزائر)** عزَّز البابا قرار 1492م بقرارٍ آخرَ، أعلن فيه الحرب الصليبية على بلاد **المغرب العربي** سنة 924هـ الموافق لـ 1518م، وأمر ملوك أوربا بعقد مهادنةٍ لمدَّة خمس سنوات، تتفرَّغ فيها إسبانيا لاحتلال ما تبقى لها من مدن المغرب العربي.

كانت بلاد المغرب العربي أثناء هذه الأحداث سيِّئة جدًّا، فعلاوةً على عوامل الضّعف والانحطاط التي عمَّت البلاد الإسلاميَّة كُلَّها ابتداءً مِن منتصَف القرن الثَّامن الهجري، كما ذكر ذلك المؤرِّخ **عبد الرَّحمـٰن ابن خلدون**، وشاركه في رأيه أستاذه الجزائري **محمَّد المقري التِّلمساني**، وإن اختلفا في الأسباب، فـ: **المقري** كان يرى أنَّ النِّظام الملكيَّ هو من أسباب ذلك التَّدهور[1]، حيث إنَّه مُنافٍ للتَّعاليم الإسلاميَّة المحبِّذة للشُّورى، و**ابن خلدون** يرى أسبابًا أُخرى بيَّنها بتفصيلٍ في تاريخه: **(ديوان العبر)**.

نال **المغرب العربي** حظَّه من هذا التَّدهور، ولم تتغيَّر حالته طيلة القرن التَّاسع، ويظهر ذلك جليًّا في ضعف الملوك، وتنمُّر القبائل العربيَّة التي كانت تتمتَّع بشبه

(1) بحث طريفٌ في الموضوع، نشره **أحمد المقري** في ترجمة جدِّه، **(نفح الطِّيب)**، ج/ 3، ص: 147، المطبعة الأزهرية 1302هـ.

استقلال في إقطاعاتها، وكلَّما أحسَّت بضعف الملوك إلاَّ وبالغت في تمرُّدها وتحدِّيها ومطالبها، إذ كان لا يهُمها إلا مصالح القبيلة والعشيرة، فعندما فُوجئت **(الجزائر)** بالاحتلال الاسباني كانت مجزَّأة إلىٰ نحو خمسة عشر جُزءا، كلُّ جزءٍ تهيمن عليه قبيلة عربيَّة أو بربريَّة، فقبيلتا **(سويد)** و**(بني عامر)** الشَّهيرتان كانتا تسيطران علىٰ معظم سهول ولاية **(وهران)**، وكان **(آل المقراني)** يتصرَّفون في القبائل الصُّغرىٰ **(وادي بجاية)**، وكانت قاعدة إمارتهم **(قلعة بني عبَّاس)**، ثمَّ حوِّلت إلىٰ **(مجَّانة)**، والقبائل الكبرىٰ تحت تصرُّف **(آل ابن القاضي)**، ومقرُّ إمارتهم **(جبل كوكو)**، ومدينة **(الجزائر)** وسهول **(متِّيجة)** تحت تصرُّف قبيلة **(الثَّعالبة)**، ورئاستهم آنذاك في **(آل ابن التُّومي)**، كما كانت كلٌّ من قبائل الذواودة، والأحرار، وسد ويكش، وبني تيغرين تُهيمن علىٰ ناحية لا تنالها في تصرُّفاتها أحكام الملوك، وقد تعرَّض كثيرٌ من الفقهاء لحالة بعض هذه القبائل، خصوصا صاحب: **(الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة)** بذِكر كثيرٍ من الأسئلة الواردة في حقِّ هذه القبائل وتمرُّدها علىٰ الحُكَّام، فقال: «وسُئل سيِّدي محمَّد العُقباني عن هؤلاء الأعراب المتغلِّبين علىٰ البلاد لضعف السَّلطنة، أحيانًا يكونون خُدَّاما للسُّلطان، وتارةً يكونون مخالفين علىٰ السُّلطان، كما يفعل عرب بلدنا، مثل **(بني عامر)** و**(سويد)**، يعمدُ أحدهم إلىٰ تولية قاضٍ في وطنه ـ(أي إقطاعه) ـ بلا أمر الإمام فيقضي، هل تصحُّ توليته، وتُنفَّذ أحكامه ؟ ... الخ».

وقال في موضع آخرَ: «... مع أنَّ أحكام السُّلطان أو نائبه لا تنالهم، بل تضعف عن مقاومتهم فضلا عن ردعهم، بل إنَّما يداريهم بالأُعطية والإنعام ببعض بلاد رعيَّته، ونصب عمَّالهم فيها، وقطع نظر عمل السَّلطنة عن النظر في جبايتها ... الخ».

هذه في الجملة **حالة بلاد (الجزائر)** آنذاك، نتجت عن انهيار دولة الموحِّدين

وتفكُّكها في أوائل القرن السَّابع، إثر (**ثورة بني غانية**)، بقايا اللَّمتونيِّين المرابطين، ثمَّ دبَّ الخلافُ والنِّزاع في صُفوف وُلَاةِ الموحِّدين أو مشايخهم ـ كما كانوا يُدْعون حينئذٍ ـ الذين تسابقوا إلىٰ وِراثة الدَّولة المركزيَّة، فكان كلٌّ منهم يرىٰ أنَّه الأحقّ بوِراثة تعاليم الإمام المعصوم، فاندلعت الحرب بينهم، و بقيت طيلة قرون.

كانت دولة (**بني زيان**) في تلمسان بحكم موقعها الجغرافي بين نارَين، تارةً تُحارب بني مرين ملوك (**المغرب**)، وتارة بني حفص ملوك (**تونس**)، وعلاوةً علىٰ هذه العوامل كلِّها طرأ عاملٌ آخر، وهو كارثة (**الأندلس**)، وسقوط مملكة (**غرناطة**)، فلجأ إلىٰ الجزائر سيلٌ عرمرم من المهاجرين الأندلسيِّين فحذروا السُّكان، وأطلعُوهم علىٰ جرائم الإسبان، وعلىٰ نواياهم نحو البلاد الإسلاميّة، إذ كانوا عازمين – لو حققت أمانيهم – أن يخلوا بلاد المغرب العربي من سكانها و يُعمرُوها بالمسيحيين.

كان من جملة اللاَّجئين إلىٰ (**وهران**) من الأندلسيِّين، الملك السَّابق لمملكة (**غرناطة**)[1] أبو عبد الله الزَّغل أمير (**مالقة**)، عمُّ آخر ملُوكها، المشهور عند الكُتَّاب الأوروبيِّين بـ (**بوعبدل**)، وقد انتقل من (**وهران**) إلىٰ (**تلمسان**)، حيث دُفن بها سنة تسع وتسعين وثمانمائة، وقد عُثر علىٰ شاهد قبره بـ (**تلمسان**)، كتِب عليه ما يلي:

قبر سلطان قد مات في حالة انجلائه — بتلمسان غريبا مهملا بين نسائه
بعد أن جاهد في الله جهد اعتنائه — حكم الدهر عليه قهرا حكم قضائه
وآتاه الله صبرا عند إنزال بلائه — فسقىٰ الله قبره دائما غيث سمائه

---

(1) **أبو عبد الله الزَّغل**: هذا هو المشهور بالمجاهد، قال المقرِّي في (**نفح الطِّيب**)، ج/ 2، ص: 614، المطبعة الأزهرية بمصر 1302هـ، يذكر حوادث (**غرناطة**) لسنة 895هـ: «و لَمَّا رأىٰ ذلك السُّلطان الزَّغل، وهو عبد الله محمَّد بن سعد، عمُّ سلطان (**غرناطة**)، بادر بالجواز لبرِّ (**العَدوة**)، فجاز لـ (**وهران**)، ثمَّ (**تلمسان**) واستقرَّ بها، و بها نسله إلىٰ الآن، يُعرَفون بـ (**بني الأندلس**)».

أما ابن أخيه الملك المخلوع آخر ملوك **(غرناطة)** فإنّه لجأ إلى **(المغرب)**، وتوفي بمدينة **(فاس)**، كما ذكر ذلك أحمد المقرِّي في **(نفح الطيِّب)**، وغلط كثيرٌ من المؤرخين خصوصًا المستشرقين ـ بعد اكتشاف[1] الشَّاهد المذكور بمدينة تلمسان إثر الاحتلال الفرنسي ـ فحسبوا أنَّ آخر ملوك **(غرناطة)** هو دفينُ **(تلمسان)** صاحبُ الشَّاهد.

لم يلق الإسبان مقاومة تُذكر عند احتلالهم للشواطئ الجزائرية، بل الأنكى أنَّ بعض أمراء تلمسان من **(بني زيان)** تسابقوا للاتصال بهم و عرضُوا عليهم خدماتهم، كان كثيرٌ من العلماء يتوقعون هُجوم الإسبان على الجزائر بعد سقوط **(غرناطة)**، واحتلالهم لبعض المدن المغربية، فأنذروا السُّكان وحذَّروهم من الخطر الذي يهدِّد البلاد، ومن هؤلاء: العالم الأديب **الشَّيخ محمَّد التّواتي** الذي خاطب سكَّان **(وهران)** بقصيدةٍ طويلةٍ، نقتطف منها هذه الأبيات، قال:

يا أهل وهران انظروا نظر شفقة ... لبلدتكم من قبل أن تتردتي
وقبل مجيء المنشآت ببحرها ... وأي قلوب عندها مستقرتي
ولا تكلوها غيركم ولئن يكن ... فما غائب مثل المقيم ببلدة

إلى أن يقول:

فلا تهملوا أمر الأعادي فإنهم ... بحال اجتماع واتفاق وشدة
وقد قطعوا قطعا فإن ظفروا بكم ... فقد ظفروا طرا بأهل الجزيرة
ولا يحمي مرساكم ضعاف رجالكم ... ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة
فإنَّ لهم بالطعن والضرب خبرة ... وكم فتكوا بالكفر أكبر فتكة

لما ظهر ضعف ملوك البلاد عن المقاومة واتِّصال بعض الأمراء بالعدو، اجتمع

---

(1) اكتشفه بروصلار (Brosselard)، نائب والي **(تلمسان)**، ثم والي **(وهران)** إثر الاحتلال، وقد نشر سلسلة مقالات عن الآثار العربيَّة بـ **(تلمسان)** في **(المجلَّة الإفريقية)**.

علماء الدين ونادوا بالجهاد والاعتماد على النَّفس وإحياء الرِّباطات، وكان عرُّوج وأخواه خير الدِّين، والإسكندر يجوبون البحر الأبيض المتوسّط، فينقلون اللاَّجئين الأندلسيِّين إلى شواطئ البلاد الإسلاميَّة، وكانوا كثيرًا ما ينزلون ببعض الشَّواطئ، مختفين يتصلون ببعض الشَّخصيَّات الدِّينيَّة، فمِن جُملة مَن اتَّصل بعرُّوج من هذه الشَّخصيَّات **الشيخ أحمد بن يوسف الرَّاشدي**(1)، دفينُ **(مليانة)**، الذي كان من ألدِّ أعداء الملوك الزيانيين، وحكمُوا عليه بالإعدام فصادف مرةً أنّه كان بقرية **(كرشتل)** ـ على شواطئ البحر، شرقي **(وهران)**، بينها وبين شاطئ **(أرزيو)** ـ وحوله مريدوه، فلمحه عرُّوج فقصده وحدَّثه بواسطة تُرجمانه، وقد ذكر هذه القصَّة **الشَّيخ علي بن الحاج موسى**(2) في **(ربح التِّجارة)** الذي ذكر فيه ترجمة الشَّيخ أحمد بن يوسف وكراماته التي منها هذه، وهي أن عرُّوج لمآ اجتمع بالشَّيخ قال له: «إنَّني أنوي أمرًا إن سهَّله الله فلا ننساك»، والذي يهمُّنا من هذه الرِّواية هو أنَّ عرُّوج كان يقصد بعض الشَّواطئ مختفيا، وكان يتَّصل بمن يتوسَّم فيهم الفائدة، وعلى كلِّ حال، فالأتراك لم ينسوا أحمد بن يوسف، فكانوا يعيِّنون على رأس ركب الحجِّ سنويًّا أحد أولاده، وقد بنوا له ضريحه ومسجده الحاليَين بـ **(مليانة)**، كما عيَّنوا أحد تلامذته نقيبا لأشراف **(الجزائر)**، وبقيَ أولاده يتوارثون هذه الخطَّة في عهد الأتراك، وهو **الشَّيخ محمَّد الشَّريف الزَّهار**، صاحب الضَّريح والمسجد بـ **(قصبة العاصمة)**.

كما اتَّصل بالأتراك من علماء **(الجزائر)** ورُؤسائها **الشَّيخ أحمد بن القاضي الزَّواوي**

---

(1) **أحمد بن يوسف الرَّاشدي**: قرأ بـ **(بجاية)** على **أحمد زرُّوق** البرنسي، و انتسب للوعظ والإرشاد بـ **(الرَّاشديَّة)**، توفي سنة 927 هـ.

(2) **علي بن الحاج موسى الجزائري** (1244 هـ / 1330 هـ): عالم محدِّث، له تأليف سمَّاه: **(ربح التِّجارة)**، في مناقب الشَّيخ **أحمد بن يوسف الرَّاشدي**، و توجد منه نسخة في (مكتبة ضريحه)، بـ **(مليانة)**.

صاحب (**جبل كوكو**)، واختلف كثيرٌ من المؤرِّخين في شخصيَّته وكيفيَّة اتِّصاله بالأتراك، فمنهم من ذهب إلى أنَّ **ابن القاضي** لمَّا رأى خطر الصليبيَّة كاتب الخلافة العثمانية، وهي التي أمرت **عرُّوج** وأَخَوَيْهِ بإجابة رغبته، ومنهم مَن قال: بأنَّه اتَّصل بهم هو وسالم بن التُّومي وسهَّلا عليهم احتلال العاصمة، ووقع ذلك بالفعل، ولا يبعد أنَّ اتِّصاله بهم كان من نوع اتِّصال **الشَّيخ أحمد بن يوسف** بهم، أمَّا شخصيته فالحقيقة أنَّه تولَّى قضاء (**بجاية**) ـ وقد عثرنا على وثيقة تُثبت ذلك ـ وبعد تزعُّمه لحركة المقاومة، اتَّخذ (**جبل كوكو**) مقرًّا لإمارته، كما ذهب المؤرِّخ **أبو راس النَّاصري** بأنَّ أبناءه استوطنوا (**مجاجة**) قرب (**الأصنام**).

ومنهم **الشَّيخ عبد الرَّحمـٰن بن عبد القادر المجاجي** صاحب التَّأليف الشَّهير في (**المغارسة**)، ثمَّ ترجم له ـ أي: **لأحمد بن القاضي**[1] ـ صاحب (**تعريف الخلف برجال السَّلف**)، فذكر أنَّه هو صاحب (**جذوة الاقتباس**)[2]، اشتبه عليه بِسَمِيِّهِ المغربي المشهور، وقد غلط، كما تَبِعه في هذه الغلطة كلُّ مَن نقل عنه، وقد ترجم **لأحمد ابن القاضي الزَّواوي** هذا، كثيرٌ من المؤرِّخين وأصحاب السِّير، وبالخصوص **ابن عَسْكَرٍ** في (**دوحة النَّاشر**) «قيل إنَّه من بقايا الحفصيِّين بـ (بجاية)»، كما خصَّه بالتَّرجمة كثيرٌ من

---

(1) قال صاحب (**دوحة النَّاشر**) بعد ما عرَّفه: «ولم يزل (رحمه الله تعالى) متابدا على سيرته النَّبوية إلى أن كان من أمره مع خير الدِّين التُّركماني ممَّا هو مشهور، و هو كان السبب في دخول التُّركماني لمدينة (**الجزائر**)، واستيلائهم عليها وعلى المغرب الأوسط إلى الآن، و قتلوه شهيدا (رحمه الله تعالى) في العشرة الثَّالثة والله أعلم»، قتل في معركة مع الأتراك بـ (**ثنية بني عائشة**)، سنة 933هـ/ الموافق 1527م.

(2) صاحب (**الجذوة**): هو أحمد بن محمَّد بن علي بن أبي العافية المكناسي، المعروف بابن القاضي الزَّناتي (960 هـ/ 1025م)، فلم تكن له صلة بـ (الجزائر) و لا بالعهد التُّركي، بل هو مغربي له عدَّة تآليف.

المستشرقين، إلاَّ أنَّهم لم يتوصَّلوا إلى نتيجة مقنعة، والحقيقة أنَّه بعد احتلال الأتراك لـ **(بجاية)** و**(العاصمة)**، اختلف معهم، ثمَّ صالحهم، ثمَّ حاربهم إلى أن مات في **(واقعة بثنيَّة بني عيشة)** ـ لخبر يطول ـ وخلفه أولاده وأقاربه، ومنهم مَن سمِّي باسمه، وكانوا في حالة حرب وسِلم مع الأتراك، ومع جيرانهم ومنافسيهم **(آل المقراني)** بـ **(مجَّانة)**، والذي يتلخَّص لنا مِن هذا، هو أنَّ الأتراك لم ينزلوا بـ **(الجزائر)** تلقائيا، بل جاءوها كمواطنين مسلمين ليشاركوا في الدِّفاع عنها، وينقذوها من خطر الصليبيِّين، ولهذا لقيهم كلُّ السُّكان بالتَّجلَّة والتَّرحيب، اللَّهمَّ إلاَّ بعض أمراء **(بني زيان)** وبعض رؤساء القبائل الذين كانوا يعتقدون أنَّ الأتراك يقرُّونهم على التَّصرُّف المطلق في إقطاعاتهم، كما كانوا زمن الملوك الضُّعفاء، فتبيَّن لهم أنَّ عرُّوج وأَخَوَيْهِ جنود جدِّيُّون يُقدِّرون الظُّروف الخطيرة التي كانت تجتازها البلاد، فصاروا يعاقبون ويردعون كلَّ مَن لم يتَّعظ بالأحداث، كـ **(أمير الجزائر)** السَّابق **سالم ابن التُّومي**، الذي قتله عرُّوج بيده، وأمراء **(بني زيان)** ملوك **(تلمسان)**، و**أحمد بن القاضي الزَّواوي**، وقد استغلَّ بعضُ الكتَّاب ـ خصوصًا الأوروبيين ـ قتل عرُّوج لأولئك الأمراء، الذين رمي بعضهم في صهريج، وشبَّهوه بملوك **(روما)** الذين كانوا يقدِّمون ضحاياهم إلى الوحوش، فيفترسونها على مرأى من المتفرِّجين.

ولنترك هنا الكلمة للمؤرِّخ **أبي راس** ليبيِّن لنا الدَّاعي لقتل عرُّوج أولئك الأمراء، وكذلك الظُّروف والمحلَّ الذي قُتل فيه عرُّوج، قال **أبو راس** في **(عجائب الأسفار)** يصفُ احتلال خير الدِّين لـ **(تلمسان)**: «... ولمَّا دخل **(تلمسان)** استعمل عليها أخاه عرُّوج، ثمَّ بعد منصرفه تعصَّب المسعود من ملوك **(بني زيان)** وهجموا على عرُّوج فأخرجوه عنهم، ثمَّ زحف إليهم بمن معه، وكان شديد البأس، فدخل **(تلمسان)** وقتل سبعة من المترشِّحين للملك، ونحو السِّتِّين من الأمراء، ولمَّا رأى المسعود ما وقع، ذهب إلى **(وهران)** واستنجد

بالملك الإسباني، فأرسل معه جنده إلى **(تلمسان)** يحاصر عرُّوج، فلمَّا طال أمر الحصار عليه، خرج بمن معه من الجيش والبطانة، فلحقوه بـ **(جبل بني موسى)**[1] وقتلوه ومن معه يوم عيد الفطر سنة خمس وثلاثين وتسعمائة».

وقد ذهب كثير من الكتَّاب إلى أنَّ عرُّوج استشهد في **(شعبة اللَّحم)**، بـ **(المالح)** ـ غربي مدينة **(عين تمُشَنْت)** ـ وهو خلاف الواقع، وقد أيَّد ما قاله المؤرِّخ **أبو راس** المؤرِّخ الفرنسي الشَّهير **بربريجر** (Berbrugger) في بحثه القيِّم الذي نشره في **(المجلَّة الإفريقيّة)** المؤرَّخة في أكتوبر 1859م، تحت عدد الجزء (19)، ترجم فيه بعض الوثائق الإسبانية تثبت أنَّ عرُّوج بعد حصار طويل في تلمسان التجأ مع عدد قليل من أنصاره إلى الانسحاب لبلاد **(المغرب)**، فلحقه كوكبة من الجيش الإسباني التي كانت تحاصره، فالتقى الجمعان، ودافع عرُّوج رغم قلَّة عدد أصحابه دفاع الأبطال إلى أن توفي بالمكان المذكور في **(جبل بني يزناس)**، بـ **(المغرب)** الشَّرقي.

هذه حالة بلاد **(الجزائر)**، ذكرناها مجملة بعد نزول الأتراك بها، أمّا **حالة المغرب** فإنّها كانت لا تختلف عَنْهَا بكثير، ولنكتف بما وصف به حالة المغرب إذاك العلّامة **أحمد بن القاضي** المشهور **بابن أبي محلِّي السِّجلماسي**[2] الذي ثار من جهته على الملوك السَّعديِّين، واحتلَّ **(سلجماسة)** ومدينة **(مراكش)**، ونادى هو الآخر بالجهاد، وبإحياء الرِّباطات التي كان دعا إليها قبله علماء آخرون مثل **الشَّيخ أبي عبد الله محمَّد بن أحمد العياشي السَّلاوي**.

قال **ابن القاضي** يصف حالة **(المغرب الأقصى)**: «وتزاحم الأمراء على طلب

---

(1) كان قاتل **عرُّوج** هو: قارصيا فيرنتديز دولابلاز (الفارس)، وقد قلَّده الملك شارل الخامس، لقب الأشراف بنفسه، **(المجلَّة الجزائرية)** 1873م، العدد: 17.

(2) L’Établissement des dynasties des chérifs au Maroc, 1509 – 1830, par auguste cour (Paris Leroux 1904) Basset.

الملك، وتهاونهم بالدفاع عن حمى الوطن، بل اتصل بعضهم بجيش الاحتلال، واعترف لهم بالسِّيادة على بعض الجهات المحتلة كمدينة العرائش ... الخ»، قال: «... وكلُّ مَن تغلَّب على جهة قليلة منهم، إنَّما يبايعه مَن لا بال له، أو مكرهٌ على بيعته خوفا من ظلمه، فسابت الأمَّة، وعمَّت البليَّة والغمَّة، وفاض الكفر، وغاض النَّصر، حتَّى أُخِذت السَّواحل، ولا مغيث لأهلها مع استغاثتهم بجُمُوع القبائل، وعطِّل فيها الأذان، وضرِب النَّاقوس في مساجدها، ونصبت الصُّلبان، وعبدت في محارب الله مِن دونه الأوثان، وكلُّ عالم بزعمه، أو صالح بوهمه، أو أمير بدعواه».

انتشرت الرِّباطات في شواطئ **(المغرب الأقصى)** و**(الجزائر)**، ووقع الاتِّصال بين رجال الرِّباطات، خصوصًا بعد إعلان ثورة **أحمد بن القاضي ابن أبي محلِّي**، فاتَّصل به وفدٌ من علماء ورؤساء القبائل بـ **(الجزائر)** كان على رأسه العلاَّمة الشَّهير **الشَّيخ سعيد قدُّورة**[1].

حفظ لنا التَّاريخ بعض وثائق لهذه الرِّباطات، منها: رباط **(تنس)** ورباط شواطئ **(تلمسان)**، فقد عُثر على وثيقة مُؤرَّخة سنة 954هـ بخطِّ **الشَّيخ عبد الرَّحمٰن اليعقوبي** صاحب المعهد الشَّهير باسمه إلى الآن، بنواحي **(ندرومة)**، عقد هذا العالم مؤتمرًا جمع فيه رؤساء قبائل **(أنقاد)** و**(بني سنوس)** و**(ترارة)** و**(مطغرة)** وبعض أعيان **(تلمسان)** لإحياء الرِّباطات، وهذه الوثيقة عبارةٌ عن عرض يتعهَّد فيه سكَّان القبائل المذكورة بإمداد الرِّباط بالرِّجال، والعتاد، والمؤونة ... الخ، وهذا المؤتمر شبيهٌ بمؤتمر **الشَّيخ أبي عبد الله محمَّد بن أحمد العياشي**، الزَّعيم المغربي الذي نادى بالجهاد، وقاوم البرتغال،

---

(1) عالم مؤلِّف، تولَّى الفتوى بـ **(الجامع الأعظم)** بـ **(الجزائر)**، وتخرَّج عليه كثير من فحول العلماء، كيحيى الشَّاوي، وأبي مهدي عيسى الثَّعالبي، وابن سليمان الرُّوداني السُّوسي، صاحب **(الفهرس)** الشَّهير في العالم الإسلامي، توفي سعيد قدُّورة بـ **(الجزائر)** حوالي: 1066هـ.

وجمع هو الآخر أعيان (**المغرب**) و زعماءه فبايعوه، وقد بيّن لنا المؤرخ النّاصري في كتاب (**الاستقصاء**) بيانا ضافيا هذا المؤتمر حيث قال: «وقدَّموه ـ أي: العياشي ـ علىٰ أنفسهم، والتزموا طاعته، وإنَّ أيَّ قبيلة خرجت عن أمره كانوا معه يدا واحدة علىٰ مُقاتلتها حتَّىٰ تفيء إلىٰ أمر الله، فأعطوا بذلك خطوطهم في ظهير، وأنّهم رَضُوه وقدَّموه علىٰ أنفسهم، ووافق علىٰ ذلك قضاةُ الوقت وفُقهاؤُه من (**تامسنا**) إلىٰ (**تازا**)، وكان الحامل له علىٰ طلب ذلك منهم أنَّه بلغه عن بعض طلبة الوقت أنَّه قال: لا يحلُّ الجهاد إلاَّ مع الأمير، ففعل ذلك خروجًا عن تلك الدَّعوىٰ الواهية».

كان خطر الحملة الصليبيَّة في كُلٍّ من (**المغرب**) و(**الجزائر**) اللَّذين تقاعس ملوكهما عن الدِّفاع، سببا في توحيد صفوف السُّكان، والتفافهم نحو زعمائهم المختارين، ولم يكتفوا باختيار الزُّعماء ومبايعتهم، بل صاروا دعاةً لجمع كلمة الزُّعماء أنفسهم، منذرين لهم بالخطر الذي يهدِّد البلدين، وأنَّ (**الجزائر**) و(**المغرب**) مرتبطتان بالأحداث، وأنَّه إذا قدِّر للعدوِّ احتلال إحداهما فسيتَّخذها مطيَّة إلىٰ احتلال الأخرىٰ، والذي يُثبت ما ذكرناه بصفة جليَّة، هو كتابٌ وجَّهه علماء البلاد إلىٰ الزَّعيم الدِّيني (**محمَّد بن أبي بكر الدَّلائي**) الذي كان حاضرًا للمؤتمر الذي وقعت فيه مبايعة **العياشي**، إلاَّ أنَّ العلائق السِّريَّة كانت بينهما غير مرضيَّة، فكاتبه الجماعة بكتاب طويلٍ هامٍّ في الموضوع، افتتحوه ببعض الأبيات، ومن جملة ما قالوه فيه من ارتباط البلدين (**المغرب**) و(**الجزائر**)، هذا: «والله الله سيدي في جعل إنقاذ هذا الغرب في صحيفة أعمالكم، والاعتناء بتطهيره من نجاسة الكفر من خيار أموالكم، وشمِّروا سيدي عن ساعد الاجتهاد، و أذِّنوا في النَّاس بالجهاد، واغتنموا الفرصة في أوقاتها، وبادروها قبل فواتها، ما دامت كلمتكما مسموعة، ـ أي: هو و العياشي ـ وآراء الأعيان إلىٰ آرائكما مجموعة، فلو غِبتُما عنَّا لعظم الأمر وهال، ووجبت الهجرة و التِّرحال، ولم يبق في المغرب مسلمٌ إلاَّ وقد دخل للكفر تحت الذِّمام، وجعل في عنقه زمام الدُّجن وبيس الزِّمام، وسلك هذا العدوُّ هذا القطر

إلى (**تلمسان**)، و كيف لا وقد رأينا ذلك بالعيان»[1].

كان لهذه الاتِّصالات بين نخبة سكَّان البلدَين وإحداث الرِّباطات، والاعتماد على النَّفس بدلًا من الاعتماد على الملوك والأمراء المتقاعسين، ثمَّ اتِّصال خير الدِّين بالخلافة العثمانية، وانضوائه تحت لوائِها، وتعيينه مِن طرف الخليفة العثماني باشا على (**الجزائر**)، كان لهذا كلِّه أثره الفعَّال، فتوحَّدت البلاد لأوَّل مرَّة في تاريخها، ونظِّمت الإدارة والجيش، وأحسَّ رؤساء القبائل بتغيير الأحوال، وأنَّ المسيِّرين لـ (**الجزائر**) رجال أكفاء أقوياء، ذوو جدٍّ وحزم، كما كان مصير سالم بن التُّومي بالعاصمة، و**أحمد بن القاضي** وأمراء (**تلمسان**) من بني زيان وغيرهم، درسًا عمليًّا قاسيا، يقرأُ له السُّكان ألف حساب، ومن جهة أخرى فإنَّ الهزائم التي تتابعت على الجيش الإسباني خفَّفت من نشوة انتصاراته الأولى، فتلاشت أحلامه، وصار رابضًا في مراكزه، محاصَرا في مراسيه، قُطع عنه التموين بَرًّا في جميع مراسيه فصار يستوردها بحرًا، إلاَّ أنَّ الأسطول الإسلامي كان بدوره يهيمن على البحر الأبيض المتوسّط، وغاراته متواصلة على شواطئ (**إسبانيا**) و(**إيطاليا**)، وغنائمه من أساطيل العدوِّ تعدُّ بالآلاف، حتَّى أصبح الملك شارلكان الذي كانت مملكته هو الآخر واسعة الأطراف بالبحر الأبيض، إذ كانت تضمُّ قسما من (**إيطاليا**) و(**صقلِّية**)، كان يصعب عليه الانتقال إليها، فتولَّى إذاك تجهيز الأساطيل لغزو العاصمة، فجهَّز أسطولا تحت قيادة: (**ديبقو دو فيرا**) (Diégo De Vera) سنة 922هـ فقاومه عرُّوج وهزمه.

ثمَّ أعاد الكرَّة مرَّة ثانية وجهَّز أسطولًا تحت قيادة (**هيقو دو منكاد**) (Hugo De

---

(1) من (مخطوط) للعالم أحمد بن يحيي بن أحمد بن سليمان الفشتالي، يقول في عنوانه: كتبه بعض أعيان (**المغرب**) إلى الزَّعيم أبي عبد الله محمَّد بن أبي بكر الدَّلائي.

Moncade) نائب ملك (**صقلِّية**) سنة 925هـ فلم يُفلح، وكان سبق لهذا القائد المعجَب بنفسه أنَّه كاتب خير الدِّين قبل المعركة، آمرًا له بالاستسلام، وإلاَّ فسيكون مصيره مصير أخوَيه (**عرُّوج والإسكندر**) المستشهِدَين بـ (**قلعة بني راشد**)، فأجابه خير الدِّين بأنَّه يترك الحكم للسَّيف، وكان السَّيف في صالح خير الدِّين، ثمَّ جهَّز الملك شارلكان أسطولًا بنفسه بعد احتلاله لـ (**تونس**)، واختار الظُّروف المناسبة، فاغتنم فرصة غَيبة خير الدِّين، الذي عيَّنه الخليفة قائدًا لأسطول الخلافة، فهُزم شرَّ هزيمة وذلك سنة 948هـ، وقد خصَّص كثيرٌ مِن المؤلِّفين مسلمين وغيرهم لهذه الهزائم التَّآليف العديدة فلا حاجة إلى إعادتها، وإنَّما لا يفوتُنا أن نذكر أنَّ شارلكان في انسحابه وصل إلى (**بجاية**) بعد أن أشرف على الهلاك، فرأى الكثير من الأهالي بلباسهم القومي داخل (**بجاية**) فامتعض لذلك، وسأل عن السَّبب، إذ كان الإسبانيُّون لا يسمحون للمسلمين حتَّى المتعاونين معهم بالدُّخول إلى مدنهم المحتلَّة، وإن لزم الأمر، كأصحاب قوافل الحبوب، فيُغمضون عيونهم، فأخبروه أنَّ هؤلاء ليسوا بمسلمين، وإنَّما هم اليهود المطرُودون من (**الأندلس**)، وكان ملك (**بجاية**) آواهم وأسكنهم في البلاد، ولمَّا كانوا يحسنون اللُّغة العربيَّة عرضوا خدماتهم على الإسبانيِّين ليتجسَّسوا لهم، ويطلِعوهم على أحوال البلاد، فاستعملوهم لذلك، فأمرهم شارلكان بطردهم فورًا، وقال كلمته المشهورة في وصفهم: «إنَّنا لهذه الصِّفة الذَّميمة ـ وهي الخديعة المتأصِّلة فيهم ـ طردناهم، وقد آواهم هؤلاء النَّاس وبدَّلوا خوفهم أمنا، فكان الجزاء الخِداع، ولم يُراعوا فيهم إلاًّ ولا ذِمَّة، فركنوا إليكم».

أخرج **شارلكان** اليهودَ بعد أن جرَّدهم مِن جميع أملاكِهم، وأمر بإحراقِ كتبهِم المقدَّسة زيادةً في النِّكاية [1]، إلاَّ أنَّ المعركة الحاسمة التي قلبت الأوضاع وقضت على أحلام (**إسبانيا**)، معركة الكنت داكادوت (Le Comte d'Alcadante) والي (**وهران**)

---

(1) فيرو (Ferraud): (**تاريخ بجاية**)، وكاهن (Cahen): (**اليهود في إفريقيَّة**).

من سنة 1534م إلى 1558م، فإنّه كان صديقًا حميما للملك شارلكان ورفيقه عند احتلاله لـ **(تونس)** وهجومه على الجزائر، وهو أوَّل وال إسباني بوهران جمع بين السُّلطتين المدنيَّة والعسكريَّة، وقد ضاق ذرعًا بمرسى مستغانم فحاول مرَّتين الاستيلاء عليها، وذلك في سنة 949هـ ثم في سنة 952هـ وباء بالفشل.

وفي المرَّة الثَّالثة استعدَّ لها أحسن استعداد فذهب بنفسه لـ **(قرطاجنة)**، واختار الجيش الذي كان معظمه من نخبة الفرسان، وخانه الحظّ في هذه المرَّة أيضًا، وكانت الهزيمة الشَّنعاء التي ما زال الكتَّاب يخصُّونها بالتَّآليف ويتساءلون عن أسبابها، وإنَّ من حظِّ التَّاريخ الجزائري أنَّ أحد قُوَّاد الجيش الجزائري سجَّل هذه المعركة التي شارك فيها، وخاض غمارها في **(ملحمة)** شعبيَّة خلَّدت الشَّاعر المجاهد الذي ما زال أهل تلك النَّاحية يُحيون ذكراه سنويًّا، و ينشدون قصائده التي أكثرها أمداح نبويَّة، وفي هذه الأسابيع دشِّن مسجدٌ بقرب ضريح هذا الشَّاعر، ثمَّ إنَّ هذه الملحمة أو المنظومة تمتاز بخلوها من مبالغات الشُّعراء، حيث إنَّها تتَّفق تمامًا مع أحداث الوثائق الإسبانية المترجمة.

دامت المعركة ثلاثة أيَّام، خسر فيها الإسبان تسعة عشر ألفًا بين قتيل وأسير من بينهم خمسون ضابطًا، ومات في المعركة قائد الحملة الوالي **(الكونت دالكادوت)**، وإنَّنا رأينا أن نقتطِف بعض الأبيات من هذه المنظومة، وإن كانت باللُّغة الدَّارجة، وإن كان هذا النَّوع من التَّقديم لا يسمح بتتبُّع الأحداث، وذِكرها بالتَّفصيل، رأينا ذلك لنُلفتَ نظر القرَّاء إلى الشِّعر الشَّعبي في بلادنا الذي يمتاز بأنَّه سِجلٌّ هامٌّ لتاريخ البلاد وجُغرافيته، وإنَّ سكَّان بلادنا رغم الهموم التي اجتازوها، والمحاولات التي بذل فيها أصحابها الجهود لقطع صلته بماضيه، بقيَ محافظًا على تُراثه، مشجِّعا لهذا النَّوع من الشِّعر الذي كان حُفَّاظه يُنشدونه في الولائم والحفلات، مبجلين محترمين، ولو اندسَّ

فيهم بعد الحرب العالمية الأولى دُخلاء لم يصونوا أعراضهم، إلاَّ أنَّهم مع هذا كلِّه لم يعدموا أنصارًا و مشجِّعين ماديًّا وأدبيًّا، كان لهم الفضل في هذه البقيَّة.

تعرَّض شاعرنا **الشَّيخ الأكحل بن خلوف** الشَّهير **بالأخضر**، وهو دفين **(مزيلة)** ـ شرقَي **(مستغانم)** بنحو: (60) كلم ـ للمعركة بتفصيلٍ، فأوفى لها حقَّها وبيَّن الطَّريق التي سلكها **(باشا الجزائر)** الأمير **حسن** عند خروجه من العاصمة في طريقه إلى **(مستغانم)**، ثمَّ بيَّن القبائل التي شاركت في هذه المعركة وانضمت للباشا، ومنها قبائل **(سوَيد)** التي انتصر بعضُ أفرادها للإسبان، كما سنبيِّن ذلك في هذه المقدِّمة، ثمَّ بيَّن شاعرنا الصِّبغة الدِّينيَّة التي اكتستها هذه المعركة، وبالتَّالي فإنَّ الانتصار فيها يعدُّ أخذًا لثأر **(غرناطة)** وانتقاما لها.

قال الشَّاعر:

يـا سـايلني عـن طـراد الـرُّوم   قصـــة مزغـــران معلومـــة
يـــا ســايلني كيــف ذا القصَّـــة   مـا بـين النصـراني وخـير الـدِّين

إلى أن يقول:

قواوا الجـيش أوجـاوا معتمـدين   اجتمعـــوا في بـــرهم الأقصـــى
صـــبحوا في المنـــا أعـــداء الـــدين   تـــرى ســـفون الـــرُّوم محترصـــة
وانجلـــوا مـــن فـــوق وجـــه المـــا   خرجوا لـك للـبرّ خـرج الشُّــوم

و يقول:

ارفـــع رأســـك يـــا عـــلي المفهـــوم   يـــا ســـيد الحســـنين وفطيمـــة
شـــوف ابلادنـــا كيـــف راهـــا اليـــوم   تســـبيها الكفـــار الظالمـــة

قصَّـــة مزغـــران معلومـــة

وهنا يذكر الشَّاعر الطَّريق التي مرَّ عليها الجيش الإسباني بعد خروجه من **(وهران)** في طريقه إلى **(مستغانم)**، فخالف الطَّريق المعتاد حتَّى لا يلفِت النَّظر، وقصد جبال **(تاسالة)** حيث تعوَّد الجيش الإسباني الخروج إليها للمناورات العسكريَّة، وهذه المكيدة لم تفُت عيون الجيش التُّركي من سكَّان البلاد، الذين كانوا يتتبَّعون العدوَّ في حركاته وسكناته، فأرسلوا مَن يُخبِر الباشا **حسن** بالعاصمة، وإلى هذا أشار الشَّاعر بقوله:

اَرْكَبْ فارس اسبق ودنا بالتَّعريف ايبشَّر السُّلطان

البارح يقول جات الرُّوم يا فرساني غاولوا أنتما

ثمَّ يذكر كيف استجاب حسن باشا للإنذار وجهَّز جيشه، وبعد أن جال الباشا بجنوده في العاصمة، وزار معاهدها وأضرحتها على العادة المتَّبعة إذاك، خرج متوجِّها إلى **(مستغانم)**:

ظلّ يسير بعساكره والقوم في وطن متيجة أولج الما

في أمره جات العرب أطموم سلطان عادل طاعته الأمة

قصَّة مزغران معلومة

طبله عند الشفا نقر واعلامات النصر منشورة

جات أخيول إفريقية تنجر وافراسين الحرب مذكورة

من لا ضره الله لا ينضر لو طاحت الأرقاب منصورة

في زكار أمقيم كم من يوم لين جاته قيادها ورمات

أخضا الواد الشايع المعلوم فيه اضلان اسويد ملمومة

جاوا اشيوخ سويد للسلطان وفيهم أبو بكر ومحمد

قالوا للأمير لا تليان لا دين إلا دين محمد

استشرح سلطاننا وازيان جاتوا القوم زاهية ترعد

ثمَّ يذكر القبائل التي أرسلت جيشها للمشاركة في هذه المعركة فيقول:

مـن بنـي راشـد[1] و آل سـويد[2]   وأفراسـين الـنطح عبـد الـواد[4]
يـا مغـراوة[3] اتحزمـوا للكيـد   مـنكم خلقـت اسـلاطنا وأجـواد
يـا تيجـان الحـرب لـيس بعيـد   مـن مـات سـكن جنـة الميعـاد

ثم يذكر الشَّاعر ذعر الجيش الإسباني وقُوَّاده عندما أُنبِئوا بلحاق جيش الباشا، وكيف بدأت المعركة، وقوّاد جيش العدوِّ الذين ماتوا في المعركة واحدًا واحدًا، وكثيرا ما يذكر جُملا ومفردات بالإسبانية على سبيل التَّهكُّم والاستهزاء، قال في عدد الأسرى والقتلى:

حزنـاهم للسُّـور ذاك اليـوم   تسـعة آلاف أبقـات مغنومـة
من حيط الـدَّشرة لحـوض الـدُّوم   عشـرة آلاف امشـات محطومـة

ثمَّ يذكر موت قائد الجيش (**الكُنت دالكادوت**)، فيقول:

طل على الفرطـاس يـوم أن مـات   في المغـرب أهـل الخـزي ردمـوه
احلـف لهـم سـلطاننا باثبـات   شـيب النـار مـن الثـرى جبـدوه
احتفظـوا بالفـاس والمسـحات   لحقـوا بـه مـن الثـرى جبـدوه

(1) **بنو راشد**: و يقال لهم: أهل الرَّاشديَّة، نواحي(**معسكر**) و(**قلعة بني راشد**)، ويُسمون اليوم بـ(**غريس**).

(2) **آل سويد**: هم أهل قبيلة (**سويد**)، تحدَّثنا عنها في هذا التَّقديم.

(3) **مغراوة**: قبيلة عتيدة كانت تحكم أوَّل الفتح الإسلامي ما بين (**مليانة**) و(**تلمسان**)، وكان مقرُّها (**شلف**)، وقد حكم بعض أمرائها (**المغرب**) و(**ليبيا**)، وقضى على إمارتهم الأولى بلكين، إذ كانوا أحلافا لبني مروان.

(4) **عبد الواد**: قبيلة صغيرة قرب (**قلعة بني راشد**)، ولعلَّها من بقايا **بني عبد الواد** (**ملوك تلمسان**).

ثمَّ يختم قصيدته بقوله:

الأمـــير حســـن يـــوم مزغـــران   اخلـف الثـأر مـن العـدو تحقيـق

تــرىٰ البهجــة روضــة البلــدان   غرنـــاوط إلىٰ امســـات حريـــق

وهنا نُلفت نظر القرَّاء مرَّة ثانية إلىٰ أنَّ الجزائريِّين لم يهمِلوا قضيَّة **(الأندلس)**، بل هذا شَاعرٌ له مكانته في البلاد، ويمثِّل بحقٍّ رأيها العام الذي لم ينس مأساة **(الأندلس)** ويرىٰ في هذا الانتصار أخذاً لثأرها ومحوًا لآثار عدوان الإسبان، وعلىٰ ذِكر موقف الجزائريِّين مع الأندلسيِّين خُصوصًا اللاَّجئين منهم إلىٰ شواطئ البلاد فقد وقعت لبعضهم حوادث مُؤلمة استغلَّها كثيرٌ من الكتَّاب وعمَّموا تهمهم للبلاد كلِّها، فذكروا أنَّ مصير اللاَّجئين الأندلسيِّين ببعض شواطئ **(الجزائر)** كان نصيبهم القتل والنَّهب، وبالفعل وقع ذلك لبعض اللاَّجئين سنة 1018هـ أي بعد سقوط **(غرناطة)** بما يزيد علىٰ القرن، وهو الجلاء الأخير، وقد ذكر ذلك المؤرِّخ **أبو راس النَّاصري** في **(عجائب الأسفار)**، فقال: «... مات الشَّيخ **محمَّد أقدار التُّوجيني** (دفين أرض مينا) **قرب (البطحاء)** سنة خمس وستِّين وألف (1065هـ) لكونه حرَّض **الشَّيخ امْحيدة العبد** أن يغزو بـ **(سويد)** علىٰ (هبرة) بين **(المحمَّديَّة وسيق)** لما فعلوه بالمسلمين الخارجين من **(غرناطة)** إلىٰ **(مرسى أرزيو)** لمَّاَ غلب عليهم **(قشتالة)**، حتَّىٰ إنَّهم كانوا يبقرون بطونهم لما يظنُّون مِن ابتلاع نحو جوهر، فأتاه **امْحيدة** المذكور مِن الرسو بجنود عظيمة يوم الجمعة، ووافق ذلك ختمه **(صحيح البخاري)**، ثمَّ ساروا ولقيتهم جموع **(هبرة)** فانهزموا وركبت **(سويد)** أكتافهم فقتلوهم كيف شاؤوا، وفي ذلك يقول شاعرهم [1]:

جينـــا يـــا ربِّ بـــين النَّـــار والنَّـــار   بين انصارت دوك وانصارت قدار[2]

---

(1) يقصد بـ **(نصارة دوك)**: أسبان (وهران)، الذين كانوا يغزونهم المرَّة بعد المرَّة.

(2) **(انصارت قدار)**: سويد.

ميتــين وعشــرين قعــدت في مشــوار   دوَّار مـــن المـــلاح مـــا عـــزىٰ دوَّار
المـــوت مـــن الإلـــه وأســـبابه قـــدار   لابـــد للحـــي يتفكـــر الأحـــرار

وفي هذه الرِّواية ما يكفي لردِّ جميع التُّهم التي ألصقت بـ (**الجزائر**) منذ قرون، وما زال المتأخِّرون يردِّدونها في كلِّ مناسبة تدعوهم إلىٰ الكتابة، أو الحديث عن مصير المهاجرين الأندلسيِّين لشواطئ (**المغرب**)، وقد رأينا أنَّ هذا العالِم المرابط لنشر العلم والدِّين، لم يكتف بتغيير المنكر بلسانه وقلبه فقط، بل غيَّره بيده واستعان علىٰ ذلك برئيس القبيلة العتيدة، وفي هذه الرِّواية أيضًا ما نستدلُّ به علىٰ أنَّ (**صحيح البخاري**) كان يدرس في (**الجزائر**) في القُرىٰ النَّائية، فضلًا عن المدن، إذ ذهب كثيرٌ من المعاصرين أنَّ طيلة قرون الاحتلال التُّركي لم يكن يدرس بـ (**الجزائر**) إلاَّ (**مختصر خليل**).

ولنرجع إلىٰ الحديث عن (**واقعة دالكادوت**)، فنجد أنَّ كثيرًا من المؤرِّخين الفرنسيِّين والإسبانيِّين اعتنَوا بها، وما زال الكثير منهم إلىٰ زماننا هذا، يبحث عن أسباب الهزيمة، ومعظم الوثائق الإسبانية المنشورة تتَّفق مع (**أرجوزة**) شاعرنا، سواءٌ في أيَّام المعركة، وعدد الأسرىٰ والقتلىٰ، وموت قائد الحملة، ونبشه من التُّراب بأمر الباشا **حسن**، ثمَّ إرسال جثَّته إلىٰ (**وهران**) لولده، ففدوها بفداءٍ عظيم، ودفنوها بـ: كنيسة: **سانت دومنيك** (St Dominique)، ومن هؤلاء المؤرِّخَين الإسبانيَّين: **هايدو** (Haido)، و(**ديبقو سياريز**) (Diego Suarez)، والمؤرِّخان الفرنسيان: **بول ريف** (Paul Ruf)، و**الجنرال دِيدْيِي** (Didier) وقعت هذه المعركة سنة 965 هـ وقد أرَّخها بعض الأدباء الجزائريِّين، فقال:

فــتح خـــير الـــدِّين مزغرانـــا   مرتجيـــا لفتحـــه وهرانـــا
في (يـــه) قعـــدة زوال الجُمُعَـــه   ســـنة (هـــر) فصِـــخْ فاسْـــتَمِعَهْ
وهـــذه القصـــة عنـــد النَّـــاس   مشـــهورة بقصَّـــة الفرطـــاس

و(**الفرطاس**) هو لقب (**الكنت دالكادوت**)، كما ذكر ذلك الجنرال (**ديدي**)[1] أيضًا في تاريخه لـ (**وهران**)، قال: «إنَّ المسلمين كانوا يلقِّبون دالكادوت بالفرطاس»، كما ذهب كثيرٌ من المؤرِّخين الإسبانيِّين منهم: **ديبقو كريزادو** (Diego Cruzado)، وديقو **سياريز** (Diego Suarez)، و**بدو موراليس** (B. de Moralès) على أنَّ الباشا **حسن** لو تتبع هجومه بعد هزيمة (**دالكادوت**) لاحتلَّ (**وهران**) بغاية السُّهولة، (**تاريخ الجنرال ديدي**).

« La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d'alcadaute» Paul Ruff 1534 – 1558 (Paris leroux 1900)

لم نتعرَّض لكثيرٍ من المعارك التي سبقت هذه، خصوصًا التي قادها الملك (**شارلكان**)، **إذ تعرَّض** للكثير منها بعضُ المؤرِّخين الجزائريِّين إجمالًا وتفصيلًا، كصاحب (**الثّغر الجماني**) موضوع هذا التَّقديم، ومحمَّد بن الجيلاني بن رقيَّة التِّلمساني، صاحب (**الزَّهرة النَّائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة**)[2].

والخلاصة أنَّ الإسبانيين ـ ولو دام احتلالهم لـ (**وهران**) ما يقرب من ثلاثة قرون ـ كان هذا الاحتلال وبالًا عليهم، فقد كلَّفهم مصاريف باهضة وضحايا، كما جرَّ عليهم فساد السُّمعة وتشتيت الشَّمل، وقد أيَّد هذه النَّظريَّة الكتَّاب الإسبانيُّون أنفسهم، كالوالي **فاليجو** (Vallejo)، فقد ذكر في (**يومياته**) أنَّ دعوة المحتلِّين الصليبيَّة كانت تخفي الجشع والطَّمع، وشبَّه غاراتهم على القرى الآمنة بغارات (**التَّتار**) على (**بولوندا**) أو غيرها إذاك من الدُّوَيلات الشَّرقيَّة، وإنَّ أهمَّ ما كانوا يحصلون عليه في هذه

---

(1) **تاريخ الجنرال ديدي عن وهران**: الجزء السَّادس، طبع: بتي (Petit) وهران 1929م.

(2) **الزَّهرة النَّائرة** هذه، ألَّفها محمَّد بن محمَّد بن عبد الرَّحمـٰن بن الجيلاني بن رقيَّة التِّلمساني، ألَّفها سنة 1189هـ الموافق لـ 1775م، سجَّل فيها الهجومات التي توالت على (**الجزائر**) بعد احتلال الأتراك لها، وبالخصوص هجوم (d'oreilly) سنة 1189هـ وذكرها بالتَّفصيل، لأنَّه كان شاهد عيان، وأتمَّ تأليفه سنة 1194هـ

الغارات، اختطاف السُّكان من رجال ونساء وصبيان، ثمَّ الحبوب والأنعام، فالصِّبيان كانوا يرسلونهم للتَّنصير، وأمَّا الرِّجال والنِّساء فكان لقائد الجيش الأعلىٰ بـ (**وهران**) الحقّ في اختيار رجل وامرأة، والباقي يُقَسَّمُ بين الضُّباط والجنود والموظفين، أو يباعون في أسواق إسبانيا بأثمان مرتفعة، وكانوا في أوَّل الأمر يحاولون تنصير الجميع، إلاَّ أنَّهم لم ينجحوا، وقد أحصىٰ (Vallejo) **فاليجو** أنَّ ثلاثين شخصًا كانوا يتنصَّرون سنويًّا، إلاَّ أنَّهم لم يخلص منهم في التَّنصُّر إلاَّ الصِّبيان.

وقد ذكر الرَّحَّالة أبو زيد عبد الرَّحمـٰن الجامعي الفاسي، في شرحه علىٰ (**أرجوزة الحلفاوي**) أنَّه لماَّ زار (**الجزائر**) حوالي سنة 1119هـ وشارك وفود المهنِّين لفتح (**وهران**) علىٰ يد بكداش باشا، قال: «كنتُ وفدت علىٰ العالم العلّامة الراوية النقاد منهل العلم الأصفىٰ **أبي عبد الله** سيدي **محمَّد المصطفى الرَّماصي**[1] فوجدته يسكن بأهله بيوت الشَّعر قرب غابة في رأس جبل يأوي إليهم ليلا ويظلُّ بالنَّهار في داره ومسجده يطالع كتبه ويُقرئ طلبته، فسألته عن ذلك فقال: «كنَّا علىٰ هذه الحالة علىٰ عهد الإسبانيِّين خوفًا منهم، فإنّنا كنَّا لا نأمن في الدُّور من أن يصكونا ليلًا، فخرجنا لبيوت الشَّعر ليسهل علينا الفرار لغابة الجبل».

وكانوا يستعملون بعض المتعاونين معهم لاختطاف الصِّبيان، فيرسلونهم للقرىٰ في زيِّ التُّجار الدواسين، وبعد الفتح الأوَّل أُثيرت هذه القضيَّة وحُوكم أصحابها فيمن

---

(1) **محمَّد المصطفى**: فقيه حافظ، له (**حاشية**) مشهورة علىٰ التَّتائي، وهي التي اعتمدها الدَّردير شارح (**المختصر**)، وقال: «إنَّ صاحبها من المحقِّقين، فهي تغني عن غيرها»، روىٰ ذلك **محمَّد بن علي السَّنوسي** (دفين ليبيا)، كما ذكر الفقيه **الحجوي المغربي** في تأليفه: (**الفكر السَّامي**)، وقال: « إنَّ كثيرا من علماء المغرب اعتمدوا هذه (**الحاشية**)، كمحمَّد بن الحسن بناني»، كان معهده في مسقط رأسه (رمَّاصة).

حُوكموا مع المتعاونين، وقد أفردها العالم الشَّيخ **عبد القادر بن عبد الله المشرفي** بتأليف خاصٍّ سمَّاه: (**بهجة النَّاظر في أخبار الدَّاخلين تحت ولاية الإسبانيِّين من الأعراب كبني عامر**)، ذكر فيه موبقات هؤلاء المتعاونين، ثمَّ تعرَّض بتفصيلٍ لأصولهم وفصولهم ومواطنهم، وحكم الله فيهم، ولخَّص موضوع التَّأليف في هذه الجمل: «... إنَّ هؤلاء الفرق الثَّمانية الضَّالة، وهم: كرشتل، وشافع، وحميان، وغمرة، وقيزة، وأولاد عبد الله، وأولاد علي، والونازرة، لماَّ اجتمعوا عند الإسبانيِّين وصاروا على كلمة واحدة في الدفع والجلب، اشتدَّ بهم عضُد النَّصارى، وقويت شوكتهم، وكثُر بأسهم على المسلمين، إلى أن صار وطاء (**سيرات**) و(**ملاته**) من جملة مسارح ومزارع العدوِّ، وليس للمسلمين فيه مطمع إلاَّ من لاج في حزبهم، وصار من رعيتهم، ودخل في حمايتهم، وأدَّى لهم الجباية، وكان مُعينا لهم على مُرادهم، وصاروا يتجسَّسون لهم الأخبار على المسلمين في السَّهل والأوعار، حتَّى إذا تعيَّنوا له يصكُّهم بخيله ورجله وهم معه، فيقتل ويأسر ويسبي ويفعل ما أراد الله بفعله، واشتدَّ غزوه بهؤلاء الفِرق الضَّالة، التي رغبت في عرضه الفاني رقيق الدِّين منهم والجاني، فانتهكوا حُرمة الإسلام غاية الانتهاك، وصاروا لقنص أهل الإسلام حبائل و أشراك، فكانوا عيون العدوِّ الذي يتطَّلع بهم على عورات المسلمين، وأعوانه الذين يشنُّ بهم الغارات على الأبعدين.

وهذا فِعل الأعداء المرتَّدين، حيث جسَّروا العدوَّ بخيلهم ورجلهم على اقتحام حلل المسلمين ودُورهم كلِّهم، وانتهاك حريمهم وانتهاز الفرصة فيهم، والعجيب العظيم منهم أنَّهم مع هذا التَّلاعب بالأديان، وموالاة الكافرين لهم بالخدمة والنَّصيحة والمبايعة لهم على الطَّاعة والإذعان، والإعانة لهم في أمورهم وتقوية سوادهم والاستضاءة بنارهم وموادَّتهم لهم بالإحسان كانوا يعتقدون أنَّهم على الإسلام وصحيح الإيمان، وأنَّهم في رحمة الله خالـدون، ولم يقرؤوا قوله تعـالى في المائدة: ﴿ وَلَوۡ

كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (المائدة: 81)، إلى أن يقول على هذه الفِرق: «انقسموا على ثلاثة فرق:

1) ففرقةٌ منهم لجأت لحصن العدوِّ، وصارت تُقاتل معه وتدافع بجهدها عنه، والحكم في هذه الفِرقة إباحة مالها ودم رجالها والبالغين من ذَرارِيها لمن ظفر بهم من المسلمين لكونها ردأ، وأمَّا الصِّغار من الأولاد فلا يُقتلون ولا يكونون فيئًا للمسلمين، وقد ذهب بعض (**الونازرة**) مع الإسبانيِّين بعد الفتح لعَدوتِهم، واستقرَّ بـ (**سبتة**) فهو بها للآن.
2) وفرقةٌ لجأت للمسلمين، وصارت تُقاتل معهم العدوَّ، غير أنَّها في الخفية تعلمه بأحوال المسلمين ـ وتأمره بالثَّبات ـ وتُواعده بالرُّجوع عنده إذا وجدت السَّبيل، والحكم فيها أنَّها فرقةُ الزَّنادقة يقتل كلٌّ من اطّلع عليه منها، وإلاَّ فأمره إلى الله سبحانه وتعالى.
3) وفرقةٌ منهم تابت لله تعالى، وأنابت من موالاة العدوِّ ومواصلاته، وتركت الإعانة له ظاهرًا وباطنًا، وندِمت على ما صدَر منها سابقًا، والحكم فيها أنَّها واحدةٌ من جماعة المسلمين ـ كثَّر الله عدد جيش الإسلام ـ إن لم يتقدَّم منها ما يُبيح الدَّم، وهذا التَّفصيل هو المُعوَّل عليه في الشَّرع، لأنَّه عين النَّازلة، ولا تلتفت لمن عمَّم وقال بإباحة المال والدَّم في الجميع، وهو **الفقيه أبو العباس سيِّدي أحمد الفيلالي التِّلمساني** في (**تاريخه**)».

وقد تمَّ التَّأليف سنة ثمان وسبعين ومائة وألف (1178هـ).

كان **الشَّيخ عبد القادر المشرفي**[1] هذا، من ألمع شخصيات زمانه، ومن كبار المجاهدين، وكفاه فخرًا أنَّ الشَّيخ مصطفىٰ بن مختار الرَّاشدي جدَّ الأمير عبد القادر، لما أسَّس معهده بـ (**القيطنة**) اختاره للتَّدريس، وبهذا (**المعهد**) تعرَّف به المؤرِّخ **أبو راس** وأخذ عنه، وقد شارك في حرب الإسبان بـ(**وهران**) علىٰ عادة علماء البلاد ـ إنَّ من تأمَّل وتتبَّع تراجم علماء ذلك العهد يجد الأكثريَّة منهم ماتوا استشهادًا في حرب (**وهران**) ـ وقد حكىٰ تلميذه **أبو راس** في معرض الحديث عن الظُّروف التي استرجع فيها الإسبان (**وهران**) سنة 1144هـ بعد أن بقيت تحت يد المسلمين (25) سنة، قال: «لقد أخبرني شيخنا الأكمل وأستاذنا الأمثل خاتمة أهل التَّحقيق، وعمدة أهل التَّوفيق الشَّيخ سيِّدي **عبد القادر بن عبد الله المشرفي** شرَّف الله في الجنان مكانه، وكان حاضرًا لتلك الواقعة، أنَّ الكفرة لما تكامل عسكرهم في البرِّ، وبقيَ جلُّ مددهم في البحر، لم يعملوا صفًّا للقتال، ولم يطلبوا مجالدة الرِّجال، وإنَّما زحفوا للبلد بجميع الرَّجَّالة والفرسان، وهم كهيئة الرَّحىٰ في الدَّوران، بارودهم كرعد متَّصل، ورصاصهم كمطر منهطِل، لا يستطيع أحد قربهم، ولا يكرُّ شجاعٌ نحوهم، وإنَّ الباي **مصطفى بوشلاغم** (باي وهران) ـ وفاتحها مع **بكداش** باشا سنة 1119هـ ـ سقط في ذلك اليوم عن فرسه لشدَّة تحريضه علىٰ الجهاد و كثرة عَدوِه ... الخ).

هذه في الجملة حالة البلاد بعد ما استردَّ الإسبان (**وهران**)، وهذا لم يمنع الأتراك من التَّمادي في توحيد البلاد، وحماية الحدود والقضاء علىٰ الإقطاع، إلاَّ أنَّهم ارتطموا بكثيرٍ من التَّمرُّدات والثَّورات، فتارةً ينجحون في القضاء عليها، وكثيرًا ما كانت

---

(1) **عبد القادر بن عبد الله المشرفي**: كان يُدعَىٰ بـ (**إمام الرَّاشديَّة**)، توفي بمسقط رأسه (**الكرط**) قرب (**معسكر**)، سنة 1192هـ، وهو والد العالم القاضي الطَّاهر المشرفي، وجدُّ ابن عبد الله المشرفي الحافظ الذي تولَّىٰ الخلافة والقضاء في عهد الأمير عبد القادر.

تتغلَّب عليهم الأحداث، لاختلاف المسيِّرين، ومن هذه الثَّورات التي دامت ما يزيد على القرنَين (**ثورة الذّواودة**) شرق (**الجزائر**)، و(**ثورة سوَيد**) غربها، المشهورة عند العامَّة بـ (**ثورة المحال**)، وقد كان من حظِّ التَّاريخ الجزائري أن سجَّل بعض شعراء البلاد (**ثورة سوَيد**) هذه، وكان الشَّاعر سوَيديًّا وهو **ابن السوِيكَت** الشَّاعر الشَّعبي، فقد سجَّل عدَّة معارك خاض غِمارها قومه مع الأتراك، ولمَّا ضعفوا عن المقاومة اختار الكثير منهم الجلاء على الاستسلام، كما كانت قبيلة (**سويد**) من القبائل العربيَّة التي لعبت أدوارًا عظيمة في تاريخ البلاد، وقد تحدَّثنا عن جوانب منها أوَّل هذا التَّقديم، ولمَّا احتلَّ الأتراكُ (**الجزائرَ**) كانت لهم إمارة بـ (**تنس**) تمتدُّ من (**قبر الرُّومية**) شرقا إلى مصبِّ (**نهر الشلف**) غربا، قرب (**مستغانم**)، وكان موطنهم ابتداءً من القرن السَّابع الهجري، ما بين (**العطَّاف**) شرقا إلى (**مستغانم**) غربا، وقد شاركوا في حروب (**بني مرِّين**) مع (**بني زيان**)، فتارةً ينتصرون لهؤلاء وتارة لأولئك، وقد ذكر ذلك بالتَّفصيل المؤرِّخ عبد الرَّحمـٰن ابن خلدون.

وفي أوَّل عهد الأتراك انتصر بعض رؤسائهم إلى الإسبان، كما تدلُّ على ذلك بعض الوثائق التَّاريخيَّة التي عثر عليها الكاتب **إيلي دو لا بريمودي** (Elie de la Primaudie) في الخزانة الملكيَّة الإسبانيَّة بـ (**سمنكا**) ـ ضواحي **مدريد** ـ ونشرها الكاتب الفرنسي **شارل فيرو** (Charles Feraud) بـ (المجلَّة الإفريقيَّة) المؤرَّخة في سنة 1873م، الجزء: 17، فمِن جملة هذه الرَّسائل رسالة عربيَّتها مهلهلة أرسلها بعض رؤساء (**سويد**) إلى ملك إسبانيا، وأخرى إلى (**الكنت دالكادوت**) والي وهران، يطلبون أجرتهم، حيث حاربوا في صفوفهم بأمر رئيسهم **أحميدة العبد**[1]، ويظهر مِن هذه الرَّسائل أنَّهم كانوا متَّصلين بسالم بن التُّومي (**أمير العاصمة**) قتيل (**عرُّوج**)، حيث أظهروا تأسُّفهم على موته.

---

(1) **أحميدة العبد**: من رؤساء قبيلة (**سويد**)، وهو يطلق على عدَّة أفراد تداولوا رئاسة هذه القبيلة.

إلاَّ أنَّنا بعد تتبُّع ودراسة أحداث تلك الفترة، تبيَّن لنا أنَّ أصحاب هذه الرِّسالة لا يُمثِّلون إلاَّ أقلِّيَّة، أو لم تطل موالاتهم للإسبان، إذ كانت مشاركة أفراد القبيلة ورؤسائها لحسن باشا في حرب (**مستغانم**) مشاركة علنيَّة، ثمَّ إنَّ الكتَّاب الذين سجَّلوا الأحداث لم يغفلوا عن القبائل المتعاونة، ولم نجد واحدًا منهم ذكر هذه القبيلة في قائمة القبائل المتعاونة كصاحب (**بهجة النَّاظر**) وغيره، وهذا لا يمنع أنَّهم ثاروا على الأتراك وحاربوهم ما يزيد على القرنين، ولمَّا عجزوا اختاروا الجلاء بدلًا من الاستسلام.

اختلف المؤرِّخون في سبب هذا التَّمرُّد، ولا شكَّ أنَّ رؤساء القبيلة الذين كان لهم التَّصرُّف المطلق في إقطاعاتهم، وكان الملوك كثيرًا ما يخضعون لهم رفضوا الخضوع للأتراك، وقد لخَّص أحد شعرائهم سبب هذا التَّمرُّد، واختيارهم للاستماتة في المقاومة في بيتَين فقال:

قالوا التُّرك ندو (شلف) لا وهمة — قلنا لهم جدودنا في الواد
ما نتركوش (شلف) حتَّى تطيب الصمَّة — وما نهدوش العقبة على الأولاد

كانت الحرب بينهم وبين الأتراك في أوَّل التَّمرُّد سِجالا، وأكثر المعارك كانت في موطنهم الأصلي (**شلف**)، وقد سجَّل شاعرهم الشَّعبي ابن السوِيكَتْ كثيرًا من هذه المعارك، فذكر منها واحدةً، قال:

على أرهيو[1] وعلى جديوية [2] كارسين — الترك جوف واسويد جاو للقبلة
خيمة مع أخبا وبنود متقابلين — من الصبح للمسا كل يوم مقتلة
الترك جاروا والسويد اعقابهم طافحين — والترك شاربين لهبال في سطلة
الباي قد شور ليهم — وسويد ليه زادوا حملوا

---

(1) **أرهيو**: هي مدينة (**وادي أرهيو**)، منتصف الطَّريق بين (**غيليزان**) و (**الأصنام**).

(2) **جديوية**: قرية شهيرة غربيَ (**وادي أرهيو**) بنحو (10) كلم.

ارفـــد ســـــناجقو ولَحَّقْهُـــــمْ		عمـــدوا للقتــــال أو قتلــــوا
جـــا بــــالعراج بيــــده يالمســــتحين		احنا اسويد وأهل الـنقار بالجملـة
احنا أهــل الشــنا واحنــا الـلي طـايغين		أحنا أهل الطبل والعلام والصولة
ربعـين بـاي قبلـك قعـدت أمرشـقين		ربعــة والعشــرين شـــاو مقتلــة
أداكــم الطمــع في أمطافــل أمتمقــين		أســويد مــا يطيعــوا الــترك قتالــة
الـــــترك للـــــبلا ينـــــزادوا		واســـويد مـــا أعطـــوا الصـــفحة
البـــــاي جـــــالهم بجنـــــود		طيعـــوا يـــا ســـويد الوكحـــة
ســـور الحديـــد واش ايهـــدوا		هيهـــات مـــا تصـــيبوا راحـــة
محمـــود ليـــه لفـــت عـــود		والبـــاي واجبـــه باقباحـــه
الســـــانجاق حـــــم رفـــــد		واســـويد للـــبلا دلاحــــا
ظهروا اشوايع اسويد قعدت متورخين		ملكوا الشرق والغرب تل والقبلـة
مــع الأمــير عقبــة جــاوا امجاهــدين		أمنين كانـت النـاس كلهـا جهـالا
جازوا اوجـوزوا في أيـامهم سـاعدين		واجميـع مــن اقصـد أدا بــلا قلـة
يهــدوا ايــبلهم والمــال للقاصــدين		غنيات والحصـون ينقـادوا شــلا

ذكرنا هذه القصيدة على طولها في هذا التَّقديم الذي لم يتعوَّد القرَّاء التَّطويل فيه، إذ على الأكثر يُحال القارئ فيه إلى المصادر، إلاَّ أنَّنا ـ خصوصًا في بلادنا التي ضاع جلُّ تُراثها ـ صِرنا مِن الصَّعب أن نحصل على هذه المصادر، ثمَّ إنَّ الشِّعر الشَّعبي ـ كما هو معروف ـ سِجلٌّ هامٌّ لهذه الأحداث، وهو ممتاز حتَّى عن الكتب التَّاريخية لذلك العهد، حيث إنَّ معظم المؤرِّخين الذين وصلتنا آثارهم وإنتاجهم، كانوا من الموالين للأتراك أو موظَّفين عندهم، وهم بطبيعة الحال لا يُصوِّرون القضايا إلاَّ بما يُرضي الهيئات الرَّسميَّة، فنشرُ هذه القصائد يلقي أضواءً على الأحداث ويصوِّرها تصويرًا جليًّا.

بقيت البقية من سويد في (**شلف**)، وجلا بعضهم إلى الجنوب، وكان شاعرهم ابن السويكت يتتبَّع أخبارهم وآثارهم، ويتساءل عنهم:

لا مــن جــاب أخبــار اســويد ... اين مضرب راهــم نــازلين المحــالي
استفســدت افرســين الكيــد ... اتوحشــت شــيبني التــل الخــالي

إلى أن يقول:

لا مــن جــاب أخبــارهم ويــن ... ايــن مضــرب راهــم فيــه
حســراه الميعــاد الــزين ... والى كنــت امونــغ بيــه
واجــب عــلي نحــزن ونزيــد ... اعلى النــاس المشـليا نــاس ابطـالى
مــن لا يســوى درتــه ســيد ... لــو كــان تقلـبهم يـا الحـي العــالي
يضــحوا في شــلف امواليــه ... انقاصر مبنيه كي دهر فات اقبـالي
اذا مــت انمــوت شــهيد ... نبرا من قلبي وتزول عنـي اعـلالي
ســلت عــلى انجــوع الريــاس ... لا فــارس يعطــي الأخبــار
قــالوا حطــوا في منــداس[1] ... بلغــوا بمنــازل الأوعــار
بلعابــد ذكــروه أوغــاس ... غــربي اللوحــة[2] في الأجـدار[3]
البــاي ظلــم وظلمنــاه ... واحنــا درنــا فيــه العــار
رحنــا للقايــد جبنــاه ... ظــاهر مــن عنــد الكفــار
حتــى هــروال أخــذيناه ... وأعطينــا للــترك انهــار

(1) قرية تبعد عن (**غيليزان**) بنحو (40) كلم، في طريق (**تاهرت**).

(2) اللَّوحة في (**ونشريس**)، شرقَي (**تاهرت**).

(3) **الأجدار**: جنوب (**تاهرت**)، مشهورة بآثارها، يقصدها السُّوَّاح والأثريُّون، إذ ما زالوا مختلفين في العهد الذي أسِّست فيه.

دامت ثورة سويد المشهورة عند العامَّة بثورة **(المحال)** ما يقرب من القرنين، إلاَّ أنَّها كانت جِهَويَّة محدودة، ولم تعط لها أهمية كبرىٰ، بل كانت كغيرها من الثَّورات والتَّمرُّدات، كـ **(ثورة الذواودة)** وغيرها من القبائل، وكان الأتراك كثيرًا ما يستعطفون الرُّؤساء ويُغرونهم بالهدايا، وإطلاق سراح المساجين فيُجددون طاعتهم، أمَّا الثورة التي أثرت كثيرًا في الحكم التركي وقلبت الأوضاع، ودامت إلىٰ أن دالت دولتهم، هي الثورة المشهورة بـ **(ثورة درقاوة)** اندلعت هذه الثورة التي كانت سببًا في انهيار دولة الأتراك بالجزائر سنة 1219هـ، فقدت الدولة التركيّة بسببها ثقة القبائل الموالية لها، حتىٰ ضعفت عن مقاومة الاحتلال الفرنسي سنة 1830 إذ خذلها السُّكان وتفرَّقوا عنها إلىٰ أن قُضيٰ علىٰ الحكم التركي ونفض يديه من الحكم، فتقدَّم أعيان البلاد والتف حولهم الشعب ونُظمت المقاومة التي سجلت تلك الصفحات المشرقة في تاريخ البلاد.

قام بهذه الثَّورة **الشَّيخ عبد القادر بن الشَّريف الكساني** ـ كما ذكرنا ـ سنة 1219هـ، وكانت أوَّل معركة التقىٰ فيها مع الجيش التُّركي دارت رَحاها بـ **(فرطاسة)** ـ قرب **(معسكر)** ـ ثمَّ امتدت إلىٰ **(قسنطينة)** تحت قيادة **محمَّد بن الأحرش** ـ زميل ابن الشَّريف ـ إذ هو درقاوي أيضًا، فمات بسببها عشرات الآلاف من السُّكَّان، وكثيرٌ من رؤساء القبائل، والنُّخبة من العلماء، وعِدَّة بايات، منهم مَن قُتِل، ومنهم مَن سُجِن أو عزِل ... الخ.

كان الثَّائر الأوَّل **عبد القادر بن الشَّريف** من **(قرية أولاد بالليل)** ـ نواحي **(فرندة)** ـ تعلَّم في مسقط رأسه، ثمَّ التحق بمعهد السَّيد **محيي الدِّين** ـ والد **الأمير عبد القادر** ـ بـ **(القيطنة)**، ثمَّ ذهب إلىٰ **(المغرب)** فالتحق بمعهد الشيخ **العربي بن أحمد البوبريحي الدَّرقاوي**، بـ **(بني زروال)** إلىٰ أن أُجيز، فرجع إلىٰ مسقط رأسه ـ أولاد بالليل ـ فأسَّس معهدًا انتصب فيه للتَّدريس ولتلقين أوراد **الدَّرقاوية**، إذ عيَّنه أستاذه مُقَدَّماً للطَّريقة، فكثر أتباعه وبلغه أنَّ الباي مصطفىٰ ينوي به سوءًا، فاستعدَّ للطَّوارئ، إلىٰ أن قصده

الباي فلقيه ابن الشَّريف بجموعه في **(فرطاسة)**[1] في ربيع الأوَّل عام 1219هـ فانهزم جيش الباي شرَّ هزيمة، وفرَّ الباي منفردًا إلىٰ **(معسكر)** علىٰ فرَس مِن دون سرج، وقد سجَّل هذه المعركة الشَّاعر الشَّعبي الشَّيخ بوعلام بن الطَّيب السَّجراري، فقال:

كي قصة الأجواد مع أتراك النوبة	يوم أن فزعهم ابن الشريف أوجاوا
ذوك أتراك الكرسي دهر فاتوا رهبة	قالوا الأجواد علىٰ حرمنا نزكاوا
انعقدوا غاشىٰ الأحرار عقد امحبة	في فرطاسة شاو انهار واتلاقاو
بالسيف أونار المشط أودق الحربة	ملهية أو منا عيطا اعقيد افناوا
ذاك امقعشم ذاك يهوم بالحربابه	وافرايس الاتراك اعلىٰ الطريق ابقاوا
انغلبوا الأتراك او سلموا في الضربة	أهل العدة البيضا كامل اتعراوا
دار الذيب العولة من لحم الاتراك	لمعسكر روح ذاك الشريف الحسني
قصة خلاها تنعاد في الأتراك	فيها دار الخلفوات قلبه هاني
خبره عند الدنيا ذا ايعيد لذاك	صاق الوهراني بطنابير ترعد هونىٰ
وابنود ترفرف اغزاوا في الأتراك	دخلوها بلباس اجديد غير الفاني
والخيل اتصادىٰ هذا يرد الذاك	نحو الجزائر رسلوا برية مطبوعه
خط الخوجة خط احديث كان أوصار	الباشا مبهوت صادفته خلعة
خاف علىٰ الخزنة يسعاوها الأحرار	أمر ببراته للجيش واحد الساعة
كانت مجموعة بطبولها تنقار	.... الخ

انتصر **ابن الشَّريف** في هذه الواقعة انتصارًا باهرًا اعترف به نفس المؤرخين

---

(1) **فرطاسة**: جنوب **(ايغليزان)** في طريقها إلىٰ **(تاهرت)**، سمِّيت من ذلك العهد ـ أي: معركة ابن الشَّريف ـ بـ**(وادي الأبطال)**، وسمَّاها الفرنسيُّون في عهد الاحتلال **(ايزاس لديك)**، واسترجعت اسم **(وادي الأبطال)** بعد الاستقلال.

الرسميين لدولة الأتراك **كحسن خوجة** صاحب **(درّ الأعيان في أخبار مدينة وهران)** الذي اعترف بالكارثة، وضخامة خسائر الجيش التركي في الأموال والأنفس، وكان من جملة الأموات **العالم الأديب السيد أحمد بن هطال التلمساني** (1).

كانت هذه شبيهةً بثورة بني غانية على الموحدين، إذ كانت المعارك متواصلة، ورغم تفوُّق الأتراك من حيث الجيش النظامي المدرَّب، فإن ابن الشريف كان المرة بعد المرة يجمع جموعه الغفيرة ويفاجئهم بمختلف الجهات، فعجز الأتراك عَنْ قمع هذه الثورة فالتجؤوا إلى كثيرٍ من الوسائل فاستعملوها من دون جدوى، فمن ذلك أنّهم خاطبوا ملك المغرب **مولاي سليمان العلوي** لإرسال شيخ الثائر، فأجابهم الملك إلى ذلك.

وهنا نترك الكلمة لمؤرخ الدولة العلوية **أبي القاسم الزياني**(2) الذي كان معاصرًا وشاهد عيان لهذه الأحداث، فقال في تأليفه الشهير **(الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب)** قال: «وفي عام 1220 وقعت فتنة بين الترك والعرب أهل الواسطة بسبب بعض فقراء درقاوة قتلهم الباي (مصطفى)، ووجَّه في طلب شيخهم عبد القادر بن الشيخ خليفة الشيخ الأكبر سيدنا ومولانا **العربي الدَّرقاوي** (رحمه الله) بالمغرب، ففرَّ سيدي عبد القادر بن شريف عن وطنه، ونزل بوطن الأحرار، واجتمع عليه فقراء درقاوة وامتعضوا لمن قُتل منهم، ونفي شيخهم ابن الشريف عن زاويته ووطنه، وتذمرت لذلك عشائرهم وقاموا على الترك وتحزبوا لحربهم، ولما قدمت محلة الترك

---

(1) **أحمد بن هطَّال**: عالم أديب، كان كاتبا خاصًّا عند الباي محمَّد عثمان الكبير، ورافقه في غزوته على **(الأغواط)** و**(عين ماضي)** سنة 1189هـ، ودوَّن تلك الغزاة المشهورة عند القراء بـ **(الرِّحلة)**، وقد نشرها وحقَّقها **الأستاذ محمَّد بن عبد الكريم الزَّمُّوري**.

(2) **أبو القاسم الزياني** (1147 ـ 1249هـ / 1734ـ 1833م): له تآليف عديدة قيِّمة، خصوصا رحلاته.

من الجزائر على عادتها و لقيها الباي على عادته، قصدها العرب وأحلافهم، ووقع القتال، فانهزم الأتراك(1) وقتلوا منهم ونهبوا محلتهم ودخلوا لوهران مفلولين، فقصدهم العرب وحاصروهم بوهران، فكتب الباي للسلطان يتنصر به في رفع هذا الخرق وينتظر الفرج من جهته، إذ شيخ الطائفة الدرقاوية ببلاده، فوجه السلطان الشيخ مولاي **العربي الدرقاوي** أن يتوجَّه لـ**(وهران)** حتى يفرِّق ذلك الجمع، ويرفع الخرق ... الخ».

وفي بعض مؤلفات المغرب والجزائر ما يُخالف حكاية الزيَّاني في تفاصيلها، إذ اتهم ولاة الأتراك مولاي سليمان بأنَّ له يدًا في هذه الثورة للعلائق المتوترة بينهما، ولاندلاع الثورة الثانية بقسنطينة، وكان قائدها درقاويا مغربيا وهو الشيخ **محمد بن الأحرش،** وكانت الثورة الثانية أشد من الأولى، إذ في أوَّل معركة بين الثائر والأتراك مات الباي **عثمان،** كان هذا الثائر **محمد بن الأحرش**(2) الذي اشتهر بالبدالي وبالشريف من المغرب، قيل إنّه بعد رجُوعه من الحجِّ سنة 1218هـ أسَّس معهدًا ببني فرقان ـ نواحي جيجل ـ والتف حوله الأتباع والمريدون كزميله ابن الشريف، فهيأهم للثورة على الأتراك وقادهم إلى قسنطينة فحاصروها أيامًا، إلا أنَّ سكانها دافعوا عنها تحت قيادة شيخ البلد **ابن الفقون** لغيبة الباي **عثمان** بنواحي **(سطيف)**، فافترق جيش الأحرش، ورجع إلى مُعكسره لـ**(وادي الزهور)**، ولما بلغ الخبر إلى الباي **عثمان** رجع فورًا وتتبع آثار الثوار فوجدهم بوادي الزهور، فالتقى الجمعان فهُزم الجيش التركي، وكانت هذه الهزيمة أشنع من هزيمة **(فرطاسة)** حيث مات فيها الباي وجُلُّ ضباط جيشه، فارتاع الباشا لما

---

(1) يشير إلى **(واقعة فرطاسة)**.

(2) كتب كثير من الباحثين عَنْ **محمد بن الأحرش** هذا، وذكرُوا أنّه ذهب على رأس وفد حُجاج المغرب، وفي القاهرة اتصل بضباط الإنكليز وهم الذين شجعوه واستعملوه لهذه الثورة لخبر يطول، إذ شارك ابن الأحرش في حرب الفرنسيين الذين كانوا إذاك بمصر، وثار عليهم السُّكان فلفت ابن الأحرش الأنظار فَغَمَرَهُ الإنكليز بالهدايا.

بلغه الأمر، وجَهَّزَ جيشًا قويًّا، وعين الباي **عبد الله** مكان **عثمان**، وأمره بالقضاء على هذه الثورة، فامتثل الباي **عبد الله** أمر الباشا، ولحِق **بابن الأحرش** في نواحي **(ميلة)** إلّا أنَّ الحظ خدم هذه المرَّة الجيش التركي إذ انتصر الباي، وتفرّقت جمُوع **ابن الأحرش**، وأُشيع أنَّ **ابن الأحرش** لقي حتفه في معركة، إلَّا أنَّه ظهر بعد أسابيع قليلة في جُمُوع غفيرةٍ حاصر بها **(بجاية)**، ولولا تداخل **(آل المقراني)** أمراء **(بجاية)** لاحتلَّها، ثم أُشيع خبر الوفاة مرَّة ثانية، فظهر دَعِيٌّ آخر ادعى أنَّه **ابن أَخِي ابن الأحرش**، وسمَّى نفسه: **محمد بن عبد الله**، والتفَّ حوله كل ناعق ـ على حَدِّ تعبير **ابن خلدون** ـ في وصفه لهذه الثورات التي كان يُشاهدها في عهده حيث كان الثائرون يندفعون بغير هُدًى، ولا تفكير ولا هدف، ولم يمت **ابن الأحرش** كذلك في حصاره لـ**(بجاية)**، بل ظهر بعد أشهرٍ قليلة في الولاية الوهرانيَّة حيث التحق بزميله **ابن الشريف**، وحضر معه بعض المعارك، ومن أهمها معركة **(جديوية)**، ثُمَّ شاع خبر وفاته للمرَّة الثالثة كما شاع أنَّ ملك المغرب طلب نقل جثته إلى المغرب، وأُجيب لرغبته، ونُقلت الجثة إلى المغرب، ودُفنت بـ **(فاس)** إلَّا أنَّ صاحب **(دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران)** الذي كان مُطَّلِعًا على المصادر الهامَّة لعهد الأتراك كـ **(درّ الأعيان في أخبار مدينة وهران)** **لحسن خوجة** قال في الموضوع بعد أن تعرَّض للحديث عن ثورة **ابن الشريف** وتطوُّرِها، وذكر بعض البايات الذين كادوا أن يقضوا عليها قال: «... ورجع الباي لوهران فرحا بالغنيمة العظيمة، وقتله للعدو المقتلة الجسيمة، فاستقرَّ بها واستراح، وحصل له الطرب والانشراح، وبقي على ذلك أيامًا عديدة وليالي مديدة، فبينما هو في إيوانه مع أرباب دولته جالس، ومستيقظٌ لأموره وليس عنها بغافل ولا ناعس، إذ جاء الخبر بأنَّ الدَّرقاوي بـ**(تافنة)** في جيش جديد، كأنّه البحر المديد، أو الجراد المنتشر، مغطيا للسهل والوعر، وهو الرجل المنفش المسمى **بابن الأحرش** ومعه أمَّة من الطلبة سالكين معه اقتحام العقبة».

وحقيقة أنَّ **ابن الأحرش** لم يلق حتفه كما أُشيع في القطاع القسنطيني، بل التحق بالقطاع الوهراني حيث كان أنصار زميله متوافرين، فتعاون معه واستعملوا مع الأتراك حرب الكَرِّ والفَرِّ، فلم يهنأ لهم بالٌ، وختم المطاف أن أَسَّسَ معهدًا قريبا من معهد زميله **ابن الشريف**، وبقي ذلك المعهد في قمة جبل (**يتوارث**) إدارته أبناؤه وأحفاده من بعده إلى أيام حرب التّحرير، فهدمه الجيش الفرنسي فيما هُدم والتحق أبناء الشيخ ـ الذي تُوفي في تلك الأيام ـ بجيش التحرير، فاستشهد أكبرهم، وبقى الأصغر وهو ضابط في الجيش الشعبي الآن، وقد بنى أفراد الأسرة وأنصارهم مسجدًا جامعًا بدلًا من مسجد الأسرة الذي هُدم، وعينت وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيّة أحد أفراد الأسرة إمامًا خطيبا فيه.

أمَّا ثورة **ابن الشريف** فإنّها هي الأخرى جَرَّت الويلات على الجيش التركي الذي استعمل الوسائل المتعددة لإنهائها، أو للتخفيف من آثارها، فلم يُفلحوا، فبعد أن طلبوا تدخل ملك المغرب **مولاي سليمان**، وبعث الملك **شيخ الطائفة الدرقاوية** إلى (**تلمسان**)، واجتمع بتلميذه، وكان برفقة الشّيخ المذكور وفدٌ هامٌّ من أقارب الملك، فلم يُقنعوا الثائرين، فالتجأ الأتراك إلى وسائل أُخرى منها أنّهم تقرَّبوا بالمصاهرة إلى رئيس أعظم قبيلة انتصرت لدرقاوة، وهي قبيلة (**الحشم**)، ذكر القاضي **الشيخ الطيّب ابن المختار** ابن عَمِّ **الأمير عبد القادر** في تأليفه الذي خَصَّهُ للتعريف بهذه القبيلة وسماه: (**القول الأعم في بيان نسب الحشم**)، قال: «إنَّ باي الولاية الوهرانية إذاك **محمد المقلش** صاهر الشّيخ قدور بن الصحراوي رئيس قبيلة (**الحشم**)، وكان وكيلَ الباي في هذه المصاهرة، والمشيرَ عليه بها هو **العلّامةُ الأخضر المهاجي** ـ والد السيد ابن افريحة المهاجي خليفة الأمير عبد القادر ـ » قال الشَّيخ الطيّب ابن المختار: «إنّه لما تولَّى القضاء ـ في العهد الفرنسي ـ بـ(**معسكر**) وقف على رَسْمِ التوكيل بخطِّ الباي، وطابعه،

وتاريخه، وذلك في سنة 1220 هـ»، وهذه المصاهرة أيضًا لم تُؤت ثمرتها المرجوَّة منها إذ كان **ابن الشريف** كلَّما فقد أنصارًا إلّا وعوضهم بآخرين.

اِتَّهَمَ الباشا على عادته الباي **محمد المقلش** باستغلاله لحرب درقاوة، واتِّخاذِها وسيلة للانتقام من رؤساء الدِّين ومُصادرة أموال الرعيّة لصالح خزانته الخاصَّة، فحكم عليه بالإعدام، ونفذ فيه الحكم بعد أن ذاق ألوانًا من العذاب، ثُمَّ خلفه الباي **محمد الصغير** ـ صِنْوُ **محمد بن عثمان الكبير** فاتح وهران ـ ويُلَقَّبُ أيضًا بـ(**أبي كابوس**) وبـ(**الرقيق**) و بـ(**المسلخ**)، وهذا الباي استعمل في حربه لدرقاوة طُرقا لم يغبطه عليها المعاصرون في تعذيب المتهمين، قال صاحب (**دليل الحيران وأنيس السّهران في أخبار مدينة وهران**) في ترجمة الباي **محمد الصغير** هذا: «ولما تولَّى اشتغل في أيامه بطلب الدرقاوي وفصم محالمه، وقطع آثاره ومعالمه، وبغاته ومظالمه، حتى إنَّ من حسد أحدا وشى به عنده وادّعى عليه محبة الدرقاوي، فإنّه ينتقم منه فورًا، وصار مهما ظفر من أحد من درقاوة بادر للانتقام منه بأيِّ نوع شاء، ولم يقبل منه شفاعة شفيع، وابتدع قتلًا لم يبتدعه أحدٌ من الملوك قبله، وهو فعلٌ شنيعٌ، ونَوَّعَ عذاب من يظفر به إلى أنواع: فمنهم مَن يأمر بإخراجه للسوق ودقِّ أعضائه حيًّا شيئا فشيئا بالمعاول إلى أن يموت بانفظاع، ومنهم مَن يأمر بإقلاع عينيه ويتركه أعمى مِن حينه، ومنهم مَن يأمر بقطع أعضائه، فإن مات وإلَّا جهز عليه فيموت في سِجنه، ومنهم مَن يأمر بذبحه، ومنهم مَن يأمر بقطع رأسه وفضحه، ومنهم مَن يأمر بخنقه، ومنهم مَن يأمر ببقره، ومنهم مَن يأمر بشنقه، إلى غير ذلك من الأنواع المختلفة».

أمكن **لابن الشريف** أن ينجو من الباي **بن عثمان الصغير** على عادته مع سلفه، وينسحب بسهولة، ولكن الباي لقي ما لاقاه من البايات فاتهمه الباشا بما كان يتهم به سلفه، وحكم عليه بالإعدام، ونفذ فيه الحكم.

جرَّت ثورة **درقاوة** على الحكم التركي بالجزائر ويلات، ولصبغتها بالصبغة الدينيّة صار الأتراك يكيلون التُّهم لجميع رُؤساء الدِّين الذين لا فرق بين المنتسبين **لدرقاوة**، أو لغيرها من الطرق، ولم ينج من هذه التُّهم حتى الموالون للأتراك مثل العالم السَّلفي المؤرِّخ **أبو راس الناصري**، فأصابته بعض شظايا هذه التُّهم، وعُزل من مناصبه الرسمية كالإفتاء، والقضاء، وقد خَصَّ هذه الثورة بكتاب قَيِّمٍ سَمَّاه: (**درء الشقاوة في فتنة درقاوة**)، وقد أشار إلى ما أصابه في هذه الثورة في رحلته فقال: «ثُمَّ عمتنا فتنة درقاوة، وإنَّا لم نكن فيها كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج: وقد خبطتنا فتنةٌ لم نكن فيها أتقياء بررة، ولا أقوياء فجرة ... فاتصلت علينا أواصر النَّكبات، والبليَّات من الخوف، والجوع، والرَّوع الذي في الفؤاد مودوعٌ، وقد ناداني لسان الحال بقوله: دع الدفاتر للزمان الفاتر، فطرحت الكتب بمتروك مكان، واستمرَّ عليها النِّسيان حتى نسجت عليها عناكب الهجران ... الخ»، كان **أبو راس** من الناقمين على ثورة **درقاوة إذ** علاوة على أنّه كان من أنصار الأتراك كان سلفيًّا، وكان الباي **مصطفى**[1] الذي ثار عليه **ابن الشريف**، وهزمه بواقعة (**فرطاسة**) من أَعَزِّ أصدقائه، والمحسنين إليه، وهو الذي بنى له خزانة كُتبه المشهورة بـ(**معسكر**) وسمَّاها: (**بيت المذاهب الأربعة**)، ومدحها كثيرٌ من الشُّعراء كما كتب عن ثورة **درقاوة** الكاتب الشهير **السيِّد مسلم بن عبد القادر الحميدي الزائري**[2] باش دفتر البايات المتداولين على **وهران** مدَّة الثورة، وبقي في وظيفته مع الباي **حسن** إلى أن دالت دولة الأتراك بـ (**الجزائر**)، وقد ترجم هذا

---

(1) ذكر تلك الصداقة **أبو راس** في رحلته، ثم ذكر أنّه لما رجع من رحلته الشرقية الثانية حوالي 1226 ووجده توفي أثناء غيبته وقف على قبره ورثاه بعبارات أثبتها في (**رحلته**).

(2) قال صاحب (**دليل الحيران**): «توفي أبو عبد الله مسلم بن عبد القادر الحميدي الزائري الكاتب الخاص للباي حسن بوهران سنة تسع وأربعين ومائتين وألف (1249) ودفن بضريح سيدي المسعود من بلد (**تارقة**)، قرب مدينة (**عين تمشنت**)».

التأليف إلى الفرنسية الترجمان الفرنسي **أدريان دلبيش** (Delpech Adrien)، ونشره في المجلة الإفريقية المؤرَّخة في سنة 1874.

كما تعرَّض لهذه الثورة بتفصيلٍ الجنرال **والسن استرهازي** (Walsin Esterbazy) في تأليفه المسمَّى: **الحكم التركي** (La domination turque).

ما زال بعض أفراد الأسرة (**أسرة عبد القادر بن الشريف**) يتمتعون بالتجلة والاحترام عند أحفاد تلامذة وأنصار جدِّهم كما ما زال هؤلاء يُحيون ذكراه سنويًّا ويزُورون آثار معسكره في سفح (**جبل أبرام**) القريب من مسقط رأس أفراد الأسرة، وكان لهم معهدٌ بقربه نُقل أثناء حرب التحرير إلى العباسية (**قرب فرطاسة**) حيث يُشرف عليه أحد أفراد الأسرة، كما اشتهر من أفراد هذه الأسرة عالمٌ تخرَّج بعد الحرب العالمية الأولى من الأزهر، وأسَّسَ مسجدًا ومعهدًا علميًّا بسيدي علي (نواحي مستغانم)، حيث يُوجد كثيرٌ من أنصار جدِّهم الثائر، وتُوفي هذا العالم وترك أحفادًا منهم ضابطٌ في الجيش الشعبي.

لم تنته ثورة **درقاوة** باختفاء الثائِرَين **ابن الشريف** و**ابن الأحرش**، بل انتقلت العدوى، وصار البايات يحسبون كل صيحة عليهم، فصاروا يتتبعون آثار أصحاب النفوذ الدِّيني، فتمرَّدت الرعيَّة، وصار كثيرٌ من المنتسبين لرؤساء الدِّين يحرضونها على العصيان، وقد وصف لنا حالة البلاد إذ ذاك أحد أفاضل العلماء وهو **الشّيخ أبو القاسم بن أحمد بن الهواري البوزاغتي** قاضي (**مجاجة**)[1] (**الأصنام**) في عهد الأتراك قال في مثالب الباي **محمد بن عثمان الصغير** (المحكوم عليه بالإعدام في قضية درقاوة) قال: «...

(1) **أبو القاسم البوزاغتي** (1201ـ 1284): تولى القضاء في عهد الأتراك بمجاجة ثم عين عضوا في المجلس العدلي بالعاصمة في العهد الفرنسي، عالم مفكِّر له عدة تآليف، منها: مذكِّرات قيِّمة.

إلىٰ أن أراد الله بانقضاء أيام الباي المذكور أفسد الله رأيه، وخرج عن طاعة الباشا، وتسرَّع في قتل عسكر الأتراك الذين معه بموافقة كُبراء أهل مخزنه و أعوانه مِن الدوائر وغيرهم ففر بهم ليلًا خليفة الكرسي **علي** الملقَّب **قارة باغلي** وأصبح بهم في (**مازونة**)، وبقي معهم مُتحصنا بأهلها حتىٰ أتاه الأمر من عند الباشا أنَّه بايٌ بموضعه، وأمره بقبضه كما أمر أعوانه بذلك، وعفا عمَّن وافقه علىٰ ذلك، فلم يشعر أن قبضوه ووثقوه وبعثوا به إلىٰ (**الجزائر**) فعُذب علىٰ إخراج المال كما قيل، ثُمَّ قُتل وقُطع رأسه، فملئ قطنا وصُلب علىٰ باب (**الجزائر**)، وكان هذا في نحو السابع والعشرين من هذا القرن ـ أي سنة 1227، وقد كان تولىٰ بايًا لولاية (**وهران**) سنة 1222 إثر عزل **محمد المقلش** ـ.

وأمَّا أمر الباي **علي قارة باغلي** فقد حكم في الرعيَّة، ولم يكن له يد الطاعة إلّا علىٰ (**شلف**) وما والاه من القبائل، وكثُر في زمانه الشِّقاق والقتال بين القبائل كـ(**بني راشد**) و (**تاشتة**) و(**حميس**) و(**بني مادون**)، وغيرهم و (**العطاف**) و(**بني زقزوق**)، ونحن وقتئذ بـ(**العطاف**) شاهدنا ذلك كُلَّه، وكان كبيرهم الشَّيخ **البغدادي** [1] يُحرضهم علىٰ ذلك مع كُبراء (**أبراز**) كالسيِّد **جلول بن عبد السلام**، والسيّد **ملوك**، وكثُر الفساد في البرِّ من السرقة، والمحاربة في الطُّرق في هذه الواسطة، وبلغنا أنّه في ناحية (**تلمسان**) أكثر من هذا ... الخ».

هذه صفحةٌ ذكرها شاهد عيان يصفُ حالة البلاد وتدهورها في أواخر العهد التُّركي، وكانت حالة البلاد كلّها شبيهةً بما ذكره **أبو القاسم البوزاغتي** إذ ثار الرأي العام علىٰ الجرائم التي كان يرتكبها الأتراك علىٰ يد بعض البايات السفَّاحين الذين

(1) **أسرة البغدادي**: كانت مشهورة بنواحي (**العطَّاف**)، وكانت متصاهرة مع الأمير عبد القادر، وما زالت بقاياها بتلك النَّاحية.

ضربوا الرَّقم القياسي في الاستخفاف بأرواح الأبرياء كآخر باي الولاية الوهرانية **حسن**، فإنّه كان يتتبع رجال العلم والدِّين فيسجن، ويُعذب، ويقتل، وأحدث محاكم التفتيش الشبيهة بالمحاكم التي أحدثها الإسبان بعد سقوط مملكة **(غرناطة)**، وقد ذهب ضحيَّتها كثيرٌ من كبار العلماء والرُّؤساء، وكان من جُملة ضحايا هذه المحاكم السيِّد **محيي الدين** والد **الأمير عبد القادر** الذي كان مُرابطا في معهد والده بـ**(القيطنة)** لتدريس العلم، فأُلقي عليه القبض، وسِيق إلى **(وهران)** صحبة ولده **عبد القادر** الذي كان لا يُفارقه، فتدخَّل في أمره أحد أعيان المخزن، فخُفف عنه الحكم وأُلزم بالإقامة الإجبارية في **(وهران)**، وقد خاطبه وهو في سجن **(وهران)** تلميذه السيّد **السنوسي بن عبد القادر الدحاوي** بقصيدة بيَّن فيها الظُّروف التي من أجلها قُبض عليه، فقال:

عَوِّل على الصبر لا تفزعك أشجان ... ولا ترعك بما فاجتك وهران

أما هي الدار لا تؤمن غوائلها ... بلى هي الدار أغيار وأحزان

لم يثقفوك أُحُيِّي الدِّين عن زلة ... رأوا ولكن أشقى القوم شيطان

صبرا فلا غرو أن تنحل عقدة مَن ... مِن أجله قد عدى عليك سلطان

... وأنت والله لم تزل على سنن ... يهدي إلى الحق لم يملك طغيان

تُقْرِى الضيوف وتسعى في حوائجهم ... وتحمل الكلَّ لا غش ولا ران

تبيت بين الدُّجى تتلو المفصل عن ... قلب وتصبح مثل البدر تزدان

تدرس العلم مرَّة وثانية ... تلقن الذِّكر والفؤاد يقظان

والله أسأل أن أراك منطلقا ... تسعى وما حواليك حرَّاس وأعوان

... الخ

كان ضحايا هذا الباي كثيرين، وتُهمهم متشابهة، وقد سجَّل تلميذٌ لضحيَّة من

ضحاياه (**منظومة**) من النَّوع المشهور بـ (**الاستغاثة**) أوبـ (**الغوثية**)، بيَّن فيها الظُّروف التي حُكم فيها بالإعدام على شيخه، وتخليدًا لذكرى هذه الضَّحيَّة، فإنَّ تلاميذ المعهد الذي أسَّسه صاحب (**الاستغاثة**) هذه، وتوارثه أبناؤُه من بعده، كان طلبتُه يُنشدون كلَّ ليلة جمعة هذه (**الاستغاثة**) إلى أوائل الحرب العالمية الثانية، وأكثر طلبة ذلك المعهد يحفظونها عن ظهر قلب، وإنَّ هذه الأبيات التي أثبتها في هذا التَّقديم أرسلها إليَّ واحدٌ منهم قبل استشهاده في حرب التَّحرير (رحمه الله).

كان المُقرئ الشَّهير الشَّيخ **ابن القندوز التُّوجيني** له معهدٌ بـ (**سدار مينة**)، قرب مدينة (البطحاء) الشَّهيرة، يتعلَّم فيه القرآن نحو 400 طالبا، وجاء الباي **حسن** على رأس جنده، فألقى القبض على الشَّيخ وذهب به إلى (**مازونة**)، ولمَّا قرب منها قتله (ما زال الموضع الذي قُتِل فيه **ابن القندوز**، وآثار المعهد الذي يُعلِّم فيه موجودَين) فافترق طلبة المعهد، وكان من بينهم مَن رثاه بهذه (**الغوثية**).

وهذا النَّوع مشهورٌ في الأدب العربي، وهو على أنواعٍ: فمِنهم مَن يستغيثُ بالصَّحابة والصَّالحين، ومنهم مَن يستغيث بسُور القرآن، ومنهم من يجمع بين الكلِّ، ثمَّ تُختم بِذِكر الضَّيم الذي يشتكي منه المُستغيث، والدُّعاء للانتقام مِن الظَّالم، أو لتفريج الكرب، كثر هذا النَّوع في العهد التُّركي، وقد عرف أحد ضحايا الأتراك(1) هذا النوع في غوثيته المشهورة بقوله عند افتتاحها:

لمـــا عجـــزت في بـــلاد الجـــور   عـــن أخـــذ ثـــار ولـــدي بـــالفور

---

(1) هو الشيخ أبو مهدي عيسى بن موسى التوجيني دفين (**وادي الطاغية**)، نواحي (**معسكر**) من علماء القرن العاشر، وقتل ولده بعض طغاة (**الحشم**)، فاشتكى بهم فرُفضت شكواه، فأنشأ غوثيته المشهورة، وشرحها كما شرحها المؤرخ **أبو راس** ترجم فيه للمؤلف ما لحقه مِن ضَيم.

ناديــت غوثــا يــا رجــال الحــق .... الخ

كان تلميذُ **ابن القندور** هذا هو الشّيخ **الشَّارف ابن تكوك** قريب الشَّيخ **محمد بن علي السنوسي** [1] (دفينُ ليبيا)، وهو أوَّل من نشر الطريقة السَّنوسية بـ(**الجزائر**)، وأسَّس معهدا لذلك ما زال يتوارث إدارته أبناؤُه، وفي هذا المعهد كانت تُنشد هذه الغوثية، وقد هاجر الشَّيخ **ابن تكوك** هذا إلى المغرب في نفس الظروف التي هاجر فيها ابن عمِّه **محمد بن علي السنوسي**، قال:

أرحـــم شــــيخي بالقنــــدوز   مريــــد الشـــــيخ المعـــــزوز
عبـــد القـــادر بـــه نفـــوز   عنـــــد رجــــال اللزميـــــا
بالقنـــــــــدوز المزهـــــــد   في وســـــط الطلبـــــة عابـــــد
لا بـــــد في الـــــذكر يمجـــد   يخـــــــــدم ربي بالنيـــــــــة

إلى أن يقول:

يــــا رب عــــذب حســــن   بركــــت بيــــت الله تعيــــان
والطلبـــــة قعـــــدت تنهــــان   وافترقـــــــوا في بكريــــــا
افترقــــوا مــــن تحمــــدا   شــــدوا مــــن بــــه العمـــدا
مــــا تضــــنى كيفــــو والــــدا   اســـم النبـــي ســـيد ارقيـــة
ثــــم كــــانوا مجمـــــوعين   عــــــمارة للمســــــاكين
يكفـــل مـــن لا عنـــده ويـــن   يكســــي الى يجـــوه اعرايــــا

(1) أرسل **محمَّد بن علي السَّنوسي** أحد تلامذته حاملا إجازة أجازه بها سنة 1267هـ وكلَّفه بنشر السَّنوسيَّة ببلاده، فاتَّصل **الشَّارف ابن تكُّوك** به، وكان أوَّل من تتلمذ له، وفتح زاويته إلاَّ أنَّ السُّلطات الفرنسيَّة أغلقتها مدَّة، ثمَّ أذِنت في فتحها، وبهذه الزَّاوية كانت تنشد كلَّ ليلة جمعة هذه (**الاستغاثة**).

أحـــــدث ذاك الأمــــــر | في القــــرن الثالــــث عشـــر
ذا حكـــــــم الله قـــــــدر | عــــالم بكـــــل اخفيــــــه
في شـــــــهر الله صـــــفر | دارت بــــــه العســــــاكر
بالثلاثـــــة بعــــد الفجـــر | ولى في ايــــــدين العديــــــه
عام الخمسة والأربعـين (1245) | تـــــوفي ليلــــة الإثنــــين
فرحـــوا لـــــه الطـــايغون | الغـــــابطون في الــــــدنيا
فيحســــــبونها تــــــدوم | فشــــــبعتهم همـــــــوم
رجعــوا يخــدموا[1] في الــروم | في كــــل شـــــهر الجزيـــا
مـــــا رفقـــوشي بـــالنفوس | يخـــدموا غـــير النحـــوس
مـــــاذا قتلـــوا مـــن رؤوس | مـــــن ســـــاداتي الصـــوفية
قتلـــوا شـــيخي الربـــاني | مـــا هـــوشي مـــن أهـــل الفـــاني
يجعلـــــوا مـــــا ينســـــاني | في الآخــــــرة والـــــــدنيا

إلى أن يقول في خِتامها، إذ هي من النَّوع الذي استغاث بها صاحبها بسُور القرآن، فقال بعد أن ذكر ـ أو استغاث ـ بكلِّ سُور القرآن:

بالنصــــر تبــــت يـــــدا | ازجــــر علينـــــا الأعـــــدا
مــــــا يعرفــــوش الـــــردا | أصـــحاب الـــدنيا الفانيـــا
وبســـــــورة الإخـــــــلاص | الفـــــالق مـــــع الخنــــاس
امنعنـــــي مـــــن الوســـــواس | فـــــلا يقـــــرب ليـــــا

(1) هاجر الشَّيخ **الشَّارف بن تكوك** صاحب الغوثية إلى المغرب إثر قتل شيخه، ورجع بعد الاحتلال الفرنسي فأسَّس معهده الذي أذن له فيه ابن عمِّه وأستاذه **محمد بن علي السنوسي**، ولا شكَّ أنَّه أنشأ منظومته هذه بعد رجُوعه كما يدلُّ عليه هذا البيت.

انتهــــــــى في القـــــــــرآن   مائـــــة ظـــــاهر تعيــــــان
أربعـــة عشــــر يـــا رحمٰــــن   تجعلهـــــم ســــــور عليــــا

هذه صفحاتٌ من تاريخ الجزائر في العهد التُّركي ذكرناها مُبعثرة من دون مراعاةِ ما جرت به عادة المؤلِّفين في مثل هذا التَّقديم، تعرضنا فيها للثورات المتكرِّرة في العهد التركي خصوصًا ثورة **درقاوة** وما تركته من آثارٍ سيِّئة، وقد رأينا أنَّ الأتراك رغم هذه التمرُّداتِ والثوراتِ لم يُعدموا أنصارًا، وقد حكم الكثير من هؤلاء الأنصار على عهدهم أحكامًا نزيهةً، وبيَّنوا مواطن القوَّة والضّعف من دون تحيُّزٍ، ومن هؤلاء المفكّرُ الكبير السيِّد **حمدان بن عثمان خُوجة** [1] صاحب **(المرآة)**، فإنّه عقد فصلًا في **(المرآة)** ذكر فيه عهد الحكم بـ **(الجزائر)**، وقارن بينه وبين الحكم الفرنسي في أوَّل عهده، فقال ما مُلخَّصه: «إنَّه يستحسن الحُكم التُّركي مع اعترافه بمواطن الضُّعف، والغلطات التي ارتُكبت في عهد الدايات، ويرى أنّ سببها هو مخالفة الدايات للنُّظُم، أو لدستور مُؤسسي الحكم التركي بعد انضمامهم للخلافة العثمانية، ومن الأسباب أيضًا فتحُ الباب للَّفيف الأجنبيِّ الذين اعتنقوا الإسلام، ثمَّ المظالم التي كان يرتكبها الجيش التُّركي المسلَّح المُكلَّف بقبض المغارِم واحتقارُه للسُّكَّان، وتحميلهم ما لا يُطيقون من دفع الضَّرائب، أو تسخيرهم للأعمال الشَّاقَّة، وبالتَّالي انتهاكهم للحرمات، حتَّى عمَّ الاستياءُ والبغض»، وختم كلامه في الموضوع، بأنَّ «قواعد الحُكم التُّركي كانت مُرتكزة

---

(1) **حمدان بن عثمان خوجة**: شخصيةٌ جزائريَّة عظيمة، ينتمي إلى أسرة علميَّة، وكان خاله وزيرًا للمالية في العهد التُّركي، ورافقه في أسفاره، واطَّلع على نظم الدُّول الغربيَّة، وبعد الاحتلال الفرنسي تزعَّم المقاومة السِّياسية في العاصمة، واتَّصل بمن كان يأمل منهم الإعانة من الجيش الفرنسي، فعيَّنت الحكومة لجنة برلمانية، فهيَّأ لها المترجم تقريرًا هامًّا، هو: **(المرآة)**، طبع في **(باريس)** سنة 1833م، وسجَّل فيه حقائق البلاد قبل الاحتلال، وبعده.

علىٰ العدالة والاعتدال، وأنَّ الانحراف عن هذه القواعد، ومخالفة الشَّرع في جوهره كان سببًا في انهيار الدَّولة ... الخ».

وإنَّ كثيرا من الكتَّاب كانوا يرون رأي **حمدان بن عثمان خوجة**، ومنهم الكاتب **مسلم بن عبد القادر الحميدي** السَّالف الذِّكر، فإنّ له **(منظومة)** تعرَّض فيها للاحتلال الفرنسي وأسباب هزيمة الأتراك، وبيَّن محاسنهم ومساويهم، وهذه **(المنظومة)** وإن كان أسلوبها مهلهلا إلاَّ أنَّ قيمتها التَّاريخية لها وزنها، حيث إنَّ صاحبها شاهد عيان، وخبيرٌ من الطِّراز الأوَّل علىٰ العهد التُّركي، قال:

في يــج مــن محــرّم بهــا ظفــر بعــد قتــال ذرارع نــال الــوطر
فأركــب الأتــراك في أســطوله جمــيعهم والباشــا في أكبالــه
أســلبهم مــن ملكهــم وذلهــم بعـد العصـيان والطغيـان فلهـم
أمـــوالهم أخـــذها والأســـلحة قــص لهــم أريــاش الأجنحــة
غراب البين قص في حـرج العقـاب قـد اطمـأن قلبـه مـن العقـاب
خــلا لــه الجــو فمــد رجلــه لمـا طـوىٰ ملـك الأتـراك رحلـه
أدبهـــم ربهـــم لمـــا طغـــوا عــرفهم بقــدرهم لمــا بغــوا
فاشـتغلوا بـالظلم لـيس مـن عـدل فاتخــذوا أخــذا وبــيلا بالمهــل
لمــا نســوا مــا ذكــروا بــه خــتم عـــلىٰ قلـــوبهم الله وانـــتقم

إلىٰ أن يقول:

تبكــي الجزائــر عــلىٰ أملاكهــا كواكــب قــد كانــت في أفلاكهــا
صــناديد لــولا الفســاد في الــورىٰ لقلنــا قــلَّ مــثلهم فــوق الثــرىٰ
عتـوا عتـوا عـلىٰ الخلـق وجـاروا فكـــل أكثـــر العبـــاد وبـــاروا

فرفعــوا الكــل الأكــف ودعــوا بــها بــه أجــاب الله مــا رجــوا
أمهلهــم أن بلــغ الوقــت الأجــل أبـــدلهم بغـــيرهم ثـــم العمـــل
كـــأنهم مـــا كـــانوا في عـــز ومـــا تملكـــوا دهـــرا طويـــل المنتمـــىٰ
في عــام كــه مــن القــرن العــاشر كـــان ابتـــداء الملـــك للجزائـــر
فامتــد ملكهــم بــه كــاف وســين حتىٰ إذا كمـل الوعـد كـان البـين
في خامس من صفر حان الرحيـل لأهل وهران خوفـا مـن التبـديل
فـــــروا بأنفســـــهم وخلفـــــوا بهـا ملـك الوقـت عنـه انحرفـوا
وافترقــوا شرقــا وغربــا و مــاجوا وساحوا في كل الأوطان و عاجوا

... الخ.

كان النَّاقِمُونَ علىٰ الحكم التُّركي كثيرين، علاوةً علىٰ رُؤساء القبائل، وبقيَّة الأمراء من (**بني زيان**) وبني حفص (**أمراء بجاية**)، كان علماء البلاد ينقسمون إلىٰ قسمين: المقرَّبون الذين كانت تُعطىٰ لهم ظهائر يستوصون بحامليها خيرًا، فيُعفَون من الضَّرائب والسُّخرة، ويشجِّعونهم علىٰ التَّأليف، ويُوفدونهم إلىٰ الحجِّ نيابةً عنهم، زيادةً علىٰ الوظائف، أمَّا الآخرون فقد رأينا كيف كانت معاملتهم إياهم، فقد تفنَّن كثيرٌ من البايات في أنواع التَّعذيب والقتل، فكثرت الهجرة إلىٰ الخارج خصوصًا إلىٰ المغرب، إلَّا أنَّ العلماء المهاجرين أكثرهم استقرُّوا حيث ألقوا عصا التِّسيار، ولم يبلُغنا أنَّهم نشروا أو تعرَّضوا لمثالب الأتراك، اللَّهُمَّ إلاَّ العالم الأديب **أبو عثمان سعيد بن عبد الله، التِّلمساني**[1] منشأ

(1) **أبو عثمان سعيد بن عبد الله**: المشهور بـ (**المنداسي**)، هاجر إلىٰ (**المغرب**)، والتحق ببلاط المِلك محمَّد بن عبد الله العلوي، ثمَّ ببلاط **مولاي إسماعيل**، وكان مِن جملة محرِّضيه علىٰ محاربة الأتراك، وبالفعل شبَّت هذه الحرب سنة 1090هـ وباء بالفشل، اشتهر المنداسي بمنظومته:=

ودارًا، المنداسي أصلًا، فإنّه لمَّا هاجر إلى (**المغرب**) وعاش في بلاط الملوك العلويِّين، أنشأ قصيدة في مثالب أتراك (**تلمسان**)، واتَّهمهم مع مَن والاهم من العلماء بتُهم شنيعة، قال فيها:

أمــن قــادر بــالله يحمــي تلمســانا ... فــإنّ بهــا مــن قــوم يــأجوج إخوانــا
بنى السد ذو القرنين للنّاس رحمة ... فيــا ليتــه مــن شــوكة الــترك هنانــا
ســمعنا حــديثا صــادق النقــل ربــه ... بأنّ لجنس الـترك في الأرض إخوانـا
ولكــن وراء الســد عَــمَّ فســادهم ... وهم أفسدوا في الغرب كفرا تلمسـانا
لقد صرف الـدهر العـويص طوائفـا ... غلاظــا شــدادا في المــواطن طغيانــا
كعاد وأهل الرس والفرس مـا بقـوا ... ولا بقيت في الأرض قوم ابـن كنعانـا
وإخــوان لــوط والعمالــق إذ عتــوا ... وتبــع والأحــزاب بيضــا وســودانا
ومــا بــين ذاك مــن قــرون كثــيرة ... وأودى الزمــان قبــل ذلــك أدرانــا
فـما دَبَّ فـوق الأرض كـالترك مجـرم ... ولا ولــدت حــواء كــالترك إنســانا
ولا طار مثـل الـترك للسـمع طـارق ... ولا وجـد الشـيطان كـالترك فتانـا
عتوا واستفزوا المسلمين مـن القـرى ... وقــد عبــدوا حمــر الــدنانير أوثانــا
كأكـل الرِّبـا مـن السـفاح تناسـلوا ... فــلا مــارد إلا ويــترك شــيطانا
وأكــبر شيء أفســدته أكُفُّهــم ... تلمســان عــين الغــرب علــما وإيمانــا
وكانــت لهــم لمــا أرادوا فســادها ... أراذل مــنهم كالبطــارق أعوانــا

=(**العقيقة**) التي شرحها **أبو راس** وغيره من الأدباء شروحًا هامَّة، وقد تُوفي المنداسي بـ (**سجلماسة**)، في منتصف القرن الثَّاني عشر، وأتمَّ قصيدته (**العقيقة**) سنة 1088هـ وقد هاجر (**مكناس**) بعد توتُّر علاقته بملوكها.

فمنهم قرين السُّوء مفتي بلادهم تود العباد الترك كانوا ولا كانا
فقل لابن (...) في الضلال أئمة تدبر لحاك الله ما قال مولانا
ولا تركنوا والركن منكم سجية كأنّك لم تسمع من الله قرآنا
فإنّ أمير الترك فرعون قائم وأنت جليس السُّوء في زي هامانا
أتهدم دار العلم في خانك الذي تبيت وتضحىٰ فيه ويحك سكرانا
لئن فعلت بالخلق مثلك سوقة فقد سد منك الظلم للنّاس أركانا
فأنت لسان الترك والسيف لافظ تسر ويمضي السّيف قولك إعلانا
لقد كنت حبرا بالمدينة صالحا فصرت بها أخا القرامط حمدانا
قتلت فحول العلم صبرًا ولم تزل علىٰ عهدك المعلوم في الزيغ هامانا
فأيمت بالفتوىٰ نساء كريمة وأيتمت بالقول المضلل ولدانا
وشيدت للإسلام ركنا من الأذىٰ فلا شيد الرحمٰن من ذاك بنيانا
ألم تعلم أنّ الله بالترك قادر وأسرع بطشا منك لو كنت يقظانا
فما الله عن سفك الدماء بغافل ولا يترك الرحمٰن حاشاه لعبانا
وَاشَيْبَةَ التوحيد كيف تخضبت بأسمر كالباشا وظلما وعدوانا

لم يكتف الشَّيخ **المنداسي** بثلب الأتراك، بل استعان عليهم بملك (**المغرب**) مولاي إسماعيل، وقيل هو الذي حرَّضه علىٰ محاربة الأتراك، إلاَّ أنَّ قوم الشَّيخ هم الذين خذلوه بـ (**واقعة جدِيوِية**)، الشَّهيرة عند المؤرِّخين، والمقامُ لا يسمح بالتَّوسُّع.

والخلاصة أنَّ العهد التُّركي كان ككلِّ العهود، له محاسن ومساوئ، أو جمالٌ وجلالٌ ـ علىٰ حدِّ تعبير المتصوِّفين ـ نالت (**الجزائر**) في عهده حصانة البلاد، فكانت مرهوبة الجانب، يهيمِن أسطولها علىٰ البحر الأبيض المتوسّط، ويقرأُ لبحَّارته ألف

حساب، ولو أحصينا غنائم هذا الأسطول المتَّفق عليها، لما وسعها مُؤلَّف مستقلٌ، وممَّا يُلحق بغنائم الأسطول نذكر أنَّ أحباس عاصمة (**الجزائر**) و(**قسنطينة**) و(**تلمسان**) كانت أغنىٰ أحباس عواصم العالم الإسلامي، ومن الأحباس فقط كانت نفقات التَّعليم بجميع مراحله (ابتدائي، وثانوي وعالي)، كما كانت خزائن الكتب تُضاهي أعظم وأشهر خزائن العالم الإسلامي، إذ في عهد الأتراك عثر المؤرِّخ **أبو القاسم الزِّياني** لمَّا نزل بـ(**تلمسان**) علىٰ تآليف **سليمان بن إسحاق المطماطي**، و**هاني بن يصدور القوصي**، و**كهلان بن أبي لؤي الأوربي**، وكلُّها في تاريخ وأنساب البربر، وأيامهم في الجاهليَّة والإسلام، لأنَّهم ـ كما قال **الزِّياني**: «كانوا نسَّابة البربر» ـ.

وقد حفظ لنا التَّاريخ قائمة كتب اشتراها مُتولِّي أوقاف (**الجامع الأعظم**) المالكي بـ(**الجزائر**) في منتصَف القرن الحادي عشر، بلغت فيها قيمة بعض الكتب ستّ مائة دينار ذهب للمؤلَّف الواحد، وقد استفادت الخزائن الجزائريَّة من تراث (**الأندلس**)، حيث آوىٰ إليها كثيرٌ من المهاجرين الأندلسيِّين، كما استفادت من ثقافتهم وأدبهم، خصوصًا من الزَّجل، وكانت العلوم في العهد التُّركي التي تُدرَّس بمختلف المعاهد سواء بالقُرىٰ أو المدن، لا تختلف عمَّا كان يُدرَّس إذاك في معاهد العالم الإسلامي الشَّهيرة، كـ(**الأزهر**) و(**الزَّيتونة**) و(**القرويِّين**)، وإنَّ في بعض إجازات علماء ذلك العهد ما يدلُّ علىٰ ذلك، ومع هذا فإنَّ كثيرًا من علماء (**الجزائر**) كانوا يلتحقون بالجامعات المذكورة.

ولنرجع إلىٰ الكتب، فإنَّنا وجدنا أنَّ بعض رؤساء القبائل كانوا يُقلِّدون الملوك والسَّلاطين، لا في تعيين القُضَاةِ ـ كما سبق في أوَّل هذا البحث ـ فحسب، بل حتَّىٰ في اتِّخاذ خزائن الكتب، ومن ذلك ما عثرنا عليه في آخر تأليف **لابن أبي جمرة**، يقول فيه

ناسخه ما يلي: «كتبه **أبو القاسم بن مبارك بن علي بن الحاج الطّلحي** نسبا، السّاكن بـ **(مجّانة)**، صانها الله وحفظها لدين الإسلام وأهله، نسخه بيده الفانية للخزانة العلميّة، خزانة أميرنا ومولانا أبي عبد الله محمَّد الصَّخري بن أحمد الشّريف (أيّده الله بنصره، وأدام حياته حِصنا منيعا لأهل طاعته، وأمدَّ أيامه ... وجعله نِقمة لمن حادَّ الله ورسوله وألحد في آياته) بجاه سيِّدنا محمَّد صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه، ووافق إتمامه ضحوة يوم الاثنين من شهر الله المعظَّم صفر، عام (19) بعد الألف، عرَّفنا الله خيره وخير ما بعده» اهـ.

والصَّخري هذا من رؤساء **الذواودة** الثائرين علىٰ الأتراك، وكان إذاك تغلب علىٰ **(آل المقراني)** واستولىٰ علىٰ قاعدة إمارتهم **(مجّانة)**، وقد عثرنا علىٰ رسالةٍ كتبها العالم الأديب **محمد بن راس العين**[1] الأندلسي الأصل إلىٰ **(الأستانة)** يصفُ فيها حالة العاصمة حوالي سنة 1057هـ، فيقول: «ذات بساتين وأنهار، وأصوات وأطيار، وغدران وأشجار، وآصال وأسحار، وأعياد ومواسم، وثغور بواسم، ونفحات ونواسم، وجهاد وملاحم، وكرات ومزاحم، مشايخها تُقاة، وكهولها ثقات، وولدانها طغاة، وعساكرها غزاة، وفرسانها عقبان، وأفراسها عقيان، تسبق الأرواح، فتخف علىٰ الأرواح، لا يقف لبأسهم واقف، ولا يذعن لرجعيتهم راجف، ما بغىٰ عليهم باغية إلّا خصموه، ولا طاغية إلا حاربوه، فهزموه وقصموه، والآن ضعفت الرعيَّة، فعظمت البليَّة، وحلَّت الرَّزِية، وضاق المعاش، لما كثرت الأوباش، وضاعت الفقراء، إذ حارت الأمراء، وعظم الخطب، وتضاعف الكرب، ونَغَّصَ العيش طاغية من طواغي البادية،

(1) **محمَّد بن راس العين**: عالم أديب، أندلسي الأصل، تولّىٰ نيابة الشَّيخ سعيد قدُّورة (مفتي الجزائر)، وكان كاتبا عند **(باشا الجزائر)**، ترجم له صاحب **(درَّة الحجال)** ابن القاضي، كان حيا سنة ستين وألف. هـ.

فعظم الخطب، وحلَّت الداهية ... الخ»، والطاغية هذا هو الصّخري رئيس قبيلة **الذواودة**.

هذه في الجملة حالةُ بلادنا في العهد التُّركي[1]، وإذا أمعنَّا النَّظر واستعملنا نظر ذلك الزَّمان، نجد أنَّ هذه الاضطرابات لم تكن حَظَّ الجزائر وحدها، بل كانت مُوَزَّعة على كثير من بلاد العالم الإسلامي، فإنّ سيطرة القبائل العربية ورُؤسائها كان عامًّا حتى إنَّ الرَّحالة **عبد الباسط** لما زار (**تلمسان**) في أواخر القرن التّاسع الهجري، ورأى أحد رُؤساء قبيلة (بني عامر) يُقال له **سليمان**، وامرأة تدعو للملك الزّياني حتى **يعطف عليه سليمان** هذا، قال: «وكان سليمان هذا، من كبار أمراء العرب، وهو أمير عربان هلال، أعظم من أمير آل فضل[2] في هذه البلاد ـ أي الشّام ـ ومن كان سليمان هذا معه من ملوك تلمسان راج أمره، ومن كان عليه كان في إدبار وتخوف» [3].

---

(1) اختصرت في الحديث على الثورات التي كان معظمها في القطاع الوهراني، ومن أراد أن يتتبع ثورات القطاع القسنطيني فعليه بكتاب: (**الأخبار المبينة لاستيلاء الترك على قسنطينة**) للشيخ محمد الصّالح ابن العنتري القسنطيني، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية، وطبع بمطبعة قند بقسنطينة سنة 1846م، وهو من المصادر الهامة، سجَّل فيها مؤلّفه الأحداث التاريخية بقسنطينة ابتداءً من منتصف القرن الحادي عشر الهجري إلى سنة 1253.

(2) **آل فضل**: من ذرية فضل بن ربيعة ذكرها القلقشندي، وذكر أنّها أقوى وأهم قبيلة عربية في الشام، وما زالت بقاياها في أرض جولان، انظر: (**رحلة عبد الباسط**) نشر روبير برنشويق القسم العربي (ص: 420).

(3) عثرنا على رسالة كتبها **السيد محيي الدين** في طريق رجوعه من الحج صُحبة ولده عبد القادر (1246) لأخيه يصف له حالة مصر والحجاز، والاضطرابات التي لاقوها مُدّة إقامتهم ما يدلُّ على أنَّ معظم البلاد الإسلامية كانت في غليان واضطرابات، والرِّسالة كتبها والد الأمير من جزيرة قبرص.

ولنختم القسم الأوّل من هذا التّقديم بما وصف به البلاد **الشّيخ أحمد بن سحنون** صاحب (**الثّغر الجماني في ابتسام الثّغر الوهراني**)، فقال: «ثمَّ إنَّ دولة الأتراك ضربت الأرض بِجِرَانِها، وألقت بهذا المغرب الأوسط كلكلها، ومدَّت رواقها على ما بين (**وجدة**) إلى منتهى أعمال (**تونس**)، واتَّصلت بأطراف عَمَالة الخليفة في القديم، فدوَّخوا عصاتها، ودانت لهم أهلها، فانقطعت عروق الفتنة، وذهبت مواد الشِّقاق، ولم يبق بها صائلٌ غيرهم، ولا ثائر من سواهم، واختصروا ما كان يكثر غيرهم لطلب الملك من الثَّورة بالقبائل، وإقامة الحروب وإثارة الفتن الجلائل، فصار ذلك مقصورًا على دار الملك لا يتعدَّاها إلى الزِّقاق، فكانوا إذا قام أحدٌ على السُّلطان فقتله في داره وكان له أنصارٌ يحمونه تولَّى مكانه، فإن مات السُّلطان بغير قتل اجتمع أهل الرَّبط والحلِّ فتشاورُوا فيمن يولُّونه الملك، حتَّى يتَّفق رأيهم على أحد فيُقيمونه سلطانًا ... الخ».

هذا رأيُ المؤلِّف قبل (**ثورة درقاوة**) واستفحال الدَّاء، ختمنا به القسم الأوَّل من بحثنا الذي ألقينا فيه نظرة إجمالية على جوانب من عهد الحكم التُّركي بـ(**الجزائر**)، اعتمدنا في معظمها على المصادر الأصليّة، وأكثرها غير معروف ـ أي: غير منشور ـ.

ولنرجع إلى (**القسم الثَّاني**) من التَّقديم الذي يشمل التّعريف بـ(**الثّغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**) ومُؤلِّفه **السَّيد أحمد بن محمَّد بن علي بن سحنون**.

لم نجد ترجمة هذا المؤلِّف في غير هذا التَّأليف، وجدناها في الإجازة التي أجازه بها شيخه العلاَّمة **محمَّد بن عبد الله الجلاَّلي**، حيث عرَّف به وبمكانته العلميَّة، فقال: «الفقيه النِّحرير، الحسيب الشَّهير، السَّيد أحمد بن محمَّد بن علي بن سحنون الشَّريف».

والشَّيخ محمَّد بن عبد الله الجلاَّلي صاحبُ الإجازة، هو من أكابر علماء البلاد، وقد اختاره الباي **محمَّد بن عثمان الكبير** لإدارة مدرسته (**المحمَّديَّة**) التي بناها قُرب مسجده

الذي أسَّسه على أنقاض **الجامع الأعظم العتيق**، وقد وصف المسجد والمدرسة الشَّاعر الكبير **أحمد المقري القرومي**(1) في قصيدته التي مدح بها الباي محمَّد بن عثمان لمَّا وفد عليه بـ (**معسكر**) ووجده قريب عهد بإتمام بنائهما، فقال:

عجبا له من مسجد في الأرض قد ... حاكى السماء تطاولا في المفخر
تحويه مدرسة غدت آثارها ... تحييه بالعلم النَّفيس الأشعري
تمحي رسوم الجهل من ألواحه ... تحمي شمائله من الزّور السري
مبنى الأمير محمَّد في الغرب قد ... لاحت آثاره كالصَّباح المسفر

كما أنَّ الباي **محمَّد بن عثمان** لمَّا عزم على غزو (**وهران**) وطرد الإسبانيِّين منها، فكَّر في إحياء الرِّباط، ووقع اختياره على مدير (**المدرسة المحمَّديَّة**) **محمَّد بن عبد الله الجلاَّلي**، فعيَّنه رئيسًا للرِّباط، وعيَّن له مساعدَين: هما **القاضي الطَّاهر بن حوَّاء**، وكاتبه الخاصّ ـ كاتب الباي ـ **محمَّد المصطفى بن زَرْفَةَ الدَّحاوي**، وفي ذلك يقول صاحب (**الثّغر الجماني**):

ورتب المرابطين في الجبل ... من كل حبر عن هوى الموت جبل
وكل مقدام همام وبطل ... منذ بدا باد الضلال وبطل
مؤمرا لشيخنا الجلالي ... محمد الأحق بالإجلال
ملتزما لرزقهم جميعا ... ملبيا لقولهم سميعا
فوقعت هُنَالِكُمْ حروب ... زيدت بها على العدا كروب

لم يحظ الشَّيخ **محمَّد بن عبد الله** هو أيضًا بمَن ترجم له مِن معاصريه مع توافر

---

(1) **قرومة**: قريةٌ تقرب من الأخضرية (**بالسترو**) في عهد الاحتلال، كانت دار علم استوطنها بعض أفراد أسرة المقرِّي التلمساني، ويُنسب إليها كثيرٌ من علماء العاصمة في العهد التركي.

عددهم، اللَّهمَّ إلَّا ما ذكره تلميذه **أحمد بن سحنون**، أو ما عثرنا عليه من إجازة[1] أُخرىٰ أجاز بها بعض تلامذته، تعرَّض فيها لرحلته العلميَّة ومشايخه بـ **(تلمسان)** و**(فاس)** والمشرق، أو من رسالة قيِّمة في موضوعها، كان ردَّ فيها علىٰ زميله **الشَّيخ أحمد التِّجاني**، مؤسِّس الطَّريقة التِّجانيَّة، بواسطة بعض تلامذته.

كاتب الشَّيخُ **التِّجاني محمَّدَ بن عبد الله الجلاَّلي** يُخبره بأنَّه عزم علىٰ التَّصدِّي للتَّربية، وأنَّه فُتِح عليه بما لم يفتَح به علىٰ كثيرٍ من السَّلف، فأجابه **محمَّد بن عبد الله** مُظهِرًا في كتابه عُمق النَّظر واستقلال الفكر، وانتصاره للسَّلفية الصَّحيحة، كلُّ ذلك في قالب حكمة ونصيحة ... الخ.

وقد عرَّفه تلميذه **أحمد بن سحنون** فقال: «نشأ (رضي الله عنه) بين علم يقتبسه، وأدب يلتمسه، ثمَّ رحل إلىٰ حضرة **(فاس)**، وحلَّ بهاتيك السَّاحة الطيِّبة الأنفاس، فالتقىٰ بعلمائها الأكابر، واستفاد عنهم ما تقصُر عن جمعه أهل المحابر ... ثمَّ رجع وقد ظهر وبهر، وحلَّ فرقده في دارة القمر، فدرس في بلدنا فيما درس من العلوم، وجدَّ إلىٰ أن وجد مسلكًا لإحياء تلك الرُّسوم، ثمَّ ارتحل إلىٰ **(الحجاز)**، فالتقىٰ بعلماء الأمصار وجالسهم وباحثهم في غوامض المسائل، ثمَّ رجع وقد أدَّىٰ الفريضة، وعطَّر الآفاق بأزهار روضة علومه الأريضة، وهو الآن كهف الله الملاذ، وجبل به المعاذ، تفكُّ بجاهه الشاء من فكِّ الأسد، وترتاح في مِراح دروسه الرُّوح كما يرتاح بلقائه الجسد، ألا وإنَّه من أكبر شيوخنا الذين انتجعنا رياض دروسهم، وانتفعنا كلَّ النَّفع بما اجتنينا من غروسهم».

---

(1) أجاز بها العالم الشَّيخ **عبد القادر الرَّاشدي** المحدِّث الشَّهير المتخرِّج من **(الأزهر)**، وتمتاز هذه الإجازة عن إجازة مؤلِّف **(الثَّغر الجماني)**، حيث إنَّ المجيز ذكر فيها أساتذته شرقا وغربا بأسمائهم، وكذلك معظم الفنون التي قرأها عليهم.

كان **أحمد بن سحنون** ينتمي إلى أسرة علميَّة اشتهر كثيرٌ من أفرادها بالعلم، ومن جملتهم والده قاضي قضاة (**معسكر**)، الشَّيخ **محمَّد بن علي بن سحنون**، ذكره المؤرِّخ **أبو راس النَّاصري** ضمن أساتذته الذين ترجم لهم في (**رحلته**)، قال ـ يصف ابتداء حياته العلميَّة ـ: «جلستُ في حلقة الشَّيخ محمَّد بن مولاي علي ابن سحنون قاضي (**معسكر**) لأقرأ الفقه»، ثمَّ قال في موضع آخر من (**الرِّحلة**): إنَّه لماَّ رجع من (**مدرسة مازونة**) ولَّاه شيخه المذكور القضاء ببعض أكوار (**معسكر**).

كان المؤلِّف من مُلازمي بلاط الباي **محمَّد بن عثمان**، مختصًّا بولده وليِّ عهده، وقائد جنده، **عثمان** (1)، تربط بينهما صداقة متينة عبَّر عنها المؤلِّف بقوله: «وقد كنتُ منذ فارق دار الملك منظوما معه من الوداد في أبهج سلك، نجيل قداح الوداد، ونجري في طريق المصافاة على ممرِّ السَّداد، وفي خطابه أفنيت عمر كلامي، وسَرَّحْتُ سوائم أقلامي»، وزيادة على هذه الصَّداقة التي مكَّنته من الاطِّلاع على خبايا القصور، فإنّه استفاد من الوثائق الهامَّة، والمصادر التي سجَّلها في تأليفه هذا، الذي هو عبارةٌ عن مذكِّرات، حيث قال: «وقد كنتُ شرعت فيه أوان الشُّروع في القصيدة، فما وقع أمر من متعلَّقات الجهاد إلاَّ نظمته، ولا نظمت شيئا إلاَّ شرحته، حتَّى تمَّت القصيدة بتمام الجهاد، وتمَّ هو بتمام القصيدة، ومن ثمَّة يُوجد في آخره ما ظاهره يُناقض ما تقدَّم في أوَّله، لأنَّ الأمر يقع حسب ما ذكرت أوَّلا، ثمَّ يطرأُ ما يُغايره، فأثبته غير منبِّه عليه، ولم يقع ذلك إلَّا

---

(1) عثمان: وليُّ عهد أبيه محمَّد الكبير، كان والده كلَّفه بقِسم من جيشه، ثمَّ لماَّ توفي والده عيِّن خلفه خمس سنوات، ثمَّ عزِل من منصبه، وألزِم بالإقامة الإجبارية بـ (**البُلَيدة**)، ثمَّ عيِّن سنة 1218م بايًا على (**قسنطينة**)، فتوفي قتيلا في معركة الثَّائر **محمَّد بن الأحرش الدَّرقاوي**، بعد أن بقيَ بايًا مدَّة (18) شهرا.

قليلا».

يظهر مِن هذا أنَّ التَّأليف كان شبه يوميَّات لشاهد عيان، وهذا التَّأليف هو ثالث ثلاثة في موضوعه، أي: **فتح وهران الأخير**، وطرد الإسبانيِّين منها نهائيا، بعد أن دام احتلالهم لها ما يقرب من ثلاثة قرون.

أمَّا التَّأليفان الآخَران، فهما: (**الرِّحلة القمريَّة في السِّيرة المحمَّديَّة**)(1) لمحمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة الدَّحاوي، كاتب الباي الخاصّ، ومساعد رئيس رباط وهران، و(**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**) لمحمد **أبي راس النَّاصري**.

و(**الرِّحلة القمريَّة**) هذه، وإن كان صاحبها مِن ملازمي الباي، وقد كلَّفه بتسجيلها كما أخبر بذلك مؤلِّف (**الثّغر الجماني**) الذي قال: «وفي مآثره الحميدة ألَّفت هذا الموضوع، ولماَّ أنزل الطَّلبة بـ (يفري) ـ مَحَلِّ الرِّباط ـ أمر السَّيد **المصطفى بن عبد الله**، وهو إذاك معهم، بتقييد الحوادث الواقعة فيما يتعلَّق بالجهاد، وما يصل الطَّلبة من رزق وغيره، فقيَّد قليلا، ثمَّ اشتغل عن التَّقييد إلى أن حصل الفتح، فهو الآن يتلقَّى الأخبار من أفواه الرُّواة، ويجمعها من الرَّسائل، ويضمُّها إلى ما قيَّده، حتَّى يصير المجموع ـ إن شاء الله ـ كتابا»، وذكر مؤلِّفها الذي استفاد بدوره من خزانة الباي، حيث قال في مقدِّمة (**الرِّحلة**): «ولماَّ عزمت على الانطلاق، وعقدت لتقييد الرِّحلة حبال النِّطاق، دخلت إلى مجلسه الرَّحيب، وتظلَّلت بأفياء غصنه الرَّطيب، فكان مِن سابغ فضله أن زوَّدني من خزائن كتبه (عمَّرها الله تعالى بطول عمره، ودوام منصبه)».

---

(1) **محمَّد المصطفى بن زرفة**: كاتب الباي الخاصّ، عيِّن قاضيا بـ (**وهران**) بعد الفتح، وتوفي سنة 1215هـ من جرَّاء الوباء، كان من تلامذة **محمَّد أبي راس** وقرَّظ له بعض تآليفه.

فإنّه رغم هذا كلِّه يستطرد فيه، ويُقارن بين هذه الغزاة وغزوات النَّبي ﷺ، وقد نبَّه على ذلك في المقدِّمة، فقال: «معلما أنَّ الرِّحلة لا تحتمل التَّبويب والتَّفصيل، ولا يُبرهَن على صحَّة ذلك بدليل، فأردتُ إذا فاتني ذلك أن نترجمها بشهور السَّنة القمريَّة، وموضع فصولها مشاهير الوقائع المحمَّديَّة، دائرا فيها مع دوران فلك القمر، متبرِّكا في تعدادها بالنُّقباء الإثني عشر، فلكلِّ شهر ترجمان سيرته، وسمسار صفقته في رحلته».

أمَّا (**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**) الذي هو شرحٌ للمنظومة التي مدح بها **أبو راس** الباي **محمَّد بن عثمان**، لماَّ صادف الفتح عند رجوعه من رحلته الشَّرقيّة التي دامت سنتين (1204ـ 1206هـ)، وزار خلالها عاصمة (**الجزائر**)، ثمَّ (**قسنطينة**)، ثمَّ (**تونس**) و(**مصر**) و(**الحجاز**)، وسجَّل فيها انطباعاته وما تبادله مع علماء البلاد التي زارها من الإجازات والتَّقاريظ لمؤلفاته، واجتماعه في (**الحجاز**) بالوفد الوهَّابي، والمناظرة التي وقعت معه فأثَّرت فيه تأثيرًا حسنا، ورضيَ بسلوكهم، بل صار داعية للسَّلفية، وهذه (**الرِّحلة**) من أهمِّ مؤلفاته، و(**عجائب الأسفار**) هذا، وإن كان غزير المادة في تاريخ البلاد بصفة عامَّة، وفي تاريخ (**وهران**)، وتراجم علمائها وقبائلها ورُؤسائها، فإنّه كان يستطرد هو الآخر كثيرًا من المسائل البعيدة عن الموضوع، ويُرسل عنان قلمه معها، مع ما امتاز به أسلوبه الضَّعيف، وبالخُصوص شعره ونظمه، وذلك أنَّه لم يتعلَّم اللُّغة العربيَّة وعلومها إلَّا بعد أن تصدَّر لدراسة الفقه، فكان نظمه مهلهلا لا يُراعي فيه قواعد اللُّغة ولا الوزن، مع أنَّه ألَّف عشرات التَّآليف في اللغة [1].

(1) **محمَّد أبو راس النَّاصري** (1165ـ 1238هـ): كان حافظا لم يقرأ في أوَّل عهده إلاَّ الفقه، وبعد انتصابه للتَّدريس بـ(**معسكر**) ألحَّ عليه بعض المتخرِّجين من (**الأزهر**)، فشرع في دراسة اللُّغة وعلومها إلى أن وصل إلى درجة وصفه تلميذه **محمد بن علي السنوسي** دفين (**ليبيا**) في بعض=

ولهذا نجد (**الثّغر الجماني**) يمتاز عن التَّأليفَين المذكورَين بميزات، منها: أنَّ أسلوبه المتين يدلُّ على أنَّ المؤلِّف كان ضليعًا في اللُّغة العربيَّة، عارفا ومذلِّلا لدقائقها، ملازمًا لموضوعه لم يخرج عنه قطّ، اللَّهمَّ إلَّا إذا دعت الحاجة إلى الاستطرادات الخفيفة، وعلى هذا يُمكن لنا أن نحكم بأنَّ (**الثّغر الجماني**) هو أهمُّ ما أُلِّف في هذا الفتح، وهو سجلٌّ جامعٌ له، وهذا التَّأليف شبيهٌ بكثير من تآليف ذلك العهد، الذي كان المؤلِّفون يُخصِّصون التَّاريخ الجِهوي بهذا النَّوع من النَّظم، وقد ظهر منه (**بغية الطَّالب في ذِكر الكواكب**) لـ: **أبي مهدي عيسى التُّوجيني**، ترجم فيها لمعاصريه من علماء القرن العاشر، و(**فلك الكواكب وسلَّم الرُّقْبَا إلى المراتب**) للشَّيخ **أبي عبد الله المغوفل**، ترجم فيها لعلماء مدينة (**البطحاء**)[1]، و(**سبيكة العقيان فيمن حَلَّ بمستغانم وأحوازها من الأعيان**) للشيخ محمد بن حواء دفين مستغانم، و(**أرجوزة الحلفاوي**) مع (**شرحها**) للرَّحَّالة **عبد الرَّحمـٰن الجامعي الفاسي**، و(**الدُّرَّة المصونة في علماء وصلحاء بونة**) **لأحمد ساسي البوني**، و(**لواء النَّصر في فضلاء العصر**) **لأحمد بن عمَّار الجزائري**، صاحب

=فهارسه بما يلي: «ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا، الهمام الحافظ الإمام سيِّدي **محمَّد أبو راس المعسكري** البلد، النَّاصري المحتد (رحمه الله) كنتُ أتردَّد إليه كثيرًا، وأستفيد منه استفادة عظيمة، لتمام حفظه وإتقانه لكلِّ فنٍّ، حافظا لمذاهب الأئمَّة الأربعة، جواب كلِّ ما سئِل عنه بين شفتَيه، وغالب مَن أخذنا عنه مِن أهل ناحيته أخذ عنه... الخ».

(1) **البطحاء**: مدينة شهيرة في التَّاريخ الجزائري، يذكرها الرَّحَّالون كمرحلة ومحطَّة بين (**مازونة**) و(**قلعة بني راشد**)، وقد ذكروا أنَّه بناها عبد المؤمن بن علي، والحقيقة أنَّ عبد المؤمن لمَّا مرَّ عليها صحبة أستاذه ابن تومرت كانت موجودة، وفيها اجتمع ابن خلدون مع وزير الملك أبي عثمان، وقد اختلف المتأخِّرون، خصوصا المستشرقين، في موقعها، إلى أنْ عثرنا على وثائق تثبت أنَّها (**قرية المطمَر**) التي كانت تسمَّى: (**كلانشا**) في عهد الاحتلال، ذكر **أبو راس** وكذلك الصَّبَّاغ أنَّ (**البطحاء**) يوجد بها قبر عبد الهادي أبو غنيسة ـ دفين محطَّة السِّكك الحديدية.

(**الرِّحلة**) المشهورة، وكان لهذا النَّوع من التَّاريخ الجهوي فضلٌ عظيم، خصوصًا القسم الذي حظيَ منه بالشَّرح والتَّعليق، سواء في ذلك المنظوم منه أو المنثور، كـ(**العقد النَّفيس في بيان علماء وأشراف غريس**)، شرع المؤلِّف ابن سحنون في الحثِّ على الجهاد والتَّنويه بأهمِّيَّته، فقال:

وبعد فالجهاد أصل البر ... وقد عفا رسما بهذا البر

من عهد شعبان وباكداش ... سقى صداهما الغمام الناشي

فلا يراع للعداة سرب ... ولا بأرضهم تقام حرب

حتى بدا ليث الحروب الورد ... ثالث ذين السيدين الفرد

إلى أن يقول:

من قد أذاع العدل والأمانا ... وأبطل الجور أبو عثمان

محمد محيي رسوم المجد ... سليل عثمان الهمام الكردي

ثمَّ تعرَّض لحياة الباي **محمَّد بن عثمان**، فذكر منها حياته الخاصَّة، ونشأته وتقلُّباته في الوظيف، إلى أن عُيِّن بايًا للولاية **الوهرانيَّة**، وكانت قاعدتها إذ ذاك (**معسكر**)، فذكر إنشاءه لـ (**المدرسة المحمَّديَّة**)، وللمسجد (**الجامع**)، وما حبَّسه عليهما من أحباس، ثمَّ بيَّن اهتمامه بالثقافة والمثقفين فقال: «وله في (**تلمسان**) و(**مستغانم**) و(**الجزائر**) وغيرها مبانٍ كثيرة، وآثار في ذلك شهيرة، بين مساجد ومشاهد ومدارس، بل وحتَّى في الفلَوات الخالية والطُّرق المعطشة المُقفرة، لا يخلو سائرٌ من رُؤية آثاره ومآثره، وقد جدَّد المدرستَين القديمتَين بـ (**تلمسان**)، وأحيا ما أمات الزَّمان من آثارهما، ومن أعظم مآثره، وإن كانت كلُّها عظيمة، أنَّه رتَّب المدرِّسين في الجوامع بوظائفَ يأخذونها من الأحباس، بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية (**المخزن**) بشيء، إلَّا مَن كان مُتولِّيا لخطَّة، أو مُستعمَلا في خدمة، فاتَّسعت بذلك حال العلماء، وانشرحت الصُّدور

للقراءة، وشرهت النُّفوس، وكثُر طلبة العلم، وتشوَّق كلُّ أحد للتَّدريس، واشتدَّ الحرصُ علىٰ التَّعليم، من بعد أن كاد يُترك اشتغالًا بالتِّجارة، لقلَّة جدواه ... الخ».

ثمَّ يتحدَّث عَنْ اهتمام الباي بالتَّأليف، وتشجيع المؤلِّفين، فيقول: «وأمَّا حبُّه للعلم وإحسانه إلىٰ العلماء الأخيار، فقد شاع منه ما يُغني في الأخبار، وكم من تأليفٍ نشأ بأمره، ونال مُؤلِّفه به وافر برِّه، فمنها أنَّه أمر بعض الطَّلبة سالفًا بجمع فتاوىٰ العلماء في جوائز الملوك[1] فجُمع له من ذلك رسالة، أثابه عليها بسبعين دينارًا، وجمع له بين كلام شارح (**السّلوانية**) في البازي، وصاحب (**التَّذكرة**) في أقلِّ من كُرَّاسة، فأجازه بما يليق بمنصبه، ثمَّ أمرني باختصار (**الأغاني**)، فاختصرته في نحو الثَّمانين كرَّاسة، فأثابني بمائة سلطاني، ثمَّ أمرني أيضًا بجمع طبّ (**القاموس**) فضممته وزدتُ عليه من كلام الأطبَّاء ... الخ».

لم يقتصر الباي علىٰ تشجيع الحركة العلميَّة داخل البلاد فقط، بل كان يمُدُّ طلبة العلم الملتحقين بـ (**الأزهر**)، ويبعثُ لهم سنويًّا إعاناتٍ ضمن الهديَّة التي التزم بها لشيخ الإسلام، الذَّائع الصَّيت الشَّيخ **مُرتضى الزَّبيدي**[2]، وقد تبادل معه بعض الرَّسائل في الموضوع، أثبتَها المؤلِّف، فمن ذلك رسالة افتتحها ببعض الأبيات، قال فيها:

أيُّهـــا البـــدر لا برحـــت عليًّـــا ... شـــامخ المرتقـــىٰ بهيًّـــا ســـنيًّا

---

(1) أثارت هذه القضية خلافا كبيرا بين علماء البلاد، وتعرَّض لها **القاضي محمَّد العقباني التِّلمساني** في تأليفه: (**تحفة النَّاظر وغنية الذَّاكر في حفظ الشَّعائر وتغيير المناكر**) الذي ألَّفه سنة 860هـ، وبقيت تلك الخلافات تثار حولها إلىٰ عهد الباي المذكور.

(2) الشَّيخ مُرتضىٰ: عالم ومؤلِّف شهير، وهو صاحب (**تاج العروس**) شرح به القاموس، و(**ألفية السَّند**) ذكر مشايخه وتلامذتهم، وما زالت بعض الأُسر العلميَّة بـ (**بنى يعلى العجيسي**) تحتفظ بإجازته لبعض تلامذته منهم.

مالكـــا رقبـــة الأنـــام جميعـــا   بالِغـــا في العُـــلا مقامـــا زكيَّـــا

إلى أن يقول:

جاءنـــا منـــك كتـــاب فقـــرَّت   أعـــين كـــان دمعهـــا عنـــدميّا

وثملنـــا لمـــا ســـمعنا فملنـــا   كنشـاوى احْتَسَـوْا عتيـق الحُمَيَّـا

وخَتَمَ كتابه بقوله: «ولقد وصل ما أهدى به إلى محبِّه في باطن الصّرّة من الصِّلة التي هي في كلِّ عام تتصل وتزيد، فالله يديم التَّأييد»، وكتب في منتصف جمادى الأولى سنة إحدى ومائتين وألف (1201هـ).

لم يكن الباي **محمَّد بن عثمان** بحُكم منصبه فقط يُشجِّع الحركة العلميَّة، بل كان مُثقَّفا عالما لم تنسه مهامه الشَّائكة الاشتغال بالعلم، قال المؤلِّف: «ولمحبَّة هذا الأمير للعلم والأدب كان يشتري كُتبه بالثَّمن البالغ، ويستكثر منها وينتسخ ما لم تسمح نفس مالكه ببيعه، وكثيرًا ما يأمرُ بقراءتها بحضرته في مجلس حكمه، وإذا انفضَّ النَّاس انفرد بها، فكانت له نِعْمَ الأنيس، ولذلك تجده مُستحضِرا لأكثر معانيها، فلا تمرُّ قضيَّة، ولا حديثٌ مشهورٌ، ولا شيء من أيَّام العرب وأخبارها، وسِيَر ملوكها وأنباء حروبها، وأمثالها وحِكَمها، إلاَّ وله به خبرة ... الخ».

وكان له اعتناءٌ خاصٌّ بالرّياضة، فهو الذي كان يُشرف على تعليم الرِّماية والسِّباحة، كما سيأتينا ذلك عند التَّعرُّض لتدريب الجيش الذي كان يُعدُّه لغزو **(وهران)**.

ثمَّ تحدَّث المؤلِّف عَنْ مواقف الباي في الجهاد، وشجاعته المثاليَّة، وقبل أن يتحدَّث عن حربه للإسبان بـ **(وهران)**، ذكر مشاركته في **(واقعة الحرَّاش)** المشهورة بهجوم دوري التي وقعت سنة 1189هـ وخصَّها **محمَّد بن رقيَّة** بالتَّأليف المسمَّى: **(الزَّهرة النَّائرة في أخبار الجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة)**، فذكر المؤلِّف هجومات الأعداء التي

توالت علىٰ (**الجزائر**)، ثمَّ تحدَّث عن (**واقعة الحرَّاش**)، فقال: «فقد أتوها سنة تسع وثمانين ومائة وألف (1189هـ)، وخرجوا إلىٰ البرِّ قُرب (**وادي الحرَّاش**)، وابتنَوا مترسا طوله ألف خطوة، وأنزلوا إليه مدافعهم وزادهم، وخرجوا للقتال يوم السَّبت العاشر من جمادىٰ الأولىٰ، وحملوا كالجراد المنتشر، حتَّىٰ وصلوا دروب الأجنَّة، فردَّهم المسلمون أقبح الرَّدِّ وأحجروهم إلىٰ مترسهم، وقتلوا منهم نحو الثَّمانية آلاف، أو أكثر، وجرحوا أكثر من ثلاثة آلاف، لم يعش منهم إلاَّ النَّادر، حتَّىٰ كانوا يقولون: (**إنَّ رصاص المسلمين مسموم**)، وكان أميرنا المشهور بالبسالة والنَّجدة (أدام الله عزَّه، وأبَّد مجده) حاضرًا يومئذٍ، فكان له البلاءُ المشهور، والإقدام الذي شهد به الجمهور ...»، إلىٰ أن قال: «وقد تركنا الإطالة في ذِكر هذه الغزاة لشُهرتها، واتِّكالًا علىٰ مَن دوَّنها من علماء (**الجزائر**)، وهي الوقعة الثَّامنة من الوقائع التي أُجْلِيَ فيها الكفَّار علىٰ الجزائر».

ثمَّ تعرَّض المؤلِّف لتنمُّر القبائل التي كانت تتحدَّىٰ السُّلطات، وتعيث في الأرض فسادًا، فاشتغل بها الباي، إلىٰ أنْ أعلنت طاعتها وتوبتَها، فقال: «وقد كان **الحشم**[1] المعروفون لا يُؤتىٰ من عندهم بالجاني، ولا ينالهم من المخزن أكبر ضر، حتىٰ كثر فسادهم وقطعهم الطريق، وتراميهم علىٰ الطاعة، وعدم توقيرهم لإمارة، وقلَّة مراعاتهم الشَّريعة، فخافهم القريب والبعيد، وتعطلت من جهتهم السُّبل، وتقاعد الأمراء عن غزوهم ... حتىٰ ولي هذا البازي الذي لا تفوتُه قنيصة، ولا تصعب عليه عويصة، فذلُّوا واستكانوا، وصاروا من أحقر الرعيَّة».

ثمَّ يتعرَّض لبقيَّة القبائل المتمرِّدة التي أخضعها الباي فيقول: «وكذلك كانت

---

(1) موطنهم إذ ذاك بين (**معسكر**) و(**سعيدة**)، وقد عرَّفهم الشَّيخ الطَّيب ابن المختار، قريب الأمير عبد القادر، في تأليفه (**القول الأعمّ في بيان نسب الحشم**) المذكور في أوَّل التَّقديم.

(**فليتة**)[1] القبيلة المشهورة التي لا تحُومها النُّسور، ولا يمرُّ بها في غير أيَّام المحلَّة إلَّا قتيل أو مأسور، يقطعون السَّبيل، ويجرِّعون مَن غزاهُم الزعاف الوبيل»، إلىٰ أنْ يقول: «وكذلك الأحرار الأعراب المعلومون لا يُؤدُّون خَراجًا، ولا يضيئون للحقِّ سِراجا، يتغلَّبون علىٰ الشَّريعة، ويقطعون لمن ناوأهم كلَّ ذريعة، يجارُون الوحش في الهرب، ويعادون الأُسود في التَّغلُّب علىٰ العرب، فلم يزل جادًّا في طلبهم، آخذا لسلبهم، مكدِّرا لعيشهم، مبدِّدا لعشِّهم، يفزعهم إذا اطمأنُّوا ... حتَّىٰ صلحوا واستقاموا».

ولـمَّا اشتهر أمره في إخضاع القبائل المتمرِّدة، صار الباشا كثيرًا ما يُكلِّفه بردعِ المتمرِّدين، حتَّىٰ من هم في غير وِلايته، وفي ذلك يقولُ المؤلِّف: «إنَّ السَّيد حسن ـ باشا (**الجزائر**) ـ (أدام الله دولته، ومكَّن مِنْ أهل الزَّيغ صولته) يأمره بغزو المذكورين (**سماتة**)[2] لكونهم أكثروا الفساد، وقطع السبيل حتَّىٰ تعذَّر خوض واديهم، والمرور بناديهم، واضطر النَّاس في الذهاب إلىٰ (**الجزائر**) إلىٰ طريقٍ بعيدٍ شاقٍّ، وانقطعت طريق (**المدية**) إلىٰ (**الجزائر**)، واحتاج أميرها إلىٰ المرور بغير الطَّريق المعتاد، وعجزت عنه طاقة مجاوريهم من الأمراء، وعلم السُّلطان أنَّه لا يكسر شوكتهم، ويفل حدهم غيره، فكتب إليه بذلك، وبعث له بفتاوىٰ علمائهم فيهم بإباحة دمائهم وأموالهم التي شهدوا بأنَّ جلَّها ممَّا يأخذونه من الحِرابة من المارين بأرضهم ... فجاست خُيوله خلال تلك الغابات، وأشرفت علىٰ قمم تلك الجبال، وجالت بين هاتيك الأودية والشِّعاب، فلم يلقوا إلَّا طائفةً قليلةً حق عليها

(1) **فليتة**: قبيلةٌ مشهورة تولَّىٰ قيادتها الباي **محمَّد بن عثمان** قبل أن يتولَّىٰ بايًا، وموقعها بين (**ايغيل ايزان**) و(**تاهرت**)، وأكثر سكَّانها يرجعون إلىٰ (**سويد**)، وكان الأتراك يعيِّنون لها قائدا خاصًّا لخطورتها، وإن خرج بسلام منها عيِّن بايا.

(2) قرىٰ جبليَّة قرب (**البُلَيدة**)، فيها أقام العالم **علي بن عبد الواحد الأنصاري السِّجلماسي**، المذكور في التَّقديم، وألَّف معظم تآليفه.

العذاب، فقتلوا بعضهم وأسرُوا الباقين نحو التسعين امرأةً، وسلبوهم نحو ألف شاةٍ، وعدَّة وافرة من الخيل، والبقر، وخرَّبُوا جميع مساكنهم، وقطعوا أشجارهم، وأحرقوا ما خَرَّبوا من مساكنهم حتىٰ ظهر الحريق من (**الجزائر**) وسائر أحوازها ... الخ».

وخلاصة ما قاله المؤلِّف في إِخضاع هذه القبائل، التي كان التَّمرُّد أو إِبَاية الضَّيم يجري في عُرُوقها، أنَّه عند ما استقلَّ[1] الباشا عن الخلافة، ونُظِّمَت إدارة البلاد وفُرِضت المغارم قال: «وضربوا عليهم البعُوث تخرج في كُلِّ سنة أواسط أبريل إلىٰ عمال الجباية فمنها من يرجع إلىٰ (**الجزائر**) بعد أربعة أشهر، ومنها من يرجع بعد سنة، وغير ذلك، وعيَّنوا لكلِّ ثغر في بلادهم عددًا مخصوصًا من الجند يخرج إليه كل سنة، فيمكُث به سنة، ثُمَّ يرجع بعد إتيان غيره، وهكذا فركدت بذلك رياح الفتن وشلَّت أيدي العداة، ونسخت أسماء الأمم البربريَّة في جميع المغرب الأوسط فلا (**هوارة**) ولا (**مغراوة**)، وصار الجميع مُشتركا في اسم القبائل».

وكان المؤلِّف تعرَّض في موضع آخر من التَّأليف للقبائل البربريَّة التي سبق لها أن حكمت بلاد المغرب الأوسط كـ(**مغراوة**)، و(**زناتة**)، و(**صنهاجة**)، و(**كتامة**) (**كومية**) ... الخ، فقال: «ولكلٍّ منهم أخبارٌ عنيَ بنقلها الأثبات، وقد كان للأمَّة من الأنفة والمنعة والإباية، ما كان يمنعهم من الانقياد إلىٰ الملوك، والرضا باستدامة الدول، والدخول تحت جناح الذل، فكانوا لا يقرون لملوكهم علىٰ قرار، ولا يزالون يثُورون علىٰ حُكامهم في سائر الأعصار والأقطار، فلا يقوم لهم قائم إلَّا وطالبه من خلفه، ولا تتم قوَّة سلطان، إلَّا والثَّورة تُبشِّره بضعفه، حتَّىٰ ضعف الطَّالب والمطلوب، وهرمت دولهم

---

(1) كان المؤلِّف من المحبِّذين لانفصال (**الجزائر**) عن الخلافة، وبيَّن ذلك في تأليفه، معلِنا الأسباب التي جعلته يؤيِّد الانفصال.

فأوفت شمسها علىٰ مرقب الغروب، واستولىٰ الخراب علىٰ مدنهم وقراهم، وهلكت حاميتهم وانحلَّت عُراهم، فكم من قاعدة لهم أمست مقعدة، ومِن مدينة قاهرة لهم أمست عقود مبانيها مبدَّدة، فنحن نمرُّ علىٰ آثارها لا نجد من يُنبِئ عن أخبارها، ولا مَن يعلم باسمها؛ إلَّا ما يظهر من طللها ورسمها».

وبعد أن يذكر المؤلِّف منشآت الباي ومآثره، كبنائه للمساجد، والمدارس، والقصور، والقناطر، وإحداثه للحدائق، وما مدحه به الشُّعراء الوافدون عليه من كلِّ ناحية، وعلائقه بأمراء (**تيطري**) و(**قسنطينة**) و(**تونس**)، يُخصِّص فصلًا لعلائقه بملوك (**المغرب**) وأمرائه، ولمَّا كانت علائق (**المغرب**) إذ ذاك متوتِّرة مع (**الجزائر**) في غالب الأحوال، خُصوصًا علىٰ مستوىٰ القمَّة، أمَّا العلائق علىٰ المستوىٰ الشَّعبي فكانت وِدِّيَّة، والثِّقة متبادلة، وسيل الهجرة من الجانبين مُتواصل، وكان كثيرٌ من المؤرِّخين لم يتعرَّضوا إلَّا لخلافات تلك الفترة بين قادة البلدَين أردنا أن نُلفت النَّظر إلىٰ بعض ما ذكره المؤلِّف في الموضوع، قال: «كان ملك (**المغرب**) الأعظم، وطوده الأفخم، الخليفة الجليل السَّيد محمَّد بن عبد الله بن إسماعيل لا تنقطع عنه هداياه، وكذلك ولده اليوم بعده، وكذا جميع الأمراء المعتدِّ بهم كأميري (**قسنطينة**) و(**تيطري**)، وسلطان (**تونس**)، وكالسَّيد حسن مقدَّم أهل أساطيل الخليفة العثماني، وقد كان مولاي عبد الرَّحمـٰن بن سلطان (**المغرب**) رأىٰ من أبيه جفوة، ونالته مِن بلده نَبوة، فآوىٰ إلىٰ حضرة هذا الأمير العظيم، فتلقَّاه بإحسانه، وأفاض عليه دافق برِّه وامتنانه، وكان يوم دُخوله بلدنا يومًا مشهودًا، برزت فيه الأبكار من الخُدور، وتجلَّت وجوهها تحت قَتام البارود، ونقع السَّنابك فنابت عن البدور، فبقيَ لديه أيَّامًا، وإحسانه إليه مُتواصل، وبرُّه عليه متراسل، ثمَّ إنَّ أخاه مولاي يزيد، خليفة (**المغرب**) اليوم مرَّ بنا ذاهبا للحجِّ، فتلقَّاه بأعظم ممَّا تلقَّىٰ به أخاه، وأنزله في بستانه الفياح، وأحسن إليه بما لا تلحقه فيه لواقح الرِّياح، ولمَّا مات مولاي محمَّد

وجفا ولدُه كبارَ قوَّاده، وقتل مَن شاء منهم، هربَ إلىٰ أميرنا المنصور، أقربُهم إليه ابن خاله، المشهور **بابن خدَّه**، فأفاض عليه إحسانه»، ثمَّ ذكر ورود مولاي سليمان علىٰ الباي المذكور في طريقه إلىٰ الحجِّ فقال: «... قدم عليه مولاي سليمان ابن مولاي **محمد** ملك **(المغرب)** يُريد الاجتياز إلىٰ الحجاز هاربًا من أخيه يزيد لمَّا أكثر من التَّخليط، وقتل أكابر دولة أبيه، فعيَّن للقائه والقيام بحقِّه ولده المنتخَب للمهمَّات، المرجَّىٰ عند الأزمات، **السَّيد عثمان** (لا زال في أكنَّة الصَّون والأمان) فقام بواجب حقِّه أتمَّ القيام».

كان الباي محمَّد عند وُرُود ضيفه المذكور يتفقَّد جيشه بـ **(مستغانم)** فكلَّف ولده باستقباله، وبعث الأمير يستأذن **(سلطان الجزائر)** في تركه يجتاز أم لا ؟ فأبىٰ السُّلطان من الإذن له، فأعلمه بذلك، فرجع بدأه علىٰ عوده.

لم تقتصر علائق الباي بملوك (المغرب) وأمرائه علىٰ تبادل الزيارات، وإكرام الضِّيافة، بل كثيرًا ما كان يستعين بهم علىٰ شراء الأسلحة من جبل طارق، وقد كان يُوفد لهذه المهمة كاتبه الخاصَّ، وقاضي محلته قال: «ثم وجَّه لملك **(المغرب)** هديَّة مع قاضي محلَّته وأحد كتَّابه، وهو الأديب الماهر محبّنا **السَّيد أحمد هطال** (أبقاه الله محروس الذَّات من الطَّوارق في كلِّ حال)، وأمرهما باشتراء ما يجدانه يُباع في ذلك فقر قاضيه وذهب كاتبه إلىٰ جبل طارق، فبقيَ مدَّة إلىٰ أن قدم عليه بمائتي قنطار وخمسين من البارود، وقد سبقته بذلك سفن من النَّصارىٰ، فيها كثيرٌ من الآلة، فاشترىٰ الجميع بأعزِّ ما يعزُّ علىٰ الملوك.

وممَّا يجدر أن يلحق بهذا الموضوع أنَّ كثيرًا من السُّفراء والعلماء والرَّحَّالين الذين كانوا يُرسَلون في مهمَّات إلىٰ **(الجزائر)** في ذلك العهد، أو يمرُّون عليها في طريقهم إلىٰ الحجِّ، أو عابرو سبيل، يتَّصلون بعلماء البلاد، ويتبادلون معهم الإجازات العلميَّة، وتقاريظ التَّآليف، بل الكثير منهم كان يختار الإقامة للإفادة والاستفادة، كالرَّحَّالة **ابن**

زاكور، وعلي بن عبد الواحد الأنصاري السِّجلماسي، وأبي عبد الله محمَّد بن الحاج (رئيس الزَّاوية الدّلائيَّة)، **وأبي القاسم الزِّياني** (مؤرخ الدَّولة العلويَّة)، والرَّحَّالة **عبد الرَّحمـٰن الجامعي الفاسي.**

أمَّا السُّفراء فنذكر منهم: الشَّيخ محمَّد الطيَّب بن محمَّد بن الإمام عبد القادر الفاسي الذي زار (**الجزائر**) في مهمَّة سنة 1103هـ صُحبة الأمير **عبد الملك** بن السُّلطان **مولاي إسماعيل،** والكاتب الشَّهير **محمَّد الوزير الغسَّاني،** وذلك إثر (**واقعة المشارع**) [1]، وممَّا قاله الشَّيخ محمَّد الطيّب الفاسي في الموضوع: «ولماَّ دخلتُ مدينة (**الجزائر**) كان ممَّا أتحفني الله بلقائه من أعلامها، الفقيه النَّبيه ... **مصطفى بن رمضان الحنفي،** الشَّهير بالعنابي[2] فتذاكرتُ معه في فتوىٰ علميَّة، واستفدتُ منه فوائد سنيَّة، وذكرتُ له زوائد ودُررا علقتّ بذِهني ممَّا سمعتُه مِن جهابذَ علومُهم مرضيَّة، فحمله حسن نيَّته وخلوص طويَّته أن استدعىٰ منِّي إجازة في ذلك وغيره ... الخ»، وقد أجازه بالفعل.

كما زار (**الجزائر**) في مهمَّة الرَّحَّالة الأديب **أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال** صاحب (**الرِّحلة**) المشهورة: (**نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد**)، وذلك سنة 1182هـ بعثه الملك **محمَّد بن عبد الله،** صحبةَ خاليه السَّيدَين: عمارة بن موسىٰ، ومحمَّد بن ناصر، للتَّوسط في مبادلة الأسرىٰ الجزائريِّين بالأسرىٰ الإسبانيِّين، وبمجرَّد وصول

(1) معركة وقعت في الحدود بين الجيش التُّركي والمغربي.

(2) **مصطفى بن رمضان** هذا، كان مفتيا حنفيًّا بـ (**العاصمة**)، وله تآليف هامَّة اطَّلعتُ علىٰ واحد منها في مكتبة الأوقاف بـ (**طرابلس**)، وهو قريب **محمَّد بن محمود العنَّابي،** مفتي (**العاصمة**) الذي انتصر للمقاومة ونفاه (دوبورمون)، فاختار الإقامة بـ (**الإسكندرية**)، حيث عيِّن مفتيا حنفيًّا بها، ومازالت آثاره بها، خصوصا (**فهرسته**) في رواية الحديث المتداولة عند علماء المشرق والمغرب، توفي **مصطفى بن رمضان** بـ (**الجزائر**) حوالي 1135هـ.

الوفد إلى (**العاصمة**) اتَّصل **الغزال** بعلماء البلاد، وصادف دروس العلاَّمة أحمد بن عمَّار صاحب: (**الرِّحلة**)، و (**لواء النَّصر**)، وكان موضوع الدَّرس الحديث الشَّريف، فارتجل الضَّيفُ الكريم قصيدَته الشَّهيرة، نقتطِفُ بعضَ أبياتها قال:

رويـنا أحاديث الألى ورثـوا العُـلا ... قـديما ففـازوا بالثنـاء المؤبَّـد

فقيـل أنـاس قـد تقضَّـى زمـانهم ... فهل مثلهم يوما شـهدت بمشـهد

فقلت لهـم والقـول منـي صـادق ... ولم أك فـيما قلتـه بمفنـد

إذا شئتم أن تنظروا شبه من مضى ... ومن فاز بالـذِكر الجميـل المخلـد

هلموا إلى بحر العلـوم ومـن غـدا ... بـأنواره أهـل المعـارف تهتـدي

إلى أن يقول:

فما سمعت أذني ولا العين أبصرت ... شـبيها لـه غربـا وشرقـا بمعهـد

وقد أجاب على هذه القصيدة تلميذ الممدوح العالم الأديب **محمَّد ابن الشاهد**(1) بقصيدة مماثلة لها في الوزن والرَّويِّ.

كما هاجر كثيرٌ من علماء (**الجزائر**) إلى (**المغرب**) واستوطنوه ابتداءً من أواخر القرن التَّاسع، كـ: **أحمد بن يحيى الونشريسي** في [القرن] التاسع، وقد ولَّتهم الحكومة المغربيَّة وظائف سامية، وقد ترجم للكثير منهم صاحب (**دوحة النَّاشر**) كما نبَّهنا على ذلك في أوَّل التَّقديم، ثمَّ التحق بـ (**المغرب**) أيضًا، علماء آخرون طيلة القرون الحادي والثَّاني والثَّالث عشر، ودام ذلك إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي، حيث تأزَّمت العلائق

---

(1) **محمَّد ابن الشَّاهد الكبير**: من علماء (**الجزائر**)، له (**ديوان شعر**) وأزجال، وهو صاحب (**المنظومة**) التي تنشد إثر قراءة الحزب الرَّاتب بـ (**مساجد الجزائر**): «ألا يا لطيف ... الخ»، توفي بعد سنة 1208هـ.

بين الأمير عبد القادر وملوك (**المغرب**)، ووقعت أحداثٌ مُؤسفة ومُؤلمة، نجِد أثمنَ سجلٍّ لها ما قاله بعض الشُّعراء الشَّعبيِّين.

اختارت كثيرٌ من الأسر العلميّة استيطان (**المغرب**)، وذلك كأسرة المقرِّي، والمشرفي، والمهاجي، وابن يخلف، وابن سحنون هذا مؤلِّف (**الثّغر الجماني**)، وما زالت بقايا تلك الأسر بـ (**المغرب**)، كما احتفظ (**المغرب**) ومكاتبه العامَّة والخاصَّة بكثيرٍ من (**تراث الجزائر**) [1].

ثمَّ تعرَّض المؤلِّف إلى الرِّباط الذي أحياه الباي **محمد بن عثمان**، والمحلات التي خصها له، ومن أهمها (**وادي يفري**) الذي كان رِباطا من قديم الزَّمان، لموقعه الجغرافي، واشتماله على كثيرٍ من الكهوف الطَّبيعيَّة، وقد أشار الحلفاوي في (**منظومته**) التي خصَّها لفتح (**وهران**) في عهد باكداش باشا إلى هذا الرِّباط، فقال:

ثمــة نــادي بالجهــاد في الــورىٰ   مقــدما مــا كــان عنــدهم ورا
فســارع النــاس لــه إذ طلبــهْ   لا ســيما جماعــة مــن طلَبــهْ

وقال شارحُها **عبد الرحمٰن الجامعي**: «أشار بهذا إلى أنَّ طلبة العلم وحملة القرآن كانوا أشد النَّاس مسارعة لإجابة دعاء السلطان ـ بكداش باش ـ لهذا الجهاد المبارك ... الخ».

---

(1) تحتفظ (خزانة القرويِّين)، بـ (**ديوان الإمام عبد الحق الاشبيلي**) دفين (**بجاية**)، أملاه منشئه، يقول كاتبه ما يلي: «أنشدني الفقيه الحافظ الزَّاهد الخطيب أبو عبد الحق محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي (عفا الله عنه، وعن جميع المسلمين) بجامع (**بجاية**) سنة ستٍّ وسبعين وخمس مائة... الخ». وهو (**ديوان**) قيِّمٌ يظهر لمن تأمَّله التَّعريض بدولة الموحِّدين، إذ كان من أنصار المرابطين.

وقال صاحب (**الرِّحلة القمرية**) في هذا الرِّباط: «وتسابق إليه الطَّلبة يغتنمون المساكن الطَّيِّبة، والبيوت المنحوتة من الأحجار، إذ بهذا الوادي غيران أوسع من معتاد البيوت الكبار، تقصدها المرابطون من الأزمان الغابرة، وتأوي إليها منذ ارتداد (**وهران**) ورجوعها كافرة».

وحقيقة إنَّ مَن راجع تاريخ (**الجزائر**) في العهد التُّركي، وتاريخ وفيات علماء تلك النَّواحي، يجد الكثير منهم استشهد مُرابطا، إلَّا أنَّ الرِّباط الذي أحياه الباي محمَّد كان يمتاز عن سابقيه، ففي عهده الأوَّل كان المتطوِّعون من الطَّلبة هم الذين يعمرونه كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ثمَّ في عهد (**بكداش**) كان يخضع للنِّظام، إلَّا أنَّ عدد الملتحقين به لا يُجاوز الألف، وكذلك كان قصَّاده متطوِّعين.

أمَّا في عهد الباي محمَّد، فالرِّباط تطوَّر تطوُّرا محسوسًا، حيث أشرف عليه الباي بنفسِه، وتولَّى تسليحه وتنظيمه، فعيَّن له رئيسه ومُساعديه(1)، ومنع التَّدريس بكامل الوِلاية إلَّا في الرِّباط، وأرسل رُسلَه من الطَّلبة لتجنيد الطَّلبة ونشر الدَّعوة، وقد كانت الرَّسائل بين الباي ورئيس الرِّباط مُتواصلة لا تنقطع، ويظهر أنَّ الباي هو الذي كان يُراقب بنفسه سَير هذا الرِّباط مادِّيًّا وأدبيًّا، فكما كان يُشرِف على إرسال الإِعانات والتَّموين بجميع أنواعه للمرابطين وللمرضى والمجاريح، كان يتداخل في فصل

---

(1) ومن جملة مَن التحقَ بالرِّباط العالم الشَّهير **محمَّد بن علي أبو طالب المازوني** على رأس مائتي طالب، وكان عمره يجاوز الثَّمانين سنة، فذهب إلى (**معسكر**) ومنها إلى (**وهران**) ماشيا، وامتنع مِن الرُّكوب وترك راحلته للمرضى من طلبته، وأضافه الباي إلى أعضاء قيادة الرِّباط، وبعد الفتح بنَت له الدَّولة التُّركية مدرسته الفقهية الشَّهيرة بـ (**مازونة**)، وما زالت المدرسة تحتفظ بجزء من (**صحيح مسلم**) أهداه الباي عثمان سنة 1212 هـ للفقيد، كان أبو طالب من أشهر فقهاء البلاد وبه تخرَّج **محمَّد بن علي السَّنوسي** وكثيرٌ من علماء البلاد وفُقهائها.

الخصُومات التي تحدُث بينهم.

وقد استشهد كثيرٌ من العلماء في هذا الرِّباط، منهم: المساعد الأوَّل لرئيسه القاضي الشَّيخ الطَّاهر بن حوَّاء (قاضي قاعدة الإمارة معسكر)، وهو الذي أشار إليه المؤلِّف بقوله في (**المنظومة**):

فوقعــت هنـــا لكـــم حـــروب   زيـدت بهـا عـلىٰ العـدىٰ كـروب
ومـــــات في أوَّلهــــا المفضَّـــــل   قـاضي القضـاة الطَّـاهر المفضَّــل

كما رثاه بقصيدة قال فيها:

كلَّما قد ذكرت شخصـك جـادت   مقلتـــي للثَّـــرىٰ بنثـــر الجـــمان
وذكــرت صــفات مجـدك حتـىٰ   تتمثـــــــــل لي كأنـــــــــك دان
أدب رائــــــق وود صـــــــحيح   وطبــــاع صــــقيلة كــــاليمان
ومباحــث في الــدُّروس لطــاف   معجـــزات لكـــلِّ ذي إتقـــان
وسـلوك مسـالك العـدل لا يثنيـ   ـــك عنهـــا مـــن البريَّـــة ثـــان
ومـــآثر ضـــخمة لـــيس فيهـــا   لـــك يـــا واحـــد الزَّمـــان مـــدان
فهنيئـــا لـــك الشَّـــهادة والخلـــد   مـــع الفـــوز فيـــه بالرِّضـــوان

ثمَّ ذكر لحاق الجيش النِّظامي بالرِّباط، واستعراض الباي لكتائبه، فقال:

«فانتشرت الأخبية والمضارب والقياطين والخيم علىٰ جميع تلك الآكام، وذلك الوطاء الفياح فكستها، وما زالت الكتائب تتواصل، والجيوش تتراسل، والمواكب تجتمع أعدادها، والأبطال تنتظم أزواجها وأفرادها»، إلىٰ أن يقول:

«... ركب (أدام الله عزَّه) في جميع أهل عسكره لتلقِّيهم، وقد صفُّوا له صفَّين من منزلهم إلىٰ قرب منزله، وأذِن للنَّاس في اللَّعب علىٰ الخيل، فصاروا يأتونه كراديس علىٰ

خيولهم، فيضربون مكاحلهم في دفعة ويرجعون فيأتي غيرُهم حتَّىٰ لا تسمع إلا وقع السَّنابك كالرُّعود، وصواعق البارود متَّصلا بعضها ببعض، فما زالوا كذلك إلىٰ أن أتوا خلف صفي الأتراك، فساروا كذلك وراءهم، وقد رحلت محلَّتهم فأحاطت أخبيتها بجميع المحلَّة العظمىٰ، ولمَّا وصلوا أخبيتهم وقفوا كذلك مصطفين إلىٰ أن مرَّت بهم الجنود العربيَّة، وهو أمامها إلىٰ أن أتىٰ مضربه البهيج، فجلس أمامه علىٰ كرسي الملك، وفرغ أكابر الأتراك من السُّؤال عن وظائف الجند علىٰ حسب العادة، فأجابهم بما اطمأنَّت به نفوسهم، وقرَّت بسببه أعينُهم، فأثاروا نيران مكاحلهم في نفَس واحد، فكان ذلك شيئًا جاوز الوصف، وتلت ذلك مدافع كان أمر بإخلائها، فكادت الجبال تخرّ، ثمَّ إنَّه أصبح يجرُّ مدافعه وجميع آلاتها إلىٰ الجبل، فاجتمع له عالم لا يحصىٰ، فركب هو وخواصُّه فعيَّنوا لكلِّ مدفع مَن يقوم بجرِّه، ومَن يكون معهم من المدافعيِّين والنُّظار، وسار في أثرهم يتفقَّدها مدفعًا مدفعًا، وإذا أتىٰ مضيقًا نزل عنده إلىٰ أن تمرَّ جميعها، وإن صادف وَعْرًا أمر به فسُهِّل، فأوصلوها يومئذٍ قبالة مقرِّ الطَّلبة ورجعوا، ثمَّ ركب يوم الاثنين فأوصلها إلىٰ (جبل المائدة) بموضِع يُقال له: **(ضاية مولاي إسماعيل)**، قد كان سبق إليه المدافعيُّون، فابتنَوا فيه محلَّتهم، وجميع النَّجارين والحدَّادين، وغيرهم معهم ... الخ».

إلىٰ أن قال يصفُ نشوب الحرب بعد أن اتَّخذوا عدَّتهم، ووصف المتارس: «فحميَ الوطيس واشتعلت النَّار من كلِّ جهة، ورمىٰ الكافرون يومئذٍ سبعمائة مدفع و(بونبة)، واثنين دون ما رموه من البحر، ورمىٰ المسلمون اثنين وسبعين مدفعا، بمدفعين فقط، وكان هذا اليوم يومًا استمرَّ فيه الغيم من دخانه، وحمي وطيس الجوِّ بنيرانه، لا تسمع فيه إلَّا رُعودا متواصلة، ولا ترىٰ من ناحية العدوِّ إلا صواعق كور علىٰ غير معنىٰ حاصلة، يجهل فيها الوقت جاره، ويلزم الجبان وجاره»، ثمَّ قال يصف أثر المعارك الأولىٰ:

حتى أتانا الخبر الوثير ... أنَّ الهلاك فيهم كثير
وأنهم قد عدموا الرجاء ... واستضيقوا الأنحاء والأرجاء
فكم شريد خاض لج البحر ... منهم وجاء راضيا بالأسر
وآخر فر من البلاد ... وسار في البحر على أعواد
قد قسموا فالجل للهلاك ... يعروه في الصبح وفي الإحلاك
وجل باقيهم للج البحر ... والبعض قد فر لذاك البر
جميع ذا والرِّبحُ للإسلام ... والنصر ظاهر على الأعلام

وفي هذه الأثناء توفي بالعاصمة **محمد بن عثمان باشا**(1)، وخلفه **حسن باشا**، فاغتنم الفرصة الإسبانيُّون وطلبوا من الباشا هدنة نصف شهر، على أن يدفعوا جميع المصاريف التي أنفقها المسلمون في حرب **(وهران)** منذ ابتدائها، فقبل منهم الباشا ذلك، وأخبر الباي بما وقع عليه الاتِّفاق معهم « ففرحوا (دمَّرهم الله) بذلك أتمَّ الفرح، وبعثُوا إلى الأمير يحمدونه على جميل ما أولاهم من تلك الهدنة التي انتعشوا بها، وآبت لهم أرواحهم الغائبة بسببها، وخرجُوا من مكامن حصونهم، وفتحوا مغلَّقات أبوابهم، وانتشروا حوالي أسوارهم، يستريحون من ضيقهم»، ثمَّ تطوَّرت الأحوال، وانتهت الهدنة بصلح دائم، « ملتزمين لجزية يؤدُّونها على ممرِّ الدَّهر، وهي ألف دينار لكلِّ شهر، وضريبة أبديَّة على كلِّ سفينة أَرست بالمرسى البلدية بعد تسليمهم في البلد، وبجميع ما كان فيها حين استيلائهم عليها من الآلات والعُدد، فتفضَّل عليهم (أدامه الله) بالإجابة، ورفع عنهم يد جنده التي مزقت من أديم كفرهم إهابه، وضرب لهم أجلًا معلومًا، وعيَّن لإخلاء البلد يوما محتومًا، وهذا آخر الأجل المضروب، وأوَّل يوم زالت

(1) هو الذي خصَّه الأستاذ **أحمد توفيق المدني** بتأليف.

به عن تلك البلد الكروب».

وارتحــــل الكفــــار بالصــــليب   تحــدو بهــا عواصــف الجنــوب
والحزن في أحشـائهم قـد اسـتكن   من خيبـة القصـد وفرقـة الـوطن
كــم تركــوا مــن منــزه مصــون   وجنـــــة مائســـــة الغصـــــون
تسـقىٰ بنهــر قــد غــدا مفهفهــا   لِأَنْ غـدىٰ الثغـر السـقيم نقهــا
ومـــــدفع لم يغـــــن في الـــــدفاع   وقلعـــة تبـــدو عـــلىٰ البقـــاع
فطهــرت تلــك البقــاع الدنســه   من خبث الكفـر وأمسـت مانسـه
وانقطعـــت علائـــق التثليـــث   والاعتقـــاد الفاســـد الخبيـــث

بمُجرَّد إنهاء مراسم توقيف القتال الذي استحال إلىٰ صلحٍ بين الجانبين، اغتنم الباي **محمَّد بن عثمان** الفرصة، وذهب إلىٰ عاصمة (**الجزائر**) صحبة ابنه **عثمان**، فلقيهما (باشا الجزائر) حسن ـ الذي خلف الباشا **محمَّد عثمان** المتوفىٰ ـ بمزيد الحفاوة والتَّقدير، وألبس الباي أعظم نيشانٍ عند الدَّولة العثمانيَّة، يُسمَّىٰ: (جلنك)، وهو عبارةٌ عن حلية مِن ذهب علىٰ صفة يد بأصابعها، مرصَّعة بالأحجار الثَّمينة، تسمَّىٰ عند الجزائريِّين إذاك بـ (**الرِّيشة**)، وهي لا تُعطىٰ إلاَّ للأمراء الفاتحين لبلد من بلدان الكفَّار، يضعونها علىٰ العمامة.

ذكر المؤلِّف أنَّ الباي **محمَّد بن عثمان** هو أوَّل من وشِّح بها في (**المغرب**)، ولهذا لمَّا سمِع بها بقيَّة الأمراء الأكابر وسمعوا «بما ناله في حضرة السُّلطان من الإنعام والتُّحف، فحسدوه أتمَّ الحسد، بحيث تقطَّعت به نفوسهم، وبادت عقولهم، ولا شكَّ أنَّ لكلِّ ذي نعمة حسودًا، وأنَّ الحسدة مُسلَّطون علىٰ كلِّ مَن يسود»، ثمَّ إنَّ الباشا وكَّل الباي، وأذِن له بالتَّصرُّف المطلَق في مدينة (**وهران**) المحتلَّة، وقال له: «هي بلدك، فتحتها بجدِّك واجتهادك، وأعدتها إلىٰ الإسلام بجهادك، فأمرُها موكولٌ لأمرك، لا يتقدَّم فيها نظرٌ علىٰ نظرك»، ثمَّ أنعم علىٰ ولده **عثمان**، وعيَّنه وليًّا لعهد أبيه، وألبسه خلعة (**ولاية**

العهد)، وولَّى أخا الباي قيادة قبيلة **(فليتة)**[1] وأذن له في الانصراف، وعندما وصل الباي إلىٰ **(وهران)**، جمع علماء البلاد، وتفاوض معهم في قضيَّة المتعاونين التي تجدَّدت مرَّة أخرىٰ، وكان رأي الباي التَّجاوز والعفو «خوفًا من أن يذهبوا مع الكفار إلىٰ بلادهم، فيتنصرون أو يتنصر عقبهم، فأشاروا عليه بتأمينهم»، إذ كان سبق لسلفهم مواجهة نفس المشكل عند الفتح الأوَّل سنة 1119هـ، وأثارت القضيَّة مشاكل تعرَّض لها وخصَّصها بعض العلماء بتآليف منها: **(بهجة النَّاظر)** للشَّيخ **عبد القادر بن عبد الله المشرفي**، أرسل الباي وفدًا من علماء ولايته وهم: قاضي المحلَّة الشَّيخ **عبد الله بن حوَّاء**، وخطيب المسجد الأعظم السَّيد **أحمد بن سحنون** (أخو المؤلِّف)، والسَّيد **محمَّد بن فريحة**، وبعد أن تفاوضُوا معهم بقيَ الكثير من المتعاونين متردِّدين، إذ كان كثيرٌ من قادة الإسبانيِّين غير راضين بالاستسلام، وبالطَّبع كان لهم تأثيرٌ علىٰ أعوانهم، ولهذا استجاب البعض ورافقوا وفد العلماء، وبقيَ الآخرون ينتظرون، آملين استئناف الحرب ورفض الملك الإسباني شروط الاستسلام، إلاَّ أنَّ الملك وافق علىٰ الشُّروط، وأمر جيشه بمغادرة **(وهران)** في أجل محدود، فخابت آمال المتردِّدين، وكان جزاؤهم من حماتهم الإسبانيين أن بدؤوا بإرسالهم إلىٰ **(سبتة)** طوعًا وكرهًا.

ثمَّ أرسل الباي ولده **عثمان** إلىٰ مدينة **(وهران)** ليأتيه بماء عيونها، حسب العادة الجارية عند الأتراك، أنَّهم بعد فتح مدينةٍ يُرسِلون ماءها في أوانٍ إلىٰ الخليفة بـ **(الأستانة)** صحبة مفاتيح البلاد، وذهب الباي إلىٰ مدينة **(سيق)**، حيث كان له فيها قصرٌ ومراكز تموين، فجمع بقصره علماء البلاد وأعيانها، ليتفاوض معهم في تنظيم دخولهم إلىٰ **(وهران)**، وأرسل كاتبه الخاصَّ العالم الأديب **أحمد بن هطَّال** إلىٰ **(وهران)**،

---

(1) كان قائد هذه القبيلة في الغالب يعدُّ لتولية باي الولاية، كما سبق للباي محمَّد عثمان، فإنَّه كان تولَّىٰ هذه القيادة، ومنها ارتقىٰ إلىٰ رتبة باي.

ليهيِّئ لهم الدُّخول الذي وقع كما وصفه المؤلِّف بقوله: «ثمَّ ارتحل الأمير من (**سيق**) بعد أن حمل (**صحيح البخاري**) في ربعة رائعة بين صندوقين ملآنين بالكتب، على بغلة فارهة، وغطَّى الربعة بسجف حرير مغشَّى بلباس الكعبة المشرَّفة، موشَّى أحسن توشية، مكتوب بكلمة الإخلاص، وعيَّن له راية رائقة تحمَل أمام قائد البغلة، وأمر العلماء أن يسيروا وراءه يقرؤون (**البردة**) وسائر الأمداح النَّبويَّة، يسيرون به أمام جميع جنده، فساروا كذلك، والنَّاس يلعبون أمامهم على الخيل العِتاق بالبارود، وكذلك من شاء منهم، وسار هو (أيَّده الله) بجنده الجرَّار خلف الجميع، وكان أصاغر أولاده مع الطلبة، فتزلزلت الجبال بأصوات باروده، وضاقت الفجاج والبطائح بخيله وجنوده، وحضرته الملائكة الأعلام، فرحًا بجنود الإسلام».

واصل الباي طريقه على قريتي: (**سيدي الشَّحمي**)(1) و(**كرشطل**)، وفي (**كرشطل**) ورد عليه كاتبه الذي أرسله ليهيِّئ له الدُّخول إلى (**وهران**)، فأخبروه أنَّ الإسبانيِّين غادروا (**وهران**) كلّهم ـ كان كثيرٌ من قادة الجيش الإسباني المعترضين للاستسلام يماطِلون في الخروج ليقضُوا على ما تبقَّى مِن معالِم البلدة وآثارها، زيادة على ما وقع عليه الاتِّفاق في صكِّ عقد الصُّلح، فعندئذ أنذرهم الملك الإسباني بأنَّهم إن تمادَوا في تلك المماطلة، وهاجمهم المسلمون فإنّه لا يُدافع عنهم، فلهذا سارعوا إلى امتثال الأوامر، وتسابقوا إلى رُكوب السُّفن ـ «فبعث بالأعلام الإسلاميَّة، فنصِبت على شواهق الأبراج، ليعمروا يومئذٍ من مدافع البشائر، وبمضربه الفياح يبنى لينزل فيه، وركب بعد ذلك وركب العلماء، وقد كانوا حُشِروا من كلِّ بلد، وحمل (**البخاري**) كالعادة،

(1) قرية (**سيدي الشَّحمي**): القريبة من (**وهران**)، اشتهرت أثناء حرب التَّحرير الأخيرة بمعتقلها، وجرى على ألسِنة كثير من السُّكَّان اسمها المفرنس: «**سيدي الشَّامي**» (Sidi chami).

وسار هو، فارتفعت الأصوات بالصَّلاة علىٰ سيِّد ولد عدنان، وكثر التَّكبير والأذان من كلِّ إنسان، ولعبت الخيول، وقصفت أصوات البارود والطبول».

ثمَّ يذكر المؤلِّف حالة المدينة التي رغم ما هدَّمه الإسبانيُّون مِن معالمها، وما أتلفته الزَّلازل أثناء الحصار، فقد بقيت كثيرٌ من أبراجها وحصونها علىٰ حالها، وهي تزيد علىٰ الثَّلاثين، ولماَّ كان أكثرها محدثا ويحمل أسماء إسبانية، ذكرها المؤلِّف بأسمائها الإسبانية، كـ: **سان كروس** (Santa Cruz)، **وسان قروقوريو**، **ولابونتا لامونا** ... الخ.

وأمَّا المساكن فيظهر أنَّها هدِّمت إثر الزِّلزال، وعوِّضت ببيوت خشبيَّة، وكأن المؤلِّف لم يرها قبل، فبهرته، وهو يصفها بقوله: «وأمَّا دور السُّكنَىٰ، فقد كانت تهدَّمت بالزِّلزلة، حيث لم يبق إلاَّ أطلالها، غير أنَّهم جعلوا خارجها بين الأبراج بيوتًا من اللَّوح رائقة الشَّكل، بديعة الوضع، أكثرُها يحتوي علىٰ ما تحتوي عليه الدَّار الرَّائقة من المنافع والمساكن»، فلهذا تسابق السُّكَّان إلىٰ اختيار مساكنهم، فوقعت الفوضى، فكلَّف الباي ولده عثمان أن يحدِث (**مصلحة الأملاك الشَّاغرة**)، وأعاد قِسمتَها علىٰ السُّكَّان حسبما يقتضيه العدل لا الأسبقية».

نزل الباي في موكبه (**البرج الأحمر**) ـ مقرّ ملوك البلاد من عهد مؤسِّسه الملك أبي الحسن المريني ـ وكان أوَّل ما بدأ به الباي بعد نزوله بفُسطاطه، أنَّه صلَّىٰ ركعتين شكرا لله تعالىٰ، وضُرِبت مدافع التَّهنئة وطبولها، ثمَّ استقبل وفود المهنِّئين، وكان من ضِمنهم مؤلِّف الكتاب، الذي أنشدَه قصيدة رائعة، من جملة ما قال فيها:

طهرت هـذا القطـر مـن درن الـردىٰ	ورفعتــــه عـــــن ســـائر الأقطــــار
وســعيت للرحمـــٰن ســعيا صــادقا	فجــزاك عنــه بخــير عقبــىٰ الــدار
وأخذت من أيدي العـدا مـا سـلمت	للعجز فيه شـوامخ الأقـدار ... الـخ

هذا في الجملة أهمّ ما يشتمل عليه التَّأليف، وقد ذكرنا في التَّقديم أنَّ المؤلِّف استطرد بعض الاستطرادات لا تتنافىٰ مع موضوع التَّأليف، وهي مفيدة، أدَّاه إلىٰ ذكرها سياق الحديث، فعند ما تحدَّث في أوَّل التَّأليف عن الباي، وقال:

محمد محيي رسوم المجد ... سليل عثمان الهمام الكردي

فنفق الجهاد في أيامه ... وروىٰ الإسلام من حيامه

وصار فيه ذا عزم متين ... كعزم يوسف صلاح الدين

فتعرَّض لترجمة صلاح الدِّين ترجمةً وافية، كما تحدَّث عند ختمه للمنظومة بعد أن شكر الباي الفاتح، بقوله:

هو الذي أهدىٰ إلىٰ الإسلام ... عقيلة بعيدة المرام

ولو دنا من سورها هولاكو ... لعمه وجنده الهلاك

وجده جنكيز لو أتاها ... لجن في أرجائها وتاها

تحدَّث عن (**هولاكو**) وجدِّه (**جنكيزخان**)، وترجم لهذا الأخير ترجمةً هامَّة، تتَّفق مع أحدث التَّآليف التي لا زال المؤرِّخون العالميُّون يخصونه بها.

ومِن هذه الاستطرادات المفيدة، حديثُه عن (**ثورة فرنسا**)[1] التي جرَّه إليها سياق الحديث عن المسيحيِّين والإفرنج وطقوسهم الدِّينيَّة، فقال: «ولقد قام في هذه السَّنة منهم الجنس المعلوم بالفرانسيس ـ وهم الفرنج ـ علىٰ جميع علمائهم ـ يقصد بالعلماء

(1) ذكر د. **أبو القاسم سعد الله** في دراسته القيمة بالملتقىٰ السادس للتعرف علىٰ الفكر الإسلامي أن المؤلف هو الوحيد الذي وصف الثورة الفرنسية في وقتها.

رجال الدِّين القسِّيسين والرُّهبان ـ فنفَوهُم من البلاد إلىٰ بلاد الإصبنيول وغيرها، وقتلوا ملكَهم، وتركوا النَّاس فوضى لا ملِك لهم ...»، إلىٰ أن يقول: «... فاتَّصل الشَّنآن بينهم، وخرج الأمر عن الضَّبط، وتغلَّب العوامُّ فحملوا يومًا علىٰ برج لهم عظيم، شديد التَّحصين، بحيث لا يرام، فهدَّموه في أقرب مدَّة، وتغلَّبوا علىٰ ملِكهم، فبقيَ تحت قهرهم ... واتَّفقوا علىٰ أن لا يسود أحدٌ أحدًا بعلم ولا غيره، وأنَّ النَّاس كلَّهم سواء، لا شريف ولا دنيء، ينادي بعضهم بعضا: (يا أخي)، ومتىٰ ظلَمَ أحدٌ أحدًا، انتصروا له جميعًا، فأزالوا ظلامته، وأخذوا الحقَّ من الظالِم وأبطلوا جميع المكوس والوظائف السُّلطانية، وأخذوا جميع ما بأيدي علمائهم من الأحباس والأموال، ونفَوهُم من البلاد، فتفرَّقوا في البلاد النَّصرانيَّة، فقاموا بحقِّهم وبقُوا هم بلا دِين، يفعل كلٌّ منهم ما أراد من جهة الدِّين، ولا ينكَر عليه، ثمَّ قتلوا ملِكَهم وقاموا قومة واحدة علىٰ مَن يعاديهم، فأخذوا أكثر ما يجاورهم من بلاد **(الأنبلاذور)**، وإذا ظفروا ببلد، قالوا لأهلها: إنَّما قمنا لنخلِّصكم من الظُّلم، فكونوا علىٰ مثل رأيِنا، فيُسارِع الرَّعايا إلىٰ موافقتهم، وبعثوا إلىٰ جميع أجناس النَّصارىٰ يأذنونهم بالعداوة، وقد كان الملوك عزموا علىٰ أن يقوموا عليهم جميعًا، ليردعوهم عن سلطانهم، فلمَّا رأَوا فِعلَهم وتغلُّبهم علىٰ مَن حاربوه، تقاعدوا عنهم، وصار كلٌّ يطلب أن يكفُّوا عنه، وهم إلىٰ الآن علىٰ ذلك يبلغنا العجب عن أخبارهم ... الخ».

ومن جملة الاستطرادات أيضًا، تحدُّثه عن غرام الباي بالصَّيد، واعتنائه بتربية أنواع البزاة، وتوسَّع في الحديث عن الصَّيد والطُّيور والوحوش، وطبائعها وميزاتها، ونقل فقرات من **(السّلوانية)** لابن عبد الجبَّار الفجيجي، وكذلك منظومة **أبي بكر بن علي بن حبيش اللخمي** في الصيد، وكان تعرَّض لأوصاف الخيل من قديم الزَّمان وما قيل فيها قديما

وحديثا، وتحدث بتفصيل عن الخيل التي كان يركبها الباي وأجناسها، حتَّى إنَّه خصَّص لها ما يزيد على الثلاثين صفحة، وفي كل ما ذكره كان لا يغفل عن المصادر التي اعتمدها.

هذه بعض الاستطرادات التي أشرنا إليها في أوَّل التَّقديم، وهي كما ذكرنا لم تخلُ من فوائد، ولم تناف موضوع التَّأليف.

ثمَّ ختم المؤلِّف كتابه بنشر الرِّسالة القيِّمة التي أرسلها الباي إلى الباشا وإلى الملوك يُبشِّرهم بالفتح، ننقل منها فصلها الأخير الذي نختمُ به هذا التَّقديم، قال: «وهذا آخر الأجل المضروب، وأوَّل يوم زالت عن تلك البلد الكروب، فها هم خرجوا منها وقلوبهم بالحزن منها مكويَّة، وأحشاؤهم على جمار الأسف مطويَّة، وقد حملوا الصليب الذي كانوا طالما ابتهلوا عنده في ناديهم، وعوَّذوا به البلاد لئلاَّ تنزع من أيديهم، وانتصروا به على الإسلام فلم يَفِ لهم بموعودٍ، وهيهات أن ترجى النُّصرة من عود، وقد حلَّ بها الإسلام أوَّل الرَّبيع، وهو الرَّابع من رجب سنة ستٍّ ومائتين وألف، وأصبح بها قريرًا، بعد أن تغرَّب عنها ستِّين سنة لا يحلُّها إلا مجتازًا أو أسيرًا، فأجهشت تلك المواطن إلى الإيمان، وتطاولت مآذنها إلى الأذان، ومساجدها إلى التَّدريس وقراءة القرآن » اهـ.

المهدي بوعبدلي

نص الكتاب

«الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني»

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلَّم على سيِّدنا محمَّد وآلِه وصحبِه

الحمدُ لله الذي نصَر مَن يشاء مِن عباده، وأقامَه لقهرِ أعدائِه، وأمرَ بقتال العدوِّ وجهادِه، حتىٰ تتمحَّض له حواضر الوجود وبواديه، وتخلص للحقِّ من عالمِ هذا الخلْق بواطنه وبواديه، أحمده سبحانه علىٰ ما أظهر في هذا الثَّغر الوهراني من الابتسام في وجه الإسلام، وأذكىٰ فيه من نار المخافة من عصبة الدِّين حتىٰ مدَّ يد الانقياد والاستِسلام.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نستعدُّ بها إذا حمي الوطيسُ، ونرغم بها أنوف المشركين ومعاطس المغاطيس[1]، ونشهد أنَّ سيدنا ونبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، نبيٌّ دعا الأمَّة وحدَه، وجاهد في الله حَقَّ جهاده حتىٰ صدقَه وعده، وأبقىٰ دينه منصورًا علىٰ سائر الأديان، وذِكْرَه مشهورًا علىٰ ممرِّ الأحيان، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلىٰ آله وصحبِه الأعيان، صلاةً وسلامًا تامين دائمين ما اختلف الجديدان، واتَّصل المديدان.

أمَّا بعدُ، فإنَّ هذا الثغر الوهراني منذ أُخذ مِن يد الإسلام، واستولَت علىٰ نوره غيابات الظلام، وأصبح بأيدي الكفرة يُكدِّرون مَوارده، ويحمون مَطارده، وجنودهم تجوس خِلال حريمه، وتمنعه مِن قضاءِ غَريمه، وكفرهم يرتشِف ثغر عَقيلته، ويبيتُ مفترشًا لها في خميلته، لا يخاف مِن رقبائها، ولا يحذرُ مِن طوارق الأقدار وأنبابها، قد نام

---

(1) **المغاطيس**: فرقة من المتعاونين مع الإسبان، بيَّنهم بتفصيل **عبد القادر بن عبد الله المشرفي** المذكور في التَّقديم.

عنه من يُصاوله، وعجز عنه مَن يريد إزعاجَه ويُحاوله، وهي تُواصله إذ ذاك وتُساعدُه، وتقرب منه ولا تُباعده، لم يزل يمدُّ إلى الولاة أيدي الطلبات، ويُخاطبهم بألسنة الرَّغبات، عسى أن يجد من تُدركه الحميَّة فيفُكَّه من أساره، ويثب وثبة الحُرِّ لانتزاعه من أولئك السُّكان، فإنَّ ذلك من محض حقِّ الله الذي تجب له المبادرة بالإمكان، فلا يجد لصرخته مُجيبا قد جُبِلَ على الكرم، ولا يَلقى غيورًا يرُدُّ يد الجاني عن الحرم، قصورًا حدث في الهمم، وفشلًا شمل سائر الأُمم، فكان لسان الحال ينشده في كل ناد:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ويُخاطب الصليب، بقول **كليب**:

يا لك من قنبرة بمعمر ... خلا لك الجوُّ فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

وانفرد الكفرةُ بعقيلته المذكورة[1] يُكرهها على البِغاء، حتى أَلِفته فكانت تُصغي لأباطيله أَشَدَّ الإصغاء، ونسيت الإسلام شغلا ببعلها الجديد، ورضيت بالنَّاقوس عوضًا عن الأذان والتثليث بدلًا من التوحيد، ونسخت أسماء مساجدها فسُميت بِيَعًا، ولقد كان يُقال فيها: الله أحد، فأمست يُعتقد فيها كون الآلهة شيعا، واشتدَّ كلفها بمتمسكها الواهي، فصارت ترمي الإسلام بأعظم الدواهي، فيا لله كم للإسلام من حيرة أمام تلك الأسوار، وكم للمسلمين تلقاءها من وقفة دهشية آلت بهم إلى البوار، ما دنوا منها للدفاع إلَّا دفعتهم مدافعها، وانثالت عنهم مضارها وانقبضت منافعها، وامتدَّ الحال، على ذلك المحال، إلى أن قَيَّض الله له الأمير الذي لم يزل لكل أكرومة مفيضًا، ولانتهاز فُرص الخير واقتناص شوارد المجد مُتيقظًا، وعلى إقامة الحقِّ مثابرًا،

---

(1) المراد بها: مدينة وهران. (ع)

وفي إصلاح الرعيَّة علىٰ ضرر الالتحام صابرًا و مُصابرًا، ليث الحروب، المثير علىٰ عدوه لواعج الكرُوب، وأمير الزَّمان، المسكن رعاياه تحت ظلال الأمان، ذا المحاسن التي يتعذَّرُ إحصاؤُها، والمفاخر التي لا يتأتَّىٰ استقصاؤُها، والمحامد التي تظافرت البريَّةُ علىٰ وُفُورها، وإشراق أشعتها وسُفُورها، الملك المُطاع، الجواد الشُّجاع، اللَّوذعي الأديب، المخصب بأياديه كلّ روضٍ حديب، فكاك العاني، الحليم عن الجاني، المكتسي بمحاسن الأخلاق، رئيس الأُمراء علىٰ الإطلاق، الذي طبق ذِكره سائرَ الأقطار، وطار صيته فيها أي مطار، **أبا عثمان السيِّد محمَّد بن عثمان** أبقاه الله متبوعًا بالجنود والمواكب[1]، ولا زالت همته العلية تزاحم الكواكب بالمناكب، وقدره يستقعد الأفلاك، ويُخجل الكوكبين المذهبين للأحلاك، فكان يطرق حماه برجاله، ويجوس بخيله في مجاله، ويفزع الكفرَ في مكامنه، ويدخل عليه الرَّوع في مآمنه، حرصا علىٰ تحصيل المعالي، وصُعودا لكلِّ مشرف عالي، عملًا بقول الأوَّل:

إذا مـــا كنـــت في أمـــر مـــروم　　　فـلا تقنـع بـما دون النُّجـوم
يــرىٰ الجبنــاء أن العجــز حــزم　　　وتلك خديعـة الطبـع اللئـيم

فلمَّا أكثر فيه الغارات، وأظهر فيه علىٰ بسالته أمارات، تحركت عقيلته لذِكر مألفها القديم، وتنبهت لأن تسأله افتكاكها من يد ذلك النديم، فكانت تُومض إليه بالسُّؤال، وتنظر إليه نظر المتعرض للنوال، لعلمها أنّه جُذَيلُها المُحَكَّك، وعُذَيقُها المُرَجَّب، يُجيب صُراخ العاني، ويوفي مقاصد المعاني، فكان يُجيبها بصدق عزماته، ويسكن جأشها بتجديد غزواته، إلىٰ أن أمكنته الفرصة، وتأتىٰ له أن يزيل الغصة، فاستعمل فيها طاقته

---

(1) بالواو، ومَن أراد معناه فلينظر في كلام النَّاظم فيما يأتي بعد ذلك، وكذا في البخاري والقسطلاني (رحمهما الله). (أصل)

بأسرها، إلىٰ أن فكَّها من وثاق أَسْرِها، فقرت عين الإسلام، لما ذهبت من ذلك غياهب الظلام، وظهرت به معالم الدِّين، ولاح مناره للمُهتدين، وأصبح بها عروسًا، وأمسىٰ بها العلم يقتضي مجالس ودروسًا، وأضحت المِلَّة المحمديَّة من سُكَّانها وجيرانها، وضربت فيها الأرض بجرانها:

وألقت عصاها واستقر بها النوىٰ   كما قر عينا بالإياب المسافر

فازداد عِزُّ أميرنا بذلك، واجتمع علىٰ حُبِّه الملوك والممالك، واستوجب أن يمدح بكلِّ مقال وكلام، وتوقف علىٰ ذِكره ألسنة الأعلام.

هذا، وإنِّي قد خدمت حضرته الفخيمة، وأعتابه الكريمة، بقصيدة أُرجوزة سهلة الألفاظ، قريبة المتناول والمأخذ للحفَّاظ، مستكملة لمقصودها، مرغمة لمعاطس حسودها، أعراضها صقيلة، وأغراضها جميلة، إذا تُليت ألفاظُها أوشكت أن تُطرب الميت، وإذا جليت معانيها كادت أن تنوب عن السِّراج في البيت، ومن بديع سِرِّها أنَّه لا حشو فيها أحتاج إلىٰ الاعتذار عنه وبأنَّه تتميمٌ للبيت، ذكرتُ فيها محاسنه الجهاديَّة، وأيامه الجلادية، وكيفية توصله إلىٰ هذا الثغر الذي تقاعدت عنه الملوك، لما انسدت عنهم أبواب التوصل إليه والسُّلوك، والسبب الذي حرَّكه إليه ودعاهُ، وغير ذلك من جميل سعيه الذي سعاه، قصدتُ بذلك تخليد مآثِره، وتدوين بعض محامِده ومفاخِره، ليقف عليه آخر الأمة فيعلمون قدرَ ما أَسْدَىٰ إليهم من الإحسان، وأهدىٰ إليهم من الهدايا التي لا يقوم بشُكرها منهم إنسان، فيترحَّمون عليه، ويُهدونه صلاة الدُّعاء إليه، فقد أسدىٰ إلىٰ الإسلام يدا بيضاء تُوجب له الإحسان من كلِّ إنسان، وتقتضي له الشُّكر من الأحرار بكلِّ لسان حال، وتعيب من عاب مادحه بالاشتغال بذِكر محاسنه، لما جهل هذا الواجب، أو عجز عن الوُرُود من قراح مدحه وآسنه، وكيف يُعاب من

مدحه، أو يُحمد من قدحه، وهو الذي وجد مآثر الدِّين داثرة فأقامها، وعين الجَور مُتيقظة فأنامها، وحقوق الضعفاء ساقطة فأثبتها، ومنابت الأمن محصودة فأنبتها، ومدارس العلم دَارِسة فأحياها، وهمم الأوائل ذاهبة فأتبعها حتىٰ أعياها:

وغــدا دونــه الأفاضــل عرجــا   في الثـرىٰ يـردون وردا شــجاحا
مــن لهــم بلحــاق مــن سـبق البـــ   ـــرق علـوا وحـاز عنـه القراحـا

شملت أياديه البعيد والقريب، والمِسكين والفقير والغريب:

قــد أراش قــوادمي بــل كســاني   بجزيـــل العطـــاء منـــه جناحـــا

وقطعت عزماته عُرُوق العِدَا، وصبت شآبيب البلاء علىٰ العدىٰ:

منعـــت عزماتـــه كـــلَّ شـــهم   زايـد البـأس أن يمـس السِّـلاحا

وطردت الكفر من البلاد فسار تسوق به الرِّياح، وتحدبه في سفينة ذووه بالبكاء والنِّياح، والخيبة قد صبغت وجوههم بأعراضها، والحسراتُ قد أكلت قلوبهم بوخزات أمراضها، وكفرهم المفجوع، آيس من الرُّجوع:

قــد أراعتــه وثبــة الليــث حتــىٰ   صــار في وكــره يخــاف الرِّياحــا
وأتــاه الهــلاك مـــن كـــلِّ وجـــهٍ   كــان مــن نحـوه يـروم الفلاحـا

وسعادته تجمع له بين الضب والنون، وتجلب له من النَّصر أغرب الفنون:

وإذا السَّـعادة لاحظتــك عيونهــا   نــم فالمخـــاوف كلُّهـــن أمـــان
واصطد بها العنقـاء فهـي حبائـل   واقتــد بهــا الجــوزاء فهــي عنــان

وبالجملة فإنَّ محاسنه الواضحة قد صدَّقت مادحه، وأمست علىٰ منابر الثَّناء

صادحة، صدق المادحين فيه وقد أكذب من قال في سِواه امتداحًا، وغرر أياديه قد أغنت قاصديه وأرغمت حاسديه:

ما علىٰ حاسديه إن مات غيظا   أحد منهم أظنُّ جناحا

فكيف يُعاب مادحه، وهو المتحلي بكلِّ فضيلة، الحائز لكلِّ خصلة جميلة:

كلُّ فضل فذاته قد تحلت   بحلاه وصيرته وشاحا
فهو عين الزمان مجدا وفضلا   ونتيجة أهله لا براحا

ثُمَّ إِنّي علمت أنَّ لسان النَّظم حصورٌ، وأنَّ مُؤَدَّاه لابد فيه من قصورٍ، والنثر أشدُّ منه بيانًا، إذ به يصير الخبر عِيانا، وبتذييل النَّظم به تزداد عبارته تِبيانا، فعزمت علىٰ أن أشرح تلك القصيدة شرحًا يُبَيِّنُ ألفاظها، ويُجلي علىٰ منصة الظهور أغراضها، سائلًا من الله الإرشاد والإعانة، وإظهار مسالك الإصابة ومعالم الإبانة، إنَّه علىٰ كل شيءٍ قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ، وقد سمَّيتُ هذا الصوان المحتوي علىٰ لبابه، والمليح المشتمل بثيابه:

«الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني»

ولما وقف عليه العلّامة السيّد **البيدري ابن حامد**[1] سمَّاه: **(الدُّرُّ والعسجد في مناقب الباي محمد)**.

وها أنا أشرع فيه حامدًا لله ومصليًّا علىٰ نبيِّه المصطفىٰ ﷺ وعلىٰ آله وصحبه، معلما لمن يقف عليه بأنِّي أصدِّر المسودة بتفسير ألفاظ الأبيات التي أشرحها، ثم أبيِّن معناها، ثم أُلخص القضية التي أشير إليها، ثُمَّ أختمها بذِكر ما تحتوي عليه الأبياتُ من أنواع البديع، مِن جناس، وطباق، وتصدير، وغيرها.

---

(1) **البيدري**: نسبة إلىٰ يبدر (قرب تلمسان).

حمـــدا لمـــن آزر نصـــر الـــدين ودان ناصـــريه أســـنى الـــدِّين
وفـــتح الأقطـــار بالجهـــاد حتـــى غـــدت لينـــة المهـــاد

(**حمدا**) منصوبٌ علىٰ المصدرية بفعل محذوف، تقديره أحمدُ حمدًا، والحمدُ تعريفه معروفٌ، والكلام عليه مبسوطٌ في المطوَّلات مِن كتب التَّدريس، فلا نُطيل به، و(**مَنْ**) موصولة، وجملة الموصول وصلته في محِّل جرِّ صفة لله المحذوف، و(**آزر**) فعلٌ من الأزر، وهو التقوية، كالتأزير، ويُطلق علىٰ الإحاطة والقوَّة، والضعف ضد، والتأزير يُطلق علىٰ التغطية، و(**نصر**) مؤزر شديد بالغ، و**النصر** هنا بمعنىٰ الإظهار والغلبة علىٰ سائر الأديان إذ النصر في اللُّغة هو الإعانة، يُقال: نصر المظلوم، إذا أعانه، والنُّصرة حسن المعونة، والانتصار استمدادها، فلا يصحُّ ذلك هنا إلا بنيَّة مضاف، أي: نصر أهل الدِّين، وليس ذلك بمقصود، بل المقصود إعلاءُ الدِّين نفسه المستفاد مِن قوله جَلَّ وعلا: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ (التوبة: 32)، وقوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (التوبة: 33)، و(**دان**) معناه جازىٰ من المُجازاة، والضمير في ناصريه للدِّين، و(**أسنى**) أفعل تفضيل من السَّناء بالمدِّ، بمعنىٰ الارتفاع، أو بالقصر بمعنىٰ البهاء والإشراق، أي: أعلىٰ الجزاء أو أبهاه، و(**الدِّين**) آخر البيت بمعنىٰ الجزاء، وفي آخر صدره بمعنىٰ الإسلام، أي: أحمدُ حمدًا بليغًا يكونُ لله الذي قَوَّىٰ إظهار دين الإسلام علىٰ سائر الأديان، وأظهر مناره وخَلَّد ذِكره إلىٰ آخر الزمان، وجازىٰ القوم الذين جدُّوا في نُصرة هذا الدِّين القويم بمُقاتلة الأعداء شرقًا وغربًا، وإظهار معالمه للعباد بتدوين أحكامه، وتشييد أركانه، وحفظه من الزِّيد فيه والنقص منه حتَّىٰ بلغ أهل كلِّ جيلٍ صحيحًا مُستوفىٰ محفوظ الشرايط مجتمع الضوابط، وحدبوا عن انتهاك حرمه بأوامرهم ونواهيهم وردعَ المتعرضين لإفساده وإبطاله ومخالفة مُقتضاه، **أسنى** الجزاء بما وعدهُم

علىٰ ذلك من الجنَّة المحتوية علىٰ ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بَشَرٍ، وبما أفادهم من غلبة سائر الطوائف، والاستعلاء عليهم والتَّدويخ لهم حتَّىٰ لا كِسْرَىٰ يُذكر، ولا نُعمان ولا قيصر، فلله الحمد وجزيل الشُّكر علىٰ جميل إنعامه، ووافر إكرامه، فقولنا: (**ناصريه**)، يدخلُ فيه المجاهدون الذين نصرُوا الدِّين بأسيافهم وبذل نفوسهم، والعلماء الذين نصروه بأقوالهم، وإذاعة ما نقلوه من طروسهم، والملوك الذين ذَبُّوا عنه بأوامرهم المُطاعة، وحفظ مهج الرَّعايا، وردع العادِين عليهم حتَّىٰ لا ينخرم هذا العالم قبل أوانه، فيبقىٰ الدِّين مُستمرًا في جميع أزمانه، وفتح البلاد للاستيلاء عليها بغَلبة أهلها، كأنَّها كانت مُغلقة عمَّن يُريدها ثُمَّ فُتحت له، و الأمصارُ جمع مصْرٍ يُقال لكلِّ بلد، وغلَب علىٰ مصر البلد المعروف، إمَّا لتمصرها أو لكون بانيها المصر بن نوح، و(**الجهاد**) قتالُ العدو من الجهد بمعنىٰ المشقَّة، و(**المهادُ**) الفراشُ والبِساط، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ (النبأ: 6)، أي: بساطًا ممكنا للسُّلوك فيه، أي: وأحمد الله الذي فتح علىٰ نبيه ﷺ وعلىٰ أُمته جميع الأمصار العِظَام كمصر ومدن الشَّام، والعراق، والمغرب وغيرها بسبب مُقاتلتهم الكفار عنها، وهي وَعْرَةُ المسالك ممنوعتها باستيلاء العدو عليها، واستعلائه فيها حتَّىٰ صارت تحت طاعتهم وقهرهم مسلوكة للقوي والضَّعيف تجري فيها الأحكام المحمدية، لا يخاف أهل الإسلام فيها غيرهم، ولا يرهبون إلَّا الله تعالىٰ، فليس الهناء[1] عبارة عن الأمن الذي حدث لهم بسبب غلبة الإسلام في المسالك وغيرها من بعد أن كانت كسم الخياط ضيقًا، وكحدِّ الحُسام وَعْرًا من شدَّة الخوف، فهو من باب التمثيل أو الاستعارة المكنيَّة باعتبار أنَّ المراد بالمهاد

---

(1) كذا في المطبوع، والأشبه بالصَّواب: «فاللِّينُ هنا عبارة عن ...»، لأنَّ المصنِّف بصدد شرح قوله المتقدِّم: «**حتى غدَت ليِّنة المِهاد**»، فتأمَّل، والله أعلم. (ع)

الأرضُ حقيقةً، وإضافةُ اللِّين لها كإِضافة الأظفار للمنيَّة في قوله:

وإذا المنيَّــةُ أنشــبت أَظْفَارَهَـــا ... أَلْفَيْـــتَ كُـــلَّ تميمـــةٍ لا تنفـــعُ

كأنّه هنا شبَّه الأرض بفراشٍ وطي لين ولم يُصرِّح بذلك، بل أضاف لها وصف الفِراش وهو اللِّين، وفي البيتين من أنواع البديع: الجناس التام بين الدِّين والدين، والاشتقاق بين الدِّين ودان، والترديد بينهما، وبين نصر وناصريه أيضًا، والجناس المضارع بين الجهاد والمهاد، ورد العجز على الصدر في البيت الأول، وبراعة الاستهلال، وفي الثاني التمثيل أو الاستعارة.

ثُـمَّ صــلاته علــى خــير البشــر ... مـن أشـرق البـاطن منـه والبشـر

أفضــل مــن قــد فــتح الفتــوح ... ومـــنح البريـــة المنوحـــا

محمـــــد غـــــرة رســـــل الله ... وآلــه والصــحب أهــل الجــاه

الصَّلاة: في اللُّغة الدُّعاء، والاستغفار، والرحمة، وحسن الثناء من الله على رسوله ﷺ، وهي لا تصحُّ بالمعنى الأوَّل، إذ ليس المقصود طلب الله أن يدعو لنبيه عليه السلام، ولا بالمعنى الثَّاني لذلك أيضًا، لأنَّ السِّين والتاء للطلب، والله لا يطلب إنشاء شيء من غيره على وجه الإِيجاد، كيف والدُّعاء الذي من جُملته الاستغفار طلب الأدنى من الأعلى، وأيضًا أنَّ الله قد غفر لنبيِّه ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، فليس المرادُ سؤاله هو أن يغفر له؛ لأنَّ طلب تحصيل الحاصل عبثٌ، فهي إمَّا بمعنى الرَّحمة المراد بها لازمُها وهو زيادةُ التَّكريم و الإِنعام على ما أخبرنا أنَّه حصله له باصطفائه إيَّاه، أو بمعنى حُسن الثَّناء الزائد على ذلك، فإن قلت: ما لزم على ما رددته يلزم على ما رجَّحته، إذ الله قضى لنبيِّه بالرَّحمة، وأثنى عليه بما يليقُ بمنصبه، فلم تظهرٌ لتخصيص إحدى المعاني مزيَّةٌ، قلت: قد أشرنا لدفع الاعتراض بقولنا: **(زيادة)**، وذلك أنَّه تقرَّر في القواعد التي سلمتها العقول، وتواتر بها المنقول أنَّ تحصيل الحاصل محالٌ وطلبُه عبثٌ، فليس المرادُ

بالصَّلاة علىٰ النبيِّ ﷺ طلب ما علمنا أنَّه حصل له ﷺ من الرَّحمات وعَليِّ الدرجات، بل المرادُ طلب ما خَفِيَ عنَّا حصولُه من ذلك ممَّا لم تحط به عُقُولنا، ولم يصله إدراكنا، إذ رحماتُ الله تعالىٰ، وثناؤُه لا يتناهىٰ، لعدم تناهي قُدرته، فنحن نطلب لسيدنا ﷺ فوق كلِّ قَدْرٍ أعطاه الله إيَّاه، وبعض ذلك عائدٌ علينا فهو مستمرٌّ باستمرار وُجُودنا، إذ من جملة الرَّحمات الواصلة إلىٰ النبيِّ ﷺ رحمة أُمَّتِه، وإفاضة النِّعم عليهم، وتكثير عددهم وصالح أعمالهم، وكثرة الأولياء المقرَّبين فيهم، حتَّىٰ تكون حسناتهم في ميزانه، ومن جُملة إحسانه، إذ هو الذي هداهم ودَلَّهم علىٰ الله تعالىٰ، وجذب قلوبهم الأبيَّة إليه بلُطف دِعايته، و«من سَنَّ سنَّة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة»، ومن جملة درجاته تشفيعُه فيهم، وهي تتزايد بزيادة المشفوع فيهم.

وأمَّا المغفرة فإنَّها قاصرةٌ علىٰ الذنب، وقد غفر بتقدير وجوده، فلا تُطلب بعد حصولها إذ لا تتصور إلَّا بعد وجوده، ومتىٰ عدم رأسًا أو أعدم لم توجد، ولذلك قال سيدنا ﷺ: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وأتىٰ بقوم آخرين يذنبون، ويستغفرون فيغفر الله لهم»، وسبب ذلك أنَّا لو لم نذنب لتعطَّل اسمه تعالىٰ **الغفور** لبطلان أثره هو المؤاخذة، فقد حصلت المغفرة بنفس الحكم، فلا يُطلب تحصيلها بعد ذلك إلَّا من لم يعلم به، ونحن قد علمنا أنَّ الله قد غفر لنبيِّه عليه السَّلام كما ثبت ذلك لدينا بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح: 1 ـ 2)، وهذا الجوابُ النفيس أخذناه مِن جواب **القرافي** (رحمه الله) علىٰ التَّصلية الشهيرة، وهي: «اللَّهم صل علىٰ سيِّدنا محمَّد، وعلىٰ آل سيِّدنا محمَّد كما صليت علىٰ سيِّدنا إبراهيم، وعلىٰ آل إبراهيم ... الخ»، فإنَّه أجاب بجوابٍ لا يُنتقد، وتقريرُ السُّؤال فيها ما قاله **العز بن عبد السلام**، وهو أنَّ قاعدة العرب أنَّ المُشبه بالشيء أخفضُ منه

رُتبة، وأعظمُ أحواله أن يكون مثله، وها هنا شُبِهت عطيَّته ﷺ بعطيَّة إبراهيم عليه السَّلام، وصلاة الله معناها الإحسانُ، فإنَّ الدُّعاء الذي هو حقيقة اللَّفظ محالٌ فتعيَّن حملُه على مجازه، وهو الإحسانُ؛ لأنَّ الدُّعاء إحسانٌ، فيكون من مجاز التَّشبيه، أو لأنَّ الإحسان متعلِّق الدُّعاء ومطلوبه، فيكون من باب التعبير بالمتعلق عن التعلُّق، إذا تقرَّر هذا فنحن نعلم أنَّ إحسان الله تعالى لنبيه ﷺ أعظمُ من إحسانه لإبراهيم عليهما الصلاة والسَّلام، وتشبيهه به يقتضي خلاف ذلك فما وجه التشبيه ؟

قال **القرافي**: «وكان يُجيب عن ذلك (رحمه الله) فيقول: إنَّ التَّشبيه وقع بين المجموعتَين، مجموع المُعطى لرسول الله ﷺ، ومجموع المعطى لإبراهيم عليه السَّلام، وآل إبراهيم أنبياء، وآل رسول الله ﷺ ليسوا أنبياء، فعطيَّة إبراهيم عليه السَّلام ذلك المجموع يُقَسَّمُ عليه وعلى آله، ويُقَسَّمُ المجموع المُعطى لرسول الله ﷺ وعلى آله، فتكون الأجزاء الفاضلة لآل إبراهيم عليه السَّلام أعظم من الأجزاء الحاصلة لآل رسول الله ﷺ، فيكون الفاضل لرسول الله ﷺ أعظم من الفاضل لرسوله إبراهيم عليه السَّلام، ويكون رسول الله ﷺ أفضل من إبراهيم، ويندفع السُّؤال، وكنَّا نستعظم هذا الجواب منه ونستحسنه، ثم بعد وفاته ظهر لي أنَّ جوابه مُستدركٌ، وتقريرُه أنَّ الدُّعاء لا يتعلَّق إلا بمعدوم مستقبل كسائر أنواع الطلب.

وقولنا: (**اللَّهم صلِّ**) دعاءٌ، فلا يتعلَّق إلَّا بعطيَّة لم تُعط لرسول الله ﷺ معدومة، فإنَّ طلب تحصيل الحاصل محالٌ، فالحاصل له ﷺ لم يتعلَّق به طلب اَلبتَّة لكونه موجودًا حاصلًا، وبهذا الموجود الحاصل له عليه السَّلام حصل له التفضيل على إبراهيم عليه السَّلام، فيكون الواقع قبل دعائنا مواهب ربانيَّة لرسول الله ﷺ من خير الدنيا والآخرة لم يُدركها أحدٌ من الأنبياء، ونحن نطلب له زيادةً على ذلك تكون تلك الزِّيادة مثل المواهب

الحاصلة لإبراهيم عليه السَّلام، فنحن لو تخيلنا أقلَّ المواهب الحاصلة لإبراهيم عليه السَّلام لم يلزم من ذلك التفضيل له علىٰ رسول الله ﷺ.

ومثال ذلك من العاديات أن يُعطي الملك رجلًا ألف دينار، وآخر مائة، ثُمَّ نطلب من الملك أن يزيد من صاحب الألف مثل ما أعطىٰ صاحب المائة، فإذا فعل ذلك كان الحاصل لصاحب الألف ألف ومائة، وللآخر مائة، ومعلوم أنَّ ذلك لا يخل بصاحب الألف في ألفه، بل المائة زيادة علىٰ ما وقع به التفضيل أوَّلا، وكذلك هنا»، انتهىٰ كلام القرافي، وهو في غاية من النَّفاسة من جهة العقل، أمَّا من جهة النَّقل، فقد يُعترض بنحو الدُّعاء المأثور وهو: «اللَّهم أعط محمَّدا الوسيلة والفضيلة، والدَّرَجة الرَّفيعة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنّك لا تخلف الميعاد»، فيُقال إنَّ الوسيلة هي الشَّفاعة، وها نحن سألناها للنبيِّ ﷺ مع تحقُّق ثُبوتها له ﷺ، وكذلك المقام المحمود قد ثبت له بالوعد الصَّادق الذي لا يتخلف، وكما نحن نُصرِّح بذلك في هذا الدُّعاء، ومع ذلك فقد طلبناه للنبيِّ ﷺ، فلو كان طلب تحصيل الحاصل من المحال ـ كما قال ـ لما أمرَ النبيُّ ﷺ بأن نطلبه له، وهو أفصحُ الأوَّلِين والآخِرين، وأعلمهم بأساليب المعاني، ونحن نُجيب عن ذلك بما يدفع هذا الإيرادَ إن شاء الله تعالىٰ، فنقولُ:

إنَّ الشيء إمَّا أن يكون حصل في الماضي وتحقَّق الاتصافُ به، فهذا لا يطلُبه إلَّا جاهلٌ بحصوله أو مُتحمِّل للعنا بطلبه، وذلك كالمواهب التي نجزت للمصطفىٰ ﷺ من تحسين خَلْقه، وتفضيله علىٰ سائر الموجودات، وبعثِه رسولًا للنَّاس كافَّة، وإنزال القرآن عليه، وإصعاده إلىٰ السَّماء، ورُؤيته ربَّه، ومُخاطبته إيَّاه، وغير ذلك ممَّا لا تُحيط به العقول، وإمَّا أن يكون يحصل في المستقبل، فهذا منه ما لم يقم لنا دليلٌ علىٰ حصوله، ولم يرفع لنا من دونه حجاب الغيب، وهو جائزُ الوقوع، فهذا الذي يُطلب بالصَّلاة علىٰ

النبيِّ ﷺ، وتمييز نوعه وصفته إلىٰ الله تعالىٰ، إذ هو الذي يعلم الأليق بنبيِّه ﷺ فيهبُه له، ومنه ما ثبت حصولُه في المستقبل بالخبر الصَّادق، والوعد الصَّحيح كـ: الشَّفاعة، والمقام المحمود، فهذا وإن كان مُحقق الوقوع، فهذا يُطلب تأكيدًا، وطلبًا للاطمئنان الذي سأله إبراهيم (عليه السَّلام) بقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ (البقرة: 260)، وأيضًا: إنَّ العقل يعلم أنَّ الله مالك تامُّ القدرة يفعلُ ما يشاء ويختار، له أن يخلف الوعد والوعيد[1]، ولا يدركه لومٌ، ولا ينسب إليه حيفٌ، فيُطلب ذلك تحقيقًا للوعد خوفًا من أن تعرض الحكمة دون إمضائه، وإلَّا فالله لا يخلف الميعاد، ومن تأمَّل في الدُّعاء المذكور قوله: «الذي وعدته إنَّك لا تُخلف الميعاد » علم من ذلك أنَّ المقصود إنجاز الوعد، ولا شَكَّ أنَّ الإنجاز لم يحصل بعد فالمطلوبُ غير حاصلٍ، وبما قُلناه اندفع الإيرادُ، ولاحت صِحَّةُ جواب القرافي وسلامته من الانتقاد.

وعلىٰ أنَّ الصَّلاة معناها الرَّحمة فقد يظهر بالذوق السَّليم أنَّ بينهما فرقًا بأنَّ الرَّحمة يُدعىٰ بها حيثُ كانت الذُّنوب موجودة، والصَّلاة يُدعىٰ بها حيث لا ذنوب، ففيها زيادة علىٰ مطلق الرَّحمة إفهام التعظيم والتشريف، ولذلك خصت بالأنبياء، وآلهم علىٰ الصَّحيح، وحيث قِيل إنَّ الصَّلاة معناها الدُّعاء فالمرادُ أنَّ من جملة مُسمياتها الدُّعاء.

فإذا قلنا: اللّهم صلِّ عليه، فقد صدر مِنَّا الدُّعاء بشيءٍ زائدٍ علىٰ الدُّعاء، وهو الرَّحمة المدعو بها، أو حُسن الثَّناء، أمَّا الدُّعاء فقد استُفيد من مضمون الجملة الذي هو طلب الأدنىٰ من الأعلىٰ، وأمَّا الرَّحمة، أو حُسن الثَّناء فقد استُفيد من معنىٰ صَلِّ، كما إذا قال: اللَّهم اغفرْ له، فقد صدر منه الدُّعاء بشيءٍ هو المغفرة، وبهذا يظهر أنَّ من فَسَّر

(1) إخلافُ الوعد مُصادِمٌ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ (آل عمران: 9)، فتنبَّه. (ع)

الصَّلاة في قولنا: اللَّهم صلِّ علىٰ سيِّدنا محمَّد بالدُّعاء لم يُصب، والصَّلاة من المباحث التي كثر من العلماء الكلام فيها، فليطلب باقيه من غير هذا المختصر.

و(**خير البشر**) أفضلُهم وسيِّدهم، ومُختارهم، ومُصطفاهم الذي لا يُدانيه أحدٌ في فضائله، ولا يُوازيه في لطف شمائله.

لطيفة:

دخل **ابن عباس** [كذا] علىٰ **ابن قتيبة**، فسلَّم وبين يديه سلَّة زعفران، فقال له أنشدني بيتًا لا يستطيع إنسانٌ أن يقول لقائلها كذبت، و لك هذه السلَّة، فأنشده:

وما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبرّ وأوفىٰ ذمة من محمَّد

فقال: خذها، والبيت **لأنس بن أبي السيِّد بن إياس**، كان هجىٰ رسول الله ﷺ ثُمَّ خافه، فأتاه يوم الفتح فأنشده البيت فأمَّنه.

وما أحسن قول **كعب بن زهير** فيه ﷺ:

تحمله الناقة الأدماء معتجرا ... بالبرد كالبدر جلا ليلة الظلم

وفي عطافيه أو أثناء ريطته ... ما يعلم الله من دين ومن كرم

و(**البشر**) الإنسانُ ذكرًا، أو أُنثىٰ، واحدًا أو جمعًا، وقد يُثَنَّىٰ ويُجمع علىٰ أبشار، و(**البشر**) آخر البيت: ظاهر الجلد خاصٌّ بالإنسان، وقِيل يعمُّه وغيره، جمع بشرة، وجمع الجمع أبشار، و(**أشرق**) استنار، و(**الباطن**) معروفٌ، والمرادُ هنا مرآة البصيرة، و(**المنوح**) جمع منحة وهي العطيَّة، و(**محمَّد**) اسم مفعول مضعَّف من الحمد، وهو اسم سيِّد الثقلين الذي سمَّاه به الله في الأزل، وسمَّاه به جدُّه بعد وِلادته، وليس هذا موضع استيفاء الكلام علىٰ هذا الاسم الشَّريف، وقد ألمعت ببعض خواصِّه في شرح

العقيقة[1]، و(الغرَّة) بياض في الجبهة، وتُستعمل في الشيء الواضح الظاهر بين أشباهه مجازًا، ولا شكَّ أنَّ النبيَّ ﷺ بباهر حسنه، وظاهر فضله، وعليِّ مقداره، ووُضُوح أسراره ظاهرٌ بين المرسلين وأُمته الغُرّ المحجلين كالغرّة الغرَّاء في الجبهة الرَّائقة الزهراء عليه وعليهم أفضل الصَّلاة والسَّلام، فالتشبيه في ظُهورها ووُضُوحها لا بذاتها حتَّىٰ يلزم أنَّا شبهناه ﷺ ببعض الفرس إذ هذا لا يظنُّه عاقلٌ، وما نبهنا عليه إلَّا احتراسًا من طعن جاهل، و(**الرُّسل**) بضمَّتَين وسُكِّنت عينه ضرورةً جمع رسولٍ، وهو من أُمِر بالتبليغ والإنذار من الأنبياء عليهم أفضل السَّلام.

و(**الجاه**) القَدْرُ والمنزلة، والمعنىٰ: أسأل من الله تعالىٰ صلاته الكاملة التَّامة علىٰ أفضل الخليقة الإنسانية، وأتمّها خلقا الذي أشرق باطنه بالأنوار الرَّبانية، والأسرار الرَّحمانية، والعلوم الوهبية اللدنية، وأشرق ما ظهر من جِسمه الشَّريف، وتراءىٰ للعيون إشراق البدر المنير حتَّىٰ كان يُستنار به، كما يستنار بالمصابيح المضيئة والبدُور البهيِّة، وأفضل من جاهد في الله حقَّ جهاده حتَّىٰ فتح الفتوح العِظام، ومحا أديان أهل الأوثان والأصنام، وأفضل من أعطىٰ البريَّة العطايا الجِسام سيِّدنا محمَّد الذي ظهر فضلُه بين المرسلين، وضاء نورُه بين الآخرين حتَّىٰ صار كالغرَّة الغرَّاء، أوَّل ما تقع عيون الاعتبار عليه، ويهتدي نظر التعظيم إليه، كيف لا وهو مقدَّمهم إذا اجتمعوا، ووسيلتهم إذا استشفعوا، ووجيههم إذا طلبوا، وبجاهه طالما حاربوا العدىٰ فغلبوا، صلىٰ الله عليه وسلم.

فقولنا: (**ثُمَّ صلاته**)، معطوف علىٰ (**حمدا**)، علىٰ أنّه مفعول لـ (**أسأل**) محذوفًا كما

---

(1) **العقيقة**: منظومة رائعة للشاعر الشعبي **سعيد المنداسى التِّلمساني**، نظمها بالشعر الملحون، وتبارىٰ كثير من أدباء البلاد في شرحها، وقد نشرت أخيرا بالجزائر.

قدرته لما قرَّرته، وفي الحقيقة إنَّ **(أسأل)** معطوفٌ على أحد، فيكون سؤال الصَّلاة مقبولًا قطعًا لوُقوعه بعد الثَّناء على من لا يردُّ سؤال من أثنى عليه، كيف والصَّلاة على النبيِّ ﷺ مقبولةٌ على كلِّ حال.

وفي الأبيات: الجناس التام واللاحق، والتصدير، والتتميم، والترديد.

ما أمطرت سحائب البارود قطر البناديق على البنود
وافتر إبريق اللقا عن ثغر إذ نفقت سوق الوغى في الثغر
ثم تجلى النصر من خلاله ولاح نور الفتح من هلاله

(ما) ظرفية مصدرية، **(السَّحائب)** جمع سحابة، وهي معروفة استعيرت هنا للدُخان النَّاشئ من إِحراق البارود لشبهه بها إذا تكاثر، ولما كان هو شبيهًا بها، وما يظهرُ من لمعان النَّار فيه شبيهًا بالبرق، وصوته سيما في المدافع الكِبار شبيهًا بالرَّعد، حَسُنَ تشبيه البنادق المتساقطة في مواطن الحروب بالقطر، سيما إن قلنا: إن البرد، يسمَّى قطرا، فإنَّ التشبيه يقعُ موقعه غاية، و**(البارود)** هو هذا التدبيرُ العجيبُ الذي أبطلَ آلات القِتال منذ قعقعت رعودُه في مواطن الحروب، وتلاعبت بنادقه، ورنَّت فأوقفت الأرواح على شرف الغروب، فياله من تُراب يهشم الحديد، فلا تمنع الدُّروع المضاعفة من سهمه السَّديد، ولا يقي منه الترس الشَّديد، يهدم الجبال، ويقتل الأسود والأفيال، ويخرِّب الحصون، ويفتك كلَّ حرم مصون، يُقال إنَّه حدث في **القرن الثامن** على يد بعض الحكماء الإسلاميين كان يصنع الكيمياء، ففسد له بعض التَّراكيب، ولما قرَّبه من النَّار ثار في وجهه، فقال: نِعْمَ التَّدبير هذا لمكايد الحرب، قيل: إنَّه أنشأه أوَّلًا بقصد ذلك، و بنى أمره على أن تخرج ناره أينما كانت ولو تحت جبل، والنَّصارى تزعم أنَّ شيخًا كان مُبتلى بالباسور فتمثَّل له الشَّيطان ووصفه له، وقال له: «إذا تَمَّ فاملأ به إناءً، واجعله تحتك وارم عليه النَّار»، فلمَّا فعل ذلك رمى به وأهلكه، فاتَّفق النَّاس على جعله للحرب وغيره، ولعلَّ هذا من خُرافاتهم.

وصفة تركيبه أن يُؤخذ من التُّراب الذي يعلوه شيء كغبرة الملح أو كالثلج الخفيف، ومن علاماته أن تكون مواضعه في المصيف كأنَّما أُهرق فيها زيت، ولها بريق كعنق الحمام الأزرق، وقد يُوجد في الخرب والغيران القديمة، والحيطان، وتحت البسط، وفي مرابض الغنم من قُوَّة أبوالها، وفي المزابل العتيقة التي يبولُ النَّاس عليها، فيُجعل في حوض مثقوب الأسفل، ويُركز جِدًّا، ثُمَّ يُجعل عليه ماء، ويُقطر كراس الصابون، ثُمَّ يطبخ القاطر بنار قوية جدًّا، ثُمَّ يفرغ في أواني واسعة، ويلقىٰ فيه أظلاف الدوم ونحوها حتَّىٰ يجمد عليها كالملح، ثُمَّ ينزع منها، ويُعاد إلىٰ مرجل الطبخ، ويُجعل عليه ما يغمره ماء وزيادة أنملتين علىٰ غمره، ويطبخ ثُمَّ يجفف كما تقدَّم فتؤخذ خمسة أجزاء منه، وجزء من الكبريت، وجزء من فحم البندق، أو الزرجون، أو البيلم وهو أحسنها بعد سحق كلٍّ منها وحده جدًّا حتَّىٰ يصير غبرة، فيجعل سحيق الملح في سطلة، ويفرغ عليه ماء نقي بقدر الكفاية، ويوضع علىٰ نار فحم محروق مرتين، فإذا ذاب ينزل ويلقىٰ عليه الكبريت، والفحم، ويحرك بمدلك حتَّىٰ يمتزج، ثُمَّ يجعل في قصاري عريضة، ويفتل ويترك حتىٰ يجف، ويُدَّخر، وله وجوهٌ أخر يُسأل عنها أرباب صناعته.

و(**افتر**) بمعنىٰ ضحك، أو كشف عن ثغره لأجل الضحك أو حال الضحك، لقولهم: افتر ضاحكا، و(**الإبريق**) هنا هو السَّيف، ويدلُّ علىٰ ذلك ما أنشده **أحمد بن يحيى ثعلب**:

وكنت إذا الإبريـق أقعـىٰ عـلىٰ استِه وظـن نـديم السـوء أن لـيس راويـا
كـدرت عليـه الكـأس حتَّـىٰ كـأنَّما يـرىٰ بالـذي أسـقيه منـه الأفاعيـا

يريد بالإبريق السيف، و إقعاؤه علىٰ استِه: الأخذ بقائمه، والكأس: كأس الشرِّ.

ومثله ما أنشده **ابن الأعرابي**:

سـقاه بـإبريق عليـه وذائـل وكـأس وقوقـاة غـلام حـزوَّر

الإبريق: السيف، والوذائل: جمع وذيلة، بمعنىٰ السبيكة، وقوقاة: دائمة.

ومثله قول الآخر:

قـــد جئتمونـــا بأبـــاريقكم كأنَّنـــا دون بنـــي الأســـلاع

وأضفت السَّيف إلىٰ اللِّقاء بمعنىٰ الحرب؛ لأنَّه متخذ له، والوغىٰ في الأصل الصوت مطلقًا، ثُمَّ استعمل علىٰ وجه التغليب في صوت الحرب، ثُمَّ صار يُستعمل في الحرب نفسه، ومنه قول الشاعر:

أسـدٌ عـليَّ وفي الحـروب نعامـة فتخـاء تنفـر مـن صـفير الصـافر
هـلا بـرزت إلىٰ غزالـة في الـوغىٰ أم كـان قلبـك في جنـاحي طـائر

و(**الثغر**) الثاني ما يلي دار العدو من بلد الإسلام وموضع الخوف، أمَّا الأول فالمرادُ به الأسنان، وهو بفتح المثلثة في سائر معانيه.

والضمير في (**خلاله**) للسَّحاب المفهوم من السَّحائب، وحسن ذلك بعده عنها إذ لو قرب منها كما لو قال: السَّحائب وخلاله لقبح، فلمَّا بعد عنها صار كأنَّ لفظ السَّحائب تُنُوسي ولم يرتكز بالذهن إلَّا مفهوم السَّحاب، فعاد الضمير علىٰ ذلك المذكور في الذِّهن، وهذا التوجيه البديع هو الذي أحوجنا إلىٰ ارتكاب هذا الاحتمال الصَّعب؛ لأنَّ طالب المُلح يغوص البحر لتحصيلها، ويمشي علىٰ شوك القتاد، ومُجتني الورد يصبر علىٰ شوكه، وإلَّا فالضمير يصحُّ عوده علىٰ (**الوغى**) أو (**الثغر**) بغير كُلفة، وخلال السَّحاب مخارج الماء منه، ومنفرج ما بين الشيئين، وخلال الدِّيار ما حوالي حدُودها، وما بين بيوتها، أي: من وسطه، وأثنائه، والضمير في (**هلاله**) عائدٌ علىٰ (**النَّصر**) المراد به الظُّهور علىٰ الأعداء، وحصول الإعانة من الله عليهم، وكلُّ ذلك من تتمة براعة الاستهلال، والإشارة إلىٰ مقصد القصيد الذي هو أهم مقصود.

والمعنىٰ: أحمد الله تعالىٰ، وأسأله الصَّلاة علىٰ نبيِّه المصطفىٰ، وعلىٰ آله وصحبه مُدَّة دوام أمطار البارود الشبيه دخانه بالسَّحائب المُتكاثفة البناديق الرَّصاصية الشبيهة بالقطر في وقوعها، وبالبرد الضخم في قدرها، ومدة سلِّ السُّيوف من أغمادها، وهي إذاك صقيلة صافية، فتكون كأنَّها ضاحكة، وكأنَّ حدَّها ثغرٌ مبتسم في مواطن الحروب الشبيهة في كثرة المقاتلين بها بالسُّوق القائمة التي نفقت السِّلع بها، فاجتمع لها النَّاس من كلِّ مكان، ودام ذلك أي: أمطار بارود البناديق، استعرت للنصر اسم الهلال المراد به البدر، وللفتح اسم النُّور، ووجه من أثناء ذلك الدُّخان أو الوغىٰ، أو ذلك الأمر الأعم، وطلع هلاله مشرقا بنور الفتح، فاستبشرت القلوب، وزالت عن النُّفوس الكُروب لما تبينت نتيجة القتال، فانقطع الجدال، فكأنَّه شبه ظهور صفحات الجوِّ بانقشاع دخان البارود لانقطاع القتال بسبب الفتح، وزوال غيم الغم، وارتفاع باطل الكفر بغلبة الإسلام بطلوع البدر علىٰ الظلمة، فتنقشع وتتلاشىٰ، وشبه الفتح بنور البدر الذي شبه به النصر، فالإضافة في نور الفتح وهلاله بيانية، والمرادُ النَّصر التامُّ الذي لا يبقىٰ بعده نبضٌ لعروق الجدال، وسمَّاه هلالًا مجازًا باعتبار ما كان عليه، أو لكون النَّصر يتبيَّن شيئا فشيئا، كما أنَّ القمر كذلك، ثُمَّ يصير بدرًا، وعلىٰ كلِّ حال فقد استعرت للنصر اسم الهلال المراد به البدر وللفتح اسم النُّور، ووجه الشبه ظاهرٌ وإن كان في المشبه معنوي، وفي المشبه به حِسِيٌّ كما في قول الشاعر:

ولقد ذكرتك والظلام كأنّه ... يوم النَّوىٰ وفؤاد من لا يعشق

وبعد فالجهاد أصل البر ... وقد عفى رسما بهذا البر
من عهد شعبان وباكداش ... سقى صداهما الغمام الناشي
فلا يراع للعداة سرب ... ولا بأرضهم تقام حرب
حتى بدا ليث الحروب الورد ... ثالث ذين السيدين الفرد

(**بعد**) من الظروف التي تقطع عن الإضافة لفظًا لا معنًى، أي: بعد حمد الله، والصّلاة علىٰ نبيِّه فالأمر كذا وكذا، و(**أصل**) الشيء أسفله، والمرادُ ما ثبت ذلك الشيء عليه كأصل الشجرة وأساس البناء، و(**البر**) الخير والجنة والاتساع في الإحسان، والمراد هنا جميع أفعال الخير التي هي من محاسن الدِّين الذي أقامه الجهاد، وقرَّره حتَّىٰ قُبلت أحكامه وتمَّت شرائعه، ويُقال: «عفىٰ الرسم» إذا دثر وذهب، و(رسمًا) تمييز محول عن الفاعل أي: عفىٰ رسمه، والرَّسم الأثر لا شاخص له، و(**البَرُّ**) ما قابل البحر، والإشارة إلىٰ هذا البَرِّ الذي نحن به، وهو بَرُّ **العدوة الجنوبية**، و(**شعبان**) بسكون العين اسم بعض أمراء هذه النَّاحية في الفارط، كان (رحمه الله) مُعتنيا بالجهاد مُتابعا للغزو علىٰ كفرة وهران **دمَّرهم الله**، ووقائعُه فيهم مشهورةٌ، وبه لمح **الحلفاوي**[1] في قوله:

فأصبحوا خامس شعبان به كقتلىٰ شعبان نصيح ربه

قال شارح قصيدته: «وقد كان لهذا الباي[2] في كفرة وهران وقعاتٌ، وغزواتٌ لم يثر عليهم أحد مثله الغارات، ومن أشهر غزواته هذه التي استطردها النَّاظم، وكانت سنة ثمانية وتسعين وألف، وبها استشهد (رحمه الله)، وقد أبدىٰ ذلك اليوم وأعاد، وأظهر من الشَّجاعة ما يقصر عنه عنترة بن شداد، وقد أخبرني بعض من حضره أنَّه تَكَسَّر في يده ذلك اليوم سيفان، وحكىٰ لنا أنَّه احتفل لذلك اليوم احتفالًا عظيمًا لَبِسَ فيه أفخر ثيابه، وتحلَّىٰ بأشرف حليته، وركب أجود مراكبه، ووقف **بكدية الخيار** ينتظر خروج الكفرة الأشرار، وهو مع ذلك يُعبئ جيوشه ويرتِّبها، ويُحرِّضهم علىٰ الإقدام في مزالق الأقدام، وليس في لسانه إلا طلب الشهادة ذلك اليوم، حتَّىٰ أقبل جيش العدو

(1) **الحلفاوي**: مفتي تلمسان له منظومة تحتوي علىٰ 72 بيتا في فتح وهران علىٰ يد الباشا **بكداش**، وقد شرحها **عبد الرحمـٰن الجامعي** فصارت من أهم المصادر التاريخية لوهران.

(2) كان شعبان بايا، وقاعدته (**مازونة**).

في تعبئته، وبرز شيطانهم في أبهته، وكانوا ينيفون عن الثمانية آلاف فيها نحو ألف من الخيل، والمسلمون نحو النصف من ذلك، إلَّا أنَّ أكثرهم خيل، وفي ذلك اليوم اقترنت رجالتهم بالأحبال، لئلا يفرُّوا من القتال، فكان في ذلك للمسلمين أسعد فال، فلمَّا التقى الجمعان حمل في خيله حملة الأسد الغضبان، فشتت خيلهم ومزَّقها، ثُمَّ أمر القلب ـ وكان فيه الأتراك ـ بالحمل على رجالة العدو، فمنح الله المسلمين أكتافهم، وتلاحقت الجيوش تضرب رقاب الكافرين، فكان يومٌ لا يعرف فيه البارود، ولم تفتقر فيه السُّيوف إلى الغمود، وهزم العدو هزيمة عظيمة، ومات منهم يومئذٍ أحد عشر مائة، واستشهد في أثنائه الباي المذكور، قتله بعض المغطسين من بني عامر، فعلَّق الكفرة رأسه ببابهم، ثُمَّ إنَّهم رأوا سراجًا يتَّقِد عليه ليلًا فبعثوه للمسلمين، فدفنوه مع جسده (رحمه الله)» اهـ.

ومن أكبر أيامه يوم **المكامن** وهو مشهورٌ، وفيه يُقال: وُجد على بطن أحد القتلى من الكفرة كي دائر بسرته، وصاعد إلى قرب قلبه، فبُقر فإذا حنش ملتو ذنبه على سرته ورأسه صاعد إلى قلبه، فلمَّا كاد أن ينال قلبه أدركه كي الطبيب فمات.

و(**باكداش**) هو الإمام العلَّامة النَّاظم الناثر، مقيم رَسْمِ الجهاد الداثر، الملك العظيم المُستوجب غاية الإجلال والتعظيم السيِّد **محمد**[1] **بن علي بن محمد داي النقدلي** المنشأ المذكور نسبه، والتعريف به في شرح **منظومة الحلفاوي** إذ هو الذي أُخذت وهران في أيامه بأمره على يد أميره السيِّد **مصطفى بيك** المشهور **بأبي الشلاغم**، وتفسير (**باكداش**) هو الحجر القاسي غير أنَّا نجد الأتراك اليوم يقولون في الحجر القاسي: باكطاش بالطاء المهملة،

---

(1) فتح وهران الفتح الأول سنة 1119هـ، وقد خصَّ هذا الباشا الأديبُ الجزائري **محمد بن ميمون**، فجمعَ ترجمتَه، والمدائح التي قيلت في هذا الفتح في كتابه المسمَّى: (**التحفة المرضية في الدولة البكداشية**).

والذي في **شرح الحلفاوية** أنَّه بالدال؛ لأنَّه بنىٰ عليه تاريخا إنَّما يخرج بالدال فلعل كلامهم الآن تحريفٌ، وقد ذكر الشَّارح المذكور في تفسيره احتمالًا آخر، فليطلب فيه، وقولنا **(الجهاد)** مبتدأ، و**(أصل البرِّ)** خبره، وما بعد كلام مُستأنف، والمعنىٰ: أنَّ الجهاد هو أصل كل خير، وأساس كل نعمة إسلامية، لأنَّه به انقطعت المفاسد من الأرض، وبادت الأحزاب، وكسرت الأوثان والأصنام، وظهر دين الإسلام الذي هو خير كله، فوصلت الأرحام وظهر الحلال والحرام، وأُقيمت الصَّلوات وأُوتيت الزَّكوات، وتلاشت معالم الجاهلية، غير أنَّه انقطع من هذا البَرِّ الذي نحن به، فلم يبق منه فيه غير الذِّكر الذي هو بمنزلة الرَّسم المهجور، وقد عفا منه رسمه فلم يظهر منه حتَّىٰ الأثر، وتخصيصُ ذلك بالبَرِّ إشارةٌ إلىٰ أنَّه لم ينقطع من البحر، فإنَّ أهل **(الجزائر)** نصرهم الله لم تزل أساطيلهم تغزو في البحر حتَّىٰ ضيَّقوا علىٰ الكفرة عريضه، ومنعوهم سلوكه، وكثيرًا ما غزت الكفرة بلدهم، فرجعوا بخفي حنين، وباؤوا بخسر وحين، وذلك في حكم البحر، وكان عفاء رَسْمِ الجهاد المذكور من عهد الأَمير **شعبان الزناجي**، والسُّلطان **محمد بن علي باكداش**، أسأل الله أن يسقي جسديهما بغمام الرحمة، وما زال كسادُ الجهاد مستمرًّا لا تقوم له سوق يعتمد بها، وتنفق بضائعه فيها، ولا يراع الكفرة في بلدهم بِجلب الخيل والرجل عليهم فيها بقصد جلائهم، وإخلاء أرضهم منهم، ولا تُقام حربٌ عظيمة تُضعضع أركانهم، وتُوهي بنيانهم إلَّاما يتخلَّل ذلك من ملاقاة اليوم واليومين في السنة والسنتين حتَّىٰ ظهر الأمير الشبيه بالأسد في الحروب إقدامًا وشجاعة ومهابة، ثالث هذين السيدين المذكورين وهما: **شعبان و باكداش** في إقامة الجهاد الفرد، أي: المفرد عنهما وعن غيرهما بفضائله الشهيرة، ومفاخره الأثيرة، ومزاياه الكثيرة، ومحاسنه التي أخفت شمس الظهيرة، فأقام أسواق الجهاد، وصرف إليه وجه الجِدِّ والاجتهاد، حتَّىٰ فتح الله علىٰ يده البلاد التي أعجزت سواه من الملوك والأمراء، وأوقفتهم وقُوف الفشل، ثُمَّ أرجعتهم القهقرا، ولقد كانت مخائله تطمع المسلمين في فتحه أيامها فكثر إليه المشيرون، وأكثر في ذلك المتفقرون، حتَّىٰ حقق الله فيه

الآمال، وأبدىٰ تفصيل ذلك الإجمال، فلله الحمد علىٰ جزيل نعمه ووافر كرمه.

فإن قلت: لِمَ تنسب فتح وهران إلىٰ **بكداش** مع أنَّ الناس مطبقون علىٰ أنَّ السيَّد **مصطفى أبا الشلاغم** هو فاتحها ؟

قلت: إنَّ **أبا الشلاغم** المذكور (رحمه الله) إنَّما كان مأمورًا بالغزو بأمر **بكداش** (رحمه الله)، وينفق علىٰ الغزو من بيت المال حتَّىٰ إنَّه يحسب الفتيل والنقير والجليل والحقير، وبذلك يظهر الفرق بينه وبين أميرنا المُؤَيَّد، المسؤول من الله أن يَخُصَّه بعزِّه المؤبد، حيث استوجب أن يُنسب إليه الفتح دونه، فإنَّ أميرنا هو السَّاعي في الجهاد بنفسه دون أن يُؤمر به، بل كان ممنوعًا من الإذن فيه، ولم يستفده إلَّا بعد جُهد جهيدٍ، وطلبٍ أكيدٍ كما سيأتي، ومع ذلك فكان لا يُنفق علىٰ الجهاد إلَّا من خاصِّ ماله دون مُستعين؛ إلَّا بخالقه تعالىٰ، وقد أنفق عليه ما لا يُحصي له أحد عددًا، ولا تسمح به نفس سواه أبدًا، ولقد أحصىٰ من ذلك ما حصرته الأقلام، وحضر دفعه كتابه الأعلام، فكان مبلغه **مائتي ألف وستين ألفا وأربعة وثلاثين ريالا** من جلائل النَّفقات، والعطايا دون تافهها وحقيرها، فوجب بذلك أن يُنسب له الفتح، ويعدُّ **أبا الشلاغم** من نوابه المأمورين بأمره الملتمسين لثوابه.

وقد بقي من ألفاظ الأبيات ما يحتاج إلىٰ التَّفسير منها (**الصَّدى**) وهو جسد الآدمي بعد موته، ويُطلق علىٰ الرَّجل الضَّعيف الجسد، وعلىٰ حشو الرأس والدِّماغ، وطائر يطير بالليل يقفز قفزًا، وطائر يخرج من رأس المقتول إذا بلي بزعم الجاهلية، وهو المُراد بقول توبة:

ولو أنَّ ليلىٰ الأخيلية سلمت   علي ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقىٰ   إليها صدىٰ من جانب القبر صائح

ولما مات مرَّت ليلىٰ هذه علىٰ قبره مع زوجها، فقالت: «والله لأسلمنَّ عليه»،

فمنعها زوجها فأبت، فلمَّا سلَّمت عليه التفتت إلى الرِّفقة، وقالت لهم: «والله ما علمت أنَّه كذبني شيئًا غير اليوم » قالوا: وما ذاك ؟ فأنشدتهم البيتين، وكان بجانب القبر بُومة فطارت في وجه الجمل فأسقطها فماتت، ودُفنت إلى جانبه، ويُطلق **(الصَّدى)** على العطش، وعلى فعل المتعدي، والعالِم بمصلحة المال، وذكرُ البوم، وما يرده الجبل على المصوت فيه، وسمكة سوداء طويلة، و**(الناشي)** المرتفع، يُقال: نشأت السَّحابة إذا ارتفعت، ويُطلق أيضًا على السَّحاب أول ما ينشأ، وهو صحيحٌ آخره همزة متحرِّكة تظهر عليها علامات الإعراب، وجعلته معتلا ضرورة، و**(السَّرب)** بالفتح الماشية كلُّها، وبالكسر القطيع من الضباء والنساء وغيرهما، ومنه قول الشاعر:

أَسِرْبَ القطى هل من يُعير جناحَه لعـلي إلى مــن قـد هويــت أطـيرُ

و**(الورد)** هو الأسد، ومما يجب أن نعتذر عنه في هذه الأبيات إفراد **الصَّدى** مع أنَّ الواجب تثنيته، ولنا في ذلك أُسوةٌ بزهير في قوله:

تداركتما الأصناف قد ثل عرشـها وذبيان قد زلـت بأقـدامها النّعـل

وكان الواجب أن يقول **ثلت عروشها وزلت النعال،** ومثل ذلك كثيرٌ في كلام العرب، وعذرنا في ذلك أظهرُ؛ لأنَّ مُسَمَّى **الصَّدَى** ومفهومه واحدٌ لا يتعدد، وإن تعددت أفراده، فمرادنا ذلك المفهوم.

فضل الجهاد

ولنذكر هنا بعض فضائل الجهاد اختصارًا، فنقول:

اعلَم أنَّ الله استعبد البريَّة كلَّها بإيجاده إيَّاها دون غرض اقتضاه، ولا عرض أوجبه، ولا عوض من نفع، أو دفع ضُرٍّ طلبه، إذ لا ريبة في أنَّ من أحيىٰ مواتًا فهو له، فكيف بمن أبرزه من عدمه، ثُمَّ إنَّه بمحض فضله واختياره قدر لها آجالًا لا تصل إليها حياتها ولا تعدوها، وأرزاقًا تتدرج بها حياتها إلىٰ آجالها، ولو شاء لأعدمها بنفس إيجادها، إذ لا اعتراض علىٰ المالك في ملكه، وقضىٰ علىٰ جميعها بالموت فَرْقًا بين الربِّ والمربوب، فمن مَيِّتٍ ومقتول، ثُمَّ إنَّهم عين لهم وظائف يلتزمونها، وأمورًا يتجنبونها تظهر بذلك عبوديتهم، وتتمُّ عبادتهم، فمن التزمها وقام بها فهو العبد حقًّا المستحقُّ لرضى مولاه المتعرض لنفحاته، ومن لم يلتزمها فهو عبد السُّوء المستنكف عن خدمة مولاه المستحق لسخطه، وأمرُه إليه، وكان له ألا يثيب مطيعًا، ولا يُعاقب عاصيًا لما وجب له من الاختيار والملك، غير أنَّه تعالىٰ تفضَّل فجعل الجنَّة ونعيمها للمطيعين، وأظهر باهر قهره وعدله، فأعدَّ النَّار للكفرة أجمعين، ففي مقابلة كل طاعة حسنة بحسبها، وفي مقابلة كل سيئة نقمة بحسبها، وأوجب علىٰ العباد إظهار العبودية السارية فيهم بالتذلل له، والخضوع بين يديه سيما عند إتيان العبادات، فإنَّها مواطن الوقوف أمامه، ومجال خطابه فلا تتمُّ عبادة إلَّا بإظهار تلك العبودية، ولا يمكن إتيانها إلَّا بوصف الرِّقِّ؛ إلَّا الجهاد فإنَّ العبد يأتيه بوصف الحرية، والعزِّ والاستعلاء علىٰ الخصم؛ لأنَّ الله تعالىٰ تفضَّل علىٰ مجاهدي هذه الأمَّة فجعلهم أحرارًا يملكون نفوسهم

بتمليكه إيَّاهم لها حتَّىٰ لا يكونون داعين إلىٰ ذل، ولذلك اشتراها منهم بالجنَّة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة: 111)، وقال تعالىٰ في وصفهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة: 54)، فظهر أنَّهم يكونون في الجهاد في مقام العِزِّ والاستعلاء، وبذلك يتأتىٰ منهم الغلب، وتبين بذلك فضل المجاهدين، وتمَّت عليهم بذلك النِّعم العُظمىٰ والمواهب الجزيلة تفضُّلًا من الله عليهم، وإحسانًا منه إليهم، لا لكونهم استوجبوا عليه ذلك بفِعالهم، فإنَّ الله هو الملك المختار، وقد عين لكلٍّ أجلًا لا يتعدَّاه طرفة عين، وأوجب له الموت عند انصرامه بالقتل أو غيره، فلا فرق بين الجهاد وغيره، إذ هو ميِّتٌ علىٰ كلِّ حال، ولسكرات الموت من الألم ما يوازي ضُرَّ القتل أو أشد، ولله در من قال:

ومن لم يمت بالسَّيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والموت واحدُ

وغيره يقول:

هو الموت إن لم تلقه ضاحكا تمت ... عبوسا بوجه أفتر اللون أغبرا

ومن لم يمت في ملتقىٰ الخيل مقبلا ... عزيزا يمت تحت السنابك مدبرا

وقال الله العظيم، وقوله هو الأحق والأولىٰ بالتقديم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ (آل عمران: 154)، وقال: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

حَدِيثًا﴾ (النساء: 78)، إلَّا أنَّ العبد لما كان في صورة المختار، وأقدم على بعض ما يقطعُ حياته التي لا أحب منها لهذا النوع الإنساني بل الحيواني، جعل الله له في مقابلة ذلك إذا كان في طاعته الجنَّة التي لا أنفس منها إكرامًا وتكرُّما، فإنَّ السيِّد الكريم يشتري من عبده ما هو قادرٌ على انتزاعه من يده بأنفس ما لديه، ويُثيبه على امتثال أمره وإن كان واجبًا عليه امتثاله، والعبيد متفاوتون بحسب امتثالاتهم في درجاتهم وأُعطياتهم، وأفضلهم من أقدم على أشقِّ الأمور ومؤديها إلى الموت، ولذلك قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ (النساء: 95 ـ 96)، فلولا أنّه قال: (وكلا وعد الله الحسنى) لأيس القاعد، وحسب من الأباعد.

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنّة مائة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدَّرجتين كما بين السَّماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنات، وأعلى الجنة ـ أراه ـ فوقه عرش الرَّحمـٰن، ومنه تُفجر أنهار الجنَّة».

وقال ﷺ: «لغدوة في سبيل الله أو رَوحة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ولو أنَّ امرأة من أهل الجنَّة اطَّلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحًا، ولنصِيفها على رأسها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها».

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله؛ إلَّا جاء يوم القيامة واللَّون لون الدَّم والرِّيح ريح المِسك».

وقال ﷺ: «ما أغبرَّتا قدَما عبدٍ في سبيل الله فتمسه النَّار».

وقِيل له: يا رسول الله صلىٰ الله عليك: أيُّ النَّاس أفضل ؟ فقال: «مؤمنٌ يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، قالوا: ثم مَن ؟ قال: مؤمنٌ في شِعب من الشِّعاب يتقي الله، ويُريح النَّاس من شرِّه».

وتمنَّىٰ رسول الله ﷺ أن يُقتل في سبيل الله ثمَّ يحيىٰ، ثُمَّ يقتل ثُمَّ يحيىٰ، ثُمَّ يقتل.

وفي **البخاري** (رضي الله عنه) في: **فضل العمل في أيام التشريق** أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما العملُ في أيَّامٍ أفضل منه في هذه، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال: ولا الجهاد، إلَّا رجل خرج يُخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء».

وهذا الحديث قاطعٌ لأوداج المقيِّدين وجوب الجهاد بما إذا لم يعظُم الخطر من المدافع ونحوها، ويستدلُّون علىٰ تقاعدهم عنه لعظم المدافع بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة: 195)، وهو استدلالٌ باطلٌ، يبين بطلانه معرفة سبب نزول هذه الآية الكريمة.

والأحاديث في فضل الجهاد، وذِكْرِ ما أَعَدَّ الله للمجاهدين من الأجر والحور والولدان والقصور أكثر من أن تُحصىٰ، وأشهر من أن تُجهل.

ومن كراماتهم: أنَّهم أحياء غير أموات كما ثبت ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران: 169)، فهم أحياء حياة حقيقيَّة مخالفةً لحياة سائر الأموات، وبذلك أكَّدها تعالىٰ بقوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾.

ولما أمر **معاوية** (رضي الله عنه) بإخراج دُفناء **أُحد** لإجراء الماء أُخرج الشُّهداء من

قبورهم رطبا يَنثنون، وأصابت مِسحاةٌ رِجلَ أحدِهم فسال منها الدَّم، ووُجِد بعضهم واضعًا يده على طعنة به فرُفعت يدُه عن الطعنة ففار الدَّم، فأُرسلت يدُه فعادت كما كانت وانقطع الدَّم.

وفي **(مفتاح الشِّفا)** أنَّ رجلًا أسود يُقال له **مبارك** كان أصحابه يأمرونه بالتزوج، فيقول لهم: أسأل الله أن يُزوجني من الحور العين، فحضر غزاة فمات ومَرَّ به أصحابه وقد قُسِمَ نصفين، فقالوا: أيا مبارك كم زوَّجك الله من الحور ؟ فأخرج يده من تحته وأشار لهم بأصابعه الثلاث؛ كأنَّه يقول لهم: ثلاثًا.

وعن **أبي زيد** (رضي الله عنه) أنه قال: خرجتُ إلى الجهاد زمن الملك الناصر الأندلسي، فانكسر المسلمون، فكنت أكمن بالنَّهار وأسيرُ باللَّيل، فبينما أنا أسير ليلة فإذا بعسكرٍ نازلٍ وخيول مربوطة، ونار مُوقدة وقرآن يُتلى، فحمدتُ الله وقصدتهم، فإذا بشابٍّ يقرأ سورة **بني إسرائيل** وفرسه مربوطةٌ، فسلَّمتُ، فردَّ عليَّ السَّلام وقال: أنت مِن الناجين ؟ قلت: نعم، قال: اجلس تسترحْ، وأعطاني عنقود عنب في غير أوانه، ورغيفًا وكوزَ ماءٍ ما أكلتُ ولا شربتُ ألذَّ منها، فقال لي: لعلَّك تريد النَّوم ؟ فقلت: نعم، فأسندني على فخذه، فغلبني النوم حتَّى ضربتني الشَّمس فانتبهت، فلم أجد في الوادي أحدًا، وإذا برأسي على عظم ميِّت، فعلمت أنَّهم الشُّهداء، فكمنت ذلك اليوم فمرَّ عسكرٌ ليلًا وهم يذكرون الله فسلَّموا عليَّ، وفي آخرهم [رجلٌ] على فرس أعرج، فأدركني فسلَّمَ عليَّ، فقلتُ: من هؤلاء ؟ قال: هم الشُّهداء مضوا إلى زيارة أهلهم، فقلتُ: ما بال فرسك عرجاء ؟ قال: بقي من ثمنها ديناران، فانطلق حتَّى لحق بالقوم، ثُمَّ عاد فأردفني، فلمَّا صرخ الديك وصلنا إلى مدينة **(سلا)**، وبيننا وبين الموضع الذي حملني منه عشرة أيام، فقال: ادخل هذه المدينة، فإنِّي كنتُ بها، فاسأل عن دار **محمد بن**

يحيى الغافقي، وادع زوجتي واسمها **فاطمة بنت سالم** فسلِّم عليها، وقل لها: في الطَّاقة جرَّة فيها خمسمائة دينار، أدِّي منها دينارَين بقيَّة ثمن الفرس لفلان بن فلان، ففعلتُ ما أمرني به، واستخرجَت المرأة الجرَّة، فأعطتني طعامًا وعشرة دنانير.

وحكاياتهم في ذلك كثيرة، وفضائلهم شهيرة أثيرة، وبحسبك أنَّ كل نبيٍّ نصره الله بأمر سماوي من إحراق قومه، أو إغراقهم، أو قحطهم أو غير ذلك، ونبيُّنا نُصر بالرُّعب على العرب، وبالحرب المؤذنة لعدوه بالخراب، لكونهم كانوا أهل حروب متواترة، فأيَّده الله عليهم بما قهروا به النَّاس فقهرهم، ولا تتم تلك النصرة إلَّا بالمجاهدين، فكيف لا يكونون في أعلى رتب الفضل وبهم تمَّت تلك النُّصرة، وظهر الدِّين وتَمَّ عزُّه، وقد كان اللائق بنا الإطالة في هذا الباب غير أنَّ داعي الاختصار جمح بنا عن الإطناب فيه والإسهاب، وشهرة المحدود تغني عن حدِّه.

وفي الأبيات: الجناس التام بين (البَرِّ) و(البِرِّ)، واللاحق بين (سرب) و(حرب)، و(الورد) و(الفرد)، والتصوير في الأول.

مــــدوخ الأقيـــال والأبطـــال	**ومنجــز الوعــد بــلا مطــال**
فكـــاك كـــل معـــدم أســـير	**وكــل صــعب مــبهم عســير**
مــن قــد أذاع العــدل والأمــان	**وأبطــل الجــور أبــو عثمــان**
محمـــد محيـــي رســـوم المجـــد	**ســليل عثمــان الهمــام الكــردي**
لا زال مانحـــا لكـــل علـــق	**وفاتحــا بالســيف كــل غلــق**
مرتـــديا بهيبـــة الجرهـــاس	**محكمـــا محببـــا في النـــاس**
فـــإن في أيامـــه فلاحـــا	**أبــدى بــه نــور الهــدى فلاحــا**
وفي مطـــاوي رأيـــه رشـــادا	**بنـــى بـــه إمرتـــه وشـــادا**

يُقال: دَوَّخَ البلاد، وداخها وديخها، إذا قهرها واستولى على أهلها، ودوَّخه أذلَّه،

و(**الأقيال**): جمع قيل، وهو الملك، و(**الأبطال**): جمع بطل، وهو الشُّجاع، **وإنجازُ الوعد** أداؤُه بتعجيل، فقولي: (**بلا مطال**)، بيانٌ للواقع، وفيه تتميم بديعٌ، ويُقال: **فك** الأسير والمحبوس إذا أطلق سراحه، ونجَّاه ممَّا هو فيه إمَّا بفداء أو بغيره، **والمبهم من الأمور** ما اشتدَّ وصعب وجُهلت عاقبته، وهو شاملٌ لكلِّ مشقَّة فادحة، و(**أذاع**) أشاع وأشهر، و(**العدل**) الحكم بمُقتضىٰ الشَّريعة لا لهوىٰ نفساني، فيخرج ما إذا حكم بمختلف فيه ضعيف لا لكونه ترَجَّح عنده، بل لغرض دنيوي فإنَّه يُحرم عليه، كما نصَّ عليه صاحب (**القبس**)[1] وغير واحد، ووجوه العدل كنقائضه كثيرةٌ، و(**الجور**) ضِدُّهُ، و(**أبو عثمان**) تكنيةٌ له بأكبر أولاده (**الأغر**) الأنجب المُقتدىٰ به في أفعاله السَّديدة ومآثره الحميدة، المتولي الآن أوَّل وِلايات أبيه السيِّد عثمان حفظه الله وصانه، وعلىٰ ترقي معارج المجد أعانه، فإنَّه درَّة من صدف أبيه، ونبعة في روض الفضل ما لها شبيه، نشأ ومخايل السَّعادة عليه تلُوح، وعرف المجادة من أطرافه يفُوح، وأبكار المراتب تخطبه، وآمال الأسرة تطلبه، وهو الآن شبلٌ يفترس الأرواح، وفيه كنت قلت قيامًا بحقِّ وُدِّه، وأداءً لما وجب من وصف مجده:

ألم المحبـــة للحشاشـــة موجـــع	والصـــبر للصـــب المـــروع مرجـــع
لـــولا التصـــبر والتبصـــر في الهـــوىٰ	لرأيـــت ســـلوي في الأســـىٰ يـــتروع
يـــا ثالـــث القمـــرين في إشراقـــه	لِسَـــناكَ في أفـــق الســـماحة مطلـــع
طفل المساء فنُبتَ عن شمس الضحىٰ	وأتـــىٰ النهـــار فكنـــت بـــدرا يســـطع
لا يفقـــد القمـــرين في وقـــت معـــا	مـــن كنـــت تغـــرب في ذراه وتطلـــع
زرني ولـــو في الطيـــف زورة واصـــل	عنـــدي لســـرك والأمانـــة موضـــع

(1) هو الإمام أبو بكر ابن العربي المالكي. (ع)

لا تستمع قول الوشاة فإنما ... قول الوشاة شقاشق لا تسمع
وامنن علي بنظرة من وجنة ... مصقولة أصداغها تتلفع
تَرنو لواحظها بِعَيَنَيٍّ جؤذر ... وسنان فيها للتكسر مربع
لعبت بألباب الرجال وأصبحت ... في كل قلب مستهام ترتع
وأبادت العزمات منها والنهى ... والصبر فهي الآن منها بلقع
لحظاتها فتانة وسهامها ... قتالة ترمي القلوب فتقطع
لا كان لي منها خلاص بعد ما ... قد شاع أني منها فان موجع
إني أريد من المحبة مخلصا ... ولمهجتي قد طاب منها المرتع
سم الهوى ووبيل علقم ضره ... قد صار لي شهدا به أتمتع
وكذاك كل مقدم في فنه ... يحلو له ما تحتويه الأضلع
أفما ترى عثمان واحد عصره ... تحلو له الحرب التي تستبشع
سخو لها بالنفس وهي عزيزة ... تهدي المضرة للعداة وتنفع
ما العود يحسن جسه متمنطق ... يسبي العقول بعوده إذ يوقع
بأجل من صوت البنادق عنده ... أن صار هائل صوتها يتقعقع
ودم العداة له ألذ من الطلى ... إن هام بالراح الذليل الأضرع
ثبت الجنان إذا الشجاع تزعزعت ... أركانه لم تلفه يتزعزع
لو حاولته الأسد لم يحفل بها ... أمن الكلاب أخو البسالة يفزع
ولو أن أبطال الزمان تألبوا ... وبدا بلا لأم لهم لتضعضعوا
جمع الشجاعة والسماحة والندى ... والصرف والإحسان فهو الأرفع
كم من مواهب في الأنام أذاعها ... يثني عليه بها الخطيب المصقع
ويد له في الناس قد سارت كما ... قد سار عاطر ذكره يتضوع

يـا سـابق الأمـراء في سـبل العـلىٰ والكـــل يتبعـــه ذليـــل أضـــلع
قـد فقـت أصـحاب الأوامـر كلهـم فســنا كمالـــك في البريـــة يلمـــع
فـافخر كـما قـد شـاء مجـدك وابـتهج فلـــك البريـــة في كمالـــك تبـــع

وفيه قلت أثناء قصيدة محتوية علىٰ مزاح أدبي ومنزع عربي:

عســىٰ الليــث عــثمان يعــذرني ويجـــري عـــلىٰ خطـــة الكـــرم
فـــذاك امـــر حلمـــه واســـع يـــواسي بـــه كـــل محـــترم
وفي جـــوده الغـــر مـــا يكتفـــي بـــه الممحلـــون عـــن الـــديم
كمــــيٌّ إذا ســــار في معـــرك تضـــاءل كـــل شـــجاع كمـــي
شـــفيعي لـــه صـــهره المرتضـــى محمـــد ذخـــري ومعتصـــمي
هــو البــدر يهــدىٰ بــه الــداجون ويـــأوي لـــه النّـــاس كـــالعلَمِ

و(**المجد**) الشَّرف والكرم أو كرم الآباء، و(**السَّليل**) الولد، و(**عثمان**) اسم أبيه الأعظم والطود الأفخم، و(**الكردي**) نسبةٌ إلىٰ الأكراد القوم الذين منهم **صلاح الدِّين** الآتي ذِكره إن شاء الله، واختُلف في نسبهم فقيل: إنّهم من بقية طعم الملك بيوراسف، وذلك أنَّه كان يأمر أن يُذبح له كلَّ يوم إنسانان، ويتخذ طعامه من لحومهما، وكان له وزيرٌ يذبح واحدًا ويستحيي واحدًا، ويبعثُ به إلىٰ جبال فارس، فتوالدوا في الجبل وكثروا، وقيل: إنَّه من نسل إماء سليمان عليه السَّلام لما سُلب ملكه، وواقعهنَّ الجانُّ الذي يُقال له الجسد، وكُنَّ منافقات فعلقن منه، فلمَّا ردَّ الله له ملكه قال: أكردوا تلك الحوامل إلىٰ الجبال والأودية، فربتهم أمهاتهم، وتناكحوا حتَّىٰ كثروا[1]، وعند الفُرس

(1) خرافة باطلة. (ع)

أنَّهم من ولد **كرد بن اسفندام**، وقِيل: إنّهم يُنسبون إلىٰ **كرد بن مزاد بن عمرو بن صعصعة**، وقِيل: من ولد **عمرو بن مزيقيا بن عامر بن ماء السَّماء**، وبالجُملة فهم قبائل من الجبل عديدة، ولهم في دواوين الفضل مآثر حميدة، ولو لم يكن إلَّا **صلاح الدِّين** في أوَّل الزَّمان، وهذا الأمير الأجلُّ في آخره لكفاهم فخرًا وفضلًا دنيا وأخرىٰ.

و(**العلق**) النفيس من كلِّ شيء، و(**الجرهاس**) الأسد، ويُقال: شاد البناء يُشيده إذا طلاه بالشيد، وهو ما يُطلىٰ به الحائط من جير وغيره، وذلك هنا من باب الإستعارة التبعية، أطلقت البناء والتشييد علىٰ القيام بأمور الإمرة، وحفظ شرائطها، وسياسة الرَّعية بما ينبغي أن تُساس به، أي: شبه هذه الأشياء بالبناء والتشييد، ثُمَّ اشتق منها فعلا من معناها فقال: بنىٰ وشاد.

والمعنىٰ أنَّ الجهاد لم يزل مُعطلا حتَّىٰ ظهر هذا الأمير الذي من صفاته أنَّه قاهر للملوك النَّصرانية، والأبطال العادية، فذلَّلهم بعزماته ووثباته الأسديَّة، وأنَّه كثير الوعد بالخير منجز له لا يمطل موعده، ولا يسوف بهباته وعطاياه المشهودة، الذي أشاع وأذاع في إيالته العدل في غالب أحكامه، والأمان في سائر أقطاره، بكثرة قمعه للعادين فيها، وهتك حريمهم، وقتل رؤسائهم، حتَّىٰ عدم الخوف منها بالكليَّة، وصار النَّاس يسيرون منها حيث شاؤوا، لا يخافون إلَّا الله، وأبطل الجَوْرَ من بلده والعدا، فكاك الأسارىٰ الذين لا قُدرة لهم علىٰ تخليص نفوسهم من أيدي العدوِّ لعدمهم، وكاشف كُلِّ أمر صعب مبهم هائل لا تعلم عاقبة أمره، **أبو عثمان السيِّد محمد بن عثمان** الكرديُّ نسبًا، ثُمَّ المليانيُّ مولدًا، ثُمَّ المعسكري منشأ، ثُمَّ الوهرانيُّ أميرًا ما بين (**وجدة**)، وبين ما تحت (**مليانة**)، ثُمَّ ما بين البحر المتصل بهذه الناحية، وبين العرق المشهور بالصحراء عرضا، وإلىٰ بلاد الأغواط طولا، محيي رسوم المجد الذي كان عُدم فصار كالرَّسم الداثر، ومفيض أودية الجود الذي انقطع من هؤلاء الأواخر، لا زال علىٰ ما

هو عليه من صفات الكرم والشجاعة والنَّصر، يمنحُ سائله كلَّ شيء نفيس، ويفتحُ بسيف نصره كلما انغلقت أبوابه على غيره، وصعب عليه حتَّى استغاث به فيه، فكشف عنه همه، وأزال منه كل غُمَّه، في حال كونه ذا مهابة كمهابة الأسد لا تطيق العيون تملأ بالنظر إليه، حتَّى كأنه مرتديا منها برداء يمنع من إحداد النظر إليه، كما قال الشاعر:

أشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله

لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله

وأصد عنه تجلدا وأروم طيف خياله

وفي حال كونه محكما في النَّاس إلى آخر عمره، محببا إليهم لا يملُّون أيَّامه الحميدة، ولا يعدمون ذاته السعيدة، فإنَّها أصل كل سعادة لهم، فالعاقل من طلب دوامها ولم يستطل أيامها، ففي قولي: **(منجز الوعد)**، إشارة لكثرة وعده إذ لا يُسمى منجز الوعد ويتحقق منه ذلك حتَّى يكثر منه، وفي قولي: **(لا زال مانحا ... الخ)**، إشارةٌ إلى كثرة جوده، وإعطائه النَّفائس فضلًا عن غيرها، فاجتمع له الخصلتان كثرة تعجيله المعروف دون وَعْدٍ به، وكثرة الوعد وتعجيل وفائه، وقولي: **(بلا مطال)**، تتميمٌ بليغٌ، واحتراس بديعٌ، لأنَّ الكلام تَمَّ بقولي: **(منجز الوعد)**، فاحترست به من أن يظنَّ من لا يعلم معنى الإنجاز أنَّه يَعِدُ ويمطل، ثُمَّ إنَّه وإن كان مفادُه هو مفاد نجز الوعد فلا عيب فيه، فإنَّ العرب لم تزل تردف الشَّيء بمثله معطوفًا أو غير معطوفٍ، صفة أو مضافًا لصاحبه إذا اختلفا لفظًا، ويقصدون بذلك التَّأكيد والتَّفسير، فمما جاء صفة للتأكيد قول رؤبة:

قلت وقولي صائبٌ سديد

وهما بمعنى القاصد، وقول **الجعدي**:

فإن قصدك مني صادم صمم

وكلاهما بمعنىٰ شديد، وممَّا جاء معطوفًا قول **الحطيئة**:

ألا حبــذا هنــد وأرض بهــا هنــد   وهند أتىٰ من دونها النأي والبعـد

فالنَّأي والبعد شيء واحدٌ، وممَّا جاء منه أحدهما مضاف إلىٰ الآخر:

كــأن حــدوج المالكيــة غــدوة   خلايا سـفين بالنواصـف مـن دد

والخلايا هي السفين.

وفي الأبيات: التتميم، والاحتراس، والجناس المضارع بين (**أسير**) و(**عسير**)، والتَّام بين (**فلاحا**) و(**فلاحا**)، والنَّاقص بين: (**رشادا**) و(**شادا**)، والتصحيفي بين (**علق**) و(**غلق**)، والترديد بين (**كل**) و(**كل**)، وفي الثالث الطباق بين (**أذاع**) و(أبطل)، و(**العدل**) و(**الجور**)، والمقابلة بين (**أذاع العدل**) و(**أبطل الجور**)، ويصحُّ أن يُقال: إن في الثاني والخامس تقسيما، وقولي: (**فإنَّ من أيامه ... الخ**)، حسن التعليل، وفي قولي: (**بنى به إمرته وشاد**)، التسهيم، إذ من عرف الرَّوي وسمع لفظة (**بنى**) أول العجز علم أنَّ آخره شاد، لملازمة ذلك للبناء، وكذا في قولي: (**وفاتحا بالسيف كل غلق**)، وكذا (**ومنجز الوعد بلا مطال**)، وفي قولي: (**محكما محبَّبا في النَّاس**)، احتراسٌ من أن يُعتقد أنَّه وإن كان محكما فيهم فهو غير محبوبٍ عندهم، ومحبة النَّاس دالَّة علىٰ محبَّة الله تعالىٰ لذلك المحبوب، فقد رُوي أنَّ بعض الخلفاء سأل **ثابت البناني** عن دعاءِ **صالح البناني**، فقال: كان يقول:

« اللَّهم حببني إلىٰ قلوب عبادك»، فاستخفَّ به الخليفة، فقال له ثابتٌ: أتستخف بهذا الدُّعاء ؟ قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبدا ينادي جبريل: إنِّي أحبُّ فلانا فأحبُّوه، فينادي جبريل بذلك في السَّماء، فعند ذلك يُلقىٰ حبّه في الأرض، ويقع في الماء فيشربه البَرُّ والفاجر، وإذا أبغَض الله عبدا أمر جبريل أن ينادي بالعكس من ذلك

فيبغضه البَرُّ والفاجر»، فقال الخليفة: تبت إلى الله تعالى، ثُمَّ إنَّه رأىٰ رسول الله ﷺ في النَّوم فقال: أدم قولك: اللَّهم حبِّبني إلى قلوب العباد، فإنَّ أولياء الله لا يُحبون عبدًا إلَّا بعد أن يُحبه الله تعالى.

و(**في النَّاس**) يتنازعه (**محكما**) و(**محببا**) أعمل فيه الأول، ولذلك أُتيَ بالحرف المناسب، وهو الفاء، ومَن زاد الأبياتَ حقَّها مِن التأمُّل ظهر له زيادة المحاسن فيها، وفيما انتزعناه منها كفاية.

إلماع بذكر أولية هذا الهمام
وما آل إليه أمره ونبذة من أخباره الجسام

اعلم أيُّها المتنعِّم في رياض وصف هذا الأمير، الطالب فيها لمزج الراح بالقراح النمير، أنَّه قد وشجت في الملك أعراقه، وتكرَّر في فلكه إشراقه، لأنَّ أباه السيَّد **عثمان** (أوقفَه الله يوم القيامة تحت ظِلال الأمان) كان في الأعمال متقلِّبا وفي جميعها على الأعداء متغلِّبا، ولي الحكم بـ**(مليانة)**، فأفاض فيها بره وإحسانه، ثُمَّ نُقل عنها، إلى رتبة أجل منها، فصيِّر أميرا بالإيالة المشهورة بـ**(تيطري)** تقفوه الجنود، وتخفق على رأسه الألوية والبنود، وهي إذ ذاك أكبر رتب الأمراء بعد السَّلطنة، يقدَّم أميرها على سائر الأمراء إذا اجتمعا في محلٍّ وإن لم يكن وطنه، قيل: إن ذلك لكونها أوَّل أرض فُتحت على يد هؤلاء الملوك العثمانيين من هذه العدوة بعد **(الجزائر)** وحواليها، وأوَّل بلد خرج منهم أمير إليها، غير أنَّ نفع الأمير بها قليلٌ بالنسبة لغيره لقلَّة رعاياه، فغالب رزقه على أطراف سلاحه بغاراته على الأعراب الآبين من الدُّخول في طاعته وسراياه، فلمَّا وليها صار يدوِّخ البلاد بمتابعة الغزو والجلاد، إلى أن قُتل (رحمه الله) في بعض غزواته على الأعراب المشهورين بـ(النوائل) فولي مكانه صنيعه وصديقه السيِّد إبراهيم الأمير المشهور، والد مُحبنا الأجل السيِّد الأكمل محمَّد صهر أميرنا المذكور الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، ومن عجيب أمر السيِّد إبراهيم هذا أنَّه رأى في المنام كأنَّ شخصا أتى إلى ثلاثة موازيب ماء عذب، فأمره بالشرب من أحدها فشرب قليلًا، فقال له اشرب من

الثاني، فشرب كذلك، فقال له أُشرُب من الثالث، فكان تأويل رُؤياه ولي الحكم بـ(**مليانة**) عقب السيِّد عثمان، ثُمَّ لما قتل ولي مكانه إمرة (**تيطري**) فكفل أولاده، وجزاهم عن إحسان أبيهم إليه وتزويجه إيَّاه بمكفولته أم أولاده الشهيرة.

ثُمَّ لما فرَّ **حسن بيك** إلى (**وهران**) لسبب يطول ذِكره سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف، ولي مكانه السيِّد **إبراهيم** بالإيالة الغربية، فأتى معه بهذا الهمام الذي منعت المنجبات من الإتيان بمثله، وقصر الأمجاد والأنجاد عن التطاول لفضله، فكان عنده كأحد أولاده، محبوًا عنده بطارف عرفه وتلاده إلى أن شهَّر بنجابته الآمر والمأمور، وقضت إصابته باستحقاقه ولاية الأمور، فولَّاه قيادة (**فليتة**) سنة ثمان وسبعين، وهي من أجلِّ ما يتولَّاه القوَّاد بعد خلافة الإمرة، فوليها ثلاث سنين أظهر فيها مجده، وكشف عن ساعد الجدِّ فأبان عن نجده، وصدق شهادة نجابته، بكثرة إصابته، ثُمَّ علم السيِّد **إبراهيم** (رحمه الله) أن قدره أجل من تلك الولاية، ومآثره تضيق عنها تلك الإيالة، استخلفه عنه ليكفيه المؤونة، ويُصلح له شؤونه، ويشاركه بالحكم في نصف إيالته، وشرقي عمالته، وذلك سنة اثنين وثمانين، فقام بذلك أتم القيام، وكفاه الشواغل سائر تلك الأيام، وسلَّ من عزمه صارمًا قطع به نفوس حاسديه، وأفاض من كرمه بحرًا أغنى به قاصديه، ودبَّر الأمور أحسن تدبير، وساس الرعيَّة بما أحبه به الصغير والكبير، وعلا له حيث طبق الأقطار، وطار في الأرض أي مطار، وهو إذ ذاك يدوِّخ من عصاه، ولا يضع على الأرض عصاه، ما ظهرت في الملك ثلمة إلا سدَّها، ولا عليت في الشقاق ريبة إلَّا هدها، حتى مُلئت القلوب بهيبته، وودت كل أرض قِسطا من صحبته، وسلطان (**الجزائر**) يفتخر به في ناديه، ويُهدد به أعاديه، وأميره يبتهج ابتهاجًا، والملك يعده لمفرقه تاجا، والرعية حامدة لسيرته، وأشعة الإحسان تلمع من أسارير

سريرته، ومآثره تخطب له الارتفاع، وتطلب له أكبر الرُّتب ليعمَّ به الانتفاع، حتَّىٰ هلك السيِّد **إبراهيم بيك** غرة سنة تسع وثمانين ومائة وألف، فطمحت إليه العيون، وتوشقت القلوب، وتشوَّفت الخلائق إليه، وتخوفت من تقديم غيره عليه، فجاء خبر كاذب بنجع الأمل، وتصحيح العمل، فطارت البشائر، وقرت العشائر، ثُمَّ أتىٰ اليقين بأنَّ الرائد كذب أهله، لا جمع الله شمله، وأخبر أن المتولي خليل، فقلبت المنحة محنة، وأمسىٰ النَّاس في خطب جليل، وما قُدِّم عليه وإن كان هو المقدم عند أهل الديوان، المحبب لسائر الأمراء والأعوان؛ إلَّا لكون خليل له مالٌ أُريد ضمُّه لبيت المال لئلا يُدرج في زوايا الإهمال، ثُمَّ إنَّه مات لنحو الثلاث سنين ونصف من يوم إمرته، فولي هذا الهزبر الذي كمل به الزمان واعتدل، واستبدل بدره شمسا في دارة الحمل، وذلك لعشر بقين من جمادىٰ الثانية سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف فابتهجت الأكوان، واستبشرت الإخوان، واضمحلت غياهب النحس لما ظهرت طوالع سعوده، وخرَّت أعلام الظلم لما ترقَّىٰ منتهىٰ صعوده، وقُهِرَ المعاندون، وانقمع المتجاسرون علىٰ المملكة والعادون، وفاضت أودية الإحسان، وشمل فضله كل إنسان، فكان أوَّل ما صرف إليه همته أن شرع في إصلاح **مساجد الجمعة** فزاد في جامع السُّوق الصفين المقدمين، ثُمَّ نقض الجامع العتيق(1) وأعاد بناءه وزاد فيه أكثره، وأجرىٰ إليه الماء، وجعل إزاءه ميضاتا خمسا للوضوء والحاجة، وأبدل منبره، ثُمَّ شرع في بناء مسجده(2) العظيم الذي لم يبن أمير مثله إتقانًا وحسنًا من بعد أن اشترىٰ أرضه من أربابها بأغلىٰ ثمن وهم مستبشرون

(1) **الجامع العتيق**: هو الأعظم الحالي ويرجع عهده إلىٰ (**بني مرين**) حيث وجد الأثريون قطعة من منبره وضعت في متحف فاس في عهد الاحتلال الفرنسي.

(2) **جامع المبايعة**: المعروف بجامع حسن وكانت بقربه المدرسة المحمدية وخزانة الكتب، وقد تبارىٰ الشعراء في وصفها.

ببيعها، وكان لا يصرف في شيء من متعلقاته إلَّا مما يدخل يده من طيب الكسب وحلاله، وعذب زلاله، فإن نفد ما جمعه من ذلك تسلف من غيره إلى أن يقضيه من الحلال، وكذلك كان يفعل في صدقاته كلِّها، وقد حصل للنَّاس ببنائه ما يحصل له به إن شاء الله أعظم الأجور، ويحسب له من العمل المبرور، لأنَّه كان يبنيه زمن المسغبة، فكان من لم يجد قُوتا أَجر نفسه للخدمة فيه بما يستعين به على معيشته ومعيشة عياله، ومن له دابة أكراها، ومن له شيء من متعلقات البناء لم يبخس عليه، فكان ذلك عند الضُّعفاء أحسن من الصدقة، إذ لو كان صدقة لانقطعت، ولما كان في مقابلة العمل دام لهم، والزمن إذاك لا يجد فيه الأجير من يستأجره، ولا يلفى بائع غير المأكول من يشتريه منه، فجاء كما تراه العين من المباني الرَّائقة، والآثار الفائقة، مكتنفا بالمدرسة التي كاد العلم أن يتفجَّر من جوانبها، وحبس عليه خزانة كتب هي في البيت التي بناها لأجلها خارج بعض زواياه بابها فيه، وجعل شرقيه مقبرة محوزة بالبناء الوثيق يدفن فيها الشهداء ومن مات من قرابته وأولاده، وفي إحدى زواياه قبة عالية رائقة، وفي وسط المقبرة بئرٌ عذب ماؤها، كما حبس عليه الحمام العظيم الرَّائق بناء وشكلًا الذي بناه قربه، وهو من أعزِّ مبانيه، والدار الملاصقة لميضاته البديعة المحتوية على نحو الست عشرة مطهرة، وأتاه بماء كثير اشتراه من أربابه، واشترى ما كان مملوكا من المواطن التي حفر له فيها، وجعل من هذا الماء سقايات للسبيل، ومنه جعل الحمام المقدَّم الذكر، و باقيه في الميضات وصحن المسجد، فروى به أهل تلك الناحية بعد الظَّمأ الملازم والتَّعب، وحيي مواتهم، وتباشر بنيهم وبناتهم، واشترى له حدائق ودُورا، وحوانيت حبسها عليه، وبنى له فرنا وغير ذلك بحيث تكفي غلات أحباسه جميع وظائفه ولوازمه، وتفضُل منها فضلة تدخر له.

وقد فرغ من جميع تعلقاته من تنميق وغيره سنة ست وتسعين ومائة وألف، وهي التي تضمَّنها قولي:

فهاك أوجز ما يكفيك من خبر

لأنَّك إذا حسبت حروف الشطر المزبور بحساب الجمل خرج العدد المذكور، وهو الآن من عجائب هذا البلد يقصده الناس للتنزه والتعجب، فيحمل داخله على العبادة، ويجري التسبيح على لسانه وإن لم يكن أراده، ومشاهدته تُغني عن الإطالة في وصفه، وقد كنت قلت فيه قصيدة أثبتها هنا، وإن كانت قاصرة عن الإحسان لأنِّي قلتها زمان كنت لا أُجيد من النِّظام إلَّا ما يوافق الصغر من الأبيات القليلة وهي:

انظر رعاك إله الخلق واعتبر	لمسجد رائق قد لاح للبشر
متوج بالبها بالحسن مشتمل	بالظرف مؤتزر باللطف مشتهر
سماحة مزجت بالأصل وامتزجت	بالعلو والسفل والأركان والجدر
إن حله المرء حل الأنس مهجته	وصار في الحين للأذكار ذا بطر
لو أخبر الله أن الخلد يبدو لنا	حتى نشاهده في الأرض بالبصر
لقلت ذي جنة للخلد قد ظهرت	يحظى بها عامِلو الخيرات بالأجر
وانظر لمنبره المسود تحسبه	ليلا وفيه نجوم العاج كالزهر
وانظر لمحرابه الأبهى وتشييده	ترى بعينك ما يكفيك عن خبر
وانظر لقبته العلياء تحسبها	عقيلة فوق كرسي من الحجر
أو هالة البدر بل أنوار بهجتها	تفوق بهجة حسن الشمس والقمر
كأنها جعلت تاجا لمسجدها البـ	ـاهي الجميل العلي الأحسن النظر
لكي يزاد بها حسنا فزيد بها	كل الجمال مزيد العقد بالدرر

لأحمر الرقم في أثناء أخضره | إلى السواد جمال غير مستتر
لا زال رافعه بالنصر مشتملا | تهابه الأسد والأطيار في الوكر
ويتقي البطل المقدام سطوته | فلا يعود لفعل الظلم والحكر
ذاك الأمير محمد بن عثمان ذو الـ | ـعزم الذي فاق حد الصارم الذكر
فهو الهمام الذي عمت نوافله | كل الرعية من بدو ومن حضر
فهم عن الفقر والأهوال في حرم | مادام كرسيه الأبهى على العفر
أقامه الله في نفع العباد فما | لديه سعي سوى بالنفع للبشر
أما تراه حريصا عن إقامة ما | وهى لذا الدين من رسم ومن أثر
يبني المباني التي تبنى القصور له | بها جوار الذي قد ساد عن مضر
كمثل ذا الجامع الزاهي ببهجته | عن القصور ذوات الحسن والغضر
قد تم في سنة إن رمت تاريخها | فهاك أوجز ما يكفيك من خبر

وهذا التاريخ إن حسب فيه ألف **(هاك)** كان تاريخا للسَّنة التي فُرغ فيها من جميع تعلقاته، وإن حذف كان تاريخا للسنة التي خلى بين الناس وبين الصلاة فيه.

وقَدِم بلادنا بعض أدباء **(قرومة)**[1] قرية بينها وبين **(الجزائر)** بهجة الشرق مرحلتان، وهو السيِّد **أحمد بن السيِّد محمد بن علال،** شُهر بالمقري، فقال في هذا الجامع قصيدة غراء تؤنس في الليلة الغراء، وهي:

لما التقيت بوافد الحسن البهي | يزجى المطايا مغربا في عسكر
خاطبته أين المسير فإنني | أبصرت ما أدهى وأدهش منظري

---

(1) قرية بدائرة **الأخضرية**، كانت دار علم، واستوطنها أحد أفراد أسرة **المقري** التلمسانيِّين، ومنهم مادح الباي هذا.

فأجـــابني بلســـان طلـــق ناطقـــا　　اســـمع مقـــالي وعـــي دقـــائق مخـــبر

ألق العصا وأفـك رحـل ركـائبي　　بالمســجد المنشــئ بــأم العســكر

المحكـــم التشـــييد في شرفاتـــه　　فـــتراه يخطـــف أعينـــا للنظـــر

لمـا رأت قمـر السـما خالعـا عـلى　　جبـــل ويعـــرف بالمكـــان المقمـــر

فكـــأنما اللـــبن المشـــيد بنــــاءه　　حجر من البهت الجذيب الصـور

لم يسـتطع شـخص زوال نـواظر　　من تلك لكـن مـن بـديع المبصـر

قامت زوايا خطوطـه في وضـعها　　فحســـنه شـــكل المربـــع مخـــبر

فـــتراه أصـــفر ناقعـــا في أحمـــر　　قـان في أبـيض ناصـعا في أخضـر

روضـا تخلخـل فضـة مـن مائـه　　متقنعـــا بقنـــاع نـــور أزهـــر

نثـر الغـمام عـلى مجـامر نـوره　　مـــن طـــلٍّ وابِلـــه فتيـــت العنـــبر

ضرب النسـيم أزاهـرا مـن فتحـه　　فـــتراه بـــين مـــدرهم ومـــدنر

تحيـي النفـوس تنزهـا في شـكله　　مـــن حســـن بهجتـــه وذاك المنـــبر

فكأنـه سـوداء زنجيـة غـدت　　وعليهـا حـلى مـن نجـوم زهـر

وسـط المسـاحة قبـة مرفوعـة　　من فـوق أبهـى قـوائم مـن مرمـر

خود تجـلى عـلى الغلائـل سـوقها　　مخصـورة مـن غيـد آل الأصـفر

عجبا له من مسجد في الأرض قد　　حـاكى السـماء تطـاولا في المفخـر

لـو لم يكـن فلكـا لمـا كانـت بـه　　زنـة الكواكـب والثريـا بـه المـر

وتـرى المـدرس قـد عـلا كرسـيه　　يلقي عـلى العلـماء حـب الجـوهر

تحويــه مدرســة غــدت آثارهــا　　تحييه بـالعلم الشـريف الأشـعري

تمحي رسـوم الجهـل مـن ألواحـه　　تحمي شـمائله مـن الـزور السـري

مبنى الأمير محمـد في الغـرب قـد　　لاحت رسـومه كالصـباح المسـفر

هبت رياح النصر فوق جنوده ويهب للأعدا بريح صرصر
في جود هارون في عدالة ناصر في رأي كسرى في ضخامة قيصر
لم يرأ في نقع الوقائع طرفه بالطرف إلا بالسليل المسعر
سيف كلون الجمر بل كالبدر بل كالشمس بل كالبارق المتحدر
يشتد حرا للنجيع ضياؤه والشكل ينبينا بحسن الجوهر
ألقى عليه الرعب من جلبابه ما ينبئ الأعدا بموت أحمر
من نار أخرجه المجود صنعه كالماء يعشق أكل لحم المنحر
لم يجمع الضدين إلا سيفه عجبا لنشأة عنصر من عنصر
إن كان وصل الملك قوما يدعى فمحمد بوصله هو الحري
فخر الزمان بما يرى من فضله بين الأنام على زمان المنذر
وجذيمة مع عمرو والضحاك من أولاد جفنة من أساد حمير
إن كان فيهم بالزمان تقدم كم تنسب الآثار للمتأخر
خذها أكهف اللائذين فإنها عذراء لم يطمثها غير تفكر
وابقي سعيدا خاتم العلياء قد كملت خصالك فافتخر ثم افخر

وفيه قال مُؤرِّخا بسنة خمس وتسعين:

تأمل يا ذكي الطبع وانظر لأمر محمد الباي المؤيد
بأمر الله سبحانه وتعالى بهذا المسجد المنشى المشيد
رجاء ثوابه يوم التنادي فصوب فيه طرفك ثم صعد
بعون الله تاريخه لمبنى على تقواه مسجده محمد

(محمد) مبتدأ، و(مسجده) مبتدأ ثاني، و(لمبنى) خبر الثاني، و(على تقواه) متعلق به وضميره عائد على الله، وجملة الثاني وخبره خبر عن الأول.

وللنَّاس فيه أمداحٌ كثيرة، ورتَّب له خطيبا، وإماما، وأربعة مدرِّسين أحدهم للتفسير والحديث، والثلاثة لغيرهما، ورتَّب لكل بيت في المدرسة ما يكفي لشراء الزيت في كل شهر، ولمقدم الطلبة راتبا معلوما، ولمن يصحح ألواحهم كذلك، وكذا لمن يقرؤون الحزب داخل المسجد صباحا ومساء، ولمن يروي للنَّاس حديث اللَّغو يوم الجمعة، ومن يقرأ لهم تنبيه الأنام، وغير ذلك، وكتب أثبات الجميع في حجر مثبتة في جدرانه، فكان كل ذلك له من الأثر العظيم المثبت في عقد حسناته النظيم.

وبنى مشهد الولي الصالح الذي اشتهرت ولايته في البلاد حتَّى أمَّته الزوار من كلِّ واد، ذي الكرامات المتصلة على مر الأحيان والبركات التي شهر بها العيان، والفضائل المشهودة السيِّد **محمد**[1] **بن عوده** نفعنا الله به، وجعلنا من المتعلقين بسببه، بناء عجيبا زيد به الضريح بهاءً، وقاد له الزوار قهرا، وقد كان بنى مشهد الولي الأجل السيِّد **أحمد**[2] **بن يوسف** دفين (**مليانة**)، وبنى بـ(**المعسكر**) قناطر وسورا مشهورا وطبانتين للمدافع، وأجرى الماء للمدينة الجديدة، ولقرية الولي الممجَّد السيِّد **علي بن محمَّد**، وقد كان أهلها في العناء الشَّديد من بُعد الماء، وبنى الفندق الجديد الرَّائق بالسُّوق القديم، وزاده في أحباس الجامع الأكبر لما زاد فيه من الوظائف، وله في (**تلمسان**) و(**مستغانم**) و(**الجزائر**)، وغيرها مبانٍ كثيرة، وآثار في ذلك شهيرة بين مساجد، ومشاهد، ومدارس بل وحتَّى في الفلوات الخالية، والطُّرق المعطشة المقفرة لا يخلو سائر من رؤية آثاره ومآثره، وقد جدَّد المدرستين القديمتين بـ(**تلمسان**) وأحيا ما أماته الزَّمان من آثارهما،

---

(1) دفين (**فليتة**) نواحي **غليزان**، كان من علماء القرن الحادي عشر.

(2) دفين (**مليانة**)، من علماء القرن العاشر، وكان له اتِّصال بـ: **عروج** قبل احتلاله **الجزائر**، وانتصر للأتراك.

فأعاد لهما الشَّباب بعد التعنيس، وأبدىٰ للعيون منظرهما النَّفيس، وتتبع أحباسهما التي استولت عليها أيدي المنتهبين حتَّىٰ تلاشىٰ عنها أثر الحبس، وارتفع عنها اسمُه فصارت من جملة الأملاك لا شعور لأحد بتحبيسها، فوجد منها أراضي كثيرة، وظَّفَها كلّها علىٰ حائزيها، وبنىٰ بـ(**الجزائر**) البيت التي يسكنها أهل ديوانه، وتأنَّق فيها ما شاء، وأجرىٰ علىٰ ساكنيها الأرزاق والنَّفقة، وبنىٰ لأولاده دارًا بـ(**مستغانم**) قضىٰ الرَّاءون بأنَّها من أعجب المباني وأبدعها، ومن مبانيه الرَّائقة داره الصُّغرىٰ بالمعسكر المتوَّجة بِمَنزهِه العجيب المطلِّ علىٰ أكثر أحواز البلَد، ومنها دار بستانه الرَّائقة التي تأنَّق فيها وأحسن، وأودعَ فيها من التَّنميق كلَّ شيء حسن، ولقد مررتُ بها يوما فقلت:

أهــــذه هالـــــة للبــــدر أم دار ... ضاءت عليها من الأكـوان أنـوار

وألبسـتها يمـين الصـانعين حـلىٰ ... كأنهـــا في ســماء الحســن أقــمار

اُنظر لهـا وهـي في البسـتان واقفـة ... وحولهـــا فيــه أشــجار وأزهـــار

كغادة من بنات الروم قـد ثملـت ... وحولهـــا نســوة ســود وأحـــرار

والريح يثني لها الأغصان تحسـبها ... مراويحـــا عنـــد غيـــدهن أكـــوار

والماء يجـري ولحـن الطـير يطربـه ... كعاشـــق دمعـــه للبـــين مـــدرار

أكــرم بــه منــزل رقــت محاســنه ... كــــأنما عنــــده للهــــم أسرار

لــو خـير البـدر في دار يكـون بهـا ... مــا غــيره كــان ذاك البــدر يختــار

فــوق جميــع ديــار الأرض دارتــه ... بســـاكن حلهـــا كالليـــث زءار

قــرم عظـيم مطـاع باسـل بطـل ... شــــهم أشـــم ونفــــاع وضرار

مغـن مغيـث منيـل كـل مكرمـة ... معــط ومــرض ومطعــم ونحــار

لا يسـأم البـذل والأقـوام تسـمه ... كـــأنما كفـــه في الجـــود أنهـــار

الجود منها نشـا والحلـم فيهـا فشـا ... والخـير منهـا مسلسـل وخرخـار

رقى السماك وعز الملك يرفعه كأنه شاهن في الجو طيار
حتى غدت فوق الناس همته كأنما فلك الأُفقِ دوار
وازداد بين جميع الأكملين سنًا كأنه علَمٌ في رأسه نار
أما ترى الملك قد ضاءت جوانبه وما عتى مذ أتى في الغرب جبار
ذاك الجواد أمير الناس قاطبة محمد خير من قاموا ومن ساروا
لا زال يسطو ويعطي ثم يقطع من يسطو ويردع من عتوا ومن جاروا
إن شئت تعرف تاريخ البناء فقل أما ترى البدر يبد اليوم أو دار

ومن آثاره العجيبة بستانه بناحية (**كاشرو**)(1) وداره التي فيه، وحدائقه وإمكان رؤيته تغني عن وصفه، وسترى له في (**وهران**) إن شاء الله من الآثار ما يُبهر الألباب، ويُوقف القلوب على الإعجاب.

ومن أعظم مآثره ـ وإن كانت كلُّها عظيمة ـ أنَّه رتَّب المدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء؛ إلَّا من كان متولِّيا لخطة، أو مُستعملًا في خِدمة، فاتَّسعت بذلك حال العلماء، وانشرحت الصُّدور للقراءة، وشرهت لها النُّفوس، وكثُر طلبة العلم، وتشوَّف كلُّ أحد للتدريس، واشتد الحرص على العلم من بعد أن كاد يُترك اشتغالًا بالتجارة لقلَّة جدواه، فكان ثواب ذلك كلِّه في ميزانه من جملة إحسانه تقبَّله الله محمودًا مشكورًا، وخلَّده في ديوان الفضائل مذكورًا، ولقد أزال بذلك اختصاص بعض المغاربة المتقدِّمين بمزيَّة من هذا الباب، وهي أنَّه وجَّه مع حُجَّاج بلده مالًا أوصى أن لا يُدفع منه إلَّا لمن

(1) **كاشرو**: قرب مركز أسرة الأمير عبد القادر، وقيل: إن الباي محمد بن عثمان أخذ عن جدِّ الأمير مصطفى بن المختار مختط (القيطنة) حيث ولد الأمير.

يقرأ القرآن من أشراف طيبة، على ساكنها أفضل الصَّلاة والسلام، فلم يوجد فيها قارئٌ من الأشراف على كثرتهم، فردَّ المال لصاحبه فوجَّهه في العام المقبل، وزاد عليه فلم يسعهم لكثرة ما حدث من القرَّاء فيهم لما دخلهم من الغيرة والأنفة.

كلُّ هذا وهو يسُوس الرَّعية أحسن سياسة، ويُدبر أمرها أحسن تدبير، ويحوط حرمها من الانتهاك، ويمنعها ممَّن ناوأها، فما تشتت لها شمل إلَّا جمعه، ولا ظهر عليها عاد إلا قمعه، ولا مدت له يد إلَّا أشلها، ولا اشتدت عليها عقدة إلَّا حلَّها، ونعمه تشمل العامَّة والخاصَّة، ونقمه إنَّما تحلُّ بالمعتدين خاصَّة، وقد كان له في سِني القحط والمسغبة من الإحسان ما لا يشق أحد فيه غباره ولا يصل آثاره، ولولاه لهلكت الأجناس، وبلغ السِّعر مبلغا لم يسمع به أحدٌ من النَّاس، فإنَّه أعان الخلائق بالسَّلف العام، والتصدق والإطعام، وأكبر من ذلك أنّه كان يسأل عن سعر السُّوق فيبيع زرعه بأبخس منه خوفًا من زيادة السِّعر، فإذا انخفض سعر السُّوق إلى سعره نزل هو بسعره، وهكذا أوجب على نفسه البيع في كلِّ بلد على هذا الوجه حتى ارتفع القحط، فشملت بذلك صدقته الغنيَّ والفقير والقريب والبعيد، ولقد كان يأمر بجمع من لا يمكنه العمل من الفقراء، فيُدخلهم مطبخه يأكلون إلى أن يذهب من شاء منهم مختارا، ويكسُوهم كم مرَّة ما يقيهم البرد ويتصدَّق على الجميع كلَّ عشية بما يعمهم وهم لا يُحصون كثرة.

وأمَّا تدويخه للبلاد وإقامته أسواق الجلاد فأمرٌ به اشتهر، وخُصَّ [به] من بين البشر، قد شهد به الرَّعاع والأعيان، وصدقهم عليهم شاهد العيان، فطلب الدليل عليه ضرب من الهذيان، ولو عُدَّ فاتح البلاد لكان جديرا بذلك حقيقا به دون سائر الملوك والممالك، قد نقى إيالته من المخاوف، وأذهب من غياضها وغياباتها وشعابها مُوجبات

المتالف، حتَّىٰ صارت مُستراحا للقوافل والسفار، ويستريحون في رِياضها من أعباء الأسفار، فإنَّهم يأتون من المشرق والمغرب يُسابقون الطير بالسَّير، وقلوبهم بالغة حناجرهم من شدة الخوف والضير، فإذا بلغوها اطمأنوا وأمنوا، وقروا وسكنوا، وألقوا جميع التباريح، وتنفسوا تنفس المستريح، وما ذلك إلا لكونه عدىٰ علىٰ العادين فداخهم حتىٰ طاب لأبناء السبيل مراحهم ومناخهم، فلقد كان (**الأعشاش**)[1] وهم قوم في أُخريات عمله بينه وبين رعية سلطان المغرب، لا تمرُّ بهم قافلة إلَّا استلبوها، ولا آوىٰ إليهم شريدٌ إلَّا قتلوه، حتىٰ إنَّ الواحد منهم يبيت به الضيف فيطعمه ويسقيه، فإذا أصبح قالوا له: لو علمت أنَّ النَّاس تاركوك لتركتك، ولكنك مسلوبٌ لا محالة، فدع لي ثيابك، ويأخذها منه، وقد حُكي لنا أنَّ بعضهم كان منقطعًا إلىٰ الله ـ بزعمه ـ مُتنسكا، وله أولاد مردةٌ، فمرَّت به قافلة وأولاده نيامٌ أمامه، فخاف أن تفُوتهم تلك القافلة، فصار يدعو بأعلىٰ صوته يقول: يا ربِّ احفظ هؤلاء القوم مِن أولئك، حتىٰ فزع أولاده مِن نومهم، فقالوا له: مالك يا أبانا ؟! قال: إنَّما كنتُ أدعو الله أن يحفظ أولئك القوم منكم، فغَدَوا إليها فأتَوه بسلبهم، وأخبارهم في ذلك شهيرة، ولقد بلغ من أمرهم أنَّ النِّساء كنَّ يقطعن السُّبل فغزاهم ـ أدام الله عِزَّه ـ وشتَّت شملهم حتَّىٰ لا نسمع عنهم الآن من سوء، وكذلك فعل بـ (**المهاية**)، و(**أولاد علي بن طلحة**) وهم خارجون من دائرة طاعته فشرَّدهم كل مُشَرَّد.

وقد كان (**الحشم**)[2] المعروفون لا يُؤتىٰ من عندهم بالجاني، ولا ينالهم من المخزن

---

(1) قبيلة قرب (مغنية).

(2) **الحشم**: قبيلة عربية مشهورة بين (**معسكر**)، و(**سعيدة**)، خصَّها **الطيب بن المختار** ابن عم الأمير **عبد القادر** بتأليف سماه: (**القول الأعم في بيان نسب الحشم**).

أكبر ضر حتَّىٰ كثر فسادهم وقطعُهم الطريق، وتراميهم علىٰ الطاعة، وعدم توقيرهم للإمرة، وقلَّة مراعاتهم الشَّريعة، فخافهم القريبُ والبعيدُ وتعطَّلت من جهتهم السُّبل، وتقاعد الأمراء عن غزوهم، ولم يكن لهم فيهم نكايةٌ أكبر من أن يظفروا بالواحد منهم والاثنين فيقتلونهم، حتَّىٰ ولي هذا البازي الذي لا تفوته قنيصة، ولا تصعب عليه عويصة، فذلُّوا واستكانوا وصاروا من أحقر الرعية، ثُمَّ صيرهم من جنده يُولي عليهم ويعزل، ويفعل فيهم ما شاء أن يفعل، ولو ظهر له منهم أدنىٰ مخالفة لصاروا أثرًا بعد عين، وتقسَّموا بين أَسر وحين، وكذلك كانت (**فليتة**) القبيلة المشهورة التي لا تحومها النُّسور، ولا يمرُّ بها في غير أيام المحلة إلا قتيلٌ أو مأسور، يقطعون السَّبيل ويجرعون من غزاهم الزُّعاف الوبيل، وهم الآن أذلُّ من بناتهم، وأمكن للحصاد من نباتهم، وكذلك كان الأحرار العرب المعلومون لا يُؤدُّون خرَاجا، ولا يُضيئون للحقِّ سراجا، يتغلبون علىٰ الشَّريعة، ويقطعون لمن ناوأهم كلَّ ذريعة، يُجارون الوحش في الهرب، ويعاندون الأسود في التغلب علىٰ العرب، فلم يزل جادًّا في طلبهم آخذا لسلبهم مُكدرا لعيشهم مُبددا لعشهم، يفزعهم إذا اطمأنوا، ويروعهم إذا أمنوا، ويرحل إذا أقاموا، حتَّىٰ صلحوا واستقاموا، وصاروا رعية له يُؤدون لوازمه شتاء وصيفا، ولا يرىٰ منهم من أتاهم ظلما ولا حيفا، وكذلك أمثالهم (حميان)، و(الأغواط) بل ومن بعد منهم بالأمد البعيد كـ: (أعراب العمور)، و(سعيد)، وكيف لا يرهبون سطوته ولا يتقون بطشه وشدته، وهو قد تعدَّاهم بالغزو والوعيد [إلىٰ] مَن هو أحصن منهم مكانًا، وأقصىٰ منهم محلًّا بأمد بعيد، فهؤلاء بنو الأغواط أهل المدينة الحصينة بالصحراء في ممرِّ الركب المغربي للحجاز لما سمع بأنَّهم لا إمام لهم يلتزمون طاعته ويمتثلون حكمه، واتِّباع الإمام واجبٌ، جرَّد لهم صارم عزمه، واستفرغ لغزوهم مُنتهىٰ همه، وخرج إليهم في التاسع من ربيع الأوَّل سنة تسع وتسعين ومائة وألف، وقاتلهم حتَّىٰ دخلوا في

طاعته، وصاروا يُؤدون لوازمه كل سنة، وقد بيَّن أنباء ذلك كاتبه الأديب المفضال السيِّد **أحمد ابن هطال** في رحلة جمع فيها أخباره الواقعة في تلك الغزات، وكذلك أهل **(عين ماضي)** فإنَّه مرَّ بهم في طريقه لـ **(بني الأغواط)** فاتقوه بالطاعة، ثُمَّ بلغه بعد ذلك عنهم أنَّهم نقضُوا الطَّاعة وخالفوا الجماعة، فغزاهم أيضا غزاته المشهورة، فقاتلوه قتالًا شديدًا حتَّىٰ نفدَ الرَّصاص من جنده، واحتاج إلىٰ أن دفع لهم ما في كنانته، وضاق عليه الأمر بذلك، فلم يشعر إلَّا وبغال قادمةٌ عليه فسألهم ما عليها فقيل رصاصٌ أتاك من **(الجزائر)** ففرَّقَها علىٰ الجند، وكان ذلك من الاتفاق الغريب الذي ما سبق مثله في مثل ذلك الحال، وما غربت الشَّمس حتَّىٰ ملك القرية، وجمع نساءها وأولادها، ثُمَّ مَنَّ علىٰ أهلها بها، وارتحل عنهم بعد أن عادوا لحكمه والتزموا له بمال يُؤدونه كلَّ سنة، وكذلك فعل بـ(أهل الشلالة) ومن جاورهم من القرىٰ، وبالأمس ما تشتت شمل أهل سماتة، وأشمت بهه عدوهم أخزىٰ شماتة، وسيأتي خبرهم آخر الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

ولو كان الغرض ذِكر غزواته وكيفياتها، وتواريخ أوقاتها، لبسطنا الكلام وأتعبنا الأقلام، إنَّما قصدنا الإلماع والإشارة، وفي ذلك ما يُغني عن الإطناب في العبارة.

ومن عجيب أمره، وشدَّة تأييده ونصره، وغلبة سعده، ودليل رشده، أنَّه لم يفل له جند أصلا، ولا خاب له قصد قط، إلَّا بهرب من يقصدهم أمامه، غير أنَّا أخبرنا أنَّه غزا أيام خلافته (أولاد الشَّريف) فاجتمع لنصرهم الأعراب من كلِّ وجهة حتَّىٰ صاروا أضعاف جنده، فحمل عليهم مرارًا فلم يُغن شيئا، وكاثرته الأعراب فخاف أن يرجع فيأخذون أكتاف جنده، وتتصل بهم الهزيمة فيتشتتون في الصَّحراء فأمر ببناء المحلة هناك، وذلك المحل كالتنور من حَرّ الخوف، فلمَّا رأىٰ الأعراب بناء المحلة فرُّوا في كلِّ وِجهة، فكان ذلك من تدبيره العجيب، ومكايده الشديدة حتىٰ إنَّ بعض أمراء

(**تيطري**) غزا بعد ذلك بعض العرب فهُزم فقال له بعض من حضر يوم (أولاد الشريف): ابْنِ المحلةَ، فإنَّ السيد محمد فعل ذلك فحصل المقصود، فقال: أوَ فعلَ ذلك ؟ قال: نعم، فأمر ببناء محلته فرجع عنه الأعراب، وفي ذلك من المنافع أن المحلة تصير لهم كالحصن لا يحملُ عليها العدُّو، ولا يفرُّ عنها الجندي لعلمه أن ليس أمامه إلَّا مجاهل الهلاك، والعدو إذا رأىٰ أعداءه أقاموا بمحل القتال علم أنَّهم في قوة، وأنَّهم قد عزموا علىٰ المناجزة فيذِلُّ ويفشل، والعرب تتحقق أنَّهم إذا انتهكوا حرم المحلة لم يغفل السُّلطان عنهم، ولو يغزوهم بكلِّ أهل طاعته حتَّىٰ يبيدهم، وأيضا إنَّ الله جعل للعرب في لفظة المحلة من الهيبة مالا مزيد عليه.

وما زال يجِدُّ ويُجهد نفسه في الغزوات، ويجاري العصاة في الصحاري فهو الآن كما قلت فيه:

هنالك أمسىٰ ساكن الجأش غالبا إذا رام حربا لم يجد من يحارب

وأمَّا شجاعته فإنَّها أمرٌ تذل به الأسود، وترغم به معاطيس الحسود، وغزواته كلها من بعض دلائلها، وبراهين مسائلها، الجبان يلازم الكن ويطلب مواضيع الأمن، وقد حضر يوم (**الحرَّاش**) بالجزائر فكشف عن ساعد اجتهاده، وجاهد في الله حَقَّ جهاده، حتَّىٰ بهر من حضر، وكشف للناس عن محل النظر، وكان ذلك يوم تلاشت فيه الأرواح، وتعذر الغدو منه والرَّواح، وكثرت فيه صواعق المدافع، وجالت شهب المضار لما غابت بروق المنافع، فلم يُقدم إلَّا بطل جسور، وأسد هصور، وكان فيه لهذا الهمام البلاء المحمود، والمقام المشهود، وكم له من يوم سواه أحسن فيه الأثر، وخلد فيه مجلدته أطيب الذكر والخبر، ولولا أن الإمرة تمنعه من مباشرة الالتحام، ووُلُوج مضائق الزِّحام لأَعفَت أخباره ذكر **عنترة**، وأراك من أنواع البسالة ما لم تره.

وأمَّا آراؤُه الحميدة، وتدبيراته السَّديدة، فإنَّها البدور السواطع ويكفيك أنَّه مدبر لرعيته العريضة دون وزير ولا مشير، وما أخطأ قط في تدبير، ويُعجبني من آرائه الحميدة أنَّ المغاطيس الذين بـ (**وهران**) كانوا كثيرًا ما يؤمنهم فيخرجون، ثُمَّ يعودون إليها فجعل لهم أنَّه لا أمان إلَّا لمن قتل فيها قتلًا، وأتىٰ برأسه أو بدليل علىٰ صدق فعله، فكانوا إذا خرجوا لم يقدروا علىٰ الرُّجوع وصاروا لا يأمن بعضهم بعضا، ومثل ذلك كثيرٌ مما لو قيد وقت وقوعه لكان فيه ما يبهر الألباب، ويُوقف العقول علىٰ الإعجاب، غير أنَّ **آفة الحفظ عدم التقييد**، ولقد كانت الفُرُسُ تكتب سِيَرَ ملوكها ويتدارسونها، ولعلنا نلمع ببعض مكائده وآرائه أثناء هذا الكتاب ـ إن شاء الله عز وجل ـ وكثيرا ما حدَّث بالأمر فكان كفلقِ الصُّبح، وكم من مَرَّة يرىٰ الرَّجل في غِمار النَّاس فيجهس له أنَّه مغطس أو جاسوس فيُقرِّره فيعترف بذلك، وله في الفحص عن أحوال الرَّعية واستقصاء أخبارها أمرٌ خارج عن العادة.

ولقد كان النَّاس حين أمر بجمع الطلبة بـ (يفري) مُستبهمين للأمر ظانين أنَّه مما لا فائدة فيه، فلمَّا رأوا نجحا تدبيره بتضييق الطلبة علىٰ الكفرة، وقتالهم إيَّاهم أينما رأوهم حتَّىٰ عجزت عنهم طاقة الكفار، واحتاجوا إلىٰ طلب المُسالمة بتسليم البلاد، وصرَّحوا بأنَّهم آذوهم أشرَّ الإذاية، ونكوهم أكبر النِّكاية، تبين للمعترضين أنَّهم كانوا في أودية الضلال يهيمون، وأنَّ اعتراضهم مُعترض بل هم قومٌ لا يفهمون، فسبحان من عقد النُّجعَ بآرائه، وجعل تدبيره لهذه الرَّعية من أكبر نعمه عليهم وآلائه.

وأمَّا حظه وسعادته وجِدُّه الذي وافقته مجادته فأمرٌ تحسده فيه الشَّمس والقمر، ويخجل منه الزَّهر والثمر، لو حاول به الأُسود لخضعت، وشُمَّ الجبال لتضعضعت واتَّضعت، ولو غزا به الجان لظهر عليهم، وساق به البلاء إليهم، ولو مَسَّ به عودًا

لأورق، أو سار به في الليل لأشرق، فكأنَّه المقصود بقول الإمام الشافعي:

وإذا سمعتَ بأنَّ مجدودا حوَىٰ عودا فأورَقَ في يدَيه فصدِّق

وأمَّا حِلمه فأمرٌ شهيرٌ لا يحتاج في إثباته إلىٰ سفير، وقد جرِّب مِن خلقِه أنَّه ما عاقب أحدًا في حقٍّ أو غيره إلَّا صار بعد ذلك يحنُو عليه، ويُحسن إليه، وأنَّه متىٰ استعتبه أحدٌ أعتبه.

وأمَّا كرمه وإحسانه ونعمه وامتنانه، فذلك قطب أمره الذي عليه مدارُه، و به علا علىٰ كواكب الملوك مقدارُه، وحاله فيه يتبيَّن بِذكر حال غيره من الأمراء حتَّىٰ لا يُستنزر ما نذكره مِن مواهبه الغرَّاء، ولا يستقلُّه مَن عساه وقف علىٰ سير الأوائل، فرأىٰ كثرة ما يُنسَب إليهم من صلات المُؤَمِّل والسَّائل، من غير أن يدري أنَّ أولئك كانت بأيديهم الأموال العِظام، وأمدادها متواصلةٌ علىٰ ممرِّ الأيام، ولقد كانوا يهبون في زمنٍ كثُر فيه الواهبون، وهو وهبَ حيث لا واهب، وشتَّان بين معاند ليس هو عين العطاء[1]، بل العطاء دالٌّ عليه كما يدلُّ خصب المكان علىٰ ريِّه وطِيب أرضه، فالكرم هو انطِباع النَّفس علىٰ السّماح، ومن ذلك يلزم كثرة العطاء ولذلك يمنع الكريم أحيانا فلا يرتفع كرمه، ويُعطي البخيل فلا يثبت له بذلك وصف الكرم، إذ المدار علىٰ الجبلة الغريزية، وهي لا تثبت بالتَّكلف ويفرَّق بين عطاء الكريم وعطاء البخيل بالتَّردد، فنفس الكريم إذا ذكرت العطاء وقدرت علىٰ المعطىٰ سارعت إليه كالسيل المنحدر، ونفس البخيل إذا سُئلت تخبطت في أشراك التَّردد وكان الغالب عليها المنع، ولذلك لما سأل بعض الأولياء النبيَّ ﷺ في الرُّؤيا عن البُخل فقال له: «لأقولنَّ لك قولًا ينقله إليكم علماؤكم، إنَّ التَّردد في الخاطر الأوَّل بخلٌ»اهـ.

---

(1) كذا في المطبوع. (ع)

ومن الغرائب في هذا المعنىٰ أنَّ بعض العوام ببلدنا له دارٌ جوار المسجد فسأل منه الجماعة قطعة منها لتوسعته فمنعهم، ثُمَّ إنَّه مرَّ به أحدهم وهو يُخاصم نفسه، فقال له: تعال يا فلان، اشهد عليَّ بالطلاق إن لم أُعط هذه القطعة للمسجد، فإنِّي كلما رمت إعطاءها تعرَّض لي الوسواس دون ذلك.

ومثل ذلك ما ذُكر لي أنَّ رجلًا كان يُخرج زكاة زَرعه كل سنة، ولا يحضر لتفريقها، فلمَّا كان في بعض السِّنين آتاه الله زرعًا كثيرًا فحمل منه ما كفاه ولم يبق إلَّا نادر الزَّكاة، فطلب منه عامله أن يحضر لتفريقها، فخرج فإذا نادر عظيم فيه قمح جيد، فنازعته نفسه والشَّيطان في عدم إخراجه، فصار يُمثل كأنَّ الشَّيطان علىٰ ذلك الجرين، ويحمل عليه وهو علىٰ فرسه كأنَّه يقاتله، فإذا قرب من القمح أحجم وعزم علىٰ الإمساك، ثُمَّ يتثبت ويحمل أيضًا، إلىٰ أن كان آخر مرَّة تمثل له الشَّيطان علىٰ القمح ظاهرًا، فحمل عليه وضربه برُمحه فصرعه وأمر بالقمح ففُرِّق.

وجِبلة هذا الأمير ـ أدام الله تأييده، وأبد تسديده ـ مطبوعةٌ علىٰ السّخاء في الشدَّة والرَّخاء بخلاف غيره، ويدلُّ علىٰ ذلك بغضهم للقاصدين، وعدم ترائيهم للوافدين، ومبلغُ عطائهم لمن قصدهم العشر ريالات ونحوها، وربما وصل العشرة سلاطين حين يبلغ غايته، علىٰ أنَّه لا يأتيهم إلَّا من كانت له عليهم مِنَّة، أو بينهم وبينه قديم صحبة، أمَّا المُنقطع الأسباب فلا يُمكن أن يفتح لهم في وجه مطلبه باب، وأمَّا هو فإنَّ منزله مناخُ الواردين وقِبلة الوافدين، وعطاؤُه يتجاوز الألف والمئين العديدة، ويتوصل لواسع بره القريب والغريب، وذو المنزلة الدانية والبعيدة، فقد جاءه أديب **(قرومة)** السيِّد **أحمد بن علال** منقطع الدار مصروم الحبال، وهو لا يعرف له أبًا، ولا قدم له بين يديه سببا، ولا يترقَّب منه نفع آجل، ولا أتاه بمطلوع عاجل، فأجازه بمائة محبوب،

وكسوة فاخرة تساوىٰ نصف ذلك، ثُمَّ وافاه وهو ذاهبٌ إلىٰ **(الجزائر)** فأجازه وأنعم عليه أيضًا، وأتاه بعض طلبة المغرب سائلا في حالة رَثَّة فكساه وأعطاه مائة مثقال وبغلة فارهة، ثُمَّ أتاه آخر في أَثَرِه وهو مشغول بتجهيز عرس لأولاده أنفق فيه ما لم نسمع بمثله، فأجازه بمائة ريال، ومثل ذلك من إثابته من لا يَعرِف لا يحصَر.

ومن ذلك صَدَقاتُه الدائمة العامَّة والخاصَّة بالمواسم والأعياد، فإنَّه كان يعُمُّ فيها أهل الوظائف كالخطباء، والأئمة، والمؤذنين، والمؤدبين، والمدرِّسين في كلِّ بلد لرعيته[1] يأخذ الواحد منهم ما بين الثلاثة دنانير إلىٰ الدِّينار، ومنها ما يصرفه علىٰ **الثَّغر الوهراني** للمُرابطين به كلَّ سنة كما سيأتي إن شاء الله، وكذا ما يبعثه للمجاهدين بـ **(الجزائر)** أيام نزول النَّصارىٰ عليها، وما يُعين به في صناعة الفلك الصِّغار ونحوها، وكذا ما يدفعه للحُجَّاج، فقد جرت له عادة أنَّه ما ذهب أحدٌ للحج وودَّعه إلَّا أعانه، وكذا إذا قدم وناهيك أنَّ صِلاته وصلت (مكة) و(المدينة) و(مصر) لأكابر علمائها كالشيخ المرتضىٰ والأمير وغيرهما، وفقراء الحرمين وأهل السقاية بـ (مكة)، وخدمة الروضة الشَّريفة بـ (طيبة) علىٰ ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام، ولقد كان منذ أعوام وجَّه غلامًا خصيا برسم خدمة الرَّوضة المشرفة، ومعه نفقة، وكسوة ومال كسائر الخدمة، وهم أعرف النَّاس به لكثرة ما يصلهم من معروفه.

وأمَّا إثابته المعروفين من زواره، وقاصدي داره، وإعطاؤه الجند ونحوهم، فحدِّث عن البحر ولا حرج، ولو تتبعنا ذلك لعجزت الدواوين، وحسبك أنَّه يدخل **(الجزائر)**

---

(1) قوله: «في كل بلد لرعيته»، عفا الله عنه في هذا القول، إنَّما ذلك ببلده (أم عسكر) حين كان بها و(وهران) حين انتقل إليها، وأمَّا غيرهما فلا، نعم بعثَ مرَّة سيدي الطاهر بن حواء (رحمه الله) صدقة لفقهاء (مازونة) ناب الكاتب منها ثلاثة دورو، والسَّلام.

بنحو المائة ألف سلطاني في كلِّ ثلاث سنين مرَّة، وبما لا يُحصىٰ من الغنم، والسمن والثياب، والعبيد، والدواب وسائر النفائس، فلا يردُّ معه شيئا يصرف أكثر ذلك فيما لا يلزمه من صِلات الفقراء، والعلماء، والمجاهدين وسائر المتعرضين لنواله حتىٰ إنَّ أيام إقامته بالجزائر من المواسم السَّعيدة علىٰ الفقراء وغيرهم، ولأجل ما شاع له من الكرم، وذاع له من عُلو الهمَّة حتَّىٰ صار كنار علىٰ علم، قصدته أبناء الملوك والأعوان، وهادته الأكابر من كلِّ مكان، فكان ملك المغرب الأعظم، وطودُه الأفخم، الخليفة الجليل، السيِّد **محمَّد بن عبد الله بن إسماعيل،** لا تنقطع عنه هداياه، ولا تنزر منه هو علىٰ رسله عطاياه، وكذلك ولده اليوم بعده، وكذا جميع الأمراء المُعتد بهم كأمير **(قسنطينة)** و**(تيطري)**، وسلطان (تونس)، والسيِّد **حسن** مقدَّم أهل أساطيل ونالته في بلده نبوة، فآوىٰ إلىٰ حضرة هذا الأمير الأعظم فتلقَّاه بإحسانه، وفاض عليه دوافق بره وامتنانه، وكان يوم دخوله بلدنا يومًا مشهودًا برزت فيه الأبكار من الخُدور، وتجلَّت وجوهها تحت قتام البارود، ونقع السنابك فنابت عن البدور، فبقي لديه أيَّاما وإحسانه إليه متواصل، وبره عليه متراسل، ثُمَّ إنَّ أخاه **مولاي يزيد** خليفة المغرب اليوم[1] مَرَّ بنا ذاهبا للحج، فتلقَّاه بأعظم ممَّا تلقَّىٰ به أخاه، وأنزله في بستانه الفياح، وأحسن إليه بما لا تلحقه فيه لواقح الرِّياح.

ولما مات مولاي محمَّد، وجفا ولده كبار قُوَّاده وقتل من شاء منهم، هرب إلىٰ أميرنا المنصور أقربهم إليه ابن خاله المشهور **بابن خده** ففاض عليه إحسانه وبره، وناله من

(1) سبحان الوارث الباقي، مات **يزيد** بعد قولنا: «**خليفة المغرب اليوم**»، بمديدة قليلة، وقام بعده في المغرب الأقصىٰ **(هشام)**، وفي **(فاس)** وأحوازها **سليمان**، ولسائر إخوتهم وثوب في سائر النَّواحي، والجميع يطوىٰ في طي العدم.

ذلك ما قصر عنه شكر لسانه لو كان شكورًا، وقد قام له بكلِّ شيء حتَّى الملح والحطب والتوابل، والبقول ونحوها، ودفع له من عبيد الخِدمة وإمائها ما كفاه، ومن الدراهم ما أغناه، إلى غير ذلك من رِزق خُدَّامه ومؤُونة دوابه ومسكنه، وهو الآن لديه مغمورا بنعمه مثقل الكاهل بمننه، يتفقَّده بالعطاء مرَّة بعد مرَّة ويبعث إليه كل حلوى ومرة، وقبله قدم عليه **حسن باشا** ابن بعض أمراء (**قسنطينة**) منفيًّا عن بلده عاريًا طريدًا، فأسكنه بـ (**تلمسان**)، وأحسن إليه كلَّ الإحسان، وقام بأمره أتمَّ القيام حتَّى إنَّه صار يركب في الموكب العظيم في أُبَّهة عظيمة، ولقد وفد عليه مرَّة إلى مقر حكمه فبقي لديه نحو الثلاثة أيام يتدفق عليه فيها كرمه، وتتناثر عليه نعمه، ثُمَّ رجع إلى (**تلمسان**) موفورا بعطاياه السنية مثقل الغارب بأياديه الزكية، وفي هذه الأيام توسل فيه إلى السلطان فسرَّح له أهله، وجمع بأولاده وحريمه شمله[1]، وهو في ظل نعمائه يتقلب، وبعطائه الوافر على زمانه الكاثر يتغلب، وآوى إليه سابقا خليفة (**تيطري**) غاضبا لعرفه، ففاض عليه واديه، ونال منه ما يرغم به أعاديه، وأخبار الوافدين عليه أكثر من أن تُعد، أو يقف لها أحدٌ على حدٍّ، كيف وحضرته ربيعٌ أخصبَ في المحلِّ، والعفات [كذا] لموارد العُرف كالنحل، لا يدرك عددهم ولا ينقطع مددهم، وفي ذلك قلت:

أتتك وفود النَّاس من كلِّ جانب ... لجودك إنَّ الجود للنَّاس جالب
إذا أكثر المرعى بأرض خصيبة ... وجادت عليها في الربيع السَّحائب
تكاثر فيها القاصدون ولم تزل ... يجيء إليها طالب ثُمَّ طالب

وأمَّا حُبه للعلم وإحسانه إلى العلماء الأخيار فقد شاع منه ما يغني عن الأخبار، وكم من تأليف نشأ بأمره، ونال مُؤَلِّفه به وافر بره، فمنها أنَّه أمر بعض الطلبة سالفا

(1) انتقل إلى بلده أميرا لسبب يطول إثباته.

بجمع فتاوىٰ العلماء في جوائز الملوك فجمع له من ذلك رسالة أثابه عليها بسبعين دينارا، وجمع له بين كلام شارح (**السلوانة**) في البازي، وصاحب (**التذكرة**) في أقل من كراسة، فأجازه بما يليق بمنصبه، ثُمَّ أمرني باختصار (**الأغاني**) فاختصرته في نحو الثمانين كراسة فأثابني بمائة سلطاني، ثُمَّ أمرني أيضًا بجمع طب (**القاموس**) فضممته، وزدت عليه من كلام الأطباء ما صار به تأليفا بديعا حسن الترتيب، فأثابني عنه بخمسين سلطانيا، وقد كنت ألفت باسمه كتابا في الأدب سميته (**عقود المحاسن**) فلم تسمح الأيام بإيصاله إليه، وفي أيامه السَّعيدة شرحت (**العقيقية**) شرحا ضخما عجيبا.

وفي مآثره الحميدة ألفت هذا الموضوع، ولما أنزل الطلبة بـ (**يفري**) أمر السيِّد **المصطفى**[1] **بن عبد الله**، وهو إذ ذاك معهم بتقييد الحوادث الواقعة فيما يتعلَّق بالجهاد، وما يصل الطلبة من رِزق وغيره، فقيَّد قليلا ثُمَّ اشتغل عن التقييد إلىٰ أن حصل الفتح، فهو الآن يتلقّىٰ الأخبار من أفواه الرُّواة، ويجمعها من الرَّسائل وغيرها، ويضمها إلىٰ ما قيَّده حتىٰ يصير المجموع إن شاء الله كتابا.

ولمحبة هذا الأمير للعلم والأدب كان يشترىٰ كتبه بالثمن البالغ ويستكثر منها، وينتسخ ما لم تسمح نفس مالكه ببيعه، وكثيرا ما يأمر بقراءتها بحضرته في مجلس حكمه، وإذا انفض الناس انفرد بها فكانت له نعم الأنيس، ولذلك تجده مستحضرا لأكثر معانيها، فلا تمرُّ قضية ولا حديث مشهور ولا شيء مِن أيام العرب وأخبارها وسير ملوكها، وأنباء حروبها وأَمثالها، وحِكمها، إلَّا وله خَبرُه، وقد يُنتَقد فيلطف الانتقاد ويُورد فلا يمكن الجواب عن ذلك إلا يراه [كذا].

---

(1) **المصطفى بن عبد الله بن زرفة**: مؤلِّف: (**الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية**)، تولىٰ قضاء و(**هران**) بعد الفتح، وتوفي شابا.

وله في الطب اليد الطولىٰ، والمرتبة العليا، فهو يصف إلىٰ النَّاس الأدوية ويدفع لهم ما حضر عنده حتىٰ إنَّ المسكين وغيره يفزعون إليه في ذلك كما يفزعون إلىٰ الطبيب الماهر، وله في ذلك أسوة بالنبي ﷺ فإنَّه كان يصف الأدوية لأصحابه، ويتداوىٰ في نفسه من عوارض أمراضه.

ومن طِبه جمع الشيخ عبد اللطيف كتابه: (**المنهل الروي والمنهج السوي في الطب النبوي**).

وبالجملة فهذا الأمير هو الجامع لمحاسن الأخلاق، المترقي رتب الكمال علىٰ الإطلاق، فمن طلب حصر فضائله فقد كاد أن يطلب المحال، ويتكلف أن يجمع ما لا يجمعه أحد بحال، ولذلك قلَّ معاندوه، وكثر حاسدوه ومعادوه، فلا أحد يُقاربه في رتبته ويدانيه، إلَّا وهو يعاني من حسده إيَّاه ما يعانيه، ما ازدادت فضائله إلَّا ازداد قلبه احتراقا، وعري صبره وإيمانه باعتراضه علىٰ الله افتراقا، وهذه سبيل مشروعة في القديم ما عظم أحد إلَّا كثرت عليه الحساد، ولله درّ **الكميت بن معروف الأسدي** حيث قال:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم ... قبلي من النَّاس أهل الفضل قد حُسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ... ومات أكثرهم غيظا بما يجد
لا ينقص الله حسادي فإنَّهم ... أسد عندي من اللاتي لها الودد

وقال **عروة بن أذينة**:

لا يبعد الله حسادي وزادهم ... حتىٰ يموتوا بداء في مكنون
إنِّي رأيتهم في كلِّ منزلة ... أجلَّ قدرا من اللائي أحبوني

وقال **معن بن زائدة**:

إنِّي حسـدت فـزاد الله في حسـدي   لا عاش من عاش يوما غير محسود
مـا يحسـد المـرء إلَّا مـن فضـائله   بالعلم والظَّرف أو بالبأس والجود

وقال غيره في مطلق العداة:

عـداتي لهـم فضـل عـلي ومِنَّـةٌ   فلا أذهبَ الرحمٰن عنِّي الأعاديـا
هـم بحثـوا عـن زلتـي فاجتنبتهـا   وهم نافسـوني فاكتسـبت المعاليـا

فلنختم هذا الإلماع ببعض ما بلغني ممَّا قيل فيه من المدائح الأدبية، والقصائد العربية فنقول:

اعلم يا أخي أنَّ الألسنة غلبت عليها العجمة، وارتفع منها سرُّ الحكمة، فصار الناس إنَّما يتغنون بالملحون، وبه يهجون ويمدحون، ولهم في ذلك فنون رقيقة ومعان رشيقة، وقد منحوا منه هذا الأمير دام نصره، بما لا يُمكن حصره، وذلك أمرٌ خارج عن مقصد الأديب، لا يخصب روض البلاغة الجديب، وعلىٰ قلة المعرب في هذا العصر، فقد قيل فيه منه ما لا يأتي عليه الحصر، غير أنَّ منه الفقيهي [كذا] الذي لا يثبت إمَّا لتكسير مبانيه، أو لاختلال معانيه، ومنه ما بلغ الغاية، وصار في لطافته ورقته آية، وهو أيضا كثير، غير أنِّي لم أقف علىٰ أكثر جمانه النثير، وإنَّما أثبت هنا ما وقفت عليه من الجيد الأثير:

فمنه قول المؤلف الشهير، الشارح الخطير، الناظم الناثر، الجاري في حلبة الفضائل غير عائر، إمام علماء مصر اليوم، المنشئ من بنات أفكاره ما يعز عن السوم، سيف الله المنتضىٰ، **أبي الفيض**(1) السيِّد **المرتضى**، أبقاه الله لنفع البرية، ولا أعدم من الوجود بركات ذاته الحسينية السنية في صدر جواب كتاب وصله منه صحبته صلة ذهبية:

---

(1) **المرتضى الزَّبيدي**: شارح (**القاموس**)، كان له اتِّصال بعلماء الجزائر، وذكر الكثير منهم في (**ألفية السَّند**)، منهم من روىٰ عنهم الحديث، ومنهم من رووا عنه.

أيهـــا البـــدر لا برحـــت عليـــا　　شـــامخ المرتقـــىٰ بهيـــا ســـنيا
مالكـــا ربقـــة الأنـــام جميعـــا　　بالغـــا في العـــلىٰ مقامـــا زكيـــا
ظـــافرا بـــالمرام في كـــل عـــز　　واردا للمنـــــىٰ فراتـــــا رويـــــا
تتســـامىٰ لـــك المعـــالي وتزهـــو　　بتعاليـــــك بكـــــرة وعشـــــيا
جاءنـــا مـــنكم كتـــاب فقـــرَّت　　أعـــين كـــان دمعهـــا عنـــدميا
وثملنـــا لمـــا ســـمعنا فملنـــا　　كنشـاوىٰ احتسـوا عتيـق الحميـا
وطربنـــا وهزنـــا زائـــد الشـــو　　ق لرؤيـــاك يـــا جميـــل المحيـــا

ونصُّ الكتاب بعد سطر الافتتاح: أَدُررٌ باسمة، أم أزهار ناسمة، وقلائد عقود بأجياد وصائف، أم فرائد في سطور طروس معارف، ما هذه الأنفاس العاطرة، والأفنان الناضرة، أغمام صبح الرِّياض، ووابل باكر الغياض، أم تحيات أحباب تمسكت الصبَّا بأَذيالها، وأنباء خلان استنهكت الشمال نفحة جريالها، وما لي أرىٰ سيف البرق يفري أديم الغمام، وبدر التم يهزم سلطانه عساكر الظلام، أم همة رجل تقاصرت عن معاليه همة زحل، أم عزمة بطل، سواه من مثلها بطل، أم مالي أمورا كانت كالميت فأصبحت بالحياة موصوفة، أبلا سبب أم إحياء الموتىٰ علىٰ يد رسل عيسىٰ حالة معروفة، كلا والله إن ذلك لإقبال خطاب الحبيب السعيد، ولقد كان عندي يوم مجيء مثاله لإقباله يوم عيد، ولقد وصل ما أهدىٰ به إلي محبه في باطن الصرة من الصلة التي هي في كل عام تتصل وتزيد، فالله يديم له التأييد ويجعل سعادته علىٰ التأييد، بجاه سيد الخلق أشرف أهل التوحيد، محمد ﷺ بلا تناه لذلك المزيد، ثم ختم الكتاب بشفاعته لبعض الناس وكتبه في منتصف جمادىٰ الأولىٰ سنة إحدىٰ ومائة وألف[1].

(1) ولعلَّه مائتين وألف، لأنَّ الشيخ مرتضىٰ كان في هذا التاريخ حيًّا، وبعده كان يكتب للباي في أول القرن الثاني عشر، وهو مات في أوائل الثالث عشر. (أصل).

ومن ذلك قول السيد **أحمد القرومي** عقب غزاته بني الأغواط:

لقد أنجز الآمال وعدا من النصر ... كما أبرز الإقبال ما كان في الصدر
وأهدت وفود الفتح عذراء بلدة ... مثقلة الأرداف في الحلل الخضر
تكلل بالشمس المنير جبينها ... كأبهى معصم تسوَّر بالبدر
أحاط بها الثغر من كل جانب ... أسود الشرى والغيل ينظرن عن شزر
محجبة ريما وبكرا عزيزة ... فناهيك من ريم وناهيك من بكر
فكم رام قوم فك حسن ختامها ... فأرجعهم في خيبة غالي المهر
لمن ذلت الأبطال قهرا بعزه ... كما له كل الصعب ذل بلا عشر
محمد المستسفل الشهب مجده ... على أنه في الأرض حاز سنى الفخر
أمير له في الناس عدل وسطوة ... فعامله في تلك يرفع بالجر
لقد دوخ الأرض البسيطة طوله ... لصاحب مرمى الحق أو صاحب الجور
على رحبها ضاقت على وسع جنده ... فتسمع من بعد صدى نقر المتر
كأنَّ قُرى **الأغواط** جمع مؤنث ... فيعمل فيها الفتح جيشه بالكشر
لذاك ترى الأغواط إن ذُكِر اسمُه ... تفقَّدُ رأسا هل أُبينَ مِن النحر
كأن بلاد الغرب والشرق كفه ... فيأمر بالعمران فيها وبالقفر
إذا رام شخص أن يحدث نفسه ... خلافا طوى عنه الأصابع بالعصر
فإن كان في حرب ترى الكون عابسا ... وإن كان في سلم ترى الكون في بشر
ترى مترف الأعداء خلف خبائه ... مَصارعُها للوحش أكلا وللطير
إذا رام غزوًا بشَّرَ الطَّيرُ بعضَه ... ونادى منادي الطير سيروا إلى الذخر
فمِن كلِّ فجٍّ تَقفو اثر نعاله ... على قدرها حتى الخفافيش والذر
جواد له في الفضل أسنى مآثر ... مكارمه جالت على العبد والحر

هــو البحــر جــودا والهزبــر مهابــة ... وروض الربــى علـما وفى سـمة الزهـر
توشـــح بـــالعلم الشــريف حقيقــة ... لســنة خــير الخلــق مســتند الظهــر
فيصـــطنع المعـــروف في كـــل أهلـــه ... فـــلا يفعـــل الأشـــياء إلا عـــلى سر
فلـو شـاء شـخص جمـع غُـرِّ خصـاله ... لأذهلـه قسـم الصـحيح عـلى الكسـر
وحـــيره كعـــب المكـــارم والجـــدى ... وأدهـش في التربيـع منـه وفي الجـذر
فتســـتخرج الأسرار عنـــد تقابـــل ... فراســـته قبـــل التخاطـــب بـــالجبر
ألا يـــا أثيـــل المجـــد ســـيفك لم يـــزل ... طـــويلا إلى أعنـــاق أعـــدائكم يجـــري
ودانــت لـــك الآمـــال والســعد قابـــل ... عليك بصفر الخلـق والحمـر والسـمر
وطافـت بـك الآمـال مـن كـل جيهـة ... تسوق لـك المطلوب تحـث عـلى الأمـر
ولا زلـــت في عـــز يـــدوم ورفعـــة ... ولا زلـــت ممـــدودا مـــن الله بالســـتر
ودرَّت عــلى الأنــاء ســحب ســعادة ... تخلــد مــن أعمالكــم طيــب الــذكر
فلـــما رأت عينـــاي أذان جـــردكم ... ينادي بأعلى الصوت حيَّ عـلى النحـر
ولبـــى جميـــع العـــالمين نـــداءه ... عـلى نوعهـا حتـى الثعالـب والنسـر
فسيفك يقـري الطـير لحـما مـن العـدا ... وسـبيك يـبري النـاس مـن ألم الفقـر
عملــت عــلى بُعـــدٍ إلـــيكم مطيتـــي ... ولا بــد مــن غوصــاته طالــب الــدر
وقلــت لنفســي أبشــري بمقاصــد ... ونيــل مــرام وقــت نــال مــن الــدهر
شربنـا مــن الفــرات لا نظمـأ بعـده ... وأظفرنـــا بـــالكنز المجـــبر للكســـر
غـدونا خماصـا نحـو بـاب مكـارم ... ورحنـــا بطانـــا ممتلـــين إلى الـــوكر
علـيكم سـلام يـبهج الكـون نـوره ... ويملا بقـاع الأرض مـن نفـح العطـر
يحيـــيكم مـــادام مطلـــع مـــدحكم ... لقد أنجز الآمـال وعــدا مـن النصـر

ومن ذلك قول بعض شعراء المغرب وأشرافها:

بالسفح سفح للمعسكر مربع … جادت معاهده العهاد الهمع
حلت غزاليها عليه ديمة … وطفاء في جرعائه تتدفع
في كل أوب منه مطرف سندس … بوشائع الوشي البديع موشع
عادت صلع الربى فرعا وقد … كانت ومنها حاسر ومقنع
في كل ناحية ومسرح نظرة … زهر يرف وساق حر يسجع
تنتابه في كل شارقة صبا … أنفاسها مسكية تتضوَّع
حتى إذا طفل المساء تناوحت … لفراقه من وردة تتقطع
والشمس قد نفضت على أعطافه … ردعاتها داه النقى والأجرع
فكأن مولانا الإمام أعارها … من نوره قبسا سناه يسطع
ملك إذا برقت أسرة وجهه … خفيت ببهجتها البروق اللمع
ما أن يزال الباي في شرف إلى … أن حان من شمس الهداية مطلع
فجلت دياجى الظلم طلعته التي … بهرت فخد الشمس منها أضرع
خلعت يداه على البسيطة مطرفا … أضحى الفضا بفضوله يتلفع
رقت حواشيه ورق طرازه … مرءى يروق الناظرين ومسمع
في كل ناحية ومهبط تلعة … أرج الثناء ونشره المتضوع
ما حار مرتاد لمفضال له … من نفسه حام له ومشبع
ومناقب عز اتفاق نظيرها … لسوى إمام من نداه ينبع
وقفت بها همم المنى حسرى وما … خطرت بساحتها خواطر ظلع
أمر ونهي سح بينهما ندى … وسماحة حاتمية ما تنزع
وسنًا محيًّا بالجلال مقسَّمٌ … بادي اللطافة والبشاشة أروع

ونباهـــة كملـــت أداة جمالهـــا نـبلا وقلـب في الحـوادث أصـمع

شـــملت صـــنائعه البريـــة كلهـــا فضلا فلـيس يقـول جـل المصبع

في كـــل صـــقع نـــاشر لثنائـــه وخطيـب نـاد في المقامـة مصـقع

كالغيث إن هملت سـحائبُ وَدقِـه أمسـىٰ لهـا في كـل شِـعبٍ موقـع

فتسـاوت الغيطـان منهـا والربـىٰ والْتـامَ منهـا شِـعبُها المتصـدِّعُ

أحيا دروس العلم بعـد دروسـها كرمـا ولم يعلـق بـذلك مطمـع

فغـدت بهـا مأهولـة وعهـدتها وحش المدارس والمجـالس بلقـع

وأثـــار نهمـــة طالبيـــه بهمـــة علميـــة منهومهـــا لا يشـــبع

وأقام مـن صـعر الزمـان صـغاءه بثقافـــــة والســـــمهرية شرع

عجبـا لأنضـاء القـوافي تشـتكي هزلا وفي حـرم ابـن عـثمان مرتـع

وادي بحر الملك يقـذف عسـجدا وحمـــاه ملتـف الشــواجر ممــرع

ولما مَرَّ **مولاي يزيد بن مولاي محمَّد** ببلدنا، وتلقَّاه بما تلقاه به من الإكرام المفرط، وذلك آخر ربيع الأوَّل سنة إحدىٰ ومائتين وألف قلتُ فيه:

حنانيـك مـاذا الصـب مـاذا التجانـب وقلبـي مـن شـوقي لوجهـك ذائـب

وجسمي نحيـل مـن هـواك أمـا تـرىٰ جوارحـــه بهـــا الأســىٰ يتلاعـــب

فـــإن كـــان ذنبـــي في هـــواك محبتـــي فما أنـا مـن ذنبـي مـدىٰ الـدهر تائـب

فـدوتك فاصـنع مـا تريـد، فـإنني عن الغدر ما أبقىٰ وفي الصدق راغـب

رغبـت عـلىٰ قـول العـدا تـرك الهـوىٰ وإن يعلمـــوا أني بـــه متلاعـــب

وعـن طاعـة العـذال فـيم دعـوا لـه وقـد كنـت إن أدعـىٰ لهـا لا أجـاوب

وعـن تركـي المحبـوب غـرة وجهـه كبـــدر لـــه بـــين البيـــوت مغـــارب

إذا مـا يـدي لاحـت عليـه تحوطـه سـهام قسـي أوترتهـا عقـارب
وعـن تركـي الأشـعار فيـه أصـوغها فمنهـا حـلى عـين ومنهـا ثَواقـب
إذا لم أكـن في الحـب أوفى رجالـه فمن بالوفا من أهـل عصـري يطالـب
وهبت لـه روحـي ونفسـي ومهجتـي فـلي فيـه فـوق العـالمين مراتـب
ورثـت بـه قيسـا كـما ورث الـذي هويـت سـنا لـيلى فأمسـى يغاضـب
ووطنـت نفسـي للمصـائب إن مـن يهـيج بحـب تعتريـه المصـائب
ويسـمع أقـوال العـدى فيردهـا ويـدعى إلى تـرك الهـوى فيجانـب
كـما رد قـول العـاذلين عـلى النـدى وجانـب مـن يـدعو لهـم ويقـارب
همـام الـورى ليـث الملـوك محمـد عليـه سـلام الله مـا لاح ثاقـب
هـو الغيـث جـودا والسـماحة برقـه مشـارقنا تحيـا بـه والمغـارب
هـو العامـل المرفـوع والفاعـل الـذي عواملـه للظـالمين نواصـب
هـو الليـث إقـداما وبأسـا وسـطوة أظـافره اللـدن القـواضب القـوا ضـب
إذا سـار في عـرض البسـيطة خلتـه هـلالا تبـدى والنجـوم الكتائـب
فيبـدو سـناه في البريـة كلهـا يشـاهده نـائي الـورى والمقـارب
تبـارك مـن أبـداه للنـاس جنـة فـما زال يسـطو دائـما ويضـارب
ويهجـر طيـب النـوم واللهـو جهـده ويرغـب فـيما النـاس عنـه رواغـب
ويقطع جـل الـدهر في طلـب العـدى ركوبـا ولا تلهيـه حسـناء كاعـب
ويـبرز لا وانٍ ولا متكاسـلا ولا مـن أذى كـل الشـدائد هايـب
بوجـه كوجـه الليـث في الأمـن باسـم ولكـن إذا دام التضـارب قاطـب
يعـز عـلى كـل الأنـام ابتذالـه وإن يعتريـه مـن أذى الـدهر عاطـب
ولكـن عليـه لا يعـز وإنـما يعـز عليـه أن يُضـيَّع واجـب

لقـد جـد في دفـع الفسـاد ولم يـزل ... على حرب من يبغـي الفسـاد يواظـب
إلى أن أنـام النـاس في الأمـن والهنـا ... وفـاء بـه العـاصي وبـاء المحـارب
ودان لـه الـداني ومـن كـان شاسـعا ... لعلمهـم أن لـيس يمنـع هـارب
وصـارت بـه أهـل العنـاد أذلـة ... فمنـذ بـدا لم يبـد بـالأرض غاصـب
هنالـك أمسـى سـاكن الجـأش غاليـا ... إذا رام حربـا لم يجـد مـن يحـارب
فأنشـده جهـرا بمفصـل حالـه ... زمـان لأصـحاب الكـمال مخاطـب
فألقـت عصـاها واسـتقر بهـا النـوى ... كـما قـر عينـا بالأحبـة آيـب
ألا أيهـا الجرهـاس قـد نلـت رفعـة ... غـدا دونهـا بـدر الـدجى والكواكـب
وملكـت بحـرا دائـما ومهابـة ... ونصـرا سرى فالنـاس منـه رواهـب
أتتـك وفـود النـاس مـن كـل جانـب ... لجـودك إن الجـود للنـاس جالـب
إذا كثـر المرعـى بـأرض مريعـة ... وجـادت عليهـا في الربيـع السـحائب
تكـاثر فيهـا القاصـدون إلى الكـلا ... وجـاء إليهـا طالـب ثـم طالـب
فهـذا مليـك الغـرب أمَّـك نجلُـه ... وهـو بـأن تلقـاه بالبشـر راغـب
فجردت مـن أجفـان عزمـك صـارما ... وفاض سـحاب مـن عطائـك سـائب
وقمـت بـه حـق القيـام تكرمـا ... ومثلـك أحـوال الكـرام يراقـب
فمرنـا نسـله هـل رأى مـا أنلتـه ... بأوطانـه أم هـل رأى مـا يقـارب
ومـا كـان يـا ذا الفضـل أول قاصـد ... لحضـرتك العليـا عـلى الرحـب آيِـبُ
فكـم قبلـه مـن قاصـد قـد حبَوتَـه ... ومـن هـارب أمنـت مـا هـو راهـب
فَقِـدمًا أخـوه قـد أتـى لـك هاربـا ... فلاحـت عليـه في ذراك عجائـب
وجـاءك مـن شرق الـبلاد وغربهـا ... عُفـاةٌ حفـاة قبلـه وركائـب
فعش شاكرا وافخر متى شئت وابتهج ... فإنـك منصـور الكتائـب غالـب

ولا زلــت حيــا في الــبلاد تسوســها　　وتحـــدب عنهـــا دائـــما وتغالـــب

إلى أن تُـــرى في دار **وهـــران** آمِـــرا　　وينفـــذ فيهـــا مـــن قضـــائك لازب

ويبطــل نــاقوس الصــليب الــذي بهــا　　ويرجع عنهـا كفرهـا وهـو خائـب[1]

ويفــرح فيهــا الــدين مــن بعــد حزنــه　　عليهـــا ويرقـــى للمنـــابر خاطـــب

ويعلــو عــلى تلــك المــآذن وســطها　　جهــير إلى الخمــس الفريضــة نــادب

هنالـك عين الدين تصـفو مـن القـذى　　وتكثـــر مـــن رب الأنـــام المواهـــب

فليتـــك تـــدعو المســـلمين لفتحهـــا　　فرأيـــك ميمـــون وســـهمك صـــائب

وعنـــك ســـلام الله مـــا قـــال قائـــل　　حنانيــك مــاذا الصــد مــاذا التجانــب

ودونكهـــا بكـــر يـــروق جمالهـــا　　لهــا مقلــة ترمــي العــدى وحواجــب

كـــأني بأعـــدائي يقولـــون إننـــي　　لألفاظهــا مــن نظــم غــيري غاصــب

فــإن كــان حقــا مــا يقولــون فَلَيَمُــت　　بِغُصَّــتِهِ مَــن هــو في القــول كــاذب

وقد كنت لما ولي الإمرة قلت:

تأمــل الكــون كــي تلقــى بــه عجبــا　　نفــح العبــير بــه في الجــو قــد فــاح

والغصـــن يـــرقص والأزهـــار عابقـــة　　وبلبـــل الأنـــس في الأدواح قـــد نـــاح

والأفــق أفــق بــلاد الغــرب قاطبــة　　قــد عــاد بعــد ظــلام الظلــم وضــاحا

واعشوشبت أرض ذاك القطر منذ جرى　　بحـــر بهـــا لم يـــزل بـــالبر ســـياحا

بـــل لاح بـــدر بهـــا تمـــت محاســـنه　　فكــان في الشــمس إشراقــا وإصــباحا

عــلا عــلى القــدر مقــدارا وحــق لــه　　أن يجعلـــن عـــلى الأفـــلاك أنـــداحا

وفـــاح منـــه شـــميم طـــاب منشـــقه　　منــه العبــير وعــرف المســك قــد راحــا

(1) حقَّق الله الرجاء، والحمد لله على نعمه. (أصل).

هـو الهمام الـذي أمسـى بإمرتـه ... نـور الهدايـة في الأرجـاء ملتاحـا
وهـو الهزبـر الـذي مـا حـل معركـة ... إلا غـدا نجـل مـن يلقـاه نواحـا
فكـم براحتـه ذات الصـواعق بـل ... ذات الندى من كمـي في الـوغى طاحـا
سـل الخيـول وسـل عنـه الـوغى فهـما ... بوصـفه أفصـحا للنـاس إفصـاحا
فالخيـل والسـيف والهيجـاء تعرفـه ... والقـرن يعرفـه قرمـا وجحجاحـا
والصـعب والحـزن قـد ذلا لهيبتـه ... والليـث منهـا عـن الأغيـال قـد زاحـا
والنصر حيث مضى يمضـي يطاوعـه ... وحيـث طـاح إلى أعدائـه طاحـا
يحـل كـل القـرى بـه ويفتحهـا ... كأنـه صـار في كفيـه مفتاحـا
تـرتج تحـت نعالـه البسـيطة ... والخيـل العتـاق إذا علـيهما تاحـا
يـأتي عليهـا غـداة الـروح معتـدلا ... كغُصنِ بانٍ علـى الأغصـان قـد صـاحا
أو ضـيغم باسـل يبـدو بـه غضـب ... أكـرم بـه إن عـلى أعدائـه صـاحا
يـا عـادم المـال يمـم روض سـاحته ... فـيم راحتـه بـالجود قـد سـاحا
تلقـى فتـى حسـن الأخـلاق طيبهـا ... مـا زال للبـذل والإحسـان مرتاحـا
ذاك الجليـل الـذي فـاق الرجـال ومـن ... بمدحـه سـاجع الأكـوان قـد باحـا
محمـد الملـك المرجـو نائلـه ... مـن فـاق في خُلقِـه السلسـال والراحـا
أدامـه الله في عـز وفي دعـة ... وزاده ربـه نصـرا وأفراحـا
ثـم الصـلاة عـلى أزكـى الـورى كرمـا ... مـا أعقـب الليـل إشراقـا وإصـباحا
ومـا شـذت روضـة غنـاء عـاطرة ... نفـخ العبـير بهـا والمسـك قـد فاحـا

وفيه قلت:

ملـك يهـاب الليـث شـدة بأسـه ويخـاف سـطوته الشـجاع الفاتـك
أسـد يصـول علىٰ الأسـود ومرهـف قلـب المريـب لبأسـه يتهالـك
سـاس الـورىٰ طفـلا وقـاد جيوشـها ونشـا لهـذا الملـك وهـو السـامك
وعـلا ظهـور الخيـل قبـل بلوغـه وأتـىٰ الحـروب ففـر منـه الفاتـك
مهمـا رأىٰ حربـا تزايـد بأسـه وغـدا مـن الإقـدام لا يتمالـك
أكـرم بـه مـن باسـل دانـت لـه أقرانـه فهـو المهـاب الباتـك
ملئـت بـلاد الغـرب أمنـا عنـدما أمسـىٰ بهـا وهـو الـرئيس المالـك
مـا بعـد خـوف عـم في أقطارهـا وتـوعرت سـبل بـه ومسـالك
النـاس كـل يشـهدون بفضـله ذو العـدل مـنهم والتقـي الناسـك
والقِـرنُ يشـهد أنـه مـن خوفـه فـاني الحشاشـة بالمخافـة هالـك
والخيـل تشـهد أنَّـه لم يَعلُهـا مثـل ابـن عـثمان الأمـير مبـارك
وكـذاك كـرسي الملـوك بفضـله أنبـا وصـدَّقه الحسـام الهاتـك
فمَـن الـذي مِـن بعـدُ ينكـر فضـله إلا حسـود أو جهـول عاتـك
لا زال هـذا الملـك في أعقابـه ما انجـاب عـن صبح ظـلام حالـك

وفيه قلت أيضا:

ملـك عليـه مـن الوقـار أكلـة ومـن المهابـة رونـق وجـلال
ليـث تقاعسـت الليـوث لبأسـه وتضـاءلت مـن خوفـه الأبطـال
بحـر جـرىٰ فـوق البقـاع زلالـه فسـقاه مـزن دائـما هطـال
مـا زال يكفـىٰ بـاللهىٰ سـؤَّالها والجـود مـا كفيـت بـه السـؤال
ويـرد عـن أحزابـه كيـد العـدىٰ ويجـير مـن لعبـت بـه الأهـوال

حتـــىٰ غـــدت معلومـــة أوصـــافه ينبـــي بهـــا الأشـــياخ والأطفـــال
فبـــذكرها يكســـىٰ النظـــام ســـماحة مـــا أن تـــزين صـــفاته الأقـــوال
مـــا لي ومـــدحي الهزبـــر ببأســـه والبـأس قـد شـهرت بـه الأشـبال
وإلىٰ متـىٰ أصـف السـحائب بالنـدىٰ ونـدىٰ السـحائب مـا بـه إشـكال
فهـــو الســـحاب حقيقـــة بعطائـــه وهـــو الهزبـــر ودوره الاغيـــال
قـــاد الجيـــوش لعشـــرة أو قبلهـــا ولـــذاك قبَّـــل كفَّـــه الأقيـــال
فجـرت علىٰ وفـق الهـدىٰ أحكامـه كـــلا ومـــا عِيبَـــت لـــه أفعـــال
فمتـــىٰ وقـــد بلـــغ الأشـــدُّ وجـــازه تبقـــىٰ تُنـــازِعُ أمـــرَه الجهـــال
هيهــات قــد ســبر الغــوامض كلهــا وبــدت لــه الأضــداد والأشــكال
وجــرىٰ لــه بالســعد أيمــن طــائر يـــرضى لـــه الإدبـــار والإقبـــال

وفيه قلت:

ذهـــب الـــذين يعـــاش في أكنـــافهم والـنقص أصـبح سـاريا في النـاس
لم يبـــق شـــخص يســـتجار بظلِّـــه جـــم المحاســـن طيـــب الأغـــراس
إلا الأمـــير الفـــرد فـــرد زمانـــه رب الســـماحة والنـــدىٰ والبـــاس
مفنـي العِـدىٰ مـولي العـداة محمـد مـولىٰ اللهـىٰ مـولىٰ الكـمال الـراس
مـــن ســـاد أربـــاب الســـيادة يافعـــا طفـــلا وقـــاد عســـاكر الأجنـــاس
وأنـــال حتـــىٰ أصـــبحت أخبـــاره للقاصـــدين حمـــاه كـــالنبراس
عاشـــت جميـــع النـــاس في أكنافـــه كالغيـث يـؤنس بعـد طـول اليـاس
فهـــو الـــذي ردت لـــوائح فضـــله قـــول المعمِّـــمِ ذي المقـــال العـــاس
ذهـــب الـــذين يعـــاش في أكنـــافهم وبقيـــت في خَلـــفٍ مـــن الأرجـــاس

ولي فيه مدائح أخر بعض مثبت فيما كتبت له من الكتب، ولما عزم على هذا الجهاد الذي سار ذكره في الآفاق، وعلت منه الغشاوة على قلوب أهل النفاق قلت:

أيا أمة غابت عليها حلومها ... وأصبح داعي المشركين يسومها
تواكل أمر الدين أصحاب أمرها ... وما نفعت أهل العلوم علومها
لها همم مقصورة عن سفالة ... وما وجدت من ناسها من يلومها
كساها طلاب المال ثوب مذلة ... فصالت عليها واستجاشت خصومها
ألا يقظة من رقدة طال وقتها ... فلا أحد في العالمين ينومها
ألا تذكروا أمر الجهاد فإنه ... به ملة المختار صح سقيمها
متى تركته المسلمون تهاونا ... به كثرت أحزانها وهمومها
ألا قومة ليثية البأس إنما ... يذود عن اكنافِ الحمى من يقومها
ألا تذكروا الأضغان وهي قديمة ... يشجع ذا الجبن الشديد قديمها
بأيدي العدى أموالكم وبنيهم ... عبيد لكم يكفي الشؤون خديمها
أباحكم الرحمٰن وطء نسائهم ... بلا ثمن إن نالها من يرومها
ألا تنفروا لله في طلب العدى ... عسى بكمُ يُسمى مباحا حريمها
فمن عاش منكم عاش وهو مبرء ... من العيب محمود الأمور كريمها
ومن مات في تلك المواطن منكم ... فجنة عدن داره ونعيمها
ألستم رجالا من بقية معشر ... بهم من طريق الحق بان قويمها
من الله باعوا بالجنان نفوسهم ... وأحمد خير المرسلين زعيمها
بأسيافهم ذلت بنو الأصفر الأولى ... غدا منكم يقضي الديون غريمها
فجدوا فإن الجد ينفع إن دجى ... من الحادثات المبهمات بهيمها
وقوموا إليهم والقلوب حوانق ... عسى تنجلي عن كل نفس غمومها

بهـــذا أمـــين الله نبـــه عزمـــه ... لـوهران كـي تنكـى عليهـا كلومهـا
هو الطالب المنصـور والأسـد الـذي ... إذا رام أرضـا أسـلمتها قرومهـا
تسـاعده الأقـدار في كـل مقصـد ... لنيـة صـدق في الإلـه يـديمها
فكـل بـلاد المسـلمين بغربنـا ... لـه ملكـت أطلالهـا ورسـومها
فكيف بـأرض الشـرك وهـي منـازل ... بَـدا نحسـها عـن سـاكنيها وشـومُها
فـلا ترهبـوا مـن مانعـات حصـونها ... ففـي عزمـه مـا لا تقـاوم رومهـا
شديد كمثـل المـاس يلقـى شـديدها ... فيصـبح في أيـدي الريـاح هشـيمها
سـيفتحها قسـرا ويلـبس أهلهـا ... مـن الـذل ثوبـا تحتويـه جسـومها
فـما زال منصـور البنـود بسـيفه ... جنـود العـدى حـتى تفـض ختومهـا

ووفد عليه وهو نازل عليها عقب الزلزلة الأديب الأجل السيِّد **محمَّد بن الطيِّب المازري البليدي**، فقال:

أَهَـلَّ هـلال العـز في طـالع السـعد ... تكامل بـدرا في سـما الفضـل والمجـد
أزيحـت غياهـب الظلـم مـذ بـدا ... كـما اتضـحت لنـا بـه سـبل الرشـد
فكـم معلـما أحيـاه بعـد اندراسـه ... ونظـم شـمل الـدين في أيـما عقـد
وجـرد مـن صـدق العزيمـة ماضـيا ... أبـاد رقـاب الملحـدين إلى اللحـد
أقـام بحـده الحـدود فلـن تـرى ... من شـخص مجـاوز لهـا خشـية الحـد
غـزا أرض وهـران بجـيش عرمـرم ... فضاق بـه الفضـاء عـن ذلـك الجنـد
رمـى بصـواعق تجـاه حصـونهم ... فـأورثهم نهايـة الـذل والطـرد
وفي جنـده مـن الرجـال أفاضـل ... سموا لسماء الفضل من دون ما جحد
ولا شـك أن الله يفتحهـا عـلى ... يديـه وإن النصـر يـأتي عـلى القصـد

هـو الليـث لا ينفـك يـوم كريهـة يكـر عـلى الأعـداء بالصـارم الهنـد
يمينـــا إذا مـــا ســـله لا يـــرده من قبـل خضـاب بالـدماء إلى غمـد
يقـاوم جيشـا وهـو فـرد فكيـف إن أتـى مـع عسـكر لـه خـافق البنـد
إذا مـــا رنـــا شـــزرا تجـــاه عـــدوه تـيقن أن لا شيء ينجـي مـن الفقـد
تعـــوَّد كفّـــه الكـــريم ســـخاوة بها استنطق العجماء بالشكر والحمـد
سل الغيث هل يضاهي بـذل كفوفـه وهـل رد قاصـدا عـلى كثـرة الرفـد
حـــوى أدبـــا وفطنـــة وسياســـة ينيط بهـا الأحكـام في الحـل والعقـد
تكـــاد فضـــائل لـــه وفواضـــل لكثرتهـا تنبـو عـن الحصـر والعـد
فـــلا زال ذكـــره الجميـــل مخلـــدا كـــذكر أبيـــه المقتفـــي أثـــر الجـــد
وإني لأدعـــو الله أن يـــورث ابنـــه ســـنا ملكـــه وهكـــذا لا إلى حـــد
هنيئـــا لأم عســـكر إذ غـــدت بـــه تيممهـا الركبـان وفـدا عـلى وفـد
فخُـذها إمـام الوقـت منـي قصـيدة لهـا أرجٌ أذكـى مـن المسـك والنـد
كهيفـــاء بكـــر لم يُفَـــضُّ ختامهـــا تدير كـؤوس الأنـس في محفـل الـود
تغنيـك طـورا ثـم تسـقيك قرقفـا على ظمأ قد شيب من ريقهـا الشـهد
وناظمهـــا محمـــد نجـــل طيـــب يـروم قبـولا منـك يـا غايـة القصـد

وفيه يقول السيِّد **محمَّد المازري التلمساني**:

بدأت بحمد الله في معـرض الثنـا وفي الافتخـــار بهجـــة وثنـــاء
وبعد فإن القصد في الـنظم شـائقا إلى مـدح مـن ربـى بـه البصـراء
ومن خصه الرحمٰن بالمجد والعلى وحـاز المعـالي والفخـار سنـــاء
دعـــا فأجابتـــه المعـــالي مطيـــة وقـد كـان منهـا منعـة وإبـاء

وألقت لـه العليـا زمـام انقيادهـا فمنهـا لـه مـا يبتغـي ويشـاء
وناجـت علـىٰ الآمـال آلاؤه التـي بهـا للـورىٰ طـرا غنـىٰ واغتنـاء
ومن سـيبه للنـاس فـيض ومرتـع نعـيم كثـير دائـم ورواء
فإن رمت حصرا في كمالـه فـارتجع فـإن البحـور لا تـرىٰ لهـا دلاء
ولو طار ألف عـام الطـير مسـرعا فـما قطعـت بخفقهـن سـماء
ولكـن ذا نـزر يسـير ذكرتـه لتغـرف منـه جرعـة صـيفاء
وهاك اسمه إن كنـت فيـه منافسـا بـأعلىٰ ثمـن ولا تقـل ذا غـلاء
فخـذ أربعـين ثـم بعـد ثمانيـا وكـالأولىٰ ثـم نصـف الثنيـاء
وضـفه إلىٰ عـثمان قبـل وبعـده كـما شئت إن تخـف قلبـك كنـاء
وآكـد سـؤلي أن يـدوم مخلـدا فللـدين والـدنيا بـذاك بقـاء

ولنحبس عنان القلم عن جلب أمداحه، ونحلىٰء لسان البنان عنها، وإن لم يحصل له من معين وصفه وقراحه، علىٰ أنِّي لا أروىٰ في ذكر فضله بالثماد، فلو قدرت لاقتضيت مدحه من الجماد، واستنطقت به اللِّسان الشحيح، وحسبت عليه كل كلام فصيح، ولو اتسع طرقي لنظمت فيه القصائد من الدرر، وألفت المدائح من الأقاح والثمر، بل من الثغور والغرر، حرصا علىٰ تخليد مآثره حتىٰ يبتهج بها الآخرون، و يتهاداها النُّدماء منهم والمسامرون، ويفتخر بها علىٰ الأوائل منا المفاخرون، فإنَّ اقتناء المحامد يخلد الذِّكر، ويؤبد الشكر، ولله درُّ مَن قال:

قد مات قوم وما ماتت فضـائلهم ومات قوم وهم في النـاس أحيـاء

وها أنا أقول:

ما مات من ترك الجميل ولم يعـش من كـان نـزر الفضـل والمعـروف

ولا يخلد ذكر الفضل والمعروف، أكثر من هذا الشِّعر المعروف.

ولولا خصال سنها الشِّعر ما درت   بغاة العلىٰ من أين تؤتىٰ المكارم

ولذلك ضممت منه ما قيل في هذا الهمام، ورغبت فيه فلو قدرت لاقتطفته من الورد والنمام وتناولته ولومن علىٰ طرف الثمام، أسأل الله أن يُؤبِّد سعوده ويرغم حسوده، ويُورق في روض السَّعادة عُوده.

فنفــــق الجهـــــاد في أيامـــــه   وروي الإســـلام مـــن حيامـــه

وصــــار فيـــه ذا عـــزم مـــتين   كعــزم يوســف صــلاح الــدين

يغــزو العــدى ويبعــث الســرايا   تفـــك مـــن أيـــديهم العرايـــا

يُقال: نفق البيع، إذا راج، والسُّوق، إذا أقامت، أي: قامت سوق الجهاد، مِن باب الاستعارة المكنية، لأنَّا شبَّهنا الجهاد ومواطنه بالسُّوق لما بينهما مِن المشابهة الظاهرة، ولم نصرِّح بذلك بل صرَّحنا بلازمه وهو النَّفاق، ويُمكن أن يكون من باب الاستعارة التبعية، وهو أنَّا استعرنا النفاق لظهور الجهاد، واجتماع النَّاس بمواطنه، ثُمَّ اشتققنا من النفاق نفق، و(**الحيام**) العطش، وهو أيضا استعارة مكنية، و(**العزم**) التصميم علىٰ الشيء وإِرادة فِعله، و(**المتين**) القوي الصَّحيح، و(**صلاح الدِّين**) هو السُّلطان الملك الناصر **صلاح الدِّين أبو المضفر يوسف بن نجم الدين بن الشكر أيوب بن شادي بن مروان الكردي**.

نشأ أبوه وعمُّه ببلد دون **أذربيجان**، ودخلا بغداد فخدما مجاهد الدِّين، فبعث **أيوب** إلىٰ قلعة **تركيت** ومعه أخوه، فخدم أيوب زنكي لما انهزم فشكر له خدمته، واتفق أنَّ شيركوه قتل رجلًا فطردا معا فمضيا إلىٰ زنكي بالموصل فأقطعهما إقطاعا عنده، ثُمَّ رتب أيوب بقلعة بعلبك، ثُمَّ أنعم عليه بإمرة واتَّصل شيركوه بمحمود بن زنكي في

أيام أبيه، فلما ملك حلب بعد أبيه كان لنجم الدِّين عملٌ كثير في عمل دمشق لمحمود حتَّىٰ بعث شيركوه مع شاور إلىٰ مصر، فسار صلاح الدِّين من جملة أجناده، فلما مات عمه استعمل هو بعده في وزارة العاضد الفاطمي يوم الثلاثاء خامس جمادىٰ الأخيرة سنة أربع وستين وخمسمائة، ولقَّبَه **الملك النَّاصر** فاستمال قلوب الناس، وأقبل علىٰ الجِدِّ وترك اللهو، وتعاضد هو والقاضي الفاضل **عبد الرحيم بن علي البيساني** علىٰ قلب الدولة، وعزل قضاة الشيعة، وبنىٰ بمصر مدرستين للمالكية والشافعية، وقبض علىٰ أمراء الدولة الفاطمية، وولىٰ أصحابه بدلهم، وأبطل المكوس بأسرها في مصر، ولم يزل يدأب في إزالة الدولة الفاطمية حتَّىٰ تَمَّ له ذلك، وخطب للخليفة ببغداد **المستضيء بأمر الله**، وكان العاضد مريضا فمات بعد ذلك بثلاثة أيام، واستبد **صلاح الدِّين** بالسَّلطنة أوَّل سنة **سبع وستين**، وأقدم أباه وإخوته من **الشام** فقدموا بأهاليهم، وتأهب لغزو الإفرنج، وسار إلىٰ الشوبك فوافقهم وعاد إلىٰ **أيلة** وجبىٰ الزكاة من مصر ففرَّقها في أصنافها، ورفع إلىٰ بيت المال سهم العاملين، والمؤلفة، والمقاتلين، والمكاتبين، وبعث بأموال القصر إلىٰ الخليفة فأتته الخُلع الخليفية، ثُمَّ حاصر الكرك وهىٰ بيد الإفرنج فلم يفتحها، فبعث أخاه إلىٰ النوبة فعاد إليه بغنائم وسبي كثير، ثُمَّ ملك دمشق وأبطل مكوسها، وأخذ حماة وحمص وبعلبك وصولح علىٰ حلب، وندب قراقوش القوىٰ لأخذ بلاد المغرب، فأخذ أوجله ومنيح وعزار وبزاقا، ثُمَّ عاد إلىٰ القاهرة بعد حروب كثيرة مع الإفرنج، فأمر ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر، وقلعة الجبل وأقام علىٰ ذلك **قراقوش** الأسدي فشرع في بناء قلعة الجبل والسُّور وحفر الخندق حوله، وبدأ السُّلطان يعمل مدرسة بجوار قبر الإمام **الشافعي** (رضي الله عنه) بالقرافة، وعمل مارستانا، وتوجَّه إلىٰ الإسكندرية فصام بها رمضان، وسمع الحديث، وعمل الأسطول، ثُمَّ عاد إلىٰ القاهرة وأخرج قراقوش القوىٰ إلىٰ المغرب، وأمر بقطع ما كان يُؤخذ من الحجاج

وعوض أمير **مكة** عنه ألفي دينار وألف إردب غلة سوىٰ أقطاعه بصعيد مصر، ثُمَّ سار إلىٰ **عسقلان** وهي بيد الإفرنج وقد نزلوا علىٰ **حماة**، فوصل **دمشق** وقد رحلوا عنها فواصل الغارات علىٰ بلادهم، ثُمَّ فتح بيت الأحزان عنوة من أيديهم، ثُمَّ مضىٰ إلىٰ الكرك فعاثت عساكره ببلد طبرية وعكا، وأخذ الشقيف، ثُمَّ إلىٰ الرها فأخذها، وملك **حرّان** و**الرقة** و**نصيبين**، ونازل **سنجار** فأخذها، ثُمَّ **آمد** فآخذها، ثُمَّ **حلب**، وحرق **بينسان** علىٰ الإفرنج وخرَّب لهم عِدَّة حصون، ثُمَّ حرق **نابلس** وأخذ **ميافارقين**، ثُمَّ عاد إلىٰ **الموصل** ثُمَّ رحل عنها ـ وقد مرض ـ إلىٰ **حرَّان** فتقرر الصلح مع المواصلة علىٰ أن خطبوا له بها وبجميع الارتقية، وضربت السكة باسمه، ثُمَّ ملك **طبرية** من الإفرنج، ثُمَّ واقعهم علىٰ **حطين** وهم في خمسين ألفا فهزمهم بعد عدة وقائع، وأسر منهم عدة ملوك، ونازل **عكا** حتىٰ تسلمها وأنقذ منها أربعة آلاف أسير، وأخذ عدَّة حصون، منها: **الناصرية**، و**قيسارية**، و**حيفا**، و**صفورية**، و**الشقيق**، و**السنولة**، و**الطور**، و**سبسطية**، و**نابلس**، و**تبنين**، و**صرحة**، و**صيلا**، و**بيروت**، و**جبيل**، وأنقذ هذه البلاد زيادة علىٰ عشرين ألفا من أسارىٰ المسلمين، وأسر من الإفرنج مائة ألف، ثُمَّ ملك **الرملة**، و**بلد الخليل** (عليه السلام)، و**بيت لحم** من **القدس**، ومدينة **عسقلان**، و**غزة**، و**بيت جبريل**.

ثُمَّ فتح **بيت المقدس** يوم الجمعة سابع عشرين رجب سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة، وأخرج منها ستين ألفا من الإفرنج بعد أن أسر ستة عشر ألفا بين ذكر وأنثىٰ، وقبض من مال المفاداة ثلاثمائة ألف دينار مصرية، وأقام الجمعة بالأقصىٰ فتطاول العلماء للخطابة، وجهَّز كل منهم خطبة بليغة طمعا أن يكون هو المتولي لذلك، فخرج الإذن بأن يخطب **القاضي محيي الدين محمد بن علي العثماني** المعروف بابن زكي الدِّين الدمشقي الشافعي، وحضر السلطان وأعيان دولته فلما رقىٰ المنبر استفتح بسورة

الفاتحة، ثم قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: 45)، ثم قرأ أول سورة (**الأنعام**): ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: 1)، ثمَّ قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (الإسراء: 111)، ثمَّ قرأ مِن سورة (**الكهف**) ثلاث آيات، ثمَّ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ (النمل: 53)، ثُمَّ أول (**سبأ**)، ثمَّ أول (**فاطر**)، ثمَّ قال: الحمدُ لله معزّ الإسلام بنصره، ومذلّ الكفر بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكفار بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده مِن ظلّه، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما شاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظهاره وإظفاره، وإعزازه لأوليائه، ونصره لأنصاره، وتطهير بيته المقدس من الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره.

وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى ربه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رافع الشك، ومدحض الشرك، وداحض الإفك، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، إلى سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى، صلى الله عليه وعلى خليفته **أبي بكر الصديق** السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين **عثمان بن عفان** ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب**

مزلزل الشرك ومكسر الأوثان، وعلىٰ آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

أيها الناس، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوىٰ، والدرجة العليا، لما يسره الله علىٰ أيديكم من استرداد هذه الضالة، من الأمة الضالة، وردها إلىٰ مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بني عليه، وشيد بنيانه بالتحميد فإنه أسس علىٰ التقوىٰ من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم **إبراهيم**، ومعراج نبيكم **محمد** (عليه السلام)، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في مبتدأ الإسلام، وهو مقر الأنبياء (عليهم السلام)، ومقصد الأولياء ومدفن الرسل ومهبط الوحي ومنزل به ينزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلىٰ فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي رفع الله تعالىٰ به إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلىٰ مريم وروحه، عيسىٰ الذي أكرمه برسالته، وشرفه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ (النساء: 172)، كذب العادلون بالله، وضلُّوا ضَلالا بعيدا، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ﴾ (المؤمنون: 91) الآية، ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ (المائدة: 17) الآية، وهو أول القبلتين، وثاني المسجِدَين، وثالث الحرَمين، لا تشدُّ الرِّحال بعد المسجدَين إلا إليه، ولا تُعقد الخناصر بعد الحرمَين إلا عليه، فلولا أنكم أكرم عباده، وأصفياؤه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار، ولا يباريكم في شرفها مبار، فطوبىٰ لكم من جيش ظهرت علىٰ أيديكم المعجزات النبوية،

والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم الإسلام أيام القادسية، والملاحم اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقاومة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء.

فاقدروا ـ رحمكم الله ـ هذه النعمة حق قدرها، وقوموا لله تعالىٰ بواجب شكرها، فله تعالىٰ المنة عليكم بتخصيصكم بهذه الخدمة، وترشيحكم لهذه الحرمة، فهذا هو الفتح الذي فتح له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقر به الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح علىٰ يديه البيت المقدس في آخر الزمان، والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن يفتح الله علىٰ أيديكم أمثاله، وأن تكون التهاني لأهل الخضراء، أكثر من التهاني لأهل الغبراء، أليس هو البيت الذي عظمته الملل، وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل، أليس هو البيت الذي أمسك عز وجل لأجله الشمس علىٰ يوشع أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسىٰ أن يأمر باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب الله عليهم فألقاهم في التيه عقوبة العصيان، فاحمدوا الله الذي أمضىٰ عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل وقد فضلت علىٰ العالمين، ووفقكم لما خذل فيه أمما قبلكم من الأمم الماضين، وجمع الله كلمتكم وكانت شتىٰ، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتىٰ، فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد إذ كنتم جنودا لأهويتكم جنده، وشكر لكم الملائكة المنزلون علىٰ ما أهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد ونشر للتقديس والتمجيد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذىٰ الشرك

والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم ملائكة السماوات، وتصلي عليكم الصلوات المباركات، فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوىٰ الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، واحذروا من اتباع الهوىٰ، وموافقة الردىٰ، ورجوع القهقرىٰ، والنكول عن العدىٰ، وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقىٰ من الغصة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم خير عباده، وإياكم أن يستزلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحِداد ... لا والله، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ (آل عمران: 126) واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصكم بنصره المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين، أن تقترفوا كبيرا من مناهيه، وأن تأتوا عظيما من معاصيه، فتكونوا ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ (النحل: 92)، أو كـ: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ (الأعراف: 175).

والجهادَ الجهادَ ... فهوأفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، احفظوا الله يحفظكم، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يشكركم ويزدكم، خذوا في حسم الداء وقلع شأفة الأعداء، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الشرك واجتنبوا أصوله، فقد نادت الأيام يا لثارات الإسلام والملة المحمدية.

الله أكبر، فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر.

واعلموا أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها، وسيروا إليها سريا عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب

بذخائرها، فقد أظهركم الله على هذا العدو المخذول، وهو مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ﴾ (الأنفال: 65) الآية، أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيَّدنا معاشر المسلمين بنصرٍ مِن عِندِه، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (آل عمران: 160).

إن أشرف ما يقال في مقام، وأنفذ سهام، تمرق عن قسي الكلام، وأمضى قول تحل به الأفهام، كلام الواحد الفرد العزيز العلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: 204)، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمـٰن الرحيم، وقرأ أول سورة (**الحشر**)، ثم قال: آمركم وإياي عباد الله بما أمر به من حسن الطاعة فأطيعوه، وأنهاكم وإياي عما نهانا عنه من قبيح المعصية فلا تعصوه، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه، ثم دعا للخليفة الإمام الناصر، ثم قال: اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك، سيفك القاطع، وشهابك اللامع، المحامي عن دينك المدافع، والذاب عن حرمك المانع، سيدي الأجل الملك الناصر جامع كلمة الإيمان، القامع لعبدة الأوثان، صلاح الدنيا والدين، وسلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبي المظفر يوسف بن أيوب، محيـي دولة أمير المؤمنين، اللهم عم بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدين جزاءه، واشكر عن الأمة المحمدية عزمه ومضاءه، اللهم ابق للإسلام بهجته، ووق للإيمان حَوزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته، اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون، وابتلي المسلمون، فافتح على يديه داني الأرض وقاصيها، وملكه صياصي

الكفر ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها، ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة إلا ألحقها بمن سبقها، اللهم اشكر عن **محمد** ﷺ سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم أصلح به أوساط البلاد وأطرافها، وأرجاء المملكة وأكتافها، اللهم ذلِّل به معاطس الكفار، وأرغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، وابثث سرايا جنوده في سبل الأقطار، اللهم ثبِّت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني بنيه الملوك الباقين، واشدد عضده ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم، اللهم كما أجريت على يديه في الإسلام، هذه الحسنة التي تبقى على الأيام، فأجب دعاءه في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (النمل: 19).

ولما فتح بيت المقدس كتب إلى حضرة الخلافة كتابا بليغا من إنشاء وزيره القاضي الفاضل لم أقف على هذا الكتاب، غير أنِّي وقفت على كتاب مثله عارضه به **ابن الأثير** وأثبته في (**المثل السائر**) ونصُّه:

«خلَّد الله سلطان الديوان العزيز النبوي، وجعل أيام دولته أترابا، ومناقب مجدها هضابا، وزادها على مرور الزمان شبابا، وأوسعها توشية وإذهابا، إذا أوسع غيرها تلاشيا وذهابا، ومنحها في الدنيا والآخرة عطاء وفاقا لا عطاء حسابا، ومثل جدودها في عيون الأعداء شيئا عجابا، وأراهم منها في اليقظة إرهابا وإرعابا، وفي المنام إبلا صعابا تقود خيلا عرابا، لو جمعت العصور في صعيد واحد لكان هذا العصر عليها فاخرا، وفاز بسبق أوائلها وإن جاء آخرا، وليس ذلك إلا لحظوته بالدولة الناصرية التي كسته حبرا، وقلدته دررا، ودونت له من المحامد سيرا، وجعلت في كل ناحية من وجهه شمسا وقمرا، وقيض الله لها من الخادم وليا يوصل يومه في طاعته بأمسه، ولا

يرىٰ إلا ومن نفسه في خدمتها رقيب علىٰ نفسه، وطالما سعىٰ بين يديها بمساع تغص بأخبارها محافل القوم، ويقال له فيها: ما ضرك ما صنعت بعد اليوم، وقد سلفت منها آيات تتماثل في أشباهها وأضرابها، واستونف الآن لها واحدة تدعىٰ بأم كتابها، وهي فتح البيت المقدس الذي تفتحت له أبواب السماء، وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء، واسترد حق الإسلام وطالما سعت الهمم في طلبه بالزاد والماء، ومن أحسن ما أتىٰ به أنه آنس قبلته الثانية بقبلته الأولىٰ، وأطال منه كل ما قصرته يد الكفر وكانت هي الطولىٰ، وبه صح لهذا البيت معنىٰ اسمه، وانتقل إلىٰ الطهارة ونزاهتها عن الرجس ووصمه، ولم يحزه الخادم حتىٰ طوىٰ ما حوله من البلاد المنجدة والغائرة، وكان مركزا لدائرتها فغادره وهو طرف من أطراف الدائرة.

ولما شارفه نظر منه إلىٰ ظُلَّة من الظلل، ورأىٰ بلدا قد استقر علىٰ متن الجبل مثل الجبل، و يطيف به واد تستهزئ عصمته بنوب الدهر، وقد انعطف علىٰ جوانبه انعطاف الحبوة علىٰ الظهر، والمسالك إليه مع ذلك ذات تعاريج ومعارج، وهي ضيقة مستوعرة يطلق عليها اسم الطرق ولا يطلق عليها اسم المناهج، فلما رآه قال: هنا أمنية لمن يرىٰ، وعلم حينئذ أن كل الصيد في جوف الفرىٰ، إلا أن لسان حاله خاطبه وهو أفصح الخطاب، وقال امدد يدك فليس دونها من حجاب، وكان قد برز من السلاح في لباس رائع من المنعة، وأخرج من السواد الأعظم ما خدع العيون والحرب خدعة، وما تمنع رقاب البلاد بكثرة السواد، ولا تحمىٰ بعوالي الأسوار بل بعوالي الصعاد، وفي يوم كذا وكذا خيم المسلمون في عقر داره، ونزلوا منه نزول الجار إلىٰ جانب جاره، ثم ارتادوا موقفا للقتال، وإن لم يكن هنالك موقف يقرب مناله، ولا يتسع مجاله، واتفق الرأي علىٰ لسان المنجنيق في خطبة عقيلية أبلغ خطابا، وأدنىٰ من المطلوب طلابا، وأنه إذا ضرب بعصاه الحجر انبجست عيون أهلها دماء، كما انبجست عيون الحجر ماء.

هذا، والعزائم تنظر إلى هذا نظر المستجهل، وتصد عنه صدود المستعجل، وتقول: ما بارتياد السهل تملك الصعاب، ومن ابتنى السيف صرحا لم ينأ عنه بلوغ الأسباب، والحديد لا يُفَلُّ إلا بالحديد والركن الشديد لا يصدم إلا بركن شديد، فعندها صمم الخادم أن يلقى البلد مواثبا لا مواربا، وأن يجعل للزحف جانبا وللمنجنيق جانبا، ونوى أن يبدي صفحة وجهه أمام الناس، وتأسى برسول الله ﷺ في الاتقاء به إذا اشتد الباس، فلا شك أن قلوب الجيوش بمنزلة قلوبها، وأن النفاذ لأسنة الرماح لا لكعوبها، ولا يشتفي من الوغى إلا من كان طرفه أمام طرفه، ومن وقف خلف جنوده فقد جعل عزائمها من خلفه، ولما وقع الزحف صورع البلد صراعا، بعد أن قورع قراعا، ثم هز هزة طوته بيمينها ونشرته بشمالها، وأذاقته العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من نكالها، وبدون ذلك يكون عرك أديمه، وعطف شكيمه، ولم يكن قتاله بالسهام، التي غايتها أن تصف أجنحتها للمطار، وتنال بكلومها من فوق الأسوار، بل السيوف إذا جالدت بلدا أخذت بكظمه، وتوغلت في هجمه، وأغنت بسرعة خطواتها إليه عن المنجنيق وإبطاء هدمه.

فالسيف ليس بمُرتَوٍ من النفس التي تظل طائشة عند لقائها، جائشة عند استيفائها، فالقلوب توصف بأنَّها تجيش إذا كانت أعداداً، والنفوس لا تجيش إلا إذا كانت ثمادا، وما يستوي وجوه الأقران في إقدامها وإحجامها، فمنها المظلم إذا رابها الروع بإشراقها، ومنها المشرق إذا رابها الروع بإظلامها، وكانت وجوه المؤمنين في هذا المقام أحظى بلباس الإشراق، وأتم إبدارا، والبدور لا يكون تمامها في المحاق، فما منهم إلا من عرض نفسه ليوم العرض، ومشى إلى جنة عرضها السماوات والأرض، حتى اتسع المكر، وضاق بأعداء الله المقر، وحرقت أوعار الخنادق، وصار الرجال لمنطقة السور كالمناطق، ولم يستشهد منهم إلا عدد يسير لا تدخله لام التعريف، وكانت

أجنحة الملائكة مطيفة بهم فأكرم بالمطاف به وبالمطيف، وقد أسعد الله أولئك بالشهادة التي هي الفوز الأكبر، وقرنها بإدناء مضاجعهم من الأرض المقدسة التي هي أرض المحشر، فما يسرهم أن يعودوا إلى الدنيا إلا للاستزادة من ثواب الجهاد، وأيسر ذلك أن أرواحهم في حواصل طير خضر تعلق[1] من ثمار الجنة إلى يوم الميعاد.

ولما رأى الكفار أن صليبهم قد صار خوارا، وأنَّ زئيرهم قد انقلب خوارا، أذعنت أيديهم باستسلامها، وصانعت بالمال عن الرقاب واسترقاقها، وبالبلد عن النفوس وحمامها، فأبى السيف أن يترك رقابا تغذي بأكلها، ويحل من عشقها على مداومة وصلها، وذكر الخادم أن سلف هؤلاء انتزاع هذا البلد قسرا، وفتك بمن كان به من المسلمين غدرا، وذلك ثأر ذخره الله لك حتَّى تحظى في الآخرة بثوابه، وتتجمل في الدنيا بزينة أثوابه، والمسلم أخو المسلم يأخذ بدمه، وإن تطاولت أمداد السنين على قدمه، فيا بعد هذا الثأر من ثائره، ويا طيب خبره عند سامعه وحسن أثره عند ناظره.

ولما تحقق العزم على ذلك أشار ذوو الرأي بقبول الفدية المبذولة، وألا يحمل العدو على ما كسبت نفسه عليه بمحمولة، فإن النقد إذا أخرج صار ذا أنياب وأظفار، واستضرى حتى يلحق بالسباع الضوار، وهؤلاء إذا رأوا عين القتل تجردوا للقتال، وركبوا الأهوال للنجاة من الأهوال، ومن يدع إلى خطة رشد فليقبلها، ومن أنشط له عقل الأمور فلا يعقلها، وعلى كل حال فإن الفدية للمسلمين أرغب، وأموال يتقوى بها على العدو خير من دماء تذهب، هذا وبالبلد من أسارى المسلمين من حياة أحدهم بحياة كل نفس، ومن حرمته عند الله خير مما طلعت عليه الشمس، ولا يوازي فتحه عنوة أن يتعدى إليهم أضراره، ولا شك أنهم يعاجلون بالقتل قبل أن تدخل أقطاره.

---

(1) لعلَّه: «تعلق»، تعلق بالعين واللام والقاف كما هو لفظ الحديث، انظر: صحيح مسلم وشروحه.

فرأى الخادم عند ذلك أن الرأي مشترك، وأن له معتركا كما أن السيف له معترك.

وتقرر تسليم البلد ودموع أهله قد خضبت أحداقها، وأقرحت آماقها، ولم تطب أنفسهم بفراق قمامه حتى كادت الهام تفارق أعناقها، فعلى حب ذلك التراب تقوم قيامتهم، وتشيل نعامتهم، ولطالما ابتهلوا عنده أيام الحصار، واستنصروه فلم يحظوا عنده بمعرفة الانتصار، وكيف يرجى النصر من معبود تقر شيعته بقتله، أم كيف يدفع عن غيره من هو مبتلى بمثله ؟ وهذه عقول سخيفة نفذ فيها كيد شيطانها، وأخفى عنها محجة الحق على وضوح بيانها.

ولقد كان يوم التسليم عريض الفخار، زايد العمر على عمر أبويه من الليل والنهار، واشتق من اسمه معنى السلامة للمسلمين والهلاك للكفار، وزاده فخرا إلى فخره أنه وافق اليوم المسفر عن ليلة المعراج النبوي الذي كان في تلك الأرض موعده، ومن صخرتها مصعده، وذلك هو الإسراء الذي ركب إليه ظهر البراق، واستفتحت له أبواب السبع الطباق، ولوقي فيه الأنبياء على اختلاف درجاتهم فظهر خير ملقى بخير لاق، وبركة ذلك اليوم سرت إلى هذا فأطالت من شهرته، وضمنته نصرة الدين الحنيف الذي لله عناية بنصرته، وجعلته تاريخا يؤرخ بفتحه كما أرخ للنبي ﷺ بدار هجرته، وإذا أنصف واصفه، قال: إنه لليوم البدري في اقتراب النسب، وأنه العجيبة التي لم تجفل عنها الأيام في صفر وإنما أجفلت عنها في رجب، فما أكثر الفائز فيه والمغبون، والمسرور والمحزون، فمن جد راكب ومن جد راجل، ومن عز قادم وذل راحل، ولطالما جد الخادم إليه في السعي وأبصار الأعداء تزلقه، وألسنتهم تسلقه، وما منهم إلا من أكثر الشناعة بأن ذلك السعي للاستكثار من البلاد، والله يعلم أنه لم يكن إلا للاستكثار من مواد الجهاد، لا جرم أنَّ صدق النية كان له عقبى الدار، وتلك الأقوال الكاذبة كان لها عقبى البوار.

ولما دخل الخادم البلد وجد به أمما لولا أن ضربت عليهم الذلة لدافعوا المنايا مكاثرة، وغالبوا السيوف مصابرة، وهم طوائف مختلفو الألسنة والألوان، وإن قيل إنهم أناسي فإن صورهم صورها الجان، ومنهم طائفة استشعرت حبس نفوسها، وفحصت الشعر عن أوساط رؤوسها، وتوحشت بالرهبانية حتى ارتاعت العيون من أشكالها ولبوسها، ولما رأوا طليعة الإسلام داخلة عليهم أعلنوا بالجؤار[1] واصطرخوا جميعا كما يصطرخون غدا في النار، وزادهم غيظا إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة وقد صار الناقوس أذانا، وكلمة الكفر إيمانا، وأقيمت الجمعة وهي أول جمعة حظي الأقصى بمشهدها، وحضرتها الأمة الإسلامية بأحمرها وأسودها، فمن باك بدمعة سروره الباردة، ومن مجيل نظره في نعمة الله الواردة، ومن شاكر للزمن الذي أبقاه إلى يومه هذا الذي كل الأيام له حاسدة، وكانت هذه الجمعة في رابع شعبان وهو الشهر الذي جعله الله طليعة لشهر الصيام، وليلة نصفه هي الليلة المعروفة بإحياء قيامها إلى حين وفاة شخص الظلام، والتي يغفر فيها لأكثر من شعر غنم كلب من ذوي الذنوب والآثام، وجيء باللواء الأسود فركز من المنبر في أعلاه، ونطق لسان حاله فقال: من كان رسول الله مولاه فأنا مولاه، ولم يكن لسان الخطيب بأفصح بيانا من لسانه، غير أنَّ هذا يزهي ببلاغة موعظته، وهذا يزهي بعزة سلطانه.

ولما ذكرت سمات الخلافة المعظمة أتبعها الناس بالدعاء الذي ملأ المسجد بعجيجه، وسبق الكرام الكاتبون بزميله إلى السماء ووشيجه، وكان اليوم فصلا، والموقف حفلا، وذلك الدعاء فرضا لا نفلا، ولا ينتهي النصف إلى ما شوهد في البلد من الآثار العجيبة التي تستلبث العجلان وتستحلب الأذهان، وتستنطق الألسنة بالتسبيح لله الذي فطر الإنسان، ومن جملة ذلك ما تبوهي في حسنه من البيع

(1) **الجؤار**: بالهمز مصدر جأر، كـ: منع، إذا رفع صوته بالدعاء، وتضرع واستغاث. (أصل).

والصوامع، ذوات الأبنية الروائع، التي روضت بالزخارف ترويض الأزهار، ورفعت معاقدها حتىٰ كادت النجوم توحي إليها بالأسرار، وما منها إلا ما يقال إنها إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، ولقد ألان الله لهم الحجارة حتىٰ تخيروا في توسيعها بضروب الاختيار، وجعلوها أعاجيب للأسماع والأبصار، وقيل فيها هي روضات جنات لا أفنية ديار، هذا إلىٰ غيره مما وجد من معبودات القوم الموصوفة بأنها آلهة الصلب، اللاتي من ذوات النصب، وأكثر ذلك وجد بالمسجد موضوعا، فأنزلت علىٰ قرونها، واستن بسنة رسول الله ﷺ في طعن عيونها، واستوطن المؤمن مكان الكفور، وبدلت الظلمة بالنور، وقالت الصخرة الآن جمع بيني وبين الحجر الأسود لخاطب الإسلام، والجمع بين الأختين في هذا الباب من الحلال لا من الحرام، وقال الأقصىٰ: سبحان الذي أسرىٰ إلي بجنده كما أسرىٰ بعبده، وأعاد لي عهود الفتح الأول بهذا الفتح الذي أتىٰ من بعده، وعود الذاهب أرجىٰ لدوام أحقابه، وخلود الإنسان لا يكون إلا في مآبه، وهذا هو الخطب الذي جدد للإسلام عهود ابنَ خطَّابِه، إلا أنَّ مستنقذ الطريفة أولىٰ بها من صاحبها، ولئن غصبتها يد غالبة فقد جاء الله باليد التي غصبتها من يد غاصبها ...»، إلىٰ أن قال: «وكل ذلك مستمد من الانتصار بعناية الديوان العزيز التي من شأنها أن تجعل الرؤيا حقا، وأحاديث الآمال صدقا، وتقرب بعيدات الأمور حتىٰ تجعل الشرق غربا والغرب شرقا، فهذا الفتح منسوب إليها وإن كان الخادم هو السَّاعي في تسهيله، والمجاهد بماله ونفسه في سبيله، فعلىٰ عطف دولتها ترقم أعلامه، وفي أيامها تؤرخ أيامه.

ولو أبيح للقلم الخيلاء في مقام المقال، كما أبيح لصاحبه في مقام القتال، لاختالت مشيته في هذا الكتاب، ولقال وأسهب فليس الإكثار هنا من الإسهاب، لكن منعه من ذلك أن يكون ممن فخر بعمله فأبطله، وأرسل خطابه إلىٰ الديوان العزيز فلم يقبضه بالأدب حين أرسله ...» انتهىٰ وفيه بقية.

وبنىٰ السلطان بالمقدس مدرسة للشافعية، وقرَّر علىٰ من يريد كنيسة قمامة من الفرنج قطيعة يُؤديها، ثم نازل عكا وصور وحصن كوكب، وندب العساكر إلىٰ **صفد** و**الكرك** و**الشوبك**، وعاد إلىٰ **دمشق** في سادس ربيع الأول، وقد غاب في هذه الغَزاة أربعة عشر شهرا وخمسة أيام، ثم خرج منها بعد خمسة أيام فَشَنَّ الغارات علىٰ الفرنج وأخذ منهم **الطرسوس** وخرَّب سورها وأحرقها، وأخذ **جبلةَ** و**اللاذقية** و**صهيون** و**الصفر** و**بكناش** و**بعراص**، ثم دخل **حلب** وعاد إلىٰ **دمشق** وقد ملكت عساكره **الكرك** و**الشوبك**، وخرج بنفسه إلىٰ **صفد** فملكها من الفرنج وملك **كوكب**، وسار إلىٰ بيت **المقدس** ثم إلىٰ **عسقلان** ونزل بـ:**عكا** وعاد إلىٰ **دمشق** أول صفر سنة خمس وثمانين، ثم نازل **شقيف** ارنون وحارب الفرنج من أول شعبان إلىٰ آخر السنة، وقد خرج الألمان من قسطنطينية في زيادة علىٰ ألف ألف يريد بلاد الإسلام فاشتدَّ الأمر، ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان بالخروبة علىٰ حصار الإفرنج والأمداد تصل إليه، وقدم الألمان طرطوس يريد بيت المقدس فخرَّب السلطان سور طبرية ويافا، وأرسوف وقيسارية وصيدا وحبيل، وقوي الإفرنج بقدوم الألمان إليهم تقوية لهم، وقد مات أبوه بطرسوس وملك بعده فقدَّر الله موته أيضا علىٰ عكا، ودخلت سنة سبع وثمانين فملك الإفرنج عكا في سابع عشر جمادىٰ الآخرة، فقتلوا كل من أسروه من المسلمين وساروا إلىٰ عسقلان، فرحل السلطان في إثرهم، وواقفهم فانهزم من معه وهو ثابت حتىٰ عادوا فقاتل الفرنج وسبقهم إلىٰ **عسقلان** فخرَّبها، ثم مضىٰ إلىٰ الرملة فخرَّب حصنها وكنيسة بها ودخل المقدس وأقام بها إلىٰ عشر رجب سنة ثمان وثمانين، ثم سار إلىٰ يافا فأخذها بعد حروب وعاد إلىٰ القدس وعقد الهدنة بينه وبين الفرنج مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، علىٰ أنَّ للإفرنج من يافا إلىٰ عكا إلىٰ **صور** و**طرابلس** و**أنطاكية**، ونُودي بذلك فكان يوما مشهودا، وعاد إلىٰ دمشق فدخلها خامس عشر شوال وقد غاب عنها أربع

سنين فمات بها في يوم الأربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين، وهو ابن سبع وخمسين سنة، منها مدَّة ملكه بعد موت العاضد اثنان وعشرون سنة وستة عشر يوما.

فكأنــه بــرق تــألق بــالحمىٰ ثــم انطــوىٰ فكأنــه لم يلمــع

و(**السرايا**) جمع سرية، وهي طائفة من الجيش يبعثها الأمير مُتخففة لغارة أو ملاقاة عدو ونحوه، وحدُّها من خمسة أنفس إلىٰ ثلاثمائة، و(**العرايا**) جمع عرية، وهي معروفة والمراد بها هنا ما بأيديهم من أموال المسلمين وأرضهم، بل ومال الكفار أنفسهم ورِقابهم؛ لأنَّهم لا ملك لهم علىٰ شيء منها لعدم عصمتهم بالإيمان والأمان.

والمعنىٰ أنَّ سوق الجهاد قامت في أيام ولاية هذا الأمير الأجل وتمت شروطه وأدواته، واتصلت علىٰ الكفار غزواته، ودامت ريحه، وكثر ربحه، ووشجت أصوله، وقامت أركانه، فظفر الإسلام بمطلوبه ورَوىٰ من حيامه وعطشه، فإنَّه يقتضي قتال العدو لما فيه من رغبة الشارع في إظهار كلمة الحق، وهداية الخلق إلىٰ الحق، فإذا ترك تعطل مقتضىٰ الدين الذي به قوامه وقيامه، فكأنه كان ظمآنا فاقدا لهما، الذي لا قوام لهذا النوع النامي الحساس وغيره إلَّا به، فلا وجد بعد طول انقطاعه هذا المقتضىٰ روي بعد العطش الشديد، وقد طالما فقده هذا الدين المحمدي في هذا القطر المغربي إلىٰ أن نبغ هذا الأمير الحائز لمكارم الأخلاق علىٰ الإطلاق، الفائز من نفائس الكمال بأنفس الأعلاق، فكانت له فيه اليد الطولىٰ بكثرة جهاده بَرًّا وبحرا بتجهيزه أساطيله فيه كل حين يخوضون ثجاجه لطلب العدو فلا يرجعون غالبا إلَّا بغنائم وأسرىٰ، وقد تحرَّك هذه الحركة العظمىٰ، فشفىٰ غليل الدين الظمي، ثم إنَّه وإن كان الجهاد نافقا في أيامه، وكان الإسلام راويا به من حيامه، فليس المراد أنَّ الناس أقاموه دون إرادته، أو أوقعوه بدون أمره، بل هو الذي أقامه وعزم عليه عزما صحيحا قويا كعزم ابن عمه الملك الناصر **صلاح الدِّين** (رحمه الله تعالىٰ، وأسكنه في عليين).

ثم كأنَّا استشعرنا عن كيفية هذا العزم سؤالا فقلنا: إنَّه يغزو العدى كل سنة بنفسه، ويبعث لهم السَّرايا من جنوده ورعيته لتفك من الكفار ما بأيديهم، فالأموال والنفوس الذين بأيديهم عواري لا ملك لهم مقرر عليها شرعا، فمن ظفر بها من المسلمين فهو مالكها الحقيقي، وما هم فيها إلَّا كالمُستعير المستعصي بالعرية، ولقد كان ـ أبقى الله بهجته وحفظ مهجته ـ منذ ولي هذه الناحية يتوثب على الكفار ويطلب الإذن من السلطان تعريضا وتصريحا في استيصال شأفتهم والتسليط الأتَمِّ عليهم فلا يُؤذن إلَّا بما جرت به عادة الأمراء قبله من الإتيان إلى **الثغر الوهراني** بقصد الرِّباط اليوم واليومين في السنة دون ملاقاة كيد، ولا مقاتلة عمرو ولا زيد، فكان (رضي الله عنه) يجري على ذلك المهيع إلَّا أنه يترك قلوب الكفرة موقوفة على الدهش، وعقولهم معقولة بعِقَال الحيرة، ولا يصدر عنهم غالبا إلَّا وقد عاثت جنوده في أجنتهم ودارت بأسوارهم، وقاتلوهم من خلف أبنيتهم، فكانت العقول موقنة بأنَّها إن لم تفتح على يديه بقيت للكفرة على ممرِّ العصور، ولا تُطَهَّر من أدران كفرهم إلى يوم النفخ في الصور، لما يرون من مخايل الفتح اللائحة على غزواته، ويشاهدون من وثباته وثباته، ويعانون من وُثُوب جنده على أبراجها المحميَّة بالصواعق ونزواته، فلولا أنَّ الكفار يجعلون بينهم وبينه شواهق الأسوار، ويغلقون في وجوه صدمتهم أبوابهم لأحلوهم دار البوار، وإذا رجع عنهم (أيَّده الله) لم يغفل عنهم بل لا يزال يبعث لهم سرية بعد سرية، ويكدر عليهم بطروق المجاهدين أيام عيشتهم المرية، ويريهم أنَّ النصر من عند الله لا ما يطلب من عيسى ومريم، ولقد فصل من أمر الجهاد ما كان مجملا، ونظم منه ما وجده مهملا، وجعل للمجاهدين أعلاما ورايات، وأمراء يجمعونهم من الشتات، وصرف إليهم وجه عنايته، وأوقف عليهم أكبر عنايته، فقويت رجاله، واتَّسع مجاله، وصار له ديوان معروف، وحزب لا تعتريه الصروف، إلى أن أتاه السبب الذي استفاد به الإذن من

السلطان فقام قومة الأسد الغضبان، كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

وفي الأبيات: الجناس المضارع، واللاحق، والترديد، وحسن التعليل، والتسهيم.

فكـم بنـى في الثغـر مـن أشـراك	**لأهــل وهــران ذوي الإشــراك**
وقــــرر المــــرابطين فيــــه	**مرتبــا للكـــل مـــا يكفيـــه**
وهــــي إذ ذاك بـــــلاد كفـــر	**لــن يحـظ مــن يقصـدها بظفـر**
كأســـد أحجـــر في وجـــار	**أو حيـــة رقشـــاء في أحجـــار**
ترمـي الغـزاة بصـواعق الضـرر	**مثل الجحـيم حـين ترمـي بشـرر**
كأنمـــا أبراجهـــا هضـــاب	**من فوقها أسـد الشـرى غضـاب**
كأنمـــا خنـــدقها نطـــاق	**ودونـــه الســـور فـــلا يطـــاق**
كأنمـــا أســـوارها ســـوار	**كــم رد عنهــا مــن فتــى أســوار**
كأنمـــا قلعتهـــا المنيفـــة	**ســـحابة مـــن فوقهـــا كثيفـــة**
تكشــف كــل موضــع خفــي	**وكـــامن في ســـتره حفـــي**
ثـــم تـــنم عنـــه في الأبـــواق	**بصـــيحة بغـــير مـــا فـــواق**

(**كم**) اسم ناقص مبني علىٰ السُّكون، أو مُؤلفة مِن كاف التشبيه وما، ثم قصرت وسكنت، وهي هنا خبرية، والمراد هنا بـ (**الثغر**): **الثغر الوهراني**، و(**الأشراك**) بالفتح جمع شَرَك وهي حبائل الصيد وما يُنصب للطير، استعرناها هنا للمكائد والحيل التي صدرت منه في طلب العدو، والإِشراك بالكسر مصدر أَشْرَك بالله، إذا ادَّعَىٰ معه شريكا في الألوهية، ويُطلق الشِّرك علىٰ مطلق الكفر تغليبا، و(**وهران**) هذه المدينة التي رتعت فيها سوائم الكفر، وسرحت ولعبت فيها جوامعه، ومرحت وباض فيها بارحه وفرخ، ونعق الشيطان في خلالها وصرخ، حتىٰ قرَّت بها عين الضلال، ونامت منها الكفرة في أوراق الظلال، فما مدت لها يد الإسلام إلا شلَّت، ولا أقدمت عليها جنوده

إلا ولَّت، فما هي إلَّا أفعىٰ بين أحجار، أو نار مضرمة في وجار، كم قعقعت بها رعود المدافع ففتت الأكباد، وتطايرت منها صواعق المحاريق ففرقت الأجناد، وتناثرت عليها عقود البنادق انتشار البرد بحيث لا تحصىٰ، فهي علىٰ أديم أرضها وفي خلال ترابها مثل الحصىٰ، قد حماها البحر من شمالها، وأحاطت حصونها بيمينها وشمالها، وأحاطت بها الخنادق، إحاطة المناطق، ودارت بها الأسوار، دوران السوار، فمالها عورة تنال منها فائدة، سوىٰ ما لازمها من جبل المائدة، فإنه مطل عليها يهتك حريمها ويُمَكن منها غريمها لولا ما التصق به من برج مرجاج الذي لازمه ملازمة الغريم، والبرم لمنزل الكريم، وهو كما قال القاضي الفاضل في مثله هامة، عليها من الغمام عمامة، وأنملة خضبها الأصيل فكان الهلال منها قلامة، وما زال الكفار يُحصنونها في كل حال، حتىٰ صار فتحها من قضايا المحال، وهذه المدينة ذكر **ابن خلكان** أنَّها بفتح الواو وسكون الهاء وفتح الراء، وبعد الألف نون قال وهي مدينة كبيرة علىٰ أرض المغرب خرج منها جماعة من العلماء رحمهم الله تعالىٰ اهـ، وقال **الصفدي**: «هي مدينة كبيرة بينها وبين **تلمسان** يومان بنيت سنة تسعين ومائتين » اهـ.

ونحن أدرىٰ بها وأغنىٰ فيها عن النقل فإنَّ أهل مكة أدرىٰ بشعابها، وبينها وبين بلد نشأتنا (**المعسكر**) يوم للفارس المُجِد ويومان للراجل، وبينها وبين (**الجزائر**) الثمانية أيام للقافلة.

وفي (**شرح الحلفاوية**) أنَّ ملوك مغراوة بنوها وامتدَّت بها العمارة الإسلامية إلىٰ سنة خمس عشرة أو أربع عشرة وتسعمائة، فاستولىٰ عليها النصارىٰ الإسبانيون من يد **بني عبد الواد** في مُدَّة قلموس منهم، وهو من مُتأخري ملوكهم، انظر بقية كلامه.

وفي **ابن خلدون** أنَّ «**محمَّد بن عون** و**محمَّد بن عبدون** من رجال الدولة الأموية نزلوا وهران وداخلوا أكابر بني مسكين فملكوها سبع سنين مقيمين فيها للدعوة

الأموية، ولما ظهرت الدعوة الشيعية وملك **عبيد الله المهدي تاهرت** وولَّىٰ عليها **دواس بن صولات الكتامي** أَوْعَزَ إلىٰ البربر بحصار **(وهران)**، فرجعوا سنة سبع وتسعين ومائتين وداخلوا بني مسكين في ذلك فأجابوهم، وفَرَّ **محمَّد بن عون** إلىٰ **دواس** واستُبيحت **(وهران)** وأُضرمت نارا، ثمَّ أعاد بناءها **دواس**، وأعاد **محمَّد بن عون** إلىٰ ولايتها فعادت أحسن مما كانت، وأمراء تلمسان لذلك العهد **بنو أحمد بن محمَّد بن سليمان** أخي **إدريس الأكبر**» انتهىٰ.

وكان بها في القديم مرافق العبادات للعباد، والزَّوايا المعدَّة لأهل الإخلاص من العُبَّاد، وبظاهرها رباط علىٰ ربوة تسمىٰ: **صلب الفتح**، وسبب تسميتها بذلك أنَّ **تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني** سيَّره أبوه في جيش ليكون قبالة **عبد المؤمن بن علي** فمات أبوه في مغيبه، وظهر أمر **عبد المؤمن** وتيقَّن تاشفين زوال دولتهم فأتىٰ **(وهران)** ليجعلها مقرَّه، فإن غُلِبَ ركب البحر إلىٰ **الأندلس**، وكانت هذه الربوة تُسمىٰ: **صلب الكلب**، وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبِّدون.

فلما كانت ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة صعد تاشفين إلىٰ ذلك الرباط ليحضر الختم في يسير من خواصِّه، وكان عبد المؤمن قد أرسل عسكرا إلىٰ **(وهران)** فوصلوا في سادس عشر رمضان ذلك فأعلموا بانفراد تاشفين فأحاطوا به، وأحرقوا باب الرباط فخرج تاشفين راكبا فرسه وشدَّ ركضا ليثب النار فترامىٰ به الفرس هاربا، ولم يمكنه اللجام حتىٰ تردَّىٰ من جرف فهلك وقُتل خواصه ولا علم لعسكره بذلك، وجاء الخبر إلىٰ عبد المؤمن فوصل إلىٰ (وهران)، وسمَّىٰ الموضع **صلب الفتح**، ثم توجه إلىٰ **(تلمسان)** وكان بها الجمُّ الغفير من العلماء الأكابر، ورُقاة الأسِرَّة والمنابر، ورعاة الأقلام برياض الطروس وعيون المحابر، قال **ابن صعد** المتكلِّم في مناقب وليها الشهير، وإمامها الذي نادىٰ بفضله أسمع جهير، الملحوظ

خادمه بعناية الباري **سيدي محمد الهواري** (نفعنا الله به، وجعلنا مِن المتعلِّقين بسببه): «قلت: وكانت (**وهران**) في القديم دار علم، خرج منها جماعة من العلماء، ففي (**تاريخ ابن خلكان**) في المحمَّدين: **أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني**، الملقَّب ركن الدين، قدم الديار المصرية أيام السلطان **صلاح الدين بن أيوب**، فولي الخطابة بظاهر دمشق زمانا طويلا، وتنقَّل في البلاد كثيرا ومات (رحمه الله) سنة سبع وخمسين وخمسمائة إلى أن قال: وفي كتاب عنوان الدِّراية المؤلف في علماء بجاية: «ومنهم الشيخ الفقيه العابد الصالح المبارك، المتعفف أبو تميم الواعظ من أهل (**وهران**) سكن (**بجاية**) واشتغل بها بعلم التذكير واستدعاء الخلق إلى باب الله تعالى وكان له مجلس يروق الناظرين ويسر الحاضرين (رحمه الله ورضي عنه) » اهـ.

وذكر قبل هذا من علمائها الشيخ **أبا القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله الوهراني**، وقال: «عرف به **ابن بشكوال** في كتابه المؤلَّف في رجال الأندلس، فقال: عبد الرحمٰن بن عبد الله بن خالد الهمداني الوهراني، ويُعرف بابن الخراز، ويُكَنَّى أبا القاسم، وكان رجلا صالحا منقبضا عن الناس» اهـ.

وحدَّث عنه أنَّه قال: «كنت مرَّة في **بغداد** وقد انصرفت من مجلس سماع الحديث ومحبرتي معلَّقة في يدي، فاستقبلَتني عجوز فأنكَرت رَثَّ هيئتي، وقالت لي: بالله ! من أين أنت ؟ فقلتُ لها: مِن المغرب، فقالت: إنَّ هذا لعجبٌ، فما الذي أقدمك هنا ؟ قلت: طلب العلم، فقالت: لم يقدمك غير هذا ؟ قلت: نعم، فأخرجت من كمِّها رداء لها ومدته بأرض، وقالت لي، سألتك بالله إلا مشيت عليه مقبلا ومدبرا، ففعلت، وقلت: ما غرضك في هذا ؟! قالت: ليكون هذا الرِّداء كفني بما فيه من غبار قدميك، إذ قد جئت مِن أقصى المغرب إلى المشرق تطلب العلم، فأنت من أهل الجنة؛ لأنَّه قد رُوي

عن النبي ﷺ أنه قال: مَن اغبرَّت قدَماه في سبيل الله وجَبت له الجنة » اهـ.

وعلماء (**وهران**) أكثر من أن يأتي عليهم العدُّ أو يشملهم الحدُّ ولو لم يكن فيهم إلَّا السيِّد **محمد الهواري**، وتلميذه السيد **إبراهيم التازي** لكان فيهما أكبر الكفاية إذ كل منهما كان في جوها آية، أمَّا السيد **محمَّد** (رحمه الله ورضي عنه) فعسى أن نذكره بمحلٍّ غير هذا أليق به، وأمَّا السيِّد **إبراهيم** فهو من قبيلة بني لنت بعض البربر الكائنين بتازا، وبتازا ولد ونشأ فشُهر بها، وقد نشأ (رضي الله عنه) على قدم الصدق ثم ارتحل للحج فنشر الله له القبول في الأرض، وقام له الأولياء على ساق في جميع البلاد، والتقى في سفره ذلك بجماعة منهم وأخذ عنهم علوما جمة ظاهرة وباطنة، ولما رجع من الحجاز تذكر عهود الحمى وحن إلى الحبيب وهزَّه الشوق، فقال قصيدة أولها:

أرى العمر يفنى والزمان طويل ... وليس إلى قرب الحبيب سبيل

حباه إله الخلق أحسن سيرة ... فما الصبر عن ذاك الجمال جميل

متى يشتفي قلبي بلثم ترابه ... ويسمح دهر بالوصال بخيل

ثُمَّ قدم (رضي الله عنه) **تونس** فأجازه علماؤها، ثم ورد (**تلمسان**) فأخذ عن **ابن مرزوق** وأجازه، ثم أتى (**وهران**) لزيارة سيدي محمَّد الهواري، ونيته الرجوع إلى الحرمين الشريفين برسم المجاورة فمنعه سيدي **محمَّد** من مُفارقته لعلمه أنَّه وارث سِرِّه، وكان يتحفَّى به غاية التحفي، ويحضُّ أصحابه على اتباعه وتوقيره، وأفاده أسرارا جمة إلى أن مات الشيخ فورثه وصار هو الرأس بعده، وكان يُحب الأشراف، ويتحمل غلظتهم، ويصبر لجفوتهم وله في جميع هذه الأوصاف أخبار مأثورة، وأسرار مشهورة، وبه تمت محاسن وهران في زمانه، وكثرت العمارة بها حتَّى حن إليها الغريب عن أوطانه.

قال **ابن صعد** فيه: إنه أقام سوق الأذكار بوهران، وأبان لها معالم الإسلام

والإيمان، ورتَّب المواسم الشرعية، ونبه على الآداب الدينية والدنيوية، ونقل أهلها من التبدِّي إلى الحضارة، فاستقامت فيها وعظُمت العمارة، وارتحل إليها كثير من أهل **(الجزائر)** واغتبطوا بركة سكناها، واعترفوا بفضلها على من سواها، وصرف الزوار أعنة الرفاق إلى مثواها، وقصده الواردون من جميع الآفاق، وحصل على فضله ووِلايته الاتفاق، ومن أعظم الدلائل على وِلايته الباهرة، وكراماته الظاهرة، ما أجراه الحقُّ سبحانه على يديه من بناء الزاوية النبيهية المتعددة الأبواب، والمساجد الأنيقة العالية والمرافق المُعَدَّة للزوار، وأبناء السبيل بمسجد زاويته نهاية في الفخامة والاحتفال ومدارسها المشتملة على الميضات الأنيقة الدارة، والحمام الذي ما شوهد مثله في البلاد، والخزائن المملوءة بالكتب العلمية، والآلات الجهادية والسطح المظلل بالياسمين العنبري الرائحة لا نظير له ولا مثال.

وأمَّا الماء الذي أدخله لوهران، فهو من غُرر الدَّهر، وحسنات الزمان، فأعظِم به صدقة جارية مثلها يعد للمعاد، وآية من آيات ولايته إلى يوم التناد، وقد رامه قديما من نزل **(وهران)** من الملوك، وأهل جباية الأموال فلم يهتدوا إليه، وأعوزهم سبيله وأخِّر ذلك إلى زمانه، لتثقل به كفة ميزانه، وكيفية وصوله مما يحار فيه أهل النظر والاعتبار، ويضيق عن غاية إبداعه ذوو الأيدي والأبصار.

آثـــاره تنبيـــك عـــن أخبـــاره   حتـــى كأنـــك بالعيـــان تـــراه

قال: «حدثني المشيخة من أهل (وهران)، أنَّه لما أدخله البلد سُرَّ به أهلها أشد السرور، لأنَّهم كانوا في مشقة عظيمة من قِلة الماء، ومكابدة السقيا من العيون من الصباح إلى المساء، فوقاهم المشاق الصعبة، وسقاهم الماء الذي جعله الله حياة كل ذي كبد» انتهى.

قلت: ومن تأمَّل هذا الكلام علم أنَّه أتى بهذا الماء من مكان بعيد، خلافا لما يعتقده الناس من أن أصله بين أبراج البلد، وربما أرشد إلى ما قلناه قول سيدي **الحسن بن مخلوف**، وقد ذُكر عنده الماء المذكور بحضرة بعض حفدة سيدي **محمد الهواري**: «لو شاء جر هذا لأتى به من تاسالة » اهـ.

فهذا الكلام يُومئ إلى بُعد مقرِّ هذا الماء عن البلد، وقد عينه سيد الزعيم مزعران حيث قال من الملحون:

غاست الاشراف واين هو زيان   وابراهيم الظريف التازي يذكر
كانت دار القرار له وهران   جمع راس العيون من يفري للحر

وبالجملة فقد كان سيدي إبراهيم بوهران كمالا، ولأهلها جمالا، كم بنى بها من مباني رائعة، وزوايا رائعة، ومتى بنى شيئا أشهد بوقفيته لله تعالى ولم يترك لولده منه ولا قلامة ظفر، ولما بنى زاويته الكريمة بنى بها غرفة عالية مشيدة، عينها للواردين وهران من آل البيت خاصة، فكانت تعرف بغرفة الأشراف، إلى أن استولى عليها العدو، وإذا عزم على بناء شيء أو إسداء معروف استدان دَينا كثيرا يعسر على الملوك قضاؤه، فلا تمر عليه إلا مدَّة يسيرة حتى يقضيه الله عنه جميعا، وكان ربما أنشد إن ليمَ على الكرم قول الزاهد أبي العباس ابن العريف:

تعاتبني في الجود والجود شيمتي   ومالي بتبديل الطباع زعيم
ولم أر مثل الجود أما حديثه   فحلوٌ وأما حبه فقديم
ولا خير فيمن لا يعاش بعيشه   ولو أنَّه فوق السماء مقيم
ذريني فإنَّ البخل عار بأهله   وما ضرَّ مثلي أن يقال عديم
أرى كل طلق كل خلق حميمه   وليس لمقبوض اليدَين حميم

وكيف يخاف الفقر أو يحرم الغنىٰ   كـــريم ورب العـــالمين كـــريم

ومناقبه وعلومه أجلُّ من أن يحصيها ديوان، وفي الإشارة ما يُغني عن الإطالة بالعبارة، وقد كان يُقرئ **مختصر الشيخ خليل** بغير مطالعة شرح، قبل أن تكثر عليه الشروح وكفىٰ بهذا علما.

مات (رحمه الله) يوم الأحد تاسع شعبان سنة ست وستين وثمانمائة بـ (**وهران**) والناس يعتقدون أنَّه مدفون بالقلعة[1]، ويحكُون في ذلك حكاية شهيرة الله أعلم بصحتها، وسيأتي في أخبار سيدي محمَّد الهواري ذِكر الأسباب التي استوجب بها أهل وهران في القديم أن أخذت البلاد من أيديهم من انتهاكهم لحرمات الله، وتعدِّيهم علىٰ أوليائه (رضي الله عنهم ونفعنا بهم)، آمين.

قلت: ولم تزل بأيدي الكفرة وملوك الإسلام يطرُقُونها مرَّة بعد مرَّة، وأولياء الله وعلماء ملته يدعون الناس إليها ويغزونها بأنفسهم فلا يزيلون شجاها من حلقها ولا يوفونها منتهىٰ حقِّها، فقد غزاها الأمير **إبراهيم خوجة** ورماها من جبل المائدة فلم تَدُر بين يديه من الفتح مائدة، وغزاها **مولاي إسماعيل** ملك المغرب فكان فتحها عليه أغرب من عنقاء مغرب، فلم يزد علىٰ أن قال هذه حيَّة تحت صخرة، وانقلب قاصرا وكره، ثم سلط عليهم السيد شعبان فأظهر فيها من نجدته ما سارت به الركبان، وشاع له به أكبر صوت، وكاد أن يزيل الغصبة لولا أنَّ الله عاجله بالموت، إلىٰ أن افتكتها الجنود العثمانية بأمر الملك الأعظم والطَّود الأفخم السيد **محمَّد باكداش** المتقدِّم ذكره

(1) قيل: إنه دفن بوهران، وبعد احتلال الإسبان نقله تلامذته خفية إلىٰ القلعة ودفن بها بعد ما بقي في وهران خمسين سنة. **الناشر**.

علىٰ يد وزيره السيد أوزن حسن وأميره السيد **مصطفى بيك** المشهور **بأبي الشلاغم**، وقد نزلوا عليها أول يوم ربيع النبوي علىٰ من ولد فيه أفضل الصَّلاة والسَّلام سنة تسع عشرة ومائة وألف، وفرغوا منها يوم الجمعة السادس من شوال، ومن مرساها في الثالث عشر من المحرم سنة عشرين ومائة وألف.

ثم ارتجعها الكفرة من يد أميره مصطفىٰ المذكور دون مُلاقاة كثير عناء، فاحتاج سلطان الجزائر إلىٰ إعادة الحصار والتسمير لها دون اقتصار، فأنزل بها محلاته والكفر مُتشبث بمحلاته، والشيطان يحاربه في مجالاته، فوقعت بينهم حروب كادت أن تنجلي بها الكروب لما أبدىٰ المسلمون عن نجدتهم، وأظهروا من شدتهم حتَّىٰ عزم الكفرة علىٰ الهروب، غير أنَّ القدر غلَّب علىٰ الصفو الكدر، أخبرني مَن أثق به عن عمِّنا السيد **محمَد بن سحنون** (رحمه الله)، وكان ممن حضر تلك الأيام، وأبلىٰ البلاء الحسن، حتَّىٰ إنَّه كان يقول: إني قتلت في حملة واحدة جماعة كثيرة من النصارىٰ، فيُقال له كيف ذلك ؟ فيقول: حملنا ونحن طائفة قليلة علىٰ فئة كثيرة منهم فرموا بأنفسهم من شاهق فمات منهم ما لو قسمناهم لنابني نحو الثلاثين، إنَّه قال: ضيقنا علىٰ الكفرة في بعض أبراجهم حتىٰ صرَّحوا لنا بالطاعة وانصرفنا، وقد وعدونا بفتح الباب صباحا، فبتنا والبرج علىٰ أيدينا لا نشك فيه، فلم يرُعنا إلا ورُسل الأمير تأمرنا بالافتراق فلم يكن لنا بُدٌّ من الطاعة كادت القلوب تذوب أسفا» انتهىٰ.

وكان السبب في ذلك أنَّ ابن السلطان الذي بعثه أبوه من الجزائر علىٰ الجند لافتكاك البلد، وقعت بينه وبين الأمير وحشةٌ بسبب أن بعض المجاهدين من أسود الأتراك قتل في المعركة كافرين أتىٰ برأسيهما، وأسر ثالثا وأتىٰ به يسوقه، فلما توسَّط المحلة الإسلامية تركه يسير خلفه، فأخرج الكافر كابوسا صغيرا فقتله به وهرب،

فأخذ وأُتي به ابن السلطان، فلما أراد قتله طلب منه أن يستحييه بمال كثير، فأمر بتخلية سبيله وأدخله قبته، فقام العسكر كله وقالوا: اقتله أو نفعل ونفعل، فسمع الأمير بذلك ـ وكان نازلا بجهة الجبل ـ فأقبل راكبا حتىٰ قتل الغلام بيده، وسكَّن الفتنة، وعاتب ابن السلطان علىٰ ما صدر منه، فقال له ابن السلطان: أنت دفعت البلد للنصارىٰ، فقال إن كنت أنا أعطيتها إياهم فخذها أنت، وبعث إلىٰ المحاصرين ليلا بالافتراق، فابتلع الكفرة ريقهم، وقد كان عزمه أن يخفف عنهم إلىٰ [أن] يرتحل ابن السلطان فيعيد عليهم الشدة فيأخذها لئلا يشيع أن ابن السلطان أخذها.

فلما ارتحل ابن الملك تقوىٰ الكفرة، وصعبت البلد ولله الأمر من قبل ومن بعد، وفي زوايا الغيب خفايا، لا تدركها الأبصار، ولا تخرقها أفهام البصائر، ومن تأمَّل ذلك علم أن الله ادخر فخرها وأجرها لهذا الأمير الميمون النقيبة، المبارك الناصية علىٰ الإسلام، أدام الله الإمرة في أعقابه علىٰ مرور الدهر واتصال الأحقاب، وستدوم هذه البلاد بدوام سعده للإسلام، فإنَّه ابتدأ أمره بالرفق وتكثير المرافق، والعمارات العامة، وتقديم مصالح الناس بها علىٰ مصالح نفسه، وغير ذلك مما يقتضيه الشرع، ولا ينفر منه الطبع، **وأبو الشلاغم** (عفا الله عنه) كان قد استفتح أمره فيها بالعسف والقتل الكثير علىٰ الأمر الحقير، وغير ذلك مما حرص به علىٰ عمارتها فاستوجب أن أُخذت من يده، ثم ختم أمره فيها بأن تركها بعد الإشراف علىٰ فتحها حسدا [كذ]، فإنا لله وإنا اليه راجعون.

وكان اليوم الذي قدمنا ذكره بعد اليوم المشهور بيوم الحمري الذي كان السبب فيه أنَّ النصارىٰ الذين بمرجاج لما اشتد خناقهم، وضاق بالحصار نطاقهم، كلموا صاحب المدينة بالبوق يقولون له أغثنا وإلَّا أسلمنا الحصن، فأجابهم بأنَّهم يغيثونهم إذا أصبح

الصبح بالميرة والآلة والجند، ففهم بعض المسلمين خطابهم، وأعلم الأمير بذلك فأرصد لهم بالطريق كمينا فلم يتبيَّن الصبح إلَّا وهم خارجون، فلما كانوا بالموضع المسمَّىٰ **بالحمري** خرج عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا، وأسروا منهم ما شاؤوا ونفلهم الله جميع ما خرجوا به فحينئذ مَدَّ مرجاج يد الانقياد والاستسلام، وكاد أن يفتح لولا أنَّ القدر حال بينه وبين الإسلام.

ومن أكبر تلك الأيام أيضًا اليوم المشهور **بيوم الهائج** فإنَّ النصارىٰ خرجوا فيه علىٰ المسلمين حتىٰ هزموهم واستولوا علىٰ مدافعهم، ثم إنَّ بعض الأتراك من المنهزمين كَرَّ علىٰ العدو كرَّة الأسد وهو حاسر عن ذراعه الأسد وكان دميما قصيرا، فجعل الله منه للإسلام نصيرا فكرَّ معه جميع الجند، وحملوا علىٰ العدو حملة صادقة لم يتقها الكفار إلَّا بالفرار، والالتجاء إلىٰ المعاقل والأسوار، وكان **بنو عامر** منحرفين عن الفئتين، وهم الذين دلوا الكفار بحبال الاغترار، إذ لم يخرجوا حتَّىٰ وعدوهم بالنُّصرة وبايعوهم علىٰ الموت دونهم وعدم الفرار، فلما افترست أسود الترك من الكفرة أخبث الفرايس، وجهزوا من أعمارهم إلىٰ النار أحسن العرائس، حركهم عرق الإسلام إلىٰ إعانة أولئك الأعلام، والولوج معهم في مضائق الزِّحام، فحملوا معهم إلىٰ أن أفنوا عدد الكفرة الجزيل، ولم يفلت منهم إلَّا القليل، ومن ذلك تحالف الكفرة علىٰ عدم الخروج إلىٰ الأمراء إلىٰ القتال أبدا، واتخذوا ذلك دينا وعهدا لا يخالفونه سرمدا.

و(**المرابطون**) جمع مُرابط، وهم من يلزم الثَّغر مدَّة لحراسة المسلمين، وذلك من المطالب الشرعية التي عيَّن الملك الوهاب للقائم بها أكبر الأجر والثواب، ترغيبا فيها وحضًّا عليها، قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: 200)، وقال رسول الله ﷺ: «رباط يوم في سبيل

الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها».

وفي بعض الآثار: «مَن رابط فُواق ناقة حرَّمه الله على النار»، وقال ﷺ: «لَرباط يوم في سبيل الله محتسبا مِن غير شهر رمضان أعظم أجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها، ورباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسبا من شهر رمضان أفضل عند الله وأعظم أجرا من عبادة ألفي سنة صيامها وقيامها، فإن ردَّه الله إلى أهله سالما لم يكتب عليه شيء ألف سنة، وتكتب له الحسنات ويجري له أجر الرباط يوم القيامة » رواه ابن ماجه، وقال ﷺ: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان» رواه مسلم، زاد الطبراني: «وبعث يوم القيامة شهيدا».

وقال ﷺ: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يُنمَّى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر» رواه أبو داوود والترمذي.

وكل موضع طرقه العدو ولو مرَّة في العمر فهو ثغرٌ يصح فيه الرِّباط، و(**يحظى**) من الحظوة بالضم والكسر، وهي الحظ من الرزق، أي: لن ينال حظا من الظفر ولن يرزقه.

و(**الظفر**) هو الفوز بالمطلوب، و(**الوجار**) جحر الضبع، و(**الرقشاء**) من الحيات ما كانت منقطة بالسَّوَاد، وذلك دليل على شدة إذايتها، ويُقال للحية رقاش كسحاب، و(**الغزاة**) جمع غاز، والمراد بصواعق الضرر قدور البونبات التي هي أشدُّ من الصواعق الرعدية، وأشار بقوله: «**مثل الجحيم ... الخ**»، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٍ

﴿كَٱلۡقَصۡرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ (المرسلات: 32 ـ 33)، وليس القصد الإتيان بلفظ القرآن أو معناه حتَّىٰ يلزم عليه تحريف القرآن وهو حرام، وإنَّما المراد تشبيه تلك القدور بذلك الشَّرر الذي وصفه الله بالكبر والخروج عن العادة، ولم يتأت له ذلك إلا بتشبيهها هي بالجحيم الموصوف شرره بما ذكر، ولا شك أنَّ المشبه بالشيء لا يقوىٰ قوته، فهو من باب التلميح لا من باب الاقتباس، علىٰ أنَّ الاقتباس أيضا جائز، وهو أن يأتي الشاعر بكلام يشبه لفظ القرآن من غير أن يقصد أنَّه قرآن.

و(**الأبراج**) جمع برج يُطلق علىٰ الركن والحصن والمرادُ الثاني، و(**الهضاب**) جمع هضبة تُطلق علىٰ الجبل المنبسط علىٰ الأرض، أو جبل خلق من حجارة واحدة، أو الطويل الممتنع المنفرد، والجميع يصح إرادته هنا، و(**الشرى**) طريق يؤدِّىٰ في سلمىٰ كثيرة الأسد، وجبل بتهامة كثيرتها أيضا، و(**غضاب**) جمع غاضب، وهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: وهي غضاب؛ لأنَّه لا يصح أن يكون صفة لأسد الشرىٰ لأنَّ المعرفة لا تُوصف بالنكرة فتعين أنَّه حال، والحال واجب النصب، فيجعل جملة، و(**الخندق**) حفير يجعل وراء الشيء يمنعه ما يخاف عليه منه، وكانت العرب لا تعرفه حتَّىٰ جعله النبي ﷺ علىٰ المدينة في غزوة الأحزاب بإشارة سلمان الفارسي به، فلما وقفت عليه قريش قالت إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تعرفها، و(**النطاق**) الحزام، و(**السوار**) معروف، و(**الأسوار**) بالضم والكسر الجيد الرمي بالسهام، ويُطلق علىٰ قائد الفرس وليس بمراد هنا، و(**القلعة**) الحصن الممتنع علىٰ الجبل، والمراد به هنا (برج مرجاج)، و(**المنيفة**) من أناف، وناف علىٰ الشيء إذا أشرف، و(**الحفي**) هو المبالغ في إكرام غيره، ولا يصح هنا إلَّا علىٰ ضرب من التجوُّز بأن يُراد به المبالغ لا بقيد كونه في الإكرام أي: مبالغ في ستر نفسه، أو يجعل من تحفىٰ بكذا إذا اهتبل به واجتهد، غير أنَّ اسم الفاعل

منه متحف، ففيه لحن أباحت إليه الضرورة وقصد جناس التصحيف.

و(**الأبواق**) جمع بوق، وهو جعبة من نحاس عريضة الأسفل يتكلمون فيها فيُسمع كلامهم على بعد، و(**الفواق**) ما بين فتح يديك وقبضها على الضرع، وفي الكلام حذف، أي من غير توقف قدر فواق، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ (ص: 15)، أي: مالها توقف قدر فواق، ومُرادنا أنَّها لا تتوقف قدر ما ذكر حتى تبلغهم الخبر تنقطع.

وفي الكلام تلميح إلى تشبيه هذه الصيحة بصيحة النفخ في الصور لما فيها من الشدة وإزعاجهم من مجالسهم وبيوتهم فيخرجون للقاء المسلمين وقتالهم.

والمعنى: أنَّ الأمير (أبَّد الله رفعته وخلَّد منعته) لم يزل منذ ولي يتحيل على الظفر بالكفرة، وينصب لهم المكائد والخدع الشبيهة بالأشراك التي تنصب للكثير ليقبض، فتارة يوجه لهم المهرة بالسباحة في البحر فيبيِّتون من قدروا عليه منهم في بيوتهم ويأتونه برؤوسهم، وتارة يرصد لهم الكمين قرب أسوارهم حتى يظفروا بهم، وتارة تحمل عليهم طلائع جنوده فيتخطفونهم تخطف الصقور للبغاث، وتارة يتخطفونهم من مسارحهم ومحتطبهم ومزارعهم ومواضع اصطيادهم بَرًّا وبحرا ومحارسهم إلى غير ذلك.

وبعث مرَّة قوما إلى الجهاد ودفع لهم ثيابا من أثواب النصارى القادمين إلينا، وأمرهم أن يكمنوا قُرب البلد ويلبس بعضهم تلك الأثواب، ويظهر للنصارى على هيئة نصارى هاربين من بلدهم إلينا ففعلوا ذلك، فلما رأوهم لم يشكوا أنهم منهم فخرجوا في إثرهم، وخرج عليهم الكمين فقتلوا منهم جماعة وأسروا بعضهم.

سمع مرَّة ببعض فُسَّاق المسلمين فرَّ بامرأة إليهم فأسكنوه خارج البلد تحت السُّور في بعض المغارات هناك فبعث له أربعة من المسلمين، ومعهم فرس كأنَّهم يريدون بيعها فلما قربوا من البرج قال اثنان منهم للآخرين اكفونا الفرس، ونحن نكفيكم الرجل فسألهم الحرس من هم، فقالوا: متسوقون لبيع الفرس فسددوا نحوهم سِهامهم وبقوا يحدثونهم بحيث لو انثنىٰ أحد لقتلوه، فذهب الاثنان إلىٰ الرجل فقالا: إنَّا أتينا بثياب كثيرة نبيعها فهل لك أن تخرج معنا إلىٰ الإتيان بها، وتعيننا علىٰ بيعها ولك في أثمانها شرك، فقالت له المرأة: لا تذهب فإنهم قاتلوك لا محالة، فأبىٰ وذهب معهم حتىٰ بعدوا عن العسس فقتلوه واحتزوا رأسه، ولما أحس صاحباهما بذلك قالا للعسس: هل من حبل نربط به الفرس، فقالوا: لا، فنخس أحدهما الفرس فندت من أيديهما فذهب في إثرها حتىٰ بعدا فأخذاها، وأتوا الأمير برأس القتيل فأثابهم بعطائه الجم الغزير.

ومثل ذلك من مكايده التي كان ينصبها في ذلك الثغر كثير، ثم ظهر له أيده الله فقرر فيه المرابطين للتضييق علىٰ الكفرة، واختطاف من برز منهم حتىٰ لا يكون لهم إلَّا ما قرب من السُّور مع مضايقة فيه، فنادىٰ في رعيته من ارتحل إليه سقطت عنه المطالب المخزنية، وبقي محترما موقرا فاجتمعت فيه أمة من الناس من كلِّ ناحية بأموالهم وأولادهم، فنزلوا فيها بين **سيدي معروف** و**البريدية** إلىٰ **عين تانسالمت،** فقام لهم بكفايتهم من العدة والخيل وغيرهما، وأباح لهم الحرث في تلك الجهة فكانوا يحرثون إلىٰ قرب البلد **الوهرانية،** وجعل عليهم قُوَّادا يقومون بأمرهم، وكان يبعث لهم في كل شتاء وصيف ما يعمهم به من وافر سببه مما كانت الأمراء قبله لا تسمح بعُشره مرة في العمر فضلا عن مرتين في السنة، ويُوجه لهم مع ذلك من يقسمه بينهم من خواص العلماء.

ولقد ذهبت مرَّة لقسمه عليهم فقلت لهم بعد أخذ كل واحد حظه وفرحه لما نابه:

إخواني أكثروا من الدُّعاء لهذا الأمير الكريم الذي أحلَّكم أعلىٰ منازل التكريم، وحاط حومتكم عن كل غريم فإنَّ العرب بأسرها ما كانت تطمع من الأمراء قبله في بعض ما نلتم، ولا تنال إلَّا الدرهم والدرهمين علىٰ وجه المذلة والسؤال، وما يستفيدونه من ظلم إخوانهم إذا ولوا عليهم علىٰ أنَّه لو ادخر بعض ما يعطيهم لأخص أولاده لأغناه به فهو يُؤثركم علىٰ أولاده، بطارفه وتِلاده، فأقروا عينه بمزاحمة العدو في بلاده وجدوا كل الجد في قتاله وجلاده، حتىٰ ينجح سعيه وتتم آرابه، ويكثر بكثرة جهادكم ثوابه، فإنَّ أعمالكم من جملة أعماله، وتغلبكم علىٰ العدو من أكبر آماله، جازاه ربه بذلك جنة النعيم، وأولاه في الفردوس عن إكرامه إياكم أتم التكريم، وجعله من أهل التنعيم، فرفعوا أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه لما تحققوا مقدار نِعمه عليهم، وما ساق منها إليهم، ولعمري لقد بلغوا غرضه في التضييق علىٰ الكفرة حتىٰ منعوهم من إدامة الخروج، وقصرت أيديهم عن نيل أكثر ما كانوا ينالونه من الغياض والمروج، وانقطعت غارة المغاطيس، فصاروا لا يبلغون وإن جهدوا مبلغ أصوات النواقيس، من بعد أن كانوا يغزون البلاد، ويقيمون مع المسلمين عند حللهم أسواق الجلاد، فكم لهم من غارة شهيرة، انتهبوا فيها أموالا كثيرة، تارة يفوزون بها فيبلغونها لناديهم، وتارة يعترضهم المسلمون فينتزعونها من أيديهم، ثم حسم مادتهم وقطع شأفتهم، بجمع الطلبة في الجبل، كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

وكان فِعْلُ الأمير (رضي الله عنه) لجميع ماذكر **ووهران** بلاد كفر، ليس فيها لداعي الإسلام ذكر، حصينة منيعة لا ينال منها قاصدها مطلبا، ولا يفوز منها بغرض لثقافتها وحصانتها حتىٰ لا يخطر بالأفهام، ولا يهجس في الأوهام، أنها تؤخذ بحيلة، أوتنال ولو اجتمعت ألف قبيلة، حتىٰ صار الناس يزعمون أنه لا ينالها إلا المهدي المنتظر، فإذا

وراء ستر الغيب المسدول، ما لا تدركه العقول، لم يزل الناس في سكرة يعمهون ويحكِّمون الأوهام والظنون ولا يفقهون، حتى تبين لكل تائه منهم وضال، أن الله ادخر فخر هذا البلد لهذا الأمير المفضال، وأناله منها ما لم ينله أحد بحال، لا زال ستر الله مصاحبا له في الحل والارتحال، وهذه المدينة محوطة في امتناعها كالأسد الذي طرد إلى أن دخل في وجار لا يتمكن أحد من الدخول عليه، ومتى دخل عليه أحد افترسه، أو كالحية الرقشاء المستكنة بين حجرين ما مد لها أحد يده إلا لسعته وهي محوطة بحصون شامخة راسخة كأنها الهضاب، وفيها مدافع مُعدَّة لرمي الجنود كأنها أسود غضاب، إذا زأرت شقت المرائر وفضحت السرائر، وهي خمسة حصون عظام صعبة المرام، لكل منها خندق خاص دائر به من جميع جهاته كأنه متمنطق به، وعلى شفاه الخندق خشب محددة الرؤوس دائرة، يلي كلّ حصنٍ حصنا أصغر منه بينهما فراغ لا يُخلَص إلى الأكبر حتى يتخلَّص مِن الأصغر، فأعظم تلك الحصون البرج الأحمر، وهو شرقيها مطل على البحر ممتد إلى قرب بابها وتتصل به حصون أصغر منه لا تتميز عنه، فهو في حجم مدينة قاهرة منيعة عالية الأسوار عريضة الخندق كثيرة المدافع لا يمكن فتحه إلَّا بالمواهب الربانية، وخلفه إلى المشرق حصن يسمى ببرج الفرانسيس، ويقابل الأحمر في العدوة الغربية في أثناء الجبل برج اليهودي، وبينه وبين المدينة حصون صغار أيضا وطبانات شتى، ثم البرج الجديد في قبلتها من جهة الوطا، وخلفه فيه بأقل من غلوة حصن صغير أيضا، ثم دون الجديد لجهة الجنوب برج العيون وهو [مفتاح] البلد وقفلها، وخلفه أيضا برج صغير، ويقابله لجهة الجنوب أيضا البرج المسمى بأبي بنيقة مطل على الوادي، وتحته في حلق الوادي برج العين الذي سمي الآن ببرج بنى زروال، ثم قلعة مرجاج المنصوبة على جبلها الشاهق المطل عليها من جهة الغرب يكشف لها الأسرار، ويذيع لها من البر والبحر بالأخبار، وهو أول ما يتراءى لخائضي البحر الآتين لها من جهة الشمال

من جبال هذه الناحية، وكفىٰ بذلك دليلا علىٰ ارتفاعه.

والناس يزعمون أن النصارىٰ هم الذين أنشؤوه علىٰ ذلك الجبل ويحكون أنهم لما أرادوا بناءه تحيروا في كيفية إيصال الماء إلىٰ أعلىٰ الجبل للبناء فأشار عليهم بعض المنافقين من شيوخ حميان بأن يجمع لهم القرب من أهله ويحمل كل واحد من جنودهم قربة إليه فامتثلوا أمره فحصل لهم المقصود، وهي حكاية عامية، ومن جملة حصون هذا البلد قصبتها العظيمة وطباناتها المتلاصقة المؤدي بعضها إلىٰ بعض، إلىٰ غير ذلك من الأبنية التي أتقنوا بناءها وأحكموا وضعها، وأكثرها إنما يعرف بلغة النصارىٰ لبعد العهد بينها وبين المسلمين ولاستحداث النصارىٰ دمرهم الله أكثرها بعد استيلائهم عليها من يد أبي الشلاغم فلنذكرها بلغتهم الركيكة جمعا للفائدة وإن كانت الموضوعات العربية تنبو علىٰ الأسماء العجمية، فمنها **(سان كروس)** وهو برج مرجاج يحمل ثلاثين مدفعا، و**(سان قروقري)** وهو برج اليهودي يحمل ثلاثين أيضا وتحته (لابونتا لامونا) تحمل أربعة وهي علىٰ ضفة البحر، ثم **(سانتي آقو)**، ثم **(لابريرا)** فيها مدفعان، ثم **(لاكنيانا)** حذو القصبة فيها عشرة مدافع، ثم **(سان بيزرو)** حذوها أيضا فيه أربعة، وحذوها أيضا **(سانتا ايزابيل)** فيه ستة، وحذوها أيضا **(لا ورديا دي اليونس)** فيه ستة، ثم **(كوندكت)** فيه أربعة، ثم **(لالينا)** حذو الباب فيها أربعة، ثم **(روساكسا)** عبارة عن البرج الأحمر يحمل ثلاثمائة مدفع، ثم **(سانتا تريسا)** من جهة البحر فيها اثني عشر، وحذوها **(سانتنانا)** فيها تسعة، ثمَّ **(بال وارتى)** بباء أعجمية وسط المدينة فيه عشرون مدفعا، ويحمل ثلاثين، ثمَّ **(سان نيكولاس)** فوق باب **تلمسان** فيه ستة، ثمَّ **(سان خوسيف)** فوق الرحىٰ فيه ثلاثة، ثمَّ **(سانتا باريرا)** فيها أربعة، ثمَّ **(سان مقيل)** وهو برج الفرانسيس يحمل اثني عشر، ثمَّ **(سان اندريس)** وهو البرج

الجديد يحمل مائة، وحذوه (**طبانه**) تحمل ثلاثة، وبينه وبين **برج العيون** أخرىٰ تسمَّىٰ: (**لاباتاريا نويفا**)، تحمل ستة عشر، وخلفه (**سان كارلو**) يحمل سبعة، ثمَّ (**سان فرناندو**) وهو **أبو بنيقة**، فيه ستة، وتحته (**طورى**) يحمل ثلاثة، ثمَّ فيها (**طورى قوردوا**) يحمل خمسة عشر، و(**برج المرسى**) يحمل ثلاثمائة، وهناك بقية مواضع لم أحفَظ أسماءها.

وأمَّا المواضع التي وضعت لمجرد الرمي بالرصاص فلا يمكن إحصاؤها، وما من موضع من هذه المواضع إلا وفيه نفق يؤدي إلىٰ غيره فمن كان فيها وأراد أن يذهب تحت الأرض إلىٰ أي موضع منها أو مِن المدينة ذهب، وبذلك ازدادت هذه المدينة تحصينا علىٰ ما كانت عليه في زمن **أبي الشلاغم** فإنها كانت في زمانه صماء إذا حصر البرج منها لم يمكن غيره أن يغيثه ولا أن يمده بزاد ولا رجال، بل إذا أخذ الحصار بمخنقه مَدَّ يد الانقياد، ولا كذلك الآن.

وبالجملة: فإن هذا البلد وضع في بطن واد آت من الجنوب إلىٰ الشمال عند منتهاه حتىٰ إنَّ بعض حيطان دور أسفلها ربما أصابها البحر عند هيجانه، إذ ليس بينها وبينه إلا زقاق، وأبراجها عن يمينها وشمالها ثلاثة كبار من جهة الشرق واثنان من جهة الغرب أحدهما أعلىٰ من الآخر، وفي أثناء الوادي فوق البحائر المغروسة قبل المدينة برج صغير يمنع من اقتحامه، وفوقه علىٰ شفة الوطىٰ المطل عليه برج أبىٰ بنيقة، وما سوىٰ ذلك متخلل بين الأبراج وخلفها، وما من موضع يمكن أن تنال منه فرصة إلا وفيه برج صغير أو طبانة أو غير ذلك، وقد دارت بها وبأبراجها وأسوارها الخنادق من كل جهة كأنها نطاق ومن دونها فيما بينها وبين الدور السور يمنعها أيضا حتىٰ لا يطيق أحد التوصل إليها أيضا، وهو دائر بها كدوران السوار بالمعصم، وأكثر طباناتها فوقها المدافع والمهارس، فكم من رام مصيب رد من دونها، ومن أسد مقدام وقف خلفها ينظر إليها

شزرا ولا يقدر على التوصل إليها ورمي منها فبقي شلوه على العفر، وكم من جبان افتضح من دونها فلم ينجه إلا المفر، ومن فوقها ـ كما قدمناه آنفا ـ قلعة مرجاج المشرقة على جميع الفجاج الموصلة إليها، والمكامن القريبة والبعيدة عنها وعلى جميع صفحات البحر فلا تفوتها من جهة البر، ولا من جهة البحر خبر، فإذا رأى ناظورها سفنا في البحر جعل لهم علامات بقدر السفن يعلمون ذلك برؤيتها، وتكشف من البر كل موضع خفي وكل كامن مبالغ في ستر نفسه، فإذا رآه بالمرائي الهندية صاح لهم في البوق صيحة عظيمة ما لها من انقطاع قدر فواق، حتى ينبئهم به وبعدده، وبالموضع الذي هو فيه، وهل الكامنون ممن يخاف منهم لكثرتهم فيحذرهم منهم أو ممن يمكنهم أخذهم فيغريهم بهم فهو على المسلمين من أضر شيء وأشده نكاية، أما برج المرسى فإنه لا دخل له في الحصون المحامية عن البلد لبعده عنها وهو على شاطئ البحر من جهة الغرب وراء جبل مرجاج بينهما نحو الثلاثة أميال لا يدافع عن المدينة ولا تدافع عنه.

وفي هذه الأبيات: الجناس المحرف بين (أشراك) و(إشراك)، و(أسوار) و(إسوار)، والمذيل ويُقال له: الناقص بين (سوار) و(أسوار)، والتصحيف بين (نطاق) و(نطاق)، و(خفي) و(حفي)، والمزدوج بين (فيه) (ويكفيه)، والمضارع بين (ضرر) و(شرر)، و(هضاب) و(غضاب)، واللاحق بين (كفر) و(ظفر)، والتصدير في غير موضع، والتقسيم والترديد والتسهيم والتصليح والتشبيه البديع والإبداع، إلى غير ذلك مما يَظهر بمزيد التأمل.

ثم أتاه هازم الأحزاب ... لفتحها بأكبر الأسباب
فزلزل البلاد بالكفار ... زلزلة أردتهم في النار
وصيرت بناءهم ترابا ... وكل عامر لهم خرابا
فأصبحوا وكل بيت ... من دورهم لحدٌ لكل ميت

ومـــا نجـــا مـــن أكثـــر العلـــوج إلا الـــذي قـــد بـــات في الـــبروج

(**هازم الأحزاب**) هو الباري تعالى، والأحزاب جمع حزب، وهو الطائفة والجماعة من الناس، والمراد هنا الجماعات الذين تألبوا على حرب النبي المصطفى ﷺ وغزوه إلى المدينة فهزمهم الله وطردهم عنها بالرِّيح خائبين خاسرين لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا.

و(**الزلزلة**) هي ارتجاج الأرض وحركتها وسببها المعروف عند أهل الحق تجلِّي الحق سبحانه للأرض، بهذا أجاب سيدي **عبد العزيز الدباغ** تلميذه سيدي **أحمد بن مبارك** لما سأله عنها، قال سيدي **أحمد** المزبور: وقد ذكر **السيوطى** في كتابه (**الصَّلصة عن وصف الزلزلة**) عن **ابن عباس** قريبا مِن كلام الشيخ وهو ما أخرجه **الطبري** عن **ابن عباس** (رضي الله عنهما) قال: «إذا أراد الله أن يخوف عباده أبدى عن بعضه للأرض، وإذا أراد أن يدمدم تجلى لها»، وفي مسند **الفردوس** عن **ابن عباس** عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إذا أراد الله أن يخوف خلقه أظهر للأرض منه شيئا فارتعدت، وإذا أراد أن يهلك خلقه تبدى لها».

قال **السيوطي**: «وبهذه الآثار عُرف فساد قول الحكماء أنَّ الزلازل إنَّما تكون عن كثرة الأبخرة الناشئة عن تأثير الشمس واجتماعها يعني الأبخرة تحت الأرض بحيث لا تقمعها برودة حتى تصير ماء، ولا تتحلل بأدنى حرارة لكثرتها، ويكون وجه الأرض صلبا بحيث لا تنفذ البخارات منها، فإذا أصعدت ولم تجد منفذا اهتزت الأرض منها واضطربت كما يضطرب بدن المحموم لما يثور في بدنه من بخارات الحرارة، وربما انشق ظاهر الأرض فتخرج تلك المواد المحتبسة، ووجه فساده أنه قول لا دليل عليه ورد الدليل بخلافه » اهـ باختصار.

وقال سيدي **إبراهيم الشبرخيتي**: «سببها أنَّ بعوضة خلقها الله تعالى وسلطها على

الثور الذي عليه الأرض فهي تطير أبدا بين عينيه، فإذا دخلت أنفه حَرَّك الثور رأسه فيتحرك جانب من جوانب الأرض، ويُقال إنَّ عروق جبل قاف ذاهبة في أصول بلاد الأرض، فإذا أراد الله أن يُعذب أهل بلده أمر ملكا بتحريك ذلك العرق الذي هو راسخ تحتها فتتزلزل تلك الجلدة، وجبل قاف هو المحيط بالدنيا، سمي قاف لأنَّه قفل العالم، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء: 59) وذكر عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنَّه قال: أرجفت المدينة أيام عمر فخطب الناس، ثم قال: إنَّ هذا لا يكون في بلد حتى يكثر فيها الزنا والربا، فإن رجعت ثانية لم أقم بين أظهركم، فما زلزلت بعد حتى قُبض عمر».

و(**أَرْدَتهم**) أسقطتهم، (**العلوج**) جمع علج، وهو الرجل من كفار العجم مطلقا، والمعنى أنَّ الأمير ـ أعزَّ الله نصره ـ لم يزل حريصا على فتح هذا البلد جادًّا في إيصال الأذى لأهله بكل ما أمكنه، ويطلب الإذن من السلطان في التسليط عليهم فلا يُجاب له، ثم إنَّ الله الذي جلَّت قُدرته وعظم سلطانه، قاهر الجبابرة، ومفني الأكاسرة والقياصرة، وهازم الأحزاب المتألِّبين، وقامع العداة المتكالبين، أتاه وأظهر له أكبر الأسباب المنبِّهة لفتحها الداعية إليه، وذلك أنَّه زلزل بالكفار بلادهم زلزلةً عظيمة، أهلكتهم إلَّا القليل منهم بإسقاط دُورهم عليهم في لحظة واحدة، حتَّى صار بناؤهم الأنيق كله أكواما أكواما من التراب والحجر، وآل أمر عمرانهم إلى الخراب فأصبحوا وقد مات أكثرهم بالرَّدم، وصارت بيوتهم لهم قبورا لم يخرجوا من ردمها إلى الآن، وما نجا منهم أحد إلَّا مَن بات في البروج الحصينة فإنها لم تُؤثر فيها الزلازل بالهدم بل شقَّت بعضها فقط.

وفي قولنا: (**أكثر العلوج**)، تنبيه على أنه لم يهلك الجميع ممن كان في الدور، بل نجا

الجريح والكسير ومن لم يقع عليه بيته، ومبلغ موتاهم ما يزيد على الثلاثة آلاف إنسان فيهم أميرهم ونساؤه وأولاده، واتصلت عليهم الزلزلة فكان الجماعة منهم يذهبون إلى نبش البيوت سِرًّا ليأخذوا ما تحتها من الأثاث والخشب فلا يشعرون إلَّا وقد سقط عليهم ما بقي عليهم من البيوت والحيطان فيموتون.

وقولنا: (**الأسباب**)، جمع سبب مشعر بعدم انحصار سبب الفتح في الزلزلة، بل له أسباب أخر هذا أكبرها، ومن جملة تلك الأسباب الداعية إلى التسليط على الكفار امتثال أمر الله تعالى في حضه على الجهاد حتى تخلص له الأرض، وتنفرد كلمة التوحيد، وتطهر من كلمة التثليث البلاد، وطلب ما وعد على ذلك من الثواب، وقصد التقرب إليه بدماء أولئك الكلاب، ومنها الغيرة على بلد المسلمين والإسلام أن يعمرها عبدة الأصنام، والحر يغار على انتهاك حرمة الإسلام أشد مما يغار على العيال، والغيرة رأس كرائم الخصال، ومنها الأنفة من مجاورة الكفرة في قطر واحد، وذلك مما يحرك غضب الماجد، ومنها قصد قطع الضرر الحاصل للمسلمين على مر الأيام بدوام مجاورتهم إياهم بكثرة من يموت منهم في قتالهم كل حين، ومن يقتله الأمراء منهم أيضا لأجل دخولهم إياها وتسوقهم إليها، وبكثرة هروب المنافقين إليها بنساء المسلمين وأموالهم، وأسرهم لأولادهم حتى صارت معقلا للكفار بل للفساق، ومتجرا بأموال المسلمين وأبنائهم ونسائهم، متى دخلها شيء لم تعلق الآمال برجوعه ولم تطمح في عوده.

ومنها أن طاغية النصارى، دمره الله وإياهم، إنما قصده بتملك هذا البلد وغيره من بلاد هذه العدوة الافتخار على ملوك الطوائف بكثرة ممالكه، ومواطن امتثال حكمه حتَّى إنَّه يلقب نفسه في رسائله وسكته بملك الأندلس والهند وإفريقية، فقصد الأمير ـ أَيَّد الله مجده ـ هدم هذا الجانب من افتخاره، ويريه أنَّ الأرض لله يجعل عاقبتها لأنصاره.

ومنها كثرة مرائي المسلمين المبشرات له بفتحها، وتواتر إشارات الأولياء إليه وتصريحهم بأنه الذي يفتحها، فمن ذلك رؤيا بعض أهل الخير والمسكنة يقال له سيدي يحيىٰ وذلك أنه رأىٰ قبل الزلزلة بزمان، كأن الأمير غزا **(وهران)** ورجع عنها فاتبعه بعض الأولياء يقول له أين تذهب إن الناس قد ملَّكوك ناصية هذا البلد فارجع إليه وتملَّكْهُ.

ومنها أنَّ بعض أهل **الجزائر** رأىٰ كأنَّ الأمير يتشاجَر مع بعض أولياء **(وهران)** ـ ولعلَّه سيدي **محَّمد الهواري** ـ في شأن فرس أُنثىٰ، فلم يزل به الأمير حتىٰ افتكَّها منه، فقال له الناس: إنَّك أخذتَ فرس الولي وهولا يصبر عنها فاقتلها حتَّىٰ لا يطمع فيها، فقتلها.

ومنها أنَّ بعض الطلبة المظنون بهم الخير رأىٰ قبل الطاعون بكثير كأنَّه بمحلٍّ أنيق فيه غرف، اثنتان مفتوحتان والثالثة مغلقة، فسأل رجلًا حسن اللون رآه بقُربها: لمن هي ؟ فقال: إنَّها لـ: **محمَّد باي**، أمَّا المفتوحتان فإحداهما فُتحت له بإطعامه الفقراء في المسغبة، والأخرىٰ ببنائه المسجد والمدرسة، والأُخرىٰ لا تفتح له حتَّىٰ يفتح **(وهران)** ـ إن شاء الله ـ.

ومنها رُؤيا صِهره المبجل السيِّد **محمَّد بن إبراهيم** باي، رأىٰ كأنَّ الناس اجتمعوا بجامع **(المعسكر)** الأكبر، والأمير جالس بالمحل الذي يجلس فيه لصلاة الجمعة، فأتىٰ القارئ الذي عادته يقرأ القرآن بالسدَّة لابسا نعلين جديدين، فقال له الأمير: امنحني نعليك ألبسهما، فناوله رجليه فخلعهما بيده، ثُمَّ جلس القارئ في المحراب فالتفت الأمير إلىٰ الناس وقال لهم: أنصتوا رحمكم الله فقرأ القارئ ـ وهو يشير إلىٰ الأمير ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ

عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ (الفتح: 1 ـ 3).

ومنها أنَّ بعض العلماء رأى كأنَّ الأمير ـ أيَّده الله ـ رَدَّ لناحية (**المعسكر**) نهر فروحه فعجب من ذلك، فقال له أحد حفدة **أبي الشلاغم**: لا تعجب فإنَّ جدِّي كان ردَّه أيضا فيما سبق.

ومنها أنَّ شيخنا سيدي **محمَّد بن عبد الله الجلالي** رأى قبل زمن الطاعون كأنَّه يدور بالأبراج خائفا من المدافع، فقيل له: إنَّ (**وهران**) فُتحت، ورأى المسلمين قد عمروها فعزم على سكناها وسماها مدينة مغراوة محل البيع والشراء، وكانت والدته ـ وهي من الصادقات ـ رأت كأنَّها فُتحت وسكنها بعض أولادها، فكانت تَعِدُهم بذلك في زمن صِباهم، ولقيه ـ وهوذاهبٌ بالطلبة إلى (**يفري**) ـ رجل من أهل السِرِّ والفضل فقال له: إني رأيتك في مدينة خالية فقلت لك: ما أتى بك ها هنا ؟ فقلت لي: إنَّ رسول الله ﷺ قال لي: اسبقني حتى ألحقك.

ورأى بعض الطلبة كأنَّ العلماء اجتمعوا للنظر في أمر امرأة لتتزوج، فتنازعوا في ذلك والشيخ يقول بتزويجها، فقام رجلٌ أزرق قصير فقال إنَّها تتزوج ولكن حتى تعتدَّ، فأنفقوا عليها إلى أن تنقضي عِدَّتها، فأخذ الشيخ شيئا من الخضر وذهب به إليها لذلك.

ورأى آخر كأنَّ العلماء اجتمعوا للمذاكرة فقال السيد الطاهر القاضي (رحمه الله تعالى) أبو يديه والشيخ الفزازي كافران، فقال له بعض الحاضرين: و(**وهران**) تفتح وأنت تموت بها، فقال نعم عندي، ووضع يده على الموضع الذي جُرح فيه.

ورأى بعض تلامذة السيِّد **أحمد بن ثابت** (رحمه الله تعالى) كأنَّ شيخه جاءه في النوم فقال له: إنَّ (**وهران**) تُفتح، ويغنم النَّاس منها كثيرًا صدقة على السيد عبد القادر

الجيلي، فحدث الناس بذلك، فلمَّا انصرفوا عنها بغير فتح عاد له الشيخ في الرُّؤيا فقال له: لا تحزن إنَّها تُفتح بلا ريب.

ومثل ذلك من المرائي الصَّادقة كثيرٌ صدَّنا عن إثبات جميعها داعي الاختصار، ولا شك في صحة الاستدلال بالرُّؤيا على ظهور ما تؤُول به والرُّكون إلى ذلك، فقد قال النبيء ﷺ: «الرُّؤيا الصادقة جزءٌ من تسعة وتسعين جزءا من النبوة » [1].

ومن جملة الأسباب التي حرَّكت الأمير إلى **(وهران)** أنَّه حسب حروف قولك **(انتهى الكفر من وهران)** بحساب أيقش فاجتمع له من ذلك ستون، فتبيَّن له بذلك على وجه الظنِّ أنَّ تمام مُدَّة بقاء ذلك البلد بأيدي الكفرة لتمام ستين سنة، لأنَّهم أخذوها من أيدي المسلمين سنة خمس وأربعين من القرن الثاني عشر، والكسر مُلغى، فتمَّ ذلك بتمام خمس من هذا القرن، وكان ذلك مما زاده يقينا بفتحها على يده بحول الله تعالى وقُوته، فكان الأمر كذلك والحمد لله، وهذا الحساب إنَّما تُنتجه الفكر السليمة، ويتولَّد عن العقول التي هي عن إنتاج الخطل عقيمة، ولنا في استخراج هذه المدة المذكورة طريق أخرى، وهي أن تحسب حروف الشطر الذي جعلته تاريخا لهذه القصيدة، وهو: ـ **وهران تم الكفر من ولاها** ـ فيخرجُ من ذلك ستة ومائتان وألف، وهي السنة التي خرج فيها الكفار من هذا البلد وتسلّمها المسلمون، فاقْسِم ذلك العدد المجتمع على الحروف المحسوسة من قولك: محمَّد بن عثمان، دون المضعَّف وألفي الإشباع والوصل لعدم ثبوتها في الحس والسمع وهي عشرة، يكون الخارج ستون، وتفضل ستة اضربها في المقسوم عليه يخرج ستون، وذلك هو العدد الذي بقيت فيه

(1) قوله: «من تسعة وتسعين جزءا ... الخ»، أحفظه من الحديث: «جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » كما في **البخاري**، وانظر معناه في شراحه. **(أصل)**.

البلد بيد الكفار، ولو حسبت حروف الشطر دون المضعف وألفي الإشباع والألف واللام بحساب أيقش لخرج فيه عدد السنين المذكورة، وهو: اثنان وستون باعتبار سنتي الكسر، وهناك طرق أخر يُكتفىٰ عنها بها ذكر.

وفي الأبيات: الترديد، والتصدير، والجناس اللاحق والمشتق، والتلميح إلىٰ قصة الأحزاب، والطباق، والتقسيم، والتسهيم.

تـــاريخ ذا في قـــول ذي الاتقـــان ... محمَّـــــد قـــــرن بـــــني عثمـــــان

أول شـــــهر صـــــفر الأجـــــل ... لســـبع ســـاعات مضـــت لليـــل

(**التاريخ**) الوقت، يُقال: أرَّخ الكتاب وآرخه وأرخه وقته، وكانت العرب تُؤَرِّخ بأيام الوقائع الشهيرة، فيقولون: وقع كذا عام الفيل، وعام حليمة، وعام جوان، وما زالوا علىٰ ذلك إلىٰ اليوم يقولون: عام الطاعون أو عام القحط، أو في إمرة فلان، وأعظم ما كانت كنانة تُؤَرِّخُ به **موت كعب بن لؤي**، ثُمَّ بعام الفيل، وبينهما عشرون سنة، وأوَّل من أرَّخ بالهجرة **سيدي عمر بن الخطاب** (رضي الله عنه) في شهر ربيع النبوي، علىٰ من ولد فيه أفضل الصلاة والسلام، سنة ست عشرة، وسبب ذلك أنَّ أبا موسىٰ كتب إليه: إنه يأتينا مِن قِبَلك كتب لا ندري علىٰ أيِّها نعمل، قرأنا صكًّا منها أوله شعبان، فما ندري أي الشَّعبانين الماضي أم الآتي ؟ فعمِل (رضي الله عنه) علىٰ كتب التاريخ، فأراد أن يجعل رمضان، فرأىٰ أنَّ الأشهر الحرم تقَع في سنتَين فَجعله من المحرَّم، وهو آخرها، فصيَّره أوَّلًا لتجتَمع في سنة واحدة. اهـ. قاله **الصفدي**.

ووجهه أنَّ أوَّل الأشهر الحرم رجب، فلو جعلنا رمضان أوَّل السنة أتىٰ بقية الأشهر الحرم في غير السنة التي فيها أولها؛ لأنَّه مَرَّ في السنة التي تمت، فكنا في سنتين قطعا، ولا كذلك الآن لما جعل أوَّل السنة المحرم فإنَّ جميعها في سنة واحدة، غير أنَّ

لقائلٍ أن يقول: وهلا جعل أوَّل السنة رجب، أو ربيع الأول فإنَّ ربيع أولىٰ بها لوقوع الهجرة فيه والتاريخ من الهجرة، وبذلك تأتي كلها في سنة واحدة، والظاهر أنَّه إنَّما جعل المحرَّم لأنَّ أوَّل السنة كان مُقررا عند العرب من المحرَّم، ثُمَّ إنَّهم يُؤرخون بالليالي دون الأيام، لأنَّ الهلال يُرىٰ ليلا، ويقولون للعشرة فما دونها خلون أو مضين، لأنَّ المميز جمع مؤنث، ويقولون من بعد العشرين لتسع إن بقين، أو لثمان إن بقين ونحو ذلك، يأتون بأن للشك لاحتمال نقص الشهر أو كماله، ويقولون في أوَّل الشهر لليلة خلت منه أو لغرته أو لمستهله، والأولىٰ أن تُؤرخ بالأقل فيما مضىٰ وفيما بقي، فإن استويا خيرت، إلَّا في النصف فتقول في منتصف الشهر، أو في خامس عشره، والرابع عشر، والسادس عشر تُذكِّرُها»، انظر مدَّ النفس في هذا المعنىٰ في (**تاريخ الصفدي**).

و(**قرن القوم**) سيِّدهم، و(**بنو عثمان**) المُراد بهم هؤلاء القوم المتملِّكون هذه البلاد الذين لهم الطَّاعة والبَيعة وبهم الخطبة والسكَّة وفيهم الخلافة ومنهم الأمراء، نِسبة إلىٰ **عثمان بن أرطغرول**، ينتهي نسبه إلىٰ **يافث بن نوح** عليهما وعلىٰ نبينا أفضل السَّلام، فبينهما نحو الخمسين جَدًّا مذكورة في كتب نسبهم، وهو أوَّل سلاطين هذه الطائفة العُثمانية الذين منهم السُّلطان الأعظم اليوم علىٰ سائر البلاد الإسلامية المُستقرِّين بمدينة **اسلامبول** قاعدة ملكهم، ومقر حكمهم وهي القسطنطينية العظمىٰ، صار له الملك من صديقه **فرامرس بن علاء الدِّين** السلجوقي بعد موته وانفراده هو بتدبير المملكة، ونُسب جميع أجنادهم وأمرائهم وغيرهم إلىٰ **عثمان** المذكور، وإن لم يكن من نسبه إلَّا السَّلاطين، وأقاربهم تغليبا، واعتبارا بالأشراف.

والمعنىٰ: أنَّ تاريخ السنة التي وقعت فيها هذه الزلزلة بـ (**وهران**) يُوجد في ضمن قولنا: (**محمَّد قرن بني عثمان**)، لأنَّك إن حسبت ذلك بحساب الجمل، وجمعته خرج

خمس ومائتان وألف، فإن لفظة (**محمّد**) فيها خمسة أحرف ثلاث ميمات إحداهنَّ المدغمة والحاء والدَّال، وعدد مجموعها مائة واثنان وثلاثون، ولفظة (**قرن**) ثلاثة أحرف عدها ثلاثمائة وخمسون، وفي لفظة (**بني**) اثنان وستون، و(**عثمان**) فيه ستمائة وأحد وستون، المجموع ما ذكر هذا تاريخ السنة، وأمَّا الليلة التي وقعت فيها من السنة المذكورة فهي: ليلة السبت الأولى من صفر بعد مُضي سبع ساعات ونصف من اللَّيل، وهذا الذي صححناه في تعيين تلك الليلة من مكاتيب الجزائر الواردة على الأمير ـ أطال الله عزه ـ في ذلك الشهر مُؤرخة بأيامه على أنَّ أوَّلها السبت إذ تلك الليلة كانت ليلة شك، وكان أهل بلدنا يعتقدون أنَّها الأخير من المحرَّم فهم يذكرون أنَّها وقعت فيه، والصَّحيح ما صحَّحناه نحن.

وكان من حديث هذه الزلزلة أنَّه لما كان الوقت المذكور ارتجت الأرض بالناس ارتجاجًا عظيما اهتزت منه البيوت، واضطربت السُّقوف اضطرابا قويًّا، فانزعج الناس من مضاجعهم داهشين، ودام ذلك دقائق عِدَّة، ثُمَّ انقطع نحو السَّاعة وعاد كذلك، واستمرَّ الحال مرَّة بعد مرَّة فأصبح الناس من ذلك في هول عظيم، واشتغلوا بالتحدث عنها، وكيفية شُعورهم بها وما شاهدوا من هولها، سُنَّة الله التي قد خلت من قبل في إكثار الناس التحدث عن كل حادث، فبينما نحن نتحدث إذ قال السيِّد محمَّد بن إبراهيم: «ليت بلد الكفر (**وهران**) تسقط على أهلها»، فقلت: وما يدريك، لعل البشائر تأتينا غدا بذلك، فأتى الخبر ضحوة الغد بسقوطها كلِّها، فبعث جاويشه لاستطلاع الخبر وتحقيقه، فجاءه عقب ذهابه الخبر اليقين بسقوط أكثر دُورها وسلامة حصونها وسورها، وقد كان أمر هذه الزلزلة بـ (**وهران**) وما والاها أشدَّ منه في سائر البلاد، حتى إنَّ العيون العظام التي لم تغر قط غارت بسببها، ولم يجر ماؤها أياما عديدة، ثُمَّ إنَّها

لما أرسلت فارت بماء أحمر على صفة الدم ـ حسب ما أخبر بذلك الثقات ـ وأخبر حراس النصارى أنَّهم رأوا بأبصارهم قبيل وقوعها أربعة أشخاص على هيئة المسلمين يمشون في الهواء وسط مدينتهم، ووقف كل واحد منهم على زاوية من زواياها، ثُمَّ أشار واحد منهم بثوبه ـ وهم ينظرون ولا يقدرون على الكلام ـ فلم يتم إشارته حتى مادت بهم الأرض، وسقطت الدُّور على أهلها، فخرج الأحياء منهم ما بين جريح وكسير ـ وأكثرهم عاري العورة لا يستره شيء، فاجتمعوا ببراح متسع في وسط المدينة رجالًا ونساءً عراة حفاة لا يعقل أحدهم جليسه من الدهش، وقد مات أميرهم وأهله، فلما أصبحوا سلموا في الدُّور وما فيها، وخرجوا جياعا إلى الفضاء الذي بين الأبراج حيث لا بناء يخافون من سقوطه، فبقوا هنالك حيارى سكارى من الفزع، والزلزلة تعتورهم مرَّة بعد مرَّة فيتزايد فزعهم ودُورهم مع ذلك تتناثر مرَّة عقب أُخرى حتى صاروا ولا يحوم حولها منهم إلَّا السرَّاق المختلسين فيموت أكثرهم، وما زالت تلك الزلازل إلى الآن تعتري تلك البلد مرَّة بعد مرَّة، فلما جاء الخبر الأمير خرج في الحين مُبادرا وخرج الناس معه وبعده، وذلك يوم الاثنين الثالث من يوم الزلزلة قرب ظهره فوصلها يوم الأربعاء وانبهم عليه الأمر من نحوها، وكان من الممكن أن لو حمل عليها بنفس وصوله، وهم سكارى بدهشهم قليل عددهم، منقطع مددهم، لأخذها دون كبير كُلفة، غير أنَّ لكل أجل كلفة.

ثُمَّ إنَّه سمع بأنَّ كبيرهم مات ولم يبق من جمعهم إلَّا القليل، فأراد أن يُناجزهم، ثُمَّ خشي بادرة السلطان فبعث إليه يستأذنه عشيَّة الخميس، وكتب إلى الجهات يستنفر الناس إلى الجهاد، فجاؤوا من كل حدب ينسلون، حتى اجتمع لديه نحو الخمسين ألفا، فتسلَّطوا على الكفار ينهبون ما وراء السُّور من أموالهم، ويهدمون ما خرج عنها من أبنيتهم، ويجتنون ثمارهم ويقطعون أشجارهم، وزحف لهم بعض المسلمين يوم

الخميس الثالث عشر صفر فأخذوا منهم برج العين ـ الذي ذكرنا سالفا أنَّه في حلق الوادي ـ ثُمَّ اشتغلوا عنه بنهب خشب خارجه، والمشاجرة عليه؛ لأنَّه ـ أدامه الله ـ كان عوَّدهم أن يدفع لهم الدراهم في كل ما أتوا به من لوح أو غيره، فتراجعوا له ونفوسهم عنه ... [كذا]، وتقاتلوا عليه قِتالا شديدا، وكان يوما قعقعت فيه المدافع فزلزلت الجبال، وأمطر على الكفرة مطر البنادق فأمطرت عليهم البلابل والأوبال، وضاقت عليهم البلاد لما رأوا من حَرِّ الجلاد، ودهشوا حتى فزعوا لكبيرهم يستشيرونه في الإلقاء بأيديهم للأسر، فأمرهم بالإمهال ساعة عسى الله أن يُبدل عُسرهم باليُسر، فعاجل المسلمون الافتراق، ولو بقوا ساعة وزادوا في التقدُّم باعا لأخذوها بتسليمهم إياها، غير أنَّ الله يفعل ما يريد، واستشهد يومئذ من المسلمين جماعة وافرة، وجُرح ما يزيد على المائة أكثرهم من **بني زروال**، فمن يومئذ سمي ذلك البرج **ببرج بني زروال**، وهم قبيلة من الظهرة[1] ومن غد ذلك اليوم أسر المسلمون اثنين من النصارى فاها بأنَّه مات وجُرح جماعةٌ كثيرة، وفي يوم السبت بعده شرع في رميهم بالمدافع والبونبات من جبل المائدة، ومات اثنان ممن ناوشهم القتال من المسلمين، وحفر لغم صغير تحت **برج مرجاج** على سمت خزانة البارود، فلما كواه حافره وتنحَّى عنه لم تأخذ فيه النار، وأصبح الصبح فشعر الكفرة في أثناء النهار فخرجوا على حين غفلة من المسلمين إليه فأخذوا ما فيه من البارود وأفسدوه، وجدُّوا في حِراسة موضعه بالرَّمي عليه كل وقت، كل هذا والأمير ـ أدام الله تأييده ـ يبذل الأموال الكثيرة، ويقسِّم على تلك الجنود من العِدَّة والبارود والرَّصاص والمأكل وعلف الدَّواب ما لا يأتي عليه الحصر، ويُنادي في الناس بالحضِّ على الزَّحف إلى العدو، والصدمة عليهم ويَعِدُ على ذلك بالألوف الكثيرة والمراتب

(1) دائرة سيدي علي، ولاية مستغانم، وكانت منازلهم الأولى بالراشدية (معسكر) فأخرجهم منها الحشم لخبر يطول.

السنيَّة، فلا يجد مُساعدا ولا دليلا إلىٰ الحقِّ مرشدا، وتخاذل الناس وتقاعدوا وعمَّهم الفشل والخوف، فنأوا عن إجابته، وظهر من حمله عن أولئك المتقاعدين ما تجاوز الحد، ولم يكن يظن وقوعه منه أحد.

وقد كان النصارىٰ في أوَّل الأمر قد بلغت قلوبهم حناجرهم من الخوف الذي فضح سرائرهم، فصاروا يلبسون الأعواد أثوابهم، ويوقفونها علىٰ الأسوار ليُوهموا المسلمين أنّهم من جُملة الجند فيظنون أنَّهم في كثرة، وأوَّل من شعر بذلك الأمير ـ أدام الله تأييده وجعل الكفرة كلهم خوله وعبيده ـ ثُمَّ في أيام انتظار الإذن من السلطان تواصل مددُهم، وكثر عددهم فقووا بذلك واشتدَّت شوكتهم وحدهم، فلما عِيل صبر الأمير عن جنده، ولم ير منهم إلّا المبادرة لأخذ المال من عنده، وعلم أنَّه لا ينفع في ذلك إلَّا الجد والاجتهاد والتأهب والاستعداد، رحل عنها مشتدا عليها حنقه زائدا لأجلها قلقه فوصل حكمه ولم تمض إلَّا أيام قلائل حتىٰ شرع في جمع الآلة، واشتراء العدة وجمع الصُنَّاع كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

ولم يقــــع في بلـــــد الاســـــلام	**إلا اضــطراب الأرض بالســـلام**
حركـة قـد حركـت قلـب الهمـام	**للعزم عن غزو العدى والاهتمام**
فجـــاءهم في جنـــده العرمـــرم	**خمســـين ألـــف بطـــل مكـــرم**
أنــزل بعضــه مــع ابنــه الجلــي	**وبعضـــه مـــع صـــهره المبجـــل**
فــازداد منهــا الكــافرون وجــلا	**لمــا أبــان عــن حــلاه وجلــى**

(**السلام**) آخر البيت الأول بمعنىٰ الحفظ والسَّلامة، والباء فيه للمصاحبة، و(**الهمام**) الملك العظيم الهمة، والسيد الشجاع خاص بالرجل كالهمهام، و(**الاهتمام**) مصدر قولك: اهتمَّ بكذا إذ جعل فيه همَّه، أي: هَمَّ به وأراده، و(**العرمرم**) الشديد الكثير، و(**ابنه الجلي**) أي: الطَّاهر العلي، هو شِبله الذي اتبعه في طلب تدويخ البلاد،

وإقامة أسواق الجلاد، وشبهه في كريم الخلال، والتردي بأثواب المهابة والإجلال، السيِّد **عثمان** أبقاه الله محفوظا، وبعين العناية ملحوظا، وقد قدمنا ذِكره عند الكلام علىٰ كنية أبيه.

و(**صهره**)، هو البدر الذي يُستضاء به من حنادس الهم وظلامه، والبحر الذي تلتقط نفائس الدر من كلامه، والزهر الذي يقطر عطر السماحة من سناه عند ابتسامه، أبو المكارم ومبديها، ومولىٰ المعارف ومسديها، محبنا الأجل **السيِّد محمَّد بن إبراهيم**، لا زال مُستوجبا للتقديم والتعظيم، فإنَّه نشأ وظل الملك يجنه، وصدف الصون يكنه، وهو مع ذلك يتفيأ من الأدب تحت أدواحه، وينقله من جديده وأكتافه وألواحه، ويبحث عن فرائده بأظافره، ويلتقط ملحه من رقاعه ودفاتره، حتىٰ صار وهو المُشار إليه فيه بالبنان، المعتمد عليه في هذا الشان، ولما انقشع عنه ظل الملك بموت أبيه انقشع عن دمث الأخلاق، حسن الصفات علىٰ الإطلاق، حليم صبور، لا ينادي عند الحوادث بالثبور، ثُمَّ سافر إلىٰ الحج فالتقىٰ بالعلماء الأعلام، واقتنىٰ عنهم من نظيم كلامهم ونثيره ما اغتنىٰ به عن درِّ النظام، ثُمَّ رجع وقد اشتفىٰ برؤية زمزم والمقام، فزوج من كفؤ المحمد والمجادة، وغصن الإمرة والسيادة، السيد **عثمان** بن الأمير الأجل، أبقاهم الله وما لأمد رفعتهم من أجل، وكان خروجه للحج في ربيع الأول سنة أربع وتسعين، والتزويج في ذي الحجة من السنة بعدها، ثُمَّ إنَّ الأمير دامت محاسنه البهيجة، زوَّجه بنته فوشجت بينهما عُروة المحبة، وقد كانت قبل ذلك وشيجة، واختلطت عروق الأضلاع بالأضلاع والأعصاب بالأعصاب، وكملت شروط الخلطة لما تَمَّ من كل جهة نصاب، وهو الآن معه كأحد أولاده يفيء عليه من طارفه وتلاده، وقد كنت منذ فارق دار الملك منطق ما معه من الوداد في أبهج سلك نجيل قداح الوداد، ونجري في طريق المصافاة علىٰ ممرِّ السَّداد، وفىٰ خِطابه أفنيت عمر كلامي، وسرحت سوائج

أقلامي، كتبت له مرَّة وقد غاب، قولي:

حديث شوقي لكم في شرحه طول ... يا جيرة رحلوا والجسم معلول
كم لي أعلل قلبا من فراقكمو ... أودىٰ به السقم لا يشفيه تعليل
متيما أبدا نــاء تصبره ... أمسىٰ به للهوىٰ والبين تمثيل
تلون البين ألوانا عليه كما ... قِدما تلون في أثوابه الغول
متىٰ خطرتم به هاجت بلابله ... وازداد عنه جوىٰ حزن وتهويل
رحلتم فترحلتم براحته ... فما له في الهنا والأُنس تأميل
وانفك عقد وكاء الدمع فانهملت ... بأدمع نهرها في الوجه مرسول
وعم غيم الأسىٰ في اللب فانخسفت ... شمس لعقل عليه الهم مسدول
فكم له زفرات لا يشابهها ... رعد بزفرته للسمع تعطيل
ومن لواعج أحزان تلازمه ... ما إن لها من صميم القلب تحويل
لله صب فني من شوقكم أسفا ... كما فني عاشق تقصيه عطبول
هيفاء عجزاء ما تنفك غانجة ... بحسنها لعيون الرمد تكحيل
ما نال قط لعينيها مشابهة ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
يرعىٰ القلوب وما ينفك ذا وله ... يخشىٰ قناصا له بالصيد توكيل
كأنما سهمه عين التي كان لي ... بعينها للحاظ الظَّبي تمثيل
ذات الجمال التي أودَت بعاشقها ... فقلبه أبدا بالحب مشمول
ملازم السقم لا ينفك ذا شجن ... من فجأة البين في خديه تبديل
يحل في كل ما سار الحداة بها ... من عمره يا رعاه الله تأجيل
ويعتريه أمور لا يطيق لها ... حملا وليس له عنهن تحويل
بادت قواه وقد بادت مفاصله ... فما بقت جملة منها وتفصيل

لا يستطيع قياما في مصالحه ... كأنه من شديد الضعف مكبول
عمَت لواحظه من طول ما سكبت ... دمعا به وجهه المصفر مبلول
وصم مسمعه عن الكلام فما ... يُصغي إذا لم يكن من نحوها قيل
كذاك أمسيت في أيام بُعدِكُمُ ... قلبي سليب قليل الصبر مخبول
لله يا حيرتي في النفس قد هلكت ... والعقل فهو من الإدراك ممحول
كلفتموني بوصفكم وذكركم ... فليس لي أبدا بالغير تغزيل
أنا الكليف بكم بل القتيل بكم ... وليس لي من لذيذ القرب تحصيل
فواصلوني ولو بالطيف يطرقني ... فزورة الطيف هي اليوم لي سولُ
عليكم من سلام الله أطيبه ... ما اشتاق صب بقيد البين مكبول
فلولا جمالك يا زينب ... لما انجاب من أفقنا غيهب
ولا اكتسب النور بدر الدجى ... ولاح لسار به مذهب
ولا ضاع صبري وقد كنت لا ... أظن اصطباري ينتهب
تجلى بقلبي نورا بهاك ... فأصبح نارا به تلهب
وأصبحت مالي سواك وما ... سوى شرع حبك لي مذهب
أنا المالكي إلى مالك العقول ... جمالك انتسب
فنيت عن الغيد فيك فما ... أشاهد غيرك يحتسب
وعن ضر حبك همت فلم ... أحس بقلبي يلتهب
فهل لي نفس؟ وهل لي فؤاد؟ ... وهل لي لحم؟ وهل عصب؟
وهل لي روح؟ وهل لي حياة؟ ... وهل لي شقيق؟ وهل لي أب؟
فأين الكلام؟ وأين اللسان ... وأين الجوارح؟ قد غيبوا
أنا اليوم لا شيء يا مهجتي ... وجودي على الأرض مستغرب

هـــواك حـــلالي ونعـــم الحـــلال　　هـــــواك اذا الـــــرجس يجتنـــــب
وصـــــدك وصــــل ألــــذ بـــــه　　إذا كــــــان قربـــــك يرتقـــــب
وقصـــــــدك ضرىٰ وشـــــتمي إذا　　خطـــــرت ببالـــــك يســـــتعذب
تســــاوىٰ لــــدي الهنــــا والعنــــا　　فمــــــن أي شيء أنــــا أرهــــب؟
اذا زايلتنـــــــي صروف الزمـــــــان　　وريـــض لنـــا طرفـــه الاصـــعب
ودامـــت حيـــاة الخليـــل الـــذي　　بأفهامـــــه ضـــــاء ذا المغـــــرب
وتمـــــــت محاســـــــنه فغـــــدا　　يكــــاد بأوصــــافه يعــــرب
محمـــــد نجـــــل الأمـــــير الـــــذي　　بتفضـــــــيله شـــــــهر الأدب
وأخـــــبر راوي العـــــلىٰ أنـــــه　　إلىٰ المجـــد والفضـــل منتســـب
وقـــال لنـــا الجـــود لا عيـــب فيـــه　　ســـــوىٰ أنـــــه للهـــىٰ واهـــب
وأن الزمـــــان الـــــذي قـــــد بـــــدا　　بــــه للأفاضـــــل لا يهــــب
هـــو البـــدر تمـــت محاســـنه　　وذاك الزمـــــان هـــــو العقـــــرب
فلـــولا ظهـــور الأمـــير بـــه　　لـــدام بـــه الـــنحس والعطـــب
بـــلىٰ إنـــه البحـــر بحـــر النـــدىٰ　　ومشـــــرب سلســـــله طيـــــب
جـــــواهره الظـــــرف يثقبهـــــا　　بـــــذهن بـــــه المـــــاس ينثقـــــب
وراحتـــــه الـــــريح مرســـــلة　　بهـــا قـــائم العـــدم ينقضـــب
عليـــه ســـلام مـــن الله مـــا　　بـــريح الصـــبا مـــادت القضـــب
محمـــد دونـــك مـــن أحمـــد　　عقيلـــة ود أتـــت تخطـــب

ولي فيه كلام كثير مقسم إلىٰ مزاح أدبي، وعتاب عربي، وشكوىٰ بين وافتراق، وبث حزن واحتراق، واستدعاء واستعطاف، وتظرف واستلطاف، وغير ذلك من أساليب

الشعر، وأفانين النثر، كما قيل:

وفيــك تعلمــت نظــم القــريض فلقبنـــــي النـــــاس بالشـــــاعر

لا طمعًا في أخذ نشب، بل قياما بحقِّ خلَّة أصفى من الضرب، واقتفاء في ذلك بأخلاء العرب.

(**الوجل**) الخوف، وجلى آخر البيت عطف تفسير على (**أبان**) الذي معناه أظهر، والمعنى: أنَّ هذه الزلزلة التي خربت بلاد الكفار، وأهلكت أكثرهم فساروا إلى النار، لم يقع بسببها في البلاد الإسلامية إلَّا اهتزاز الأرض في بعضها المصاحب للسَّلامة في جميعها، فما هي إلَّا حركة وقعت لتحرك قلب أميرنا الهمام السيد الشجاع وتُنبه عزمه لغزو الكفرة، والاهتمام به إذ ذلك أمرٌ عظيم، فالمُناسب له أن يحرك إليه أمر جسيم، وإنَّما يدرك هذه الإشارة من له ذوق سليم، فكان الأمر على حسب ما اقتضته هذه الإشارة، فإنَّه انتبه له وعزم عليه، فجاءهم في جند عظيم عرمرم شديد البأس يحتوي على نحو **الخمسين ألفا**، فظهر بذلك من قوته وشدَّة بأسه وسطوته ما بهر به الكفار وأدهشهم، وازدادوا منه خوفا على ما كان يحصل لهم عند سماع أخباره، ومشاهدة آثاره، فلقد أوقد النَّاس ليلة النيران في عساكره على وجه اللَّعب في كل ناحية، فكان شيئا جاوز الوصف، وتسامى عن العَدِّ لا يطمح بصر لناحية إلَّا رأى النيران متصلا بعضها ببعض على مُنتهى مَدِّ البصر، فسمع بعض المجاهدين أحد حرَّاس النصارى يقول لغيره: لو أنَّ هؤلاء يتوصلون إلينا لم يبقوا لنا أثرًا، على أنَّه لم يفعل ذلك إلَّا من كان يتعاطى اللَّعب كالخدَّام وأشباههم، ولو أوقد كل واحد نارا لأحرقوا السهل والجبل، وقد كان (رضي الله عنه) أثناء أيام إقامته قَسَّم جنده فترك معظمه معه، وأنزل بعض الباقي مع ابنه الأنجب **السيد عثمان**، وبعضه الآخر مع صهره الأجل **السيد محمد**

بن إبراهيم، كل منهما في جهة بمحلة عظيمة، مع الأول أهل تلمسان وأحوازها، وقبائل من العرب كفليتة وغيرهم، ومع الثاني أهل مازونة، ومستغانيم، والقلعة، وأعراب الشرق.

فإن قلت: قولك في النظم أنزل بعضه مع فلان، وبعضه مع فلان، يُؤْذِن بأنَّه لم يترك معه شيئا، وذلك خلاف الواقع، فإنَّ مُعظم الناس وجماعهم بقي معه، قلت: لفظ التبعيض يُشعر بأنَّه لم ينزل معهما الجميع، على أنَّ عادة العرب جرت في غير موضع أن يذكروا من أقسام الشيء ما كان خفيا، ويسكتوا عن الظاهر اتكالًا على شهرته، وقد يذكرون اسمَين فيخبرون عن أحدهما دون الآخر اتكالًا على فهمه من السياق:

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما عندك راض والرأي مختلف

وفي **البخاري** أنَّ النبي ﷺ قال: «الخيل لرجل أجرٌ، ولرجل سترٌ، ولرجل وزرٌ»، فذكر الذي له أجر، والذي له وزر، وسكت عن الذي له ستر للعلم به، انظره في **كتاب الجهاد** منه.

وفي الأبيات: الجناس الناقص بين (الإسلام) و(السلام)، والمشتق بين (الهمام) و(الاهتمام)، والمرفوع بين (وجلا) و(وجلى)، والترديد بين (حركة) و(حركت)، والتصدير في الأول والثاني والرابع.

ثم انثنى من بعد أن أذن له يجمع عدة قتال الجهلهْ
فكان في ذلك فأل الفتح مثل الحديبية قبل الفتح

(**انثنى**) بمعنى رجع، و(**الجهله**) جمع جاهل، والمرادُ بهم النصارى، ولا شك أنهم أجهل الجهلة لاسيما في الاعتقادات، كيف وهم يعتقدون أنَّ لله زوجة وولدا ! وأنهما

ماتا ! ثُمَّ بينما هم يقولون ذلك إذ صاروا يقولون إنَّ **عيسى** هو الإله، وانتخبوا من خرافاتهم مذهبا سموه الاتحاد بمعنىٰ أنَّ ذات الإله اتحدت بذات **عيسى** فصارا شيئا واحدًا وهما شيئان، وقد يدخلون مريم فيقولون: ثلاثة الإله أحدهما بعينه، فإذا قيل لهم كيف يمكن اتحاد قديم بحادث ؟ ضربوا لذلك مثلا بضوء الشمس الخارج من كوة في ارتسام نورها بما نأىٰ عنها، وحاصل ما لهم من الخرافات أنهم قالوا: إن الله جوهر من ثلاثة أقانيم، أقنوم الوجود والعلم والحياة المعبر بها عندهم بالأب والابن وروح القدس، ويعنون بالأقنوم الصفة، ومن المحال أن يتركب الجوهر من صفة، وجعل الواحد ثلاثة جهل، وقد طولبوا بوجه الحصر في الصفات الثلاث السابقة فقالوا إن الخلق والإبداع لا يكون إلَّا بها، فقيل لهم والقدرة والإرادة أيضا لا يتأتىٰ الخلق إلا بهما فاحكُموا بأنها خمسة، والذي اتحد بعيسىٰ عندهم هو الكلمة أي أقنوم العلم فهم يقولون اتَّحدث الكلمة بناسوت **عيسى** ـ أي: جسده ـ فزادوا بذلك جهالة عظمىٰ، وهو أن المركَّب انحل فاتَّحد بعضه بجسد **عيسى**.

ثم اختلفوا في طريق الاتحاد، فقالت الملكانية بطريق الامتزاج كالخمر بالماء، وقالت النسطورية بطريق الإشراق كما تشرق الشمس من كوة، وهذا الذي سمعناه من هؤلاء الإسبانيين في بعض ما وقع بيننا وبينهم من المحاجة، وقالت اليعقوبية بطريق الانقلاب لحما ودما بحيث صار الإله هو المسيح، ومنهم من قال ظهر اللاهوت أي الله بالناسوت أي جسد عيسىٰ كما يظهر الملك في صورة بشر، وقيل تركب اللاهوت والناسوت كالنفس مع البدن إلىٰ غير ذلك من الجهالات المنبئة بقلة عقولهم وركاكة أفهامهم، وكل تلك الأقوال لا تحتاج إلىٰ الاشتغال بردها لظهور فسادها، ثم إنهم علىٰ ما ادعوا من هذا الامتزاج نقضوا، فقالوا: إن اليهود تسلطوا علىٰ **عيسى** (عليه السلام)

فقتلوه، وهذا لعمري من أكبر العجز الثابت لهذا الإله الممتزج، إذ غلبه اليهود وقتلوه، لأنه يلزم أن يبقىٰ له الاتحاد إلىٰ حين قتله، فيتعين أنه قتل، ولله درُّ من قال:

عجبا للمسيح بين النصارىٰ ... وإلىٰ أي والد نسبوه؟
أسلموه إلىٰ اليهود وقالوا ... إنهم بعد قتله صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقا ... فاسألوهم أين كان أبوه
فإذا كان راضيا بأذاهم ... فاشكروهم فإنهم عذبوه
وإذا كان ساخطا لأذاهم ... فاعبدوهم فإنهم غلبوه

وعنهم يقول **البصيري**:

خبرونا أهل الكتابين من أين ... أتاكم تثليثكم والبداء
ما أتىٰ بالعقيدتين كتاب ... واعتقاد لا نص فيه ادعاء
ليت شعري ذكر الثلاثة والوا ... حد نقص في عدكم أو نماء
كيف وجدتم إله نفىٰ التو ... حيد عنه الآباء والأبناء
أإله مركب ماسمعنا ... بالإله لذاته أجزاء
ألكل منهم نصيب من ... الملك فهلا تميز الأنصباء
أتراهم لحاجة واضطرا ... ر خلطوها وما بغىٰ الخلطاء
أهو الراكب الحمار فيا عجز ... إله يمسه الإعياء
أم جميع علىٰ الحمار لقد جل ... حمار بجمعهم مشاء
أم سواهم هو الإله فما نسبة ... عيسىٰ إليه والانتماء
أم هو ابن الإله ما شاركته ... في معاني النبوة الأنبياء
قتلته اليهود فيما زعمتم ... ولأمواتكم به أحياء

إنَّ قولًا أطلقتموه على الله تعالى ذكره لقول هراء، وفي جهلهم بالتاريخ وكذبهم فيه أقول:

إنـــما الــــرُّوم أنــــاس حمقــــا ليـــتهم إذ حـــــدثونا ســــكتوا
لـــيس يـــدرون أمـــورا ســـبقت فــــإذا مـــا ذكروهـــا هفتـــوا

ومن مارسهم واطَّلع على خَبيث تديناتهم رأى مِن ذلك الخرافات الهذيانية، والخزعبلات المبنية على الأهواء النفسانية، ومن أفدحها أنَّ أمور دينهم موكولةٌ إلى حبرهم الأكبر، يزيد فيه ما شاء برأيه وينقص ما شاء، ويأخذ في ذلك الرشى الكثيرة لأن يُحل لهم المحرَّمات، فتكون على كلِّ الناس حراما؛ إلَّا على مَن دفع له الرشوة، وأخذ خاتمه على الإذن، فإذا جاء وقت الصوم مثلا أخذ رِقاعا كثيرة تزيد على الألوف وطبعها بطابع مكتوب فيه: الإذن في أكل كذا إما اللحم أو غيره، وفرَّقها على البلدان يبعثها إلى الأحبار الذين على يده فيها، فيمنعون الناس مِن أكل ما حلَّته الروح، أو ما يخرج مما حلَّته الروح، ومن شاء أن يترخَّص له في شيء مِن ذلك دفع الرشوة، وأخذ منه سفتجة مِن تلك الرِّقاع، فيباح له ما حرَّم الله من ذلك، ومَن أذنب منهم ذنبا ذهب إلى حبر بلدِه فاعترف له بذلك فيدفع له رقعةً مكتوبا فيها: أنَّه غُفر له ذنبه، ومن لم يغفر له عاقبه السلطان بالقتل ونحوه، ويجب على ذلك الحبر الستر عن المعترف له بالذنب، وإن بلغ ما بلغ، فإن أفشى أمره أحرقوه، وإذا مات أحدهم كتب له كتابا إلى خازن الجنة يخبره بأنَّه قد غفر له ذنوبه فلا يتعرَّض له، وهذا مِن أكبر حمقهم، ثُمَّ إنَّهم يبدلون دينهم مرَّة بعد مرَّة.

ولقد قام في هذه السنة منهم الجنس المعلوم بـ: **الفرانسيس**، وهم الفرنج على جميع علمائهم[1] فنفوهم من البلاد إلى بلاد الاصبنيول وغيرها، وقتلوا ملكهم، وتركوا

---

(1) العلماء يقصد بهم القسيسين ورجال الكنيسة.

الناس فوضى لا ملك لهم ولا عالِم، فهم يتصرَّفون كيف شاؤوا في أمور الدين وأمور الدنيا، والسبب في ذلك أنَّ ملكهم كثر مصروفه حتىٰ ضاق عنه ما في بيت ماله، وخاف من الفضيحة بين الملوك، فاستشار وزراءه فأشاروا باتخاذ رِقاع مطبوعة لا يسوغ بيع ولا شراء ولا نكاح ولا شيء من المعاملات إلَّا بها، وعيَّن لها ثمنا قليلًا، لكن يجتمع منه ثراءٌ كثير، ففعل ذلك، فلما وقف الناس عليه أنكروه وأعلنوا بعدم قبوله، فلما بلغ الملك ذلك بعث لهم فقدم عليه من كل بلد أربعة فخرج عليهم وكلمهم في ذلك، فقالوا: هذا لا نقبله ولكن هلم نعمل أمرًا فيه قضاء دينك، والإبقاء علىٰ ملكك، وهو أن يحمل إليك كل واحد ربع ما بيده جلَّ أو قلَّ، فتراضوا علىٰ ذلك، وكانوا علىٰ ثلاث فرق: فرقة رعية، وفرقة علماء، وفرقة الأكابر الذين لا ينالهم مغرم ولا غيره، فلما وقع ذلك الاتفاق انخزل عنه العلماء والأكابر، فوقع شنآن آل إلىٰ أن اصطلحوا علىٰ أن يكتب كل من أراد شيئا مراده في رقعة ثم يجمعون الرقاع ويحسبونها، فإن خرجت رقاع الرعية أكثر عمل بقولهم ففعلوا ذلك، فإذا رقاع موافقي الرعية أكثر فاتصل الشنآن بينهم، وخرج الأمر عن الضبط وتغلَّب العوام فحملوا يومًا (1) علىٰ برج لهم عظيم شديد التحصين بحيث لا يُرام فهدموه في أقرب مدَّة، وتغلَّبوا علىٰ ملكهم فبقي تحت يد قهرهم، فأجروا عليه رزقا يكفيه مؤونته وفطموه عن الأمر والنهي، واتفقوا علىٰ أن يكون الأمر للديوان بأن يجتمع كل سنة اثنان من كل بلد فيُبرموا من الأمور ما شاؤوا إبرامه ويفترقون، وازداد التضييق علىٰ ملكهم فهرب منهم، فظفروا به وقد كاد أن ينجو.

ثم آل الأمر أن عزلوه عن الملك بالكليَّة وصيروه من جملة السُّوقة لا يُلقب بألقاب الملك ولا غيرها ليكون لهم العذر إذا قتلوه بأنَّهم لم يقتلوا ملكا، وإنَّما قتلوا شخصا من

(1) وهو يوم 14 جوليت.

عوام الناس، واتفقوا على أن لا يسود أحدٌ أحدًا بعلم ولا غيره، وأنَّ الناس كلهم سواء لا شريف ولا دنيء، ينادى بعضهم بعضا بأخي، ومتى ظلم أحد أحدا انتصروا له جميعا، فأزالوا ظلامته، وأخذوا الحق من الظالم، وأبطلوا جميع المكوس والوظائف السلطانية، وأخذوا جميع ما بأيدي علمائهم من الأحباس والأموال، ونفوهم من البلاد فتفرَّقوا في البلاد النصرانية، فقاموا بحقهم وبقوا هم بلا دين يفعل كل منهم ما أراد من جهة الدين ولا ينكر عليه، ثُمَّ قتلوا ملكهم وقاموا قومة واحدة على من يُعاديهم فأخذوا أكثر ما يُجاورهم من بلاد الانبلاذور، وإذا ظفروا ببلد قالوا لأهلها: إنَّما قمنا لأن نخلصكم من الظلم فكونوا على مثل رأينا، فتسارع الرعايا إلى موافقتهم، وبعثوا إلى جميع أجناس النصارى يأذنونهم بالعداوة، وقد كان الملوك عزموا أن يقوموا عنهم جميعا ليردعوهم عن سلطانهم، فلما رأوا فعلهم وتغلبهم على من حاربوه تقاعدوا عنهم، وصار كلٌّ يطلب أن يكفُّوا عنه، وهم إلى الآن على ذلك يبلغنا العجب من أخبارهم، والله المسؤول أن يبقي بينهم كيدهم ويشغلهم بأنفسهم، آمين.

و(**الفتح**) آخر البيت تقدم، وآخرها المراد به غزوة الفتح التي فتح الله تعالى بها على نبيه ﷺ مكة، وأقرَّ عينه في قريش بسببها، والحديبية المرادُ بها قصتها المشهورة التي صد فيها النبي ﷺ عن البيت، فهي على حذف مضاف أي: مثل قصة الحديبية، والحديبية بئر قرب مكة، أو اسم لشجرة محدودبة كانت هناك.

والمعنى أنه لما تحقق إذن السلطان له في غزو تلك البلاد التي طالما طلب الإذن فيها فلم يُجب إليه ولم ينعم به السلطان عليه حتَّى أتاه الله بهذا السبب المذكور، وهداه لهذا السعي المشكور، فاستفاد طلبته المأمولة، وراجت شفاعته المقبولة، بإذن السلطان في غزو أعدائه، لعلمه أنَّه ماحق العداء وحاسم عروق دائه، إذ هو أبو الفتوحات

المشهورة، والغزوات المأثورة، يقرِّب البعيد بسعيه، ويبشر القرن المجادل بنعيه، فلما لم تساعد الأقدار أمره ولم يتأت له أخذها في هذه المرة، رجع إلى مقر حكمه وداره الرفيعة، ليجمع العدد التي يُقاتل بها أمثال أولئك الجهلة في المدن العظيمة والحصون المنيعة ـ من المدافع الكبار، التي تزلزل الأسوار، وقدور البونبة التي تهزم الأعمار، وتهدم الديار، وتفني الجموع وتبيدها، وتقلع القلاع أو تميدها ـ ويستكثر من الرصاص والبارود الذي هو في هذا الزمان للحروب أساس، ويستجلب حفرة اللغم وغيرها كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ ذكره، فكان في رجوعه عنها فألٌ عظيم دال على الفتح وأخذ تلك البلد دون كثير مضرَّة مأخوذ من قصة الحديبية الواقعة قبل فتح مكة المشرفة، فإنَّ النبي ﷺ لما صُدَّ عنها عام الحديبية جعل الله ذلك فتحا، ثُمَّ فتحها عليه دون كبير قتال.

ولما كان رجوع هذا الأمير عن هذا البلد صدًّا من المشركين له عنها رجونا من الله جل شأنه أن يفتحها عليه كذلك، ولا بدع في أن تهب نفحات النبي ﷺ على أمته، فينالون رشح ما ناله من بحور البركات والخيرات، سيما من كان متبعا سبيله قاصدا قربه بجهاده عدوه، ولكون الحديبية فتحا قال **البراء بن عازب** (رضي الله عنه): أنتم تعدون الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نَعُدُّ الفتح بيعة الرِّضوان كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صَبَّه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنَّها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا، وقال رجال من الصحابة: والله ما هذا بفتح، لقد صُدِدنا عن البيت وصُدَّ هَديُنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح: قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما

كرهوا، وأظهركم الله عليهم، وأنا أدعوكم في أخراكم ؟ أتنسون يوم الأحزاب ؟ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم»، فقال المسلمون صدق الله ورسوله، هو أعظم الفتوح، والله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا.

وتمام الكلام على الحديبية وغزاة الفتح يطلب من المطولات، وكانت الحديبية في ذي القعدة من سنة ست للهجرة.

وفي البيتين الجناس الناقص والتام والتصدير والتلميح بقصتين في شطر واحد، وهو من أبدع التلميحات، والتسهيم.

ورتب المرابطين في الجبل　　من كل حبر عن هوى الموت جبل
وكل مقدام همام وبطل　　منذ بدا باد الضلال وبطل
مؤمرا لشيخنا الجلالي　　محمد الأحق بالإجلال

المراد بالجبل هنا جبل المائدة المطل على **(وهران)** من الجهة الشرقية منه، وعلى مرساها من جهته الغربية، و**(الحبر)** العالم، و**(المقدام)** الكثير التقدم في مواطن الحروب، و**(الهمام)** يُراد به السيد الشجاع، و**(البطل)** الشُّجاع، و**(باد)** عدم، و**(الجلالي)** نسبة إلى جده أبي جلال، وهو شيخنا المُعظم المفضل كاشف الغوامض، بذِهنه الذي هو أسنى من البرق والوامض، المقدَّم في حلبة العلوم، ومباحث المنثور والمنظوم، النقَّادة النحرير، الشاهدة له دروسه بالتحقيق والتحرير، ذو الفضائل الوافرة، والمحاسن التي لم تزل في الناس على كثرتها متظافرة، **أبو عبد الله** السيد **محمَّد بن الموفق بن محمَّد بن عبد الرحمٰن بن محمَّد بن محمَّد** (بفتح الميم) المشهور **بأبي جلال** أدام الله علوه في تلك السيادة، وأبقاه موصوفًا بالفضل والمجادة، لابسا من البرد برده وبجادة، نشأ (رضي الله عنه) بين علم وأدب يقتبسه، وأدب يلتمسه، ثم رحل إلى حضرة فاس، وحل بهاتيك

الساحة الطيبة الأنفاس، فالتقىٰ بعلمائها الأكابر، واستفاد عنهم ما تقصُر عن جمعه أهل المحابر، وشهد له أكابرهم كالسيد عمر، بأنه اجتنىٰ من الفتح الرباني أطيب الثمر، ثم رجع وقد ظهر وبهر، وحل فرقده في دارة القمر، فدرَّس في بلدنا فيما درَّس من العلوم، وجدَّ إلىٰ أن وجد مسلكا لإحياء تلك الرُّسوم، ثم ارتحل إلىٰ الحجاز فالتقىٰ بعلماء الأمصار وجالسهم، وباحثهم في غوامض المسائل ونافسهم، ثم رجع وقد أدَّىٰ الفريضة، وعطر الآفاق بأزهار روضة علومه الأريضة، وهو الآن كهف إليه الملاذ، وجبل به المعاذ، تفك بجاهه الشاة من فك الأسد، وترتاح في مراح دروسه الرُّوح كما يرتاح الجسد، ألا وإنَّه من أكبر شيوخنا الذين انتجعنا رياض دروسهم، وانتفعنا كلَّ النفع بما اجتنينا من غروسهم.

وقد كتب لي إجازة أردت أن أُقيدها خوفا عليها من الضياع، وإهمالها في وسط الرِّقاع، ونصُّها:

بسم الله الرحمـٰن الرحيم، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله حمدا لا ينبغي لأحد سواه، تتخلىٰ عاجزة عن القيام به الآذان والأفواه، الذي جلت آلاؤه عن أن تحاط بعدّ، وتعالت كبرياؤه عن أن تشمل بحدّ، تاهت في معرفته سباق سابلة الأفهام، وغرقت في بحار عزته سوابق سابحة الأوهام، وكيف لا وإمام الأكوان بلا شقاق، ومقدم أولىٰ العلوم بالاتفاق، قد قال ما قال، فلم يبق لأحد مقال، اللَّهم لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك، فإذا أطبقت النقول، وأجمعت العقول، علىٰ أنَّ العجز في جانبه إدارك، وذا مما ليس عنه انفكاك، وأنَّ جميع ما يخطر في مرآة العقول من الارتسام، مباينٌ له تعالىٰ بل هو محض تخيلات وأوهام، لعدم انفكاكه عن سمات محدثات الأكوان، ليس كمثله شيء جاء به متواتر القرآن، فحمده

تعالىٰ أحسن ما اشتغل به الجنان، وأحلىٰ ما نطق به اللسان، وألذ ما سمعته الآذان، وأفضل ما خط القلم بالبنان، فسبحانه من آخر من حيث هو أوَّل، ومن أوَّل من حيث هو آخر، ومن ظاهر من حيث هو باطن، ومن باطن من حيث هو ظاهر، والصلاة والسَّلام علىٰ من هو كهفنا سيما عند حلول المخاوف، ومعاينة المعاطب والمتالف، فهو ﷺ الأمن من العذاب في الدارين، والنِّعمة العظمىٰ والرَّحمة الكبرىٰ في المكانين، وعلىٰ آله وأصحابه بدور الأمة، وأدلة الأئمة، اللَّهم بجاهه مع صحابته فرِّج عنا المضائق، واقطع عنا العلائق، واكشف لنا الحقائق، واجبر لنا الكسر، وبين لنا حقيقة الأمر، فإنَّك الذي حققت الحقَّ وبينته فجعلت عليه نورًا، وأبطلت الباطل وأزهقته فجعلته هباءً منثورًا، اللَّهم أرِنا الحقَّ حقا وأعنا علىٰ اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وأعنا علىٰ اجتنابه، آمين.

هذا، وإن ولدنا الفقيه النحرير، الحسيب الشهير، السيِّد **أحمد بن محمَّد بن علي بن سحنون** الشَّريف، صاحبَنا عدَّة ليال وأيام، وتردَّد إلىٰ مجالسنا تردد الكرام، وسلك معنا في الفنون عدَّة مسالك، من غير اختصاص بألفية ابن مالك، حفظ الله نجابته للانتفاع، ووسَّع صدره للعلم غاية الاتساع، ثم سألني أن أُجيزه لتشبيهه إياي بالغير، سالكا في ذلك طريق أهل الفضل والخير، فكلفني أمرا شططا، وألزمني مهامه يحارُ فيها القطا، فأعوذ بالله أن تحدثني نفسي الأمارة، بما ليس لي عليه بيِّنة ولا أمارة، فأنا والله لست ممن يجيز بل ولا ممن يُجاز، ولا ممن ينحاز ويحاز، ولكن القضاء مع الاقتداء بالسلف، سهل مثل ذلك علىٰ الخلف، والنية لا زالت أساس الأعمال، وصلاح كل حال، فحينئذ قلت: قد أجزت ولدنا فيما قرأ عليَّ، وفيما تحصل لي وانتهىٰ إلي، من أصول وفروع، ومروي ومسموع، أو مُؤَلَّف وموضوع، ولبيت دعوته، وقبلت طلبته، وقلت: قد أجزت الفقيه

المذكور في جميع ذلك ما حضر قراءته علي وما لم يحضره إجازة تامة، مطلقة عامَّة، بشرطها المقرَّر، وقيدها المُعتبر، وهو الصدق والأمانة والتَّحري، وأن يقول فيما لا يدريه لا أدري، موصيا له برفع الهمة، وحفظ الحرمة، والعمل بالعلم، فإنَّه يستجلب النُّور والفهم، وتقوىٰ الله الذي لابُدَّ لنا مِن لقائه وأن يسهمنا من صالح دعائه.

وقد كان قرأ علي أكثر صحيح الإمام أبي عبد الله محمَّد بن إسماعيل البخاري درسا، وسمع باقيه بحضرتنا، وأكثر القرآن العظيم درسًا، وقرأ علينا أوائل **كبرى** الشيخ **السنوسي**، ومعظم **(جمع الجوامع)**، بل معظم شرحه لـ: **جلال الدِّين المحلي**، وكل **(جوهر)** الأخضري و**(سلَّمه)**، وباحثنا بأكثر السَّعدين وحواشيهما حالة قراءة **(الجوهر)**، كما قرأ علينا جميع **(ألفية ابن مالك)** مُباحثا أكثر شروحها، كما قرأ علينا **(رسالة الوضع)**، و**(نخبة)** ابن حجر قراءة تحقيقٍ في الجميع، وغير ذلك ممَّا أجزناه فيه إجازة تامة، شاملة عامة.

أجزنـا لكـم مروينـا مطلقـا ومـا   لنـا سـائلا أن تتحفـوا بـدعاء

بلَّغنا الله وإياكم من رضوانه الآمال، وختم لنا ولكم بأحسن الأعمال، ومَنَّ علينا وعليكم بالبشرىٰ، وجعلنا من أهل وداده أهل الحسنىٰ والزيادة دنيا وأُخرة، آمين وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمَّد، وآله وصحبه وسلم.

وكتب في السادس والعشرين من ربيع الثاني سنة ثلاث ومائتين وألف محمَّد بن عبد الله الموفق الجلالي، وفقه الله إلىٰ أن يرقىٰ كل مقام عالي، فإنَّه تعالىٰ الكريم المتعالي.

استدراك: هذا التاريخ لمبيضتها وإلَّا: فهذا كتب أواخر القرن رجب من السنة الرابعة من القرن الثالث عشر، وعاق عن كتبها علىٰ الفور تشتيت البال، وضيق الحال، وترادف الأهوال، كأمثال الجبال، لمفارقة الإخوان، وموت الأعوان والخروج من

الديار، إلى بادية العار [1] ثلاث مرار، وأرسلت علينا رياح الأقدار، فلم يكن لنا على السكوت اقتدار، وعلى الله الاعتماد والتكلان، ونعوذ به من الحرمان والخذلان، فإنَّه تعالى الرؤوف الرحيم الرحمٰن، والوسيلة نبي الرحمة، ومفزع الأمة، إمام الأنبياء، ولد عدنان، عليه من الصلاة والسلام ما لا يسعه زمان ولا مكان.

---

(1) قال المعلِّق في النسخة الاصلية مايلي: «فلله در الشارح لأرجوزته حيث قال بدية (كذا) العار ... الخ، كما وقع بالكاتب من الخروج مرارا مع قبيلة مجاهر للصلح بينهم وبين من عاداهم وطلبوا منا النصرة فاستنصرناهم وسرنا معهم الليل والنهار، وقطعت في شأنهم المفاوز والقفار، وغلقوا الأتراك الأبواب دوننا وبنوا الأسوار، ومنعونا من الدخول إلى بلدنا الأصلية لنا الطارية لهم حسدا وبغضا لما أزال الله ملكهم على يد الكافر وصاروا تحت بنديرته لأنهم رضوا بالكفر ولم يرضوا بولاية الأشراف المنسوبة للعرب، ثم بعد ذلك أن من استنصرناهم سلموا فينا وركنوا إلى الترك وباعونا بشرب القهوة المرة وأخذ الهندي وغيره وصاروا يطلبون المال منهم لأجل قتلنا فحفظنا الله منهم ومن أتراكهم ولكن قدر الله بالمتابعة مع من لا يستحي بالعيب ويتبع حبيبه بالتافيه (كذا) ولا عليه يغار، ورحم الله من قال:

فاجنب الأعراب واحذر عن صحبتهم ... فــإن صــحبتهم شر ومحبــتهم مكــر

... الخ، ومع ذلك أخذتنا الغيرة عليهم لكثرة الظلم بهم فنذروا ملوكهم الأتراك بأخذ أموالهم وقتلهم وأخذ تركاتهم وإباحة المنكر فيهم إلى غير ذلك حتى صاروا يملكونهم بالبيع والشراء حين يقامر التركي أخاه فالله يصلح حالنا وحالهم ويوفقنا كما يحبه ويرضاه إنه على ذلك قدير وبالاجابة جدير كتب عبد ربه المنفي من بلده محمَّد بن الطاهر بن يدر الشريف (وفَّقه الله) آمين، بغرة شهر الله رجب عام 1246» اهـ.

إنَّ هذا المعلِّق من أسرة علمية مشهورة بمستغانم توارث أفرادها العلم، وذكر بعضهم صاحب (**سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من الأعيان**)، وأنَّه سجل هذا التعليق على ما يظهر من فحوى كلامه بعد الاحتلال الفرنسي إذ عين الفرنسيون أحد أبناء البايات واليا على مستغانم وسموه باشا وقد احتفظت على أمانة النقل فلم أغير شيئا مما وجدته في الأصل.

و(**الإجلال**) التعظيم والتوقير، والمعنىٰ أنَّ الأمير أبقىٰ الله محاسن ذاته ولا كدَّر لذاته، كان في الفارط جمع المرابطين في أحواز (**وهران**) بقصد التضييق علىٰ الكفار، فبلغوا مرامه فيما بعد عن مرمىٰ مدافعهم، وما نأىٰ عن أحوازهم الخاصَّة، ومع ذلك فلابد من خروجهم إلىٰ ما يُجاورهم من الرِّياض، ويقاربهم من الآجام والغياض، في الغفلة الناشئة عن ملل الاحتراس، ما يمكن العدو من الاختلاس، ثُمَّ لما رجع من غزاته [1] هذه، وعزم علىٰ إعادة الحصار والغزو، وأن يُفني بقية العمر في جهاد الكفرة حتَّىٰ تتمحَّض مملكته لله وتطهر من دنس الشرك وخبثه، ناويا أن يُطهره بذلك من ذنوبه ويكتبه في ديوان المجاهدين الجاهدين، دافعا لكل ما يلزمه في مُؤَنِها من خاصِّ ماله، غير مُستعين عليها بسلطان غير الله تعالىٰ وإن نفد جميع ما بيده، لأنَّ السلطان قد كان صالح الكفرة الإسبانيين علىٰ جميع البر والبحر إلَّا بلد (**وهران**)، فإنَّه وكَّل أمرها إليه، فامتنع من مصالحتهم لما سبق في قضاء الله تعالىٰ له فيها من السعادة، إذ لو صالح لما أمكنه أن يوقع هذه المنقبة التي أتمت له المفاخر والسيادة.

ثم إنَّ الله نبَّهه لإحياء ذلك الموات بالزلزلة السابقة الذِكر، فثار ثورة الليث وأحلَّ بالأعداء أشدَّ البأس والمكر، وحاز أكمل الثناء وأجمل الذِكر والشكر، فلما كان السلطان مُصالحا امتنع من إعانته ولو بقُلامة ظفر، فالمسؤول من الله أن يعينه، ويُورده من سلسال الجنة معينه، خاف[2] أن يبني الكفرة في مدة تجهزه **بجبل المائدة** ما يمنعه منهم وهو من أكبر عوراتهم، ومحال مضراتهم، فظهر له أن يُوَجِّه له الطلبة يحمونه منهم، ويحوطونه عنهم، فدعاهم إلىٰ ذلك ورغبهم في وافر العطاء، ومنع الناس من

---

(1) في أصل التأليف: «الغزوات»، فلا داعي إلىٰ تبديلها بغزوة، وقد تكرر هذا التبديل من الناسخ.

(2) جواب لما.

التدريس في المدن، وأن لا يكون تدريسٌ إلَّا في ذلك الجبل، فانتدب لذلك جماعة منهم خوفا وطعما، فأمَّر عليهم شيخنا السيِّد محمد بن عبد الله المذكور آنفا، ودفع ما يعمُّ غالب من اجتمع له من العِدَّة والبارود والرصاص، وما يكفي جميعهم من الأطعمة وغيرها مما يحتاجون إليه حتىٰ الجلود لخصف نعالهم، وما يقوم بهم من الدراهم فيما عسىٰ أن يحتاجوه، فخرج بهم أواخر ربيع الأول وقد تقدَّمه بعضهم بأيام ومعه العلَّامة الأديب، الدَّراكة الأريب، فارس حلبة العلوم، ومُقدم أهل المنثور والمنظوم، ومِقدام ميادين الحروب، المنفس علىٰ رفقته شدائد الكروب، السيد المشذب، المخصوص بالطبع المهذب، محبنا الأصفىٰ، وخِلُّنا الأوفىٰ، قاضي بلدنا السيد الطاهر بن حوا، جمعنا الله به في جنة المأوىٰ. وسيدي الطاهر هذا هو القائل في دارنا [1]:

وهو القائل في كتاب لي أَلَّفته في الأدب أيام الصِّبا سميته عقود المحاسن:

كتاب عليه رونق الحسن بادي ... ومحكم نظمه أغاظ الأعادي
بديع بليغ ليس يوجد مثله ... بكتب أئمة القرىٰ و البوادي
حوىٰ ما حوىٰ مما يروق ذوي النهىٰ ... ويجلو الأوار عن قلوب صوادي
عليه به ذو همة أدبية ... ففيه له مغنىٰ عن ابنٍ وزاد
وفيه له مغنىٰ عن الكتب كلها ... وفيه له البشرى بنيل مراد
وكيف و كيف لا وجامعه أبو ... المكارم أحمد بن خير العباد

ثُمَّ بعث الأمير إلىٰ ولي الأمَّة الشهير وشمس علمائها، الذي نادىٰ بفضله علىٰ منار المجد أسمع جهير مفني عمره في خِدمة العلم وطلبته علىٰ ممرِّ الأيام واستمرارها، المفيض علىٰ تلامذته أصفىٰ بركاته وأشهىٰ مدرارها، شيخنا **السيد محمَّد بن علي بن**

(1) (بياض بالأصل).

الشَّارف المازوني أفاء الله علينا من ظلال بركته الوارف، وكان مُطاعا عند الطلبة مُهابا بينهم ما أمر بشيء إلَّا امتثلوه، ولا نهىٰ عن غيره إلَّا تجنبوه، فقدم عليه هو وولده شيخنا السيد **هني** (رحمه الله)، وأخوه السيد **محمَّد** (أبقاه الله) في نحو المائتي طالب، فدفع لهم العُدَّة وآلاتها وألحقهم بإخوانهم، فلما كانوا بقرب الجبل **الوهراني** خرج عليهم الكفرة، والمنافقون المنحازون إليهم في عدد لا يُحصىٰ، والطلبة غارُّون وأكثرهم لا علم له بالحرب، ولا بكيفية أخذ السِّلاح شأن المشتغلين بالقراءة، وهم مُتفرِّقون فكان لهم بحسب العادة أن يأسروهم جميعا، غير أنَّ الله تعالىٰ لطف بعبيده فانحازوا إلىٰ الجبل، واجتمع بعضهم فقاتلوهم حتىٰ قتل بعض الكفرة، ولم يمس المسلمين ضرر إلا اثنين منهم جرحا فسلما، ولحقوا بإخوانهم، فكثُر عددهم، وتواصل مددُهم، وقد كان الأمير جَهَّزَ نحو الستة من الطلبة ألبسهم لباسا جيِّدا ودفع لهم عُدَّة رفيعة ولأمة كاملة ودراهم ووجههم يسيرون في البلاد القريبة يجمعون الطلبة، ويُرغبونهم فلم تمض إلَّا أيام قلائل حتىٰ قدموا بنحو الأربعمائة طالب، فبعث لهم بالأسلحة، وكل ما يحتاجون إليه، ولم يزل مددُهم يتواصل حتىٰ أَرْبَىٰ عددهم عن الحَدِّ، كل هذا وهو يوجِّه لجميعهم بالأطعمة، والسمن، والزيت، والفواكه ونحوها، وبالشاء والبقر للذبح، وبما استحدث من السِّلاح والبارود، وبالدَّراهم للصابون وشراء المناطق والنِّعال، ويبعث مع ذلك في كل شهر من يقسمه عليهم من أُمنائه حتىٰ ترتفع التُّهم منهم عن أميره عليهم، وتحصل له الإعانة، وقد كان مطبخهم واحدًا تأخذ كلُّ جماعة منه ما يكفيها، فلما كثروا وعجز الطباخون عن القيام بجميعهم ظهر له أن يدونهم خمسة وعشرون، خمسة وعشرون في الديوان، ويدفع لكل ديوان ما يكفيهم من الطعام والدَّراهم لشراء المصالح، فبعث من دَوَّنَهم بعد أن فاوضهم في القَدْرِ الذي يكفيهم من ذلك، فاتَّفق رأيهم علىٰ أربعين صاعا من القمح لكل ديوان في الشهر، وخمسة وعشرون لمصالحه.

فكانوا يذهبون بالقمح لمن يُجاورهم من الأعراب يطحنونه لهم بأجرة فصعب ذلك عليهم، وكانوا لا يفترقون معهم غالبا [إلا] عن خصومة أو مضاربة، فالتزم لهم بدفعه مطحونا بنقص ريال من واجب كل ديوان، ثم بدا له فبنىٰ لهم ثلاث أرحاء ماء بنهر مسرقين بينهم وبينه نحو الثلاثة أميال لجهة الغرب، كلُّ هذا وهم يتزايدون حتىٰ إنَّهم قسَّموا الرزق أول رجب علىٰ نحو الستين ديوانا، ثم قسمناه بينهم أول شعبان علىٰ نحو التسعين ديوانا، وقسم بينهم في آخره علىٰ ما ينيف علىٰ المائة، وتصدَّق عليهم أول شعبان بزيادة ريال لكل شخص، وقد كان اشترىٰ لهم نحو الألف سيف، فأمر فجُعلت لها الأغماد والحمائل، ثم بعثها لهم ففرقناها عليهم مع بعض المكاحل التي كان يُوجهها إليهم مرَّة مرَّة، فتسابقوا إليها وتزاحموا عليها إلىٰ أن آل الأمر إلىٰ أنَّهم خطفوا بعضها نهبة، ثم ردوه فقسم عليهم سواء.

وبالجملة فقد قام بهم أحق القيام وأوفاه، وبرد بهم غليل الدين وشفاه، وإلىٰ ما تقدَّم أشرت بقولي:

ملتزمـــــا لـــــــرزقهم جميعـــــا ملبيـــــا لقـــــولهم ســـــميعا

وفي الأبيات: التصدير في الثلاثة الأول، والجناس المحرف في الأول، والمستوفىٰ، والاشتقاق في الثاني، والناقص في الثالث، ولو قلنا: (**الأحق بالجلال**)، لكان تاما، غير أنَّه منعنا مِن ذلك كون الجلال مِن أوصاف الباري تعالىٰ، فامتنعنا [مِن] جعل حادث أحق به وإن كان الجلالي والجلال مختلفَين، وفي الرابع الجناس المضارع.

فوقعـــت هنـــالكم حـــروب زيدت بهـا علـى العـدى كـروب
ومـــات في أولهـــا المفضـــل قاضـي القضـاة الطـاهر المفضـل

إنَّما قلنا: (**هنالكم**) لأنَّ الخطاب لجماعة الواقفين علىٰ الكتاب، والكاف في الإشارة

تختلف باختلاف المخَاطَب، فتقول: كيف ذلك الرجل يا زيد، وكيف ذلكما الرجل يا زيدان، وكيف ذلكم الرجل يا زيدون، وكيف ذلك الرجل يا هند، وكيف ذلكن الرجل يا هندات، وصور ذلك ستة وثلاثون من ضرب ستة صور المخاطب في ستة صور المشار إليها، انظر **الأشموني** فقد جعل لها جدولا.

والمعنىٰ أنَّ الطلبة لما استقرَّت بهم الدار بالجبل اشتدَّت شوكتهم علىٰ النصارىٰ، وعظمت فيهم نِكايتهم، وتكالبوا علىٰ قتالهم حتىٰ ضاق عليهم حجرهم، وكثر كربهم وحرجهم، وودُّوا لو أنَّهم هاموا في الأفق الفيَّاح، أو صاروا أوراقًا تلعب بها أيدي الرِّياح، وسبب تلاقيهم أول يوم أنَّ الطلبة ظفروا ببعض النصارىٰ هرب من بلدهم فأخبرهم أنَّه خرج معه اثنان فتفرَّقوا في طلبهما، فالتقوا بجنود الكفرة خرجوا عن حِماهم، فلم يُمهلوهم وتقاتلوا بقية نهارهم حتَّىٰ حجروهم إلىٰ قُرب أسوارهم، وقتلوا منهم نحو الستة، وجرحوا اثني عشر، ونفد الرَّصاص والبارود علىٰ الطلبة، وفيهم من رمىٰ نحو الأربعين سهما، فشرعوا في الانسلال وأهوىٰ محكم أمرهم للانحلال، واضطروا إلىٰ الرَّمي بالحجارة، فلما علم الكفرة بذلك تكالبوا عليهم، وجدُّوا في قتالهم فقتلوا منهم ثلاثة، أحدهم حامل الرَّاية، فأخبر به العلَّامة المفضال، أسد الحروب الذي لا يسأم النضال، ذو الكمال الباهر، قاضي المعسكر السيد الطاهر[1] فرجع (رحمه الله) إليه، فلما توجَّه نحو العدو وسدد مكحلته ليرمي بها أُصيب في ذراعه الأيمن قرب الأكحل ببندقة خرجت من مُنتهىٰ عضده، ثم دخلت جوفه فولىٰ (رحمه الله) وكانت

(1) **الطاهر بن حواء**: من أسرة علمية منهم محمد بن حواء صاحب (**سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من الأعيان**)، وقد ذكر فيها الطاهر هذا، وأما سميه الطاهر بن حواء الشاعر الشعبي المشهور، والذي تولىٰ القضاء في عهد الأمير عبدالقادر فمن قرابته.

إصابته على الطلبة من البلاء العظيم، والرزء الأليم، وركب الكفرة أكتافهم، فجرحوا منهم نحو الستة عشر، ثم افترقوا مساءً وكان يوما مطيرا باردا، وذهب الطلبة بالسيد الطاهر مرتثا، فمات بعد ذلك بليلتين عقب صلاة العشاء أول ليلة من جمادى الأولى، ففُقدت بفقده محاسن الأخلاق، وعدم معه الحياء من أمثاله على الإطلاق، وذهب الوفاء والإنصاف ولم يبق أحدٌ مثله مصاف، وبكته العيون الجامدة، والقرائح الخامدة (رحمه الله وأسكنه فسيح الجنان، وأحله منازل الرضى والرضوان).

وقد رثيته بقولي:

عز نفسك عن صروف الزمان ... كل شيء على البسيطة فان
كل من عاش لم يزل كل يوم ... يشتكي من إصابة الحدثان
إن للنائبات قوسا وتيرا ... عرضت لسهامه الثقلان
ما لنا نشتكي المنايا وأنا ... قد خلقنا لها بحكم العيان
أعلى الزرع في الحصاد اعتداء ... إن جنا زرعه من الأرض جان؟
صبر النفس إن قدرت وإلا ... فدع المقلتين تنهملان
إنما قد فقدنا من ليس للقلب ... على الصبر عن نواه يدان!
ماجد شهدت عليه البرايا ... إنه سيد بكل مكان
ساد بالعلم والتقى العطايا ... وبنى المجد فهو أكرم باني
وبنفس زكية ساد طفلا ... وسماح من أن له فيه ثان
ليس فيه من المعايب إلا ... أنه ما له من الناس شاني
لو تحلى بخلقه البدر يوما ... ما اعتراه المحاق في كل آن
والمنابر أعولت ودروس العلم ... علم الهدى وعلم البيان
والنوازل أعضلت وتردى ... كل بحث بعيده بالهوان

وغـدت أعـين الأحبـة قرحـىٰ والقلـــوب عليـــه في هـــيمان
وصفوف الحروب أمست شتاتا منــذ أصـبح في قصـور الجنــان
يترقـــىٰ مراقـــي العـــزّ بـــين الشـــهداء عليــه تــاج الأمــان
كـان بـدر العلـوم في كـل حفـل يهـــدي للعلـــماء نـــور البيـــان
فغــدا في منــازل الخلــد بــدرا يـــتلألأ بـــين حـــور حســـان
آه مــن فقــده الــذي قــد بــراني بوبيـــل اشـــتياقه مـــذ عـــران
وسـقاني نقـيض مـا قـد سـقَته الحـور حـين ارتـوىٰ بـأحمر قـان
ورمـىٰ مهجتـي بـما قـد رمتـه الكـــافرون بـــه رواح الطعـــان
يـا زمـان فراقـه، أنـت عنـدي وقـت حـزن وحـيرة في جنـان!
أظلـم الجـو فيـك عنـي نهـارا حـين أشرق عنـه كـل زمـان
وجـرت أدمعـي عليـه غـزارا مثـــل وابـــل مزنـــة هتـــان
أو يمكننـــي التصـــبر عمـــن لـيس عـن وصـفه يطيـق لسـان؟
طـاهر طـاهر الصـحيفة والعـر ض نقـــيُّهما مــــن الأَدران
مخلـص الـود إن دعـاه خليـل في مضـــيق أتـــاه دون تـــوان
يـا ابـن حـواء إن جفنـي قـريح عنـــك مفتـــتن وأي افتتـــان
كلما قد ذكرت شخصـك جـادت مقلتـــي للثـــرىٰ بنثـــر الجـــمان
وذكـرت صـفات مجـدك حتـىٰ تتمثـــــل لي كأنـــــك دان
أدب رائـــق وود صـــحيح وطبـــاع صَـــقيلةٌ كـــاليمان
ومباحـث في الـدروس لطـاف معجـــزات لكـــل ذي إتقـــان
وســلوك مســالك العــدل لا يثنيـك عنهـا مـن البريـة ثـان
مـآثر ضـخمة لـيس فيهـا لـك يـا أوحـد الزمـان مـدان

فهنيئـــا لـــك الشـــهادة والخلـــد مـــع الفـــوز فيـــه بالرضـــوان
وعليــك الســلام مــا قــال صــب عَـزِّ نفسـك عـن صروف الزمـان

ثم توافوا أيضا قرب **برج العيون** فتقاتلوا حتى ألجأهم الطلبة إلى التترس بخندقهم، وقتلوا نفرًا أحدهم من منافقي ولهاصة يقوم بجماعة، ولم يُصب من المجاهدين إلّا اثنان جُرحا فسلما، ثم توافوا يوما آخر مات فيه من الطلبة اثنان، ومن الأعداء ثمانية، ثم يوم آخر وهكذا ما خرجوا إلاّ خرّ عليهم الطلبة من علٍ فشرَّدُوهم كل مشرد حتى منعوهم جهة الجبل وما حوله، وصاروا لا يتجاوزون ما والى أسوارهم من ناحيته، وإنما يخرجون بأغنامهم لمتسع الوطا من جهة البحر، وما حذوه قرب مرمى مدافعهم والطلبة يطلبون منهم الغرَّة، ويُعيدون عليهم الكرَّة بعد الكرَّة، ويأتونهم حيثما خرجوا خُفية وجهرة، ويحملون عليهم حملات الأسود، ويظهرون من بسالتهم ما يغبط به العدو ويغيظ العدو والحسود، ولقد حضرناهم يوما وقد جاء صريخٌ بخروج بعض النصارى ـ ونحن نقسِّم بينهم مالا بعثه الأمير إليهم وهم في أشدِّ الحرص عليه والمزاحمة الشديدة ـ فلم يكن إلّا كلمح البصر حتى امتلأت بهم السبل الهابطة إلى البلد، فأتوها فوجدوا الكفار دخلوا بلدهم وغلقوا أبوابهم دونهم، فحمل طائفة منهم على جماعة من النصارى في عُسَّة لهم، فأخرجوهم منها، وجلسوا فيها يضربون نحو المدينة والأبراج إلى العشية، ثم رجعوا كأنَّهم أسود الغاب، وحفظ الله ظاهر عليهم ولطفه مكتنف بهم، ثم صاروا يكمنون لهم في ناحية الوطا وجهة البحر فلا يُوافونهم حتى كأنهم ينذرون بهم فينحجرون في مدينتهم.

ولقد بلغ من تهاونهم بأمر الكفرة أنَّ بعضهم عمد إلى قدر بونبة رموهم بها وفتيلها يشعل فبال عليها حتى أطفأها ورفعها فأخرج ما فيها من البارود، وآخر سقطت قربه

فرمىٰ عليها برنسه، وركب فوقها وهىٰ تدور به فقال لرفيقه: ويلك ثقلني حتىٰ لا تطير بي، فركب فوقه، وما فارقاها حتىٰ طفئت، ولقد رأيناهم تمرُّ بهم في الهواء فيتبعونها حتىٰ تسقط فتارةً تفترق في وجوههم فيحفظهم الله منها، وتارةً يُعالجونها حتىٰ يطفئوها ويحملونها إلىٰ الأمير ـ أدام الله نصره ـ فيأخذون منه ثمنها، وقد ظهر عليهم في ذلك وغيره من لطف الله وجميل ستره مالا يكيف ولا يكتسب بالحيل، حتىٰ إنَّ كثيرا منهم يُصاب بالرصاص المرتين والثلاث فلا يخدشه، ويأخذُه فيرمي به العدو، وقد كمن لهم الكفرة كم من مرَّة، ونصبوا لهم الخدائع فلم ينالوا منهم ولا قلامة ظفر، ويذهب الاثنان منهم والواحد إلىٰ مواطن القتال قُرب البلد فيظل هناك يلتقط المتساقط علىٰ الأرض، ويراه الكفار فلا يجسُرُون علىٰ الخروج إليه خوفا من أن يكون خلفه كمين، فلله الحمد علىٰ جميل ستره وخفي لطفه.

وقد حدثنا أنه لما وقعت الهدنة بينهم وبين الكفار بعث لهم مركيش النصارىٰ (دمرهم الله) يسألهم: كم مات منهم بالمدافع، وقال لهم: رميناكم بأكثر من ألف مدفع، فقالوا له: والله ما مات منا أحد بمدفع قط، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (البقرة: 258)، وكذلك كان الأمر، لم يُصب منهم أحدٌ بمدفع في جميع المدَّة التىٰ كانوا هناك وحدهم قبل نزول الأمير بالمحلة عليها؛ إلَّا واحد علىٰ شك فيه.

وبعد انتهاء الهدنة بيوم حملوا علىٰ الكفار في **البرج الصغير** الذي في الوادي فقتلوا منهم ثمانية أتوا برؤوس خمسة منهم، وبادر الكفار إلىٰ برجهم فغلقوه عنهم، واشتدَّ منذ ذلك ذُعرهم منهم حتىٰ إنَّهم كانوا في أيام الصُّلح الواقع عقب الجهاد إذا رأوا أحدًا يظنون أنَّه من الطلبة نفروا منه، وقالوا: تنح عنا فإنَّ الطلبة لا أمان لهم، ومالهم قصد إلَّا سفك الدماء، ثم حملوا عليهم أيضا أوائل رمضان في ذلك البرج فغلقوا الأبواب

وضاربوهم من الطيقان التي فيه، والطلبة يُدخلون مكاحلهم منها ويضربون، فكان ذلك اليوم على الطلبة من أيام البلاء والابتلاء، مات منهم نحوالستة عشر، وجُرح منهم كثيرٌ لم يتحقَّق عدده، كل هذا وهم (رضي الله عنهم) مشتغلون بقراءة القرآن والفقه والنحو لا يتركون إلَّا في أوقات القتال، وبالليل يبيتون يتلون القرآن العزيز لا يفترون عنه إلَّا نحو الساعتين من أوقات النوم، ومتى انتبه النائم وجدهم على حالتهم تلك، وسمع التلاوة من كلِّ ناحية في ذلك الوادي، فكانوا كما قيل في سلفهم الصالح (رضي الله عنهم) رهبانا بالليل أسودًا بالنهار، ومن رأى ذلك تحقَّق أنَّهم لو قصدوا الجبال لزُلزلت لهم بحول الله تعالى وكريم جاههم عنده، ويُقال: إنَّ السيد **محمَّد بن علي أبا طالب** هو الذي ضمن لهم أن لا يموت أحدٌ منهم بمدفع لما رأى خوفهم منها أول مرَّة، والله أعلم.

وانحجـــر الكفـــار في الأســـوار	**إذ صـــار أهــل العلــم كالأطيــار**
مثـــل البُـــزاة وقفـــت بمرقـــب	**تراقــب الصــيد بكــل مــذهب**
فمـــا رأت ســـانحا أو بريحـــا	**إلا غـــدا قتـــيلا أو جريحـــا**
حتى غدا الطـود علـى النصـارى	**خوفـــا، وأمنـــا للهـــداة صـــارا**

(**انحجروا**) دخلوا في حجر أسوارهم وبقوا فيها محجرين، أي: ممنوعين من الخروج، و(**المرقب**) موضع الارتقاب والإشراف، يُقال: ارتقب إذا أشرف وعلا، وموضع ذلك هو المرقب، و(**البزاة**) جمع بازي معروفٌ، و(**المذهب**) موضع الذهاب، أي: الطريق المذهوب فيها، و(**السانح**) من الطير والظبي، و(السنيح) ضِدُّ البارح مأخوذٌ من السنح بالضم، وهو اليُمن والبركة، فالبارح ما مرَّ من ميامنك إلى مشائمك، فهو ما أولاك مياسره، ضد السانح، وقيل: السانح ما أتى عن يمينك، والبارح ما أتاك عن يسارك، والعرب تختلف في عيافة ذلك، فالأكثر يتيمَّن بالسانح ويتشاءم بالبارح،

وعليه قول **النابغة** في التطير بالبارح:

زعم البوارح أن فرقتنا غدا ... وبذاك تنعاب الغراب الأسود

لا مرحبا بغد ولا أهلا به ... إن كان تفريق الأحبة في غد

وقال غيره في السانح:

أبالسنح الأيامن أم بنحس ... تمر به البوارح حين تجري

والأقل يتشاءم بالسانح، ومنه قول زهير:

جرت سنحا فقلت لها أجيري ... نوىٰ مشمولة فمتىٰ اللقاء؟

وذلك هنا من باب التمثيل، ومُؤدىٰ الأمر أنَّ أولئك الطلبة صاروا في مُلازمتهم ذلك الجبل يُراقبون النصارىٰ، فمتىٰ خرجت طائفةٌ لجهتهم بادروا إليها، وتركوها بين قتيل وجريح أو فار بنفسه، لا فرق عندهم في ذلك بين الكفار، ولا بين المنافقين المنحازين إليهم، ولا بين من خرج يبغي قِتالهم أو يبغي حاجة لنفسه، فهم في ذلك كالصقور الواقفة بموضع الارتقاب تراعي الصيد، فما رأت شيئا منهم إلَّا وثبت عليه لا فرق عندها بين السنيح والبريح، فيغدو ذلك الصيد منها بين قتيل أكيل، ومنفلت من بين مخالبها جريحا، وفىٰ هذا تلميحٌ بالمثل الذي ضربه يزدجرد لرستم علىٰ الصحابة لما دخلوا بلادهم حيث قال: «إنَّما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفت علىٰ مرقب عند جبل تأوي في ذراه الطير تبيت في أوكارها، فلما أصبحت الطير رأت العقاب هناك ترقبها فخافتها، فلم تنهض وطمعت العقاب فلم تَرِمْ وجعلت كلما شد منها طائر انقضت عليه فاختطفته حتىٰ أفنتها، فلو نهضت بأجمعها نهضة واحدة لنجت، وأشد شيء يكون في أن تنجو كلها إلَّا واحدًا».

و(**الهداة**) جمع هاد، أي: دالٌّ علىٰ الله تعالىٰ وملة نبيه ﷺ وأحكام شريعته، والمرادُ

بهم أولئك الطلبة المرابطون المجاهدون القارئون والمقرئون، وحيث صار أمنا لهم فهو أمنٌ لسائر المسلمين من بعد أن كان لا يحومه إلَّا من قصر أجله، واشتد من إحدىٰ الجهتين وجله، أو الجماعة الكثيرة التي تمنع نفسها من الجيش، أمَّا الواحد والاثنان إلىٰ العشرات فهيهات ما بينهم وبين العيش، فإذا وجد الكفرة أو أتباعهم به مسلما قتلوه أو أسروه، والمسلمون إذا وجدوا به كافرًا لم يُنظروه، أو مسلما اتهموه بالتغطيس فقتلوه، ولم يُؤخروه، فلله الحمد علىٰ ما ألهم إليه هذا الأمير، وأرشده إليه من الخير الشهير، والفضل النمير، وحبَّب إليه الجهاد حتىٰ شمَّر له عن ساعد الجد والاجتهاد، فكبت دين الطاغوت ودمَّره، ونقىٰ ذلك المحل من حكم الطاغية وطَهَّره، وما ذلك المحل بأكبر موطن أذاع فيه الأمان، كيف وإنها مسيرة ساعة من زمان، فأين هو من الصحراء العريضة التي جال فيها بسلاحه، وأطلعَ فيها فرقد سماحه، وهىٰ نار تضطرم في الجوف، وسم خياط من شدة الخوف، فمهدها للسالكين، ووصل منها إلىٰ ما لم يصله أحد من الأمراء الهالكين، فلله أبوه ما أشد حزمه، وأصلب في إقامة معالم الدين عزمه.

ثم إنَّ الطلبة ـ كان الله لهم وليا وبهم حفيا ـ لما سدُّوا سبل التغطيس، علىٰ مردة بني عامر الذين أكثرهم مغاطيس، قد رضع أكابرهم لبان الكفر في المهد، فهم يجدون مذاقه أحلىٰ في القلب من الشهد، كيف وآباؤهم كانوا أنصارا للكفرة، وأكثر أمهاتهم كانت بافتراش العلوج لها مشتهرة، فهم فصول أصولهم، لا يرضون إلا الاندراج في أبوابهم وفصولهم، امتلأت قلوبهم ببغضهم حتىٰ رمت بالشرر، وبدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، وصاروا يبغونهم الغوائل والضرر، وأكثروا من شكواهم للأمير حتىٰ أوغروا صدره، كاد أن يقطع عنهم ورد بره، ويكدر عليهم صدره، سيما قبيلة أولاد خالفة، التي لا تزال للحق مخالفة، ولا تسالم من نبذ الكفر أو خالفه، فإنهم

قاتلوهم على الضيافة، وتحالفوا أن لا يزالوا يبغونهم كل آفة، ثم تبين للأمير ـ أبقاه الله محفوظا، وبعين العناية ملحوظا ـ أنهم منطوون لهم على أكثر الإحن، فقلب لهم ظهر المجن وأبقاهم عرضة للمحن، وما كان سبب معاداتهم لهم إلا أنَّ قلوبهم مُلئت بالحزن على بلاد الكفر، والتخوف من أخذها من أيدي كفارها ليتخذوها معقلا لهم يهرب إليه جانيهم وسارقهم بأموال المسلمين وأهليهم وبنيهم، فبغضوا كل متسبب في أخذها، غير أنهم لم يتأت لهم إخراج ذلك البغض وإظهاره إلا للطلبة الذين أعصوا مردتهم بشجاهم وأماتوهم بوجاهم، فكانوا يطلبون الأسباب التي يوقدون بها نار الفتنة معهم فلم يجدوا سببا أكبر من كون الطلبة ضافوهم فقتلوا لهم كلبا عقورا، فأثاروا ما كانوا يطلبونه من الفتنة حتى جرحوا من الطلبة ستة من اثني عشر وهم يزيدون على المائة ثم سبقوهم بالشكوى إلى الأمير، فزعموا أن الطلبة قتلوا منهم واحدا، وأن سبب المشاجرة بينهم أنهم طلبوا منهم في الليل أن يأتوهم بالحماض قالوا فقلنا لهم كيف نميزه الآن من العشب، فقالوا: اذهبوا فامضغوا العشب وما وجدتموه حامضا فأتونا به.

فتغيظ الأمير لذلك وكتب إلى الطلبة كتابا أغلظ لهم فيه وتهددهم، وحبس واحدًا منهم كانوا أتوه به، فقدموا عليه واعتذروا له وبينوا له جلية الأمر، فرجع عن رأيه فيهم، وخلى سبيل محبوسهم، وشفعهم في أمور تشفعوا فيها منها: أن أخا السيد المصطفى بن عبد الله قدم في غِمارهم وسأل منهم أن يطلبوا الأمير يرد أخاه السيد المصطفى إلى يفري، فأسعفهم بذلك، وكان السبب في منعه من البقاء معهم أنه وقع بينه وبين أحد أبناء عمه شنآن أدى إلى انقسام الطلبة حزبين أحدهما معه والآخر مع مقابله، وكثرت السِّعايات وصار كل منهما يشكو صاحبه إلى الأمير ويدعي عليه أنه يسعى في تشتيت الطلبة والتضريب بينهم، فلما أكثروا عليه أمر أن يذهبا معا لأهليهما، إلى أن

سأله الطلبة فرد السيد مصطفى دون الآخر، وكتب لأولاد خالفة يأمرهم بدفع مائة سلطاني للطلبة، وعطل الأسواق من جميع إيالته من مينه [1] إلى أحواز تلمسان وأمر بجعلها قبالة (**بيفري**) ليمكن الطلبة شراء ما يحتاجونه من قرب ولا يذهبون للأسواق البعيدة حسما لمادة الفتن بينهم، وبين من امتلأت قلوبهم ببُغضهم من جميع العوام سيما أتباع المخزن الذين كانوا لا يعلمون إلَّا أن يظلموا الناس ولا يُظلموا، فقيَّض الله لهم من أخذ منهم بالثأر.

وإنما خصصنا بني عامر بالذكر لكونهم كانوا أشد الناس لهم عداوة، وقد وجدنا أوائل العلماء والأولياء يحذرون منهم ويغرون بهم الملوك منذ تسلط العدو على (**وهران**) أول مرة وهلم جرًّا.

ومن طالع كتاب: (**حزب العارفين**) و(**شرح الحلفاوية**) وغيرهما، رأى من خبائثهم العجب العُجاب، وهم إلى الآن مُشربةٌ قلوبهم بالنِّفاق مائلة إلى حب الكفار، طالبة لتغلب الكفار على جميع البلاد لتكون لهم الحظوة في دولتهم كما كانت لآبائهم، فجزى الله هذا الأمير خيرا عن حفظ حرمة الدين وقمعه أكف المعتدين، على أني لا أُبرِّئ جميع الطلبة، فإنَّ لكل قوم سفهاء يكونون لصفائهم فذا، وذلك محتملٌ من جنود الجهاد الذين يدفعون عن الاسلام الأذى، فقد قيل: الجيش جائحة، وإن كان جيش عمر.

وفى كتاب **الكلاعي** عن حمزة بن مالك الهمداني أنه قال في قدومه على **أبي بكر** (رضى الله عنه) ليخرج مع المسلمين إلى الشام كان معي رجالٌ من أهل القُرى من همدان فيهم جهلٌ وجفاء، فكانوا قد تأذَّى منهم المسلمون في المدينة، فشكوا ذلك إلى أبي بكر فقال:

---

(1) **وادى ميناء**: قرب غليزان.

نشدت الله امرءًا مسلما سمع نشدتي لما كف عن هؤلاء، ومن رأىٰ لي عليه حقا فليحتمل ذرب ألسنتهم أو عجلة يكرهها منهم ما لم يبلغ ذلك الحد، إن الله مهلك بهؤلاء وأشباههم غدا جموع هرقل والروم وإنما هم إخوانكم فلو أن أخا أحدكم في دينه عجل عليه في شيء، ألم يكن صوابا في الرأي وخيرا في المعاد أن يحتمل له، فقال المسلمون بلىٰ، قال: فهم إخوانكم في الدين وأنصاركم علىٰ الأعداء ولهم عليكم حق فاحتملوه لهم.

وفىٰ الأبيات: الطباق، والمقابلة، والترديد، والتلميح، والتعليل، والتقسيم، والجناس اللاحق، والتمثيل.

وهـــو إذ ذاك بـــلا اقتصـــار	**يهيـــئ الآلـــة للحصـــار**
بنفســـه يجمـــع كـــل أمـــر	**لا يكتفـــي في شـــأنه بـــالأمر**
وحشـر الصـناع مـن كـل بلـد	**وكـل ذي بطـش شـديد وجلـد**
ومـــن لـــه معرفـــة بـــاللغم	**وكـــل مـــا فيـــه زوال الغـــم**
فاجتمعـــت في أشـــهر قليلـــهْ	**لديـــه كـــل آلـــة جليلـــهْ**
لو رامها شخص عداه في سنه	**لم تأتـــه كمـــا أتتـــه حســـنه**
فبعـــث العمـــال للمســـالك	**فســهلوا الحــزن لكــل ســالك**

(**إذ ذاك**) معناه حين ذاك، أي في الوقت الذي وجه فيه الطلبة إلىٰ الرِّباط، وفعل بهم ما تقدَّم، و(**أمر**) الأول بمعنىٰ شيء، والثاني طلب الفعل مع الاستعلاء، و(**حشر**) جمع، و(**البطش**) الأخذ الشَّديد في كل شيء، و(**البأس والجلد**) الشدة والقوة، و(**اللغم**) سربٌ يُتخذ تحت الأرض، ثم يُملأ بارُودًا ويُكوىٰ فيهدِم ما فوقه من حصن أو غيره، و(**المسالك**) جمع مسلك، وهو الطريق، و(**الحَزَن**) بالفتح الوعر.

والمعنىٰ أنَّه لم يزل في جميع الأزمان التي وقع فيه ما ذكرناه جادًّا في جمع الآلات التي يُحاصِر بها الكفار ويقاتلهم بها من عمل عجلات المدافع وأسِرَّتها، ولديه من أسرة

البونبات، وجمع البارود والرصاص وكور المدافع، وقُدُور المهارس المشهورة بالبونبة، فوجَّه رُسُله إلى بلاد **الانقليز** لشراء ذلك، وترغيب أهلها في القدوم عليه به ليشتريه منهم بالثمن الوافر ملتزما بدفع كِرَاء السُّفن من عنده، وبضمان ما عساه يأخذه العدو في البحر من أهله، لأنَّ الكفرة جرت لهم عادةٌ أن من وجدوه حاملًا منهم بارودا أو غيره من آلات القتال إلى بلاد المسلمين أخذوا سفينته بما فيها وأهلكوه هو، ثم وجه لملك المغرب هدية مع قاضي محلته وأحد كتابه، وهو الأديب الماهر والعلَّامة الباهر محبنا السيِّد **أحمد بن هطال**، أبقاه الله محروس الذات من الطوارق في كل حال، وأمرهما باشتراء ما يجدانه من ذلك، فقر قاضيه، وذهب كاتبه إلى جبل طارق فبقي فيه مدَّة إلى أن قدم عليه بمائتي قنطار وخمسين من البارود، وقد سبقه بذلك سفن من النصارىٰ فيها كثيرٌ من الآلة، فاشترىٰ الجميع بأعزِّ ما يعزُّ علىٰ الملوك، وبعث أيضًا إلى ناحية **(زواوة)** من أتاه بكثير من البارود، فحصلت له بجميع ذلك أتمَّ الإعانة، ولقد كان يخرج بنفسه مع جنده وأعوانه للغابة لقطع الخشب الضخمة العظيمة من شجر البلوط ونحوه لإصلاح أسرة المدافع ونحوها، فتجمَّع لذلك المئون من الناس فيقطعون في اليوم ما لا يقطعونه بدون حضوره في الأشهر، ولا يكتفي في ذلك بأوامره المُطاعة حذرًا من التقصير، وحرصا علىٰ التعجيل والتكثير، وجمع لذلك ونحوه أرباب الصنائع من النَّجارين، والخرَّاطين، والحدادين، وصُنَّاع البارود من كل بلد أمكنه أن يجمع منها كـ **(الجزائر)** و**(تلمسان)** و**(مستغانم)**، وصُنَّاع بلده وما في ملكه من النصارىٰ.

فاجتمع لذلك مئون من الناس يأخذ كلٌّ منهم أُجرة وافية حتىٰ مماليكه من الكفرة مدة ثلاثة أشهر أقام الجميع في إصطبله الفيَّاح يأكلون من مطبخه الكثير الرماد ليلًا ونهارا، فلو رام أحدٌ إحصاء ما لزمه في ذلك لما أمكنه إحصاء ما خرج من يده من

الناض، كيف لو تعرَّض لإحصاء ما خرج في أكلهم والأشياء التي صنعوا منها الآلات، أو بها من حديد وخشب، بل وحتىٰ الفحم وغيره ممَّا لا تسمح به إلَّا نفسه الكريمة، ولا تسخُو به إلَّا همته العليَّة العظيمة، وقد كان مُعترفا بأنَّه تُعرف بركة الجهاد في نفقته، ورأىٰ في ذلك من النُّمو ما لم يره في صدقته قائلا: «إنِّي كنت أفتح الكيس المحتوي علىٰ ألف دينار وأكثر للأمور الحقيرة، فلا أشعر به إلَّا وقد فرغ، والآن صِرت أفتح مثله للأمور الجليلة الكثيرة التي لا تستريح اليد فيها من المناولة، فيمضي عليه من الزَّمان أضعاف ما كان يمضي علىٰ غيره»، ثُمَّ كتب من بلده أسماء قوم في ديوان وعيَّنهم لتعليم الضرب بالمدافع والبونبة، وأخرج لهم مدفعا ومهراسا خارج البلد يتعلَّمون بهما، وجعل لهم مرتَّبا يأخذونه في كل شهر، وجعل ما قدِم عليه أحدٌ من المهرة في ذلك إلَّا عيَّنَه معهم، ولم يزل يتواصل مددهم حتىٰ كثر عددهم، واجتمع منهم كلُّ حاذق يشفي العليل، ويُبرد الغليل، وبعث بعض أهل الخير إلىٰ ناحية (**فجيج**) يأتيه بحفرة اللُّغم لشهرتهم بالحذق في الحفر تحت الأرض، فقدم عليه بمائة منهم، فقسَّم عليهم وقت قدومهم أكثر من ألف ريال ومائتين، ودفع لكل واحد منهم ما يجعل منه قميصا وسراويل من الكتان الجيد، ومن لا عُدَّة له منهم دفع له عُدَّة من عنده، وألحقهم بالطلبة يكونون معهم إلىٰ وقت الحاجة.

وبالجملة فقد جمع في تلك المدة القليلة مما يُحتاج إليه من الجند والصُنَّاع والآلات مالا يجمعه غيره في المدة الطويلة، وعلىٰ أنَّه يجمعه فلا يكون كما كان له تام الشروط حسنا وثيقا، ولما فرغ من جميع الآلات المدفعية بعث جُلَّ عماله وأكابر قُوَّاده علىٰ أعماله ينهضون الناس لإصلاح الطرق، ويقفون عليهم فسَهَّلوا منها ما كان وعرا، وكسروا ما كان حجرا، وقطعوا ما يعرض فيها من الشجر حتىٰ يمكن جَرُّ المدافع فيها بسهولة،

وأحدثوا في الجبل المتصل بالمائدة طريقا سهلا لا تتوقف فيه المدافع، وفي أثناء الجبل فرقوه فذهبوا بطرف منه إلى جهة المرسى، وبالطرف الآخر إلى المائدة، ولما سمع به الكفار بعد انصرافهم خرجوا إليه فرأوا ما حيَّرهم وأدهشهم.

ثمَّ أصبح في اليوم الثامن من رجب من السنة المذكورة يُخرج تلك الآلة من بلده فأخرجها إلى موضع يعرف بـ **(عقبة خده)** بينه وبين البلد نحو الثلاثة أميال، فكان يوم إخراجها من أيام النزهة العجيبة، وأوقات السُّرور الغريبة، خرج فيه الصغير والكبير، ولم يتخلَّف أحدٌ عن ذلك الفضل الأثير، فجرَّها الناس بأيديهم فَرِحين مُستبشرين وهم ما بين صارخ من الفرح ومكبِّر، ومصلٍّ على النبي ﷺ وكلهم يُبادر صاحبه ليفوته بما يجره، وهو راكب معهم وطبوله ترعد خلفهم، ولما وصلوا بها المحل المذكور لحقهم ما كفى جميعهم وفضل أكثره عنهم من الطعام المعتاد، وقدور اللَّحم المطبوخ بأنواع التوابل، وصواني الحلاوات وغير ذلك مما لفظه بحر داره الكريمة، وأمَّا الخبز والفواكه اليابسة فلا يُعَدُّ ما أخرجه من ذلك يومئذ، وتفضَّل يومئذ على جماعة من المحبوسين أخرجوا بسلاسلهم للجر مع الناس فخلَّى سبيلهم، فكان ذلك ممَّا لا يهمله الله له من أعماله المرضية، وأفعاله التي يغلب على الفعل فيها حكم النية.

وإلى ما تقدَّم أشرت بقولي:

ثــم غــدا يخــرج آلــة الضــرر ... في ثـامن الأيـام مـن شـهر مضـر
فــأهرع النــاس لهــا إهراعــا ... وأقبلــوا لجرِّهــا سِراعــا

(آلة الضرر) الآلة التي أُنشئت لضرر العدو، و**(شهر مضر)** رجب، ونُسب إلى مضر لأنَّها كانت تُعظمه، قال رسول الله ﷺ: «السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حُرُم، ثلاثة متوالية، ذو القعدة وذ والحجة والمحرَّم، ورجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان»

ومضر أحد أعمدة نسب قريش، وهو **مضر بن نزار بن معد بن عدنان**، وبين النبي ﷺ وبينه خمسة عشر أبا، ونُسب إليه جميع أولاده، ويُطلق على الجميع اسمه، فيقال: مضر الحمراء، وللواحد مضري، وسُمِّيَ بذلك لولعه باللبن الماضر أي الحامض، أو لبياض لونه، وقيل: الحمراء كما قال **إسحاق بن إبراهيم الموصلي**:

إذا مضر الحمـراء كانـت أرومتـي وقام بنصري خـازم وابـن خـازم

عطست بـأنف شـامخ وتناولـت يـداي الثريـا قاعـدا غـير قـائم

لأنَّ مضر أُعطي من ميراث أبيه الذهب، وأخوه ربيعة أخذ الخيل، أو لأنَّ شِعَارهم كان في الحرب الرايات الحمر، ويُقال **(أهرع إلى الشيء)** إذا مشى إليه في اضطراب مع سرعة، أي أنَّه أصبح في الثامن من رجب يخرج آلة الحرب التي صُنِعت لضرر العدو وإهلاكه، فأخرج المدافع التي عينها من المعسكر مرفوعة على أسرتها، و**(أسرة)** ما يحمل من **(مستغانيم)** و**(تلمسان)** إلى خارج البلد يجرُّها الناس كما سبق، ولما اجتمعت هناك تركها يومين لإصلاح ما أفسده الناس لجرِّهم إيَّاها بعنف، ثُمَّ أخرج لها الناس مع ولده فجرُّوها إلى نهر هبرة، ثم جُرَّت على البغال إلى نهر سيق، فتُركت بالبرج المشهور هناك، ثم ذهب هو إلى **(مستغانيم)** للإتيان بالمدافع الضخمة التي بها، والمهارس الكبيرة فأوصلها إلى هبرة، وبعث إلى أهل المعسكر فهبطوا إليه هم وسكان أحواز البلد، فأوصلوها إلى برج سيق أيضًا، وتركها إلى أن تنقضي أيام الهدنة الآتي ذكرها، ويقضي الله أمرا كان مفعولا، وترك معها بـ **(سيق)** جميع أهل الصنائع يُصلحون ما يحتاجون إليه من فرش المدافع ونحوها، وترك هناك جميع أثقاله ومحلته، وكان ذهابه إلى **(مستغانيم)** في السابع من شعبان، وفي أيام ذهابه إليها قدم عليه **مولاي سليمان بن مولاي محمَّد** ملك المغرب يريد الاجتياز إلى الحجاز هاربا من أخيه **مولاي يزيد** لما أكثر

من التخليط، وقتل أكابر دولة أبيه، فعيَّن للقائه والقيام بحقِّه ولده المُنتخب للمهمات، المرجىٰ عند الأزمات، السيِّد **عثمان** لا زال في أكنة الصون والأمان، فقام بواجب حقه أتم القيام، وبعث الأمير يستأذن سلطان (**الجزائر**) في تركه يجتاز أم لا ؟ فأبىٰ السلطان من الإذن له فأعلمه بذلك، فرجع بدأه علىٰ عوده.

وفي الأبيات: التتميم في غير موضع، والجناس للذيل، والناقص، واللاحق، والمضارع، والتصدير، والجمع، والترديد، والاحتراس، وغير ذلك.

وجــــاء للجزائـــــر البريـــــد ... مـــن العـــداة صـــلحه يريـــد
ليقنعـــوا منـــه بـــبرج المرســـى ... ويجعلـــوا عنـــه الـــبلاد ترســـا
فامتنعـــــت همتـــــه العليـــــة ... مـــن أخـــذها مـــنهم بغـــير ديـــة
حتـــى يشـــيب مـــنهم الرضـــيع ... ويهلـــك الرفيـــع والوضـــيع
أو يخرجوا منهـا كمـا قـد دخلـوا ... لـيس لهـم في ذي الـبلاد دخـل

(**الجزائر**) في الأصل جمع جزيرة، وهي أرضٌ في البحر ينجزر عنها المدُّ، والجزائر الخالدات، ويُقال: جزائر السعادة، ست: جزائر في البحر المحيط من جهة المغرب منها يبتدي المنجمون بأخذ أطوال البلاد، تُنبت كل فاكهة وريحان وورد بغير استنبات، واسُتعمل في عرفنا اسما لهذه المدينة القاهرة التي هي اليوم قاعدة ملك الأمراء العثمانيين في الغرب الأوسط، كانت تُعرف بـ (**قلعة بني مزغنة**) وهم من طوائف صنهاجة، وكانت لهم في القديم مواطن بـ (**المسيلة**) إلىٰ (**حمزة**) إلىٰ (**الجزائر**) و(**لمدية**) و(**مليانة**)، ويُقال: إنَّ **بلكين بن زيري** خليفة العبيديين علىٰ المغرب هو الذي ابتناها وهو منهم، ولعلها هي التي ذكرها صاحب (**القاموس**) بقوله: «وجزائر **بني مزغناي** بلدٌ بالمغرب»، ولم تكن ممصرة في القديم، وإنما مصرها هؤلاء القوم وحصَّنوها أتم تحصين، وأحاط بها من جميع الأسوار المنيعة، والأبراج الهائلة، وأناطوا بها المدافع الضخمة في

كل مشرف ومرقب، فهي الآن بحيث لا تُنال ولا يَطمع في أخذها إلَّا من يطمع في المحال، قد جعلها الله شجًى في حلُوق ملوك النصارىٰ وقذًىٰ في عيونهم، فلم يزالوا عليها يكدحون، ولزنادها يقدحون، يريدون التوصل إليها والاستيلاء عليها فلم يُحقق الله رجاهم ولا أزال شجاهم، بل يَرُدُّهم كل مرَّة مفلولين مقهورين مذلولين.

وكان أوَّل غزوهم إيَّاها أوائل سنة خمس وعشرين وتسعمائة، جاؤوها في ثلاثمائة وعشرين سفينة، وعليها يومئذٍ **عرُّوج** رئيس، ونزلوا ببرِّها محاصرين لها، فخرج عليهم في عسكره فمنحهم الله أكتافهم، وملَّكهم مترسهم وورَّثهم أعلامهم، ولم ينجُ منهم إلَّا نحو ألف، والباقي كله أتىٰ عليه القتل والأسر، ثم أتوها أيام أخيه **خير الدين** فيما لا يُحصىٰ وكتبوا **لخير الدين** يهددونه، ويُحذرونه ما فعلوا بأخويه **إسكندر** و**عروج** من قتلهم إياهما في **(تلمسان)** و**(القلعة)**[1]، فأجابهم بجواب من لا تزعزعه الرياح، ثُمَّ لاقاهم بعد أن أنزلوا جميع آلاتهم للبرِّ وانقسموا فرقتين فقصدت كل فرقة منهم جهة البلد، ووقعت المُحاربة بَرًّا وبحرا، فأنزل الله نصره علىٰ أوليائه فقتلوا منهم نحو أربعة عشر ألفا، وهاج البحر هيجانا عظيما منع الباقين من الصعود إلىٰ سفنهم، ولما سكن أقلعوا عنها مشمِّرين فهاج عليهم البحر أيضا فكسر سفنهم، وأسر منهم المسلمون أربعة آلاف، ثم غزاها الطاغية بنفسه سنة ثمان وأربعين وتسعمائة في عِمارة لم يُرَ أهلها مثلها، وكان عليها يومئذٍ **حسن آغا** مخلف **خير الدين،** فخرج عليهم المسلمون ليلًا في ستمائة مقاتل، وألفي فارس فكبَّروا بصوت عال، ورموهم بمكاحلهم دفعة واحدة، وهم بين نائم وسكران، فظنوا أنَّ المسلمين خالطوهم وجعل يقتل بعضهم بعضا، فلما

---

(1) **قلعة بنى راشد**: أو هوارة، بين غليزان ومعسكر، كانت قاعدة للأتراك وبها مات الإسكندر أخو عروج وخير الدين.

أصبحوا وجدوا قتلاهم ثلاثة آلاف، وأرسل الله عليهم من الرِّياح العاصفة، والأمطار الواكفة والرُّعود القاصفة، ما فرَّق بينهم وبين أجفانهم وكسر لهم أكثرها، وكانوا لم يُنزلوا من الزاد إلَّا قليلا، وخرج عليهم المسلمون فقاتلوهم قتالا شديدا ونصرهم الله نصرا مُؤزرا، وقتلوا منهم نحو الأربعة آلاف، وعلم الكفار أنَّهم تورَّطوا وآل أمرهم إلىٰ أن ذبحوا دوابهم فأكلوها، فتركوا كل ما نزلوا به وساروا إلىٰ ناحية **(تامفوست)**، والمسلمون وراءهم يقتلون منهم كيف شاؤوا، إلىٰ أن ألجؤوهم إلىٰ **وادي الحراش** ـ وهو يقذف بالزبد ـ فغرق أكثرهم فيه، وجعل للطاغية جسر من صواري السفن فجاز عليه إلىٰ عدوة الوادي الأخرىٰ، وما وصل إلىٰ بلده إلَّا باثني عشر غرابا، وكان عدد سفنه عند قدومه سبعمائة وخمسين، ثم جاءها النصارىٰ الانقليز في عشرين سفينة بقصد تجديد الصلح علىٰ شروط لم تُرضهم فأبوا فرموهم يوما إلىٰ الليل وارتحلوا خائبين، وذلك سنة إحدىٰ وتسعين وألف، ثم غزاها الفرانسيس سنة ثلاث وتسعين وألف في خمس عشرة سفينة كبيرة وأربعة عشر غرابا، فهدم منها نحو المائتي دار ورجع خائبا، ثُمَّ عاد إليها سنة أربع وتسعين وألف في ستين سفينة وثلاثين غرابا، فآل أمرهم إلىٰ الصلح بعد أمور يطول بنا ذِكرها، ثم غزاها **دين المرك** وقضيته شهيرة، وكانت سنة أربع وثمانين ومائة وألف، ثُمَّ وقعت الغزوات الشهيرة أيام **بابا محمَّد** باشا (رحمه الله) وسنذكرها بعد.

و**(البريد)** هو الرَّسول الذي يأتي بالأخبار عاجلا، وكان أصله أنه يركب في كل بريد فرسا، و**(الترس)** آلة يُتوقىٰ بها السِّهام، وهو هنا كناية عن كونهم جعلوا أخذ بلدهم وقاية عن أخذ ذلك البرج، و**(الدية)** ما يُؤخذ عوضا عن القتيل، والمرادُ بها هنا مطلق العوض المراد به القتال من باب إطلاق الخاصِّ علىٰ العام، ثم إطلاقه علىٰ الشبيه.

والمعنىٰ أنَّ النصارىٰ لما تحققوا جِدَّه واجتهاده في أخذ بلدهم، وأنَّه إن أتاها لم يمنعه بمشيئة الله ـ منها مانعٌ، خافوا أن يفتك الجميع منهم، فبعثوا رسولا إلىٰ **(الجزائر)** يطلبون من السلطان ـ أعزه الله ـ أن يصلح بينهم وبينه علىٰ أن يدفعوا له جميع البلد، ويترك لهم منها **(برج المرسى)** فقط ليتمكنوا من إرساء سفنهم عنده ويلجأ إليه مسافرهم في البحر وضعيفهم، ويسكن فيه بعض تجارهم، فأنف من ذلك واشمأزت نفسه، وأبىٰ أن يأخذها إلَّا بحقِّها من القتال، أو يتركوا جميع ما بأيديهم من أرض المسلمين حتىٰ لا يبقىٰ لهم أثرٌ، ولا يُذكر لهم في هذا القطر اسم ولا خبر، فرجع الرسول إلىٰ الطاغية بالخسر والخيبة، فردَّه إلىٰ السلطان يسأل منه أن يجعل بينهم هدنة إلىٰ انقضاء شهر، ليروا رأيهم، إما بتسليم البلاد، أو تحمل القتال والجلاد، فأجابهم إلىٰ ذلك علىٰ ما سيأتي ـ إن شاء الله ـ.

وفي الأبيات: جناس التصحيف، والمستوفىٰ، واللاحق، والطباق، والمبالغة، والغلو.

وقولي: **(لهم ليس لهم ... الخ)**، جملة حالية أي: يخرجوا منها في حال كونهم لا يبقىٰ لهم دخل أي مدخل ولا سبب في هذه الناحية الداخلة تحت حكمه.

و**(برج المرسى)** تقدَّم أن بينه وبين **(وهران)** نحو الثلاثة أميال، قال **شارح الحلفاوية**: «إنها قصبة حصينة، وقلعة منيعة ليس لها إلا طريق واحدٌ عرضه مقدار ذراعين أو ثلاث، وأمام بابها برجٌ يحرسها برًّا وبحرا بناها هنالك **أبو الحسن المريني**، وكذلك البرج الأحمر المتقدِّم ذكره وامتدت العمارة به إلىٰ سنة اثنتي عشرة وألف، فتملَّكها النصارىٰ علىٰ يد يهودي (لعنه الله) بحيلة مشهورة، ثُمَّ لما ملكوها أنزلوا اليهود بهذا المرسىٰ فبقوا بها إلىٰ سنة ثمانين وألف، فأخرجوهم منها وعبروا بهم إلىٰ الجرنة وسكنها النصارىٰ البريون الأندلسيون» اهـ.

وهي الآن حصنٌ متصل لا يمكن التوصل إليه بحال، وقد كان **أبو الشلاغم**[1] أسكن بها الأتراك، فحموه بعد استيلاء العدو على البلد حتى أضرَّ بهم الجوع فخرجوا على أمان.

وجـــد فيهـــا واثقـــا بـــالله	**مشـــتغلا عـــن جملـــة الملاهـــي**
لا يسـمع العـذل ولا يُصـغي لـه	**ومـــن نهـــاه عـــن ســـواه غالـــه**
وبأســـــه يقدمـــــه إلـــــيهم	**حتـى لقـد ضـاق الفضـا علـيهم**
وعـــدموا النجـــع مـــن المشـــير	**قـــد بلـــد الطبـــع عـــن التـــدبير**

(فيها) على حذف مضاف أي: في طلبها، و**(الملاهي)** جمع ملهى، والمرادُ كلُّ ما يشغله عن طلبها، وليس المرادُ خصوص آلة اللهو، فقد أبطل لأجلها غزواته المتكررة وخروجه لجباية لوازم الحرب وغيرها حتى تفرغ منها.

والمعنى أنَّه لم يلتفت لما طلبه الكفار من الصلح على تسليم البلد دون **(برج المرسى)**، بل جدَّ في طلبها في حال كونه واثقا بالله تعالى معتمدا عليه سائلا منه التوفيق متبرءا إليه من الحول والقوة، وفي حال كونه مشتغلا ـ بما يُوصله إليها وجمعِهِ ـ عن كل ما يلهيه عنها من مُتعلقاته، فإن عذله أحدٌ عن كثرة إسرافه في الإنفاق في شأنها، أو عن كثرة كَدِّه وتعبه وإطالة اجتهاده في ذلك لم يلتفت إليه ولم يُصْغِ لكلامه، ولو أنَّ أحدا نهاه عن غزوه الذي كلِفَ به وهويه حتى أفنى فيه جزيل الأموال، ولم يبقَ له إلا هو من أكبر الآمال **(لغاله)** أي أهلكه أو سلبه نعمته، وأسقط حرمته، وذلك في معنى الإهلاك، إلَّا أنه ـ والحمد لله ـ لم ينهه أحدٌ، ولم يعترض عليه مُعترِض، ولو وقع لوقع لازمه الذي هو الإهلاك.

---

(1) أسكنهم فيه حوالي سنة 1145هـ، ومنها نقل قاعدة الحكم إلى **(مستغانم)** حتى توفي بها، ولا زال ضريحه هناك.

فقولنا: (**ومن نهاه**)، فيه إطلاق الماضي على المستقبل الممكن الوقوع، ولم يخرج عن رأيه في هذا الباب أحدٌ، إلَّا أنَّ قوما يعتقدون الجائز محالا، ويظنون أن مُنتهى قدرة الله تعالى إلى ما تبلغه عقولهم كانوا يستبعدون أخذه إيَّاها، ويعدُّون جميع فعله ذلك من قبيل العبث استعظامًا لما قضى الله بتحقيره، واستكبارا لما قدر بتصغيره، وربما أَسَرُّوا السخرية بذلك في أنفسهم، أو مع من يوافق على مذهبهم الخبيث، فكانوا في ذلك كقوم نوح الذين قال لهم لما سخروا منه على صنعه الفلك: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴾ (هود: 38) غير أنَّ هؤلاء لا يقدرون على التصريح بالسخرية وأنَّى لهم ذلك! ولو علمه منهم لمحقهم، وبنار غضبه أحرقهم، على أنَّه يجرعهم الناس شراب اللوم الأليم، ويرد عليهم كل ذي طبع سليم، كلُّ هذا وبأس الأمير يقدمه إلى الكفرة، ونكاله يتزايد عليهم بسبب ما امتلأت به قلوبهم من الرُّعب منه، حتى كادت مرائرهم تنشق، وأحشاؤهم تحرق، وصقور الطلبة تنقضُّ عليهم مرَّة بعد مرَّة، وتُعيد عليهم الكرَّة بعد الكرَّة، وصواعق أخباره المهولة تسقط عليهم فتحرق أحشاءَهم، وتعدم من النجاة رجاءهم، حتى ضاق عليهم الفضاء، وكادت أن تنطبق عليهم أسوارهم، فإنَّ الخائف الذي لا مفرَّ له يرى كأنَّ الأمكنة تضيق عليه فيكاد يخرج عقله.

قال **النابغة**:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومن أكبر المحن عليهم أنَّهم عدموا نجح التدبير من المشير لما دهشوا وشُغلوا بالخوف عن إصابة وجه الرشد، حتى تبلدت طباعهم واستحجرت عقولهم، وكثرت عليهم الآراء، فتارة يقولون نسلِّم البلاد ونذهب، وتارة يقولون نهدم الأبراج ونهرب، وتارة يقولون نحصِّن عن أنفسنا ونصبر، ثم تارة يقولون نبني في المائدة برجا، وتارة

يقولون نبنيه بالأفوال، إلى غير ذلك من تخليطاتهم التي لم ينجح لهم رأي ولم يستقر لهم على بعضها عمل، ولم يكن لهم رأي أنجح من تسليم البلد.

وقولنا: (**ومن نهاه ...**)، ينظر إلى قول زهير:

تـــراه إذا مـــا جئتـــه مـــتهللا   كأنك معطيـه الـذي أنـت سـائله
أخـو ثقـة لا يـذهب الخمـر مالـه   ولكنـه قـد يـذهب المـال نائلـه
غـــدوت عليـــه غـــدوة فرأيتـــه   قعـود لديـه بالصـريم عواذلـه
يفدينـــه طـــورا وطـــورا يلمنـــه   وأعيـى فـما يـدرين أيـن مخاتلـه
فـأعرض منـه عـن كـريم مـؤزر   جموح على الأمـر الـذي هوفاعلـه

وغيره يقول:

إذا هـــم ألقـــى بـــين عينيـــه همـــه   ونكب عن ذكـر العواقـب جانبـا

ولما عزم **عبد الملك بن مروان** على الخروج إلى **مصعب بن الزبير** لاذت به عاتكة بنت يزيد بن معاوية تقول: لا تخرج السنة للحرب، فإنَّ **آل الزبير** قد ذكروا خروجك، وابعث إليه الجيوش، وبكت وبكى جواريها معها، فجلس ثم قال: قاتل الله **كُثيّرا**، فأين قوله:

إذا مـــا أراد الغـــزو لم يـــثن عزمـــه   حصـــان عليهـــا عقـــد در يزينهـــا
نهتـــه فلـــما لم تـــر النَّهـــيَ عاقـــه   بكت فبكـى ممـا شـجاها قطينهـا

وخرج.

وفي الأبيات: جناس الاشتقاق، والمضارع، والملفق، والاحتراس، والتتميم والتعليل وغيرها.

و(**الاحتراس**) المذكور في قولي: (**واثقا بالله**)، احترستُ من أن يَتَوَهَّم مُتوهم أنه جدَّ فيها معتمدا على قوة نفسه غافلا عن ربه.

وعلمــوا أن القضــاء قــد نــزل   **وأن ثــوب ســترهم قــد انبــزل**
فــلا تحــوط أرضــهم مــدافع   **ولا يــذود عنهمــو مــدافع**
مــن ذا يحــوطهم مــن الجســور   **وهــل يــذاد الصــقر بالجســور**
فــلا وحــق حزبــه المنصــور   **لا تمنــع الشــاة مــن الهصــور**

(**نزول القضاء**) نفوذه، وتنجز تعلقه، و(**انبزل الثوب**) انشق، و(**المدافع**) جمع مدفع، و(**المُدافع**) من يدافع عنهم ويُقاتل دونهم، و(**الجسور**) ضد المتأني، قال **سلم الخاسر**:

مــن راقــب النــاس مــات غــما   وفــاز باللــذة الجســور

و(**الجسور**) جمع جسر، وهو ما يُعبر عليه من نهر ونحوه، استعرتها هنا للحفير والبناء الذي تمتنع به الجند من غيرهم، ويُسمونه المترس، غير أنَّهم يلحنونه فيقولون: متارز بالزاي، والصَّواب متارس جمع مترس، و(**الهصور**) الأسد.

والمعنى أنهم لما أيقنوا بقصده إياهم في شدته تلك وقوَّته، تحققوا أنَّ قضاء الله تعالى بهتك سِترهم، وخروج البلاد من أيديهم، ونزول البلاء عليهم قد نفذ، ووقت تنجزه قد حلَّ، وأنَّ سِتره الذي كان مُرسلا عليهم قد انشق وباد، فلا يُمكن بعد ذلك أن تمنع مدافعهم أرضهم، ولا أن يذود عنهم ويمنعهم المدافعون، إذ القضاء إذا حل وقته امتنع أن يرفع واستحال أن يدفع، وعلمهم بذلك أتاهم من جهة ظهور أماراته، ووضوح إشاراته، فإنَّ الإنسان ـ وإن كان لا يعلم الغيب ـ قد يستدلّ بالأمارات على حصول الشيء، على أنهم ـ دمرهم الله ـ قد بلغهم من أخبار أميرنا المؤيد، ويمنه المؤبد، وسطوته

الشديدة، وغلبته على القرى القريبة والبعيدة، ووضوح السعد في طلعته وأعلامه السعيدة، ورأوا من بأسه المتين، وعزمه المبين، ما أيقن كل منهم أنَّه ينزل بهم نكاله، ويأخذ البلد من أيديهم لا مَحالةَ.

لــه مــن نفســه عــز ونصــر ... ومــن فـرط الوقــار لــه جنــود

يــروع الكــافرين بوجــه ليــث ... تســر بــه المحافــل والوفــود

فذلت رجالهم، وتقاعست أبطالهم، وخاب رجاؤُهم، وفسدت آراؤهم، كيف وهو المقدام الجسور، الذي لا يتهيب الأمور، فمن ذا الذي يمنعهم منه إذا طلبهم، أو يمنع منه سبيهم وسلبهم ؟ أم كيف يمنعهم منه خندقهم وسورهم ؟ أو تحولُ بينهم وبينه جسورهم ؟ وهو كالصقر ينقض عليهم من أعلى، وينزل عليهم صواعق البلا، **(فلا وحق حزبه المنصور)** أي: الذين نصرهم الله به، وألبسهم ثياب المهابة، والأسد إذا طلب شاة فلاة لم تمتنع عنه سيما إن جدَّ في طلبها.

هذا مضمن هذه الأبيات المحتوية على الجناس المشتق، والمحرف، والتصدير، والقسم، والتمثيل، والتذييل، والتتميم والاستعارة، والمذهب الكلامي المفهوم من قولي: **(لا تمنع الشاة ... الخ)**، وقولنا: **(وإن ثوب ... الخ)**، من باب إضافة المشبه به إلى المشبه على حَدِّ قوله:

والشمس تجنح للأصيل وقد جرى ... ذهــب الأصــيل عــلى لجــين المــاء

***

فلجـــؤوا منـــه لظـــل الله ... من ليس عن رعي الورى بلاهـي

محمـــد المجبـــو بالتغليـــب ... علــى جنــود عابــدي الصــليب

فطلبــوا منــه ســؤال الليــث ... يــريحهم شــهرا برفــع العيــث

وأن يكــف عــنهم الصــقورا ... ليُســلموا الأبــراج والقصــورا

ويرجعوا منها بجورب حنين ولا يعمهم بأسر أو بحين

فاستبشر الناس بعز الدهر وانتظروا وقت انقضاء الشهر

(**ظل الله**) هو السلطان لقوله ﷺ: «السلطان ظل الله في أرضه» ومحمد (بفتح الميم) أصله محمد (بضمها) غير أنَّ العجم تميل ألسنتهم عند النُّطق به إلى الفتح، فظنَّ العوام أنهم يقصدون فتحه، وأنه اسمٌ خاصٌّ منفرد عن محمَّد بالضم، فصاروا يُسمون محمد بالفتح، وقد جرت لهم عادة في اللحن أن يُسكنوا أوائل أكثر المتحركات إذا لم يكن بعدها ساكن كعمر وعلي، ويأتون بألف الوصل قبله فيقولون: اَعْلي، اَعْمر، إلى غير ذلك، كما اتبعوا العجم في تسمية عثمان عصمان[1] وحفيظ حفيز، وما علموا أنَّ العجم إنما ينطقون بهما قاصدين أصولهما، غير أنهم لا يقدرون على النطق بالثاء والظاء لعدمهما في لغتهم فيبدلونهما إلى ما يقدرون عليه عجزًا لا اختيارا، وقد جهل بعض الوضَّاعين هذا المعنى، فذكر أنَّ محمَّدا يكتب بالألف، ولعمري إنه لا يُلام على مثل هذا الخطأ فإنه بنى كلامه على الكذب، غير أنَّ في التصريح فضيحة، والمراد بمحمَّد هذا الملك المغلب على الكفار، بل الليث المقلَّم الأظفار، السلطان الذي لم يزل يحامي عن الأمة، ويكشف عنهم كل غمة، ويدفع عنهم الأعادي، ويقمع التجاسر عنهم والعادي، حتى غدا مشهورا بالتغليب، سيما على عبدة الصليب، فإنهم طالما غزوه فلم يحلوا له حبوة، ولا رأوا منه في حروبه كبوة، حتى أكلتهم الحرب، وتكدَّر لهم الشرب، فصاروا يطلبون سلمه، ويُؤملون حلمه، فما نالوه إلا بعد جهد جهيد، وعناء شديد، ودفع مال جزيل لبيت المال، يقوم مقام الجزية المنبئة بالصغار والإذلال، ذلك **السيِّد محمد بن عثمان باشا** كتبه الله من الآمنين، ورفع في الجنة درجاته، آمين.

---

(1) في كثير من كتب العهد التركي يكتبون عصمان على هذا الشكل: عصمان ومن ذلك اسم الباي محمد بن عثمان.

و(**المحبو**) اسم مفعول من حبوته بكذا إذا أعطيته إيَّاه بلا جزاء ولا مَنٍّ.

و(**التغليب**) مصدر غلبه إذا جعله غالبا، والمصير [لهم مغلوبين] هو الله تعالىٰ، وذلك إشارة إلىٰ كثرة غَلْبِه النصارىٰ الذين كانوا يغزون في أيامه بلده محروسة **الجزائر** يريدون أخذها مِن يده.

فقد أتوها سنة تسع وثمانين ومائة وألف وخرجوا إلىٰ البرِّ قرب **وادي الحراش**، وابتنوا مترسا طوله ألف خطوة، وأنزلوا إليه مدافعهم وزادهم، وخرجوا للقتال يوم السبت العاشر من جمادىٰ الأولىٰ، وحملوا كالجراد المنتشر حتىٰ وصلوا دروب الأجنة، فردَّهم المسلمون أقبح الرد، وأحجروهم إلىٰ مترسهم، وقتلوا منهم نحو الثمانية آلاف أو أكثر، وجرحوا أكثر من ثلاثة آلاف، لم يعش منهم إلَّا النادر حتىٰ كانوا يقولون: إنَّ رصاص المسلمين مسموم، وكان أميرنا المشهور بالبسالة والنجدة ـ أدام الله عزه، وأبد مجده ـ حاضرًا يومئذ فكان له البلاء المشهور، والإِقدام الذي شهد به الجمهور، وفي الليل فرَّ الكفرة وتركوا سبعة عشر مدفعا من النحاس، وجميع ما أُنزل إلىٰ البَرِّ من الأثقال والنحاس، وقد كانوا حفروا في مترسهم بيرا فيها ماء عذب، فكل من شرب ماءها منهم ابتلاه الله بالاستسقاء، وقد تركنا الإطالة في ذكر هذه الغزاة لشهرتها، واتكالا علىٰ من دوَّنها من علماء[1] الجزائر، وهىٰ الواقعة الثامنة من الوقائع التي أجلب فيها الكفار علىٰ (الجزائر)، ثُمَّ إنهم عادوا إليها سنة ثمان وتسعين ومائة وألف، فلم ينزلوا إلىٰ البَرِّ بل قاتلوا بالبونبة في البحر بفلك صغار مسامتة حروفها للماء يسمونها

---

(1) هذا العالم هومحمد بن عبد الرحمـٰن بن الجيلاني التلمساني، وتأليفه الذي خصَّه لهذه الغزاة: (**الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة**)، ألَّفه سنة 1194هـ أي أتمه.

بلغتهم الانجون يأتون فيها إلىٰ قُرب المدينة فيرمون منها إليها ساعتين صباحا ومثلها مساء، ويُلاقيهم المسلمون في فلكهم فيُقاتلونهم ويرمونهم من الأبراج والطبانات وكل موضع فيه آلة القتال، وداموا علىٰ ذلك أياما، ثُمَّ انقشعت تلك الأيام عن غلبة المسلمين إياهم، ورجوعهم بخف حنين، غير أنهم هدموا في البلد كثيرا، ووصلت بونبتهم إلىٰ نحو القصبة، وخرج السلطان من داره وصعد إلىٰ القصبة، ثم احتسب ورجع، وأُشير عليه بقبول الصلح من الكفرة ليكفوا عن البلد، فأبىٰ إلَّا القتال، وقد ظفر المسلمون ببعض الفلك التي كسروها للكفرة مما كانوا يقاتلون فيه فصنعوا مثلها، واستكثروا منها، فلما عاد الكفار من العام المقبل وجدُوا المسلمين قد استعدُّوا لهم أتم العدة، فلما خرجوا بفلكهم تلك للقتال تلقوهم بمثلها عند المحل الذي أرسوا به، فقاتلوهم أشد القتال وأنكاه، وصاروا متىٰ رأوهم خرجوا للقتال تلقوهم في أثناء البحر، وشغلوهم بأنفسهم، وأروهم خلاف ما كانوا يعتقدون، وتجاسر الناس علىٰ قتالهم وتجرَّأ عليه الكبير والصغير، وصارت تلك الأيام عند المسلمين كأنَّها مواسم ونزهة، فلم يكن للكافر سنتئذٍ في المسلمين نِكاية، ولا ظهر له ـ قبحه الله ـ نجح من البداية إلىٰ النهاية، وارتحل عن البلد وقد أقام نحو الخمسة عشر يومًا بأسوإ حال، وأكسف بال، وأكبر بلبال، فورد علىٰ الطاغية من الخبر ما أغمه، وأبد همه، فلم يكن له هم إلَّا طلب الصلح فاستفاده في السنة المقبلة بعد طلب مردد، وتعب مشدد، وذُلٍّ مؤبد، ودفع مال قدره اثنتا عشرة مائة ألف ريال ميزان دون الهدايا الواصلة لرؤساء الدولة، كل ذلك بيُمنِ طلعة السلطان (رحمه الله تعالىٰ)، وأمَّنه من أهوال يوم القيامة، آمين.

وقد قلت بعد انصرافهم سنة ثمان وتسعين قصيدة، أولها:

يـــا بشــير الســرور سر في الــبلاد مســـرعا فـــوق عاديـــات الجيـــاد

كي تبشر كل حمى بماذا فعلت بالعدى الصقور العوادي
حين جاؤوا إلى الجزائر دار النصر باسم ثغر كل بلاد
في سفين تسير في الماء سير النشوق في السهل والفرا في الوهاد
طائرات القلوع يحدو عليها غربي الريح سائقا سوق حادي
شحنوها بكل أمر مضر يترك الصخر والصَّفا كالرماد
لا يقوم له البناء وإن كا ن كمثل بناء أصحاب عاد
جاهلين بكون آمال أهل الكـ ـفر يعكسها إله العباد
ويدافع دائما عن أناس جاهدوا في رضاه حق جهاد
فعدت عنهم الصقور التي في جوها لا تصيد غير الأعادي
بمدافع أبعدت عن حماها كل من جاء قاصدا للفساد
كسروا جمع فلكهم وأبادوا منهم كل مستطيل النجاد
فسل البحر كم رمى من جسوم لهم، ذات شقوة وعناد
عاف حوت البحار منها لحوما لم تر الماء منذ يوم الولاد
فهي فوق الرمال يأكل منها جائع الرخم والحُدا والجراد
ورؤوسهم بأيدي العذارى والصغار تباع بيع كساد
كل رأس يباع منها بفلس إن يكن وقت بيعه ذا نفاد
يا لها شنعة لدين النصارى ما لخزي غدوا به من نفاد
قد كستهم من المذلة والعا ر وبأس الخسار ثوب حداد
مثل ما ألبستهم ليلة الحـ راش ما ألبستهم من سواد
ونهتهم عن أن يعودوا ولكن بعُدَ الفهم عن عقول الجماد
وكست ديننا من العز ثوبا قد ترداه كل ضيغم عادي

وهي طويلة، ضاع باقيها.

وبالجملة فإنّ تتبع أوصاف تلك الغزوات يُفضي إلى الطول، ونحن في شغل عن ذلك.

و(**الليث**) هو الأسد استعرته لمثل هذا الأمير المظفر، و(**العيث**) بالمهملة هو الإفساد، وكان فِعله وفعل جنوده عيثا باعتبار معتقد الكفرة، وإلّا فهوإصلاحٌ في الدِّين، على أنَّا إن نظرنا إلى حقيقته دون نظر لكونه مأمورًا به شرعا لكون المفعول بهم ذلك أعداء للدين، وجدناه إفسادا حقيقة، غير أنَّه صار بحسب مقصد الشرع إصلاحا، ولو دخلوا تحت العِصمة فآمنوا أو أمنوا لعاد إلى حقيقته، وزالت عنه العوارض التي كانت تبيحه.

و(**الصقور**) استعارة لجنود الطلبة الذين لازموهم حتى ضيَّقوا عليهم مُستقرَّهم، وأمرُّوا قرارهم فلم يستطيعوا منذ جاوروهم نوما، وبعثوا يطلبون أمانهم ولو يوما.

و(**جورب حنين**) يُضرب به المثل لكل من رجع خائبا، أو طلب حقيرا فضيَّع جليلا، وأصله أنَّ إسكافيا اسمه حنين ساومه أعرابي خُفًّا ولم يشتره منه فغاظه، فذهب وكمن له في طريقه، وألقى إحدى فردتي الخف في الطريق وأختها على بعد منها، فلما رآها الأعرابي قال ما أشبهها بخف حنين! لو كانت معها أختها لنزلت لها فأخذتها، فلما بعد عنها رأى أختها فعقل بعيره ورجع ليأتي بالأولى، فخرج حنين فأخذ البعير اختلاسا ورجع الأعرابي إلى أهله بخفي حنين، وسميته جوربا ضرورة.

و(**الحين**) الهلاك، و(**عز الدهر**) العز الدائم على مر الدهر.

والمعنى أنَّ الكفار ـ أخزاهم الله وقطع دابرهم ـ لما سمعوا بسعيه في طلبهم،

وعلموا أنَّه لا يمنعهم منه مانع لجؤوا إلىٰ ظل الله الممدود علىٰ عباده، وأمينه علىٰ خلقه في بلاده، المتيقِّظ الذي لا يلهو عن تدبير الرَّعايا، ومنعهم من التعرُّض للبلايا، الملك المظفر والسلطان المغلب **السيد محمَّد بن عثمان باشا** (رحمه الله تعالىٰ) فطلبوا منه علىٰ وجه المذلة أن يأمر الليث الهصور، أميرنا المنصور، أن يُهادنهم شهرا لا يُناشبهم فيه القتال ويَكُفَّ عنهم فيه الطلبة المتصدِّين لإفساد حالهم وإدامة قتالهم، فأجابهم إلىٰ ذلك.

وقد قدَّمنا أنَّ بريدهم الأوَّل أتىٰ يسأل الصلح، وأنَّ السلطان وأميرنا ـ أعانه الله وقواه، وأدام نمو قواه ـ امتنعا من أخذ البلد إلَّا كاملة صحيحة، فلما رجع رسولهم بذلك خافوا أن يُفاجئ الأمير بلدهم قبل استحكام أمرهم واستتمام تدبيرهم في أيام إجالة رأيهم، فردوا بريدا ثانيا يطلب من السلطان أن يأمر الأمير بالكفِّ عنهم شهرا كاملًا انتهاؤه اليوم الخامس والعشرون من أبريل الموافق للثاني والعشرين من شعبان بالحساب القديم الذي يحسب به النصارىٰ اليوم، علىٰ أن يسلِّموا عند انتهائه جميع البلاد كاملة بأبراجها وقصورها لا يستثنون منها شيئا، ويتركوا فيها ما أخذوا من المسلمين من المدافع، ويرجعوا منها إلىٰ طاغيتهم خائبين خاسرين أولىٰ من أن يبقوا فيها فيعمَّهم الأسر والهلاك، فأجاب الأمير ـ أيده الله ـ إلىٰ ذلك وكتب إلىٰ الطلبة وسائر المجاهدين ألَّا يتعرَّضوا لهم بسوء مدَّة ذلك الشهر، وألَّا يتركوا جِدَّهم في الاحتراس منهم والتيقظ لهم، وكتب أيضا إلىٰ نصارىٰ **(وهران)** يُخبرهم بما أتىٰ به بريد طاغيتهم ـ أخزاه الله، وأبد ذله ـ لكونهم لا علم لهم بذلك، وإنما كانت المراجعة مع الطاغية، ففرحوا بذلك واستبشروا به، وأعظموا رُسُله وأكبروهم، وكتب إليه رئيسهم يشكر صنيعه ويحلفُ له بصليبه ألَّا يُحدث في البلاد بناء ولا غيره مما يكره حتىٰ يأذنه هو بالقتال، وأصبحوا في محارسهم وقد نصبوا رايات أمان، فالتقىٰ بهم بعض الطلبة

فتحادثوا وتكالموا، ثم إنَّ الطلبة لما سمعوا بذلك اختاروا نحو الخمسمائة بطل منهم شاكي السلاح حسن اللَّأْمة، وأتوهم في تعبئة حسنة وحزم شديد فلم يشعروا بهم؛ إلَّا وقد دهمُوهم في تلك الحال، فدُهشوا منهم وهابوهم، ثم اطمأنوا لهم وعرضوا عليهم الأطعمة فأبوها، وقالوا لهم: إنَّ الأمير قد كفانا طعام غيره، وخزَّن عندنا ما يكفي لقتال السنين العديدة من البارود والرصاص ثم افترقوا، فلما علم بذلك الأمير ـ أبقى الله مجادته، وأورث عقبه سعادته ـ خاف أن يقع بينهم شنآن، أو أمرٌ يُنسب به المسلمون إلى الغدر، فكتب إلى الطلبة يُعاتبهم وينهاهم عن العود لملاقاتهم والتعرض لهم إلَّا بالاحتراس منهم، وضاقت الأرض بمنافقي المغاطيس، ولو وجدوا الإمكان إلى الطيران لطاروا، وحصل للمسلمين عامَّة ـ سوى بني عامر ومن على مثل رأيهم ـ من السرور بهذا الفتح ما شغلوا لأجله ألسنتهم بحمد الله تعالى وشكره، وتعرفوا بذلك يُمن طلعة أميرهم ووفور سعده، وأيقنوا أنه لم يتأمَّر عليهم أحدٌ قبله يُدانيه، ولا يأتي من يدانيه من بعده، لا زال دافعا عنهم للملمات، كاشفا للأزمات، مرجوا لسائر المهمات.

فإن قلت: كيف ساغ لهم أن يفرحوا بهذا الصلح، وقد حُرِموا به من أجر الجهاد ما لا يخفى ؟

قلت: الجهاد غير مقصود لذاته بل لقهر الكفرة وتطهير الأرض من شِرِّكهم وإعزاز دين الإسلام، فإن لم يحصل ذلك إلَّا بالقتال تعيَّن على المسلمين إقامته، فمن مات فإلى الجنة ومن عاش فله أجره، وإن أمكن حصوله بدون قتال لم يسغ لنا ترك ذلك الوجه الذي حصل به ونلجأ إلى القتال، فإنَّ حياة مسلم واحد أولى لنا من موت مائة كافر، بل نترك القتال عند أوَّل لمحة إذا ظهر لنا المقصود بدونه، ويكون لنا أجرنا كاملًا موفورًا بحسب النيات، فإنَّ نية المؤمن أبلغ من عمله، والشارع لم يُكَلِّفنا بالموت

أو كان غرضه موتنا بل طلب إظهار الدِّين بأي وجه أمكن الأسهل فالأسهل، وقد كان ﷺ يدعو الناس إلىٰ الإسلام أو الجزية فإن امتنعوا منهما قاتلهم، فلو أنَّهم قبلوا الجزية أوَّلًا لحرم قتالهم فكيف إذا أسلموا بلادهم وذهبوا ؟ وقد قال ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو» وأخبر ﷺ عن الحديبية أنَّها فتحٌ عظيم مع أنَّه لم يلق فيها عدوا، وقال لأصحابه: «هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظهركم الله عليهم، وردَّكم سالمين مأجورين»اهـ.

فالعالم العاقل إذا تأمل هذا الحديث علم أنَّ هذا الصلح لو تَمَّ من أكبر الفتوح وأعظمها، وتيقَّن أنَّه لا يفوت أحدا ممن كان عازما علىٰ الجهاد أجر الذي يأخذه من ربه بتقدير أن لو جاهد، غير أنَّ الله كفىٰ المؤمنين القتال وأظهر دينه علىٰ أهل الشرك وأعزَّ أميره بما أجرىٰ علىٰ يديه من هذه المنقبة الكبرىٰ، والجاهل يقول ما شاء، علىٰ أنَّه لا زال حرمه محروسا، وأصله في رياض الملك مغروسا، لم يجنح لصلحهم بقلبه ولم يعتمد علىٰ هدنتهم، بل لم يزل علىٰ ما كان عليه من الجِدِّ ضاربا عن الهزل ساعيا مُستعدا لهم مشتغلا بشأنه كأنه لم يطرق كلامهم ساحته، فلو صدقوا وأسلموا البلاد، لكان أمرٌ أتىٰ من غير استعداد، ولما رجعوا إلىٰ القتال كان ذلك ما أراد.

ولما بلغنا الخبر قلت:

قد صح ما أوحىٰ به الإلهام   سمح الحبيب وزالت الأوهام

وتلألأ الكون البهيج بنوره   إذ زار وهنا والظلام ظلام

وتضوعت عذباته بممره   طيبا تقاصر دونه النمام

وأتىٰ الرقيب به يقص رسومنا   يا جيرتي إن الشذىٰ نمام

لا بـدع إن سـمح الزمـان بشـادن   قــد طالمــا بخلــت بــه الأيــام
إن الزمان مـن العوائـق قـد صـفا   وبـــدا الهـــدىٰ وتبـــين الإبهـــام
والفــتح قــد لمعــت بــه أنــواره   فانجـاب منـه الظلـم والإظـلام
والنصر في الأعلام أصبح ظـاهرا   والسـعد قـد نشـرت لـه أعـلام
وأتــىٰ البشــير بعــزة أبديــة   كســا الغــداة بثوبهــا الإســلام
وغـدا بهـا قـدر الأمـير مجـاوزا   عـــنن الســـماء وتحتـــه الأقـــوام
عجز العداة عـن الثبـات فسـلموا   وبـدا لـذلك مـنهم استسـلام
وأتــىٰ بريــدهم المبشــر مخــبرا   عـنهم بـأن قلـوبهم قـد هـاموا
خافوا من الليث الهصـور وحزبـه   أن يقطعــوا أدبــارهم إن دامــوا
مــن ذا يحــوطهم إذا دامــوا بهــا   من بـأس ليـث غاضـب مقـدام؟
خاض الحروب فراضـها وأقامهـا   زمنــا فلــيس يــؤوده الإقــدام
كـم مـن كتائـب فلَّهـا، وعسـاكر   زلــت بهــا مــن خوفـه الأقـدام
لا والذي جعل الشـجاعة وصـفه   لــيعمهم مــن جنــده الإعــدام
بشـراك يـا أسـد الحـروب بعـزة   مــا إن تقــوم بحقهــا الأقــلام
أحييت بالغرب الجهاد وقـد عفـا   والنـاس عـن إحيائـه قـد نـاموا
ووثبــت للأعــداء وثبــة باســل   خضـعت لـه الرؤسـاء والأعـلام
فتلاشــت الأرواح مــنهم خيفــة   ومهابـــة وعلـــتهم الأســـقام
وحبـوتهم بالصـلح فانتعشـوا بـه   وبـــدوا لنـــا وكـــأنهم أنعـــام
والذل يظهر في غصون وجـوههم   وقلـــوبهم بصـــميمها إضرام
فكــأنهم مــوتىٰ وقــد أحييــتهم   وكـــأنما إدراكهـــم أحـــلام
يــا ذلهــم إذ غــرهم شــيطانهم   وغـــوتهم بغرورهـــا الأصـــنام

حتى إذا ضاق الفضاء عليهم خاب الرجاء وغابت الأفهام
وأتوك فانتقلوا لموت أجل من موته قربت بها الأحكام
هذه ليالي الصلح وهي قلائل سيجيء عن أوقاتها الإتمام
فمن الذي يحميهم إن لم يفوا؟ ومن الذي لهم به استعصام؟
والله، لا وزر لهم إن لم يحل قدر جرت بنفوذه الأقلام
فاستنصر الرحمٰن عنهم إنه بجميل سعيك كله علام
قد طالما أولاك نصرا في الوغىٰ وأراك فتحا ثغره بسام
لازلت ذا عز ونصر دائم ومهابة يعنو لها الضرغام

ثُمَّ إنهم ـ دمَّرهم الله وقطع دابرهم ـ لم يفوا بوعدهم، ونقضوا عرىٰ عهدهم، وجاء الخبر من ناحية طاغيتهم بذلك قبل تمام الأجل، فوجد الأمير ـ أيده الله ـ قائما علىٰ ساقه الأوَّل، لم تحل عراه ولم يتحول، فاستمرَّ علىٰ ما كان عليه، وأصبح في اليوم الثالث من رمضان خارجا من بلده لشأنه، وقد كان الطلبة ـ أعزهم الله ـ لما سمعوا بعدم وفائهم حمل نحو الأربعين منهم علىٰ الكفار في البرج الذي في الوادي فقتلوا منهم ثمانية احتزوا رؤوس خمسة منهم، ورجعوا كلُّهم سالمين لم يُصب إلَّا واحد كُسر ساقه فبرئ، وقد كان النصارىٰ يَعُدُّون ذلك منهم غدرًا، وقد كذبوا ـ قبحهم الله ـ أمَّا أولا: فإنهم بعثوا قبل ذلك يخبرون بالرجوع إلىٰ العداوة فارتفع الصلح ببعثهم، وأما ثانيا: فقد وقع بعد تمام الهدنة بيوم وهم يظنون أنَّه آخر يوم منها، وقد كانوا عازمين علىٰ أن يمكروا بالطلبة بعد ذلك بيوم ـ كما صحَّ الخبر بذلك بعد ـ فحاق بهم مكرهم ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر: 43)، ومن حفر للمؤمن بئرا أوقعه الله فيه.

وإلىٰ نقضهم العهد أشرت بقولي:

ثم انثنى يبدي لهم إبليس	غواية في ضمنها تلبيس
فنقضوا العقد وخانوا العهد	واستمطروا من البلاء عهدا
توثقا بنصرة الشيطان	وما أراهم من الأشطان
وقوة الطاغية المقوت	إن زاد في مددهم والقوت
وما لهم علم بأنَّ الرب لا	تمنعه القوة إرسال البلا
وإنما الطاغية القوي	ـ بزعمهم ـ عبد له غوي
إن أرسل الذباب لم يكَد	يدفعه عن نفسه ولم يكِد

(**انثنى**) عاد ورجع، و(**يبدي**) يظهر، و(**الغواية**) ما يضلهم به عن طريق الصواب، و(**التلبيس**) التخليط والتدليس، والعهد الأوَّل معروفٌ، والثانى المطر الآتي بعد مطر بحيث يدرك الثاني بلل الأول، استعير هنا للأمر الذي يُصاب به من نزل به البلاء، أي استمطروا بلاء بعد بلاء، و(**الأشطان**) جمع شطن وهو الحبل الطويل يُستعار لما يشغل القلب، وللخدائع المُوقعة في الهلاك، و(**الغوي**) الضال و(**يكد**) الأول بفتح الكاف من كاد يفعل كذا إذا قارب فعله، والثانى من كاده إذا مكر به فهو بالكسر مفعوله محذوفٌ وهوضمير عائد على الذباب، وحذف المفعول للعلم به جائز لأنَّه فضلة، وقد قال **ابن مالك**: *وحذف فضلة أجز إن لم يضر*

والمعنى أنَّ الشيطان ـ لعنه الله ـ بعد أن فارق هؤلاء الكفرة ـ دمَّرهم الله ـ فرأوا رُشدهم وطلبوا الكفَّ عنهم ليسلموا البلاد ويرجعوا لبرهم بالأهل والأولاد عاد إليهم وأبدى لهم من خدائعه التي تُضلهم وتوقعهم في مهاوات الهلاك ما انخدعوا به، ونقضوا العقد، وخانوا العهد الذي بعثوا به بريدهم، وصرَّحوا بأنهم رجعوا إلى العداوة، فليجهد الأمير جهده، ويُرسل عليهم جنده، فطلبوا من البلاء الدائم مطرا

متتابعا ينزل عليهم بمشيئة الله تعالىٰ من حيث لا يقاومونه توثقا بحبال الغرور، واعتمادا علىٰ ما ظهر لهم من قوة طاغيتهم الممقوت، أي: المبغوض لأهل الإسلام حين زاد في مددهم، إذ كانوا في (**وهران**) ـ سابقا ـ نحو الثلاثة آلاف، فبعث لهم من الجنود ما صاروا به نحو العشرة آلاف، وزاد في قُوَّتهم من غير أن يعلموا أنَّ الشيطان ـ أخزاه الله ـ لا يعز منصوره ولا يغلب حزبه، وأن الله ـ جلت قدرته ـ لا يُعجزه شيء ولا يؤوده، ولا يمنعه حول أحد ولا قوَّته، من أن يُنزل به بلاءه إن شاء إذلال قوي مع قوته، ولا ممتنع عن قدرته، ولا حول ولا قوة إلا بالله، تلاشت له الأشياء، وتضاءلت الأقوياء، فما الطاغية الذي زعموا أنَّه قوي إلَّا عبدٌ من عبيده ضال خارج عن سواء السبيل لا يستوجب منه إعزازا ولا نصرا، فلو أنه سلط عليه ذبابة لم يقارب أن يمنع نفسه منها، ولم يقدر علىٰ أن يمكر بها، فكيف يقدر علىٰ مقاومة الجنود القوية بالإسلام، المعتزة بعزة نبيها (عليه الصلاة والسلام)، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: 73)، ويُروىٰ أنَّ بعض

خلفاء العُبيديين بلغ من عُتُوِّه أن ادعىٰ الألوهية، وتابعه علىٰ ذلك أتباعه فبينما هو في مجلس افتتانه ومقرِّ خذلانه وقد أحدق به من اغتر به من أعوانه، إذ قرأ بعض من باع نفسه من الله برضوانه، وأبىٰ أن يلقىٰ الله إلَّا بإعلان إيمانه، هذه الآية، فضجَّ الناس ضجة واحدة كأنهم ما سمعوها قط، وكادت أن تقوم فتنة علىٰ الجبار، فهرب لداره، ولما سكن الحال أظهر الرِّضا لذلك القارئ وصار يدنيه ويؤنسه ثم غيبه فلم يظهر له خبر.

وفي الأبيات السابقة وهذه: التصدير، والجناس الناقص، والمضارع، واللاحق

والقلب، والاشتقاق، والتام، والملفق، والمحرف، والاستعارة، والاقتباس، والإبداع والطباق.

فجاءهم ليث الوغى مستبشرا	**وأصبح الجند بها منتشرا**
جند كسا الآكام والظرابا	**عرمرم لا يسأم الضِّرابا**
نظم كل بطل مقدام	**يثبت في مزالق الأقدام**
كتائب تتبعها كتائب	**تحدو إلى الأعداء بالمصائب**
أصعد منه فرقة للجبل	**مع ابنه الشبل الكمي الجبل**
وفية عينها للغم	**مذهبة بحفرها للغم**
وتوج الطود بكل مدفع	**ما للعداة دونه من مدفع**

(الآكام) جمع أكمة، وهي الموضع الذي يكون أشد ارتفاعا مما حوله، وهو غليظٌ لا يبلغ أن يكون حجرا، و**(الظراب)** بالمشالة جمع ظرب الجبل المنبسط والصغير قال ﷺ: «اللَّهم حوالينا ولا علينا، اللَّهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر».

ولكل مرتفع من الأرض اسم يخصُّه على الترتيب: فأصغر ما ارتفع عنها النَّبَكَة، ثم الرابية أعلى منها، ثم الأكمة، ثم الزَّبْيَة، ثم النَّجْوَة، ثم الرِّيع، ثم القُفّ، ثم الهضبة وهي الجبل المنبسط على الأرض، ثم القَرْن وهو الجبل الصغير، ثم الدُّكّ، ثم الضِّلْع، ثم النِّيقُ، ثم الطَّود، ثم الباذخ والشامخ، ثم الشاهق والمشمخِرّ، ثم الأَقْوَد، ثم الأَخشب، ثم الأَيْهَم، ثم القَهْب، ثم الخشام.

وأول الجبل الحضيض وهو القرار من الأرض عند أصل الجبل، ثم السفح وهو ذيله، ثم السند وهو المرتفع في أصله، ثم الكِيحُ وهو عرضه، ثم الحُضْنُ وهو ما أطاف به، ثم الرَّيْدُ وهو ناحيته المشرفة على الهواء، ثم العُرْعُدَة وهي غلظه ومعظمه، ثم الحَيْدُ وهو جناحه، ثم الرَّعْن وهو أنفه، ثم الشَّعَفَة وهو رأسه.

و(**الضراب**) مصدر ضاربه ضرابا ومضاربة.

و(**مزالق الأقدام**) كناية عن موطن الخوف والدهش، التي لا يثبت فيها إلا الأبطال الذين يقاتلون وعقولهم حاضرة وإدراكهم تام، فهم ينظرون مواطن أقدامهم فلا يسقطون بخلاف غيرهم فإنَّه إن حضر القتال طاش عقله، فلا يدري أين يطأ، فيكون كالزالق في مناقع الماء والوحل يسقط غالبا.

و(**الجبل**) الأول معروف والثاني سيد القوم.

و(**الكَمِيّ**) الشجاع جمعه كُماة، ويُطلق على لابس السلاح، وهو والبطل مترادفان، والإنسان إذا كان شديد القلب رابط الجأش فهو مرير، فإن كان لَزُوما للقِرّن فهو حَلْبَس، فإن كان عبوس الشجاعة والغضب فهو باسل، فإن كان لا يدرى من أين يُؤتى من شدة بأسه فهو بُهْمَة، فإن كان يُبطل الدماء فلا يُدرك عنده ثأر فهو بطل، فإن كان يركب رأسه لا يثنيه شيء عما يريد فهو غشمشم، فإن كان لا ينحاش لشيء فهو أيهم.

و(**الكتائب**) جمع كتيبة بالمثناة، وهي من أربعمائة إلى ألف، ويليها الجيش وهو من ألف إلى أربعة آلاف، وكذلك الفيلق والجحفل، ثم الخميس وهو من أربعة آلاف إلى اثني عشر ألفا، وقيل: الكتيبة السرية من خمسين إلى أربعمائة، وقبلها الجريدة قطعة جردت من سائرها لوجه، وإذا وَصَفتَ قلت: كتيبة رجراجة، جيش لجب، عسكر جرار، جحفل لهام، خميس عرمرم، والفئة الجماعة.

و(**اللغم**) نفق يُتَّخَذُ تحت الأرض، وقد تقدَّم، وكأن لفظته عامية أو أعجمية.

و(**الطود**) المرادُ به هنا جبل المائدة المطل على (**وهران**)، ومعنى (**توَّجَه**) أنَّه أحاطها برأسه كالتاج.

و(**المدفع**) هذه الآلة العظيمة التي يقابل بها الأعداء في الحصون والسفن مأخوذة من الدَّفع لدفعه العدو عما يريده، والمرادُ به هنا ما يعم مهارس البونبات والجعاب الضخمة الشهيرة، والنصارىٰ يسمون الأول مورتيروا، والثاني كنيون.

والمعنىٰ أنَّ الكفرة ـ أخزاهم الله ـ لما أعلنوا بنقض الصلح وعدم الوفاء بما بذلوه من عند أنفسهم دون أن يُطلب منهم، وقد كان الأمير ـ دام تأييده ـ غير معتبر لصلحهم ولا معتمد عليه بل كان متيقظا جادا في شأنه غير تارك لما كان معتنيا به من جمع آلات قتالهم ومؤون جهادهم تيقظا وحزما واستبصارا وعزما، جاءهم أي جاء لبلدهم عازما علىٰ مناجزتهم فرحا مستبشرا واثقا بالله تعالىٰ معتمدا عليه متنجزا لنصره الذي وعد به المؤمنين، وأصبحت أجناده منتشرة بأراضيها كاسية لجميع آكامها وظرابها كثيرة شديدة البأس لا تمل من قتال العداة ومضاربتها محتوية علىٰ كل شجاع كثير الإقدام علىٰ الأعداء زائد الثبات في المواطن التي تضطرب فيها رِجلُ الجبان، وترتعد فيها فرائصه، وترجف بوادره حتىٰ لا يدري أين يضع قدمه، ولا كيف يضعها، فلما اجتمعت لديه فرَّقها حسب ما نذكرها بعد ـ إن شاء الله ـ.

واستمرَّ الحال في كل يوم تأتي كتائب أخر، إلىٰ أن انفض سوق الجلاد ورجع الناس إلىٰ مقر الأهل والأولاد.

ذكر نزوله (أيده الله) على هذا البلد
وتفاصيل أفعاله الواقعة قبل مناشبة القتال مع الكفار (دمرهم الله تعالى)

تقدَّم أنه خرج في الثالث من رمضان من مقرِّ حكمه، وفي خروجه أوائل هذا الشهر الذي اشتهرت فضائله، وقويت على سعده دلائله، إرشادٌ من الله تعالى له حيث وفقه إلى الخروج إلى هذا المقصد المهم، والمطلب الواجب في شهر النصر الذي خرج رسول الله ﷺ في أوله إلى غَزاة بدر الكبرى التي هي باكورة الفتح في الإسلام، وبها قتل الله صناديد قريش وفل حدهم، وأضعف جدهم، وأسكن نأمتَهم، وقسم بين المسلمين أموالهم ولأمتهم، ومن ثمة بقي ذلك الشهر مشهورا بالفتح، معينا للغزو سيما وللمسلم الغازي فيه أجر الجهاد والرباط والصوم والصلاة والنفقة وغير ذلك، وفيه وقع فتح مكة المشرفة للنبي ﷺ، ودانت له قريش جميعا وظهر الدين أتم الظهور، فكمل لهذا الشهر بذلك كل الشرف والفضل، ومن تتبع فتوح الإسلام وجد الكثير منها في هذا الشهر المذكور، فأتى إلى (**سيق**) وكانت جميع آلاته مجتمعة فيه، فمكث فيه أياما حتى تَمَّ جميع ما لم يكن تم من الآلات، واجتمع ما لم يكن مجتمعا من الألواح التي تُفرش للمدافع وغيرها، ثم ارتحل إلى (**تليلات**) وهو نهرٌ بينه وبين (**وهران**) مسيرة ضحوة، ثم إلى الموضع المشهور بـ (**مسولان**) فيما بينه وبين (**وهران**) فمكث هناك يدبر أمره، وقد كان قبل خروجه من بلده جعل صنيعا بقصد الصدقة على السيد محمَّد الهواري، فكان يومه يومًا مشهودًا حضره العامُّ والخاصُّ من الحاضرة والبادية، فلعبوا

بالخيل والبارود عامَّة نهارهم، ثم أتاهم من داره من الأطعمة ما فضل عن جميعهم أكثره وهم ألوفٌ عديدة.

وبعث إلى البلدان البعيدة فأُتي بجميع أعلام أوليائها الأكابر كالسيِّد **عبد الرحمٰن الثعالبي**، والسيِّد **أبي مدين**، والسيِّد **أحمد بن يوسف**، والسيِّد **محمَّد بن عودة**، ومقامات شيخ الحضرة السيِّد **عبد القادر الجيلي** وغيرهم ليحضر بها القتال تبرُّكًا بها واستعانة بأهلها، غير أنَّ السيِّد **محمَّد بن عودة** إنما أُتيَ بعلمه بعد الشروع في القتال لكونه نسيه فلم يذكره إلَّا برؤيا رآها، وذلك أنه رأى كأنه يطرد خنزيرًا له أنياب من حديد، والناس كلُّهم دائرون به ولم يجسُرُوا على الدنو منه، فنزل رجلٌ اسمه عدة فرفعه في الهواء ثم رمى به الأرض، وقال: هكذا فافعلوا به، فأَوَّلَ الخنزير بـ(**وهران**)، وعدة بالسيِّد **محمَّد**، لأنَّ العوام يُسمونه عدة، فبعث فأوتي بعلمه فنصب في بعض متارس المسلمين فكسرته بعض كور العدو، فجعل المدافعيون يقولون كأنهم يخاطبون السيِّد محمَّد: أين ما كان يُذكر عنك من الولاية ؟ لو كنت وليًّا ما أصيب لواؤك وصبرت، فلم يمض إلَّا أقل من ساعة حتى وقع في مساكن الكفار الحريق الآتي ذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ وأمر فكتبت أسماء أهل بدر في نسخ متعددة، وجعل في كل راية من رايات القتال وألويته نسخة منها، كل ذلك طلب للإعانة من الله ما أمكن، وتقرُّب إليه بخواصِّ أوليائه.

ثم إنَّه صعد يوما من (**مسولان**) في خواصِّه إلى الطلبة المرابطين في الجبل فوعدهم ومنَّاهم، وكان عليهم يوم قدومه من الأيام التي ابتسم باليُمن صباحها، وأظلهم بالريح رواحها، وأمطرت عليهم سحائبُ السعادة، جواهر السَّعد والوفادة، أعمهم فيه بالعطاء الوافر كل على قدره، ودفع لهم أرزاقهم دارَّة تامة، وتحمَّل من جفوتهم

وغلظتهم ما لا يتحمَّله أحدٌ من أحب أولاده، ولم يسمع منه أحد منهم على كثرة إذايتهم له شيئا يسوءُه، وقد أخبرت أنهم أشعلوا هناك من نيران البارود ما كسا دخانه جميع الفِجاج، والتبس نقعه بمهول العجاج، ولما رجع عنهم وهم يدعون له بالنصر والسلامة، وعلو الدرجة يوم القيامة، بعث لكل مدرس منهم بخمسة سلاطين، زيادة على ما دفع لهم غير مرَّة عموما وخصوصا وكانوا كثيرين، ثم بعث إلى الطلبة فقدموا عليه في تعبئة حسنة، وأُبَّهة جميلة، فانتخب منهم خمسمائة بايعوه على الموت، فكسا كل واحد كسوة جيدة، وأعطاه دراهم وأمرهم بملازمة الوادي المُؤدي إلى حدائق البلد، ويأتيهم فيه مأكلهم ومشربهم، ورجع الباقون إلى (**يفري**) كما كانوا، ومُراده بسُكنى هؤلاء بالوادي أن يمنع الكفرة من الجولان فيه ليتمكن حفرة اللغم فيه من الحفر ولا يخافون على أنفسهم، فذهبوا حيث أمرهم وحفروا لأنفسهم كهوفا يكنون بها بحيث تستر بدن أحدهم فقط، وتنافسوا في المقاربة من الحصون، حتى إنَّ منهم من ليس بينه وبين برج **العين الصغير** إلا رمية بحجر، وأسكن معهم الحفرة فكان هؤلاء يحفرون ولا يقربهم أحدٌ وهؤلاء يحُوطونهم، ولا يزالون يرمون بمكاحلهم لناحية الكفار ليلا ونهارا، وتعذَّر على النصارى ـ أذلهم الله ـ الخروج إلى محارسهم ومغارسهم، ولم يكن لهم هَمٌّ إلَّا رميهم من وراء أسوارهم ومتارسهم بالمدافع والبونبات والرصاص دائما، وخرج عليهم نحو الأربع عشرة مائة من النصارى يطلبون منهم غرة وهم غارون، وقد تفرَّق أكثرهم للاستراحة، وطلب الأكل في أماكنهم، فاجتمع منهم نحو الأربعين فردُّوهم أقبح رد، وأحجروهم إلى حصونهم مذمومين لم ينالوا قصدًا، غير أنَّ ثلاثة من حفرة اللغم خرجوا من نفقهم، وقد أحاط به الكفار فقتلوهم، وجاء الصريخ إلى الأمير ففزع إليهم الناس من كل وجهة، فوجدوا الكفار قد دخلوا حصونهم، وكان ذلك بعد انتشاب القتال في يوم السبت الثاني من شوال.

وبسبب سكنىٰ الطلبة بذلك الوادي تجرَّأ الناس علىٰ دخوله، والإتيان إليه فُرَادىٰ وأزواجا، وأما قبل ذلك فقد كان لا يدخله إلا الجمع الكثير، والجند الكبير، وقد كان الأمير ـ أدام الله نصره ـ أيام نزوله بـ (**مسولان**) كتب يستنفر الناس إلىٰ الجهاد فأتوه من كلِّ حدب ينسلون، فنزل بهم قرب الجبل قبلة الطريق الصاعدة إلىٰ (**يفري**) بينه وبين برج **العيون** قيد رمية ونصف بالمدفع، وذلك في يوم السبت الثامن عشر من رمضان.

فانتشرت الأخبية، والمضارب والقياطين والخيم علىٰ جميع تلك الآكام وذلك الوطأ الفياح فكستها، وما زالت الكتائب تتواصل، والجيوش تتراسل، والمواكب تجتمع أعدادها، والأبطال تنتظم أزواجها وأفرادها، حتىٰ [تكاملَ] جند جرَّار، لا تصل لمنتهىٰ طرفه الأبصار، ولا يقطع منازله المسرع في ساعات من نهار، يزيد علىٰ ما سامَت دارته من الكواكب، وتُخجِل الفراقدَ والدراري غرر مَن احتوىٰ عليهم من رؤساء الأعلام وأعلام المواكب، تطيش العقول من مشاهدته، قبل التوغُّل في مجالدته، وتزهق أرواحهم بلقائه، فلذلك بالغوا ما قدروا في إتقانه، فما عسكره الذي كسا الآكام والظراب، إلَّا غمام يمطر صواعق الخراب، أو بحر يقذف زبد الأهوال والمصائب، ويرمي الأعداء بكل سهم صائب، وفي يوم الأربعاء بعده وصلت محلة الأتراك في نحو السبعين خباء فنزلت قرب منزله بما يقرب من الميلين، وفىٰ يوم الخميس بعده دخلها، فكان ذلك من الأيام المشهودة التي بُهت منها الكفرة علىٰ بعد مرآهم، وظنُّوا أنَّ المسلمين وقعت بينهم فتنة، ركب ـ أدام الله عزه ـ في جميع أهل عسكره لتلقيهم، وقد صفوا له صفين من منزلهم إلىٰ قرب منزله، وأذن للناس في اللعب علىٰ الخيل فصاروا يأتون كراديس كراديس علىٰ خيولهم، فيضربون مكاحلهم في دفعة ويرجعون فيأتي غيرهم، حتىٰ لا تسمع إلَّا وقع السنابك كالرُّعود وصواعق البارود متصلا بعضها

ببعض، فما زالوا كذلك إلىٰ أن أتوا خلف صفَّي الأتراك فساروا كذلك وراءهم، وقد رحلت محلتم، فأحاطت أخبيتها بجميع المحلة العظمىٰ، ولما وصلوا أخبيتهم وقفوا كذلك مصطفين إلىٰ أن مرَّت بهم الجنود العربية وهو أمامها إلىٰ أن أتىٰ مضربه البهيج، فجلس أمامه علىٰ كرسي الملك، وفرغ أكابر الأتراك من السُّؤال عن وظائف الجند علىٰ حسب العادة، فأجابهم بما اطمأنت به نفوسهم، وقرَّت بسببه أعينهم، فأثاروا نيران مكاحلهم في نفس واحدٍ فكان ذلك شيء جاوز الوصف، وتلت ذلك مدافع كان أمر بإخلائها فكادت الجبال تَخِرُّ، ثم إنه أصبح يجرُّ مدافعه وجميع آلاتها إلىٰ الجبل فاجتمع لها عالَمٌ لا يحصىٰ، فركب هو وخواصه فعينوا لكل مدفع من يقوم بجره، ومن يكون معهم من المدافعين والنظار، وسار في إثرهم يتفقدها مدفعا مدفعا، وإذا أتىٰ مضيقا نزل عنده إلىٰ أن تمر جميعها، وإن صادف وَعْرًا أمر به فسُهِّل فأوصلوها يومئذ قبالة مقر الطلبة ورجعوا.

ثم ركب يوم الاثنين فأوصلها إلىٰ جبل المائدة بموضع يُقال له (ضاية مولاي إسماعيل)، كان قد سبق إليه المدافعيون، فابتنوا فيه محلتهم وجميع النجارين والحدادين وغيرهم معهم، وأمر قبل ذلك ولده الأجل الأفضل المبجل **السيِّد عثمان**، فنزل بمحلته وفيها جميع أهل **تلمسان** وأعرابهم، ومحلته التي تخرج إلىٰ **(فليتة)** كل سنة وبعض قبائل الشرق، ودفع له جميع ما يقوم [به] وما يحتاج إليه من دراهم وغيرها، في متسع مطل علىٰ المرسىٰ حذو الموضع المعروف بـ **(فيض ابن عطاء)** ليمنع أهل الجبل من خروج النصارىٰ عليهم، وقد كان مقدم المدافعيين سبق إلىٰ الجبل فنزل بالضاية المذكورة لكي يُهيئ المتارس التي يتترس بها المقاتلون بالمدافع عن رمي الكفرة، فصنعت في الجبل خمس متارس عظام كأنها الحصون الوثيقة أعظمها مقابل لبرج مرجاج،

والبواقي مطلة على المدينة على حرف المائدة، آخرها دون الحفير الظاهر في طرفها والآخر في أثنائها.

وصفة وضعها أنهم كانوا يجعلون من الخشب وأعواد الدفلى ونحوه مما ينثني، مذاود كبارا كالبيوت فيضعون بين كل مدفعين مذودا، ويملؤونها بالتراب ويعضدونها بظروف من الحلفاء مملوءة ترابا تجعل وراءها وأعلاها وخلف منافذ ما بينها، ويكثرون وضع التراب وراء الجميع حتى تصير كالأطواد الفخيمة لا يعمل فيها إلَّا ما يسقط وسطها من صواعق البونبات التي لا تمنع منها إلَّا سقوف الحصون الصحيحة، أو ما يدخل من المنافذ المتروكة لأفواه المدافع من كور العدو، ثم يضعون فوقها وفي أثنائها أحمال الصُّوف لتمنع كور العدو من الجريان في وسطها، وليتترس بها من في وسطها من المقاتلين من البونبة، فلا يتم المترس الواحد إلَّا بالمال العظيم فربما لزمه في المترس ما يزيد على أربعة آلاف ريال، فلا يتمادى القتال فيه إلَّا الثلاثة أيام ونحوها وينتقل إلى جهة أخرى فيصنع غيره لنظر اقتضى الانتقال.

ولما كملت تلك المتارس التي في الجبل وكان أوَّلها كمالا أعظمها المقابل لمرجاج، وذلك في يوم الأربعاء التاسع والعشرين من رمضان، جر إليه مدافعه وناشبة القتال يومئذ ضحوة، فحمي الوطيس واشتعلت النار من كل جهة، ورمى الكافرون يومئذ سبعمائة مدفع وبونبة واثنين دون ما رموه من البحر، ورمى المسلمون اثنين وسبعين مدفعا بمدفعين فقط لعدم تمام مواضع البواقي، فعاقبهم الأمير لشروعهم قبل إتمام الجميع بغير إذنه، وظهرت يومئذ آثار مدافع المسلمين في حصنهم ظهورا بيِّنا، حتى زعم بعض المدافعيين، أنهم يسقطونه من الغد إن شاء الله تعالى، ومات يومئذ من المسلمين اثنان أحدهما مدافعي، وجرح نحو الأربعة، فانظر إلى أثر لطف الله وجميل صنعه ولطيف ستره، وكان هذا اليوم يومًا استمر فيه الغيم من دخانه، وحمي وطيس

الجو بنيرانه لا تسمع فيه إلا رعودا متواصلة، ولا ترىٰ من ناحية العدو صواعق كور علىٰ غير معنىٰ حاصلة، يجهل فيه الواقف جاره، ويلزم الجبان وجاره.

وإلىٰ ما ذكر من شروعهم في القتال أشرت بقولي:

فقعقعت مدافع الإسلام تاسع عشرين من الصيام
وشب جمر الكفر من كل شفق فلم يكن لمسلم منه شفق
وخر عن أعدائنا من الجبل سقف البلا فأشربوا كأس الخبل

(القعقعة) هي حكاية صوت السِّلاح، و**(من الصيام)** علىٰ حذف مضاف أي من شهر الصيام وهو رمضان، ويُقال شبت النار إذا اتَّقدت، و**(الشفق)** الأول الناحية، والثاني الخوف، ويُطلق علىٰ الحُمرة في الأفق من الغروب إلىٰ العشاء، والرديء من الأشياء والنهار والشفة، وحرص الناصح علىٰ صلاح المنصوح، و**(الخبل)** الجنون، أي أُشرِبوا الكأس الموجبة للخبل أي الجنون، وهي كأس الهم المُؤدي إلىٰ ذهاب العقل كما يذهب بشرب الخمر، فالكأس عبارةٌ عن المشروب وهي مستعارة للهم، أو الخوف المُوجب كل منهما للجنون استعارة أصلية لا للجنون حتىٰ يُقال لا مناسبة بينها وبين الكأس، والكأس المراد به الخمر سُمِّيت بذلك مجازا مرسلا علاقته الظرفية، قال أبو نواس:

وكأس شربت علىٰ لذة وأخرىٰ تداويت منها بها

فتسمية الخمر كأسًا مجاز مرسل، وتسمية الهم بالخمر المطلق عليها اسم الكأس استعارة أصلية، ويُحتمل أن تكون استعارة بالكناية بالمعنىٰ أنَّا شبهنا الجنون بالخمر لمشاركتهما في إذهاب العقل، ولم نصرِّح بذلك بل أضفنا للمشبه بعض لوازم المشبه به وهو الكأس والإشراب، وذلك ظاهرٌ والأول أنصع.

والمعنىٰ أنَّ مدافع المسلمين شرعت في رمي الكفار من الجبل في اليوم التاسع والعشرين من شهر الصيام وهو رمضان، وذلك في مترس واحد كما قدمنا، ثم في ليلة الخميس بات المجاهدون مجتهدين في الخدمة، وأصبح يوم الخميس الضباب منسدلا علىٰ سائر الأفق، وكثُر في الجبال جدًّا حتىٰ لا يرىٰ الإنسان إلَّا من لاصقه، فكان في ذلك معونة عظيمة للمسلمين أتوا فيه جميع ما كان بقي لهم من الأعمال من غير أن يرميهم الكفار ولا بمدفع واحد للظلمة العامَّة التي لا يدرون بسببها أين يوجهون مدافعهم، وتأخرَّت يومئذ محلة المدافعين عن الضاية لوصول كور المدافع إليها، ومن عند ذلك كان عيد الفطر فحذَّر الأمير من خروج الكفرة يطلبون الغرة من المسلمين عند اشتغالهم بصلاة العيد، فأمر جميع قُوَّاده فركبوا مع الأعوان لحياطة المدافع وأهلها، وفي يوم السبت بعده اشتعلت نيران المدافع، وقصفت رعودها ولاحت بروقها اللوامع، وارتعدت الجبال خوفا من سقوط السماء علىٰ الأرض، واسودَّ الجوُّ وضاق الفسيح بالطول والعرض، ويكفيك أنَّ **برج مرجاج** وحده رمىٰ مائة وستين مدفعا ومائة بونبة وواحدة وسبعة وثلاثين رمانة، فما بالك بغيره من الأبراج التي كلها أكبر منه وأكثر آلة، وبالسُّفن الصغار التي كانت تضرب من البحر تأتي من ناحية المرسىٰ عند قرب القتال إلىٰ أن تدنو من البرِّ تحت جبل المائدة، فترمي إليها وهي التي كانت أضرَّت بالمسلمين أشدَّ الإضرار، ومنعتهم من البقاء في الجبل، وحرمتهم القرار كما سيأتي، ورمىٰ المسلمون يومئذ ثلاثمائة وأربعة مدافع، ومات منهم أربعة، وجُرِح طائفة طار ذراع أحدهم من الكتف وهو الآن حي، وفي هذا اليوم خرج الكفار في الوادي بعد افتراق القتال فقتلوا من المسلمين ثلاثة وردَّهم الطلبة كما تقدَّم، وكان السبب في ذلك أنَّ بعض المنافقين من **أولاد علي** كان مغطسا، وخرج فأمَّنَه الأمير فأتىٰ يوم الجمعة مع الحرَّاس، وما زال يدنو من البرج إلىٰ أن أغفل الناس وهرب إلىٰ الكفار فأخبرهم

بجميع أمور المسلمين وذكر لهم أنَّ حفرة اللغم في الوادي، فخرجوا إليهم فكان من أمرهم ما تقدَّم.

وفي يوم الأحد بعده كان القتال أشدَّ منه في جميع الأيام قبله، ومات أربعة من المدافعيين منهم اثنان رميا البارود في مدفعهم قبل أن يمسحوه فاحترق ببقايا النار في جوانبه فماتا، وجُرح غيرهما فمات واحدٌ منهم بعد ذلك وسقطت في ذينيك اليومين جميع شرافات مرجاج وستائره، وضاق خناق الكفرة به ولم يقدروا على الظهور أعلاه لانكشافه حتى لا يخفى شيء علاه، فكان قُوَّاده يُخرجونهم إلى ظهره قهرًا عليهم بالضرب المبرح، ولقد كانوا عزموا على الخروج منه وتركه بلقعا لشدَّة ما حصل لهم فيه من الضرر، وكثر فيهم من القتلى والجرحى، غير أنَّ لكل أجل كتابا، وإذا أراد الله أمرا خلق له أسبابا، وقد كانوا لما تحقَّقوا عزم الأمير على قِتالهم كَسَوْا جميع سطوح حصونهم بالتراب الكثير حتَّى لا تؤثر فيها البونبة إذا وقعت عليها وملؤوا الأكياس الكبار بالتراب، وجعلوا منها متارس على سائر الأبراج يتسترون خلفها، وزادوا وراءها مدافع لم تكن قبل ذلك، فلما تهدَّمت لهم شرافات مرجاج كانوا يتسترون بتلك الأكياس الكتانية المملوءة ترابا، ومتى سقط بعضها أخلفوه بغيره، ومع ذلك فلم تغنهم عن إرادة تسليمه لدوام القتال يومًا آخر في الجبل.

وفي أبيات المسودة الأولى الجناس الناقص، واللاحق التام، والتقسيم، والتصدير والترديد وغير ذلك، وفي هذه الجناس التام، والتصحيف، والتصدير.

ثم اقتضى الرأي ومحمود الغرض إنزالها منه لأمر قد عرض

فأنزلت لمستقر الأرض تسقي العِدا كأس الهلاك المحض

تجاه قلعة العيون الراسخة وهضبة البرج الجديد الشامخة

يُقال (**اقتضى**) كذا وكذا إذا طلبه وتعيَّن وقوعه لأجله، و(**الغرض**) المراد، وفيه إضافة الصِّفة إلى الموصوف أي: الغرض المحمود، و(**مستقر الأرض**) المستوي منها، و(**المحض**) الخالص، و(**الراسخ**) الثابت، و(**الشامخ**) العالي، ويُقال: شمخ بأنفه إذا تكبر.

والمعنى أنَّ رأي الأمير السَّديد وغرضه الحميد اقتضيا وطلبا إنزال المدافعيين والمدافع من الجبل لأمر عرض له، وذلك أنَّه كثر الإرجاف أنَّ النصارى يخرجون من مرجاج إليها في وقت الغفلة وأحيان الغرة فخاف الأمير أن يصحَّ ذلك، والمكان بعيدٌ عن محلته جِدًّا، فلا يأتيه الصريخ حتى يفعل الكفار بها ما أرادوا من أخذها أو تسميرها، إذا لم يُمكنهم جرُّها، وبلغه عن الحرَّاس المعينين لها تقصير حتى إنَّهم ربما تركوها بعد انقطاع القتال وحدها.

وكان هذا الإرجاف المنبني على غير أصل الجاري على ألسنة الناس بغيره مما تحصل بأخذه المضرَّة الزائدة للكفار، وينفتح بأخذه باب ومنعه بها من كيدهم، فإنَّ مركيش النصارى ـ دمره الله وإياهم ـ قد كان أَسَرَّ ذلك في نفسه وعزم عليه، ولم يطلِع عليه أحدٌ من الناس، فلم يرُعه إلَّا وقد أنزل الأمير المدافع إلى الأرض بما سبق له من عناية الله تعالى به، فلما أسلموا البلد وقدم عليهم فيها صهر الأمير ـ أدام الله عزه ـ قال له المركيش: أخبرني بالله بمن دَبَّر على الأمير المنصور بإنزال المدافع، فقد أحسن الرَّأي وأصاب في التدبير، فقد كنتُ عزمتُ على أن أُخرج إليها جندا كثيفا أجعلُ بعضَه في الحفير الذي بطرف المائدة، يمنع مَن يأتي لمنعها مِن المسلمين، والباقي يجرُّ المدافع لجهة **مرجاج**، فإن عجزوا عن جرِّها سمروها، وأُخرج طائفةً لناحية المحلَّة بالوطي تُشغِل مَن به عن إغاثتهم، ولم أُخرِج هذا الأمر لأحد، فلم أشعر إلَّا وقد نزلتموها، فقال له: لم

يشاركه أحدٌ في رأيه ذلك، والكثير من الناس لم يوافق عليه.اهـ.

فانظر يا أخي إلىٰ توفيق الله لهذا الأمير إلىٰ ما فيه أجلُّ الصواب [كذا]، وإجرائه أموره كلها علىٰ مهيع الرشد، ومن مثل هذا تعلم مصداق الخبر المأثور: أقلام الحَقِّ علىٰ ألسنة الخلق، وظهر للأمير مع ذلك أنَّ برج مرجاج إنَّما هو قطعةٌ من جبل المائدة الذي أكثره بيده، فلا كبير فائدة في أخذه قبل غيره، إذ المدينة حصينةٌ بدونه، فالاشتغال بغير علم من الأمور التي دبَّرها الله لأميره وأعانه بها علىٰ عداة دينه الفتح أولىٰ [كذا]، وانضاف إلىٰ ذلك أنَّ المدافعيِّين شكوه كثرة ما يقع عليهم من البونبات البحرية حتىٰ صاروا لا يدرون من أين يؤتون لاكتناف الضَّرَرِ لهم من كلِّ جهة فلم يمكنهم القرار علىٰ ذلك، فأمر بإنزالها فأُنزلت يوم الإثنين الرابع من شوال إلىٰ مستوىٰ الأرض ومستقرها لأجل أن تسقي الكفار شراب الهلاك المحقق الخالص الذي لا يُخالطه شوب الشك، فتُركت مع محلة المدافعيين فيما بين محلته وبين حوض المركيش، وهبطت محلة ولده من الجبل فنزلت خلفها فيما بين محلته وبين الطريق الصاعدة إلىٰ **(يفري)**، وأمر الطلبة الباقين بـ **(يفري)** بالنزول منه إلىٰ السَّهل، ودفع لهم ما يسعهم من الأخبية فنزلوا عند منقطع الحزن في فم الفج الصَّاعد إلىٰ **(يفري)** عند بئر سيدي **أحمد بن ثابت**[1]، وقد كان قبل ذلك فرَّقهم علىٰ حسب ما قدمناه، وأَمَّر علىٰ الساكنين بالوادي البائعين نفوسهم لله قاضي بلده العلامة الأجل السيِّد **عبد الله بن حواء**، وترك الباقين مع أميرهم الأول وأمر أن تُنشأ للمدافع متارس مُوَاجِهة لبرج **العيون** والبرج **الجديد**، فاشتغل بإنشائها علىٰ الصِّفة التي ذكرناها في متارس الجبل، وتنافس المدافعيون في

---

(1) **أحمد بن ثابت التلمساني**: من المقرئين الشهيرين، توفي حوالي منتصف القرن الثاني عشر، وله تأليف هام في القراءات.

تحصين ما يكون كل واحد فيه فتموا أوثق ما يكون، وأصلح الحدَّادون والنجارون ما فسد من أسرة المدافع والمهارس، فكان الفراغ من الجميع يوم الاثنين الخامس والعشرين من شوال.

ومن غده أصبحت المدافع في متارسها الجديدة، وأصبح المجاهدون يقاتلون بها، وقد جعلوا في السهل نحو الخمس متارس أكبرها مقابل لبرج العيون مطل على الوادي فيه المدافع الكبار ومقدم المدافعيين، وشرقيه الثاني بينهما نحو نصف غلوة بمكحلة وشرقيهما الثلاثة الأُخر فيها المهارس سمت البرج الجديد، وفيما بينه وبين برج العيون، وفي الجبل مترس على طريق المدافع القديم الذي كان أنشأه **أبو الشلاغم**، واثنان في طرف الأفوال فيهما المهارس الصغار وبعض المدافع، فكان هذا اليوم يومًا غابت عن المشركين سعوده، لما تقاصفت رعوده، زعم بعض من تعرَّض لإحصاء ما يسمع من أصوات المدافع والبونبات أنَّه ضُرب فيما بيننا وبينهم تسع عشر مائة وإحدى عشر، ولعمري إني لأظنُّ الأمر أكثر من ذلك، واستمرَّ القتال هناك مدة تلوح لنا فيها أمارات الفتح، وتتبيَّن لنا آثار التخريب في حصونهم، وتتوارد علينا أخبار ممن يهرب منهم إلينا بأنهم في الضيق الشديد، والخوف الزائد، والموت المتواصل كل يوم إلى أن نُقلت المدافع لنحو البرج الأحمر على ما سنذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وأكبر هذه الأيام يوم الجمعة التاسع والعشرون من شوال، فإنَّ بعض بونبات المسلمين وقعت على أحد مساكنهم فاضطرمت فيها النار لكون سقفها من شعر الدوم وهو النبات المسمى بالديس وبنحوه من النبات اليابس الذي تلتهب فيه النار بمماستها إياه، فاتصلت النار في أكثر مساكنهم، وهذه المساكن إنما اتَّخَذُوها بعد هدم الزلزلة مساكنهم، وارتفعت النار في الجو، وفي أثناء ذلك وقعت بعض بونبات المسلمين على

البارود الكائن للكفرة على ظهر **برج العيون** للقتال فاحترق ومات به أكثر مقاتليهم، فلما ظهر للمسلمين لهب النار، ودخان البارود مرتفعين في الجو كاسيين لجميع البلد، ركب الأمير وخواصُّه، وسار الناس كلُّهم جادِّين لناحية البلد، مستبشرين بذلك، وصواعق المدافع والبونبات تتساقط من كل وجه، فامتلأت بالناس الأودية المؤدية إلى البلد والآكام المطلة عليها، والمتارس المقابلة لها، والحدائق القريبة منها، ولم يجدوا إلى الدخول إليها ومُخالطة أهلها سبيلا، لشدَّة تحصينها، وعدم المسالك المؤدية إليها، غير أنهم قابلوهم من كل وجهة يُضاربوهم بالرَّصاص، حتى افترق القتال قرب الزوال، فرجعوا وقد استشهد منهم جماعةٌ كثيرة، فكان ذلك من الأيام التي ضاقت فيها حواصل الكفرة، واشتدَّ فيها خناقهم، وصارت عليهم أرضهم كحلقة خاتم، وعدموا الاصطبار ولا اصطبار مع كثرة المآتم، وفقدوا القرار ولا قرار لمن أُرصِدَ إلى الهلاك، وحُبِسَ لعُقاب الموت يقتنصه في النهار ويروعه إذا جنَّت الأحلاك، فهو لَزيمُ التعس والويل، في النهار والليل، وفي غد ذلك أصابت إحدى بونبات المسلمين بارود البرج الجديد فاحترق كالأول، وفزع الناس إلى البلد أيضًا، فكان كاليوم الأول، واستشهد فيه أكثر ممن استشهدوا في الأول.

وإلى ذلك أشرت بقولي:

فاضطربت من صوتها الأسجاع ... على العدى واشتدت الأوجاع
واتصلت ما بيننا رعود ... وظلمة ينسجها البارود
حتى غدا ضاحي النهار ليلا ... وعاد عنهم السرور ويلا
وظهر التخريب في الحصون ... والهتك في حرمها المصون

(الأسجاع) جمع سجع، وهو الكلام المُقفى أو موالاة الكلام على روي، استعرتها

هنا لأصوات المدافع والبونبات، وذكرت أنها كانت عليهم مضطربة حتىٰ لم يفهموها لكراهيتهم إيَّاها، حتىٰ كانت متنافرة في أسماعهم، و(**الرُّعود**) جمع رعد مستعارة لأصوات المدافع أيضا، والمناسبة ظاهرة، وأمَّا الظلمة فإنها مستعملة في حقيقتها، غير أنَّ قولي: (**ينسجها**)، يدلُّ علىٰ أنَّا شبهناها بالثوب تشبيها مضمرا في النفس، ولم نصرِّح به اتِّكالا علىٰ فهمه من إضافة النسج إليها الذي هو من خواصِّ الثوب، فكان فيها استعارة بالكناية، ولما كان البارود هو السبب في إثارة تلك الظلمة المشبهة بالثوب لكونها نشأت عنه عند إحراقه ناسب أن يشبه بالناسج كذلك، فقد دلَّ النسج علىٰ تشبيه شيئين بشيئين تشبيه الظلمة بالثوب، وتشبيه الثوب بناسجه، أو يُقال في إسناد النسج إليه مجازا عقليا إذ ليس هو الناسج، وإنما الناسج من أحرقه، و(**الويل**) حلول الشرِّ، و(**الهتك**) مصدر هتك الستر إذا جذبه فقطعه، أو شُقَّ منه جزء فبدا ما وراءه، و(**الحرم**) من الدار ما أضيف إليها من حقوقها، ومرافقها و(**حرم**) الملك ما يحميه ويُقاتل عنه وهو المراد هنا، و(**المصون**) المحفوظ.

والمعنىٰ أنَّ المدافع الإسلامية لما أنزلت إلىٰ الأرض ووُضعت تجاه الأبراج اختلفت علىٰ الكفار أصواتها، واضطربت في أسماعهم حتىٰ صارت كالسجع المتنافر الذي لا يكاد المرء أن يستمع له، ولم تكن كراهيتهم لسماعها من أجل قبح صوتها، بل لما أثرت في قلوبهم من الخوف والفزع، وهيَّجت عليهم من الضرر والوجع، كمن يكره سماع رسالة جيِّدة الألفاظ والمعاني محتوية علىٰ إيعاده وتهديده، واتَّصلت أيضًا فيما بيننا وبينهم رعود قاصفة من أصوات مدافعنا ومدافعهم، وظلمة كاسية للجو كالثوب، يثير تلك الظلمة دخان البارود الخارج من جعابها ومهاريسها حتَّىٰ صار لها النهار الصاحي الذي لا غيم فيه كالليل المظلم لا تتراءىٰ بها الأشياء، وصار ما كان للكفرة

من السُّرور في الأزمنة الخالية ويلًا وحزنا نغَّص عليهم جميع ما تقدَّم لهم في ذلك البلد من رغد العيش وهنيه حتى صار كل واحد منهم ينشد بلسان حاله:

ألا إنني راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا علَيَّ ولا ليا

وفي تلك الأيام صار يظهر لنا أثر التخريب الناشئ بمدافعنا في حصونهم، ويتبيَّن لنا وجه هتك سترها، وإهماله وإدالة مصون حرمها وابتذاله، حتى شاهدناه بعيوننا وتيقناه بعقولنا، وحمدنا الله تعالى على ما وهب من النصر، وشكرناه شكرا لا يؤول إلى الحصر.

وفي الأبيات من قولنا: **(ثم اقتضى... إلى هنا)**، جناس التصحيفوالمضارع، واللاحق، والطباق، والتصدير، والتعليل، واستعارات عِدَّة.

والناس قد تفرقوا أوزاعا وأصبحوا في فعلهم أنواعا

فمن مدافع عن الإسلام وحارس يسهر في الظلام

وحافر ذي عمل مفرق ما بين حفر خندق ونفق

(الأوزاع) الجماعات، و**(الأنواع)** جمع نوع، وقد فسَّره في القاموس بأنه الصنف من كل شيء قال: «وهو أخصُّ من الجنس»، والذي عليه غيره أنَّ الصنف أخصُّ من النوع، ويفرَّق بينهما بأنَّ النوع ما افترق بذاتي كالناطق في الإنسان بالنسبة إلى الحيوان، والصنف ما اختلف بخاصة كالضاحك في الناطق وكذي اللحية أو الثدي فيه أيضا، فالحيوان الجنس، والإنسان النوع، والمرأة أو الرجل الصنف، و**(الخندق)** فَسَّره في **(القاموس)** بأنَّه «حفيرٌ حول أشفار المدن معرب كنده». اهـ.

ومرادي به هنا الحفير الذي يجعل ترابه أمامه ليقي المار خلفه من سهام العدو، وهو المترس الذي يُجعل ليقاتل دونه بالرَّصاص، و**(النفق)** سِرْبٌ يُتَّخَذ تحت الأرض له

مخلص إلىٰ مكان، والمرادُ به هنا ما شهر باللغم وهو معروف، وقد فسرناه سابقا.

والمعنىٰ أنَّ الناس قد فرَّقهم الأمير جماعات جماعات، عيَّن كل جماعة منهم في مهم من أمور الجهاد فأصبحوا بسبب اختلاف أفعالهم كالأنواع المختلفة فمنهم من عينه للدفاع بمقاتلة الكفار بالمدافع الكبار والمهارس الضخمة، بأن عين في كل مترس من ثلاثة مدافع إلىٰ السبعة، وعيَّن لكل مدفع من يقوم به من المدافعيين في مسحه وتعميره وتحويله من محله وردِّه إليه، والإتيان بباروده، وكوره، وخرق دقه ودقه وتسديده، وأخذ فتيله وكيِّه، وغير ذلك من مصالحه بحيث لا يتعطَّل مدفعٌ، وعيَّن للجميع من يقوم بهم في مأكلهم، ومشربهم، ومطبخهم، وإيصال ذلك إليهم في متارسهم، وعيَّن لهم في محلتهم المخصصة بهم ما يحتاجونه من طعام وغنم للذبح، وسقات للماء علىٰ دواب خاصة بهم ووكلاء علىٰ كل ما يحتاجون إليه، ومع ذلك فلا يغفل عنهم، ولا يَكِلُ أمرهم إلىٰ وكلائهم، بل يتفقد أحوالهم كل وقت، ويبعث لهم من خاصِّ طعامه وما يأتيه من الفواكه الرطبة واليابسة تأنيسا لهم، وترغيبا في القتال، وبعد اليوم واليومين يبعث لهم فيقدمون عليه فيفاوضهم فيما يتعلَّق بهم، ويسألهم عما يحتاجون، ويحضُّهم علىٰ الصبر والثبات، وكثيرًا ما شفعهم فيما استشفعوا فيه، وقبل جاههم فيمن عظم جرمه، وسيأتي ذِكر ما كان يدفع لهم إن شاء الله تعالىٰ، ومنهم من عيَّنه للحراسة في الوادي المُؤدي إلىٰ البلد من البرج الذي فيه إلىٰ حدائقها، وقد قدمنا أنه أسكن فيه خمسمائة من الطلبة يحرسون أهل فجيج الذين يحفرون فيه اللغم، فكانوا يضاربون فيه الكفرة صباحا ومساء لا يفترون أبدا، هؤلاء يضاربون في الفضاء وأولئك في أبراجهم حتىٰ لا ينقطع صوت البارود بينهما وقتا ما، ولم يكن الموت إلَّا فيهم، ثم لما أنزل المدافع إلىٰ السهل قسم جميع أجناده علىٰ اثني عشر قسما يحرس كل ليلة قسم، وعيَّن لإقامتهم

لذلك قائدين من قُوَّاده، فكانوا يحرسون في المتارس المحفورة قبالة البرج الجديد، وعيَّن طائفة تحرس في جبل المائدة وحواليه عسى أن يظفروا ببعض الجواسيس أو كفرة المغاطيس، وأمر جميع أبناء الصالحين والطلبة الذين لم يندرجوا في ديوان إخوتهم بالتخييم بموضع يُعرف بالشفة، ويحرسون بناحية البرج الأحمر ففعلوا، فاتَّصل نظم الحراس من البحر إلى الحدائق، ومنهم من عينه للحفر في المتارس فجعلوا منها صفوفا ممتدة من منقطع سمت البرج الجديد من جهة الشرق إلى الوادي، صف أمام صف يعمرها الحراس والمقاتلون بالرصاص، ومنها صفوف مقابلة لبرج الفرانسيس، ومنها صفوف في الوادي تجاه البرج الذي فيه، ومنهم من عينه للحفر في النَّفق ـ أي: اللغم ـ بعض في الوادي ذاهب إلى سمت برج أبي بنيقة وبرج بني زروال، وبعض ذاهب من المحل المعروف بغيران الضرابين إلى البرج الجديد، إلى غير ذلك مما سنذكر إن شاء الله تعالى ما آل إليه أمرهم، كل ذلك بأجرة تامة مقبوضة كل يوم، وإحسان متواصل، وبِرٍّ متراسل، ورعي حرمة، وحفظ ذمة، نسأل الله أن يخلد أجر ذلك في ديوانه، ويجعله مما يزيد في رجحان ميزانه.

وفي الأبيات: الجمع مع التقسيم، ومما يزيد ذلك لطافة أنَّ هذا التقسيم فيه تقسيم أيضا.

ثم بدا لذي الكمال الأشهر	**فنقل الآلة نحو الأحمر**
فازداد عن أعدائه النكال	**وعظم البلاء والوبال**
حتى أتانا الخبر الأثير	**أن الهلاك فيهم كثير**
وأنهم قد عدموا الرجاء	**واستضيقوا الأنحاء والأرجاء**

(**الكمال**) التمام في الخير والفضل، يُقال: كمل فلان كنصر وكرم وعلم فهو كاملٌ في الخير والمجد، والمرادُ بذي الكمال أميرنا ـ أدام الله تأييده ـ و(**الأحمر**) صفة لمحذوف

تقديره البرج الأحمر، وهذا البرج من أعظم حصون هذه المدينة وأكثرها غناء عنها وأشدِّها دفاعا عليها بَرًّا وبحرا، كأنه مدينة مستقلة يتطاير منها شرر المدافع من كل جهة فلا يُمكن أن يؤخذ إلا بالمسالمة، وهو من آثار المسلمين لكونه بناه أبو الحسن المريني، حسبما ذكره شارح الحلفاوية، إلَّا أنَّ الموجود الآن من أثر بنائه قليلٌ لا يفي بعشر عشره، و(**النكال**) ما نكلت به الغير كائنا ما كان، ومعنى نكلت صنعت به صنيعا يُرهب غيره ويُحذره، و(**الوبال**) الشدَّة والثقل، ومصدر وبل الأرض بالضم إذا استوخمها، و(**الأنحاء**) جمع ناحية، و(**الأرجاء**) جمع رجاء معطوف على الأنحاء عطف تفسير.

والمعنى أنَّ الأمير ظهر له رأيٌ رشيد، وطرأ عليه غرضٌ حميد، فأمر بنقل آلة القتال من المدافع والمهارس لناحية البرج الأحمر؛ لأنَّه ركب يوما إلى محلة المرابطين ليحضَّهم على القتال، ويُغريهم بملازمة الدفاع فرأى الكفرة بالبرج الأحمر مطمئنين لم تروع مدافعه سربهم، ولا هيجت كربهم، وتلك الجهة مُتهيئة لنصب المدافع فيها لإشرافها ومقابلتها لمساكن العدو بحيث لا يخفى على الرَّامي إليها شيء منها ومن طرفها وخفاياها ومكامنها، فيرمي حيث شاء فأيقن أنَّه إذا لم يُقاتل في تلك الناحية لم يغن شيئا، وانضم إلى ذلك أنَّه بعث بعض الجواسيس إلى (**وهران**) فأخبره بأمورٍ منها أنَّ الكفرة شرعوا في حفر نفق تحت الأرض ذاهبين به إلى ناحية المترس الكبير المطل على الوادي الذي فيه جميع المدافع الكبار ليمكُروا بالمجاهدين بأن يملؤوا نفقهم بالبارود إذا فرغوا منه، ثم يخرجون من حصونهم قاصدين مدافع المسلمين، فإذا حمل عليهم المسلمون وصاروا فوق أرض النفق كووا البارود الذي فيه فتنقلب الأرض بالمسلمين، فلما سمع بذلك أَخَّر المدافع التي في ذلك المترس، وهُيِّئت لها وللبونبات متارس

حصينة كالأولى فيما قابل البرج الأحمر، فحينئذ ازداد البلاء على الكفار وعظُم عليهم الخطر واشتدَّ عليهم ضيق البلاد، وأيِسوا من حياة الأهل والأولاد.

وأتانا الخبر من ناحيتهم بأنَّ الموت كثيرٌ فيهم ببونبات المسلمين حتى إنَّ عشرة منهم اجتمعوا في حانة خمار يشربون، وقام الحانوي ليفرغ لهم الشراب فوقعت بينهم بونبة أهلكت الجميع إلَّا اثنين بقيا مجروحين، وأصاب طرف منها ظهر الحانوت فقصمه وكسر خابية الشراب .

وقدم بعضهم بلدنا بعد تسليم البلاد فكان يكتمنا ما وقع، غير أنَّه ربما صدرت منه فلتات يصرِّح فيها بذلك، قال لنا يوما: والله لقد علمتمونا الرَّقص غاية من الخوف، وجشمتمونا المشي في الأزقة على الركب، خوفا من سهامكم، وكدَّرتم علينا صافي العيش، وصيرتمونا نراقب الموت، ولقد كنا معكم أوَّل الأمر حين كنتم تقاتلوننا في وقت واحد، ثم لا تَعودون للقتال إلى مثله في راحة نستتر في ذلك الوقت، فإذا انقطع القتال، ظهرنا وتصرفنا في مصالحنا، ولما صرتم ترموننا مرَّة بعد مرَّة في الأوقات المختلفة دون ضبط ضاقت علينا الأرض بما رحبت حتى صار الواحد منا لا يأمن على نفسه في يقظة ولا نوم ليلا ولا نهارا، ولقد يكون الرَّجل جالسا على طعامه فيهجس له ذكر البونبة، فلا يقدر على إساغته خوفا من أن تسقط عليه بغتة، قال: ولقد رميتم آخر أيام رميكم في داري بخصوصها خمس بونبات، ولقد خرجت يوما لإصلاح ماء الرحى في بعض الحدائق فطلع علي الفجر فيها، فلم أقدر على العود إلى البلد لكثرة سهامكم، غير أني دخلت في قصب هناك إلى أن افترق القتال، فقلت له: كم بلغ عدد قتلاكم ؟ فلم يجبني، غير أنَّه قال: إن قلت قليلا كذبت.

وحدَّث غيره أنَّ صبيانهم إلى الآن إن سمعوا صوت ناقوس تنادوا البونبة البونبة،

وتضيق عليهم الأرض فزعا لأنهم كانوا أرصدوا أحدهم على مرتفع، فإذا رأى المدافع كُويت ضرب لهم في الناقوس مرَّة واحدة، وإذا ضربت البونبة ضرب لهم مرتين فيستترون في أماكن النجاة، فبقي ذعر ذلك في قلوبهم إلى الآن.

ولما خرج المغاطيس منها حدثوا أنَّ رجلا أسود كان يتراءى لهم في أيام الجهاد من حيث قيدزة ـ المحل المعروف ـ منفردٌ عن المسلمين، فيرقص قبالتهم ساعة، ويرمي بسهمه إليهم فلا يخطئ، ويرمونه كلهم مرة واحدة فلا يصيبونه، حتَّى إنَّه صار لهم شجى ناشبا في حلوقهم ما ظهر لهم إلَّا قتل منهم ما شاء، ولقد كانوا يستترون منه فلا ينفعهم الاستتار، بل يرميهم من وراء ذلك الستر فيقتلهم، فكانوا يحذرونه، ويُحذِّر بعضهم بعضا منه، وإذا رأوه انفضوا خوفا منه فيقتل منهم كعادته ويذهب، وهذا إن صحَّ، فهو من الأولياء قطعا، فنحمد الله على أن أحضرنا جهادا أحضره بعض أوليائه، فعسى أن يكون هو ممن قبل جهاد الجميع بسبب قبول جهاده، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (إبراهيم: 20)، فإنه تعالى إذا قبل واحدا قبل الجميع لأجله، فقد روي أنَّ بعض الأولياء حج سنة، فرأى كأن شخصين نزلا من السماء فقال أحدهما للآخر: كم ترى حَجَّ في هذه السنة ؟ فقال: سبعون ألفا، قال: وكم قبل الله منهم ؟ قال سبعة، وقُبل لأجل واحد عشرة آلاف.

وما زال الأولياء يحضرون ملاحم الجهاد أحياء وأمواتا، أمَّا الأحياء فبما أوجب الله عليهم كغيرهم من نصرة دينه بقتال أعدائه، ومع ذلك فلا تصدر منهم الخوارق، وإن كانوا غير ممنوعين منها، بل يُقاتلون بالآلة كغيرهم فيَقتلون ويُقتلون اقتداء بالنبي ﷺ وبالسلف الصالح، وحكمة ذلك تظهر لك بمطالعة كتاب (**الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز**)، وأما الأموات فإنَّ أرواحهم تحضر إعانة للمسلمين وإغاثة، وربما ظهرت

منهم الخوارق، بل حضورهم من الخوارق، ولهم في ذلك أخبار جمَّة وأحاديث مهمة، بسطُها يُطلب في كتب المناقب، وقد ذكر شارح **الحلفاوية** أنَّ المسلمين كانوا يسمعون في حصارهم برج العيون صوت مدفع يرمي البرج ويهدم أطرافه ولا يدرون من أين ذلك، وأنَّهم لما فتحوا مرجاج كان أُساراه يقولون لهم: ما لنا لا نرىٰ رجالا كنا نراهم أيام الحصار كأنهم بقية قوم عاد، طوال شداد، ثيابهم بيض، ولحاهم طويلة كانوا يضربوننا بسيوفهم، ونحن علىٰ أسوارنا ونضربهم فلا يفيد ضربنا فيهم، وهم الذين أخرجونا إليكم، وقد ظهر في قضية الحراس من هذا المعنىٰ ما بلغ حد التواتر، وشهد به الجمع المتكاثر.

وأشهد لقد كنت أخرج ليلا معي جماعة من المحلة المنصورة في الغزاة الواقعة عقب الزلزلة، فإذا رجعنا وقربنا من المحلة شممت رائحة الطيب الأريج فأشهد عليه الحاضرين.

فكم شريد خاض لج البحر منهم، وجاء راضيا بالأسر
وآخر فر إلى البلاد وسار في البحر على أعواد

(**الشريد**) هو النافر والهارب، و(**خاض الماء**) دخله، و(**اللج**) بالضم واللجة: معظم الماء، و(**الأعواد**) المراد بها أعواد السفن.

والمعنىٰ أنَّ البلاد لما ضاقت أرجاؤها علىٰ الكفار لم يقدروا علىٰ الإقامة بها، فمنهم من عدم وجه الخلاص، وانسدت عليه فُرَجُ الفَرَج، وكثُرت عليه العيون، فبقي تقضىٰ منه الديون، ومنهم من لم يظهر له وجه النجاة إلَّا من البحر، فخاض لججه واعتمد ثبجه وجاء فيه هاربا إلينا راضيا بالأسر طالبا للنجاة من الهلكة بهلكة، ومنهم من ألقىٰ نفسه من الشواهق، وهرب نَحوَنا، ومنهم من لم يكن ملزما بالبقاء من جهة سلطانه،

فرفض سكناها وبادر إلى أوطانه.

قـد قسـموا فالجـل للـهلاك يعـروه في الصبح وفي الأَحـلاك
وجـلٌّ بـاقيهم للـجِّ البحـر والـبعض قـد فـرَّ لـذاك البَـرِّ

هذا تقسيم لهم بحسب ما قدمناه آنفا، ومعنى البيتين ظاهرٌ، وفيهما الجمع والتقسيم، والجناس المضارع اللاحق، والطباق بين الصبح والإحلاك غير أنه يُعترض بمثل ما اعتُرِض به قول أبي الطيب:

أزورهـم وسـواد الليـل يشـفع لي وأنثنـي وبيـاض الليـل يُغـري بي

حيث قابل بين الصبح والليل، وليس بنقيضه، وإنما هو جزء نقيضه، وكذلك هنا الصبح جزء ضد الوقت الذي يكون فيه الإحلاك، وفي الثاني المقابلة والقلب

جميـع ذا والـريح للإسـلام والنصـر ظـاهر علـى الأعـلام
وأسـد الله الأثـير المجـد في أمـره يجـد كـل الجـد
لا يغـبط النـوم علـى مهـاد حرصـا علـى مصـالح الجهـاد
وكفـه يمطـر بـالنوال عـن المقـاتلين بـالتوالي
ومـن رآه بطـلا ذلـيلا أدنـاه منـه فغـدا جلـيلا
حتـى اغتنـى مـن مالـه الفقـير وشـرف الـذليل والحقـير

(**الريح**) الغلبة والقوة والنصرة والدولة، مثل ذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ (الأنفال: 46)، و(**الأعلام**) جمع علم وهو الراية، و(أل) فيها عوض من الضمير العائد على الإسلام أي أعلامه، و(**النوال**) العطاء.

والمعنى أنَّ الغلبة والقوة لم تزل في جميع الزمان الذي وقع فيه ما تقدَّم ثابتةً لأهل الإسلام، وأنَّ النصر لم يزل ظاهرا على أعلامهم لم ينكسها فشل، ولم يعترها ذل، ولا

لحقها ملل، فلا يُقال: إنهم وإن كانوا في ضيق وبلاء، فالمسلمون أيضًا في مثله، بل لم يزالوا في أنس وسرور وسلامة من كل محذور مُستبشرين بما آتاهم الله من فضله حامدين له على ما مَنَّ عليهم به من طوله، وإن مات الاثنان والثلاثة منهم في أحد الأيام عدّوه من الأيام التي كثر موتهم فيها، ولم يقع لهم ضررٌ إلَّا في اليومين اللذين نَبَّهت عليهما سابقا، ويوم ثالث سقط فيه جبلٌ بغير سبب على نحو الثلاثين من الحراس فماتوا ـ رحمة الله علينا وعليهم أجمعين ـ فكانوا من جملة الشهداء، فإنَّ كلَّ من حضر أجله في الرِّباط، وإن كان حتف أنفه، فهو شهيدٌ، كيف وقد انضم إلى ذلك أنهم ماتوا بالرَّدم فهم شهداء من وجهين.

ولم يزل الأمير الشبيه بالأسد في إقدامه الكثير المجد الفائق البدر في علوه وتمامه، جادًّا في أمر الجهاد غاية الجد لا يُدركه كسلٌ ولا يردُّه ملل، ولا يستلذ النوم اشتغالا بالأمور المتعلِّقة بالجهاد من شراء آلات الخدمة، وآلة القتال وبعثها لمحالِّ احتياجها، ودفعها لمستحقيها، وتفقد أحوال المقاتلين، والسؤال عنهم، وتعيين الخدمة والمواضع التي يخدمون فيها، وتصريف خُدَّامه على دوابه في إيصال ما يلزم إيصاله إلى المتارس كلها من بارود ورصاص، وكور وبونبة وغيرها، والوقوف على ما يصنع من الآلات ونحوها، ودفع الأثمان والأجرة وغير ذلك مما لا ينقطع عليه الأمر به والنهي عن ساعة، حتى إنَّ صوته لم يَصّفُ من بحة وخشونة منذ نزل عليها إلى أن رحل عنها، وكَفُّه لا يزال يسمح ويفيض بالعطاء كأنه السحابة الممطرة على جميع المقاتلين بالمدافع والمهارس وسائر من يقوم بهم يدفع لصغارهم كل يوم عشرين درهما شرعيا، ولكبارهم ما بين المائة إلى الأربعين، هذا الذي ألزم به نفسه وقد يزيدهم على ذلك تفضُّلا أضعاف أضعافه في بعض الأحيان، ومع ذلك فإنَّهم يحسبون له أكثر مما عندهم

من المقاتلين ليتوفر لهم حظ من يزيدونه، ويسمع بذلك فيضرب عنهم صفحا، وكم من مرَّة سمع بأحدهم يقع الموقع في رميه فيغمره بعطائه، ليشحذ بذلك قرائح نظرائه، ويبذل في تحصيل الآلة ما لا تسمح به نفس ملك سواه، وأمَّا أجرة الحفر ونحوه فلا يُمكن إحصاء ما خرج من يده في ذلك، وكلُّ من رآه من الناس شجاعا، أو بلغته عنه مزيَّةٌ على غيره أدناه وقرَّبه وخصَّه بوافر العطاء وزيادة التكرمة حتى صار الفقراء أغنياء بسبب ما استفادوه منه من وافر النوال، وأمسى الأذلة أعزَّة بسبب تقريبه وإدنائه إياهم ونظره بعين الرضى إليهم، وتخصيصه إيَّاهم بوافر العطاء سيما إن ظهرت لهم مزية على غيرهم، أو ظهر لفعلهم أثرٌ في ناحية الكفرة من حرق مسكن، أو إصابة مقتل، أو هدم في حصن، أو كان منهم وقوفٌ صالح على عمل، وبلغه عنه حرصٌ وتشهير لاسيما حفرة اللغم فإنَّه كان يفيض عليهم فيضان النيل، ويخصُّهم بأَنفَسِ الأعلاق وأعظم النيل، حتى إنَّ الواحد منهم [يخرج] من عنده وآلاؤه ظاهرة عليه، وحِجرُه مملوء دراهم، ومع ذلك فلم يُغنوا شيئا.

وبالجملة فقد أنفق هذا البحر الزاخر، والأسد الخادر، على استنقاذ هذا البلد من يد الكفر ما لو تعرَّض أحدٌ لإحصائه لأقعده القُصُور وخانه لسانه الحصور، ولو ضُبط فتحدث به المخبر لم يصدقه الجلَّاس، لبلوغه الحدَّ الذي لا يمكن أن تسمح به نفس أحد من الناس، وقد أحصى من ذلك كتَّابُه وما حضروا دفعه فكان مائتي ألف ريال وستين ألفا وخمسة وثلاثين ريال، صرف الريال ستة دراهم شرعية، كل ذلك من عنده، كما تقدَّمت الإشارة إليه عند قولنا: (**وبعد فالجهاد**)، وكلُّ ذلك قبل دخولها، على أنه كان يدفع لأهل الدفاع والغناء، ويقرِّب من كان له بالجهاد زائد اعتناء، وأمَّا من كان متقاعدا عن القتال ظاهر الفشل، أو متبطأً عنه، أو قاصر الإعانة فيه فإنه يهينه أشدَّ الإهانة، ولقد كان يُسمي من يفهم عنهم التقاعد بالمنافقين لا فرق عنده في ذلك بين

القريب والبعيد، العلي والدني، وهو في جميع ذلك جازمٌ بالفتح متيقِّن له لا يدخله فيه ريبٌ، حتَّىٰ إنَّه قال يوما لجند الأتراك، وقد آنس منهم تقاعدا: «إنَّ هدا البلد لابد لي من أخذها، ولو كنت في شرذمة قليلة، فجِدُّوا لتفوزوا بفخرها»، وما قال ذلك إلَّا تصديقًا لإشارات الأولياء المتوجِّهة إليه بذلك، ومُبشراتهم الصَّادقة المنبئة له بها هنالك، فكان يخلص فيهم الاعتقاد، ولا يتلقاهم بالانتقاد، وفي كثرة تلك الأخبار ما يفيد اليقين، سيما وأنَّ أكثرها صادرٌ من المتقين، وفي صدق الطلب من الأسرار، ما تحير فيه الأفكار، وما أصدق قول ابن سعيد:

لكـــن سر الله في صـــدق الطلـــب　　　كم ريء في أصحابه مـــن العجـــب

وفي الأبيات: الجناس الناقص والمضارع واللاحق، والتصحيف، والطباق، والتقسيم، والترديد، ونفي الشيء بإيجابه.

فلـــم يَرُعنـــا والمغيـــب مـــبهم　　　إلا وقـــد مـــات الهمـــام الأكـــبر

محمـــد ســـليل عثمـــان الحســـن　　　وقـــام بعـــده المعظـــم حســـن

يقال: راعه كذا، إذا دهمه من غير شعور، فكأنه أفزعه، و(**المغيب**) والغيب كل ما غاب عنك، و(**المبهم**) ما لم يتبيَّن من غيره لاشتباه وجهل عينه أو وصفه.

وهذا شروعٌ في ذكر ما آل إليه الأمر في هذه الغزاة وتوطئة لذلك.

والمعنىٰ: أنَّا لم نزل جادِّين في أمرنا، ظاهرين علىٰ أعدائنا، ورأينا مجتمع لا ندري ما يقع في الغيب ولا نعلم ما وراء حجابه، وربُّنا يفعل ما يشاء ويختار، لا مُعَقِّب لحكمه ولا رادَّ لأمره، سدلَ الحجاب عن إدراكات العقول والأبصار، وانفرد فعلم ما ينتجه الليل وينجبه النهار، فلم نشعر بشيء حتىٰ أتانا الخبر بأن قد مات السلطان المعظم والملك المكرَّم السيِّد **محمَّد بن عثمان** ـ أفاء الله عليه ظِلال الأمان ـ يوم الثلاثاء التاسع

من ذي القعدة، وهو إذ ذاك أول يُليُو، وورد الخبر بذلك في الثالث من يومه مع بريد نعاه إلينا، وبشرنا بأنَّه قد قام بعده بالملك بدر الملوك الذي استتمت دارة إشراقه فاهتدىٰ به البرايا، وصقره الذي صلصل فوضع عمامته ذلا وخضوعا كل من قال: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا، محمود السيرة والسريرة، وملاذ البرية عند هجوم الخطوب الكثيرة، ومقصدهم عند استمطار سحائب المنن الأثيرة، من أصبحت أيامه غررا في جباه الليالي، وربيعا مخصبا بالجواهر واللآلي، المبجل الحسن، **أبو علي السيِّد حسن**، أبد الله علوه في فلك المجادة، ولا زال قدره الرفيع تخضع لعلوه جميع الفراقد الوقادة، فوردت علينا محنة أنستنا منحة القائم المشهور، ومحق عنَّا همها ما استفدناه بذلك من الفرح الذي لا ينقضي علىٰ مر الدهور، واتِّصال الشهور، غير أنَّنا وجمنا عند ذلك خوفا من أن يأمرنا بالإقلاع عن الجهاد، رعيا لمصلحة تتعلَّق بالملك، سيما وقد أشاع المرجفون والمثبطون عن الجهاد أنَّ الكفار عازمون علىٰ نقض الصلح وغزو الجزائر، ويأبىٰ الله ذلك، وطالما تكلفوا ذلك فلم يرجعوا إلا بخف حنين، حتىٰ أيسوا منها ولم ينفعهم إلا طلب الصلح، فكيف يعودون لما أفنوا فيه رجالهم، أم كيف نقضوا ما بذلوا في ربطه أموالهم، فلما قرئ كتاب النعي والبشارة إذا فيه: إن كنت علىٰ يقين من أخذ البلاد أعنتك بما شئت، فأجابه الأمير ـ أعزه الله ـ بما يجب و ينبغي أن يُجاب به مما لا يظهر للعامة، وبعث له مالًا كثيرا هدية ونصرىٰ [كذا] وطواشيا وغير ذلك، ثم ورد الكتاب الثاني من السلطان متضمِّنا للحضِّ علىٰ الجهاد وحفر اللغوم، ففرح الناس بذلك أتم الفرح، وزال عن أهل اليقين الهم والترح، غير أنَّه كان من العادة القديمة أنَّ السلطان إذا تولىٰ بعث لجميع أمرائه الأكابر خُلع التشريف الدالة علىٰ تجديد الولاية لهم، وتقريرهم في إيالاتهم في اليوم الثالث من يوم توليته، فتأخَّرت خلعة أميرنا المنصور عن العادة يومين، أو ثلاثة غفلة من الديوان العلي عن العادة القديمة، واشتغالًا بإقامة

قواعد السلطنة العظيمة، وانضم إلى ذلك عدم انفتاح باب الفتح للمسلمين، وظهر التقصير من جهة حفرة اللغم، وقد كان عليهم المُعَوَّل والعمدة إذ هم الذين كنَّا نُؤمل أن ينفتح باب بفعلهم في الأبراج، فيحمل عليها المجاهدون حتى يلجوا منه فلم يظهر لفعلهم أثرٌ، بل منهم من صرَّح بالعجز، ومنهم من جعل له النصارى مكيدة أفسدوا بها عمله، ومنهم من كان يَعِدُ بالوفاء ويمطل، ويسأل الإمهال الزمن الطويل بعد قوله لا تمضي جمعة حتى أحصل على المقصود، فإذا عُوتبوا على تقصيرهم اعتذروا بالأعذار الواهية من صلابة الأرض، وظهور الحجارة بها، والانتقال من محلٍّ إلى غيره حتى سئمهم الناس لما تحققوا كذبهم، وكثر الدعاء عليهم بعد كثرته لهم، واستحال حُبُّ الناس إياهم بغضا لهم.

وكان الحامل لهم على التقصير أنَّ ضِعاف الدين كانوا يحذرونهم خدائع النصارى تثبيطًا لهم، فامتلأت قلوبهم خوفا، وصاروا يغشُّون في العمل ويكذبون على الأمير حتى أدال الله منهم بخديعة النصارى إياهم بلغم حفروه تحت بعضهم، فمات منهم نحو العشرة على زعمهم، ووقعوا فيما كانوا يحذرون، ولو أنهم جدُّوا أوَّلا لسبقوا النصارى لما كانوا يريدون غير أنَّ الله يفعل ما يريد لا ما نريد، فلما انبهم الأمر كذلك، وانسدت أبواب الفرج، وفرج الفتح من حيث كان يُرجى انفتاحها ولم يبق معوَّل إلَّا على المدافع وهي وإن كانت تُهلك الجنود فلا تفتح الحصون، أمر الأمير لا زال رأيه سديدا، ورواق الستر عليه مديدا، بقراءة **صحيح البخاري** بالمحلة المنصورة لكون قراءته مجرَّبة لدفع الشدائد وتفريج الكرب، وبنى للعلماء خباء يجتمعون فيه لقراءته مناوبة، فتداولناه صباحا ومساء فخُتم في عشرة أيام، ولم يَمض يومان من قراءته حتى صارت أبواب الفرج تنفتح بابا بابا، فكان أوَّل ما لاحت به البشائر قدوم الخلعة الملوكية للأمير ـ أعز الله نصره، وأعلى في الأفاضل ذكره ـ ومعها كتاب البشارة العامَّة

بتولية الطالع السعيد، الذي فرح به القريب والبعيد، مطلبا عاما إذ الأول إنما كان خاصًّا بالأمير لم يأذن له فيه بإعلام الناس بشيء كأنه أراد أن يخبره به أنه عنده من خواصِّه الذين يخصُّهم بأسراره ومهمات أخباره، فلبس الخلعة في حضرة الديوان وجماعة من العلماء ووجوه الجند وقرأ عليهم كتاب البشارة فدقت البشائر، وضُربت مدافع التهنئة، واستبدل حرج الصُّدور نورا، وهمُّها سرورًا، ثم تلا ذلك قدوم هدية من عند السلطان دلَّت على اعتنائه بالأمير، ورعيه لحرمته ومراعاته لسابق خدمته، ثم تلا تلك الهدية الكتاب الذي أخبره بما اتفق عليه مع النصارى من كونهم يدفعون جميع ما أنفق في غزوهم من أوَّل الأمر إلى آخره على أن يرحل عنهم، حسبما نذكره بعد.

فصادف هذا الكتاب الأمير عازما على مناجزتهم ليلتئذ بحمل المسلمين عليهم من كل ناحية ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيي عن بينة، وقد كان بعض المسلمين فرغوا من عمل لغم تحت برج بني زروال شرعوا فيه من مجرى ماء رأس العيون بعد الإياس من أهل فجيج، وأخذوا به ذات اليمين إلى أن سامتوا به حائط البرج تحت الأدرج التي تصعد لبابه، فلم يدخلوا به تحت حائط البرج جِيِّدا لكونهم اغتروا بحجارة الأدراج ظنوها حجارة الحائط الأصلي، فلما كووه لم يهدم من الحائط شيئا، بل أَثَّر فيه خللا فقط، وقد كان الأمير واعد المجاهدين بالحمل على الكفار عند طلوع الفجر بعد أن يأذن لهم بضرب مدفع يدلُّهم على إذنه، فلما ورد عليه الكتاب المذكور بعث فَرَدَّ الناس، وبعث ابنه السيد عثمان وأخاه السيِّد محمَّد فردًّا جند الترك، وبعث إلى الكفار يُخبرهم بذلك، كما سيأتي إن شاء الله، ثم تمَّت البشائر وكمل السرور بخبر الفتح الآتي ذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ.

فقولنا: و(**المغيب مبهم**)، جملةٌ معترضةٌ هي من باب التتميم.

وفي الأبيات: الجناس، والتصدير، والمقابلة.

أعظـم مـن ولـي بـالجزائر	**فسـر كـل قـاطن وزائـر**
لا زال في سـرادق الأمـان	**فإنـه نتيجـة الزمـان**
تم بـه شمـل الفخـار واعتـدل	**إذ لم تـرد منـه الإمـارة بـدل**
لـو حـل غـيره محـل الملـك	**لآل شمـل قطرنـا للـهلك**

(**السرادق**) ما يمد فوق صحن البيت، و(**النتيجة**) عند المناطقة ما ينشأ عن الدليل الصحيح من العلم، وهي أيضًا فائدة الشيء بمعنى كونه نتيجة الزمان أنه تحفته، وخيار أهله لأنه الأمر الذي وجد الزمان لأجله إذ ذاك هو المصطفى ﷺ، و(**الهلك**) بالضم الهلاك، ومعنى الأبيات ظاهرٌ، وفيها التصدير، والجناس المطرف، واللاحق، ومعنى قولنا: (**إذ لم ترد منه الإمارة**): بدلٌ من قول أبي العتاهية:

أتتـه الخلافـة منقـادة	إليـه تجـرر أذيالهـا
فلـم تـك تصـلح إلا لـه	ولم يـك يصـلح إلا لهـا

***

فبـادروا لبابـه السـعيد	**وقبلـوا ظـواهر الصـعيد**
وأعلنـوا لـه ببـث الكـرب	**وجنحـوا للسـلم بعـد الحـرب**
فـأمر السـلطان سـيف القهـر	**أن يـترك القتـال نصـف شـهر**
ليـدفعوا لـه مـن الأمـوال	**جميـع مـا أنفـق في القتـال**
حتـى تكـون جزيـة معجلـة	**يبـدو لنـا بهـا صـغار الجهلـة**

(**الصعيد**) كل ما علا وجه الأرض من أجزائها ترابا أو حجرا أو غيرهما، ومنه قول الباري سبحانه: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (النساء: 43).

و(**البث**) تهييج الخبر، ويُطلق على أشد الحزن كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: 86)

و(**جنح** إلى كذا) مال إليه، و(**الحرب والسلم**) ضدان، و(**سيف القهر**) كنايةٌ عن أميرنا الذي جعله بمنزلة السيف المسلول لقهر العِدا، وقمع البغاة عن العَدا، فكم حز من حلاقم، وقهر من باغ كان يدعي أنه من القماقم، وكم من عاد أبقاه طعمة للرخم والأراقم، و(**الجزية**) ما يُؤخذ من الذمي في مقابلة تأمينه، وإدخاله تحت ذمة الإسلام، وهي أطيب المكاسب الإسلامية، إن أُخذت على وجهها المشروع، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة: 29)، وقدرها على العنوي أو الصلحي إن لم يشترط شيئا ما اشترط قليلا أو كثيرا إن تراضى مع الإمام، والنقص مما تقدَّم في العنوي، ومن لم يشترط شيئا من آفات الدين، وقد غفل عنها الملوك وأدرجوها في طي الإهمال، وتركوا ما أباح الله لهم وأوجب عليهم لغير حامد ولا شاكر، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ومتى بذل الكفار الجزية حَرُم قتالهم لأنها الغاية التي أباح الله لنا قتالهم إليها، ولابدَّ مِن إهانتهم عند أخذها بأن يدفعها كلُّ واحد بيده، ولا يبعثها مع غيره ويكون ماشيا كارها مذموما عليها، ولابد من صفع قفاه عند دفعه إياها، كلُّ ذلك ليرغب في الإسلام، لا فرق في ذلك بين أكابرهم وغيرهم، وهذا أيضًا مما ضيعه الملوك وأهملوه بأن جعلوا لهم نقباء منهم يأخذون منهم على حسبهم ويدفعونه، على خلاف ما وصفناه، فإذا أسلم سقطت عنه، وهي من جملة الفيء تُصرف في جميع مصالح الدين.

و(**الصَّغار**) الذل والرضى به وصغر القدر، واللام في (**ليدفعوا**) لام العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ (القصص: 8) أي: أنَّ عاقبة تلك الهدنة

أنهم يدفعون له جميع ما أنفق على حسب ما نذكره، وليس المرادُ أنهم يدفعون ذلك لأجل ترك القتال في ذلك النصف شهر فقط.

والمعنى أنَّ النصارى ـ دمرهم الله وأذلهم ـ لما قام السيِّد حسن بالملك بادروا لأعتابه العلية، فقبَّلوا التراب بين يديه، وكشفوا رؤوسهم أمامه خاضعين، وشكوه ما نالهم من الألم من جهة الأمير بسبب قتاله إيَّاهم من القتل المتزايد كل يوم، والحصار الذي لا يخرج أحدٌ منهم بسببه من داره، بل لا يأمن على نفسه في بيته خوفًا من نزول الصواعق عليه، ومالوا إلى طلب المسالمة على أن يدفعوا جميع ما أنفق الأمير في جهادهم، وصرفه على أخذ بلادهم من مثل الدراهم التي خرجت من يده وقيم ما لم يشتره، وذلك شيء يُجاوز الحدَّ، ويربُو على العد، فلا ينتهي إلى علمه أحد، ويكون في عوده إلى غزوهم بالخيار متى شاء، وما القصد إلَّا أن يُنَفِّسَ عن خِناقهم بقدر ما يبتلعوا ريقهم، وتستقِرُّ قلوبهم التي بلغت الحناجر بشدَّة ما حصل لهم من الضيق، فأجابهم السلطان إلى ذلك، وكتب إلى الأمير يأمره بأن يُهادنهم خمسة عشر يوما بقدر ما يأتي الخبر من عند الطاغية ـ دمره الله ـ بالتزامه دفع جميع المال المذكور، إذ السُّؤال أوَّلا إنما كان من وكيله القاطن بـ **(الجزائر)** قائما مقامه، فورد كتابه على الأمير ـ أيده الله ـ وهو عازمٌ على مناجزتهم ـ كما قدمناه ـ فترك ما كان عزم عليه.

وبعث إلى النصارى كتابًا أتاهم من وكيل طاغيتهم الذي بـ **(الجزائر)** مضمنا ما ذُكر، واتَّفق معهم على الهدنة في المدة المذكورة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، ففرحوا ـ دمرهم الله ـ بذلك أتم الفرح، وبعثوا إلى الأمير أعزه الله عزا أبديا ونصره نصرًا سرمديا، يحمدونه على جميل ما أولاهم من تلك الهدنة التي انتعشوا بها وآبت لهم أرواحهم الغائبة بسببها، وخرجوا من مكامن حصونهم، وفتحوا مُغلقات

أبوابهم، وانتشروا حوالي أسوارهم يستريحون من ضيقهم وإسارهم، واسترسل المسلمون على أرضهم يجوسون خلالها، ويكشفون خفاياها، وينظرون حصونهم حصنا حصنا، ويستقون من مائهم الذي لم يزل مصونا، ويُوردون إليه دوابَّهم ويغسلون فيه أثوابهم إلى أن منعهم الأمير من ذلك، ثم إنَّ الناس لما انقطع عليهم القتال، وأُرِيحوا من الأشغال، انحلت حبوة عزمهم، وانتقض نشاطهم وركبهم الملل والكسل، فظهر للأمير أن يرتحِل عنهم، فإن وافق طاغيتهم على ما ذكر فذاك، وإن أبى جدَّد الأُهبة والاستعداد، ورجع إليه حتى يديل منهم الله تعالى ويحكم فيهم بإنجاز وعده الذي وعده المؤمنين من الإظهار على كل من ناوأهم، فلم يأمر بالرَّحيل إلا وكتاب السلطان قادم عليه يأمره بالرحيل، والاشتغال بما يتعلَّق بأمر وُفُوده عليه، على حسب العادة، فبعث إلى الكفار يُهَدِّدهم ويتوعدهم بالعود، وعيدًا ارتعدت منه فرائصهم، وذابت به نفوسهم حتى جددت لهم الحسرة لعلمهم أنهم غير ناجين منه عند الكرَّة، ثم ارتحل عنهم عشية اليوم الثامن من ذي الحجة، فنزل بـ (**سيق**) إلى أن فرغ من صلاة العيد، وأتته الخلعة السلطانية التي لابد من قدومها على أمثاله في كل عيد نحر، فلبسها على حسب العادة، وبقي إلى الظهر فارتحل إلى (**وادي الحمام**) فبات به ودخل المعسكر ضحى الغد.

و إلى ذلك أشرت بقولي:

فارتحــل الليــث لأجــل الأمــر	**وفي قلــوب النــاس مثــل الجمــر**
وللعيـــــون نحوهـــــا التفـــــات	**إذ عرضــت مــن دونهــا آفــات**
وليثنـــــا يــــــزأر بالوعيـــــد	**علــى عــداة الــدين والتهديــد**
يحلـــف بالقهـــار ذي الإعانـــهْ	**ليثـــــنين نحـــــوهم عنانـــــه**
حتـــى يـــديل مـــنهم الإلـــه	**إدالـــة ينمـــو بهـــا عـــلاه**

(**الآفات**) جمع آفة، وهي عرضٌ مفسد لما أصابه، ومرادي بها الموانع، و(**الزأر والزئير**) صوت الأسد من صدره، يُقال زأر كمنع وضرب وسمع، فهو زائر وزئير ومزئر.

قال **النابغة**:

نُبِّيــت أن أبــا قــابوس أوعــدني ولا قــرار عــلى زأر مــن الأســد

ويُقال: أدال الله من كذا إدالة من الدولة، أي: الغلبة أي أنَّ الأمير ـ أدام الله علوه ـ لما أتاه أمر السلطان بالرَّحيل ارتحل ممتثلا له، وفي قلوب الناس أهل البصيرة في الدين حَرٌّ مثل حر الجمر لما لحقهم من الحزن والأسف عليها، وامتناعهم منها بعد بُدُوِّ أمارات أخذها، وتصريح كل من ينتسب إلى الخير بأخذها، وجريان الفأل السعيد بالدلالة على فتحها غير ما مرَّة، فمن ذلك وُفُود بعض أهل مكة المشرفة على الأمير ـ أيده الله ـ أيام حصارها يُقال له: **مولاي الفاخر** كنت أتفاءل به على فتحها في السالف، سيما واسم هذا يدل على الفخر ونسبه على الشرف، ومنها موت السلطان السيد محمَّد (رحمه الله تعالى) وتولية السيد **حسن** ـ أيَّده الله ـ بعد، فإنَّ (**وهران**) لما حصرت سابقا في زمن **أبي الشلاغم** كان الآمر بذلك السلطان حسين الشريف خوجة، ثم إنَّه عُزِلَ أوَّلا وولي بعده السيد **باكداش** المتقدم ذكره، ففُتحت في أيامه، فكنت أقول عسى الله أن يجعل الفتح على يد السيد **حسن المتولي** كما جعله على يدي **باكداش** لجريان الأمر على حالة واحدة من كون ذلك تولى أثناء الحصار وهذا كذلك، وذلك ميمون النقيبة وهذا مبارك الغرة مسعود الشبيبة، وغير ذلك من الفأل المسموع الذي صادفنا غير ما مرَّة، كذلك مرائي أهل الفضل وغيرهم مما ذكرناه سابقا وما لم نذكره.

وسار الناس ولعيونهم نحوها، أي: (**وهران**) التفاتات، ولقلوبهم زفرات وفيها

حسرات، حزنا عليها لكونها عرضت دون أخذها موانع وآفات، وساءت الظنون بأهل الخير وكثُر الدعاء على من أشار بالفتح منهم في المساء والصباح، والحال أنَّ أميرنا ـ أدام الله نصره، وحلى بتأيد عزه عصره ـ يتوعَّد الكفار وعيدًا يُشبه زأر الأسد الهصور، يستنزل الهارب من المعاقل والقصور، ويحلف بالله الذي يقهر العادين ويقمع المعاندين ويُعين أولياءه على أعدائه الباغين لَيَرْجِعَنَّ إليهم بعد ذلك مستعينا بالله عليهم حتى يديله منهم ويظهر بغلبته إيَّاهم دين نبيِّه الشريف عنهم إدالة تنمو وتزيد بها رِفعته الظاهرة، وتكمل بسببها فضائله الباهرة، ويفوقُ بها جميع الأمراء المتقدِّمين والملوك الغر الأكرمين، ويؤخر جميع أواخرهم وأوائلهم لما احتوى على جميع فضائلهم وبعث لهم من بلَّغهم وعيده وتهديداته الأكيدة فتلقَّوا خطابه بالإجلال، وأجابوه بما اقتضاه الحال، وقولنا: (**وللعيون ... الخ**)، من قول **البصيري**:

فارتحلنـــا وللقلـــوب التفاتـــا ت إليـــه وللجســـوم انثنـــاء

وفي الأبيات: التصدير، والجناس المضارع، والطباق، والتسهيم، والجناس اللاحق.

فـــأيقن الطاغيـــة الجهـــول	**أنَّ وعيـــد مثلـــه مهـــول**
وأنـــه لـــن يـــترك الضـــرابا	**حتـــى تصـــير دورهـــم خرابـــا**
ولـــو أنَّ لـــه جميـــع الـــوفر	**إذ قصـــده حسم عـــروق الكفـــر**
فـــوردت علـــى الهمـــام الأكـــرم	**رســـــله في أول المحـــــرم**
مخـــبرة عـــن ملـــك الأعـــادي	**بأنـــه ســـــلم في الـــــبلاد**
ملتزمـــا علـــى ممـــر الـــدهر	**بـــألف دينـــار لكـــل شـــهر**
معترفـــا بالـــذل والقصـــور	**عـــن عزمـــات الأســـد الهصـــور**

(**المهول**) المفزع، يُقال: هاله كذا إذا أفزعه، والهول المخافة من الأمر لا يدري ما يهجم عليه منه، وهو هائلٌ ومهولٌ كمعون.

و(**الوفر**) الغنىٰ والمال والمتاع الكثير الواسع.

و(**حسم الشيء**) قطعه، والمرادُ بالهمام الأكرم السلطان السيِّد حسن ـ أيده الله ـ.

و(**المحرم**) المرادُ به أول سنة ست ومائتين وألف.

و(**ملك الأعادي**) هو الطاغية ـ دمَّره الله ـ الذي قَدِمَت رسله، وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر لضرورة الشعر وخوف التباس الضمير، واللام في (**لكل شهر**) بمعنىٰ عند، وهي المسماة بلام التاريخ، وفيه حذف مضاف، أي: عند تمام أو استهلال كل شهر، غير أنَّ فيه خلافا للواقع، إذ لم يقع الاتفاق أنَّه يدفع ما ذُكر في كل شهر، بل وقع علىٰ أن يدفعوا في كل شهرين ألفين، فالأولىٰ أن تكون كهي في قولك: قسم المال لفلان كذا، ولفلان كذا، أي: ملتزما بمال لو جزَّيناه علىٰ الشهور كان لكلِّ شهر ألف سلطاني، ولو جزَّيناه علىٰ الأيام كان لكلِّ يوم مائة ريال كريتنيه، ولو جزيناه علىٰ الساعات كان لكل ساعة خمسة وعشرون درهما شرعية علىٰ ممرِّ الدهر.

و(**العزمات**) جمع عزمة، وهي الواحدة من العزم؛ بمعنىٰ الجد، أو إرادة فِعْلِ الشيء بجدٍّ وثبات.

والمعنىٰ: إنَّ طاغية النصارىٰ ـ دمره الله وإياهم ـ لما بلغه وعيد الأمير ـ أيده الله ـ أيقن وتحقَّق أنَّ ذلك الوعيد الشَّديد، والتهديد الأكيد من الأمور المفزعة للقلوب المدهشة للعقول التي لها ما بعدها، وأنَّ هذا الأمير لا يتركُ القتال، ولا يصدُّه مانعٌ دون أخذ البلد عن النضال، ولو دفع له جميع ما بيده من الأموال؛ لأنَّه إنما كان قصده ـ ثبت

الله عزمه ـ تطهير مواطن حكمه، وأركان إيالته من خبث الشرك، وحسم عُرُوق الكفر منها، حتىٰ لا يُجاوره دينٌ غير دين نبيِّه المختار ﷺ آناء الليل وأطراف النهار، فلا يردُّه عن غزوهم إلَّا تخريب بلادهم والاستيلاء عليها، أو تسليمهم فيها، فتكون لديه من أكبر الهدايا وأسنىٰ العطايا، فبعث رسله عاجلة فوردت **(الجزائر)** علىٰ السلطان ـ أعلىٰ الله مقامه، ومكَّن من أهل الزيغ حسامه ـ فأخبرته بأنه سلم في البلاد كلها ملتزما ـ بما نذكره بعد إن شاء الله تعالىٰ ـ معترفا بالذل والقصور عن مقاومة أميرنا الذي هو في عزماته وقوته وثباته كالأسد الهصور.

وكان من حديث هذا الأمر أنَّا لما رجعنا من الجهاد ـ وفي القلوب من الأسف ما كاد أن يُفضي بها إلىٰ التلف ـ ساءت الظنون، وحصل الإِياس وفرح المرجفون، فرأىٰ بعض الصالحين وهو **السيِّد محمَّد القندوز المستغانمي**(1) كأنَّه في مكان مظلم، فأخذه إنسان بيده وأدخله مكانا بهيًّا، فإذا رجلٌ صبيح الوجه بهيّ المنظر من أحسن ما تراه العيون، قال: فقلت له يا سيد متىٰ تفتح وهران ؟ فقال لي: بقي لفتحها ستة أشهر، فصدق الله رؤياه، لأنَّه رآها في أثناء ذي الحجة، ودخلها المسلمون في رجب كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ ثم لم يستقر الأمير أدام الله مهابته الأسدية، وعزته الأبدية إلَّا ثلاثة أيام حتىٰ أتاه البريد من **(الجزائر)** بكتاب من السلطان صبح اليوم الرابع، وهو يوم الثلاثاء الخامس عشر من ذي الحجة والناس غافلون، وقد حصل لهم الإِياس، مضمنه: أنَّ طاغية النصارىٰ لما بلغه ما التزم عنه وكيله من كونه يدفع جميع ما أنفقه الأمير علىٰ

(1) **محمَّد القندوز المستغانمى** خِرِّيج مدرسة مازونة والأزهر، وهو تلميذ الدردير شارح المختصر، وأوَّل من أدخل شرح الدردير للمغرب حسبما حكاه تلميذه **محمَّد بن علي السنوسي** دفين ليبيا في فهارسه.

الجهاد استهال ذلك واستكثره وعلم أنَّه ـ وإن دفعه ـ فإنَّ الأمير لا يصبر عن طلب تلك البلاد، ولا يَقِرُّ له قرارٌ حتىٰ يطهِّرها من دنس الكفار لكونه شرط عليه أن يدفع المال المذكور، ويبقىٰ عدوًّا يعيد عليه المسلمون الكرَّة متىٰ شاؤُوا، فظهر له أنَّه يُسَلِّم في البلاد حسما لمادة النزاع، وإراحة لقلبه من الحسرات، ولجنده من إدامة الدِّفاع، فكتب إلىٰ السلطان ـ وفقه الله ـ يقول: إني لا أدفع مالي في أمر لا أتحقق دوامه لي كيف وهو مجاور لمن لا ينام عنه، غير أني أدعوكم لأمر فيه النصف أسأل منكم أن تشرفوني بقبوله، وهو أني أدفع لكم البلاد علىٰ الحالة التي تركها عليها المسلمون لما أخذناها منهم بمدافعها وأبراجها، ولا أستثني من ذلك شيئا، فلما قُرِئ هذا الكتاب السلطاني، بل القميص اليوسفي الذي رد علىٰ عيون القلوب أبصار أفراحها، وأعاد لها أنوار أُنسها وانشراحها، وأذهب الظنة عن أهل الخير، وحقَّق للناس أنَّ لله رجالا[1] لا يكذبهم فيما أذاعوه من الأسرار للغير، وكان الكتاب المذكور ورد علىٰ وجه الاستشارة من السلطان للأمير هل يقبل منهم البلاد أو يكلِّفهم دفع ما اشترط عليهم أوَّلا من المال ؟ كتب إليه الأمير يقول: يا سيِّدي ومولاي اقبل البلاد للمسلمين، وإن أردت مالًا دفعت لك من عندي ما تحبُّ، فإنَّ في مضرَّة بقاء هذا البلد بيد الكفار ما لا يقوم به نفع ما يُؤخذ منهم من المال، فأجاب السلطان الطاغية بقبولها، فرجعت إليه رُسُله.

وقد بلغه أنَّ الأمير رحل عن البلد، بعد الوعيد والتهديد، فأيقن أنَّ وعيد مثله شديد، فردَّ رسله عن عجل تُقَرِّر الصلح وتشدد محكمه، وتُؤكد مبرمه، فوردت أوائل المحرم فاتح هذه السنة علىٰ (**الجزائر**)، فقرَّرت الصلح مع السلطان وأثبتته، فكان ما اتَّفقوا عليه أنهم يدفعون البلد علىٰ ما ذكرناه أوَّلًا من كونهم يتركون بها جميع ما أخذوه

---

(1) المقصود به **محمَّد القندوز المستغانمي**.

من آلات المسلمين زمن **أبي الشلاغم**، وكان عدد ذلك ما ينيف على مائة مدفع، ويهدمون ما أرادوه مما استحدثوه بعد، ويدفعون لدار السلطان اثني عشر ألف سلطاني كل سنة يُؤَدُّون في كل شهرين عند إخراج العطاء ألفين منها، ومتى أَرْسَت سفينة في **(وهران)** دفعوا عنها خمسة وخمسين ريالا، أربعون لبيت المال، والباقي لقائد المرسى، وسألوا من السلطان خمسة من أساراهم في أرضنا، وألَّا يأذن لأحد من أجناس النصارى في التجارة بأرض **(وهران)** في مرساها؛ إلَّا أن يكون منهم، وأن يتركهم يكتالون ألف حمل من القمح كل سنة منها بسعر سوق المسلمين لا يزيد عليهم الوالي شيئا، وأن يبقوا ببلدهم أربعة أشهر آخرها أول ينير من هذه السنة، وأن يتأخَّر عنهم المرابطون المجاورون لهم، فأنعم عليهم السلطان بجميع ذلك بعد مشاورة الأمير ورِضاه، ثم بعث له السلطان الكتاب الذي وقع فيه الاتفاق، وكتب فيه الشروط فوَرَد عليه يوم الأحد التاسع عشر من المحرم، فبعث إلى نصارى **(وهران)** يُخبرهم بما وقع عليه الاتفاق، وينهاهم عن أن يأذنوا لأحد من أهل الفساد أن يدخل شيئا من أموال المسلمين ونحوها، وألَّا يقبلوا منهم ما أتوا به ولا يشتروه منهم، وأن يردُّوا له أسيرين من الطلبة كانوا ظفروا بهما أيام الحصار لكونهم تاهوا في حدائقهم حتى خرجوا عليهم، فقتلوا واحدًا وأسروا اثنين.

وأمر فضُربت مدافع البشائر وطبول التهنئة، ولعب العامَّة بمحكمته الفياحة خمسة أيام، ورجعت إليه رسله من عند النصارى فأخبروه بأنهم حصل لهم بمصالحته أتم السُّرور، وكتبوا إليه يقولون: إنَّا عند أمرك، فمُرنا بما شئت نطع أمرك، ونلتزم حكمك، وأمَّا الأسيران فقد بعثناهما لبرنا، وسنبعث في إثرهما فيأتيانك، فلم تمض إلَّا أيام قلائل حتى بعثوهما سالمين، وجعل أكابرهم يتعرَّضون لنفحات كرمه،

ويستمطرون سحائب عطائه، بكثرة سؤالهم إيَّاه ما يحتاجونه اعتمادا علىٰ ما بلغهم من كرمه ووافر جوده، ومنهم من كتب يسأله ولاية الوكالة بـ **(وهران)**، ثم إنَّ طاغيتهم كتب إليهم يأمرهم بأن يُصَوِّرُوا له بلد **(وهران)** ويكتبوا له اسم كل موضع وبرج منها، وهل هو مما استحدثوه بعد **أبي الشلاغم**، أو مما قبله ففعلوا، فلما وقف علىٰ ذلك عيَّن لهم مواضع جديدة أمرهم بهدمها منها **برج الفرانسيس** وزيادات وراء برج العيون، والبرج الجديد، وكنائس بداخل البلد وغير ذلك فشرعوا في ذلك.

فقولنا: **(إنَّ وعيد مثله مهول)**، فيه من المبالغة في معناه ما ليس في قولنا: **(إنَّ وعيده مهول)**، لأنَّا إذا علمنا أنَّ وعيد مثله الذي لا يبلغ مبلغه مفزع فهمنا أنَّ وعيده هو أولىٰ بذلك حسبما دلَّت علىٰ مثل ذلك قواعد البيانيِّين، وبين الضراب والخراب والوفر والكفر والشهر والدهر جناس لاحق، وبين القصور والهصور والجهول ومهول جناس مضارع.

فــتم فخــر ملــة الإســلام بالأســد المشــهور بالإقــدام
مجاهـد النـوعين مـن أهـل العَـدا محــارب وكــافر مــن العِــدى
مســتنزل الكفــر مــن القــلاع ورافــع الإســلام لليفــاع

(القلاع) جمع قلعة وهىٰ الحصن علىٰ الجبل، و**(اليفاع)** المكان المرتفع، قال توبة:

وأشرب بــالغور اليفــاع لعلنــي أرىٰ نـار لـيلىٰ أو يـراني بصـيرها

والمعنىٰ أنَّ الملة المحمدية، والدين الإسلامي حصل لها من الغلبة والظهور والأنس لأهلها، والسرور بسبب هذا الفتح المتين، والتسليم من الكفرة الدالّ علىٰ قوة النصر والتمكين، ما كمل لها به الفخر علىٰ الملة العيسوية بهذا الأمير الهمام، الشبيه بالأسد المقدام، فيما ثبت له من الإقدام، وشهر له من التحامل علىٰ مكاره الحروب،

والولوج في مضائق الكروب لكشف الكروب، المعروف بمجاهدة النوعين المشهورين بالبغي والعداء، وهما المحاربون من فُسَّاق هذه الأمَّة المحادُّون لله ورسوله الذين أمر الله بقتالهم، وبقتلهم بعد الظفر بهم، وتصليبهم أو تشديد نكالهم، والكفار المحاربون، وهم المرادُ بقولنا: (**من العدا**)، دون غيرهم من أهل الصلح والذمة، فإنهم لا ينالهم في إيالته مكروهٌ ولا يمسُّهم سوء، حفظا لذمة الله ورسوله، ورعيا لوصاة النبي ﷺ بهم، ووصايا الخلفاء الراشدين بعدهم بهم، الذي لم يزل يُجاهد في سبيل الله حتى خفض الكفر وأذله، وأنزله من المعاقل الحصينة بإنزال أهله، وإِخراجهم منها أذلة خاسرين حائرين حاسرين ومتحسرين، ورفع الإسلام في أرضه التي أخذها من أيدي الكفرة على الأماكن الرفيعة، والمنائر العلية والمنابر البديعة، بحيث لم يبق بها إلَّا شمله مجموعا، وجهيره مسموعا، فلله الحمد على جزيل ما أولاه من الإحسان، وله أتم الشكر الذي يقصر عن أدائه كل لسان، ولا يقدر على إحصائه إنسان، ولعمري إنَّ هذا الفتح لما يفخر به لسان الدين، وتمرح بسببه في رياض عقول المهتدين كيف لا ! وقد أشرق به جبين الملة صباح، وهُدَّ للكفرة به جانب وقُطع منه جناح، وطُهِّرت به أقطارنا من أدران الشرك الخبيث، وقطع منها عروق التثنية والتثليث، وارتحل منه الكفر خاسرا حسيرا، وحَلَّ بها الإسلام مَلِكًا وقد كان لا يحتلُّ بها إلَّا مجتازا أو أسيرا، فالواجب على جميع المؤمنين أن يشغلوا ألسنتهم بحمد الله الذي ألهم قلب عبده و أميره لإحياء هذا الموات الذي عجزت الملوك عن إحيائه وتعميره، ثم يفيضوا فيه أودية الثناء، والمدح المغتني، وقد قلت لما بلغتنا تلك الأخبار الصادقة قصيدة أظنها رائقة، وهي:

أرج الفــــتح بالبســــيطة فـــــاح　　　وكســـا النصـــر بالبهـــاء البطاحـــا
وغـــدا واجـــسُ الظنـــون يقينـــا　　　مــــذ بــــدا لألأ الهـــدى وألاحـــا

وأتــىٰ وافــد الســرور حثيثــا فأفـــاد ذوي الهمـــوم ارتياحـــا
يـــا بشـــير الســـرور بـــالله زدني خـــبرا إننـــي أزيـــد اقتراحـــا
اســقني مثــل مــا ســقيت جميــ ـع الناس من علمك اليقين قراحـا
كيـف سـلم ذائـد الكفـر في وهــ ـران؟ إذ شــاهد الهــلال صراحــا
كيف أصبح ذلـك الثغـر للإســ ــلام إذ رامـــه الأمـــير مباحـــا
يرشـــفون ســـلافه بســـيوف ترشــف الــدم غــدوة ورواحــا
كيـف قـاد الأمـير منـه شَموسـا طالمــا زاد عـــن ســـواء جماحـــا
لم يــزل قبلــه الملــوك متــىٰ مــا قــدحوا زنــده يصــير شــحاحا
طالمــا قعقعــت عليــه رعــود مهلكـــات عشـــية وصـــباحا
طالمــا أعملــت عليــه الأعــادي لتقيــــه أســـــنة ورماحـــــا
حصـــنوه بكـــل حصـــن منيـــع لا تمـــد لـــه الحـــوادث راحـــا
وخنادق دونهـا أمِـنَ الكفـر وقــ ــــرَّت عيونــــه واســــتراحا
فأراعتـــه وثبـــة الليـــث حتـــىٰ صـار مـن دونهـا يخـاف الرياحـا
وأتــاه الهــلاك مــن كــل وجــه كــان مــن نحــوه يــروم الفلاحــا
فغـــدا يطلـــب الســـلامة لمـــا لم يجـد للخـلاص منهـا أسراحـا
وأبـــــاح حريمـــــه وتـــــولىٰ إن للكـــون ذلـــة وجماحـــا
قــل لكــل الملــوك شرقــا وغربــا حيـث رحـت مـن الـبلاد مراحـا
هكـــذا هكـــذا تكـــون المعـــالي وينــال الفخــار مــن قــد أشــاحا
أســـد صـــال صـــولة فأبـــادت مــن بنــي الكفــر جانبــا وجُناحــا
وأراع قلـــــوبهم فتلاشـــــىٰ صـــبرها وأبـــان منهـــا الراحـــا
وغــدا زنــد خوفــه كــل يــوم في ضـــمائرهم يزيـــد اقتـــداحا

بـــخ بـــخ لســـعده زاد تمامـــا ولســـعي ســـعاه زاد رباحـــا

ما علىٰ حاسـديه، إن مـات غيظـا أحـــد مـــنهم، أظـــن جناحـــا

قـد عـلا قـدره السِّـماك وزادت في الكـمال حُـلىٰ عُـلاه اتضـاحا

وغـدا دونـه الأفاضـل عرجـىٰ في الثـرىٰ يـردون وردا شـحاحا

مـن لهـم بلحـاق مـن سـبق الـبر ق علـوا وحـاز عنـه القـداحا

صـاح دونـك فـاشرب اليـوم ممـا أمـلىٰ مـن وصـفه عليـك الراحـا

لا تلمنـي عـلىٰ افتخـاري بليـث زاد في الملـك والكـمال انشـراحا

ملـــك يُكسِـــبُ الملـــوك خمـــولا ويفيـــد دون المعـــالي افتضـــاحا

جـاء مـن بعـدهم فحـاز علـيهم أول الـــذكر والعُـــلىٰ والســـماحا

صـدَّق المـادحين فيـه وقـد أكــ ـذب مـن قـال في سـواه امتـداحا

كـــل فضـــل فذاتـــه قـــد تحلـــت بحُـــلاه وصـــيَّرته وِشـــاحا

فهـو عـين الزمـان مجـدا وفضـلا ونتيجـــة أهلـــه لا براحـــا

منعـــت عزماتـــه كـــل شـــهم زائـد البـأس أن يمـس السـلاحا

دام في عـــزة ونصـــر مبـــين مـا بـدا البـدر في السـماء ولاحـا

قولنا: (**مستنزل ... الخ**)، بيانٌ للوجه الذي فخرت به الملة بسببه، أي أنّه استوجب منها أن تفخر به لأنَّه استنزل ضدها المعادي من المعاقل الرَّفيعة إلىٰ حضيض الذل والخسران، ورَفَعها هي إلىٰ معالي العِزِّ والرياح، وقولنا: (**مجاهد النوعين ... الخ**): إشارةٌ إلىٰ جهاده الكفار، وكثرة تدويخه البلاد في طلب المحاربين الفُجَّار، وتنقيتها من المخاوف والمفاسد، وتمهيدها لأبناء السبيل، والسفار الذين لا هَمَّ لهم إلَّا طلب الأمن في المراصد.

وقد قدمنا أوَّل الشرح من ذلك ما في إشاراته كفاية للمريد، وغنية للمستفيد إلَّا

أنَّا وعدنا بذكر غزاته إلى قبائل (**سماتة**) إلى هذه الناحية لوقوعها عقب التسليم المذكور فلنف بذلك فنقول: إنَّ الأمير ـ أعزَّه الله وأيده ـ لما صدر من غزاته الوهرانية، وورد عليه الخبر بطلب الكفار تسليم البلاد، واستوفى بذلك حَظَّهُ من الفرح كتب إليه السلطان السيِّد **حسن** ـ أدام الله دولته، ومكَّن من أهل الزيغ صولته ـ يأمره بغزو المذكورين لكونهم أكثروا الفساد، وقطعوا السبل حتى تعذَّر خوض واديهم، والمرور بناديهم، واضطر الناس في الذهاب إلى (**الجزائر**) إلى طريق بعيد شاقٍّ، وانقطعت أيضا طريق (**لمدية**) إلى (**الجزائر**)، واحتاج أميرها إلى المرور بغير الطريق المعتاد، وعجزت عنهم طاقة مجاوريهم من الأمراء.

وعلم السلطان أنه لا يكسِر شوكتهم، ويفل حدَّهم غيره، فكتب إليه بذلك وبعث له بفتاوى علمائهم بإباحة دمائهم التي شهدوا بأنَّ جلَّها مما يأخذونه في الحرابة من المارين بأرضهم، وهم مجهولون لا يُمكن تتبعهم لترد عليهم عند الظفر بها، وكل مال جهلت أربابه فهو لبيت المال، فانتدب ـ أيده الله ـ لذلك، وخرج مبادرا في جنده الكثيف، فلما سمعوا بانتدابه إليهم، وكانوا يعلمون من سطوته وشدَّة بأسه وقوته ما كاد ذِكْرُه يُشرِّدهم، وخوفهم عن التعرض لأهل ناحيته يردُّهم، حذرًا من تحريك ساكنه، وإثارة كامنه، فتفرَّقوا في البلاد وتشتتوا في الأودية والجبال، وامتزجوا بمن يُجاورهم من القبائل والأعراب، فجاست خيوله تلك الغابات، وأشرقت على قنن تلك الجبال وجالت بين هاتيك الأودية والشِّعاب، فلم يلقوا إلَّا طائفة قليلة حَقَّ عليها العذاب، فقتلوا بعضهم وأسروا الباقين من نحو التسعين امرأة وسلبوهم نحو ألف شاة، وعِدَّة وافرةً من الخيل والبقر، وخرَّبوا جميع مساكنهم، وقطعوا أشجارهم وأحرقوا ما خرَّبوا من مساكنهم حتى ظهر الحريق من (**الجزائر**) وسائر أحوازها،

ونهب جنده من قمحهم وزرعهم وأثاثهم الذي شرَّدهم الخوف عن حمله ما لا يأتي عليه الحصر.

وأقام بواديهم حتى بعث لمن آواهم من القبائل المجاورين لهم يأمرهم بإخراجهم عنهم، أو يُنزل بهم ما أنزل بهم، فأقبلوا إليه معتذرين ولعفوه ملتمسين، ولم يزالوا يُرَاودونه ويتوسلون إليه بالمقربين لديه حتى أعفاهم مما كلَّفهم به مما لهم فيه السبة الباقية إلى يوم القيامة، بعد أن اشترط عليهم فيما يخصُّهم الكف عن قطع السبل عن أمير (**المدية**) وغيره، فالتزموا بذلك، وفيما يتعلَّق بالهاربين إليهم أن يدفعوا مع إخوانهم ما يجعل عليهم، فقبلوا ذلك وانصرفوا، ثم التجأ إليه الهاربون منه لعلمهم أنَّه لا يُنجيهم منه إلَّا تراميهم على أعتابه، والوقوف ببابه، فقرَّر عليهم خمسين فرسا، وألف مكحلة وعفا عنهم بعد أن أظهروا التوبة عن فعلهم الذي استوجبوا به ما حلَّ بهم، وأخذ منهم رهنا، وانثنى راجعا، وقد بهر الناس، فأكثروا التعجب من أمره إذ يعتقدون أنَّ أولئك القوم لا يُدَوِّخهم أحدٌ ولو كثُرت أجناده وتواصلت أمداده لقوَّة شوكتهم، وشدَّة ثباتهم وأوعار بلادهم، فإنَّ واديهم الذي يعمُرُونه ذو غيابات مظلمة، وغياهب غيب مدلهمة، وشِعاب عميقة، وأشجار ملتفة متعانقة، والطريق فيما بينها تمشي القافلة تحت أغصانها مسافة مديدة، ولو أنَّ الواحد وقف على طرف تلك الطرق، لحصر الجيش الكبير، وتعاريج ذلك النهر تقطع نحو الإحدى عشرة مرَّة في الماء، ومرتين أو ثلاث بغير ماء كل ذلك بين جبال راسخة، وهضاب شامخة، وأوعار شاقة وأهوال ليس لأحد بتحملها طاقة، يمشي الراكب في ذلك الوادي من الصبح إلى قرب الظهر، وماله من محل يستريح فيه من الخوف وتعب الأوعار، وتشعب الطريق ومصافحة الأشجار، إلى أن يخرج منه، وهم ساكنون في الخصاص برؤوس الجبال المكتنفة بالطريق

يمينا وشمالا غير مجتمعين، وإنما يسكن البيت والبيتان في الربوة والأكمة وهكذا، وفي النهار يجلسون مع الطريق الخمسة والستة بنية الحراسة، فإذا مَرَّ بهم من يستضعفونه من الاثنين والثلاثة، سيما عشية حين يخافُ المارُّون، سلبوه ما معه وربما قتلوه، وإن مرَّت بهم سيارةٌ أو أصحاب جلب أخذوا منهم ما شاؤوا كيف شاءوا بزعم الشِّراء، فربما دفعوا في الكبش الجيد الدرهم والدرهمين، وأمَّا الوسيقة المنبنية علىٰ الكذب والدعاوىٰ الباطلة فهي الأمر الذي اتخذوه ديدنا، واتَّبعوا فيه قلبا وبدنا فإن حدثت بينهم وبين قائدهم فتنةٌ قطعوا الطريق جملة، فلا يَمُرُّ بها إلا مسلوب أو مقتول، ولهم في ذلك أخبارٌ مأثورة، وأحاديث مشهورة، قد انقطعت بانقطاع عداهم بغزو هذا الأمير إيَّاهم.

وفي الأبيات: الجناس المحرَّف، والتوشيح، والتصدير، والمقابلة بين (مستنزل) و(رافع)، و(الكفر) و(الإسلام)، و(من) و(اللام).

أكرم من جاد على النسور	**بلحم كل فاتك جسور**
واتبعت عقابه عقاب	**ترصد من يناله العقاب**
فظفرت بمنتهى مناها	**من ألحم القوم التي عناها**

(النسور) جمع نسر، وهو الطائر المعروف، يُقال إنَّه يعيش ألف سنة، ويطير بين المغرب والمشرق في يوم واحد، ويقول في صراخه: يا ابن آدم عش ما شئت فإنَّك ميت، وهو عريف الطير كلها تخافه، وإذا أراد الطعام حلَّق في الجو حتىٰ تصير الأرض تحته فيرىٰ الجيف حيثما كانت فيقع عليها، و**(الفاتك)** اسم فاعل من الفتك مثلث الفاء وهو ركوب ما هم من الأمور ودعت إليه النفس دون تدبر العواقب، فالفاتك هو الشجاع الجريء ومثله الجسور، قال **بشار**:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته	وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وسارقه منه **الخاسر** فقال:

مــن راقــب النــاس مــات غــما وفـــاز باللـــذة الجســـور

و**(عقابه)** بالضم رايته، و**(عقاب)** المراد به الطائر المعروف جمعه عقبان وأعقبة وأعقب وعقب وعقابين، ولفظه مؤنث دائما، وقيل إنه كذلك معنى كلها أنثى يسافدها الثعلب وطائر من غير جنسها، ولذلك قال ابن عنين يهجو:

مــا أنــت إلا كالعقــاب فأمهــا معروفـــة ولهـــا أب مجهـــول

و**(ألحم)** جمع لحم، و**(عناها)** قصدها.

والمعنى أنَّ أميرنا ـ أيده الله ـ بلغ من نجدته وشدة عزمه وشجاعته وكثرة التحاماته ما صار به أكثر الملوك جُودا على النسور الجائعة والرخم المتتابعة، بلحوم البغاة المشهورين بالفتك، وعدم تهيب الأمور حتى حملتهم أنفسهم الغريرة على لقائه والتعرض لقتاله، فظفر بهم فتركهم طعمة للنسور تمزق أديمهم وتشرب دماءهم، أمَّا غيرهم ممن يتهيب الأمور فإنه يعلم أنَّ الدائرة تكون له دائما على غيره لثبوتها له في سائر المواطن المتقدمة فلا يمكنه إلَّا الفرار، وإخلاء الدِّيار، والغوص في بحار القفار، بحيث لا يظهر له أثرٌ، ولا يبدو له خبر، ومع ذلك فلا ينجيه منه فراره، ولا يمنعه حذاره، فكم من حذور أرخى له العنان وطاوله بتطاول الأزمان، إلى أن أنشبت فيه أظافره، فتركه طعمة النسور والعقبان، وهو أيضا أكرم الغزاة الذين إذا خفقت ألويتهم وصافحت الهواء راياتهم، تباشرت بها العقبان، وحشرت من كل مكان واتَّبعتها تراقب القوم الذين ينالهم عذابه، ويحل بهم عقابه، لتشبع من لحومهم، وتمزق من أديمهم، فيحصل لها غاية ما تمنته من الشبع من لحوم أولئك القوم ولم يخب سعيها ورجاؤها، فقولنا: **(من ألحم ... الخ)**، احتراسٌ من أن يظن السَّامع أنَّ الشبع يحصل من لحوم جنده.

وقولنا: (**أكرم ... الخ**): ظاهره الوصف بالكرم، وفي الحقيقة هو وصف بالشجاعة، وقوة الظفر بالأعداء.

ومعنى الأبيات متداول بين الشعراء لا يختصُّ به أحدٌ دون أحد، لأنَّه حكاية حال واقعة، فلا يمنع أحد من وصف من وقعت منه بها، و إنما تتفاوت فيها الدرجات بحسن السبك وسلاسة اللفظ ورِقة التعبير، وأول من نبَّه عليه الأفوه الأودي حيث قال:

وتـــرَىٰ الطـــيرَ في آثارنـــا رَأْيَ عـــينٍ ثقـــةً أنْ سَـــتُمارُ

ثم تلاه النابغة فقال:

إذا ما غزوا بالجيش حلَّق فـوقهم عصـائبُ طـيرٍ تهتـدي بعصـائبِ
جـــوانح قـــد أيقـــنَّ أن قَبيلَـــه إذا ما التقى الجمعـان أولُ غالـبِ
يصاحبنهم حتـىٰ يُغِـرْنَ مُغـارَهم من الضارياتِ بالـدماءِ الـدوارِبِ
تراهن خلفَ القوم خُـزْرًا عُيونُهـا جلوسَ الشيوخِ في مسوك المرانِبِ
لهـنَّ علـيهم عـادةٌ قـد عَرفْنَهـا إذا وضعوا الخطي فـوقَ الكتائـبِ

ثم تلاه ابن ثور فقال:

إذا مـا غـزوا قومـا رأيـتَ غيابـةً من الطيرِ ينظرنَ الذي هـو صَـانع

وتلاهم أبو نواس فقال:

وإذا مَـــجَّ القَنَـــا علقًـــا وتـــراءىٰ المـــوتُ في صُـــوَرِه
رَاحَ في ثنيـــــي مُفَاضَـــــتِهِ أســـدٌ يَـــدْمَىٰ شَـــبَىٰ ظُفُـــرِه
تتـــأيىٰ الطـــيرُ غزوتَـــه ثِقَـــةً بالشِّـــبع مـــن جَـــزَرِه

فقيل له ما تركت للنابغة شيئا، فقال: لئن سبق إلى المعنىٰ فما أسأت في الاتباع.

وأجود منه ترتيبا قول **أبي تمام**:

تَسربَل سِربالاً من الصيدِ وارتدَىٰ عليه بعَضَبٍ في الكريهةِ قَاصِلِ

وقد ظُلِّلَت عِقْبانُ أعلامِه ضُحًى بعِقْبانِ طيرٍ في الدماءِ نواهلِ

أقامتْ مع الراياتِ حتىٰ كأنها من الجيش إلا أنها لم تُقاتلِ

وكل هؤلاء لم يجعلوا ذلك من قبيل الكرم كما جعلناه، وذلك زيادة لطيفة ربما أومأ إليها قول القائل:

قد عَوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بهَا

الجناس المضارع، والتام، والمحرف واللاحق، والتتميم، والتصدير، والاحتراس.

وخير راكب من العتاق مبرزا في حلبة السباق

يسبح أحيانا وقد يطير ويسبق الريح إذا يسير

ترتاع من هيبته الأسود متى بدا غِيظَ به الحسود

لو كان يومَ داحسٍ وغبرا كساهما من القتام غبرا

(العتاق) جمع عتيق من الخيل، وهو ما ليس بهجين ولا مقرف، فهو نجيب الخيل وجيدها، وأمامك من أوصافه ما فيه كفايةٌ، و**(الحلبة)** مجمع الخيل للمسابقة من قولك: حلب بنو فلان إذا اجتمعوا، قيل: ومنه أخذ حلب الحالب اللبن في القدح أي جمعه فيه، وكانوا إذا تراهنوا اتَّفقوا علىٰ الموضع الذي يتسابقون فيه والغاية التي ينتهون إليها، وربما جعلوها من مائة غلوة، وهي مسافة ما يقطع السهم في رمية، وعلىٰ المضمار، وقدر أيامه، ثم يخرج هذا رهنا وهذا رهنا ويَضعانِها علىٰ يد أمين، فمن سبق أخذهما، وهذا لا يجوز في شرعنا، والجائز ما نذكره بعد.

ومرادنا بالمبرز السابق من التبريز، بمعنىٰ السبق، يُقال: برز الفرس علىٰ الخيل إذا

سبقها، ويسمى السابق، والمُجَلِّي إذا جاء في الحلبة أوَّلا، ثم الذي يليه يُقال له المصلِّي لأنَّه يكون رأسه عند صلوى السابق، وهما جانبا ذنبه عن يمينه وشماله، ثم لا اسم لواحد بعدهما على مذهب **أبي عبيدة والأصمعي** إلى العاشر فإنه يسمى السكيت بالتخفيف سمي كذلك لأنه يسكت عنده العاد؛ لأنهم كانوا لا يعطون من جاء بعده، أو لأنه يسكت صاحبه عند الفخر، وفي الأمثال: فاتكَ السَّوابقُ وجِئتَ سكيتا ذا زوائد أربع، يُضرب لمن جاء بعد الرؤساء والأعلام يحاول أن يظفر بما اختصُّوا به، أو سبقوا إليه، وما بين المصلي والسكيت يضبط باسم عدده، فيُقال: الثالث والرابع وهكذا، وقيل: إنَّ لها أسماء مخصوصة جمعها **ابن الأنباري** في قوله:

جـاء المُجَـلِّي والمُصـلِّي بعـده	ثـم المُسَـلِّي بعـده والتـالي
والخـامس المرتـاحُ يـنقض عـذره	والعـاطفُ الصـهال كالريبـال
فسـقى وقـاد حضـيها في صـهوة	ذاك المؤمـل غـير ذي الاشـكال
ثـم اللطـيم يقودهـا بجميعهـا	قبـل السـكيت العـاشر الـديال

وكانت العرب تجعل في عنق السكيت حبلا، وتعلق به قردا لتفضح صاحبه بذلك، والفسكل هو الذي يأتي آخر الحلبة.

و(**السباق**) المسابقة وهي المراهنة على سبق الخيل، وقد تقدَّم ذكر مسابقة الجاهلية التي هي من جملة القمار المنهي عنه، وأمَّا التي أذن فيها الشارع فهي أن يُخرج أحدهما الجُعْلَ من عنده على أنه إن سبق صاحبه كان له، وإن سبق هو لم يكن له شيءٌ من صاحبه، أو يخرج اثنان كل منهما جُعْلًا ومعهما ثالث لا يخرج شيئا على أن من سبق من الثلاثة يكون له الجعلان معا، بشرط أن يكون الثالث المحلل يمكن سبقه، أمَّا إن كان فرسه ظاهر القصور على فرسيهما فهو من القمار، ومن الجائز أيضًا أن يخرج الجعل

متبرِّع لا يسابق لمن سبق من المتسابقين، وكان من شأن العرب أن يمسحوا وجه السابق، وبذلك قال جرير:

إذا شئتم أن تمسحوا وجه سابق   جواد فمدوا في الرهان عناني

وقال ابن عبد ربه:

وإذا جياد الخيل ما طلها المدى   وتقطعت في شأوها المبهور
خَلُّوا عناني في الرهان ومسِّحوا   مني بغُرَّة أبلَقٍ مشهور

وسابق النبي ﷺ بين الخيل، فأجرى ما ضمر منها من الحيفاء إلى ثنية الوداع وبينهما خمسة أميال أو ستة، وأخرى التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني رزيق وبينهما ميل، و(**يسبح**) يعوم أي كأنه يعوم وذلك من مستحسنات الخيل، قال العباس بن مرداس:

جاء كلمح البرق جاش ماطره   يسبحُ أولاه ويطفوا آخرُه
فما يمس الأرض إلا حافره

وأمَّا العكس فهو عيب ولذلك قال الأصمعي في قول **ابن النجم**:

يسبح أخراه ويطفو أوله

إن كان هكذا فحمار الكساح أسرع منه؛ لأنَّ اضطراب مؤخره مستقبح، وكان أبو النجم وصافا للخيل إلَّا أنه غلط هنا كما غلط رؤبة في قوله: ـ يهوين شتى ويقعن وقعا ـ فقال له **سلم بن قتيبة**: جعلته مقيَّدا يا أبا الجحَّاف، و(**داحس والغبراء**) فرسان لقيس بن زهير العبسي الأوَّل ذكرٌ والثانية حجر وهي الأنثى من الخيل، وأمُّ داحس جلوى فرس **قرواش بن عوف بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع**، وأبوه ذو العقال فرس **حوط بن أبي أوس بن حميري بن رباح**، وسمي داحس لأنَّ بني يربوع احتملوا يوما في نجعة،

وذو العقال مع ابنتي حوط فمرًّا به علىٰ جلوىٰ فصهل وودىٰ فضحك نُسَيَّات من الحي منه، فاستحيت البنتان فأرسلتاه فنزىٰ علىٰ جلوىٰ، فوافق قبولها فأفضت ثم أخذه لهما بعض الحي فلحق بهما حوط فنظر إلىٰ عين الفرس فقال: والله لقد نزىٰ فرسي، فأخبراني ما شأنه فأخبرتاه وكان سيئ الخُلُق فقال يا لرباح والله لا أرضى أبدًا حتىٰ آخذ ماء فرسي، فقال له بنو ثعلبة: والله ما استكرهنا(1) فرسك، فلم يزل الأمر بهما حتىٰ عظم الشرُّ فقالوا له: دونك ماء فرسك فأدخل يده في ماء وتراب وأدخلها في رحم **جلوى** حتىٰ ظنَّ أنَّه قد أخرج الماء، والرَّحم قد اشتملت علىٰ ما كان فيها فنتجها قرواش مهرا فسمي داحسا لذلك، وخرج كأنه ذو العقال وفيه يقول جرير:

إنَّ الجيـاد نمـين حـول قبابنـا   مـن آل أعـوج أو لـذي العقـال

فلما تحرَّك المهر سائرا مع أمه رآه حوط فأخذه، فقال بنو ثعلبة: يا بني رباح ألم تفعلوا فيه أول مرَّة ما فعلتم ؟ فقالوا: هو فرسنا ولن نترككم حتىٰ نقاتلكم عنه أو تدفعوه لنا، فقالوا لهم: أنتم أَعَزُّ علينا منه هو فداكم ودفعوه لهم، فلما رأىٰ ذلك بنو رباح قالوا: والله لقد ظلمنا إخواننا مرتين، فحلموا أو كرموا فردُّوه لهم مع لقوحين، فمكث عند قرواش ما شاء الله، وخرج أجود خيل العرب، فأغار **قيس من زهير** علىٰ بني يربوع فلم يُصب أحدا غير ابنتي قرواش ومائة من الإبل له وحيهم خلوف لم يشهد من رجالهم أحدٌ إلا غلامين، فجالا في متن الفرس وهو مقيَّد قد أعجلهما القوم عن حل قيده فضربهما ضربا حتىٰ نجيا، وأطلقاه فلما رأىٰ ذلك قيس رغب في الفرس

---

(1) هذه الحكاية كثيرا ما يتمثل بها الكتاب وينسبونها للكاتب الأنكليزي الشهير **ويلس** الذي يذكرها في مقام انتقاد بقايا الطبقة الأرستقراطية ببلاده، حيث نزا كليبٌ صغير لأحد العمال علىٰ كلبة عجوز أرستقراطية، ودارت محاورة وجدال بينهما شبيه بحكاية المؤلِّف تماما.

فقال للغلامين: لكما حكمكما وادفعا إليَّ الفرس، فاستوثقا منه على أن يرد جميع ما أصاب ويرجع ففعل فدفعاه إليه، فقال له أصحابه: لا نصالحك أبدا تعمد إلى غنيمتنا فتجعلها في فرس تختصُّ به فعظم في ذلك الشرُّ حتى صالحهم على مائة من إبله، وبقي بيده الفرس إلى أن وقع عليه الرِّهان الذي أشرنا إليه، وكان الذي هاجه الورد العبسي فإنه أتى حذيفة بن بدر الفزاري زائرا فعرض عليه خيله فقال ما أرى فيها جوادا مبرا، والمبر الغالب، قال **ذو الرمة**:

أبر على الخصوم فليس خصم ولا خصمان يغلبه جدالا

فقال عند من الجواد المبر ؟ قال: عند قيس بن زهير، قال: هل لك أن تراهنني عنه ؟ قال: نعم، فراهنه على ذَكَرٍ من خيله وأنثى، فأتى الورد قيسا فأخبره بأن قد واجب عنه رهانا فقال له: ما أبالي من راهنت غير حذيفة: ما أتى بك ؟ قال: غدوت لأواضعك الرهان، قال: بل غدوت لتغلقه، قال: ما أردت ذلك، فأبى حذيفة إلا الرِّهان، فقال قيس: أخيرك ثلاث خلال، فإن اخترت قبلي فلك واحدة ولي خلتان، وإن اخترت قبلك فلي واحدة ولك خلتان، قال حذيفة: فابدأ، قال قيس: الغاية من مائة غلوة، قال حذيفة: فالمضمار أربعون ليلة والمجرى في ذات الأرصاد، ففعلا ووضعا السبق على يد غلاق أحد بني ثعلبة، وملؤوا البُركة ماء ليكرع فيها أوَّل الخيل سبقا، فأجرى قيس داحسا والغبراء، وأجرى حذيفة الخطار، وقيل: مزرلا والخيفاء، وأقبل قيس وحذيفة حتى أتيا المرسى الذي أرسله منه ينظران إلى الخيل كيف خروجها، فلما أرسلت عارضها فقال **حذيفة**: خدعتك يا قيس، فقال: **ترك الخداع من أرسلها من مائة** فسارت مثلا، ثم ركضا ساعة فجعلت خيل حذيفة تبر، وخيل قيس بن زهير تقصر فقال: سبقتك يا قيس، فقال: **جري المذكيات غلاب**، فأرسلها مثلا ثم ركضها ساعة،

وقال قد سبقت خيلك يا قيس فقال قيس: **رويدا يعلون الجدد** فسارت مثلا، وقد جعل بنو فزارة كمينا بالثنية فأمسكوا داحسا وهو السابق، ولم يعرفوا الغبراء وهي مصلية حتىٰ مضت الخيل، واستهلت من الثنية فأرسلوه فتمطر في أثرها أي أسرع، وجعل يندرها فرسا فرسا حتىٰ سبقها إلىٰ الغاية مصليا للغبراء، ولو تباعدت الغاية لسبقها، فلطمها بنو فزازة وحلؤوها عن البركة، ثم لطموا داحسا فخسئت يد من لطمه فسمي: خاسئا، فجاء قيس وحذيفة في آخر الخيل وقد دبهم بنو فزارة عن سبقهم، ولم تطقهم بنو عبس تقاتلهم، وإنما كان منهم هناك أبيات قليلة فقال قيس: يا قوم إنه لا يأتي إلىٰ قومهم شرا من الظلم فأعطونا حقنا، فأبت بنو فزازة، فقالت بنو عبس: أعطونا بعض سبقنا، وقالوا: ما كنا لنقر لكم بالسبق علينا ولم نُسبق، فاتصل القتال بينهم أكثر من ستين سنة وقعت فيها أيام عظام قُتل في بعضها حذيفة وجماعة من أهل بيته، و(**غبراء**) شبيه لونها بالغبار، و(**القتام**) هو الغبار، و(**كان**) في قولنا: (**لو كان ... الخ**)، تامة بمعنىٰ وجد، أي: لو وجد في اليوم الذي وقع فيه الرهان المذكور لكساهما من الغبار حلة غبراء، فغبراء صفة لحلة محذوفة كما تبين، وفيما ذكرناه في هذه الأبيات وما بعدها إشارةٌ لكثرة امتطاء أميرنا المذكور صهوات الجياد، وذكر فروسيته التي فاق بها الأمجاد والأنجاد، وصحة اختياره للخيل العتاق، وكثرة ملكه منها لما يصح به السباق.

والمعنىٰ أنَّه أفضل من يركب في عصره الخيل العِتاق المشهورة بالسباق علىٰ سائر أبناء جنسها في سائر المواطن، ولو حضرت مراكبه ميادين السبق والرهان التي تجمع فيها الخيل العراب من كل أوب لكانت هي المبرزة عليها الفائزة بخصل السبق دونها علىٰ أنه لا يملكه ويتخيره لركوبه حتىٰ يتبرز علىٰ سائر الخيل، ويتقدَّم عليهم في سائر أوصافه بأن يكون موافقا لطالب الأوصاف التي نذكرها بعد، ومن جملتها: أن يكون

في سيره وعدوه كالسابح في الماء، ويكون راكبه غير منكب على وجهه بل يكون متمكنا في سرجه مستويا عليها، وقد يطير ذلك الفرس أحيانا في خلائه وعند تمصره واعتلائه، ومنها أنه إذا سار سبق الريح المرسلة عفوا فما بالك بغيرها، وهذا مِن الغلوِّ بمكان، فلو أنَّ ما يركبه من الخيل وجد يوم الرهان الواقع على داحس والغبراء لكان سابقا لهما بحيث يكونان يعدوان خلفه فيكتسيان من الغبار الذي تثيره سنابكه حلة غبراء دكناء، ومن أوصافه أنه إذا أظهر في صورته الهيكلية الهائلة العظيمة ارتاعت الأسود من هيبته، ولزمت الأغيال من مخافته، وأنَّ الحسود الذي يكفر نعم الله على عباده إذا رأى حسنه ونجابته حصل له من الغيظ ما يقطع أوداجه، هذا مفاد هذه الأبيات.

ووصف الخيل بالطيران وسبق الريح مشهورٌ في كلام الأقدمين، قال بعضهم يصف فرسه: الريح أسيرة يديه، والظليم فريسة رجليه، إن حرك استعر في التهابه، وإن حد مرق من إهابه.

وما أظرف بعض الأعراب المتأخِّرين من المحال[1] المشهورين، كان راكبا فرسا أعجف لا يقدر على العدو ومعه آخر على فرس جواد فوقع بينهما ما أدَّاهما إلى المراهنة على فرسيهما فنزل صاحب الأعجف وجعل يملأ غلاته بالحجارة فقال له صاحبه: وما تفعل بتلك الحجارة ؟ فقال له: إنَّ هذا الفرس يطير فأردت أن أثقله لأمنعه من الطيران، فسلَّم له الآخر وذهب وقال الشاعر:

إذا ما جرى ما يلحق الريح شأوه ويطلب شأو الريح عدوا فيسبق

وكتب **عبد الله بن طاهر** إلى **المأمون** مع فرس أهداه إليه: بعثت إلى أمير المؤمنين

(1) يقصد بالمحال قبيلة سويد المشهورة التي كان موطنها بين (مستغانم) و(الأصنام)، وذكر لنا بعض أخبارها في المقدمة، إذ هم الذين صار يطلق عليهم اسم المحال إلى يومنا هذا.

فرسا يلحق الأرانب في الصعداء، ويُجاوز الظباء في الاستواء، ويسبق في الحدور جري الماء، إن غُمِزَ فار، وإن أُطلِقَ له العنان طار، وإن حبس صفن، وإن استوقف قطن، فهو كما قال تأبط شرا:

ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي   بمنخرق من شدة المتتابع

وقال ابن عبد ربه:

تطير بلا ريش إلى كل صيحة   وتسبح في البر الذي ما به سبح

وقال آخر:

واقف تحمله رياح أربع   لولا اللجام لطار في الميدان

وأحسن ما وصف به سابق قول **أبي بكر بن دريد:**

إذا جرى لم يعلق الطرف به   ولم يحصل لونه ولم يحط
مثل دعاء مستجاب إن علا   وكقضاء نازل إذ هبط

وقال **أبو الفرج الببَّغا:**

إن لاح قلت أَدُمْيَة أم هيكل؟   أو عنَّ قلت أسابح أم أجدل
تتخاذل الألحاظ في إدراكه   ويحار فيه الناظر المتأمل
فكأنه في اللطف فهم ثاقب   وكأنه في الحسن حظ مقبل

وقال **عبد الجبار بن حمديس:**

ومجرر في الأرض ذيل عسيبه   حمل الزبرجد منه جسم عقيق
يجري فلمع البرق في آثاره   من كثرة الكبوات غير مفيق
ويكاد يخرج سرعة من ظله   لو كان يرغب في فراق صديق

وقال **أبو تمام** الأندلسي [كذا]:

واقب تقتد البروق إذا جرى   من غيظها حسدا بأن لم تلحق
ملك الرياح قوائما يجرى بها   فيكاد يأخذ مغربا من مشرق

وكل هذه الأقوال من باب الغلو و الإيغال، وما سلم منها إلا قول من قال:

فلو طار ذو حافر قبلها   لطارت ولكنه لم يطر

وتشبيه الغبار بالملاءة الغبراء والحلة الدَّكناء، الأصل فيه قول بعض قدماء الجاهلية من بنى عقيل:

قفار مرودات يحار بها القطا   ويضحى بها يعتركان
يثيران من نسج الغبار عليهما   قميصين أسمالا ويرتديان

ثم تبعته **الخنساء** فقالت:

جارا أباه فأقبلا وهما   يتعاوران ملاءة الخصر

وأخذه منها **عدي بن الرقاع** فقال:

يتعاوران من الغبار ملاءة   غبراء محكمة هما نسجاها

وكاد أن يختصَّ بهذا المعنى لكونه أتى به ملحونا لا يُؤَبَه بمعانيه فبلغ به الغاية القصوى سيدي **سعيدبن عبد الله** [1] حيث قال في **(عقيقته)** الملحونة:

شقوا ثوب السراب بالقفر الموشوم   وآخر مما ذرات الاخفاف اكساهم

وفي الأبيات: الجناس المطمع والمضارع واللاحق والتام، والتصدير، غير أنَّ فيهما

---

(1) **سعيد بن عبد الله**: المشهور بالمنداسي شاعر شعبي شهير، وقد ذكرنا له قصيدته الفصحى في هجوم حكام الأتراك بتلمسان في **(المقدِّمة)**.

كلفة للتوصل إليهما بحذف الموصوف وهو حلة، وإنما قلت (من القتام) ولم أقل من الغبار هروبا من كثرة الجناس والترديد في بيت واحد؛ لأنّه إذا كثر سئمه الطبع ودار اللسان على حروفه فحصل الثقل، كقول **الأعشى**:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول

وكقول **المتنبي**:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيش كلهن قلاقل

وحذفنا من الغبراء اسم الفرس (ال) لأنَّها فيه للمح الصفة يجوز ذكرها وحذفها.

ما بين أصفر كمثل التبر قد زانه حسن سواد الشعر
صهيله أطيب في الأسماع من نقرات آلة السماع
كمعقل وهو من المعاقل لكنه للعاديات عاقل

(**التبر**) هو الذهب مطلقا، أو قبل أن يُصاغ بعد الإخراج من المعدن، أو قناة الذهب والفضة، و(**الصهيل**) صوت الفرس المشهور، و(الضبح) صوته إذا عدا، و(القبع) صوت يردده من منخره إلى حلقه إذا نفر من شيء أو كرهه، و(الحمحمة) صوته إذا طلب العلف، أو رأى صاحبه فأستأنس به، والخضيعة والوقيب صوت بطنه وكذلك البغبغة، والبغبغة والرعيق والرعاق: صوتٌ يُسمع من قُنْبِه، وهو جراب قضيبه، كما يسمع الرعاق من ثفر الرمكة وهو مسلك القضيب من حياها، و(**السماع**) الغناء، و(**المعقل**) الحصن والمعاقل جمعه، ويُطلق المعقل على كل ما يعقل عن السوء ويُمنع منه، ولذلك قالوا يجب على الملك ألا يخلو من خمسة معاقل يتحصَّن بها: أولها وزير صالحٌ يتحصَّن برأيه، وثانيها سيف قاطعٌ يتحصَّن بحدِّه، وثالثها فرس سابق يتحصَّن بظهره إذا لم يمكنه الثبات، ورابعها امرأةٌ حسناء يحصِّن بها فرجه وبصره،

وخامسها قلعة منيعة يتحصن فيها إذا أحيط به، ولذلك قلت: وهو من المعاقل، فنبهت على معنى لم يُنَبِّه عليه غيري، وأتيت به على وجه الاحتراس من أن يظن من يسمع تشبيه هذا الفرس بالحصن العظيم أنه غير سابق لعظيم جسمه وثقله لجريان العادة في الإنسان ونحوه أنَّ الغليظ الجسم الثقيله لا يقدر على الجري، فرفعت ذلك بقولي: **(وهو من المعاقل)**، أي: من الخيول البالغة الغاية في السبق الذي يجب أن تُتَّخذ من المعاقل للملوك لتنجو على ظهورها فلا يدركها أحدٌ، فازداد هذا المعنى المخترع حسنا بهذا الاحتراس وبلغ ذروة الإحسان.

و**(العاديات)** جمع عاد من الخيل والوحوش ونحوها، هذا الذي قصدناه هنا، وأمَّا في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ (العاديات: 1)، فالمراد بها الخيل، و**(عاقل)** اسم فاعل من عقله إذا أمسكه، أو من عقل البعير إذا شَدَّ وظيفه إلى ذراعه، وهو أولى لأنهم يسمُّون بعض أفراسهم بقيد الأوابد، أي: أنه يلحق جميع الأوابد في أول جريه فيأخذ فارسه حتى كأنَّ عليها عقالا، أو قيدا يمنعها من الجري.

ومعنى الأبيات أنَّ الأمير لا يختصُّ ركوبه بفرس واحد، أو لون من الخيل مخصوص لقلَّة غيره، بل يركب من كلِّ لون محمود من الخيل أجوَدَه وأنجبه، ومن كل صِنْفٍ أحسنه وأهذبه، وذلك مؤذن بكثرة خيله وضخامة ملكه، إذ لا يتخير في أصنافها وأنواعها ويركب ما شاء من جيادها وعتاقها؛ إلَّا من كان مالكا للكثير منها، ولا يملك من عتاقها الكثير إلَّا من كان ذا ملك كبير، إذ الخيل وإن كثرت فهي قلائل، ولله دَرُّ القائل:

وما الخيل إلَّا كالصديق قليلة وإن كثرت في عين من لا يجرِّب

فمن جملة أصناف خيله: العتاق الأصفر الذي لونه كلون التبر المصفَّى، وقد زاده حسنا وزانَه في عين الناظر سواد شعر عسيبه وسبيب ناصيته وعَرفه، وله صهيلٌ لذيذ في النفس طيِّب في المسمع كأنه من جملة آلات السماع، كما قال البحتري:

كالهيكل المبنيِّ إلا أنه ... في الحسن جاء كصورة في هيكل
ذنب كما سحب الرداء يذب عن ... عرف وعرف كالرداء المسبل
جذلان ينفض عذرةً في غرة ... يَقَقٍ تسيل حجولها في جندل
يتوهم الجوزاء في أرساغه ... والبدر غُرَّةُ وجهه المتهلل
وتراه يسطع في الغبار لَهيبُه ... لونا وشدا كالحريق المشعل
هزج الصهيل كان في نغماته ... نبرات معبد في الثقيل الأول
ملك العيون فإن بدا أَعطينَه ... نظر المحب إلى الحبيب المقبل

وهو في علوِّ جسمه، ورفيع شكله كالقلعة المبنية على الجبل علوا وضخامة، ومع ذلك فلا يعجز عن العَدْوِ، بل هو من جملة المعاقل المطلوبة التي قدمنا الإشارة إليها لشدَّة جريه، وقد قدمنا أنَّ هذا احتراسٌ، ومع كونه احتراسا فهو تتميم بالغ الغاية، وقولنا: (**لكنه للعاديات ... الخ**)، استثناءٌ بياني جارٍ على حَدِّ قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم ... بهِنَّ فلول مِن قراع الكتائب

وهو من نوع البديع المسمَّى تأكيد المدح بما يشبه الذم، وقد تقدَّم تقرير معنى الشطر، وتشبيه الخيل بالحصون تقدَّم ما يُغني عن إعادته في قول الببغا والبحتري، وإنما يُسمَّى الفرس هيكلا إذا كان طويلا ضخما تشبيها له بالهيكل الذي هو البناء المرتفع.

ومنها الأدهم الحالك الشَّديد السَّواد كالليلة الشديدة الظلمة لا تتراءى فيها صور

الأشياء، وله غُرَّة كأنها الفرقد الكثير الأنوار وكِفلٌ عالٍ مستوٍ على الأكف لم تحبس فوقه لشدة لينه ولطافة ملمسه، كما قال **امرؤ القيس**:

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

وذلك من سمنه واستوائه ولين ملمسه، لا من انحداره إذ ذلك عيبٌ في الكفل، وله غارب مرتفع كأنه السنام بين كتفيه قد بلغ من طوله أنك لو أرسلت اللجام خلفه لحبسته، وقد بلغ من شدَّة سواد هذا الفرس أنَّ العيون إذا واجهته ارتسم سواده بأنوارها فصبغها بسواده فكان أمانا لها من الفساد، وشفاء لها من الكلل الحاصل لها من إدامة النظر إلى المشرقات البيض، وإلى ذلك أشرت بقولي:

وأدهم كالليلة الليلاء ذي غرة كالفرقد اللألاء
وكفل رأب لطيف الملمس ما للأكف فوقه من محبس
وحارك كأنه سنام يحبس من ورائه اللجام
يصبغ نور العين بالسواد فهو أمانها من الفساد

الأدهم هو الأسود قاله في القاموس، و عليه قول ابن نباتة:

وأدهم يستمد منه الليل وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشيا ويطوي خلفه الأفلال طيا
فلما خاف وشك البين منه تعلق بالقوائم والمحيا

غير أنَّ صاحب (**المقصد المحمود**) ذكر أنَّ الأدهم من الخيل ما قَلَّ سواده قال: فإن كان أسود فأخضر، ولعلَّه غلطٌ من الناسخ، فقد فسر في القاموس خضرة الخيل بأنها غبرة تخالطها دهمة، اهـ.

و(**الليلاء**) أشدُّ ليالي الشهر ظلمة، و(**الفرقد**) النجم الذي يُهتدي به وهما فرقدان،

و(**اللألاء**) فعلال من لألأ البرق إذا لمع، أي الكثير اللَّمعان، و(**الرابي**) المرتفع ومنه الربوة للمرتفع من الأرض، والغارب والحارك واحد، ووصف الغرة بشبه النجوم شائع، وسنذكر بعضه إن شاء الله، عند ذكر الغرة، وأمَّا وصف الفرس بعلو الكفل والحارك فمنه قول **أبي بكر الصنوبري**:

طرف نأت سماؤه عن أرضه ... وما نأى كاهله عن الكفل

وقول **أبي الطيب**:

يقبلهم وجه كل سابحة ... أربعها قبل طرفها تصل

إن أدبرت قلت لا تليل لها ... أو أقبلت قلت ما لها كفل

وقول **عنترة**:

طرف إذا استقبلته فكأنه ... جذع سما فوق الدليل مشذب

وإذا أعرضت له استوت أقتاده ... وكأنه مستدبر مستصوب

وقال **القسطلي**:

سامي التليل كأن عقد عذاره ... في رأس غصن البانة المـيّاد

يهدئ بمثل الفرقدين وثاب عن ... رعى السماك بقلبه الوقاد

فكأنما أطأ البطائح والربى ... بعقاب شاهقة وحية واد

وكأنه من تحت سوطي خارجا ... في الروع شعلة قادح بزناد

وقال **حسَّان**:

بكل كميت جوزه نصف خلقه ... وقب طوال مشرفات الحوارك

وأمَّا وصفه بأنه يحبس اللجام بغاربه وأنَّ سواده يحفظ العيون الناظرة إليه ويصبغ نورها لصقاله وشدَّة صفائه فهو معنًى أظن عدم السبق إليه، ولا ينكر حسن المعنيين إلَّا معاند، ومنها الأحمر الورد الشبيه في حُمرته البهيَّة بالورد الخفيف الذي يطربه كل صوت سمعه فيختال إعجابًا بنفسه حتَّى إنَّه يختال لسماع صفير مورده عند إيراده وكأنه لكثرة ما جال في ميادين الحروب صبغ لونه بدماء العِدَات فصار أحمر، وإليه أشرت بقولي:

وبـــين ورد لونـــه كـــالورد يختـال بالتصـفير عنـد الـورد

كـــأنما صـــبغ بالـــدماء إذ جـال في ميـادين الهيجـاء

(**الورد**) من الخيل ما بين الكميت والأشقر، و(**يختال**) يتكبَّر أو يمشي الخيلاء، وهي التبختر ورفع اليدين دون الرجلين، و(**التصفير**) مصدر صفر وهو معروفٌ، والأفصح صفر بالتخفيف صفيرا، وإلى طرب الخيل بالصفير أشار القائل:

ولـيس الشـرب إلا بـالملاهي وبـالنغمات مـن مثنـى وزيـر

فـلا تشـرب بـلا طـرب فـإني رأيـت الخيـل تشـرب بالصـفير

ومنها الأشقر السَّاطع الذي مخبرُه موافق لمنظره، فهو يسرُّ النفس عند اختياره كما يسر العيون القاضية باختياره، وإليه أشرت بقولي:

وأشـــقر زاد لحســـن المنظـــر جـم المحاسـن ولطـف المخـبر

في الخبر أنَّه ﷺ كان يحبُّ من الخيل الشقر، وأنَّه قال: «لو جمعت خيل العرب في صعيد واحدٍ ما سبقها إلَّا الأشقر»، وفي إعجاب العيون بالنظر إلى ما حسن منظره، يقول **أبو تمام**:

إن زار ميـدانا سـبى أهلـه أو ناديـا قـام إليـه الجلـوس

تـرىٰ رزان القــوم قــد اهجمــت عيونهم في خشـية وهـي شــوس
كــــأنما لاح لهـــــم بـــــارق في المحل أو زفـت إلـيهم عـروس
ســـام إذا استعرضــــته زانـــه أعـــلىٰ رطيـــب وقـــرار يبـــيس
كـــــأنما خـــــامره أولـــــق أو عارضــت هامتــه الخنــدريس
عـــوَّذه الحاســـد بُخـــلا بـــه ورفرفـت خوفـا عليـه النفـوس

ومنها الأشهب السوسني والقرطاسي العتيق الطويل العنق الذي إذا شرب مـن طـاس لم يعجزه ذلك، ولم يحوجه إلىٰ أن يثنىٰ سنبكه، وذلك من أدلَّة عتقه، فقد قيل: إنَّ سـيِّدنا **عمر** (رضي الله عنه) شكَّ في الخيل العِرَاب فسأل عنها سلمان بن ربيعة، وقيل عمرو بن معدي كرب، فأمر أن يقدَّم لها طاس فيه ماء، فما لم يثن سبكه وشرب قضىٰ وعتق، ومـا ثنىٰ سنبكه هجنه، ولذلك قال **كشاجم**:

مـــاء تـــدفق صـــحة وسلاســـة فــإذا اســتدر الحضــر فيــه فنــار
وإذا عطفــت بــه عــلىٰ نــاورده لتـــــديره فكأنـــــه بركــــــار
قصــرت قــلادة نحــره وعــذاره والرسغ وهي مـن العتـاق قصـار
يرد الضحاضح غـير ثـان سـنبكا ويــروق طرفــك خلفــه ويحــار
لــو لم تكـن للخيـل شـيمة خلقـه خالتــه مـــن أشــكالها الأطيـــار

وذلك دليلٌ علىٰ طول عنقها ولينه، وإليهما أشرت بقولي:

وسوســـني وأشـــهب قرطـــاس لـــيس يـــؤوده شراب الطـــاس

(**السوسني**) هو الأشهب الذي يُخالط بياضه سواد، وهو الحديدي قاله في المفصل المحمود وسيأتي، و(**القرطاسي**) الأبيض الخالص، و(**يؤوده**) يُعجزه، و(**الطاس**) إناءٌ يشرب فيه.

ومنها الكميت الذي لا نظير له في حسنه ونجابته، الكثير الحذر، الذي لقلبه خبير من أذنه يبلغه الأخبار ويوحي إليه الأنباء، كما أنه يسترق الأخبار من الفجاج والثنايا، ثم يوحيها إلى راكبه برفع أذنيه، وتصويبهما لناحية الشيء المحذور كأنه ينذره بذلك ويُحَذِّره وقوع البلاء به.

قال **أبو الطيب**:

وعيني إلى أذني أغرى كأنه — من الليل باق عينيه كوكب

وقال المعري:

كأن أذنيه أعطت قلبه خبرا — عن السماء بما يلقى من الغير

وقال حمديس:

كأن له في أذنيه مقلة يرى — بها اليوم أشخاصا تمر به غدا
أقيد بالسبق الأوابد دونه — ولو مر في آثارهن مقيدا

وقال **المعري** أيضا:

وأثبت الناس قلبا في ظلام سدى — ولا ريبة إلا مسمع الفرس

وإلى ذلك أشرت بقولي:

إلى كميت ماله نظير — لقلبه من أذنه خبير
يسترق السمع فيوحيه إلى — راكبه ينذره وقع البلا
قد ألف الجند فلولا أنه — من العتاق لن يسير دونه

(**الكميت**) من الخيل ما كانت حمرته في سواد، ومعنى البيت الثالث: أنَّ هذا

الفرس نشأ في مرابط الملك، وصاحبه ملك كبيرٌ كثير الجنود والأتباع متى ركبه اتَّبعته الألوية خافقة، ولاذت به الطبول صاعقة، واكتنفت الأعلام على الخيول، وسارت خلفه الجنود كالسيول حتى أَلِفَ هذه الحال التي لم تتخلف عنه قط، فلولا أنه من الخيل العِتاق التي ليس من شيمها الحزن والجماح لم يَسِرْ أبدًا وحده، بل يتوقف عن السير حتى تحضره من الجنود أفواجها وتتلاطم خلفه أمواجها، غير أنَّ شيمته الكريمة تمنعه ذلك جريا على وصف العتق وموجب النفاسة، وهذا المعنى نفيسٌ جدًّا وهو وإن كان يمكن في خيول الأتباع الملازمين للمتبوع فالتابع لا يعتدُّ به، ومن أين للتابع ألَّا يسير حتى تحضره الأتباع، وإن كنت أظن أني اخترعته فإذا هو ينظر من بعيد إلى قول **ابن حمديس**:

ويكـاد يخـرج سرعـة مـن ظلـه   لو كـان يرغـب في فـراق صـديق

فإنَّا إذا كشفنا القناع عن وجه هذا البيت وجدناه يُلاقي معنى بيتنا، إذ معناه أنَّ له صفة كرم تمنعه من مفارقة أصدقائه بالنُّفور منهم، ولولاها لفارق ظله، فأوحى بذلك إلى أنَّ كرمه وعتقه يمنعه من مفارقة ظله بسبقه إيَّاه، كما أنَّ عتقه في بيتنا منعه من الحزن، ولا يتفطَّن لمشابهة المعنيين إلَّا فكرٌ غوَّاص.

ومنها الأبلق الجامع لكل لون، وبديع شاماته المحتوي على كل الحسن وسيماته، المبر الذي يغلب كل جواد، ويحير في وصفه **أبو دواد**، فكأنما صدره في اختلاف ألوانه قوس قزح، أو برق في الأفق لاح واتَّضح، وإنما يكون كذلك إذا جرى كأنه الرِّيح لا تدرك الأبصار شكله لشدة عَدْوِه، ولا ترى منه إلَّا دائرة ألوان مختلفة، فإذا انقطع جريه أدركت صورته، وإليه أشرتُ بقولي:

وأبلـق قـد جمـع الشـامات   فصـار فـرد الحسـن والسـيمات

كأنمـــا أديمــــه قـــوس قـــزح إذا جرى كالريح أو برق وضـح
يـــبر كـــل شـــرجب جـــواد في وصـــفه يكبـــو أبـــو دواد

(**الأبلق**) ما اختلفت ألوانه، وهو في الدَّواب كالأبقع في الطير والكلاب، فلا يُقال: فرس أبقع ولا طائر أبلق، وسيأتي من كلام الثعالبي ما يخالف هذا، و(**الشامات**) جمع شامة وهي علامة تخالف البدن الذي هي فيه، و(**السيمات**) جمع سيمة، وهي العلامة أيضا، والظاهر أنَّ بينهما فرقا بأن الأولى ما كانت خلقة، والثانية ما كانت بِفعلٍ حادث، كالكي ونحوه، و(**الأديم**) الجلد، و(**قوس قزح**) القوس الذي يظهر في الغيم أحمر وأخضر وأصفر، وأحسن ما قيل فيه قول سيف الدولة، وهو من الشعر الملوكي:

وســاقٍ صــبيحٌ للصُّــبوح دَعوتُــه فقــام وفي أجفانــه سِــنَةُ الغمــض
يطــوف بكاســات العقــار كــأنجم فمــن بــين مُــنقَضٍّ علينــا ومــنفض
وقــد نشــرت يــد الجنــوب مطارفــا على الجو د كنا والحواشي على الأرض
يطرزهــا قــوس الســحاب بأصــفر عــلى أحمــر في أخضــر وســط مبــيض
كأذيــال خُــودٍ أقبلــتْ في غلائــل مُصــبَّغةٍ والــبعض أقصــر مــن بعــض

وقال **دعبل**:

إذ القــــوس أوترهــــا أيِّــــدٌ رمــى فأصــاب الكــلى والــذرى

فقال له أعرابي: ما عنيت ؟ قال: القوس قوس قزح مطرت الأرض فأعشبت فرعى المال كلاها فسمنت ذراه وكلاه، فقال الأعرابي: لله دركم يا حاضرة إنكم لَتسيرون معنا فتساوون وتسكنون عنا فتقولون.

وقيل له: قوس قزح كزفر إمَّا لتلونها مأخوذٌ من القزحة للطريقة من صفرة وحمرة

وخضرة، أو لارتفاعها من قزح بمعنىٰ ارتفع، أو قزح اسم ملك موكل بالسحاب، أو ملك من ملوك العجم، فهي مضافة إلىٰ أحدهما، وعلىٰ الثاني فيجب أن يُقال قوس الله.

و(**يبر**) يغلب، و(**الشرجب**) والسلهب من الخيل الطويل، و(**أبو دواد**) شاعرٌ من قدماء الجاهلية كان وَصَّافا للخيل، وهو جارية بن الحجاج أحد بني برد بني دعمي بن إياد، وكانت إياد تفخر به علىٰ العرب، تقول: منَّا أجود الناس كعب بن أمامة، ومنَّا أشعر الناس أبو دواد، ومنَّا أنكح الناس بن ألغز، وكان لابن ألغز هذا أير إذا أنعظ احتكت به الفصال، فنكح به امرأة كانت تستصغر الأيور، فقالت: يا معشر إياد أبالركب تجامعون النساء ؟ فضرب بيده علىٰ استها وقال: ما هنا ؟ فقالت: ـ وهي لا تعقل ـ هذا القمر، فضرب العرب بذلك المثل فقالوا: **أريها استها وتريني القمر**، وقد كان الحجاج منع من ذبح البقر خوفًا من قلة العمارة في السواد، فقيل فيه:

شكونا إليه خراب السواد ... فحرَّم فيه لحوم البقر

فكنا كما قال من قبلنا ... أريها استها وتريني القمر

قال **الأصمعي**: «ثلاثة لا يُقاربهم أحدٌ في وصف الخيل: أبو دواد، وطفيل الغنوي والنابغة الجعدي، أمَّا أبو دواد فإنه كان علىٰ خيل المنذر، وأمَّا طفيل فإنه كان يركبها وهو أعزل إلىٰ أن كبر، وأمَّا الجعدي فإنه سمع من الشعراء فأخذ عنهم»، وقال ابن الأعرابي: «ما وصف أحدٌ الخيل إلا احتاج إلىٰ أوس بن حجر، ولا وصف نعامة إلَّا احتاج إلىٰ علقمة بن عبدة، ولا اعتذر في شعره إلَّا احتاج إلىٰ النابغة الذبياني»، وفي وصف الخيل يقول **أبو دواد**:

ولقد اغتدي يدافع ركني ... أحوذي ذو ميعة أضريج

مخلط مزيل مكر مفر ... منفر مطرح سبوح خروج

سـهلب شرجـب كـأن رماحـا   حملتـه وفي السـرات دمـوج

وكانت له ناقةٌ تتبرَّك بها إياد، يُقال لها: الزبا، فأصابتهم سنة فرَّقتهم ثلاث فرق فرقة سلكت في البحر فهلكت، وفرقة قصدت اليمن فسلمت، وفرقة منها أرسلوا الزبا وقالوا إنها ميمونة فحيث توجهَّت نتبعها، فخرجت تخوض العرب حتى بركت بالحارث بن همام، وكان أكرم الناس جِوَارا، فكان لا يموت لأبي دواد ولدٌ إلَّا وداه له، ولا يضيع له مال إلا أخلفه، فضربت العرب المثل بجار أبي دواد، فقال **قيس بن زهير**:

أطـوف مـا أطـوف ثـم آوي   إلى جـار كجـار أبي دواد

وبقية أخبار أبي دواد في الأغاني، و(**يكبو**) يعثر.

ومعنى الأبيات أنَّ من جملة خيل أميرنا ـ أبد الله أثير فضله، وأبعد غاية أجله ـ الأبلق البديع الصورة الحسن الشكل الجامع من سائر الألوان البديعة، والصفات الرفيعة، ما صار به مفردا في حسنه، ولطف علاماته مخصوصا بذلك، فإذا اشتدَّ عَدْوُه ذهبت صورته من العيون، وبعدت عن الإدراك، وصارت لا ترى إلَّا كالدائرة المخططة التي تلعب بها الرياح المرسلة، أو كالبرق الذي لمع فلم تستبن الألحاظ صورته، ومن صفته أنه يغلب كل فرس طويل جواد معلوم بالسبق بسبقه، وأنه بديع الشكل حسن الصورة لا تصل العقول لغاية وصفه، فلو أنَّ أبا دواد الذي اتفق على أنه أوصفُ الناس للخيل تعرّض لوصفه(**لكبا**) أي عثر وأخطأ فيه لقصوره عن إدراك غاية ما يستحقُّ من الوصف.

وقد احتذينا في تعرضنا لذكر ألوان الخيل حذو البحتري في قوله يطلب من **سعيد بن حميد** الكاتب فرسا:

لأُكلِّفـنَّ العـيس أبعـد همـة   يجـري إليهـا خـائف أو مرتجـي
وإلىٰ سراة بنـي حميـد إنهـم   أمسوا كواكب أشرقت في مـذحج
والبيـت لـولا أن فيـه فضـيلة   تعلـو البيـوت بفضـلها لم تحجـج
فـأعن علىٰ غـزو العـدو بمنطـو   أحشـاؤه طيـاً الـرداء المـدرج
إما بأشقر سـاطع أغشـىٰ الـوغىٰ   منـه بمثـل الكوكـب المتـأجج
مُتسَـربِلٌ شِـيَةً طَلَـت أعطافَـه   بـدم فـما تلقـاه غـير مُضـرَّج
أو أدهـم صـافي الأديـم كأنـه   تحـت الكـريم مطهـر بـالنيلج
ضرم يهـيج السـوطُ مـن شُـؤبوبه   هَيجَ الجنائب من حريـق العَـرْفَج
خَفَّـت مواقـع وطئـه فلـو أنـه   يجـري برملـة عـالج لم يُـرْهِج
أو أشـهب يَقَـقٍ يضـيء وراءه   مـتنٌ كمثـل اللجـة المترجـرِج
يخفـي الحُجـول ولـو بلغـن لَبانَـه   في أبـيض متـألق كالـدُّملج
أومـىٰ بعـرف أسـود متعـرق   فـيما يليـه وحـافر فـيروزج
أو أبلـق يمـلأ العيـون إذا بـدا   مـن كـل لـون معجـب أنمـوذج
جـذلان تحسـده الجيـاد إذا مشـىٰ   عَنَقًـا بأحسـن حلَّـةٍ لم تُنسـج
وعـريض أعلىٰ المـتن لـو عليتـه   بـالزيبق المنهـال لم يترجـرج
خاضـت قوائمـه القـويم بناؤهـا   أمـواج مجتنـب بهـن مـدرج
ولأنـت أبعـد في السـماحة همـة   مـن أن تضـن بِمُلجـمٍ أو مُسـرَج

وقد حصر صاحب (**المقصد المحمود**) ألوان الخيل فقال: «إذا كان أسود فأخضر، أو قلَّ سواده فأدهم، أو خالطه بياض فأشهب سوسني وهو الحديدي، أو كثر بياضه فأشهب قرطاسي، فإن كثر السواد فأحمّ، فإن خلطت شهبته حمرة فصِنَابي، فإن كانت

حمرته في سواد فكميت، فإن خلصت حمرته فوَرّد، فإن خالطتها صفرة فأشقر، فإن كان سواده في شقرة فأدفس، فإن كانت كمتته بين البياض والسواد فأغبس، فإن كانت بين الدهمة والحمرة فأحوىٰ، فإن قاربت حمرته السواد فأحدىٰ، وإن لم تكن فيه شية فبهيم ـ أيّ لونٍ كان ـ والأصفر أصفر، فإن كانت فيه نكت بيض في لون عدا السواد فأبرش، وفي السواد أنمش، فإن اتسعت النكت فمدنس، ويقال أنمر » اهـ .

وفي كلام **الثعالبي** ما يُغايره في بعضها فلنذكر ما خالفه فيه تتميما للفائدة فنقول:

قال في كتابه (**فقه اللغة**):« إذا اشتدَّ سواده فهو غيهبي، فإن كان أبيض يخالطه أدنىٰ سواد فهو أشهب، فإن كان بياضه في صفرة فهو أشهب سوسني، فإن كان أحمر من غير سواد فهو أشقر، فإذا اشتدت حمرته فهو أشقر مُدمَّىٰ، فإن كان ديزج فهو أخضر، فإن كانت كمتته بين البياض والسواد فهو أغبس وهو السَّمَنْد بالفارسية، فإن كان بين الدهمة والخضرة فهو أحوىٰ، فإن كان به نكتٌ بيض وأخر أيَّ لون كان فهو أبرش، فإن كانت به نكت بيض وسود فأنمش، فإذا كانت به نقط فوق البرش فهو مدنّر، فإذا كانت به بُقَع تخالف سائر لونه فهو أبقع » اهـ.

وقد تقدَّم في تفسير الأبلق أنَّ الخيل لا يُقال له أبقع، وهو الذي يظهر من كلام القاموس في ذكر الأبقع، وهذا ـ كما تراه ـ يخالفه، وقد فسَّر **الثعالبي** الأبلق بأنه ما أصاب البياض من التحجيل حقويه ومغابنه ومرجع مرفقيه، قال: وقد قيل إذا كان ذا لونين كل واحد منهما متميز علىٰ حدة، وزاد بياضه علىٰ التحجيل والغرة والشَّعَل فهو أبلق، فإن كانت بلقته في استطالة فهو مولَّع، فإن كان أبيض الظهر فهو أرحل، فإن كان أبيض العجز فهو آزر، فإن كان أبيض الجنب أوالجنبين فهو أخصف، فإن كان أبيض البطن فهو أنبط.

وفي الأبيات: التفويف، وجناس الاشتقاق والناقص، والتصدير والتتميم، والاحتراس، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والجناس المجنح والمضارع، والقلب، والاختراع، والجناس التام والمحرف واللاحق، وغير ذلك.

مـن كـل منسـوب لجـد جـده لم تـذهب الهجنـة نـور خـده
أغـــر في جبينـــه صـــباح محجـــل لقـــاؤه ربـــاح

كانت العرب تنسب خيلها وجيادها كما تنسب أولادها، وأصل خيلها ـ على ما قيل ـ كلها من زاد الراكب، قال ابن الكلبي محمَّد بن السائب في الصافنات الجياد المعروضة على نبيِّ الله **سليمان** (عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام): «كانت ألف فرس ورثها من أبيه، فلما عُرِضت عليه ألهته عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب؛ إلَّا أفراسا لم تُعرض عليه، فوفد عليه أقوام من الأزد كانوا أصهاره، فلما أرادوا الانصراف قالوا له: يا نبيّ الله، إنَّ أرضنا شاسعة فزودنا زادا يُبَلِّغنا فأعطاهم من تلك الخيل، وقال إذا نزلتم منزلا فاحملوا عليه غلاما، واحتطبوا فإنكم لا تورون نارا حتى يأتيكم بطعام، فكانوا إذا نزلوا ركبه أحدهم للقنص، فلا يفلته شيء تقع عليه من ظبي، أو حمار، أو بقر إلى أن بلغوا، فقالوا: ما فرسنا إلَّا زاد الراكب فسمي بذلك، فأصل عتاق الخيل عند العرب من نِتَاجه» اهـ.

ويُقال: إنَّ أعوج الذي تُنسب إليه الخيل الأعوجية من نسله، وكان فحلًا لهلال بن عامر أنتجته أمُّه ببعض بيوت الحي فنظروا إلى طرف يضع جحفلته على كاذتها ـ على الفخذ مما يلي الحياء ـ فقالوا: أدركوا ذلك الفرس لا ينزي فرسكم لعظم ما رأوه من طوله، وعظمه إثر نتاجه، فقاموا فإذا هو المهر قد ولدته فسموه أعوج، فلما كبر أُغير على حيِّهم وهو موثوق بثمامة، فجال صاحبه في متنه، وزجره فاقتلع الثمامة فخرجت تخف

كالخدروف وراءه، فعُرف بياض يومه وأمسى يتعشى من حميم قبى، ومن نسله حرون الذي تُنسب إليه الخيل الحرونية، وهو فحلٌ كريم كان لـ: **سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي**.

ومن الفحول الشهيرة المنسوب إليها الخيل: الوجيه، والعزاب، ولاحق، ومذهب ومكتوم، وقيد، وحلاب، ومياس، وداحس، والغبراء، وذو العقال، والخطار، والحنفاء، والنعامة.

قال جرير:

إن الجيـاد يبتن حـول ديارنـا   مـن آل أعـوج أو لـذي العقـال

والهجنة في الخيل أن يكون أبوه عربيا وأمُّه ليست كذلك، فإن كان الأمر بالعكس فالقُرفَة، فإن كانا غير عربيين فالبرذنة، وبالعكس العتق، فالواحد من الأول هجين ومن الثاني مقرف، ومن الثالث برذون، ومن الرابع عتيق، ولهم أوصاف يعرفون بها الهجينة كما يعرفون العتق بأوصافه وهي نقائض الثانية، وسنُلِمُّ ببعض ذلك إن شاء الله تعالى.

والمعنى أنَّ الأمير ـ لا زالت أيامه ناسمة، وثنايا النعم له باسمة ـ لا يركب من الخيل الجياد إلَّا ما كان معروف الآباء والأجداد، له أصلٌ أصيل ونسب عريق في العتق من جهة آبائه وأمهاته، لم تشنه هجنة ولا قرافة، ولم تعرض في نسبه آفة، فهو جامع للأصلين، حائز للعتق من الجهتين، ولا يركب من ذي الألوان التي يُطلب فيها الغُرر والحجول إلَّا ما كان أغر واضح الغرة كأن الصباح تلألأ في جبينه محجل سعيد المطلع ليس في لقائه إلا الرباح واليُمن، فهو كما قال بعض الشعراء في فرس أدهم لأبي دلف خاض به المعركة ثم خرج وعليه نضح دم:

كــم ذا تجرعــه المنــون فيســلم لــو يسـتطيع شـكا إليـك الأدهـم
في كـل منبـت شـعرة مـن جلـده يمـــن ينمقــه الحســـام المُخــذَمُ
وكــأنما عقــد النجــوم بطرفــه وكأنــه بِعُــرىٰ المجــرة مُلجَــم
وكأنــــه بــــين البــــوارق لقــــوة شـقراء كـاسرة طـوت مـا يطعـم
مــا تــدرك الأرواح أدنــىٰ شــدة لا بــل يفـوت الـريح فهـو مقـدم
رجعتــه أطــراف الأســنة أشــقرا واللون أدهم حـين ضرجـه الـدم

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وفي ذكر الغرة والتحجيل يقول أبو الطيب:

وعينـــي إلىٰ أذني أغـــر كأنـــه من الليل باق بـين عينيـه كوكـب
لــه فضــلة مــن جســمه في إهابــه تجيء علىٰ صدر رحيـب وتـذهب
شــققت بــه الظلــماء أدني عنانــه فيطغــىٰ وأرخيــه مــرارا فيلعــب
وأصرع أي الوحش قد لاح لي بـه وأنــزل عنــه مثلــه حــين يركــب
ومــا الخيــل إلىٰ كالصــديق قليلــة وإن كثرت في عين مـن لا يجـرب

وقال **ابن نباتة**:

قـد جاءنـا الطـرف الـذي لهديتـه هاديـــه يعقـــد أرضـــه بســـمائه
أصـبحت منـه عـلىٰ أغـر مُحجـلٍ مــاء الــدياجىٰ قطـرة مـن مائـه
فكــأنما لطــم الصــباح جبينــه فــاقتص منـه فخـاض في أحشـائه
لا تعلــق الألحــاظ مــن أعطافــه إلا اذا كفكفـــت مـــن غلوائـــه
مــا كانـت النـيران يكمـن حرهـا لــو كــان للنـيران بعـض ذكائـه

وقال **ابن وضاح**:

ولقـد غـدوت مشـرقا حتـى إذا ... مـا لم أشـم برقـا لأفـق المغـرب
بـأعز أوجـس للسـماء بسـمعه ... فرمتـه بـين المقلتـين بكوكـب

وقال أبو العلاء المعري:

وقد اعتدى والليـل يبكـي تأسـفا ... على نجمه والنجم في الغرب مائل
بريح أعيرت حـافرا مـن زبرجـد ... لها التبر جسم واللجين خلاخـل

وقال ابن المعتز في محجل الثلاث مطلق اليمنى:

ومحتجـل غـير الـثلاث كأنـه ... متبخـتر يمشـي بِكُـمٍّ مُسـبَلِ

وقال **الثعالبي**:

لي سـيد ملـك غـدا ... في بـردتي ملـك وهـوب
لا بـالجهول ولا الملـو ... ل ولا القطـوب ولا الغضـوب
قـد جـاد لي بـأغرب نعـل ... بالشـمال وبـالجنوب
لا بـالقطوف ولا الشـمو ... س ولا القمـوص ولا الشـبوب

و(**الأغر**) ما كانت له غرة، وهي بياض بين العينين يزيد على الدرهم، وقدره يسمى قرحة، فإن سالت ودقت ولم تجاوز العينين فهي العصفور، وإن جللت الخيشوم ولم تبلغ الحجفلة فهي شمراخ، فإن ملأت الجبهة ولم تبلغ العينين فهي الشادخة، فإن أخذت جميع وجهه إلَّا إنه ينظر في سواد فهو مبرقع، فإن رجعت غرته إلى أحد شقَّيْ وجهه فهو لطيم، فإن أخذت عينه وابيضت أشفارها فمغرف، فإن كان بحجفلته العليا بياض فأرتم، وبالسفلى فألمض، وإن كان أبيض الرأس والعنُق فأدرع، وأعلى الرأس فأصقع، وأبيض القفا فأقنف، والرأس فأرخم، وأبيض الناحية فأسعف.

و(**المحجل**) ما ابيضت قوائمه من ثلثي الوضيف فأقل، فإن حاذىٰ البياض الركبتين فمخضب، فإن جاوز إلىٰ الحقوين والرفغين ومرجع الركبتين فمسرول، فإن كان البياض في يديه فأعصم، فإن وصل مرفقيه فأقفز، وإن كان مستديرا مع الطوق فمنعل، وإن كان في يد ورجل من خلاف فهو الشكال ـ وكان النبي ﷺ يكرهه، إمَّا لأنه علىٰ صورة المشكول، أو لأنه جرَّب ذلك الجنس فلم تكن فيه نجابة ـ وقيل الشكال تحجيل ثلاث وإطلاق واحدة، وقال ابن دريد: هو تحجيل يد ورجل من جهة واحدة، فإن خالف فشكال مخالف، وقيل بياض اليدين، وقيل بياض الرجلين، قال بعض العلماء: إن كان مع الشكال غرة زالت الكراهة لزوال شبهه بالمشكول.

وفي البيتين جناس التصحيف واللاحق.

مسوم، مطهم، حصان،	**عن كل ما يشينه يصان**
طويل قرب، وطلى، ومسمع،	**ومشق فيه، وتسبيب مشبع**
وساعد، وفخذ، ورجل،	**وكتف، ومحزم، ونصل**
والبطن قد طال، وطال الأنف	**فهو لجنس العاديات أنف**
قصير رسغ، ونضى، وذنب	**إلى نسى يلزمه فرط الخبب**

هذا شروع في الأوصاف الذاتية التي يستدلُّ بوجودها في الفرس علىٰ عتقه ونجابته، وهي كثيرة، فالمسوم قيل هو المطهم، وقيل المرسل في الرعي ليزداد حسنه، وقيل من السمة أي العلامة أي المعلم بالغرر، وعلىٰ النحيف فهو ضد، والحصان يطلق علىٰ الفرس الذكر، وليس بمراد، وعلىٰ الفرس الكريم، وهو المراد، و (**يصان**) يحظىٰ ويكرم.

والمعنىٰ أنَّ هذا الأمير ـ دام عُلاه، وأبَّد له الله ما ولَّاه ـ إنما يركب من الخيل المسوم

المعلم بغرره وتحجيله التام في خلقه الكريم الذي يصان لنجابته، ويحفظ من كل أمر يشينه، ويرفع عن كل ما يهينه امتثالا لأمر النبي ﷺ بصيانة الخيل الجياد، ففي **سنن أبي داوود** أنه ﷺ نهىٰ عن إدالة الخيل، وهو امتهانها في الحمل عليها واستعمالها، وأنشد **ابن عبد البر** لابن عباس (رضي الله عنهما):

أحبـوا الخيـل واصـطبروا عليهـا ... فـإن العـز فيهـا والجـمالا

اذا مـا الخيـل ضـيعها أنـاس ... ربطناهـا فأشركـت العيـالا

نقاسـمها المعيشـة كـل يـوم ... ونكسـوها البراقـع والجـلالا

وقال جرير بن عبد الله: رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرسه بإصبعه وهو يقول: «الخيل معقودٌ بنواصيها الخير إلىٰ يوم القيامة الأجر والغنيمة»، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ (الأنفال: 60)، فثبت بهذه الآية وتأكَّد حفظ الخيل لأنه لا تكون عدة ينكىٰ بها العدو إلَّا مع صونه وعدم امتهانه، وناهيك بها شرفا كون نبي الله **سليمان** (علىٰ نبينا وعليه السلام) كان يمسح بيده الكريمة علىٰ سوقها وأعناقها ليظهر بذلك تشريفه لكونها من أعظم الأعوان، ويبين أنه ضبط السياسة والمملكة بمباشرة الأمور بنفسه، أو لكونه كان أعلم الناس بأحوال الخيل وأمراضها، فكان يمسح سوقها وأعناقها ليعلم هل فيها مرض أم لا، وعلىٰ هذا دلَّ قوله تعالىٰ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ (ص: 33)، وبها فسَّره الإمام **فخر الدين الرازي**، وقال: «إنه الحق المطابق لألفاظ القرآن، وجعل ما عداه من الأقاويل وجوها سخيفة»، انظر تفسيره الذي ارتضاه وردَّه الغير في **(تفسير الخازن)**.

وقولنا: **(طويل قرب)**، معناه: أنَّ هذا الفرس التي يرتبطه أميرنا لركوبه طويل أعضاء يُستحب طولها في الخيل لدلالتها علىٰ العتق، وقصير أخرىٰ كذلك فمن

الأعضاء التي يُستحب طولها **(القرب)** بضم القاف وسكون الراء، وسمع بضمَّتَين وجمعه أقراب، قال **ابن هشام:** «وهو الخواصر، وفي القاموس أنه بالضم وبضمتين الخاصرة أو من الشاكلة إلى مراق البطن » اهـ وقد نصَّ أبو عبيدة أنها مما ينبغي طولها من الفرس.

ومنها (الطلى)، جمع طلية وطلات، وفسَّرها في **(القاموس)** بأنها العنق وأصله، وفي سيدي الشريف أن الطليتين صفحتا العنق، والاختلاف قريب.

وفي العنق يقول سيدنا **حسَّان بن ثابت** (رضي الله عنه):

بكل كميت جوزه نصف خلقه وقب طوال مشرفات الحوارك

وقال **ابن المعتز:**

وقد يحضر الهيجاء في شنج النسى تكامل في أسنانه فهو قارح
له عنق يغتال طول لجامه وصدر إذا أعطيته الجري سابح
إذا مال عن أعطافه قلت شارب عناه بتصريف المدامة صافح

ويسمى: طويل العنق والقوائم: سلهب.

ومنها الأذنان وعنهما عبرت بالمسمع واستحباب طولهما مما لا يحتاج إلى شاهد، وقد نصَّ عليه **أبو عبيدة** و**صعصعة بن صوحان**.

ومنها مشق فمه، وهو مستفاد من قول الشاعر:

هَرِيتٌ قصيرُ عِذَارِ اللجام أسيلٌ طويلُ عِذَار الرَّسَن

قال في **(العقد الفريد)**: «لم يُرِد بقوله: (قصير عذار اللجام)، قِصَر خدِّه، وإنما أراد طويل شق الفم » اهـ.

والمرادُ بشق الفم ما فتح منه واتَّسع، ومعلوم أنه إذا طال فتح فمه قصر عذار لجامه.

ومنها السبيب وهو شعر ذنبه وعرفه وناصيته، وقال **عبيد**:

مضــــــبر خلفهــــــا تضـــــبيرا ينشــق عــن وجههــا الســبيب

والمُستحسن في الخيل سبوغ الشعر، ويُكره فيها السفى وهو خفته، وإنما يطلب السفى في البغال، ولذلك قلت (**مشبع**)، وهو من قولهم فلان مشبع العقل أي وافره، ويُقال: جمل شبيع كثير الشعر، وأشبعه وفره.

ومنها الساعد وهو الذراع من الخيل وذراعها ما فوق الوضيف وهو الذي يربط به الوضيف إذا عقلت، بخلافه في الإنسان فهو فيه ما بين المرفق إلى طرف الوسطى، وطول الذراع متفق على استحسانه.

ومنها الفخذان نص على استحسان طولها **ابن الأعرابي**.

ومنها الرجلان كذا أطلقه أبو عبيدة، وقال **ابن الأعرابي**: وضيفا الرجلين والأمر سهل، وأما وضيفا اليدين فسيأتي أنه يستحسن قصرهما.

ومنها الكتفان ينبغي طولها ليعلو غاربه ويعضد بها فيتم شبهه بالحصن.

ومنها المحزم وهو الحزام يقال حزام وحزامة ومحزم ومحزمة ولا يطول حزامه إلا بطول ما بين كاهله وبين صدره وأضلاعه وهو المسمى الجرشع، وقد نص على استحسان طول الحزام **صعصعة بن صوحان** ـ كما سنذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ومنها نصله وهو جميع عظم رأسه اللوحي القرمودي وفسره في (**القاموس**) بأنه

الرأس بجميع ما فيه والقمحدوة، وطول الرأس مستحب في الخيل والإبل، وعلى طلب طوله يدلُّ قول الشاعر:

هَرِيتٌ قصير عذار اللجام ... أسيلٌ طويل عذار الرسن

أي: أنَّ فمه واسعٌ جدا، كما تقدَّم، حتى إنَّ اللجام يدخل معظمه فيه فلا يبقى من رأسه لعذار اللجام إلَّا القليل، وأما عذار الرأس فإنه يكون طويلا لأنه يكون على أرنبة أنفه إلى أذنه فيكون طويلا بطول الرأس.

ومنها البطن نصَّ أبو عبيدة على أنه ينبغي أن يكون طويلا دون أن يدنو من الأرض بأن يكون كشحه مطويا، فإن كان مع ذلك عظم الجوف فهو الأقب، قال الشاعر:

وأقب كالسرحان تم له ... ما بين هامتين إلى النسر

وقال **البحتري**:

فأعن على غزو العدو بمنطو ... أحشاؤه طي الرداء المدرج

ومنها الأنف، نصَّ عليه **أيوب بن الفرت** كما يأتي، وينبغي ألَّا يكون غليظ الأرنبة فإن ذلك من صفات الهجين والبرذون فقد سئل أحد بني أسد عن المقرف من الخيل فقال: هو المذلول الحجبة الضخم الأرنبة الغليظ الرقبة الكثير الجلبة، وقولنا: (**فهو ... الخ**)، تتميم، أي: أنه بسبب استكماله جميع الصفات المرضية سيد لجميع الخيل العاديات، وأنف القوم سيدهم.

وأمَّا الأعضاء التي يُطلب قصرها، فمنها: الأرساغ وهي مواقع القيود وأحدها رسغ، ومنها النضى كغنى وهو أعلى العنق أو ما بين العنق والأذن، ومنها الذنب أي

اللحم والعظم الذي ينبت فيها الشعر، قال أعرابي: اختره قصير الذنب طويل الذنب أي قصير العسيب طويل شعره، ومنها النسى وهو العرق الممتد من باطن الفخذ إلى الحافر يظهر عند الهزال ويخفى عند السمن، قال الشاعر:

بشنَجٍ مُوَتَّرِ الأَنسَاء

وتقدم قول **ابن المعتز**:

وقد يحضر الهيجاء بي شنج النسى

وقال آخر:

متقاذف عبل الشوى شنج النسا ... سبَّاق أندية الجياد عَمَيْثَل

وإذا تعلل بالسياط جيادها ... أعطاك نائله ولم يتعلل

ومعنى يلزمه فرط الخبب، ولك أن تقول يحمله على الخبب أن نساه مشنج موتر إلى أعلى فكأنه يجذب رجله إلى الرفع إذا وضعها، وذلك أسرع لقبض رجليه فيكون وضعها على الأرض قليلا غير أنه لا يسمح له بالمشي فيكون في مشيه كأنه يخب لعدم تمكنه من إطالة وضع رجله على الأرض، ولذلك تصفن في وقوفها بخلاف ما إذا كان مرسلا فإن رجله إذا أهوت على الأرض استخرجت فيحتاج في رفعها إلى علاج ما فهو يبطئ برفعها، غير أنه يكون قويا بذلك على السير فيكون في الغالب أقدر، فلذلك إنما يستحب تشنج النسى في العتاق خاصَّة لأنها تراد للجري، وهو يعينها عليه دون الهماليج، وهي المطلوب منها حسن السير فإنما يستحب فيها إرساله لا تشنجه.

ومما ذكر **أبو عبيدة** أنه يستحسن قصره من الخيل الكراع، قال في (**القاموس**): «الكراع لذوات الظلف كالوضيف من الفرس » اهـ.

فإن حمل على وضيف الرجل فقد تقدم عن ابن الأعرابي استحباب طوله، وإن حمل

علىٰ وضيف اليد صح، وقد صرَّح ابن الأعرابي باستحباب قصره، غير أنه يظهر من كلام القاموس أنه لا يقال له كراعا، لأنك تراه خصص الكراع بذوات الظلف.

فالأعضاء التي ينبغي طولها علىٰ ما جمعناه اثنان وعشرون بعد السبيب، ثلاثة بحسب مواضعه وهي الذنب والعرف والناصية، والتي يُستحب قصرها عشرة الأرساغ أربعة والنضىٰ وعسيب الذنب والنسىٰ من جهتين والكراعان، ومن الأدباء من عدَّ الطوال ثلاثة والقصار ثلاثة غير أنهم يختلفون في تعينها، قال **حازم**:

طويــل ذنــب وســبيب وطــلىٰ قصــير ظهــر وعســيب ونســىٰ

فاحتوىٰ قوله علىٰ خمسة وهي سبيب الذنب وسبيب العرف وسبيب الناصية والطليتان وأربعة قصيرة، وقال الأول:

وقد أغتـدىٰ قبـل ضـوء الصباح وورد القطـا في الغطـاط الحثـاث
بصـافي الـثلاث عـريض الـثلاث طويــل الــثلاث قصــير الــثلاث

وهو تابع لصعصعة بن صوحان لما سأله معاوية: أي الخيل أفضل ؟ فقال: الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافي الثلاث، فقال له معاوية: فسِّر لنا، فقال: الثلاث الطوال: العنق، والأذن، والحزام، والثلاث القِصار: فالصلب والعسيب، والقضيب، والثلاثة العريضة: فالجبهة، والمنخر، والورك، والثلاث الصافية: فالأديم، والعين، والحافر.

وسأل **الحجاجُ أيوبَ بن الفرة** عن صفة الجواد، فقال كذلك، فقال: له فسِّر، فقال: أما الثلاث الطوال: فالأنف، والعنق، والذراع، والثلاث القصار: فالعسيب، والساق، والظهر، والصافية: الأديم، والعين، والحافر، والرحبة الجوف، والمنخر، والجبهة.

فحازم ـ وهو المتأخِّر ـ عدَّ الطوال ثلاثا، وهي في الحقيقة خمس، فوافق **أيوبَ** في العنق، إذ هو الطليتان، وخالفه فيما عداه، وانفرد هذا بثلاث وهذا بثلاث، فالمجموع ثمانية، وانفرد **صعصعة** بالأذنين والحزام، فالمجموع اثنا عشر، وقِس على ذلك في القصار.

وقال **صفوان الأسدى**:

لــه تســعة طلــن مــن بعــد أن قصــرن لــه تســعة في الشــوى

وفسَّر **ابن الأعرابي** الطوال بالعنق والخدين ووضيفي الرجلين والبطن والذراعين والفخذين، واعترض بأنه عدَّ عشرة، والشاعر نصَّ على تسعة فقط، وفسر القصار بالأرساغ ووضيفى اليدين والعسيب والساقين، وسنذكر الأبيات التي فسَّرها **أبو عبيدة** ـ إن شاء الله تعالى ـ.

عـريض مثنـى الأذن والوضـيف مــن رجلــه والفخــذ النضــيف
وجبهـــة ومحـــزم وصـــدر بحـــر فيـــه هيجـــان البحـــر

هذه هي الأعضاء التي ينبغي عرضها من الفرس، وهي مثنى الأذنين ووضيفا الرجلين وهما مستدق الساقين أي ما بين الموصل الذي فوق الحجالة إلى العقل، ومن ذلك الفخذان والجبهة والمحزم أي موضع الحزام وكذلك الصدر، ويُقال له اللبان بالفتح، وقيل إنَّ اللبان وسطه، وقيل ما بين الثديين، وقولنا: (**بحر ... الخ**)، معناه أنَّ هذا الفرس بحر أي كثير الجري بحيث لا ينقطع، وهو مع ذلك يحصل له هيجان البحر العظيم الذي تضطرب أمواجه وتتكاثف عند اهتياج الرياح، ويقال للفرس الذي لا ينقطع جريه لقوته بحرا تشبيها له بالبحر، وأول من تكلم بذلك النبي ﷺ وذلك أنه

وقعت هيعة بالمدينة فركب ﷺ فرس عربي لأبي طلحة قطوفا، ثم سمع الناس فركبوا في إثره فالتقوا به ﷺ راجعا ـ وقد استبان الأمر ـ فقال: «لن تراعوا لن تراعوا وإن وجدناه لبحرا » يعني الفرس، فكان بعد ذلك لا يجارىٰ، وسمي البحر.

محـــــدد الأذن ورأس المنكـــــبين والقلب والعرقوب مثـل المـنجمين

هذي مواضع ينبغي تحديد حروفها من الفرس، وهي الأذن، قال **عدي بن الوقاع**:

يخرجن من فرجـات النقـع داميـة كـــأن آذانهـــا أطـــراف أقـــلام

والمنكبان والكتفان والقلب والعرقوبان والمنجمان، وهما عظمان ناتئان من ناحية المقدم.

عـاري السـموم والجـبين والنـوا هق والأذنين وأعصـاب الشـوى
والخـد والكعـب كـثير الشـعر في حماتـــه وردفـــه والكتـــف
والناهضـين الناهضـين والمعـد والكـــاذتين بهمـــا تم العـــدد

وهذه أعضاء يُستحب أن تكون عارية من الفرس، وهي خمسة عشر وأخرىٰ يُستحب أن تكون كاسية وهي اثنا عشر:

فالأولىٰ منها: السموم، إمَّا جمع سم وللفرس سمان وهما عرقان في خيشومه، أو من سموم الإنسان وهو منخراه وفمه وأذناه، والمراد هنا المنخران، أو جمع سمامة وهي ما رَقَّ عن صلابة العظم في الوجه، وهذا الاحتمال أصح.

ومنها الجبين أي الجبهة، ومنها النواهق جمع ناهق وهو عظم ناتي في مجرىٰ الدمع، ومنها مثنىٰ الأذنين.

ومنها أعصاب اليدين والرجلين وهي المراد بالشوىٰ، قال في (**القاموس**): الشوىٰ:

الأمر الهين، ورُذال المالِ واليدانِ والرجلانِ، والأطرافُ وقِحْفُ الرأس.

ومنها الخدان والكعبان.

وأما الأخرىٰ التي يستحب كثافة الشعر فيها فمنها: الحماتان واحدتها حمات وهي عضلة الساق ينبغي اكتساء أعلاها، ومنها الفخذان وعن أحدهما عبرت بالردف، ومنها الكتفان.

ومنها الناهضان تثنية ناهض وهو لحم المنكبين ويقال اللحم الذي يلي العضدين من أعلاهما، قال الشاعر في وصفها:

والناهضان أمر جلزهما   فكأنما عثما على كسر

الجلز الشد، والعثم الجبر، وأمر فتل وحكم، أي: فتل شدهما وأحكم فكأنهما جبرا بعد الكسر، و**(الناهضان)** الثاني وصف لهما أي القائمان.

ومنها المعدان بتشديد الدال تثنية معد موضع دفة البرج من كل ناحية ويُقال لهما الآن الصفتان، ومنها الكاذتان تثنية كاذة وهو ما حول الحيا من ظاهر الفخذين أو لحم مؤخرهما.

وقولنا: **(تم العدد)**، أي: عدد ما ينبغي أن يكون كاسيا، أي: لم أغادر من ذلك شيئا.

بعيد عشر وقريب عشر   قد رق منه نحو ضعف العشر
غليظ ست ورحيب تسع   ما للفرى لفوته من وسع

ينبغي في الفرس الجواد أن تبعد منه عشرة أعضاء عن مثلها: فمنها أن يبعد ما بين عينيه، وأن يبعد ما بين الجحفلتين والناصية وما بين الأذنين والعينين، وما بين أعالي

اللحيتين، وأن يبعد ما بين الناصية والعكوة وهي أصل الذنب، أوما بين الحارك والمنكب، وما بين العضدين والركبتين، وما بين البطن والرفغين: وهما أصلا الفخذين، وما بين الجحبتين وهما ما أشرف على طباق البطن، من وركه والجاعرتين وهما مضرب الفرس بذنبه على فخذيه، وما بين الشراسيف جمع شرسوف وهو مقط الضلع أي الطرف المشرف على البطن.

وأن تقرب منه ما بين عشرة ومثلها أيضا: ما بين الأذنين وما بين المنكبين وما بين المرفقين وما بين الركبتين والجنبين والوركين وعليها مقعد الرديف وما بين المعدين وبين القصرتين وهما ضلعان يليان الطفطفة وهي الخاصرة، أو يليان الترقوتين أو القصرى أسفل الأضلاع، وآخر ضلع في الجنب، وما بين الجاعرتين والعكوة، وما بين النقبتين والكعبين، وما بين طي اللحيين.

وأن يكون رقيق سبعة عشر عضوا وذلك مرادي بـ (نحو ضعف العشر) لأن العشر بالكسر هو ورد الإبل اليوم التاسع فالتسعة عشر وضعفها ثمانية عشر ونحوها ما قرب منها، قيل ومنه عشرون جعلوا ثمانية عشر عشرين، والتاسع عشر والعشرون بعض الثالث فعدوه كاملا فقالوا عشرون بالجمع لأنهم يعطون ما قرب من الشيء حكمه، فلما قرب تمام الثلاثة أعشار بوجود بعض الثالث أعطوه حكم التام فجمعوه.

وهذه الأعضاء التي تطلب رقتها: الجحافل وهي للخيل كالشفة للناس والأرنبة وعرض المنخرين والجفون والحواجب والأذنان والخدان والشعر والجلد وشعر الثنن ـ وهو الذي في مؤخر الرسغ ـ والركبتان والخصل.

وينبغي أن تغلظ منه ستة مواضع وهو: حلقه وقوائمه الأربع وعكوته.

وينبغي أن يكون رحب تسع مواضع وهي: شدقاه ومنخراه وجوفه وعجانه ـ والعجان هو العنق ـ والاست وتحت الذقن ومابين الخصية إلىٰ الدفر ـ ولست أدرىٰ أيها المراد ـ واللبان ـ وهو الصدر ـ والأبدار ـ ولا أعرفها، إلا أن يكون جمع بادرة فهي إنما تجمع علىٰ بوادر.

وأكثر اعتمادنا في هذه الأبيات علىٰ تفسير أبي عبيدة لأبيات عبد الغفار الخزاعي التي ذكر أبو عبيدة أن عروضها لا يخرج، وهي:

ذاك وقد أذعرُ الوحوشَ بِصَلْـ ... ـت الخدِّ رحبٍ لبانُه مُجْفَر
طويلُ خمسٍ قصيرُ أربعةٍ ... عريضُ ستّ مقلّصٍ حَشْوَر
حدت له تسعة وقد عريت ... تسع ففيه لمن رأىٰ منظر
ثم له تسعة كُسين وقد ... أرحبَ منه اللّبانُ والمنخر
بعيد عشر وقد قربن له ... عشر وخمس طالت له ولم تقصر
نُقفِيه بالمحضِ دون ولْدَتِنا ... وعُضُّه في آريه يُنشر
نصبحه تارة ونغبقه ... ألبان كوم روائم ضوّر
حتىٰ شتا بادنا يقال ألا ... يطوون من بُدنهِ وقد أضمر
موثّق الخلق جُرْشُع عَتَد ... منضرجُ الحضرِ حين يستحضر
خاظي الحماتَينِ لحمُه زيمٌ ... نهدٌ شديدُ الصفاق والأبهر
رقيق خمس غليظ أربعة ... ناتي المعَدَّين ليِّنُ الأشعَر

وهو يعد الزوج والأربعة واحدا فلا ينظر لعده، وقد زدنا عليه من غيره ما صح لدينا.

فهذه نبذةٌ من الأوصاف الذاتية التي يُستدلُّ بها علىٰ عتق الفرس، والعرب تقول:

اذا اشتدت نفسه، ورحب متنعسه، وطال عنقه، واشتد حقوه، وانهرت شدقه، وعظمت فصوصه، وصلبت حوافره لحق بجياد الخيل.

وأرسل **مسلم بن عمرو** ابن عَمٍّ له إلىٰ الشام يشتري له خيلا فقال: لا علم لي بالخيل، فقال: ألست بصاحب قنص ؟ قال: بلىٰ قال: فانظر كل شيء تستحسنه في الكلب فاطلبه في الفرس، فأتىٰ بخيل ليس للعرب مثلها.

وقال **محمَّد بن عبد الملك** لصديق له أبغ لي برذونا وثيق اليدين قائم الأذنين ذكي العينين يأنف من تحريك الرجلين، ولله درُّ مَن قال:

فـوق طـرف كطـرف في سرعـة الشـد وكالقلـب قلبـه في الـذكاء
مـــا تـــراه العيـــون إلا خيـــالا وهـو مثـل الخيـال في الانطـواء

وأهدىٰ عمرو بن العاص إلىٰ معاوية ثلاثين فرسا من خيل مصر فعرُضت عليه وعنده **عتبة بن سفيان الحارثي** فقال: كيف تراها يا أبا سفيان ؟ فإنَّ عمرا أطنب في وصفها فقال: أراها ـ يا أمير المؤمنين ـ وإنها لسامية العيون، لاحقة البطون، مصغية الآذان، أقباء الأسنان، ضخام الركبات، مشرفات الحجبات، رحاب المناخر، صلاب الحوافر، وضعها تحليل، ورفعها تقليل، فهي إن طلبت لحقت، وإن طلبت سبقت، فقال معاوية: اصرفها إلىٰ دارك فإنَّ بنا عنها غنىٰ ولفتيانك إليها حاجة.

وقال **النعمان** لبني عامر ـ وقد أهدوا إليه خيلا مدحوها، فغضب عليهم ـ: يا معشر قيس أين خيلكم اللاتي كأنَّ آذانها شقاق اللحام، وكأنَّ مناخرها وجار الضباع، وكأنَّ عيونها بقايا النساء، رقاق المطلع تهالك اللجم في أشداقها، تدور علىٰ مذاودها، كأنها يقضمن حصىٰ، وكأن **الوليد بن يزيد** من هنا أخذ قوله:

وإذا احتبى قربوصه بلجامه علك الشكيم إلى انصراف الزائر

وأول مَن شبَّه الخيل بالظبي والسرحان وغيرهما **امرؤ القيس** بقوله:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

كأن على الكتفين منه إذا انتحى مداك عروس أو صراية حنظل

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من علي

دَرِيرٍ كخُذْروفِ الوليد أَمَرَّه كميت تتَابُعُ كفَّيه بخيطٍ موصَّل

يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

فأخذت الشعراء منه ذلك، فقال **طفيل الخيل**:

إني وإن قل مالي لا يفارقني مثل النعامة في أوصالها طول

تقريبها المَرَطَى والجَوزُ معتدل كأنه سُبَدٌ بالماء مغسول

أو ساهمُ الوجهِ لم تُقْطع أبَاجِلُه يُصان وهْوَ ليومِ الرَّوع مبذول

ولنذكر هنا جميع أسماء ما يحمد من الخيل على اختلاف صفاتها، فنقول:

قال **الثعالبي**: «إن كان الفرس كريم الأصل رائع الخلق مستعدًّا للجري فهو عتيق وجواد، فإذا استوفى أقسام الكرم وحسن المنظر والمخبر فهو طِرِّف وعُنْجُوج وهُمُوم، فإن لم يكن فيه عرق هجين فهو مُعْرِب، فإن كان يقرَّب مربُطه لنفاسته ونجابته فهو مُقْرَب، فإن كان رائعا جوادا فهو أُفُق، فإن كان تاما حسن الخلق فهو مطهَّم، وإن كان سامي الطرف حديد البصر فهو طموح، فإن كان واسع الفم فهو هَرِيتٌ، فإن كان مُشرف العنق والكاهل فهو مُفرع، فإن كان طويل الضلوع فهو جُرْشُع، وإن كان حسن الطول فهو شَيظَم، فإن كان طويل العنق والقوائم فهو سَلْهَب، فإن كان طويلا مع

الدقة من غير عجَف فهو أَشقُّ أَمقُّ، فإن كان منطوي الكشح عظيم الجوف فهو أقَبَّ نَهْد، فإن كان بعيد ما بين الرجلين من غير فحج فهو مجنَّب، فإن كان محكما شديد الأسر فهو مُكرَب وعَجْلَزة، فإن كان طويل الذنب فهو ذيَّال ورِفَلّ ورِفَنّ، فإن كان مشمر الخلق مستعد للعدو فهو طِمِرّ، فإن كان دقيق شعر الجلد قصيره فهو أجرد، فإن كان سريع السمن فهو مِشْياط، فإن كان لا يحفى فهو رَجِيل، فإن كان كثير العرق فهو هِضَبّ، فإن كان كأنه يغرف من الأرض فهو سُرْحُوب، فإن كان منقادا لسائسه وفارسه فهو قَؤود، ويوصف على طريق الاستعارة بالهيكل وهو البناء المرتفع إذا كان طويلا ضخما، وإن كان طويلا مديدا قيل مشذَّب ـ تشبيها بالنخلة المشذبة ـ فإن كان محكم الخلق قيل صِلْدَم ـ تشبيها بالحجر الصلد ـ فإن كان كثير الجري فغَمْر ـ تشبيها بالماء الكثير ـ فإن كان سريعا فيَعْبُوب ـ تشبيها بالجدول السريع الجري، فإن كان كلما ذهب إحضار جاء إحضار آخر فجَمُوم ـ تشبيها بالبئر الذي لا ينزح ماؤها ـ فإن كان متتابع الجري فمِسَحّ ـ تشبيها بسحّ المطر وهو تتابعُ شآبيبِه ـ فإن كان خفيف الجري ففَيّض وسَكْب ـ سمي بفيض الماء وانسكابه، وبه سمي أحد أفراس النبي ﷺ ـ فإن كان لا ينقطع جريه فبحر، والجَمُوح له معنيان أحدهما عيب وهو الذي يركب رأسه لا يثنيه شيء، والثاني النشيط السريع وهو الممدوح.

قال **امرؤ القيس**:

جموحـــا رموحـــا وإحضـــارها كمعمعـــة الســـعف الموقـــد

لطيفة: قال عبد الملك بن مروان يوما لأصحابه أيُّ المناديل أفضل ؟ فقال بعضهم مناديل مصر التي كأنها عرقي البيض، وقال بعضهم مناديل اليمن التي كأنها أنوار الربيع، فقال ما صنعتم شيئا، أفضلها مناديل عبدة بن الطيِّب حيث يقول:

لما نزلنا ضربنا ظل أخبية وفار بالغلي للقوم المراجيل
ورد وأشقر لا يؤنيه طابخه ما قارب النضج منه فهو مأكول
وقد وثبنا على جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

فائدة: ذكر الدميري أنَّ عبد الملك كتب إلى الحجاج يُوصيه بأنس خادم النبي ﷺ خيرًا، فقال له يوما: «يا أبا حمزة أريدُ أن أعرض عليك خيلي فتُعلمني أين هي من الخيل التي كانت مع النبي ﷺ، فعرضها عليه فقال له: شتان ما بينهما، تلك كانت أبوالها، وأرواثها، وأعلافها أجرًا، وهذه هيئت للرِّياء والسُّمعة، فقال الحجاج: لولا كتاب أمير المؤمنين فيك لضربت الذي فيه عيناك، فقال: لا تقدر علي، قال ولم؟ قال: لأنَّ رسول الله ﷺ علَّمني دعاءً أقوله لا أخافُ معه من شيطان ولا سلطان ولا سبع، فقال: علمه ابن أخيك ـ يعني ابنه هو ـ فأبى، فقال لابنه: ائت عمَّك أنسا فاسأله أن يُعلِّمك، فأبى، فلما حضرته الوفاة قال لابن أبي عياش: إنَّ لك علي انقطاعًا، وقد وجبت حرمتك، وإني معلِّمُك الدُّعاء الذي علمني رسول الله ﷺ فلا تعلِّمه أحدًا لا يخاف الله تعالى وهو: «الله أكبر الله أكبر، بسم الله على نفسي وديني، بسم الله على أهلي ومالي، بسم الله على كلِّ شيء أعطانيه ربي، بسم الله خير الأسماء، بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، بسم الله الذي لا يضرُّ معه داءٌ، بسم الله افتتحت، وعلى الله توكلت، الله ربي لا أشرك به شيئا، أسألك اللَّهم من خيرك الذي لا يُعطيه أحدٌ غيرك، عزَّ جارك، وجلَّ ثناؤك، وتقدست أسماؤك، ولا إله غيرك، احفظني واجعلني في عياذك من شرِّ جميع ذي شرٍّ خلقته، ومن الشيطان الرجيم، اللهم إني أحترس بك من شرِّ جميع شرٍّ خلقته، وأحترز بك منهم، وأقدم بين يدي: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص: 1 ـ 4)، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن يساري مثل ذلك، ومن فوقي مثل ذلك» انتهى.

وقوله: «**تلك كانت ... الخ**»، أشار به لقوله ﷺ: «من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانا واحتسابا وتصديقا بوعدِه فإنَّ شِبَعه ورِيَّه ورَوْثَه وبولَه في ميزانَه يومَ القيامةِ»، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنَّه ﷺ قال: «الخيلُ لثلاثةٍ: لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِتْرٌ، وعلى رجلٍ وِزرٌ: فأمَّا الذي له أجرٌ فرجلٌ ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مَرْج أو روضة فما أصابت في طِيَلِها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاسْتَنَّت شَرَفا أو شرفين كانت أوراثها وآثارها حسنات له، ولو أنها مرَّت بنهر فشربت منه ولم يُرِ د أن يَسقيها كان ذلك حسنات، ورجلٌ ربطها فخرا ورياء و نِوَاء لأهل الإسلام فهي عليه وزرٌ على ذلك».

فائدة لغوية: في الفرس عشرون اسما من أسماء الطير جمعها **أبو حرزة** في قوله:

وأقب كالسرحان تم له ... ما بين هامته إلى النسر
رحبت نعامته ووفر فرخه ... وتمكن الصردان في النحر
وأناف بالعصفور من سعف ... هام أشم موثق الجذر
وازدان بالديكين صلصلة ... ونبت دجاجته على الصدر
والناهضان أمرّ جلزهما ... فكأنما عثما على كسر
مسحنفر الجنبين ملتئم ... ما بين شيمته إلى الغرّ
وصفت سماناه وحافره ... وأديمه ومنابت الشعر
ومسا الغراب لموقعيه معا ... فأبين بينهما على قدر
واكتنّ دون قبيحه خطافه ... ونأت سمامته على الصقر

وتقـــدمت عنـــه القطـــاة لـــه فنـــأت بموقعهـــا عـــن الحـــر
وسـمىٰ عـلىٰ نقويـه دون حداتـه خربـــان بيـــنهما مـــدىٰ الشـــبر
يـــدع الرضـــيم إذا جـــرىٰ فلقـــا بتـــــوائم كمواســـــم ســــمر
ركّـبن في محـض الشـوىٰ سـبط كفـت الوثـوب مشـدد الأسر [1]

ومن أراد تفسيرها فعليه بـ: (**العقد الفريد**).

وأمَّا عيوبُ الخيل فقد جمعت أكثرها في قصيدة أبي دلامة التي يقولها في بغلته، وهي:

أبعـــد الخيـــل أركبهـــا كرامـــا وبعـد الفـره مـن خضـر البغـال
رزقـــت بغيلـــة فيهـــا وكـــال وليتـــه لم يكـــن غـــير الوكـــال
رأيـت عيوبهـا كثـرت وجلـت وإن كثـــرت ثـــم مـــن المقـــال
ليحصـي منطقـي وكـلام غـيري عشـــير خصـــالها شر الخصـــال
فـــأهون عيبهـــا أني اذا مـــا نزلـــت قلـــت امشـــىٰ لا تبـــالي
تقـــوم فـــما تزيـــد هنـــاك شـــبرا وترمحنـــي وتأخـــذ في قتـــالي

(1) **السرحان**: الذنب، **النسر**: ما ارتفع من باطن الحافر، **نعامته**: جلدة رأسه التي تغطي الدماغ، **فرخه**: الدماغ، **الصردان**: عرقان في اللسان، **العصفور**: منبت الناصة ونوع من الغبرة، **الديكين**: عظمان خلف الأذن، **دجاجته**: الذي علىٰ زوره بين يديه، **الناهضتان**: المنكبين، **أمر**: فتل، **جلزهما**: نشرهما، **عثما**: جبرا، **العر**: الرخمة من الفرس عظم ساقه، **الغرب**: رأس الودك، **حطافه**: وهو حيث يدرك عقب الفارس إذا حرك رجليه، **سمامته**: دائرة تكون في عنقه، **الغطات**: مقعد الرديد، **الحر**: سواد في أذن الفرس وهو فرخ الحمام، **حزبان**: الشعر المقشر في الناصية والمختلف وسط المرفأ وهو دك الحبارىٰ.

وإني إن ركبـت آذيـت نفسـي … بضـرب بـاليمين وبالشـمال
وبـالرجلين أركلهـا جميعـا … فيـا لـك في الشـقاء وفي الكـلال
أتـاني خائـب يسـتام منـي … عريـق في الخسـارة والضـلال
فقـال تبيعهـا قلـت ارتبطهـا … بحكمـك إن بيعـي غـير غـال
فأقبـل ضـاحكا نحـوي سرورا … وقـال أراك سـهلا ذا جمـال
هلـم إليَّ يخلـو بي خـداعا … ومـا يـدري الشـقي بمـن يخـال
فقلـت بـأربعين فقـال أحسـن … إلي فـإن مثلـك ذو سـجال
فـأترك خمسـة منهـا لعلمـي … بـما فيـه يصـير مـن الخبـال
فلـما ابتاعهـا منـي وبتـت … ولـه في البيـع غـير المسـتقال
أخـذت بثوبـه أبـرأت ممـا … أعـد عليـه مـن سـوء الخـلال
بـرأت إليـك مـن شـتى يـديها … ومـن جـرد ومـن بـل المخـال
ومـن فتـق بهـا في البطن ضـخم … ومـن عقالهـا ومـن القبـال
ومـن قطـع اللسـان ومـن بيـاض … بعينيهـا ومـن قـرض الحبـال
ومـن عـظ الغـلام ومـن حـراط … إذا مـا هـم صـحبك بارتحـال
وأقطـف مـن فـريخ الـذر مشـيا … بهـا عـرق وداء مـن سـلال
وتكسـر سرجهـا أبـدا شماسـا … وتقمـص للاكـاف عـلى اغتيـال
ويـدبر ظهرهـا مـن مـد كـف … وتهـزل في الجمـال وفي الجـلال
تظـل لركبـة منهـا وقيـذا … يخـاف عليـك مـن ورم الطحـال
ومثفـارٌ تُقـدِّم كـل سرج … تصـيّر دفتيـه عـلى القـذال
وتحفـى لـو تسـير عـلى الحسـايا … ولـو تمشـي عـلى دمـث الرمـال
اذا اسـتعجلتها عثـرت وبالـت … وقامـت سـاعة عنـد المبـال

وتضـــرط أربعـــين إذا وقفنـــا ... عـــلىٰ أهـــل المجـــالس للســـؤال
فتقطـــع منطقـــي وتحـــول بينـــي ... وبـــين حـــديثهم فـــيما تـــوال
وتـــذعر للدجاجـــة إن تراهـــا ... وتنفـــر للصـــفير وللخيـــال
فأمـــا الاعـــتلاف فـــأدن منهـــا ... مـــن الأتبـــان أمثـــال الجبـــال
وأمـــا القـــت فـــأت بـــألف وقـــر ... كـــأعظم حمـــل أحمـــال الجـــمال
فلســـت بعـــالف منهـــا ثلاثـــا ... وعنـــدك منـــه عـــود للخـــلال
وإن عطشـــت فأوردهـــا دجـــيلا ... إذا أوردت أو نهـــري بـــلال
وكانـــت قارحـــا أيـــام كســـرى ... وتـــذكر تُبَّعـــا عنـــد الفصـــال
وقـــد دبـــرت ونعـــمان صـــبي ... وقبـــل فصـــاله تلـــك الليـــالي
وتـــذكر إذ نشـــئ بهـــرام جـــورا ... وعاملـــه عـــلىٰ خـــرج الجـــوالي
وقـــد مـــرت بقـــرن بعـــد قـــرن ... وآخـــر عهـــدها لهـــلاك مـــالي
فأبـــدلني بهـــا يـــا رب طِرفـــا ... يـــزين جمـــال مركبـــه جمـــالي

وقال **الثعالبي**: «إن استرخت أُذُنا الفرس فهو أخذىٰ، وإن قلَّ شعر ناصيته وقصُر فأسفىٰ، وإن ابيضَّ أعلاها فأسعف، وإن غطت عينه كثرة فأغم، وإن ابيضَّت أشفاره مع الزرق فمُغْرَب، فإن اسودَّت إحدىٰ عينيه وازرقَّت الأُخرىٰ فأخيف، فإن قصُر عنقه فأهضم، فإن تطامن عنقه وكاد صدره يدنو من الأرض فأَدَنَّ، فإن انفرج ما بين كتفيه فأكتف، فإن انهضم أعلا ضلوعه فأهضم، فإن أشرقت إحدىٰ وركيه علىٰ الأخرىٰ فأفرق، فإن دخلت إحدىٰ فهدتيه وخرجت الأخرىٰ فأزوَر، فإن خرجت خاصرته فأثجل، فإن اطمأن صلبه وارتفعت قطاته فأقعس، فإن اطمأنتا معا فأبزخ، فإن التوىٰ عسيب ذنبه حتىٰ برز بعض باطنه الذي لا شعر عليه فأعصل، فإن زاد ذلك

فأكشف، فإن عزل ذنبه إلىٰ إحدىٰ الجهتين فأعزل، فإن أفرط تباعد ما بين رجليه فأفحج، فإن اصطكت ركبتاه أو كعباه فأصك، فإن انتصب رسغه وأقبل علىٰ الحافر فأقفد، فإن تدانت فخذاه وتباعد حافراه فأصدف، فإن كان ملتوي الأرساغ فأفدع، فإن كان منتصب الرجلين من غير انحناء فأقسط، فإذا قصر في المشي حافرا رجليه عن حافري يديه فشئيت، فإن أطبقهما فأحق، ويُنشد **ابن خرشة**:

وأقدَرُ مشرف الصهوات ساطٍ　　　كُميت لا أحقُّ ولا شئيت

الأقدر الذي تجاوز حافرا رجليه حافري يديه في الوط، والساطي البعيد الخطوة، فإن كانت له بيضة واحدة فأشرج، فإن تقشر حافره فنَقِد، فإن عظم رأس عرقوبه ولم يحد فأقمع، فإن كان يصك بحافره يده الأخرىٰ فهو مرتهش، فإن حدث في عرقوبه تزيد وانتفاخ عصب فهو أجرد، فإن حدث ورم في أطرة حافره فأدخس، فإذا شخص في وضيفه شيء له حجم من غير صلابة العظم فهو أمشّ ـ واسم ذلك الحجم المشش ـ فإن كان يلتوي براكبه حتىٰ يسقط فهو قموص، فإن كان يميل عن الجهة التي يريدها راكبه فحيوص، فإن كان مانعا ظهره فشموس، فإن كان يقف علىٰ رجليه ويرفع يديه فشبوب، فإن كان يمشي وثبا وثبا فقطوف، فإن كان يجرسنه ويمنع القياد فجرور».

وها هنا وقف بنا القلم في حلبة الجليلة، وعدِّ أوصافها الجميلة والرذيلة، فلنعقل لسانه، ونحبس من البنان عنانه.

وفي الأبيات: الجناس اللاحق والتام في غير موضع، والمضارع والمحرف، والاشتقاق، والطباق، والترديد، والتصدير، والتتميم في غير موضع، ومنه قولنا: (**ما للفرى لفوته من وسع**) أي: طاقة له يفوته بها.

يركبــه صـــدرا لكـــل فيلـــق ... يمـــلأ كـــل نجـــوة وفلـــق

وقــد يضــيق عنــه كــل مجهــل ... ومــــورد متســـع ومنهـــل

بحــر لــه علــى العــدى أمــواج ... مشــــربها في ذوقهـــا أجـــاج

يتبعــه مطاوعــا حيــث ذهــب ... كالظــل لا يســأله عــن الســبب

(**صدرا**) حالٌ من الضمير المرفوع في (**يركبه**)، أي: يركبه في حال كونه هو صدرا، أي: مقدما، و(**الفيلق**) الجند من ألف إلى أربعة آلاف، و(**النجوة**) ما ارتفع من الأرض، والفلق المطمئن من الأرض بين ربوتين، و(**المجهَل**) ما لا يهتدى فيه، و(**المنهل**) المنزل في المفازة، ويُطلق أيضًا على الموضع الذي فيه المشرب، وعلى المشرب والشُّرب، و(**الأُجاج**) الماء الملح المر.

والمعنى أنَّ أميرنا الذي سار خبره في الآفاق، وتسامر به الندماء والرِّفاق، أبقى الله فضله مذكورًا، وجعل سعيه يوم القيامة مشكورًا، يركب خيله المطهمة، فيسير عليها في حال كونه صدرا، أي: مقدَّما في أول جندٍ له عظيم كثير الأعداد والأفراد، تمتلئ به جميع المرتفعات من الأرض التي يسير فيها وجميع الأراضي المستوية، وإذا سار في القِفار المضلة التي لا يستوي فيها خائضها ضاقت عنه مع شدَّة اتِّساعها، وإذا ورد الموارد العظيمة الكثيرة الماء الواسعة المواقف لم تكفه، وإذا أراد النزول في المفاوز العريضة لم تَسَعْهُ مناهلها، ولم تقله منازلها فكأنها بحرٌ تتلاطم منه على أعدائه أمواج، إذا ذاقوها وجدوا مشاربها ملحة مُرَّة لا تسيغها حُلُوقهم، أي أنَّ أثر هذا الجند وفِعله في الأعداء مضرٌّ كريه لا يقدرون على تحمله، فكأنه ماءُ ملح لا تسيغه الحُلُوق، وعلى قوَّة هذا الجند وكثرة كماته فإنه لا يعصيه في أمر، ولا يُخالفه في مقصد، بل يتبعه مطاوعًا حيث سار وتوجَّه، فكأنه ظله، لا يسأل عن السبب الذي رُكب لأجله، كما أنَّ الظل لا يسأل

متبوعه عن ذهابه، وهذا المعنىٰ لم أره منصوصًا وهو بديعٌ، وبينه وبين قول الشاعر:

مثـــل الـــرزق الـــذي تتبعـــه　　مثـل الظـل الـذي يمشـي معـك
أنـــت لا تدركـــه متبعـــا　　وإذا وليـــت عنـــه تبعـــك

فَرْقٌ ظاهرٌ، وإنما يتشابهان أن لو كان كالظل متعلِّقا بـ (يتبعه)، أمَّا حيث كان متعلِّقا بـ (يسأله) أو بمحذوف فلا.

وفي الأبيات: الجناس الناقص واللاحق، والطباق، والتصدير، والتقسيم، والتوشيح.

فكم بـه خـاض مـن الصـحاري　　وقـت الهـواجر وفي الأسـحار
مهامهـا فيهـا القطـا يحـار　　كأنمـا الآل بهـا بحـار
طـورا لعـاد في الـبلاد يقمعـه　　وظـالم عـن الفسـاد يردعـه
فلـن يـؤوب دون حـوز مغـنم　　شنشـنة أَعرِفُهـا مـن أخـزم

(**كم**) هنا للتكثير، ويُقال خاض الماء إذا دخله، والشدائد إذا اقتحمها، ولا شك أنَّ من مرَّ في الصحاري المُضِلَّة فقد اقتحم غمرة وتحمل شدة، والصحاري والصحارىٰ والصحراوات جمع صحراء، وهي الأرضُ المستوية في لين وغلظ دون القف، والفضاء الواسع لا نبات فيه، و(**من**) للتبعيض، ومفعول (**خاض**) هو (**مهامها**) أول البيت الثاني، و(**الهواجر**) جمع هجيرة وهاجرة، وقت الزَّوال ومنه إلىٰ العصر، وسُمِّي هاجرة لكون الناس يسكنون به، فكأنهم تهاجروا لشدَّة الحَرِّ، و(**الأسحار**) جمع سَحَرٍ، وهو ما قبيل الصبح من الليل، و(**المهامه**) جمع مَهمَهٍ، وهي المفازة البعيدة والبلد المقفر، و(**القطا**) معروفٌ يُضرب به المثل في سرعة الطيران والاهتداء إلىٰ الأماكن التي يُريدها، يُقال: إنَّ بيضه يفسدُ بطلوع الشمس عليه عاريًا، فهو يغلس إلىٰ الماء أينما كان، ويرجع

إلىٰ بيضه قبل طلوع الشمس فلا يضله، وفيه يقول الشاعر:

أَسِربَ القطا هل مَن يُعير جناحه؟ ... لعلي إلىٰ من قد هويت أطير

وتفاخر يومًا **أوس بن غلفاء، وحميد بن ثور الهلالي، والعجير السلولي، ومزاحم العقيلي، والعباس بن يزيد الكندي** بأشعارهم، وادَّعىٰ كلُّ واحدٍ أنه أشعرُ من صاحبه، فمرَّ بهم سِرْبٌ قطا فقال أحدهم: تعالوا حتىٰ نصف القطا، ثم نتحاكم إلىٰ من نتراضى به، فأيُّنا كان أحسن وَصْفًا لها غلب، فتراهنوا علىٰ ذلك فقال أوس:

أما القطاة فإني سوف أنعتها ... نعتا يوافق منها بعض ما فيها
سكاء مخطوطة في ريشها طرق ... صهب قوادمها كدر خوافيها
منقارها كنواة القسب قلّمها ... بمبرد حاذق الكفين يبريها
تمشي كمشي فتاة الحي مسرعة ... حذار قوم إلىٰ ستر يواريها
لما تبدىٰ لها طارت وقد علمت ... أن قد أظل وأن الحي غاشيها
تشتق في حيث لم تبعد مصوبة ... ولم تصوب إلىٰ أدنىٰ مهاويها
تنتاش صفراء مطروقا بقيتها ... قد كاد يازىٰ عن الدعموص آزيها
تسقي رديين بالموماة قوتها ... في ثغرة النحر من أعلىٰ تراقيها
حتىٰ إذا استأنيا للوقت واحتضرت ... تجرسا الوحىٰ منها عند غاشيها
فرفعا عن شؤون غير ذاكية ... علىٰ لد يدي أعالي المهد ألحيها
مدا إليها بأفواه مزينة ... صعدا ليستنزلا الأرزاق من فيها
كأنها حين مداها لجنأتها ... طلىٰ بواطنها بالورس طاليها
حثلين رضاب البيض عن زغب ... ورق أسافلها بيض أعاليها
ترأدا حين قاما ثمت احتطبا ... علىٰ نحائف منآد محانيها

تكـــاد مـــن لينهـــآ تنـــاد أســـؤقها تـــأود الربـــل لم تعـــرم نواميهـــا

وقال حميد أبياتا في وصف ناقته، ثم قال في القطاة:

كما اتصـلت كـدراء تسـقي فراخهـا بســـمطة رِفْهًـــا والميـــاه شـــعوب
غـدت لم تباعـد في السـماء ودونهـا ...[1] ذا هويـــــــة وجنـــــــوب
قرينـــة ســـبع إن تـــواترن مـــرة ضربـــن فصـــفّت أرؤس وجنـــوب
فجاءت وما جاء القطا ثـم قلصـت بمفحصـــها والـــواردات تنـــوب
وجاءت ومسقاها الـذي وردت بـه إلى الصـدر مشـدود العظـام كتيـب
تبـــادر أطفـــالا مســـاكن دونهـــا مـــلا مـــا تخطـــاه العيـــون رغيـــب
وصــفن لهــا مزنــا بــأرض تنوفــة فـــما هـــي إلا نهلـــة وتـــؤوب

وقال **العباس**:

حـــذاء مـــدبرة ســـكاء مقبلـــة للماء في النحـر منهـا نوطـة عجـب
تســـقي أزيغـــب ترويـــه مجاجتهـــا وذاك مـــن ظمئهـــا في ظمئـــه شرب
منهـــرة الشـــدق لم تنبـــت قـــواده في حاجب العين من تسـبيده ربـب
تدعو القطا بقصير الخطو لـيس لـه قـدام منحرهـا ريـش ولا زغـب
تدعو القطا وبه تـدعى إذا انتسـبت يا صـدقها حـين تـدعوه وتنتسـب

وقال **مزاحم**:

(1) بياض في الأصل.

أذلــك أم كدريــة هــاج وردهــا ... مــن القــيظ يــوم واقــد وســموم

غدت كنواة القسب لا مضمحلة ... ونــاة ولا عجــلى الفتــور ســؤوم

تواشــك رجــع المنكبـين وترتمـي ... إلى كلكــل للهاديــات قــدوم

فلما انخفضت حتى رأت ما يسرها ... وفيء الضحى قد مـال فهـو ذمـيم

أباطح لم تنصب على حيث تستقي ... بهـــا شَراكٌ للـــواردات مقـــيم

سقتها سيول المدجنات فأصبحت ... علاجـــم تجـــري مـــرة وتـــدوم

فلما استقت من بـارد المـاء وانجلى ... عــن الــنفس منهــا لوعــة وهمــوم

دعت باسمها حين استقت فاستقلها ... قــوادم حُجّــنٌ ريشــهن ســليم

بجـــوزٍ كحُـــقّ الهاجريـــة زانـــه ... بــأطراف عــودِ الفــارسيّ وشــوم

لتســقي زغبــا بالتنوفــة لم يكــن ... خـــلافُ مولاَّهـــا لهـــن حمـــيم

ترائك بالأرض الفـلاة ومـن يـدع ... بمنزلهـــا الأولاد فهـــو ملـــيم

وقال **العجير**:

ســأغلب والســماء ومــن بناهــا ... قطــاة مــزاحم ومــن انتحاهــا

قطـــاة مـــزاحم وأبي المثنـــى ... عــلى حوزيــه صــلب شــواها

غدت كـالقطرة السـوجاء تهـدى ... أمـــام مجلجـــل زجـــل نفاهـــا

تكفـــى كالجمانـــة لا تبـــالي ... أبالمومـــاة أضـــحت أم ســـواها

نبـت منهـا العجيـزة فاجزالـت ... ونـــبس للتفتـــل منكباهـــا

كـــأن كعوبهـــا أطـــراف نبـــل ... كســاها الرازقيــات مــن براهــا

وتحاكموا إلى **ليلى الأخيلية**، فحكمت **لأوس بن غلفاء**، وقيل إنها قالت:

ألا كل ما قال الرواة وأنشدوا بها غير ما قال السلولي بهرج

وحكمت للعجير، فقال حميد بن ثور يهجوها:

كأنك ورهاء العنانين بغلة رأت حصنا فعارضتهن تسجج

و(**الآل**) السَّرَاب، أو خاصٌّ بما في أوَّل النهار، و(**الطور**) التارة، و(**يقمعه**) يصرفه عما يريد، و(**يردعه**) يكفُّه، وهذا بيانٌ للوجه الذي يركب إليه بجنده الذي يملأ المجاهل، ويضيق الموارد والمناهل.

والمعنىٰ أنَّه طالما جال في القِفار المُوحشة، والفيافي المدهشة، فكم خاض بأجناده، في الأوقات التي يتقاعد سواه عن الخروج فيها من مهاده، ولا تسمح نفسه بمفارقة أولاده، وهي أوقات الهواجر التي يشتدُّ قيظها وسَمُومها، ويلفح من جهنم فيحها فتحرق من الهرية أحشاؤها وجسومها، وأوقات الأسحار التي يطلب فيها المترفون ملازمة الفراش، ويتقاعدُ فيها الحريصُ عن القيام لطلب المعاش، من الصحاري العريضة المديدة، مفاوزُ مشحونةٌ بالأخطار بعيدة، لا تهتدي فيها القطا لفحوصها، ولا يرىٰ خائضها إلَّا بِحَارًا من السَّراب تغشىٰ العيون بوبيصها، فهو كما قال الشاعر:

أخا سفر جوَّاب أرضٍ تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

وخوضه ذلك إمَّا لقوم سمع بكثرة فسادهم، وشدَّة عِنادهم، قد زاد علىٰ المسلمين عداؤُهم، فلا يحسم إلَّا بالغزو داؤهم، فيركب إليهم بجنده المتلاطمة أمواجه، الزائدة أفواجه، فيصرفهم عن فسادهم ويقمعهم، ويقرعُهم بنكاله الذي تعرَّضوا له فَيَرْدَعُهم، ولا يُؤوب أبدًا من غزوهم إلَّا بهتك حرمهم وسترهم، وسلب أموالهم بأسرهم، وتلك الأموال غالبها أو كلُّها مما ينتهبونه من أموال غيرهم في غاراتهم علىٰ من يعاديهم،

وقطعهم السبيل علىٰ من يمرُّ بواديهم، أو يأوي إلىٰ ناديهم، عادة له بذلك جرت، وطريقة منه استمرت، قد شُهِر بها في الأقطار، وشاع وصفه بها في الآفاق، إلىٰ ذلك أشرت بقولي: (**شنشنة أعرفها من أخزم**)، وهو مَثَلٌ يُضرب في مثل هذا المقام، أي: وحاله في تغلُّبه علىٰ الأعداء وجري العادة له بذلك حتىٰ صارت له صفة لازمة، وطبيعة مُلازمة كحال من قيل فيه هذا، و(**الشنشنة**) الطبيعة والعادة، و(**أخزم**) بالزاي، فحلٌ كان لرجل من العرب، وكان مُعْجَبًا به، فضرب في إبل آخر ولم يعلم بذلك صاحبه حتىٰ مرَّ به بعد ذلك بعض نسله، فقال: **شنشنة أعرفها من أخزم**، فسارت مثلا يُضرب لمن صدر منه أمرٌ هو معروفٌ به، وكذا لمن ظهر منه أمرٌ شابَه به أباه ونحوه.

غدا عقيل بن عُلَّفة يومًا علىٰ أفراس له عند بيوته فأطلقها، ثم رجع فإذا بنوه مع بناته وأمهم مجتمعين، وكان غيورًا فشدَّ علىٰ عملس منهم فحاد عنه، وتغنىٰ ابنه **علفة** يقول:

قفي يا ابنة المري أسأل ما الذي ... تريدين فيما كنت منيتنا قبل
نخبرك إن لم تنجز الوعد أننا ... ذوا خلة لم يبق بينهما وصل
فإن شئت كان الصرم ما هبت الصبا ... وإن شئت لا يفنىٰ التكارم والبذل

فقال له: يا ابن اللخناء، متىٰ منتك نفسك هذا ؟ وشدَّ عليه بالسيف، فحال بينه وبينه عملس، فشدَّ علىٰ عملس فرماه علفة بسهم أصاب ركبتيه، فجعل يتمعك في دمه ويقول:

إن بني سربلوني بالدم ... من يلق أبطال الرجال يُكْلَم
ومن يكن ذا أود يقوم ... شنشنة أعرفها من أخزم

وفي الأبيات: الجناس المضارع والمصحف، والطباق، والتقسيم، والتمثيل، والتوشيح.

وإمَّا لإراحة نفسه من إعياء الإقامة، وصقلها من أصداء الحكومة المستدامة، باصطياد الطيور والعوادي بالسِّهام الصائبة، والجوارح الضارية، والصقور العوادي، وإلى ذلك أشرت بقولي:

وتــــــارة لآبـــــــد يقيـــــــده	**يقـــــدر عنـــــه أولا ويجهـــــده**
لكنــــه يلـــــهو بـــــه ويطـــــرده	**حتـــى يلـــوح غـــيره فيقصـــده**
وكـــــل جـــــارح شـــــديد أوده	**يغـــيره شـــأوا وشـــأوا ينجـــده**
وتـــــارة في صحصـــــح يـــــردده	**والصقر تحت الذاريات يرصـده**
حتـى إذا مـا فـات عنـه يعمـده	**يـــنقض عنـــه هابطـــا فيصـــعده**

(الآبد) واحدُ الأَوَابِد وهي الوحوش، و**(يقيده)** يُمسكه بسرعة، ومنه سمِّي الفرس قيد الأوابد؛ لأنَّه يلحقُ الوحوش بسرعة فيمسكها كأنَّ عليه قيدا، ويُقال: أجهده، إذا بلغ به الجهدُ وهو المشقَّة، وأجهده المرضُ إذا أهزله، وجهدُ البلاء الحالة التي يختار عليها الموت، و**(الجارح)** صاحبُ الصيد من السِّباع والطير، والمرادُ هنا الكلاب الضارية، و**(الأود)** الإعوجاج، وهو المطلوب في الجوارح، أمَّا في الطير ففي مخلبه وأصابعه وغيرهما، وفي الكلب ففي ذنبه وبطنه ونحوهما، ولا شكَّ أنَّ كل ما عدا الإنسان معوجا غير مستقيم القامة، و**(يغيره)** يحدده ضد ينجده، و**(الشأو)** الغاية والأمد، و**(الصحصح)** من الأرض المستوي منها.

قال **الثعالبي**: «إذا اتَّسعت الأرض، ولم يتخللها شجرٌ ولا خَمَر فهي الفضاء، والبراز، والبراح، والصَّحراء، والعراء، ثم الرَّهاء، ثم الجهراء، فإذا كانت مستوية مع

الاتساع فهي الخَبْت، والجَدَد، ثم الصَّرْدَح، ثم القاع والقرقر، ثم القَرِق، والصفصف، فإذا كانت مع الاستواء بعيدة لا ماء فيها فهي الفلاة، والمَهْمَه، ثم التنوفة، والفَيْفاء، ثم النَّفنَف، والصَّرْماء، فإذا كانت مع الاتساع بعيدة الأكناف والأطراف فهي السَّهْب، والخَرْق، ثم السَّبسَب، والسملَق، فإذا كانت مع هذه الأوصاف لا يهتدىٰ فيها إلىٰ الطريق فهي اليَهْماء، والغَطْشاء، فإذا كانت تُضل سالكها فهي المضِلة، والمتِيهة، فإذا لم يكن لها أعلام ولا معالم فهي المجهل، والهوجل، فإذا لم يكن بها أثر بها فهي الغُفُل، فإذا كانت قفرا القِيّ، فإذا كانت تُبيد سالكها فهي البيداء والمفازة كناية عنها ... فإن ارتفعت عن موضع السيل وانحدرت عن غلظ الجبل فهي الخيف، فإن كانت طيبة التربة كريمة المنبت بعيدة عن الاحساء والنزوز فهي العَذَاة، فإن كانت لينة سهلة من غير رمل فهي الرَّقاق، والبَرْث، ثم الميثاء، والدمِثة فإن كانت مخيلة للنبات والخير فهي الأريضة، فإن كانت ظاهرة لا شجر ولا شيء يخلط بها فهي القَراح والقِرْواح، فإن كانت مهيأة للزراعة فهي الحقل، والمشارة، والدبرة، فإذا لم يصبها المطر فهي الفِلّ، والجُرُز، فإن كانت غير ممطورة بين ممطورتين فهي الخَطِيطة، فإن كانت ذات ندىٰ ووخامة فهي الغَمَقَة، فإن كانت ذات سباخ فهي السبخة، وإن كانت ذات وباء فهي الوبيئة والوبئة ».

و(**الصقر**) البازي وسنذكره ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ و(**الذاريات**) جمع ذارية وهي الرِّياح، وإنما قلنا تحتها لأنَّه إذا اعتلىٰ في الجو دنا من الرِّياح المستقرة بين السماء والأرض.

اعلم أنَّ **نفوس الملوك محتاجةٌ إلى الرِّياضة**، والتدبير الجاري علىٰ نهج الاستقامة في حركاتها وسكناتها وسفرها وإقامتها ومأكلها ومشربها ومنامها في المرض والسلامة، إذ قوام الرَّعايا إنما يكون بقوامها، ودوام السلامة للبرايا إنما يكون بدوامها، إذ هي التي

تَذُبُّ عن حريمها، وتَجِدُّ في طلب غريمها، تكشفُ عنها الشدائد والبلوىٰ، وتكفُّ عنها الأهواء والأسواء، وتنقذ منها الغريق، وتردُّ جامحها إلىٰ الطريق، فإذا لازمتها الأمراض، واختلطت عليها الأعراض، عجزت عن التدبير، وسرىٰ الخلل لهذا العالم الكبير.

ومن آكد رياضتها النظر فيما يصقل مرائيها عن الأغيار، ويُصفيها من الأكدار، ويُريحها من كد الأفكار، وقد أجمع العقلاء الألباء، ومهرةُ الأطباء، أنه لا شيء من اللذات، أوفق من الصَّيد للأرواح وأنفع للذات، ولا صقال مثله للنفوس، والأفكار التي صديت بإطالة الجلوس، إذ به تستريحُ الأذهان من أقفاص العمران، وتنشرح بالإرسال في الفلوات الواسعة، والوقوف علىٰ الرِّياض والحياض والجداول والغدران، وتتنقل من غور ووهد، إلىٰ تلعة ونجد، ومن ربوة وأكمة، إلىٰ غيضة وأجمة، فيحصلُ لها بهذا التَّنقل في الفدفد الفياح، منتهىٰ الانشراح وغاية الارتياح، إلىٰ ما يحصل لها من المسرَّات الوافرة، بالظفر بالأوابد النافرة، والفخر المعلم يبرد جوانحها، عند إصابة سهامها ولحاق جوارحها، إلىٰ ما حصل لها من الاستراحة من سماع الخصومات، والتعب في فك متشعب الحكومات، إلىٰ الحركة الرياضية التي أوصىٰ بها الحكماء، وحضَّ عليها العلماء، حتىٰ قالوا إنَّ الخروج مرَّة في الجمعة من البلد، يُؤمن من الوباء والوخم ويُورث القوة والجلد، إلىٰ غير ذلك من فوائد الصيد التي لا يأتي عليها العدد.

ومع هذا فإنَّ الملوك مخاطبون كغيرهم بالنظر في الملكوت، في حالات الحركات والسكنات والكلام والسكوت، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا

سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (آل عمران: 190 ـ 191)، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: 9)، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: 15)، وفي الصيد من الاعتبار والنظر، وإجالة قداح الفكر، ما لا يُوجد في غيره مما يطلب فيه النظر.

وقد جمع سيدي **عبد الجبار** في **(سلوانته)** جملة جمَّة من منافعه حيث قال في أولها:

يلومونني في الصيد والصيد جامع	لأشياء للإنسان فيها منافع
فأولها كسب الحلال أتت به	نصوص كتاب الله وهي قواطع
فصحة جسم ثم صحة ناظر	وأحكام إجراء السوابق رابع
وبعد عن الأرذال مع صون همة	وإغلاق باب القال والقيل سابع
وأيضا لعرض المرء فيه سلامة	وحفظ لدينه وذلك تاسع
وفيه لأهل الدين والفضل عبرة	وتذكرة لها لديهم مواقع
ويورث طيب النفس والمجد والسخىٰ	ويألف منه الصبر من هو جازع
وينفي الهموم المهرمات عن الفتىٰ	ويقطع وفد الشيب كي لا يسارع
ويورث عند الاقتحام شجاعة	وفيه من السر الخفي بدائع
كرعي نظام وافتقاد رعية	وحفظ جناب من عدو ينازع
وتدبير أمر الحرب والفتك بالعدىٰ	وصيد أسود الإنس والوحش تابع
إذ الحرب خدعة وكيد فربما	تحيل بالقنص الدهاة التوابع
فأظفرهم بكل عاد معاند	علىٰ غرة فضرجته الضراجع

ويصفي دماغ المرء والجسم جملة	من أخلاط سوء أو فضول تصادع
ويغني عن الطب الصعيب علاجه	وما مثله للحزن والسقم دافع
وقد جاء: سافروا، تصحوا وتغنموا،	وذلك من قول النبوة شائع
وما ريء مفلوجا مريغ طريدة	حكى عن ذوي التجريب قوم بلاتع
وأيضا يزيد في الذكاء وفي الدها	وذلك كله إلى العقل راجع

وبالجملة فإنَّ الصيد خَلَّة أدبية، ملوكية، صوفية، طبية، حربية، أمَّا حظ الأديب منه فاسترواح فِكره، وتصفية ذِكره، وكسب المجد، وبذل الموجود عند الجهد، ولذلك كان الأدباءُ كثيرًا ما يتعاطونه، وفي غالب الأحيان يصفونه، ولقد كان **الخليل بن أحمد** لا يصبر عنه وهو من هو في الأدب !، إذ هو الذي فيه عليه عمدة العرب، وكان له بازي يصيدُ به مع الناس، فيفوز عنهم بسائر الأجناس، وكان لأبي الطيِّب فيه اليدُ الطُّولى، والرتبة العليا، ولو تعرضنا هنا لجلب كلامه فيه لخرجنا عن المقصود، وسيأتي من كلام الأدباء في البازي ما يدلُّك على كثرة اصطيادهم، ومدِّهم في الفلوات أكُفَّ قيادهم.

وأمَّا حظ الملوك فإراحة نفوسها من أعبائها المستدامة، ورياضتها به من طول الإقامة، فإنها وإن كانت في الظاهر مستريحة، ففي الحقيقة هي أتعب النفوس؛ لأنَّ غيرها إنما ينظر في خاصته وهي تنظر في سائر الرَّعايا، وتتعرَّض لفك جميع القضايا، وقد يعرضُ لها بسبب دوام الجلوس داء **النقرس** الذي قيل إنه لا علاج له، وهو وجعٌ يعرض في الرِجْلِ يبتدئ في القدمين خاصٌّ بهما يتولَّد عنه شدَّة وَجَعٍ، ودوام ضربان، واشتعال في القدمين إن كان حارًّا، وإن كان باردًا تولَّد عنه ثقلٌ شديدٌ وامتدادٌ في القدمين وانتفاخ بلا وجع، وأكثر ما يعرض من الدَّعة والتَّرف وترك الرياضة، ولذلك يُعرف بمرض الملوك، وحركات الصيد تذهبه وتُؤمِّن منه، ولذلك قال بعض الشعراء

على وجه التمثيل:

وطـول جمـام المـاء في مسـتقره   يغـيره لونـا وريحـا ومطعـما

وفي احتياج الملوك إلى الصيد يقول بعض الحكماء: «حُبُّ الصيد وإيثاره ينفرد به رجلان متباينان في الحال، والجامع بينهما علوُّ الهِمَّة، إمَّا مَلِكٌ مترف ذو نباهة ورفاهية، أو زاهد ذو زهادة لقناعته اتَّخذه صِنَاعَةً، أبيَّ النفس عن الدناءات فاقتناه بضاعة، وكلاهما يلمحه من وجهة طريقته، ويُومئ إليه بنفس فريضته.

أمَّا الملك فمن جهة علو همته لقوَّة اهتمامه بقوَّة الطلب، وحُبِّ الاستيلاء و الغلب، وحسن موقع الظفر في نفوسهم والطرب، والالتذاذ والابتهاج، والتفقد للرعية بما لهم عليه من حقٍّ واحتياج، كردِّ مظالم لم تؤد إليه، أو خراب عمارة لم تعرج بالذكر عليه، فإذا عاين ذلك كان أوقع بنفسه وقلبه، فنصب الاهتمام به لديه، فيأمرُ بإصلاح ما وهى، ويتلافى ما خشي من فواته إن غفل وسها، ويعتبر إذا طرق سمعه، أو ألقي في روعه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الروم: 9)، وقالوا: ما خرج إمامٌ أو أميرٌ فرجع بغير فائدة: أمَّا جسمه فيروضه، وخيله فيقرنها، وينشئ شهوته فتزيد، وتضمحل أخلاط جسمه فتميد.

وأمَّا الفقير فلعلوِّ همته، وزهده عما في أيدي الخلق وقناعته، ينأى عن دنيِّ المكاسب، ويرغبُ عن خسيس المطالب، ويصونُ ماء محياه أن يُراق، ويسمُو عن غضاضة المهر أن يذيبه بالاحتراق.

وأمَّا حظ الصوفي منه فالاعتبار في المخلوقات، والتفرُّد بالله في الفلوات، وأكل الحلال، والبعد عن العامة والأنذال، الذين قال فيهم بعض الحكماء: «إيَّاكم ومجالس العامَّة، فإنها تثير الظلمة، وتُذهب الحكمة، وتجلبُ الغُمَّة، وتزيل النِّعمة، وتهتكُ

الحُرمة، وتسترسل معهم في النِّقمة، لخوضهم فيما لا يعني، والاهتبال بما لا يُغني»، وقد نصَّ أئمتهم (رضي الله عنهم) علىٰ أنَّ أول أصولهم اكتساب الحلال واستعماله، وقالوا أصلُ الحلال ماء الغدران، ونبات الأرض، والفيء إذا قسم علىٰ وجه العدل، والصيد في البَرِّ والبحر، قال شارح (**السلوانة**): «وقد جمع الصيد جميعها، وكلُّها مُرَغَّبٌ فيه، فقد جر الصيد إذ ذاك إلىٰ استعمال الحلال واكتسابه مع ما انضاف إلىٰ ذلك من الاستيناس بالفلوات، وتمرن النفس علىٰ التحنث في الخلوات، والعزلة المحمودة المرغَّب فيها عند تشابه الأمور لينشط إلىٰ التحنث الذي به تتم الصالحات امتثالا لمن به نرجو النجاة إذ ذاك هو افتتاح شأنه ﷺ» انتهىٰ.

ولهم في ذلك اقتداءٌ بالسلف الصالح أصحاب النبي ﷺ فحديث قتادة له في البخاري أصلٌ أصيل، ومثله عدي بن ثابت وغيرهما مما لا أُحصيه كثرة، وقد كنت يوما بالصحراء مع جماعة من الأماثل الأفاضل، فاصطدت طيورًا من وَكْرٍ، فجرىٰ بيني وبينهم من المزاح ما أحوج أن قلت:

ألا خبر الدلفاء عني بأنني ... بأرض بها للداجين عجائب
أرىٰ الوحش في أرجائها متطاردا ... وزمر المهىٰ في أرضها تتلاعب
أُسايِر قوما أذهب الحر حسنهم ... وأثر في إدراكهم فهو غائب
يعيبون من صاد المباح جهالة ... وما رأىٰ من قد عابه اليوم صائب
أقول لهم إن عبتم الصيد كلهم ... فقد صاد أصحاب النبي الأطائب
وفي أكل خير الخلق صيد قتادة ... دليل علىٰ ما جئته اليوم لازب
علىٰ المصطفىٰ المختار من آل غالب ... سلام محب أوبقته المصائب

وأمَّا حظ الطِبِّ منه فإنه راحة النفس، وصِقال الرُّوح، ومُتنزه القلب، وشفاءُ ما لا

علاج له من الأمراض، وجلوة ما عظم من الهموم، وحائل عما يستكره من الشيب، ومع ذلك فهو رياضةٌ للأبدان يعد أخلاطها ويسوي مزاجها، فقد ذكر شارح (السلوانة) أنَّ بعض الأطباء كان مع استعماله الأدوية يرىٰ أنَّ الخروج إلىٰ الصيد أفضل من مستعملاته، فيأمرُ قاصده بالتَّحرك وشدَّة السير اليوم واليومين علىٰ حسب العلة والعليل، فيجد العليل لذلك ما لا يجده للأدوية، وعن بعض الملوك الساسانية أنه قال: «الصيد محلل لكثير من الفضول و الأخلاط الردية، مثيرٌ للذكاء، منشئ للشهوة، مؤمِّن من العلل المزمنة»، وقال بعض الحكماء: «لا يعمش ناظر زهرة ولا مريغ طريدة، وفي تسريح النواظر في المنتزهات النواضر ما يغني عن الخواص، قال وأخبر غير واحدٍ أنهم شاهدوا من لازمه الصُّداع الذي أعجز الأطباء خرج للاصطياد، فلما ظفر بالصيد عرض له رعافٌ حلَّ عنه كل ما يجدُه من الصُّداع ولم يعد إليه، وآخر كانت به قروحٌ مزمنةٌ لا يستطيع الحركة معها، فطرد يوما فقويت عليه الطبيعة، فانفجرت، وسال ما فيها، فبرئ.

وربما عرض له بالصيد ما يُغَيِّر طبعه فتسمو أحواله بعد الذمامة، فينتقل من الجبن إلىٰ الزعامة، ومن البخل إلىٰ الجُود فتحلو شمائله بالإنعام والكرامة.

وأمَّا حظ المحارب منه فالتمرُّن علىٰ طلب الأعداء، وركوب الخيل، ومعرفة الطراد وإدراك لذة الظفر، وتعلم اقتحام الأمور، وركوب الشدائد إلىٰ ما قيل أنه يحدث الشجاعة، ويقطعُ عروق الجبن، وأكبر منافع الصيد أنه متجرٌ للفقير لا يحتاج فيه إلىٰ رأس مال.

وحُكْمُه من حيث هو الإباحة، فإن كان لسَدِّ خلة أو لتوسيع عيش عياله فهو مندوبٌ إليه، فإن كان لإحياء النفس فهو واجبٌ، فإن كان لمجرَّد اللهو فهو مكروهٌ،

وعند ابن عبد الحكم مباحٌ، فإن كان للهو لا بغية الذكاة فهو حرامٌ، ومن جملة المباح أن يصيد للأكل اختيارًا، وهذا الذي عليه عامَّة من يصطاد المباح من الأغنياء والأمراء ونحوهم، وعلى كلِّ حال فللصيد كما قال خاقان الملك: محاسن أثيرة، وفضائل خطيرة، من جلالة مكسب، وطهارة منصب، ونزاهة نفس، وظرافة أنس، وانشراح صدر، وارتفاع قدر، ورياضات سياسية، وحركات سنية، وتنقلات نافعة للجسم من الأوصاف المزمنة، والأخلاط التي تجمع في الجسم الأمراض المدمنة، مع ما فيه من الآداب البارعة، والملاطفات المستحبة الجامعة، والأمثال السائرة، والعبر السائرة، والآيات المتلوة، والأخبار المأثورة المجلوة، وملح الأشعار، وطرف الأخبار.

ولما كان بهذه المثابة كان أميرنا الذي هو الأديب الأجل، والملك المبجَّل، والطبيب الذي يُلجأ إليه ويُعتمدُ عليه كثيرًا ما يلهج به، فيخرج في خيله ورجله، ويُفارق بلده لأجله، فيتوغَّل في الفلوات والموارد، لطلب الأوابد الشوارد، ثم يفيض على جنده سبب نواله، ويرجع إلى مقرِّ حكمه في سبيل حاله، على حسب ما تضمنته هذه الأبيات.

ومعناها أنه تارةً يركب في جنده، لطلب أعاديه، كما تقدَّم، وتارة يخرج إلى الفلوات في طلب الوحوش، فإذا ظهرت له طريدةٌ عدا في إثرها فقدر أول الحال دون أن يجهد نفسه لسبق خيله التي لا تُسابقها الرِّياح، ولا يلحقها البرق الملتاح، غير أنَّه لا يجهز عليها بل يُجاريها على حسب ضعفها إلى أن يظهر له غيرها فيترك هذه التي أجهدها أوَّلا ويقصد الذي ظهر ثانيا، فيفعلُ به فِعله بالأولى، وهكذا.

وقد اشتمل البيتان على معان كثيرة منها خروجه إلى الصيد وهو الأصل الذي سيقتا لأجله، ومنها ما أشرنا إليه بقولنا: (**يقدر عنه أولا**)، من كونه لا يتعب في أثره، ومنها كونه لا يحصلُ له الإِعياء بإدامة الطراد والسآمة منه، وذلك مُعلِمٌ بفروسيته،

وتمرُّنه علىٰ ركوب الخيل وعِلمه بإجرائها، وذلك مستفادٌ من قولنا: **(لكنه يلهو ... الخ)**، ومنها ما دلَّ عليه قولنا: **(حتى يلوح غيره ... الخ)**، من نزاهة نفسه وعُلُوِّ همته حتىٰ لم ينزل عن طرفه لأجل فريسة لحم وكونه هو المقدم علىٰ سائر جنده لكونه هو الذي يبدو له قبل كلِّ أحدٍ ما يظهر منها، فيقصده قبل أن يرُوعه سواه، فإذا أتىٰ العادون خلفه وقعوا علىٰ ما أعياه وأجهده، فيأخذونه، وذلك مؤذن بشجاعته وشدَّة بأسه لانفراده عن جنده، وطرده الأوابد وحده، ولا يتهيَّب أن يلقىٰ عدوا، إلىٰ غير ذلك، والواو في قوله: **(وكل جارح ... الخ)**، واو الحال، أي: أنه يطرده والحال أنَّ كلَّ جارح شديد الاعوجاج كثير العدو ذي قوة يعدو في إثر ذلك المصيد المطرود، فتارة يهبطه في حدور، وتارة يصعده في مرتفع، وتارة يذهب به ويجيء في مستو من الأرض، وهو ينظر إليه نظر المبتهج، ولو أشلاه به لأخذه أوَّلا، غير أنه يريد ذلك للنزهة، والبزاة حائمةٌ في الجوِّ تحت السحائب المحمولة علىٰ الرِّياح تحرس مكانه، وتحوطه من التستر في الغياظ ونحوها، فإذا رأته فات علىٰ الجوارح العادية قصدته، وانقضت عليه هابطة من الجَوِّ فأصعدته رافعة له في مخالبها، وذلك مؤذن بوقارِها وشدَّة تعلمها من كونها لا تنقض علىٰ المصيد حتىٰ تراه كاد يفوت غيرها من الجوارح.

وهذه الأبياتُ منسجمةُ الألفاظ متناسقةٌ حسنة الترتيب كثيرة المعاني لطيفتها، ومعنىٰ الأوَّل والثاني والخامس وعجز الرابع لم أره منصوصا، وفيها التتميم والترديد والطباق والتوشيح والتقسيم والإبداع والاختراع.

يقصـــده بكـــل غـــوط مشـــتهر ... أصـــابه صـــوب ســـحاب مكفهـــر

تسلســـل الـــبرق بـــه ثـــم التـــوى ... وجلجل الرعد بـه حتـى ارتـوى

فـــانفجرت في أرضـــه عيـــون ... وانفتحـــت مـــن زهـــره عيـــون

وتوجـــت بنـــوره ريـــاض   فاضـت علـى أرجائهـا حيـاض
يحصـل للقلـب بهـا انشـراح   وللنفـــوس فـــرح وراح
فبـادرت لـه الوحـوش قطعـا   لقطــع قـــد سـبقتها تبعـا
وانهمكـــت في نبتـــه المريـــع   ومـا لهـا في الجـو مـن مريـع
حتـى أتاهــا يقتفـي الآثــارا   فلــم يقــل لوفــدها عثــارا

(**الغوط**) والغائط والجوف الأرض المطمئنة ثم يليها الهجل، والهضم، فإذا جمعت الأرض بين الارتفاع والصَّلابة والغلظ فهي المتن، والصمد، ثم القف، والفدفد والقردد، فإذا كان ارتفاعها مع اتِّساع فهي اليفاع، فإذا كان طولها في السماء كالبيت وعرض ظهرها كالعشرة أذرع فهي التل، وأعرض من ذلك وأطول فالرَّبوة والرابية ثم الأكمة ثم الزبية، و(**المكفهر**) من السَّحاب ما كان غليظا يركب بعضه بعضا، وأول ما ينشأ السحاب فهو النشو، فإذا انسحب في الهواء فهو السحاب، فإذا تغيَّر له السماء فهو الغمام، فإذا نشأ في عرض السَّماء فلا تُبصره ولكن تسمع رعده من بعيد فهو العقر، فإذا أطلَّ وأظلَّ فهو العارض، فإذا كان ذا رعدٍ وبرق فهو العراص، فإذا كان قطعا صغارا متدانية فهو النمرة، فإن كانت متفرقة فهي القزع، فإن كانت قطعا متراكمة فهي الكرفى، فإن كانت كالجبال فهي قلع وكنهور، فإن كانت رقاقا فهي الطخارير، فإن كان حولها قطع من السحاب فهي مخبلة، فإذا ارتفع ولم ينبسط فهو النشاص، فإذا تعلق سحاب دون سحاب فهو الرباب، فإذا تدلى ودنا من الأرض مثل هدب القطيفة فهو الهيدب، فإن كان ذا ماءٍ كثيرٍ فهو القنيف، فإن كان أبيض فهو المزن والصبير فإن كان لرعده صوت فهو الهريم، فإن اشتدَّ صوته فهو الأجش، فإن كان باردا وليس فيه ماء فهو الصراد، فإن كان خفيفا تسفوه الرِّياح فهو الزبرج، فإن كان ذا صوت شديد فهو الصيِّب، فإذا هرق ماؤُه فهو الجهام، فإذا انقطع في أقطار السماء وتلبَّد بعضه فوق بعض

فهو القرد، فإذا ارتفع وحمل الماء وكثف وأطبق فهو العماء والعماية والطخاء والطخاف، فإذا اعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء فهو الحَبِيّ، فإذا عنَّ فهو العنان، فإذا أظل فهو الدجن، فإذا اسود وتراكب فهو المحمومي، وللعرب فيه كلام بليغ يتفاخرون به، قيل لأعرابي أيُّ الناس أوصف للغيث ؟ قال: القائل ـ يعني: **امرأ القيس** ـ:

ديمـــة هطـــلاء فيهـــا وطـــف   طبـــق الأرض تجـــري وتـــذر

قيل: ثم من ؟ قال: القائل ـ يعنى عبيد بن الأبرص ـ كذا في العقد، وفي الأغاني أنها لأوس بن حجر:

يا مـن كـبرق أبيـت الليـل أرقبـه   في عـارض مكفهـر المـزن دلاح
دان مسـف فويـق الأرض هيدبـه   يكـاد يدفعـه مـن قـام بـالراح

وخرج أعرابيٌّ مكفوف ومعه ابنة عمِّه لرعي غنم لهما، فقال: أجد ريح النسيم قد دنا، فارفعي رأسك وانظري، فقالت: أراها كأنها ربرب معزى هزلى، قال: ارعي واحذري، ثم قال لها: إني أجد ريح النسيم قد دنا فانظري، قالت: أراها كأنها بغال دهم تجرُّ جلالها، قال: ارعي واحذري، ثم قال: إني لأجد ريح النسيم قد دنا فانظري، قالت: أراها كأنها بطن حمار أصحر، قال: ارعي واحذري، ثم قال: إني أجد ريح النسيم قد دنا فما تَرين ؟ قالت: أراها كما قال الشاعر:

إني أرقت ولم يأرق معـي صـاحي   لمسـتكف بعيـد النـوم لـواح
دان مسـف فويـق الأرض هيدبـه   يكـاد يدفعـه مـن قـام بـالراح
كـأنما بـين أعـلاه وأسـفله   ريـط منشـرة أو ضـوء مصـباح
فمـن بمحفلـة كمـن بنجوتـه   والمسـتكين كمـن يمشـي بقـرواح

فقال النجاء ـ لا أبا لك ـ فلم يصلا أهلهما حتى أخذهما المطر.

ودخل أعرابيٌّ على **سليمان بن عبد الملك** فقال: أصابتك سماءٌ في وجهك ؟ فقال: نعم، غير أنها سماء طخياء وطفاء، كأنَّ هواديها الدلاء، مرجحنة النواحي، موصولة الآكام، تكاد تمس هام الرجال، كثيرٌ زجلها، قاصفٌ رعدها، خاطفٌ برقها، حثيث ودقها، بطيءٌ سيرها، متعنجر قطرها، مظلمٌ نوءها، قد لجأت الوحش إلى أوطانها، تبحث عن أصوله بأظلافها، مجتمعة بعد شتاتها، فلولا اعتصامنا بعضاهِ الشجر وبقنن الجبال، لكنا جفاء في بعض الأودية، فأطال الله للأمة بقاءك، ونسأ لها في أجلك ببركتك، فقال **سليمان**: لعمر أبيك لئن كانت بديهة لقد أحسنت، وإن كانت مُحَبَّرة لقد أجدت، فقال: بل محبرة مهدورة، قال: يا غلام، فوالله لصدقه أعجبُ من صفته.

وكان أعرابي عند بعض ولاة المدينة فأصاب مطر جود، فقال له الوالي: صِفْهُ، فقال: دعني أنظر إليه، ثمَّ نزل فقال:

كثـرت بكثـرة قطـره أطبـاؤه ... فـإذا تحلـب فاضـت الأطبـاء
ولـه ربـاب هيـدب لـزفيره ... قبـل التفتـق ديمـة وطفـاء
وكـأن بارقـه حريـق تلتقـي ... ريـح عليـه وعـرفج وألاء
وكـأن ريقـه ولمـا يحتفـل ... ودق السـماء عجاجـة طخيـاء
مستضـحك مسـتعبر بـدوامع ... مرسـولة لم تمرهـا الأقـذاء
فلـه بـلا حـزن ولا بمسـرة ... ضـحك يؤلـف بينـه وبكـاء
حـيران متبـع صـباه يقـوده ... وجنوبـه كنـف لـه ورعـاء
ثقلـت كـلاه فبهـرت أصـلابه ... وتبعجـت عـن مائـه الأحشـاء
غـدق ينـتج بالأبـاطح فرقـا ... تلـد السـيول ومـا لهـا أسـلاء

غــر محجلــة دوالــح ضــمنت   حمــل اللحــاق وكلهــا عــذباء
ســحم فهــن إذا عبســن فــواحم   ســود وهــنّ إذا ضــحكن وضــاء
لو كان من لجــج الســواحل مــاؤه   لم يبــق في لجــج الســواحل مــاء

ويُقال: تسلسل البرق إذا ظهرت له سلسلة، وهي اتِّصال الشيء بالشيء، ومنه سمِّيت السلسلة المعروفة لاتِّصال حلقها بعضها ببعض، وسلاسل البرق ما تسلسل منه، والتوىٰ البرق إذا اضطرب في السَّحاب علىٰ غير جهة، وجلجل الرعد جلجلة صوت.

والعرب تقول: رعدت السَّماء، فإذا زاد صوتها قيل ارتجست، فإذا زاد قيل أرزمت، فإذا زاد واشتدَّ قيل قصفت وقعقعت، فإذا بلغ النِّهاية قيل جلجلت وهدهدت، كما أنهم يقولون إذا برقت كأنما يتبسم بقدر ما يريك سواد الغيم من بياضه: أنكل انكلالا، فإذا بدا برقٌ يسير قيل أوشمت، فإذا برق برقا ضعيفا قيل خفي يخفىٰ وقيل يخفو، فإذا لمع خفيا قيل لمع وأومض، فإذا تشقَّق قيل أنعق، فإذا ملأ السماء وتكشف واضطرب قيل تبوج، وإذا كثر وتتابع قيل ارتعج، فإذا لمع وأطمع ثم عدل قيل خلب، وتقدَّم معنىٰ التوىٰ وتسلسل، وانفجرت سالت.

و(**العيون**) الأوَّل عيون الماء، والثانية العيون الباصرة، شبه بها الأزهار علىٰ وجه الاستعارة والتجريد كأنَّه انتزع من الأزهار شيئًا زائد عليها استعار له اسم العيون علىٰ حدِّ قولك: لقيت من فلان الأسد وسألت منه البحر، و(**تُوِّجت**) جعل لها تاج، وهو الإكليل حلية تُجعل علىٰ رؤوس الملوك، وشبه عصابة تزين بالجواهر، و(**النور**) النوار كرمان الزهر الأبيض أو مطلقا، و(**الرِّياض**) جمع روضة، وهي مستنقع الماء سمِّيت بذلك لاستراضة الماء فيها، و(**الحياض**) جمع حوض وهما ما يجتمع فيه الماء الحائض أي

السائل وهو الصهريج و المغراة، وأمَّا السرية فهو حوض، يُحفر تحت الشجرة، ويملأ ماء لتشرب منه، والنضج حوض يقرب من البئر يفرغ فيه من الدلو، والجرموز الحوض الصغير، والجابية الحوض الكبير، والدعثور الحوض الذي لم يتأنق في صنعته، و(**الانشراح**) معروفٌ، و(**الراح**) الارتياح وهو أحد معانيه الثلاثة، والثانية الخمر، والثالثة جمع راحة وهي الكف، و(**القطع**) جمع قطعة وهي الطائفة من الشيء، و(**انهمكت**) استرسلت، و(**المريع**) الخصيب، و(**النبت**) هو ما تنبته الأرض من الكلأ، وهو أوَّل ما يخرج بَارِضٌ، وإذا طلع أوَّل النبت قيل: أَوْشَمَ وطَرَّ، فإذا تحرك قليلا فجميم، فإذا عَمَّ الأرض فعميم، فإذا اهتزَّ وأمكن أن يقبض عليه قيل: اجثألَّ، فإذا اصفرَّ ويبس فهائج، فإذا كان الرطب تحت اليبس فغميم، فإذا كان بعضه هائجا وبعضه أخضر فهشيم وحطام، فإذا اسودَّ من القدم فدندن، فإذا يبس ثم أصابه مطر فاخضرَّ فهو النشر.

و(**المريع**) بالضم اسم فاعل من راعه إذا أفزعه، و(**يقل**) مضارع أقال عثرته إذا حفظه منها أو أخذ بيده، و(**العِثار**) جمع عثرة وهي الكَبوة، وذلك من باب التمثيل، إذ ليس المرادُ أنه تركها عاثرة وحملها على العثار، وإنما المرادُ أنه استأصل جميعها بالقتل ولم يتركها آمنة، و(**الوفد**) المرادُ به القادمون على تلك الرِّياض من هاتيك الوحوش، شبهتهم بالقوم القادمين على الملوك ونحوهم تشبيها استعاريا، إذ الوفد على ما يظهر من كلامهم خاصٌّ بالجماعة من الناس الذين يقدُمون على معظم ركبانا، ولذلك قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ (مريم: 85 ـ 86) والعلاقة بينهما أنَّ هذه جماعةٌ كما أنَّ أولئك جماعةٌ، وكل منهم ورد على مقصود يرتجي منه نفعا.

وهذه الأبيات وردت جوابا عن سؤال مقدَّر من باب الاستئناف البياني، كأنه قيل: وأين يقصد هذه الوحوش التي يطردها علىٰ حسب ما ذكرت ؟ فأجبت بقولي: (**يقصده**)، أي: الآبد الذي مَرَّ ذِكره بكلِّ مكان مُطمئن مشتهر باجتماع المصيدات فيه من كلِّ أوب لكونه وقع فيه صوب، أي: انصباب مطر من سحائب متراكمة متراكبة قد لاحت فيها سلاسل بروق خاطفة، ثم اضطربت في جوانبها فكانت في تسلسلها كسلاسل الذهب، وفي التوائها واضطرابها كالثعبان المعلق ينقبض وينبسط بسرعة ويلمع بريقه في الجو، وقصفت فيه أصوات الرعد العظيمة، وما زال الحال كذلك حتىٰ ارتوىٰ ذلك المطمئن ريًّا تفجرت فيه بسببه عيون من الماء يفيض فيه، وانفتحت فيه من الأزهار المختلفة الألوان أحداق ناظرة ازدانت بها تلك الحدائق الناضرة، وكثر فيها من النوار الأبيض ما صارت به تلك الرِّياض كأنها متوَّجَة بتيجان منضدة بالجواهر الثمينة، وتلك الرياض قد فاضت فيها وعلىٰ جميع أكنافها حِياضٌ من الماء المجتمع فيها، فلذلك كثر نورها وتزايد نبتها وزهره حتىٰ صارت إذا مَرَّ بها المرء انشرح صدره، وذهب همُّه وضره، وحصل لروحه ونفسه فرحٌ زائد، وارتياح مذهب لجميع أصداء الهموم وأعراض الحزن، فلما كانت بهذه المثابة من كثرة الأزهار والكلأ، وغزارة العيون والحياض والبعد عن الإنس والجمع للسرور والأنس، جاءتها الوحوش متسابقة طائفة إثر طائفة؛ لأنها تقصد مواقع القطر ومنابت الكلأ ومناقع الغدران أينما كانت، فوجدت بها ما قصدته فاسترسلت فيه ترتع في نبته الخصيب، وتشرب من غدرانها المفعمة لا تخاف من طارق يروعها، ولا قانص يفجعُها لبعدها عن مواطن الناس ومساكن ما تحذره من سائر الأجناس، فلم يَرُعْهَا إلا وقد جاءها في جنده العرمرم يتبع آثارها، ويقص رسومها حتىٰ وقع عليها منهمكة في تلك الرياض مترددة بين هاتيك الغدران والحياض، فلم يترك منها آبدا، ولا أفلت شاردا، بل جرع الجميع كأس الحين، وصيَّرها أثرًا بعد عين.

وقد احتوت هذه الأبيات على وصف الغيطان والسَّحاب والبرق والرَّعد والعيون والأزهار والرياض والحياض، وكيفية قصد الوحوش لمراعيها والنبت، وكيفية اتِّباعها وحالة الظفر بها، وفيها من ألقاب البديع الجناس المشتق واللاحق والمضارع والتام والناقص والمختلف والترديد والطباق والتصدير والتجريد.

وتشبيه البرق بالسلاسل كثيرٌ في كلام الأدباء، فهذا **حازم** يقول:

تجذبــه سلاســـل مـــن ذهـــب   في راحتـــي ريـــح شـــمال أو صـــبا

وقد حذا في ذلك حذو **ابن المعتز** في قوله:

رأيــت فيهــا برقهــا منــذ بــدت   كمثل طرف العين أو قلــب يجــب
ثــم جــرت بهــا الصبا حتــى بــدا   لي بهــا الــبرق كأمثــال الشــهب
تحســبه فيهــا إذا مــا انصــدعت   أحشــاؤه عنــه شــجاعا يضــطرب
وتـــــارة تحســـــبه كأنـــــه   أبلــق مــال جلــه حــين وثــب
حتى إذا مــا رفــع اليــوم الضــحى   حســبته سلاســلا مــن الــذهب

وقال **أبو عثمان الخالدي**:

أدن مـــن الـــدن لي فـــداك أبي   واشرب واســق الكبــير وانتخــب
أمــا تــرى الطــل كيــف يلمــع في   عيــون نــور تــدعو إلى الطــرب
في كـــل عـــين المطـــر لؤلـــؤة   كدمعـــة في جفـــون منتحـــب
والصــبح قــد جــردت صــوارمه   والليــل قــد هــم منــه بــالهرب
والجـــو في حلـــة ممســـكة   وقــد كتبتهــا الــبروق بالــذهب

ونحن لن نصرِّح بتشبيه البروق بما ذكر، وإنما أومضنا إليه وأظهرناه في التقرير.

فكــــم لــــه في إثــــر الغــــزال والأيــل والربــرب مــن مجــال

وكــم لــه في طلــب الحبــارى مــن مطــرد في القفــر لا يبــارى

يرســل عنهــا أســفع الخــدين مخضــــب **المنســـــر** واليــــدين

ينظــر نظــرة الملــوك الصــيد لــيس لــه حلــم علــى مصــيد

مــــؤدب معلــــم مــــدرب مكــــرم مهــــذب مقــــرب

أقــول فيــه واصــفا للنــاس كمثــل مــا قــال أبــو نــواس

زيــن لرائيــه وفــوق الــزين ينظــر مــن نــارين في غــارين

كــأن فــوق صــدره والهــادي آثــار **مشــــي** الــذر في الرمــاد

(الأيل) هوالوعل، ويُقال له: تيس الجبل، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

كنــاطح صــخرة يومــا ليوهنهــا فلم يضرها وأوهــىٰ قرنـه الوعــل

والأنثىٰ منه تسمَّىٰ أروية بالضم والكسر، ومن طبع هذا الحيوان أنه يأوي إلىٰ الأماكن العالية الوعرة فإذا أحسَّ بقانص رمىٰ بنفسه من ذلك المرتفع فيسقط علىٰ قرنيه وهما من رأسه إلىٰ عجزه، ثم يزج نفسه فينحدر فلا يضرُّه شيئ، وإذا جُرِح طلب الخضرة التي علىٰ الحجارة فيمتصُّها ويجعلها علىٰ جُرحه فيبرأ، وإذا ضعف عن النزو أكل البلوط فتعود شهوته، ومتىٰ فقد أنثاه وحصل له الشبق امتصَّ منيه بفيه، ويحنو علىٰ ولده حتَّىٰ إنَّه إذا صِيد بعض سخاله تبعه راضيا أن يكون معه، وإذا عجز والداه عن السَّعي اختلف إليهما بالقُوت ويمضغُ لهما إذا عجزا عن المضغ، ويُقال في قرنيه ثقبتين يتنفس منهما، فإذا انسدَّا هلَك، وفيه يقول **أبوالطيب المتنبي**:

وأوفــت الفــدر مــن الأوعــال مرتــــديات بقســــي الضــــال

نــــواخس الأطــــراف للأكفــــال تكــــاد تنفــــذن مــــن الظــــلال

لها لحى سود بلا سبال يصلحن للإضحاك لا الإجلال
كل أثيث بينها مثفال لم يغذ بالمسك ولا الغوال

يرضى من الادهان بالأبوال

وما ذكرناه من كون الأيل هو الوعل اقتدينا فيه **بصاحب القاموس**، والذي في كتاب **طبائع الحيوان** أنهما غيران، وأنَّ الأيل من جملة بقر الوحش، و**الدميري** موافقٌ **لصاحب القاموس**، قال: وهو مولعٌ بأكل الحيَّات، وربما لسعته فتسيل دموعه إلى حفرتين تحت محاجر عينيه يدخل الإصبع فيهما، فتجمد تلك الدموع كالشمع، فيُؤخذ ويُجعل ترياقا لسم الحيَّات والعقارب له في ذلك خاصية عجيبة، وهو يُلقي قرونه في كل سنة إلهاما من الله تعالى لما للناس فيهما من المنفعة؛ لأنهم يطردون بقرنه كل دابة سوء، وييسر عسر الولادة، وينفع الحوامل، ويُخرج الدود من البطن إذا أُحرق جزء منه ولُعق بالعسل، وسئل **ابن دريد** عن قول الشاعر:

هجرتك لا قِلًى مني ولكن رأيت بقاء ودك في الصدود
كهجر الحائمات الورد لما رأت أنَّ المنية في الورود
تغيظ نفسها ظمأ وتخشى حماما فهي تنظر من بعيد
تصد بوجه ذي البغضاء عنه وترمقه بألحاظ الودود

فقال: الحائم الذي يدور حول الماء ولا يصل إليه، ومعنى الشِّعر أنَّ الأَيايِيل تأكل الأفاعي في الصيف، فتلتهب لحرارتها فتطلبُ الماء فإذا رأته امتنعت من شربه، وحامت عليه تتنسمه، ولو شربته في تلك الحال لصادف الماء السم الذي في أجوافها، فلا تزال تمتنع من شرب الماء حتى يطول بها الزمان فيذهب ثوران السم ثم تشرب، فيقول هذا الشاعر: إنِّي في ترك قُربك مع احتياجي له بمثابة الحائمات التي تدع شرب الماء مع

احتياجها إليه، وهو بتشديد الياء على وزن قنب وخلب وسيد، وسكنتها منه ضرورة ولك أن تقول بدله الوعل فإنَّه بسكون العين في أحد لغتيه، والثانية ككتف، و(**الربرب**) قطيع بقر الوحش، و(**المجال**) موضع الجوَلان، واسم مصدره وهو المرادُ هنا، و(**الحبارى**) طائرٌ طويل العنق رمادي اللون في منقاره بعض الطول له في دبره خزانة فيها أبدا سلاح، فإذا ألحَّ عليه الصقر رماه بذلك السِّلاح فينتف ريشه ويكون فيه هلاكه، وهو من أشدِّ الطير طيرانا وأبعدها شوطا ولحمه أخفُّ من لحم البط، وإذا نتف ريشه، وأبطأ نباته مات كمدا، وفيها يقول صاحب (**السلوانة**) يصف في طراد الصقر إياها:

هنالك يلقي الخرب خوفا سلاحه	وهيهات ما السلاح للخرب نافع
ويلجأ لات حين يأويه ملجأ	فلا الأرض تنجيه ولا الجو مانع
وتبصره يحكي أسير فوارس	يجرُّ ذيول الذل يعثر خانع
ذؤابته في كف من لا يقيله	يساق بها للموت وهو يوادع
وتندبه حباريات أَلِفْنَه	بفيفاء مجهل وهن جوازع
يردن الفرار لم يجدن سبيله	ويحشرهن الخرب والخوف رادع
نوائح أعراب على الطفل حلقة	يحاجلن مجنونا لهن تراجع
شققن جيوبا ثائرات الرؤوس قد	جرحن خدودا ما لهن براقع
وصرصر فوقهن باز عرفنه	فأطرقن هيبة وهن فواكع
وحل بهن الويل منه وأصبحت	لهن جُوار حربهن مصارع

وفي هذه (**السلوانة**) يقول:

فمن لم يحركه الربيع وزهره	ولا العود حين تعتريه الأصابع

ولم يتأثر بالسماع ونحوه	ولم يستمله الصقر إذ هو دافع
ولم تستفزه الظباء ولا المها	إذا اعترضت أو ألجأته الضراجع
ولا اهتز إذ رأى الحبارى بدت له	تميس وفوقها البزاة طوالع
فترقص طورا ثم تبدي ذوائبا	وتومي بكميها وطورا تبايع
ولم يدر قط ما الغرام ولا الهوى	ولا موجعات القلب إذ يتوجع
فذلك مختل المزاج حقيقة	ولا شك فيه للحمار طبائع

و(**يبارى**) يُعارض، أي: لا يعارضه أحدٌ فيه ولا يعانده، و(**الأسفع**) الصَّقر، سمِّي بذلك لسفعة في لونه وهي سواد مُشرَبٌ حُمرةً، و(**المخضب**) مفعل من التخضيب، وهو تغيير اللون بنحو الحناءِ والكتم والدم ونحوها، والخضاب ما يُختضب به، ولما كانت جوارح الجارح لا تخلو من دم ما يصيده قلت فيه مخضب، و(**المنسر**) كمجلس ومنبر، منقار الطائر، و(**الصيد**) بالكسر جمع أصيد، وهو الذي يلتفت كبرا، و(**المدرب**) اسم مفعول من دربه على الأمر إذا ضراه عليه، و(**المهذب**) من هذبه إذا أخلصه وأصلحه أي: مخلص الطباع، و(**أبو نواس**) هو **الحسن بن هانئ** معروفٌ، وأخباره كثيرةٌ لا يجمعها هذا المختصر، و(**الناران**) اللتان عناهما باصرتاه استعار لهما اسم النار لتوقدهما، و(**الغاران**) محجراهما، و(**الهادي**) العنق والموصوف بهذه الأوصاف البازي، وهو الذي يسمَّى عند العامَّة بالطير الحر، ولعمري إنه لحرٌّ لعلو همته وسمُو رتبته، وحُسن أوصافه وجلالة أكنافه، وهو خمسة أصناف: المخصوص باسم البازي، ثم الزرق، والباشق، والعفصي، والبيدق، والبازي أحرُّها مِزاجا ومأواه مساقط الشجر العادية الملتفة، والظل الظليل ومصرد المياه، ولا يتخذُ وكرًا؛ إلَّا في شجرة شائكة، ويسقف بيته سقفا يمنعه من المطر والبرد والحرِّ لأنه لا يطابقه الحر ولا البرد، فالواجب في الشتاء أن تقرب

منه النار ليدفأ ويجعل تحت كفيه اللبود ووبر الثعالب، والواجب له في الصيف أن يجعل في بيت بارد النسيم لا سموم به، ويفرش له الريحان والخلاف، وسبيله أن يضرا على صيد الدراج والقبج [كذا] إن كان طويل المنسر، وإن كان قصيره فيضرا على طير الماء ونحوه، وإناث هذا النوع أجرأ على صيد عظام الطير من ذكورها، وإذا كان وقت سفادها غشيها جميع أنواع الطير الضواري، فتبيض من كلِّ ما غشيها، فلذلك تجيء أولادها مختلفة الأخلاق من الجبن، والجرأة، والذكاء، والبلادة، والقوة، والضعف والحسن، والقبح.

والمحمود منه أن يكون طويل العُنُق عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين شديد الانخراط إلى ذنبه طويل الفخذين مسرولهما بالرِّيش غليظ الذراعين قصيرهما عاري أشاجع كفيه متفرق الأصابع أسود المخلب طويل المنسر رقيقه.

وأفخر ألوانه الأبيض، ثم الأشهب وهما لونان يدلان على فراهته، وأمَّا الأسود المنقش الصدر بالبياض والسواد فذلك فيه يدلُّ على الشدة والصلابة، وإن اتَّفق أن يكون مع ذلك أحمر اللون كان نهاية، وهذا كالكميت في الخيل يدلُّ على الشدَّة.

قالوا: وأشرف البزاة الطغرل، ولا يعرفُه غير الترك وهو عزيزٌ جدًّا، وربما وُجِد منه الواحد فيتغلَّب عليه الملوك، ويكون في بلاد الخزر، وفيما بين خوارزم إلى أرمينية، قيل إنَّ مخلبه لا يعقر شيئا إلَّا سُمَّ، وكلما برئ جرحه انتفض.

قالوا: وإذا طالت قوادم الطير، وبَعُدَ ما بين منكبيه، وكان كيِّسًا في نفسه حديد الخلق كثير الالتفات والحركة صغير الرأس وقيل كبيره وقيل متوسطه مدوَّر العينين واسعهما غائرهما فهو أسرع الطيور وأبعدها غاية، وينبغي أن يكون صلب الجناحين رقيق الذنب لم يفضل شيء من ذنبه عن جناحيه ممتلئ الزور عريض الوسط، وأن يكون

ثقيلا علىٰ اليد، وهو أولىٰ من جميع هذه الأوصاف، ولا تجتمع إلَّا معه.

والواجب أن يجنبه سائسه الباب والدخان والغبار والريح في هاجرة، أو اشتداد حرٍّ أو ريح أو بعد غروب الشمس ولا مع وجود عقاب في الجوِّ ولا بالأماكن الصعبة خوفا من أن يتوارىٰ، فلا يقدر علىٰ تداركه بالفور ولا جوار غيضة ولا مع طير ظفر بصيد فجلس يأكل منه ليلا يترك ما رسل عليه، ويشتغل بالأكل مع ذلك الطير فيألفُ ذلك ويتَّكِل علىٰ غيره مرَّة أخرىٰ، ومن عادة هذا النوع أنه إذا أخطأ صيدا وكان في بريَّة لا شجر فيها ولىٰ ممعنا حتىٰ يجد كهفا أو جدارا فيكن فيه، ولهذا يُعَلَّق عليه الجرس ليُستدل علىٰ مكانه إذا أتاه.

والأحمر من البزاة أخبثها لأنَّه فيها كالسوسني من الخيل بعيدٌ عن الفلاح، كذا في كتاب (**الطبائع**)، وانظره مع قول شارح **السلوانة**: «وإذا أردت الفارة فعليك باقتناء الأحمر الشَّديد الحمرة الغائر العينين المشرف الحاجبين الطويل العنق البعيد ما بين الفخذين أمرد الركبتين أبيض الساقين سبط الكفين » اهـ.

وسعة أشداق البازي دالَّة علىٰ قوَّة افتراسه، وانظر صفة تضريته في(**شرح السلوانة**) وأدوية أمراضه في (**تذكرة**) **الأنطاكي**، وفيه يقول **الناشي**:

لمـا تعـرىٰ الليـل عـن أثباجـه ... وارتـاح ضـوء الصبح لانبلاجـه
غدوت أبغي الصيد مـن منهاجـه ... بـأقمر أبـدع في نتاجـه
ألبسـه الخـالق مـن ديباجـه ... ثوبـا كفـىٰ الصـانع مـن نسـاجه
حـاك مـن السـاق إلىٰ أوداجـه ... وشـيا يحـار الطـرف في اندراجـه
في نسـق منـه وفي انعراجـه ... وزان فـوده إلىٰ حجاجـه
بزينـة كفتـه عـز تاجـه ... منسـره يثنـىٰ عـلىٰ أحلاجـه

وظفـــره يخـــبر عـــن علاجـــه لـــو استضـــاء المـــرء في أدياجـــه
بعينه كفته عن سراجه

وقال **أبو بكر بن علي بن حبيش اللخمي**:

وأرســـل مـــن شـــهب البـــزاة معلـــم غدا واقعا في الشهب من خوفه النسر
حيـــي عـــلىٰ هاديـــه صـــفحة مهـــرق مشـــت فوقـــه نمـــل بأرجلهـــا حـــبر
بـــــرىٰ بعطفـــــه ســـــحالة فضـــــة ويرنـــو بأجفـــان يطوقهـــا التـــبر
تـــرىٰ فيـــه مـــن لـــون وعـــين بـــدائعا كـــأن رمـــادا قلبـــت وســـطه جمـــر
ولمـــا اتقتـــه الطـــير خاضـــعة لـــه تبـــين في أعطافـــه الزهـــو والكـــبر
جوارحـــه عنـــد النـــزال ســـلاحه فمن مرهف ظفـر ومـن (؟)...نحـر
يكون ربيء الجيش إن جـاش ريعهـم ويضمن زاد السفر إن سـغب السـفر
ويـــنقض نجـــما مشـــرقا وبكفـــه مخالـــب أمثـــال الأهلـــة تصـــفر
تخـــرم للأمـــلاك فهـــو مخـــرم وذل فجفتـــه الكرامـــة والـــبر
أسر اعتـزاز الـنفس وانقـاد طائعـا فجـوزي مـا يجـزىٰ بـه الطـائع الـبر
وعوض أُنس الإِنس من وحشة الفلا فقـــرَّ بـــه ملـــك وقـــر بـــه قصـــر
وعلَّمـــه قُـــربُ الملـــوك وقارَهـــا فلـــيس لـــه كـــالطير روع ولا نفـــر
رأىٰ سرب طـير كالعـذارىٰ فشـاقه وحسن العذارىٰ للمشـوق بـه عـذر
وتيمـــه مـــنهن رائقـــة الحـــلىٰ بأعطافهـا زهـو وفي لحظهـا سـحر
مـــوردة المنقـــار مخضـــوبة الشـــوىٰ مواطئهـــا جمـــر وموردهـــا خمـــر
كـــأن عليهـــا بُـــردَ وَشيٍ تخايلـــت بـه فأصـاب الأرض أعلامـه الحمـر
وفي النحـر منهـا رقشـة عجـب كـما يفصـــل باليـــاقوت والســـبج الـــدر

مشت مشية الحسناء تُثقِلُها الحلىٰ ... ويسرعها من لحظها الغنج والفتر
شكت من جناح مائل لا تُقِلُّه ... كما من وشاح حائل يشتكي الخصر
ويبهرها الإسراع في طيرانها ... فتدني الخطىٰ كالخود باء بها سكر
ترىٰ لقطت حب القلوب وأمسكت ... فقد دميَ المنقار واختضب الظفر
يقابلها الصقر المدِلُّ بعزِّه ... فيبدو لها عز يَذِلُّ به الصقر
فطورا ترىٰ منه المحاسن جهرة ... كما انجاب عن حسناء في غفلة ستر
وطورا تواريٰ عنها تيها وغفلة ... كما ستر العذراء عن عاشق خدر
ويضعف رعبا خطوها وجناحها ... فيضعف من محبتها الصبر
ويقرب منها مؤنسا وبه هوىٰ ... فتبعد عنه وحشة وبها ذعر
وتوليه صدًّا إن تصدَّىٰ لوصلها ... وشأن الغواني في مُواصلِها الهجر
فيأنف من حكم الغرام وربما ... أذل به ليث الشرى جؤذر غر
ويبصر رق النفس في رقة الهوىٰ ... فيتركه والرق ينكره الحر
وينسخُ بالإغلاظ رحمةَ حبِّه ... وكل كبير النفس لذَّتُه القهر
وُيهدي إليها الجِدَّ بعدَ تلاعُبٍ ... بها مثل ما بالناس يفعله الدهر
فيا قاضيا بين المحِبَّينِ ماضيا ... غدرت وما مِن شيمة العاشق الغدر

وهذه القصيدة غنيَّةٌ بحسنها عن أن يزاد عليها شيء مما قيل في البازي، لعذوبتها ورِقَّة معانيها، حتىٰ كأنها سحر، أو نشوة خمر لا يخالطها سكر، غير أنَّا نذكر شيئا من كلام (**السلوانة**) في وصفه لاحتوائه علىٰ ذكر ما يستحسن في جوارحه، فنقول قال (رحمه الله):

أخي هل ترىٰ الأيام تجمع شملنا ... ونحن علىٰ جُرْد سراع نطالع

لـدىٰ كـل ربـوة وأجـراس طيرنـا		لهـا زجـل مـن فوقنـا وقعـاقع
فنقضي مـن السـلوان بعـض غرامنـا		ونجني جنىٰ اللذات والدهر خاضـع
ونجعــل ذات الجرجــارا كعهــدنا		فـما للاقتنــاص مــاض وراجــع
ونرقــب في ربــىٰ الغمــيم ونخلــة		لكـل صـيود خاضـب الكـف دارع
طويــلُ ثــلاثٍ لا كطــول بُغاثهــا		جنـاح وعنـق ثـم طالـت أصـابع
قصــيرُ ثــلاثٍ مــن زمكّــىٰ وريشــها		وساق يقـوي الرصـع إذ هـو راصـع
رحيـب ثـلاث وهـي مـا هـي كفـه		ومـا بـين منكبيـه والصـدر واسـع
عظــيمُ ثــلاثٍ فخــذه ثــم فخــذه		ومنســره لحــرز مــا هــو صــارع
عليــه ســمات الفتــك إمــا نَظرتــه		أطلـت حواجـب وغـارت مـدامع
طمــوح كثــير الالتفــات مســلط		لأم الســلاح الــدهر منــه فجــائع
ثقيــل متــىٰ يحمــل خفيــف طلوعــه		كـأسرع مـا في السـهم إن هـو واقـع
ظلــوم غشــوم مــن صــقور شــمارخ		لخزانهــا والطــير منــه تــوادع
لــه عُــدَّةٌ مــن نفسِــه في مخالــب		شــديد ســوادها حــداد لواســع
يفــز إلىٰ اليحبــور ميلــين بكــرة		وأكثــر بالأصــيل إن هــو جــائع
بيمنـــاه بـــارق محـــيط بزنـــده		مـن الفضـة البيضـاء كالسـيف لامـع
كــذلك في يســراه ثــان وجلجــل		تلــون بــالإبريز أصــفر فــاقع
إذا انقضَّ خِلت البرق والريح عاصفا		ورعـد بـه زجـل علىٰ الطـير واقـع
دوي جلاجــل ولمــع خلاخــل		وخفـق جنـاح كـل ذلـك واجـع
إلىٰ قهــر غالــب وصــوله ســالب		وهتــك مخالــب إذا هــو ســادع

والصنف الثاني: وهو الزرق بازيٌّ لطيف مزاجه أحر وأيبس، وهو أشدُّ جناحا

وأسرع طيرانا، وأقوىٰ إقداما، وفيه ختل وخبث إذا أرسل علىٰ طائر طار علىٰ غير مطاره، ثم عطف عليه، وأظهر الشدَّة بعد اللِّين، وخير ألوانه الأسود الظهر الأبيض الصدر الأحمر العينين الأرحب الشدق الممتلئ الفخذ الثقيل المحمل الصغير الرأس الواسع العينين الأخضر الرجلين وفيه يقول **ابن المعتز**:

ثم لـه قميص وشي سابغ ومنسر ماضي الشَّباة دامغ

أعقف في حوض الدماء والغ رسول رزق ما يخيب بالغ

يملأ كفيه جناح فارغ

والصنف الثالث: وهو الباشق أحر وأيبس فهو بسبب ذلك هلع قلق ذعر يأنس وقتا ويستوحش آخر، ونفسه قوية خائفة فإذا أنس منه الصغير بلغ منه كل المراد، وكان بازيا خفيف المحمل ظريف الشمائل يحسن بالملك أن يخدمه، ويستخدمه لخفته وحسن خلقه، ولأنَّه يصيد أفخر ما يصيده البازي من الدراج ونحوه، وهو أشدُّ البزاة شبقا، وأنثاه إذا هاجت وقفت علىٰ شرف وصفرت، فيأتيها الذَّكر فيسافدها ثم يحلق طائرا ثم يعود فربما سافدها خمسين مرَّة، فإذا ضجرت شدَّت عليه لتقتله فيهرب، وأحسنه ما كان صغيرا في المنظر ثقيلا في الميزان قصير الفخذين، وفيه يقول الراجز:

لما انجلىٰ ضوء الصباح فانفلق غدوت في ثوب من الليل خلق

بطامح النظرة في كل أفق بمقلة تصدقه إذا رمق

كأنها نرجسة بلا ورق مبارك إذا رأىٰ فقد رزق

والصنف الرابع: وهو العفصي شبيه بالباشق كما أنَّ الزرق شبيه بالبازي؛ إلَّا أنه أصغر الجوارح نفسا وأضعفها حيلة، وأشدُّها ذُعرا وأيبس مزاجا، وربما صاد

العصفور وتركه وهرب لخوفه وحذره، وكلُّ طائر حذر يموت فرقا، ومن طبعه أنه يرصد الطير أيام الحضن، فإذا طار من وَكْرِه خلفه فكسر بيضه ورمىٰ بقشره، وباض مكانه وطار فيحضُنه صاحب الوكر، فهو أبدًا لا يحضن ولا يُرَبِّي.

و**الصنف الخامس**: وهو البيدق لا يصيد غير العصافير، وقلَّما يوجد في نوعه من فيه فائدة، فلا فائدة في جلب وصفه علىٰ أنه قد قيل إنه هو العفصي، فالأنواع أربعة فقط.

فائدة: أوَّل من صاد بالبازي **أخدلق** أحد ملوك الرُّوم الأول، وذلك أنه رأىٰ بازيا إذا علا كنف وإذا سفل خفق، وإذا أراد أن يسمو ذرق، فاتَّبعه حتىٰ اقتحم شجرة ملتفة كثيرة الدغل فأعجبته صورته، فقال: هذا طائرٌ له سلاح يتزين بمثله الملوك، فأمر بجمع عِدَّة منه في مجلسه فعرض لبعضها صيدٌ فوثب عليه، فقال: هذا ملك يغضب كما تغضب الملوك، ثم أمر به فنصب علىٰ كندرة بين يديه، فمرَّ به ثعلب فوثب عليه، فما أفلت منه إلَّا جريحًا، فقال هذا جبارٌ يمنع حِماه، ثم أمر به فضرىٰ علىٰ الصيد واتخذته الملوك بعده.

ومعنىٰ أبياتنا أنَّ الأمير - لا زالت عزماته تنقض علىٰ آراء عداته فتخرِّب مكامنها وتروع آمنها ـ طالما جال في إثر الوحوش من الظِّباء والبقر الوحشية والوعول الجبلية فأراع سربها وأقام حربها وأدرك شواردها وقيَّد طرائدها، فكم له في الفلوات من مجال مشهور ومطرد مشهود، وكم له أيضا من مطرد في أثر الطيور الوحشية من الحبارىٰ، ونحوها لا يضاهيه فيه أحدٌ ولا يعارضه سبقا وإدراكا وظفرا، وقولنا: (**يرسل عنها ... الخخ**)، جواب عن سؤال مُقدَّر كأنه قيل: كيف يطرد الطير مع أنها طائرة ؟ فأجبنا بقولنا: (**يرسل عنها ... الخ**)، وعن بمعنىٰ علىٰ، أي: أنَّه إذا رأىٰ حبارىٰ ونحوها

أرسل عليها بزاة سفع الخدود ألوانها سود مشربة بحمرة مخضبة المناسر واليدين، أي: أنَّ ألوان مناسرها وأيديها مخالفة لألوان أبدانها، فكأنها مخضبة بما غيَّر لونها، أو أنها كثيرة الظفر بالصيد فجوارحها دائما مخضبة بدمائها، ومن صفات هذه البزاة أنها تنظر نظر الملوك المتكبرين الذين لا يكادون يرفعون رؤوسهم كبرا وتيها، وإذا نظر كان نظره شزرا وبصره حذرا، وأنه ظلوم فتَّاك لا يُدركه الحلم ولا تأخذه الرأفة على الأنواع التي يصيدها، وأنه مؤدب معلم غاية، مدرب على صنعة الصيد بالغ فيها النهاية، مهذب الأخلاق حسن الصِّفات على الإطلاق، فلذلك كان مقرَّبا عند الملوك والأمراء، مكرما لدى كل من يتعاطى الصيد من الورى، وهو كما قال **الحسن بن هانئ**: فيه زين لمن ينظره، بل صفاته فوق كل زين، كأنَّ عينيه في توقدهما وغؤورهما ناران يتقدان في وسط غارين غائرين، وكأنَّ فوق صدره وعنقه من ترقش ريشه أثر أرجل ذر مشى فوق الرماد، ثم وطئ ريشه فبقي أثر ما ابيضَّ منه بين سواد وبياض على صفة الهمز الصغير الدَّقيق الكتابة.

هذا معنى الأبيات وفي جميع ألفاظها إشارة إلى صفات البازي المحمودة، فقولنا: (**أسفع الخدين**)، يشيرُ إلى لونه، وقولنا: (**مخضب ... الخ**)، يشير إلى لون منسره ويديه وكثرة افتراسه الصيد، والبيت الثاني يشير إلى كِبره وصفة نظره وفتكه، والذي بعده يشير إلى أدبه وكيفية تأديبه وتدريبه على الصيد وتهذيب أخلاقه والمحمود منها وتقريبه وإكرامه عما يهينه، وببيتي أبي نواس أشرت إلى صفة عينيه وريشه إلى غير ذلك، وأغنانا عن كشف القناع عما أشارت إليه الأبيات ما قدمناه أوَّلا من محمود أوصافه إذ ذهن اللبيب لا يخفى عليه وجه استنباطها منه.

وفيها الجناس اللاحق في غير موضع، والناقص، والاشتقاق، والترديد،

والتصحيف، والتصدير، والتوشيح، وتنسيق الصفات، والتسميط، وإن قرأت البيت الخامس هكذا:

مــؤدب معلــم   مــدرب مهــذب

كان بيتا من مجزوء الرمل، وكذلك إن قرأته هكذا:

معلــم مــدرب   مهــذب مكــرم

أو هكذا:

مــدرب مهــذب   مكــرم مقــرب

وكلما خالفت بين أجزائه بالنقص والتقديم والتأخير خرج بيتٌ من ذلك فهو من النوع المسمَّى عند البديعيين بالتشريع، وفيها حسن التضمين.

حتــى إذا تم لــه كــل الأرب   من الوحوش العاديات والخرب
آب لـــدار جمـــة المواكـــب   كـــأنهم في أفقهـــا كواكـــب
حجــت لهــا شواســع الآمــال   وعكفــت بهــا أولــو الأعمــال
وضـــيقت رحيبهـــا العُفـــاة   وهـــي الـــتي أوســعها البنــاة

(**الخرب**) بالتَّحريك ذَكَرُ الحبارى، و(**المواكب**) جمع موكب، وهو الجماعة ركبانا أو مشاة، و(**الأفق**) الناحية، و(**الشواسع**) جمع شاسع وهو البعيد، و(**الآمال**) جمع أمل، وهو الرَّجاء، و(**الأعمال**) جمع عمل، وهو الوِلاية للسلطان على بعض النَّواحي، أي: أولو الولايات من القُوَّاد وغيرهم، و(**الرحيب**) المُتَّسِعُ، و(**العفاة**) جمع عافى ومعتفى، وهو طالب المعروف، و(**البناة**) جمع باني.

والمعنى أنه ـ أَيَّده الله ـ إذا تَمَّ له مقصوده من صيد الوحوش آب، أي: رجع لدارٍ له كثيرة المواكب والجماعات من كل جنس، فكأنها لعِظمها فلكٌ، وهم في أرجائها

لكثرتهم كالكواكب التي لا يُحاط بحِسابها، ولكثرة ما يُجتنىٰ منها من الفوائد، ويُلتقط من الفرائد، وتُنال من الآمال، وتقضىٰ بها من الحوائج علىٰ التفصيل والإجمال، قصَدَتها الأمال البعيدة، أي: أَمَّلَ معروفها الناس علىٰ بُعدٍ منها، وعكف بها، أي: لازم أعتابها أهل الولايات وطالبُو الأعمال من كلِّ وجهة، وكثر طالبو المعروف فيها حتىٰ ضاق متسَعُها بهم، وهي التي بالغ بُناتها في توسيع رِحابها حتىٰ صارت كالفضاء الفَيَّاح، ومع ذلك فقد ضاقت بما ازدحم فيها من أهل الطلب والامتياح.

وفي هذا البيت إيماء إلىٰ التنكيت علىٰ القائل:

رحب المنـازل مـا أقـام فـإن غـدا   في جحفل ترك الفضاء مضيقا

فإنَّ هذا البيت بلغ الغاية في وصف ممدوحه بكثرة الجنود والأتباع، غير أنه يدلُّ علىٰ عدم كرمه لاتِّساع منازله، وعدم ازدحام العفاة بها لما علمت أنه إنما ادَّعىٰ ضيق الفضاء بكثرة أتباعه لا بأمر آخر، فاقتضىٰ ذلك أنَّ منازله رحبت بقلَّة الناس بها إذ لو كثروا لضاقت وإن بلغت ما بلغت، وأين هي من الفضاء، ولا يُقال إنَّ مُراده منازل عِياله، وهي لا يصلها العفاة إذ لا كثير تحت وصف منازل حرمه بالاتساع، وهذا إنما أوجبه قوله: (**ترك الفضاء مضيقا**)؛ لأنَّه أراد به أنه ضاق بكثرة الأتباع، فاقتضىٰ ذلك أنَّ منازله رحبت بقِلَّتهم، ولولا ذلك لقلنا إنه مدحه باتِّساع منازله للواردين، فهم يحلون منها متسعا مثل الصحراء، غير أنه سكت عمن يحلُّها للعلم به إذ لا توسع إلَّا لكثرة من يعتريها.

وفي الأبيات: الجناس المضارع واللاحق، والتورية بـ (الحج والاعتكاف)، إذ هما غير مقصودين، وإنما المراد بالحج: القصد، وبالاعتكاف: اللزوم، وفيها الطباق.

أقســـــم بالمجـــــد وبالعليـــــاء	**ومرتقـــى الســـيادة القعســـاء**
أن الأمــــير مـــا لـــه نظـــير	**لأنَّ روض فضـــــله نضـــــير**
جـــودا ومجـــدا وعُـــلاً ومحتـــدًا	**ومنصـــبا بعـــزة قـــد ارتـــدى**
تســـأل منـــه إن ســـألت أعظـــم	**لا يمـــنح البـــذل بكـــف أجـــذم**
يـــولي اللـــهى ويشـــمل البرايـــا	**عنـــد اشـــتداد المحـــلِ بالعطايـــا**
أموالــــــه عاريــــــة لديــــــه	**حكــــم في تبديـــدها يديـــه**
فمـــا لقلبـــه بهـــا تصـــرف	**ولا لعينـــــه لهـــــا تشـــــوف**

(**المجد**) نيل الكرم، و(**العلياء**) هي العلى، وهو كسب الشرف والمكارم، و(**القعساء**) الثابتة، و(النظر) بالمشالة المثل، وبالضاد الناعم الخضرة، ويُبالغ به في سائر الألوان، فيُقال: أخضر نضير، وأحمر نضير، وأبيض نضير أي: ناعم، و(**المحتد**) الأصل والطبع، (**المنصب**) المراد به هنا الرُّتبة، و(**ارتدى**) جعله رداءً، و(**الأجذم**) المقطوع بعض الجوارح، و(**اللهى**) جمع لهوة وهي العطيَّة، و(**المحلُ**) الجدب والشدة، و(**العارية**) معروفةٌ، وهي هنا مشبه بها بحذف الأداة، أي: كالعارية، وقد بينَّا وجه التشبيه بقولنا: (**حكم ... الخ**).

والمعنى أنَّني أحلف بكل وصفٍ ترفع به الأقدار، وتعنو للموصوف به ذوو الأخطار، من المجد الأثيل، والعلياء التي هي كسب الشرف الأصيل، ومحلِّ ارتقاء السَّادات للاتصاف بالسيادة الثابتة الراسخة، وهذا لعمرى قسَمٌ أكيدٌ، وحَلِفٌ شديد، أنَّ الأمير المشهور، الذي أَقَرَّ بفضله الجمهور- لا نظير له في أوصافه السنيَّة، ومآثره العليّة؛ لأنَّ فضله كالروض الناعم الكثير الأزهار، كيف وقد جمع بين الجُود الذي لا يدانيه أحدٌ فيه ولا يُماثله، والمجد الأثيل الذي لا يضاده أمير فيه ولا يشاكله، وكرم

الأصل والطبع، والمنصب العالي الذي أجلسه على منصة الرفع، وأكسبه من العِزِّ والمهابة ما ارتدىٰ به واتَّزر، وشاع به واشتهر، ولأجل جوده وكرمه كان إذا سأله أحدٌ فإنما يسأل جوادًا عظيما، وعظيما كريما، يمنح البذل، أي: العطاء بكف بسيطة مديدة غير جذماء، بل هي طويلة بالأيادي، زائدة في الكرم على سائر الأيدي، يولي العطايا الوافرة، ويشمل بها سائر الناس عند المحلِ والجدب الشديد، واحتباس من الله عن العبيد [كذا]، فما بالك بأوقات الرَّخاء كالعارية التي لم يستقر ملكه عليها لعدم بقائها عنده وكثرة دفعها لسائليها، فإنه حكَّم فيها يديه لتبددها وتشتتها، ولم يحكِّم فيها قلبه فيكون حريصًا على جمعها شحيحًا بها مانعا من إخراجها، بل قطع تصرف قلبه فيها وتشوف عينيه إليها بالكلية، وأرسل عليها يديه.

وهذا المعنىٰ لم أر من تقدَّمني إليه، وهو عجيبٌ مؤذن بعدم هلعه وحرصه وحبِّه للمال، وكثرة جوده وأفضاله بحيث إنَّ الأموال عنده بمثابة التراب، لا تساوي شيئا.

وفي الأبيات: القسم، والجناس التام واللاحق، والاشتقاق، والتجريد في موضعين، الأول: (**تسأل منه أعظم**) جردت منه شخصا أعظم، والثاني: قولنا: (**لا يمنح البذل بكف أجذم**)، إذ مفهومه أنه يمنحه بكفٍّ تامِّ الأعضاء طويل اليدَين، وهذا الطويل اليدَين مجرَّد منه، وهو مثل قول الشاعر:

يا خير من ركب المطيَّ ولا يشرب كأسا بكف من بخلا

وفيها: التتميم، وحسن الاختراع، وفي الأول مُراعاة النظير.

ترشد من رام الهدى يمناه وقد تُضِلُّ من غوى يُسراه
وفيهما للمقتفي موارد ومهرق الدم لمن يعاند
براثن في أصلها عناصر وهي إذا قبّلتَها خناصر

لـــو لم تكـــن عناصـــرا أناملـــه   مـــا كـــان لا يظمـــا قـــط آملـــه
وقــد غــدا كالليــث في الإقــدام   والبأس أمسى الليـث ذا إحجـام

(**مهرق الدم**) محلُّ إهراقه أي: صبه، و(**البراثن**) جمع برثن كقنفذ، وهو مخلبُ الأسد، أو هو له كالأصابع للإنسان، ويُطلق أيضًا علىٰ الكَفِّ والأصابع مطلقًا، و(**الخناصر**) جمع خنصر، وهو الإصبع الوسطىٰ، أو الصغرىٰ علىٰ المتعارف، ومرادي بها هنا جميعها من باب إطلاق اسم البعض علىٰ الكل، أو اسم الجار علىٰ مجاوره، و(**الإقدام والإحجام**) ضدان، الأوَّل التقدُّم إلىٰ الأقران في مواطن الحروب، والثاني التأخر عنه والهرب منه.

والمعنىٰ أنَّ كفَّي الأمير المذكور جامعتان للخير والشرِّ، والنفع والضُرِّ، فمن كان يريد الهدىٰ والفلاح، والرشد والصلاح، أرشدته لمقصده يمناه، وبلغته ما تمنَّاه، ومن كان غاويا زائغا راغبا عن الحقِّ أضلَّته عن مراده يُسراه، وأظلمت سبيله فيبقىٰ حائرا خائفا خائبا، وفيهما أي: في كفيه لمن جاء يطلب المعروف موارد طيبة، ومشارب صيِّبة، تثلج الصَّدُر وتشرحه، وتُنعش القلب وتصلحه، وأمَّا من كان معاندًا للشَّريعة محادًّا لله ورسوله خارجًا عن الطاعة، فإنَّ فيهما له إهراق دمه، وسفكه، وكشف حرمه وهتكه، فأصابعهما بسبب هذين الأمرين مخالبُ أسد تجري من أصولهما عناصر للندىٰ والكرم منها تلك الموارد العذبة والمشارب الطيبة، غير أنك إذا قبَّلتهما وجدتهما أصابع كغيرها لا مخالفة لها للأصابع الحسنة؛ إلَّا بما تضمنت من الصفتين المذكورتين، وهما الكرم الذي صارت به كالعناصر، والفتك الذي أمست به كالبراثن، ثم أخذت عناصر يجري من جميعها زلال الجود ما كان من أمله لا يظمأ أبدًا متىٰ وفد عليه وكرع في أنهار جوده الفائضة من أنامله المذكورة، فلما كان بهذه الحالة من كونه لا يظمأ أبدًا علمنا أنها

عناصر طيبة الماء هنية المشرب، وهذا كلُّه من باب التمثيل، وإلَّا فالمراد أنَّ آمِلَه لا يفتقر أبدًا بسبب ما يستفيد من مواهب يديه فكأنه شرب من عين هنيَّة لا يظمأ شاربها أبدا، ومن دلائل كون أصابعه براثن أسدية أنه هو صار أسدا بدليل أنه منذ شاع له من الإقدام في مواطن الحرب والشدَّة والبأس في غيرها ما فاق به الأُسُود أمست الأسود ذات جبن وإحجام في المواطن التي كانت مشهورة فيها بالشجاعة، فثبت بذلك أنه لا تغلبه الأسود، ولا تدانيه في شجاعته التي قطع بها أوداج الحسود، وحيث كان أسدا لزم أنَّ أصابعه براثن، إذ لا يكون الأسد بدونها، ومعنى البيت الرابع والثالث لم أقتد فيه بغيري، وهو نفيسٌ.

وفي الأبيات: المقابلة بين (ترشد) و(تضل)، و(من رام الهدى) و(من غوى)، و(يمناه) و(يسراه)، فهي من مقابلة ثلاثة بثلاثة، وفي الثاني مقابلة اثنين باثنين، وفي الخامس مقابلة ثلاثة بثلاثة أيضًا، وفيه حسن التعليل كما في الرابع، وفيها التمثيل، والجناس المضارع، والناقص، والتقسيم، وبالجملة فقد احتوت على تقسيمَين، وجِناسَين، وتمثيل، وثلاث مقابلات، فيها ثمان طباقات.

ذاك الـذي تمـت لـه الأوطـار ... في الملـك إذ دانـت لـه الأقطـار
مـؤمِّن الخـائفِ مِـن سـواه ... وذاعـرُ الآمـنِ إن نـواه
محمـد سـليل عثمـان الأجـل ... لا زال محبـوًّا بتطويـل الأجـل
تُهـدى لـه نفـائس المواهـب ... مـا رفعـت عـن أفُـقٍ غياهـب

قد يشير الإنسان إلى القريب إشارته إلى البعيد تنزيلا لبعد درجته، ورِفعة قدره منزلة بُعدَ المسافة، وإشارتنا له لئلا يتوهَّم السامع أنَّ المراد بالأَمير في قولنا: (**إنَّ الأمير ... الخ**) غيره، و(**الأوطار**) جمع وطر، وهو الأرب والقصد، و(**الأقطار**) جمع قطر

بالضم وهو الناحية، و(**ذاعر**) اسم فاعل من ذعره إذا خوفه، و(**المواهب**) جمع موهبة وهي العطية، والمرادُ العطايا الإلهية، و(**الغياهب**) جمع غيهب وهو الظلمة.

والمعنىٰ أنَّ المراد بهذا الأمير الذي متعنا الأسماع بذكر فضائله، ونشر بعض محاسنه ولطف شمائله، وهو الأمير الذي كملت له جميع المقاصد، والأغراض المبتغاةُ من الملك بالعِزِّ والنصر، فما مِن رتبة [إلا] نالها وتردَّاها، وما مِن يد إلَّا أنالها وأسداها، وقد كمل له ذلك حين دانت له جميع الأقطار والنواحي المتصلة بإيالته، وسرىٰ حكمه فيها، وجرىٰ سماحه [كذا]، فصار محكما في جميعها غالبا علىٰ أهلها يؤمن جميع من آوىٰ إليه خائفا من سواه بحيث لا يتعلَّق بتخويفه أمل، ولا ينجح لمن طلبه عمل، ويروع من كان آمنا في سربه إذا قصده وتصدَّىٰ لإزعاجه، ألا وهو المفضل الأفضل، والمبجل الأكمل، السيد **محمَّد بن عثمان** المشهور بالجلالة ورِفعة القدر، وكثرة المحاسن بين البشر، المتقدِّم ذكره أول القصيد وغير ما موضع منه، أسأل الله تعالىٰ أن يحبوه من عطاياه نفائسها النافعة دنيا وأخرىٰ في كل يوم ولدىٰ كل [كذا]، ويخصه بطول الأجل ودوام الحياة زمانا زائدا علىٰ المعتاد، وأن يهدىٰ صباح [كذا] حين ترفع الظلمات عن الآفاق، أي ما انتبه من نومه إلَّا وجد مواهب ربِّه مهداة إليه مجموعة له من سائر أنواعها، محتوية علىٰ كل خير دُنيوي وأخروي.

آمين آمين آمين لا أرضى بواحدة   حتىٰ أجيء بألف ألف آمين

وفي الأبيات: الجناس اللاحق والتام، والمقابلة.

فهو الذي أهدى إلى الاسلام   عقيلة بعيدة المرام
لو رامها نمروذ كنعان لما   ألفى لأن يرقى إليها سلما
ولو دنا من سورها هولاكو   لعمه وجنده هلاك

وجـــده جنكـــز لـــو أتاهـــا لجــــن في أرجائهـــا وتاهـــا
تـــذود عـــن ســـاحتها أبـــراج كأنهـــا في جوهـــا أبــــراج
تمنعهـــا مـــــدافع عظـــــام تخـــر مـــن أصـــواتها الأهـــرام
تفضـــح مـــن عشـــاقها الســـرائر وقـــد تشـــق مـــنهم المرائـــر

(العقيلة) الكريمةُ المُخَدَّرة ومن كل شيء أكرمه، و**(المرام)** الطلب كالروم، و**(نمروذ كنعان)** هو الجَبَّار الذي أرسل الله إليه سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، وأخباره مشهورةٌ وفي القرآن كثيرٌ منها، وقد بلغ من تمرُّده أنه أراد أن يقتل الباري تعالى علوًّا كبيرا عن كل ما يعتقده السُّفهاء، فربَّى أربعة أفراخ من النسر، فلما كبرت اتَّخذ تابوتا له أربعة زوايا، وبابان أحدهما من أسفل والآخر من أعلى، وقعد فيه مع غلام له، ونصب خشبا في زوايا التابوت وجعل فوقها لحما، وربط بجوانبه النسور بعد أن جوَّعها وقصر من حبالها بحيث لا تصل اللحم، ثم خلاها فطارت طمعا في اللحم حتى مضى يومها ذلك وأبعدت في الهواء، فقال لغلامه افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء، ففتح ونظر فإذا السماء على حالها، ثم نظر إلى الأرض فإذا هي مثل اللجة والجبال مثل الدخان، ثم تركها فطارت يوما ثانيا، ونظر فإذا السماء كهيئتها والأرض سوداء مظلمة وحالت الرِّياح بين النسور والطيران، ونودي: أيها الطاغي أين تريد ؟ فرمى بسهم فعاد إليه مخضبا بدم طائر أصابه استدراجًا من الله تعالى، فقال: كفيت إله السماء، وأمر صاحبه أن يصوِّب اللحم إلى أسفل، فهبطت النسور تبتغيه فسمعت الجبال هفيف التابوت والنسور ففزعت، وكادت أن تزول وظنت أن قد حدث أمرٌ من السماء، أو قامت القيامة، قالوا: فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ (إبراهيم: 46) على قراءة **ابن مسعود**: ﴿وإن كاد﴾،

بالدال، وهذا هو السلم الذي أردته بقولي: (**لما ألفى لأن يرقى إليها سلما**)، و(**كنعان**) هو ابن سام بن نوح عليه السَّلام يُطلق علىٰ أبنائه كما أُطلق مضر علىٰ جميع أبنائه، فيُقال لقريش مضر، و(**هولاكو**) آخر ملوك التتار الذين أهلكوا الحرث والنسل، وقطعوا الفرع والأصل، وعاثوا في البلاد، واحتووا علىٰ الطريف والتلاد، حتىٰ ضجَّ منهم الإسلام، لما كادوا يطمسون منه جميع الأعلام، وهو **هولاكو بن تولي بن جنكز خان**.

وأصل هؤلاء التتر من بقية يأجوج وماجوج الذين خرجوا عن مبنىٰ السد، فكانوا يسكنون بقفار الشرق، فسمُّوا بالترك لكونهم تركوا عن دخول السد، وبذلك تعلم أنَّ هؤلاء القوم الذين لهم الطاعة اليوم بأكثر البلاد الإسلامية ليسوا هم الترك علىٰ الحقيقة، بل كانوا أعداءً لهم محاربين لجنودهم العائثة في سائر أحيائهم بدليل أنَّ **تيمورلنك** أَسَرَ **بايزيد بن عثمان** أعدل الملوك العثمانية (رحمه الله) ومات في أسره، وقد كان هؤلاء التتار مبددين في الصحاري مسيرة بلادهم نحو الثمانية أشهر من الشرق إلىٰ الغرب، وما يقرب من ذلك عرضا، فكانوا كالحيوانات السائمة والوحوش الهائمة لا ملك لهم يعتمدون عليه، ولا دين يهرعون إليه، بل منهم مَن يعبد الشمس، ومن يعبد النجوم، والحجارة، والأوثان، إلىٰ غير ذلك، وملبسهم جلود الحيوانات من الكلاب، والذئاب، والثيران، وما زالوا علىٰ ذلك إلىٰ أن نشأ فيهم **جنكز** ـ لعنه الله ـ وكان ذا رأيٍ وحزم ودهاء وعزم، فجمع شتاتهم وقوَّىٰ شوكتهم، وكان أصله من قبيلة منهم تسمَّىٰ **قتات**، فنشأ بطلا شجاعا مصيب الرأي كثير الدهاء، واتصل بملك الخطىٰ المسمىٰ بأونك خان، وكانت ممالك الخطىٰ أحد حدود بلادهم فغلب علىٰ قلب أونك حتىٰ حسدته خاصَّته وأولاده، فسعوا في النميمة فيه إلىٰ أن أوغروا صدره عليه، فصار ينظر كيف يقبضُ عليه لكونه كان كثير القرابة والأتباع، له منهم ما يزيد علىٰ عشرة آلاف،

ثم إنه عيَّن له طائفة من خاصَّته أمرهم أن يُبَيِّتُوه في ليلة معينة، فأخبره بذلك غلامان صغيران للملك لا يُؤْبَهُ بهما، فأخذ حذره فلما كانت تلك الليلة وهجموا عليه وجدوا مكانه خاليا منه، ثم ظهر لهم فقاتلهم بمن معه فكسرهم حتى فرَّ الخان بمن معه، واستولى هو على جميع ما كان معه من الخزائن، ففرَّقها على كُلِّ من حضر معه حتى المرأة والصغير والواقف للنظر، ولم يأخذ من ذلك ـ مع كثرته ـ شيئا، ثم إنَّ الخان لاقاه بمن انضم إليه، ومن حشده مرتين انكسر الخان في الأولى وقُتِلَ في الثانية.

وتقرَّر جنكز خان في المملكة، وجعل كل واحد من الغلامين اللذين أخبراه **ترخانا**، وذلك عبارةٌ عن كونه مطلق التصرف مَقضيَّ الحوائج لا يجرى عليه حكم، ولا يقام عليه حدٌّ يدخل على الخان متى أراد من غير إذن، وكلما سأل أخذ، ويكتب له بذلك مناشير تلحق التاسع من أولاده، ثم إنه راسل سلطان الصين يطلب منه المصافاة والمهاداة، فأعرض عنه اعتمادًا على عزِّه وجنوده فغزاه بأمم لا تُحصى، فأباده واستصفى خزائنه وملك بلاده، وكتب إلى جميع الملوك التتارية بترك ما هم عليه من الإفساد والعُتُوِّ فأذعنوا لأمره وانقادوا لحكمه، فحصل في بلادهم الأمن بعد الخوف، والعدل بعد الجور، وشرع لهم دينا اخترعه، ومنهاجا خبيثا ابتدعه، منه أنَّ السارق يجب صلبه، فإذا نهَب قطعت يداه ويُؤخذ ماله وتسترقُّ أولاده.

ومن خُرَافَاته أنَّ من مات عن زوجه كان أمرها بيد أقارب زوجها إن شاؤوا خصُّوا بها واحدًا منهم، وإن شاؤوا زوجُوها ممن أحبوا، ومنها عدم العِدَّة، وعدم انحصار الزوجات في عِدَّةٍ، ومنها العمل بشهادة الجواري والصبيان، ومنها امتثال أمر السلطان على الفور.

ومنها إيجابُ ما لم يلزم من الهدايا، فلو تبرَّع أحدٌ على غيره بشيء بقي عادةً واجبة

عليه يدفعها له متىٰ جاء ذلك الوقت، ومنها الجثوُّ بين يدي الحاكم علىٰ الرُّكب وقت التحاكم.

ومنها مطالبة الجار بالجار ومعاقبةُ البريء بالجريء، ومنها ألَّا يتقدَّم الوضيع علىٰ الشَّريف.

ومنها العمل بما يقتضيه العقل، ومنها منع عفو الحاكم عن الظالم، وإن عفا عنه المظلوم، ومنها العمل بقول من سبق بالشكوىٰ وإن كان ظالما.

ومنها خنق الزاني وإن شهد عليه واحدٌ فقط.

ومن أخسِّها أنَّ من رفع من ثوب أحد قملة فإن ردّها إلىٰ صاحبها برئ، وإن قتلها رفعه إلىٰ الحاكم، وقال له إنَّ هذا عمد إلىٰ حيوان ربيته بين سحري ونحري، وغذيته بدمي فقتله، وأضاعه من غير ذنب فيأخذُ له بحقِّه.

ثم وضع لهم خطا اخترعه أيضًا علىٰ صفة مخصوصة لا طائل تحت إثبات صفته هنا، وأمرهم أن يتعلَّموه ويحفظوا هذه السيرة التي انتخبها لهم، وعلَّمهم كيفية المراسلات، والمخاطبات، والتوقيعات وغيرها، وكتب جميع ما قرَّرَه بالقلم الذي سطره، وأمر بذلك المكتوب فلُفَّ في أثواب الحرير، ورُفع في خزانته يتوارثه الملوك من بعده، ويقفُوا عند حدِّه، وسمَّاها **التورة**، وتفسيرها **الملة المأثورة**، وصاروا إذا مات ملكهم اجتمعوا من كلِّ جهة، واشتوروا بينهم فيمن يُوَلُّونه المملكة، فإذا وقع الاتفاق علىٰ أحدٍ وضعوه علىٰ لبد أسود ورفعوه إلىٰ السرير، كل أمير كبير رافع أحد زوايا اللبد الأربعة، وهو يصيح بهم: أيها الرؤساء، إني لا أقدر علىٰ تحمل مشقة ملككم، فيقولون: بل تقدر، ويُجلسونه كُرْهًا.

ثم يُؤتىٰ **بالتورا الجنكزخانية** معظمة، فينهضون إعظاما لها، ويتبرَّكون بمسِّ أثوابها، ثم ينصتون فيقرؤُونها ثم يبايعون علىٰ إقامتها، ويُبايعهم علىٰ امتثال أحكامها، ثم يحضرهم الخمر وآلاته، فيدير عليهم الكاسات، وينثر عليهم من الخزائن جملة وافرة من المال، ويخلع عليهم الخلع والتشريفات والإنعامات، وجرت هذه العادة في جميع ممالك الشرق من الخطا، والدشت، والصين والمغول وغيرها، ولم يكن **جنكزخان** متقيِّدا بدين، بل كان يُعَظِّمُ علماء كلِّ أمة ويحترم كل ملة، ولقد كان أولاده مختلفي الأديان، فمنهم المسلم، واليهودي، والمجوسي، وغيرهم، واتَّسعت مملكته وكثرت جنوده حتىٰ ملك الأمصار، ودوَّخ البلاد، وملك ما لم يكن يملكه الأكاسرة ولا القياصرة، وسبب تسلُّطه علىٰ بلاد الإسلام أنه لما تمهَّدت بلاده، وقويت شوكته قصد بلاده نفرٌ من تجار بلاد ما وراء النهر، ومعهم من أنواع المتاجر والأقمشة ما يليقُ بالملوك، فأكرم نزلهم وأحسن إليهم غاية، واشترىٰ منهم قماشهم بغاية مُنَاهم، ثم أمر بهم فأُدخلوا إلىٰ خزائنه فشاهدوا بها من المتاع ما أدهشهم، فقال لهم: لتعلموا أنَّا ما بايعناكم فأرغبناكم لكوننا جاهلين بالقيم، أو لعدم المتاع لدينا، وإنما فعلنا بكم ذلك لأمور منها:

أنَّكم أضيافنا وفضلنا يقتضي إكرام الضيف، ومنها أنكم مسلمون، والمسلمون لهم عندنا منزلة، ومنها أنَّا أردنا اشتهار اسمنا في البلاد، ومنها أنَّا أردنا جلب التجار إلىٰ بلادنا إذا سمعوا بإحساننا، ومنها أنكم أملتمونا فوجب أن نُوَفِّي أملكم.

ثم سرَّحهم فذهبوا شاكرين له، ثم أمر كل واحد من أمرائه وأكابر بلاده أن يُجَهِّز إلىٰ الجهات الإسلامية ببضائع من أمتعة الخطا والصين في صفة التجار ليتعاملوا مع الناس، ويتَّسِع لهم في البلاد ذكر، فامتثلوا أمره، وجهَّزوا قافلة كبيرة فيها نحو أربعمائة

وخمسين إنسانا كلُّهم مسلمون، وكتب لهم مراسيم بإكرام نُزُلِهم في الدُّروب والسبل ذهابا وإيابا، وأرسل معهم إلىٰ السلطان قطب الدِّين أرسلان شاه بن محمَّد بن أنوشكتين تابك الأمراء السلجوقية رسالةً عاطرة يستميلُ بها خاطره، ويسأل منه حسن الجوار، ومراعاة ما تنعقد به المودة بينهما، يقول له: إن كانت الأديان مختلفة فلا بأس أن تكون القلوب مؤتلفة، فلما وصلوا بعض مدن السلطان قطب الدِّين كتب إليه نائبها يقول: إنهم جواسيس تستَّروا بالتجارة، ومعهم من الأموال ما لا يُحصىٰ ولا يعدُّ، فأمره بقتلهم وبعث أموالهم، ففعل وبعث إليه بالأموال فطرحه علىٰ تجار بخارىٰ وسمرقند واستخلص ثمنه بالظلم، وقد كان أفلت من القافلة واحدٌ، فبلغ **جنكز** فأخبره، فغضب.

ثم تثبت وأرسل إلىٰ السلطان رسالة محتوية علىٰ تهديد وتوبيخ، وقد كان السلطان لما قتل أولئك التجار بعث جواسيس إلىٰ بلاد **جنكز** فرجعوا إليه بعد مدة طويلة، فأخبروه بأنَّ جنوده جاوزوا حَدَّ ما يُعَدُّ، وأنهم أطوع إليه من ظله وأنهم إذا حاربوا لم يكن منهم إلَّا الثبات، فالهزيمة عندهم من المحال، فعلم أنه أخطأ ما شاء، وقد كان قبل ذلك بين بلاده وبلاد **جنكز** قوم من التتر منهم مسلمون، ومنهم عباد الأوثان وغيرهم، فغزاهم، وأبادهم، وأبدلهم بغيرهم ممن اتخذهم أنصارًا، فكانوا عليه أعوانا، ولما ملك أولئك الذين بينه وبين **جنكز** فرح الناس، وزينت البلاد وكان في نيسابور عالمان فأقاما العزاء، فسئلا عن موجب ذلك مع ما حصل للمسلمين من الهناء، فقالوا لهم: أنتم تَعُدُّون هذا الثلم فتحا، وإنما هو مبدأ الخروج وفتح سَدِّ يأجوج ومأجوج، فنحن نقيم العزاء علىٰ الإسلام والمسلمين ـ ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين ـ.

فلما فعل السلطان ما فعل، ورجعت إليه رسله بما ذُكِر، استشار بعض فقهاء بلده

يُقال له **الشهاب الخوفي**، فقال له: إنَّ في عساكرك كثرة فاجمعها، وتوجَّه بها إلى نهر سيحون، وحصن أطراف بلادك واجلس هناك، فإذا قدم عدوُّنا تلقيناه، ونحن مستريحون وهو قد أثر فيه النصب والتعب لقدومه من بُعدٍ، فنُقاتله على سيحون، فجمع وزراءه وعرض عليهم رأي الشيخ فأبوه لأمر قدَّره الله تعالى، وقالوا: نتركه إلى أن يتورَّط في بلادنا، وهو جاهلٌ بمخارجها فنتلقَّاه فيكون في قبضتنا، وبينما هم كذلك إذ وردت عليهم رُسُلُ **جنكز** برسالته المتقدم ذكرها، يقول فيها: كيف تجرأتم على أصحابي وأخذتم مالي ؟ هل جاز في دينكم أن تريقوا دم الأبرياء وتستحلوا مالهم ؟ وتعادوا من [لا] يعاديكم وقد رغب في ودادكم، وتحرِّكوا الفتن النائمة ؟ أو ما جاءكم عن نبيكم أن تمنعوا الغوي عن السفاهة ؟ أولم يقل لكم اتركوا الترك ما تركوكم ؟! ألا وإنَّ الفتنة نائمة فلا توقظوها، وتلافوا هذا الخرق قبل الاتساع وتقوم الفتن على ساق، وسينصر الله المظلوم على الظالم، فعدى السلطان على كبير الرسل فقتله، ونتف لحى الباقين وردَّ معهم الجواب أقبح رد، ثم سار في أثرهم بجيش جرَّار يريد بلاد التتار قبل أن يصل الخبر، فوصل إلى أطراف بلادهم، فصادف قومًا قد غاب كماتهم لطلب عدو لهم، ولم يبق إلَّا النساء والأطفال ومن لا دفاع له فسباهم، وانثنى راجعا ظنا أنه أدرك غرضا، فلما رجع القوم إلى منازلهم، ورأوا ما حلَّ بهم جدُّوا في أثره حنقين كالسيل المندفع، فلم يشعر إلَّا وقد هجموا عليه، فألوت عساكره وتقاتلوا ثلاثة أيام قابل فيها الجد الجد ولقي الحد الحد، وسالت أودية الدماء ومات من الفريقين ما لم يمكن حسابه، ولما كانت الليلة الرابعة أوقد كلٌّ من الفريقين في عسكره النار، وانثنى راجعا فوصل السلطان **بخارى وسمرقند**، وشرع في تحصين البلاد والقلاع.

وقد علم المسلمون أنهم أُتوا من حيث لا طاقة لهم بالدِّفاع، وتيقنوا حلول البوار

وخراب الديار، وقالوا: إن كان هذا من شِرْذِمَة قليلة، فكيف إن جاء ملكهم بجنوده التي جاوزت الحدَّ وأربت عن العدِّ ؟ ثم إنَّ السلطان ترك في **بخارى** عشرين ألف مقاتل، وفي **سمرقند** خمسين ألفا، وقال إنه يذهب ليجمع الجنود ويستجيشُ المسلمين ويعود، ثم انتقل إلى خراسان وخيَّم بضواحي بلخ، وما زال يضمحل ويتلاشى إلى أن مات في أطراف طبرستان سنة ست وتسعين وخمسمائة، وكان ملكا عظيما جسيما ذا صولة قاهرة ودولة باهرة، فاضلا، عالما، فقيها، نبيها، تملك عراقي العرب والعجم وخراسان، وغالب ما وراء النهر، وخيم أول ملكه بجرجانية خوارزم، وتلقَّب بخوارزم شاه، ولما مات ترك من الأمتعة والقماش الفاخر ما لا يُحصى، ومن الخيل عشرين ألف جنيب، ومن المماليك الملوكية عشرة آلاف، ومن الذهب المضروب عشرة آلاف ألف دينار، وما نفعه شيء من ذلك، بل باد ملكه بأدنى حركة، ونبشوا عنه بعد موته قبره، وقطعوا رأسه، ولما بلغ جنكيز رسله منتوفة لحاهم مقتول رئيسهم، تزعزعت أطواده، واشتدَّ إبراقه وإرعاده، ثم ورد عليه خبر من مات من رعيته في حرب خوارزم شاه فازداد غيظه والتهب شواظه، ثم دخل بيتا خاليا وتضرَّع إلى الله تعالى وشكاه فعل خوارزم شاه، وقال: يا خالق يا قديم إني أردت عمارة بلادك وإنعاش عبادك، فظلمهم عبدك خوارزم شاه وتعدَّى علي وكرر الإساءة ويمرغ رأسا في التراب.

وفي ذلك يقول الشاعر:

تضرع جنكزخان لله ساعة ... وأخلص فيما رامه وهو مشرك

فما خاب فيما رامه من فساده ... وسفك دم في الأرض بالإثم يسفك

فما بال من لله طول حياته ... يوحد بالإخلاص، هل هو يهلك؟

ثم نهض نهضة ذكر بها يوم القيامة، وتوجَّه إلى بلاد المسلمين بالبحار الزاخرة،

فأحلَّ بهم الطامة، وذلك في شهور سنة خمس عشرة وستمائة فوصلوا البلاد، وهي جنة المرتاد، فصيروها أثرا، ولم يبقوا لأهلها خبرا فاحتووا على جند وقراها سنة ست عشرة وعلى ولايات اندكان وفتاكت وخجند وبلاد مرغينان وأطراف تركستان سيرام وتاش، ثم على نسف وإترار وسعناق، فخرَّبوا الجميع واستولوا على ما فيها، وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، ثم وصلوا إلى بخارى مدينة الإيمان، والإسلام، والعلم، والزهد والأولياء، والزُّهاد، والصُّلحاء، والعبَّاد، رابع محرم سنة سبع عشرة، فهرب عنها الجند الذين تركهم السلطان لحمايتها، لما علموا أنهم لا طاقة لهم فأدركتهم طلائعهم يقصدون العبور على جيحون، فما تركوا منهم عينا تطرف.

فوهى أمر البلاد وبعثوا له يطلبون الأمان منه فأجابهم إليه، فتحوا له الأبواب فدخلت جنوده البلد في إثره كالجراد المنتشر، فوجد بقية العساكر قد تحصنوا بالقلعة، فأمر رجاله بردم الخندق بما وجدوه، فجعلوا يأتون بالقماش الرفيع والكتب الجليلة، والمصاحف الشريفة فيرمونها فيه حتى توصلوا إلى السُّور فثقبوه من كل جهة ودخلوا القلعة، ثم مدُّوا أيديهم إلى المخدرات وفجروا بهن ظاهرا، فاجتمعت طائفة من أهل البلد إلى قاضيها وأولاده فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، وجعل الطاغية يطوفُ بالبلد حتى مرَّ بالمسجد الأعظم، ولم يكن ببخارى آنذاك إلَّا جامع واحد عظيم يجتمع فيه ذلك العالم الأعظم كله للصلاة عملا بقول **أبي حنيفة** (رضي الله عنه)، وكذلك الأمر في جميع الأقطار المعمول فيها بمذهبه في الشرق والهند، وغالب البلاد التركية، فقال: أهذا بيت الملك ؟ قالوا: بل بيت الله تعالى، فقال: إنَّ أولى ما أقمنا فيه أفراحنا بيت خالقنا، فدخله بجنوده ودعا بالخمور والآلات من الطبول والزمور، فلعبوا فيه وطربوا وشربوا وصهلوا ونهقوا، ثم أمرهم بتفقد خيلهم وطلب المعاش لها، فلم يكن

إلا كلمحة البصر حتىٰ جاؤوا بالشعير والقمح وأدخلوا الخيل إلىٰ الجامع، وأفرغوا خزائن الكتب، والربعات الكريمة منها في الأرض وجعلوا فيها العلف لدوابهم، وبقيت الكتب والربعات تحت سنابك الخيل تروث عليها وتبول، فإنا لله و إنا إليه راجعون.

ثم أمر بإخراج أهل البلد إلىٰ المصلىٰ فأُخرجوا فَعلا المنبرَ وخطبَهم خطبة تركية قال فيها: إنَّكم ركبتم عظائم الأمور فسلطني الله عليكم، وهذه الأوزار ارتكبها كبراؤهم فعمَّكم البلاء، ثم ضبط أسماء التجار فاستخلص أموالهم، وقال: هذا ثمن أموالي التي طرحها عليكم السلطان.

ثم أمر بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، فامتُثل أمره، ولم يبق من الرجال أحدٌ إلَّا رجل هرب فوصل إلىٰ خراسان فسألوه عن كيفية ما فعلوا بهم، فقال بلسانهم: أمدند، وكندند، وسوختند، وكشتند، وبردند، ورقتند، ومعنىٰ كلامه: هجموا وهدموا وأحرقوا وأزهقوا ونهبوا، وذهبوا، قيل: ولم يُوجد في الفارسية أفصح من هذه الكلمات.

ثم هدم البلد كلها وأمر جنده بالتوجه إلىٰ سمرقند، فتوجهوا بالأثقال والأسارىٰ من النساء والأطفال عراة حفاة، ومن توقف أو أَعيَىٰ قتلوه، فجاؤوا سمرقند وفيها سبعون ألف مقاتل من البلد، وخمسون ألفا من الجنود السلطانية، فخرج أهل البلد لقتالهم فعيَّن اللعين شرذمة للقائهم وأكمن عامة جيشه، فلما تناوشوا القتال هربوا أمامهم، فأتبعهم البلديون لا يثنون حتىٰ أُبعِدوا عن البلد، فخرج عليهم جنده الجرَّار فلم يبقوا لهم أثرا، فلما رأىٰ ذلك الجنود السلطانية ألقوا بأيديهم واستسلموا، فأخذوا منهم عُدَّتَهم ثم غدروا بهم، وفعل بالبلد فعلَه بـ: **بخارى**.

ثم وجَّه ولديه لأخذ خوارزم فأخذاها بعد عناء شديد وحروب يشيب منها الوليد واستصفوا أهل الصنائع، فكانوا أكثر من مائة ألف بيت، وفرق النساء والأطفال على العساكر، ثم حصروا القتلى فكانت بقدر ما ينوب كل واحد من جنده أربعة وعشرون، وهدموا البلد ومحوا أثرها.

وتوجه **جنكز** من **سمرقند** قاصدا السلطان حتى أناخ على **ترمذ** و**نخشَبَ**، وكانتا كثيرتي العدة والعدد والآلات الجهادية، فامتنعتا عليه، ثم فتحهما فقتل الصغير والكبير والجليل والحقير، ولم يبق من النساء ولا غيرهن عين تطرف.

ومن غريب ما وقع أنَّ امرأة من أهلهما أرادوا قتلها فطلبت منهم أن يستحيوها على أن تدفع لهم دُرًّا ثمينا، فأرسلوها، فقالت: أُتركوني إلى أن أتبرَّز، فإني قد ابتلعته خوفا منكم، فرفعوا الأمر إليه فأمرهم ببقر بطنها فبقروه فوجدوا الدُرَّ فأمرهم ببقر بطون جميع القتلى.

ثم أمر بهدم الحصون فمُحيت الديار ولم يبق منها ديَّار، ثم عبر جيحون إلى خراسان فعمد إلى بلخ ـ وهي إذ ذاك معقل الإسلام ومجمع الأمم ـ، وقد خرج السلطان مشمرا، فخرج إليه أهلها يطلبون الأمان، فأجابهم إليه، ثم خاف من السلطان جلال الدِّين بن قطب الدين فلم يركن إليهم، بل قتل الجميع كعادته.

ثم أرسل ولده **تولى** لمحاصرة طالقان، فتعصَّت عليه فحاصرها إلى أن أخذها عنوة، وأهلك جميع أهلها.

ثم إنَّ **جنكز** ـ لعنه الله ـ استَوبأَ هواء خرسان، فرجع إلى بلده، وولى ولده **تولى** أمر **خراسان**، وأقام في مماليك **إيران** أميرين مِن أمرائه، ومعهما ثلاثون ألفا من جنوده،

فأهلكا الحرث والنسل، واستخلصا جوين وطوس و**جام** و**حيوشان** و**إسفَراين** و**مازِندران** و**آمد** و**قومس** وغيرها، فمحوا آثارها وعجلوا بوارها.

ثم ظفروا بحريم السلطان خوارزم شاه، قد ضاقت عليهم البلاد، فخرجوا منها خوف الفضيحة، ومعهم من الأموال والخزائن ما لا يعلم قدره إلا الله تعالىٰ، فوقعوا فيما خافوا منه، ولم يشعروا إلَّا وقد تورّضطوا، فاستصفوا ما معهم وساقوا النساء أسيرات حاسرات حافيات، وذهبوا بهم إلىٰ بلاد التتر، وأمرهن أن يجتمعن كل ليلة في الطريق فيبكين أنفسهن، ويذكرن ما كن فيه وما صرن إليه، ويبكين خوارزم شاه، فكنَّ يفعلن كل ليلة ذلك، فيقرحن الأكباد ويبكين الجماد.

ولما أهلك **تولى** أهل طالقان، توجَّه إلىٰ ممالك العجم فملك ما شاء وأهلك.

ثم أغاروا علىٰ غالب عراق العجم فأهلكوا أكثر أهله وخرَّبوا مدنه كمرو ونحوها، وكان عدة قتلىٰ مرو ألف ألف وثلاثمائة ألف وثلاثين ألفا، وذلك في سنة ثمان عشرة، ثم توجهوا إلىٰ شروان فقتلوا أهلها ثم إلىٰ سيزرار فقتلوا من أهلها ما أمكن ضبطه سبعين ألفا، وخرَّبوا جميع الحصون، ثم إلىٰ موقان فقتلوا كذلك، ثم إلىٰ نيسابور ـ وقد كانوا صالحوهم ـ فغدروا بأهلها فتحصنوا عنهم ومانعوهم، وكان بها من آلات القتال ثلاثمائة منجنيق زيادة علىٰ ما بها من المكاحل والمدافع المهلكات بالصواعق ـ كذا وجدته في الكتاب المنقول منه ـ والله أعلم بصحة ذلك، إذ المدافع والمكاحل آلة جديدة والله أعلم - وفيها من رماة السهام ثلاثمائة ألف بطل فحنقوا عليها، فقتل منهم زوج ابنة جنكز ـ وكان من العتاة المعتبرين ـ فاغتاظ عليه أخوها (**تولى**) وزحف إليها بالعساكر فلم تمض غلوة حتىٰ أخذوها عنوة، ودخلوها يوم السبت خامس عشر صفر سنة تسع عشرة، فأعطاها (**تولى**) لأخته عوضا عن زوجها، فحكمت بأن لا تبقىٰ بها

روح، فقتل الجميع حتىٰ الخادم والرضيع، ومع ذلك فقد زعمت أنها لم تأخذ بثأرها ولم يطف لهب نارها، ثم أمر بهدم البلد و إحراق ما بها من العدد.

ثم أثنىٰ العنان إلىٰ **هَراة** فأخذها بالأمان ولم ينج من أمصار خراسان غيرها بقي أهلها تحت جناح الذل والخسف.

ثم إن **جنكز** ـ لعنه الله ـ حضرته الوفاة فجمع أولاده وأوصاهم بوصايا حافظوا عليها، فثبت مُلكُهم ووشجت فيه عروقهم، وانتقل إلىٰ جهنم في رابع شهر رمضان سنة أربع وعشرين وستمائة، وكان ابتداء أمره سنة تسع وتسعين وخمسمائة، واستمرت محنهم علىٰ الإسلام مرسولة، فقد علمت ما فعله ابنه تولىٰ وما خرَّب من القرىٰ والأمصار، ثم قام من بعده ابنه **هولاكو** ـ المشار إليه في القصيد ـ فأهلك ما ملك، ومحىٰ نجوم المسلمين من دائرة الفلك، واستولىٰ علىٰ مدينة الإسلام بغداد، فقسم دروبها علىٰ أمرائه ورسم لبعضهم أن يقتل ويأسر وينهب كيف شاء ثلاثة أيام، ولبعض يومين، ولبعضٍ يوم، كل بحسب رتبته وقدر منزلته.

قال **الصفدي** فيه: «كان طاغية من أعظم ملوك التتار، وكان شجاعا مقداما حازما مدبرا ذا همة عالية، وسطوة ومهابة وخبرة بالحروب، ومحبة في العلوم العقلية من غير أن يتعقَّل منها شيئا، اجتمع له جماعةٌ من فضلاء العالم، وجمع حكماء مملكته وأمرهم أن يرصدوا الكواكب، وكان يطلق الكثير من الأموال والبلاد، وهو علىٰ قاعدة المُغُلِ من عدم التقييد بدين، لكن زوجته تنصرت، وكان سعيدا في حروبه طوىٰ البلاد واستولىٰ علىٰ الممالك في أيسر مدة فتح بلاد خراسان وفارس أذربيجان، وعراقي العجم والعرب، والشام والجزيرة والروم وديار بكر، وأباد الملوك، وقتل الخليفة المعتصم وأمراء العراق وصاحب الشام وصاحب ميافارقين، وعزم علىٰ زواج بنت ملك الكرج

فأبت إلَّا أن يُسلم فأسلم وتزوَّجها على ثمانين ألف دينار، وتوفي بعلة الصَّرع، وهو ابن ستين سنة، عام أربعة وستين وستمائة، وخلف سبعة عشر ولدا، وهم: أبغا، واشموط، وتمشين، وتكسى، واجاى، ويستر، ومنك وتمر ـ الذي التقى هو والمنصور قلاون على حمص وانهزم ـ جرى أوباكودر، وأرغون، ونغاى دمر، والملك أحمد وغيرهم، وكان القان الأكبر في أيام **هولاكو** أخوه منكوقا بن تولى، فلما هلك جلس على التخت بعده أخوه فبلاى، فطالت دولته ومات في خان بالق سنة خمس وتسعين وستمائة، فهولاكو إنما كان سلطانا تحت أخويه، ولما هلك قام في السلطنة بعده ابنه أبغى فطغى وبغى، ثم بعده أخوه أرغون، ثم بعده ابنه قازان، ثم بعده ابنه عثمان وأخذه فمات في أسره سنة خمس وثمانمائة، وذلك أن تمرلنك الظالم لما رجع من البلاد الشمالية إلى المشرق سنة ثلاث وثمانمائة عاد إلى الروم، وراسل بايزيد في الصلح على عادته في المكر والدهاء، فلم يركن بايزيد إليه وقد كان جمع عساكره للقائه، ورحل بعسكره إلى جهته فسار خمسة عشر يوما، فراسله تمر يقول: إنك رجل مجاهد في سبيل الله وأنا لا أحب قتالك، ولكن اترك بيدك البلاد التي كانت معك في زمن أبيك وجدك فاقتنع بها، وسلم لي ما عداها، فمال بايزيد إلى ذلك، ثم بلغه أنهم أغاروا على بعض بلاده فنهبوها، فتحقَّق أنه لا يريد الصلح، فلما تقارب العسكران أظهر **تمر** الهزيمة خديعة، فلم يفطن ابن عثمان وساق خلفه إلى مكان سمي بعد ذلك المكسرة، فلما قربوا منه أخرج **تمر** طائفة مستريحة، وأراح المنهزمين فتلاقوا مع عسكر ابن عثمان وهم موتى من التعب، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم هجم عليهم كمين **تمرلنك** أيضًا فهزمهم، وتوجَّه سليمان بن أبي يزيد إلى جهة برصى، ثم عدى إلى **القسطنطينية** وأسر أبوه فأتي به إلى تمرلنك وتفرقت بقية عساكره، وخاض التمرية في بلاد الروم فأفسدوا كعادتهم ونهبوا وخرَّبوا وأحرقوا وأقاموا بها أربعة أشهر، ومات أبو يزيد بن مراد بن أردُخان بن عثمان في أسر تمرلنك

وهو مطلق، وكان تمرلنك يُكرمه ويُجالسه في خلواته ويعده بالرجوع إلى بلاده، فأدركه أجله، وفرَّق تمرلنك ممالكه على من كانت بأيديهم قبل أن ينتزعها ابن عثمان منهم، ورجع إلى بلاده في شعبان من سنة خمس وثمانمائة بعد أن صنع في الرُّوم صنيعه في الشام.

وكان **أبو يزيد** هذا من خيار ملوك الإسلام ولم يكن يُلَقَّب بلقب ولا يدعى بالسلطان ولا بالملك، وكان مهابا يحب العلم والعلماء، ويكرم القرَّاء، وكان الأمن شائعا في بلاده بحيث يمر الإنسان بالعدل ملآنا مالا مطروحا فلا يمسه، غير أنَّ اللواط والزنا والشرب كانت شائعة في بلده، ويشترط على من يخدمه ألَّا يكذب ولا يخون، ولا يمكن أحد من التعرض لمال أحد من الرعية حيا أو ميتا، ويُنكر على ملوك وقته تقاعدهم عن الجهاد، واستقلَّ بالملك بعده ابنه سليمان فسار بسيرة أبيه، ثم ثار عليه أخوه عيسى فقتل، ثم ثار عليه أخوه موسى فقتل سليمان، ثم ثار عليه أخوهم محمَّد فقتل موسى، واستقلَّ هو بالملك إلى أن مات فقام من بعده ابنه مراد، وكانت الهزيمة إنما أتت بايزيد من جهة التتار الذين في جنده داخلهم **تمر** فانهزموا لما التقى الجمعان فانهزم الناس بانهزامهم، ولولا أنَّ الأمر طال بنا لذكرنا من أفعال تمر ما يقرح القلوب، ويثير الكروب، على أنه كان مسلما شيعيا».

و(**الأبراج**) جمع برج وهو الحصن، و(**الأبراج**) جمع برج وهو عبارةٌ عن جزء من قسمة فلك الثوابت قسمة وهمية إلى اثني عشر جزءا كحجر البطيخة، فالبروج اثني عشر، وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، فهذه ربيعية صاعدة في الشمال، والسرطان، والأسد، والسنبلة، وهذه صيفية هابطة في الشمال، والميزان، والعقرب، والقوس، وهذه خريفية هابطة في الجنوب، والجدي، والدلو، والحوت، وهذه شتوية صاعدة في

الجنوب، فالستة الأولى كلها شمالية مائلة عن دائرة معدل النهار إلى نحو الشمال بنحو أربعة وعشرين درجة ابتداؤها منها وانتهاؤها إليها، والستة الأخر جنوبية مائلة لنحو الجنوب كذلك، وكلٌّ برج مقسوم إلى ثلاثين درجة تقطع الشمس كل درجة منها في يوم وخمسة درج وربع من قسمة الساعة إلى خمس عشرة درجة، فهي تقطع الفلك في ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم تقريبا، وهي مدَّة السنة الشمسية، وتقطع البرج في ثلاثين يوما وعشر ساعات ونصف.

وإذا كان جُرمُها مُسامِتا لأول الحمل والميزان كان الاعتدال، وهو استواء الليل والنهار في كل قطر، ومن نقطة أول الحمل إلى نقطة أول الميزان دائرةٌ وهمية آتية على سطح الأفق وتحته تنتهي إلى مبتداها تسمى دائرة معدل النهار، بمعنى أنَّ الشمس إذا كانت عليها سائرة معها كان النهار والليل متعادلين وهذه الدائرة هي الفاصلة بين الشمال والجنوب، والبروج الشمالية والجنوبية، فإذا مالت الشمس عن نقطة الحمل صاعدة شرع النهار في الزيادة على الليل وزادت سعة المشرق بحسب الأيام إذ لها في يوم درجة إلا شيء كما تقدم، فإذا كانت في النقطة الأولى كان الاعتدال، وفي اليوم الثاني يزيد درجة، وفي الثالث درجتين وهكذا، ويسمى ما بين مطلعها كل يوم وبين النقطة المذكورة سعة المشرق وسعة المغرب، فإذا حلَّت الشمس بأول نقطة من السرطان انتهت زيادة النهار على الليل، ووقع الانقلاب إلى جهة الجنوب فينتقص كل يوم من النهار تدريجا بحسب زيادته إلى أول نقطة الميزان فيعتدلان، ثم يتدرَّج الليل في الزيادة على حسب زيادة النهار إلى أول نقطة من الجدي فيقع الانقلاب إلى جهة الشمال، وتقسم عرض الفلك أيضًا دائرة آتية من الجنوب إلى الشمال تنتهي إلى مبدئها تسمى دائرة الزوال تفصل بين المشرق والمغرب وموضعا تقاطعها مع فلك البروج هما نقطتا

الانقلابين، والقمر يقطع هذه البروج الفلكية في كل ثمانية وعشرين يوما مرَّة كل ليلة منزلة وفي كل برج منزلتان وثلث من قسمة ثمانية وعشرين علىٰ اثني عشر فهو يقطع الفلك اثنتي عشرة مرَّة في السنة.

وقد علمت أنَّ نوره مستمد من الشمس فهو كالزجاجة الفارغة فمتىٰ قابل جزء منه جرم الشمس ارتسم نورها بذلك الجزء فيشرق علىٰ كلِّ ما قابله، فإذا كان أول الشهر كان نصف السبع من جرمه مقابلا للشمس فيرتسم نورها بذلك النصف السبع فقط لكونه إذا كان قريبا منها جدًّا أو كان تحتها لم ينله شيء من نورها وفي أول الشهر إنما يبعد منه عن المحلِّ الذي لا يناله فيه نورها ذلك الجزء فقط فيناله النور، ومن الغد يبعد عنه السبع فيمتلئ ذلك السبع نورا، وهكذا إلىٰ ليلة الرابع عشر من الشهر فيكون مقابلا لها كله بأن يكون كل منهما من الفلك في المنزلة المقابلة لمنزلة الآخر فيمتلئ نورا إلىٰ ليلة الخامس عشر فيأخذ في الدخول إلىٰ الجهة الأخرىٰ فيدنو منه إليها نصف السبع فينتقص نوره، وهكذا إلىٰ ليلة الثامن والعشرين أو التاسع والعشرين من الشهر فيدخل كله تحتها فيكون المحاق والفلك دائم الدوران من المشرق إلىٰ المغرب والمراد به الفلك الأطلس لأنها تسعة أصغرها وأقربها إلينا فلك القمر ثم فلك عطارد، ثم فلك الزهرة، ثم فلك الشمس، ثم فلك المريخ، ثم فلك المشتري، ثم فلك زحل، ثم فلك الثوابت، ثم الأطلس، سمِّي بذلك لعروه من النجوم، ويُقال له فلك الأفلاك وفلك الكل وهو دائم الدوران، وبدورانه تدور جميع الأفلاك والكواكب لإدارته إياها، إلَّا أنَّ الكواكب الثوابت إنما تدور بدوران فلكها الدائر بإدارة التاسع إيَّاه ولا تتحرك هي كنقطة المداد الواقعة علىٰ الرحىٰ الدائرة، وأمَّا السيارة فإنها وإن كان يديرها فلكها فهي تدور فيه تنتقل في البروج بحسب سيرها كالنملة الماشية علىٰ الرحىٰ لغير الجهة التي تدار إليها،

فهي تدور فيه لغير جهة دورانه، كما قال الشاعر:

كالشمس تجري في الحقيقة يَسرةً ويُديرُها الفلك المحيط يمينا

وقال **ابن دقيق العيد**:

الحمد لله كم أسعىٰ بِعَزمِيَ في نيل العُلىٰ وقضاء الله يعكسه
كأنني البدر يبغي الشرق والفلك الـ أعلىٰ يعارض مَسراهُ فيعكسه

وقال **الأرجاني**:

أنحوكم ويرد وجهي القهقرىٰ دهري فسيري مثل سير الكواكب
فالقصد نحو المشرق الأقصى له والسير رأي العين نحو المغرب

وهذه خلسة من علم الهيئة ومن أراد الإشباع فعليه بمُطوَّلاته.

و(**الأهرام**) هي الأبنية المشهورة بمصر المقطوع بأنها أعجب مباني الدنيا إتقانا وحسنا وعلوا، وهي مبنية بالصخور العظام تُثقَبُ الصخرة، ويُدخَلُ فيها عمود من حديد، ويثقبون الأخرىٰ وينزلونها عليها ويذيبون المعادن ويفرغونها في منافسها بصنعة هندسية، وارتفاع كل هرم منها في الهواء مائة ذراع بالمالكي، وسعة ما بين الركن والركن من كل واحد ثلاثمائة وستة وستون خطوة، وأطرافها محددة في رأي العين فإذا صعد إليها الإنسان بمشقة وجدها رحيبة، وهي ثلاثة كبار واختلف في بانيها، فقيل: بناها سويد بن سلهوف بن شرياق ليمتنع من الطوفان، وقيل إنَّ سيدنا **إدريس** علىٰ نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام هوا لذي أمر ببنائها، وأودع فيها الأموال وصحائف العلوم خوفا عليها من الطوفان.

وكان المأمون لما دخل الديار المصرية أراد هدمها فلم يقدر عليه، فاجتهد وأنفق

أموالًا عظيمة حتىٰ فتح في أحدها طاقا، فوجد خلفه من الأموال قدر ما أنفق في فتحه من غير زيادة درهم ولا نقصه، فتعجب من ذلك وقال:

انظـر إلىٰ الهـرمَين واسـمع مـنهما … مـا يرويـان عـن الزمـان الغـابر
لـو ينطقـان لأخبرانـا بالـذي … فعـل الزمـان بـأول وآخـر

وقال **عمارة اليمني**:

خليلي مـا تحـت السـماوات بِنيـةٌ … تناسـب في إتقانهـا هرمـي مصـر
بنـاء يخـاف الـدهر منـه وكلـما … علىٰ ظاهر الدنيا يخاف مـن الـدهر

وقال **أمية بن عبد العزيز**:

بعينك هـل أبصـرت أحسـن منظـرا … علىٰ طول ما عاينت من هرمـي مصـر
أنافـا بأطبـاق السـماء وأشرفـا … علىٰ الجـو إشراف السِّماك أو النسـر
وقـد وافيـا نشـرا مـن الأرض عاليـا … كـأنهما ثـديان قامـا علىٰ صـدر

ويُروىٰ أنه وُجد عليهما مكتوبا: بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فليهدمها من شاء في ستمائة سنة، والهدم أسهل من البناء.

وفي بعض الكتب قد مَرَّ لبنائها أكثر من ثلاثين ألف سنة، فإن صحَّ هذا فقد بنيت في الأمم التي قبل **آدم** (عليه السلام) !!

والمعنىٰ أنَّ هذا الأمير مستوجب لأن تُهدىٰ إليه نفائس المواهب، وأهل لأن يُدعىٰ له بالخير ما تعاقبت الأشعة والغياهب، لأنّه هو الذي أهدىٰ إلىٰ الدين المحمدي علىٰ صاحبه أفضل الصلاة والسلام مدينة عظيمة شبيهة بالحسناء المخدرة الممنوعة، بعيد مرامها، صعب تناولها، فلو أنَّ نمرود آل كنعان الجبار أراد أن يترقىٰ إليها ما وجد سلما

يُوصله إليها، ولا حيلة يتسوَّر بها عليها، ولم تُوصله نسورُه إلى مرتقاها، ولو أنَّ الجبار الذي نبغ في آخر الزمان وهو **هولاكو** الطاغي العاتي دنا من أسوارها الحصينة لهلك هو وجميع جنوده الكثيرة، وعساكره القوية، كما أنَّ جَدَّه الذي أورثه عتوه وطغيانه وتمرُّدَه على الحق وعصيانه، لو جاء إليها بقصد فتحها لصار في أرجائها ونواحيها مجنونا تائها مخلوع الفؤاد، مقطوع الأكباد، طائش العقل من زلازل مدافعها وقعاقع سلاحها.

فإنَّ في ساحتها أبراجا عالية عظيمة كأنها في عُلُوِّها وعِظَمِها الأبراج الفلكية تذود عنها القاصدين وتطردُهم، وبِغَمِّهم وغيظِهم تردُّهم، وتمنع تلك الأبراج ممن يريدها مدافع عظام هائلة الأصوات لو قوبلت بها الأهرام العظيمة التي عجز الملوك عن ثلمها لخرَّت عند قعقعة أصواتها، فهي بسبب ذلك تفضح أسرار عشاق تلك العقيلة الرائمين لوصالها فيرجعون هاربين عنها، وقد تشق أصواتها مرائرهم فيتساقطون دونها موتى، وتزعج قلوبهم فيبقون دونها بهتى، حتى تقاعد عنها طلابها، فبقيت بأيدي الكفرة تتهارش بها كلابها، وقد طالما مدوا أيديهم منها إلى هذه البلاد، وانتشر منها جرادهم فأفسد وعاث وانتهب الأموال والأولاد، واستولى على المنائر والمنابر، واسترقَّ الأحرار وأهان الملوك الأكابر، ونصب الجزية وضرب الضريبة، وجاءته الميرة من الأماكن الشاسعة والقريبة، فلقد كانت قلعة [1] بني راشد محل ميرتهم، ومظهر سيرتهم، يصلُهم منها ومن ضواحيها كجبل هوارة [2] ما يكفيهم من الزرع والأنعام.

وكانت **(تلمسان)** موطن صداقتهم يشملهم فيه من ملوكها ما تقرُّ به أعينهم من

---

(1) **قلعة بنى راشد**: وكانت تسمى قلعة هوارة، إذ قبيلة هوارة هي التي أسستها في القرن الخامس الهجري.

(2) **جبل هوارة**: قرب قلعة بني راشد، ويطلق على عدة قرى.

الإحسان والإنعام، ويستعينون بهم على المسلمين في الغارات، ويسلطونهم على النساء المخدرات، فأرسل الله عليهم عروج وخير الدين وصقور جنودهم المهتدين، فمنعوا أكلتهم من الانتشار، وأقعدوهم عن الخروج لإهلاك الديار، غير أنهم لم ترتفع أيديهم، عمَّا دَنا بمسافة نحو اليوم من واديهم، حتى إنَّ أرضنا هذه وأرض بني عامر، ونحوهما مما بينهما من كل عامر وغامر، كانت لهم مواطن خراج وجباية، من امتنع من أداء لوازمها فيها أوصلوا له أشدَّ النِّكاية، ونكَّلوا به نَكَالا يردع غيره عن الإباية، ثم قيض لهم الله **باكداش** فأشمت بهم أعاديهم، وانتزع بلد (**وهران**) من أيديهم، فلما استرجعوها من يد أميره، بسبب قضاء الله الذي لا يردُّه عاقل بتدبيره، كانوا يطلبون من جاورهم من المسلمين الغِرَّة، فيُغيرون عليهم المرَّة بعد المرَّة، فحسم الله ما بقي مِن عُدَّتهم المستكنَّة، بهذا الحسام الذي انطوت على حبه الأكِنَّة، فطهَّر منهم البقاع والفجاج، وجعل بينهم وبين هذا القطر سَدًّا من البحر الأُجاج، والله المسؤول أن لا يقضي لهم برجوع إلى هذه الأماكن، ما بقي على ظهر الأرض ساكن، وإنما ذكرت في الأبيات نمرود وهولاكو إشارة إلى أنه لا فرق بين الجبابرة المتقدِّمين والمتأخرين في العجز عن هذا البلد، ثم ثلَّثتُ **بجنكز** لكونه أصل الطائفة التتارية، فهو أقوى من **هولاكو**، وذكر الأقوى بعد الأضعف كالأعمِّ بعد الأَخصِّ طريقة محمودة عند البيانيِّين.

وفي الأبيات: الجناس، والتصوير.

أمسى بها دين الهدى عروسا	**والعلم فيها يقتضي دروسا**
بيوم سعد عطره أريج	**عم البلاد نوره البهيج**
من سنة عمَّت بها الأمطار	**كل الرُّبى فتمَّت الأوطار**
كأنما الأنهار فيها إذ عدت	**على جميع ما عليه قد غدت**

جنـد الأمـير صـادف الأعـداء فلـم يـدع في الأرض منهـا داء
وألـبس الأمـير للتنصـيص علـى عُـلاه ريشـة التخصـيص
فصـار كـل حـاكم ذا حسـد وذاب كـل حاسـد بالكمـد
وحـل فيهـا رتبـة الخلافـه سـليله متبعـا أسـلافه

(**دين الهدى**) هو الدِّين المحمدي علىٰ صاحبه أفضل الصلاة والسلام، و(**الهدى**) بالضم الرشاد والدلالة، و(**العروس**) معروفٌ، وفيه إيماء إلىٰ أنَّ هذا المشار إليه تقدَّم التصريح به في قولنا: إنه أهدىٰ إلىٰ الإسلام مدينة عقيلة، أي: كريمة؛ لأنَّ العقيلة تُطلق علىٰ الكريمة من كل شيء، فيصحُّ أن يُراد هناك أنه أهدىٰ إلىٰ الإسلام مدينة عقيلة أي كريمة، و(**يقتضي**) يطلب، و(**الدروس**) جمع درس معروف، و(**الأريج**) أي الطيب الرائحة، و(**البهيج**) الشديد البهجة، أي: الحسن، وأصلها بالفارسية بهكة فعُرِّبت بإبدال كافها الأعجمية جيما، و(**الأمير**) في الموضعين هو فاتح ومانح الأعلاق، المقدَّم علىٰ الأمراء علىٰ الإطلاق، الذي لم نزل في ذكره السيد محمَّد بن عثمان.

و(**التنصيص**) التعيين والتوقيت علىٰ شيء ما والإظهار له، و(**التخصيص**) مصدر خصَّه بالشيء إذا أفرده به، وحذفنا متعلقه للتعميم، أي: التخصيص بكل فضل، ومنه التقديم علىٰ سائر الأمراء رعيا لِعَلِيِّ قدره عليهم، ووافر اجتهاده في إقامة مصالح الدِّين وتدويخه الكفر بجهاده.

و(**ريشته**) حلية من الذهب علىٰ صفة الكف، والأصابع مرصعة بالحجارة النفيسة يقول لها العوام الريشة، والريشة في اللُّغة واحدة الريش، والعرب تقول أعطاه مائة بريشها؛ لأنَّ ملوكهم كانوا إذا حبوا حباء جعلوا في أسنمة البعير ريش النعام ليُعرف أنه حباء الملك، فلعل هذا هوا لأصل في الحلية المذكورة وتسميتها، لأنَّ السلطان يُنعم بها

علىٰ من فتح من أمرائه أو وزرائه بلدا من بلدان الكفار، فيجعلها في عمامته تنويها بقدره وإظهارًا لِعُلاه، ليُستدلَّ بها علىٰ أنه من المقدَّمين لديه والمقرَّبين إليه، فهي علامة له، كما كان ريش النعام علامة علىٰ الحباء، وتسمىٰ هذه الحلية باللِّسان التُّركيِّ **جلنك** بجيم أعجمية، و(**الحاكم**) الأمير، و(**الكمد**) الحزن، و(**الخلافة**) هنا النيابة عنه في نصف عمالته الشرقي، ومبدؤُه من منتهىٰ أحواز (مينة) إلىٰ ما تحت (مليانة) مما هو في طاعته وتحت نفوذ حكمه، و(**السليل**) الولد، و(**الأسلاف**) جمع سلف، وهو من تقدَّم من الآباء.

والمعنىٰ أنَّ دين الإسلام دخل هذا البلد كأنه عروسٌ بها، وحلَّ بها العلم معه كأنه يطلب أن تجعل له فيها دروس ليبث ويقضي جميع ما فات له من السنين لم تنشر فيها أحاديثه، ولم تبث أخباره الآتي ذكره إن شاء الله تعالىٰ، وذلك اليوم من سنة ظاهرة عليها آثار الفتح لائحة عليها علامات السَّعد قد عمَّت فيها الأمطار جميع البلاد حتىٰ فاضت فيها غير ما مرَّة جميع الأنهار حتىٰ تجاوزت مجراها المعتاد لها منذ عقلها أهل هذا العصر وحفظوه عن أسلافهم، فأهلكت جميع ما مرَّت عليه من الناس، والخيل، والبقر وسائر الدواب، وضاع فيها من الأثاث، والخيم ما لا يُحصىٰ، حتىٰ إنها لما انقطع فيضها ورجع ماؤها إلىٰ مجراه الأصلي بقي علىٰ جوانبها من الدواب التي لم تصل إلىٰ البحر ما يظنها من رءاها راتعة في مَسارحها، وقد تداول علىٰ ألسنة [الناس] من آثارها أخبار غريبة لا فائدة في إثباتها، وكان وقوع أعظمها وأغزرها في العشر الأخيرة من ربيع الثاني، وبه غرقت للناس أكثر الزُّروع المخزونة والمحروثة فكأنها في هذا الأمر الواقع بها الذي لم يعهد مثله جنود هذا الأمير المنصور قد وافت أعداءه، فأهلكت جميعها وكفت فسادها وحسمت داءها، فلم تبق منها داء ولا تركت لها إفسادا، وفي هذه السنة

المريعة والأيام البديعة أُلبِسَ أميرُنا ـ أيَّده الله وأعانه على ما أولاه ـ لأجل التوقيف لكل الناس على علاه وتعظيمه والإظهار لتشريفه وتكريمه، والتنويه بقدره، والإشادة بذكره الحلية المسماة **بالريشة** دلالة على تخصيصه بسائر أنواع الفضل، واختصاصه بجملة المحامد، وكان ذلك قبل دخول المسلمين إلى هذا البلد بعد تحقق الفتح وتقرره في الأيام التي اشترط الكفرة بقاءهم فيها، وذلك أنه لما تحقق فتحها على يده، استوجب أن يُنوَّه به غاية التنويه، ويخلع عليه من خلع التشريف ما لا يطمع فيه أحدٌ ولا ينويه، فذهب إلى الحضرة السلطانية فجعل له السلطان ـ أطال الله أيامه، ولا مزج بالنحس شهوره وأعوامه ـ حلية على الصفة السابقة وألبسه إياها، وكانت شيئا لم يعهد في هذه الأقطار، ولم يسبقه بها في هذا المغرب أحد من ذوي الأخطار، وخرج بها يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الأول لابسا لها، وقد داخلت أهل الرياسة النفاسة، وعلموا أنه فاز عنهم بأمر لا ينال بتعب ولا سياسة، وإنما هو حظ خُصَّ به دون أهل قطره، لا يناله غيره وإن أنفق فيه من عمره، إذ ذاك موقوفٌ على فتح بلاد، بإقامة أسواق الجلاد.

ومن أين لهم أن يجدوا في هذا القطر مدينة كفر، يفتحونها فيفوزون بهذا الأمر، وهب أنهم وجدوا مدينة، وإن لم تكن مثلها حصينة، فمن أين لهم بأسه المشهور، وإقدامه الذي شهد له به ما خص من الظهور، وكرمه الذي لا يُدانيه فيه أحد على مر الشهور، وعزمه المعضود بالمجاهدة، وسعادته التي قام عليها دليل من المشاهدة، ورأيه المصيب، وتدبيره الآخذ من النُّجْعِ أوفر نصيب، وغير ذلك من أوصافه التي ما له فيها ضَريب، وشجاعته التي لا يزاحمه فيها عريب، هيهات هيهات قد سبق إليها وهم نيام، فلا يلحقونه فيها وإن جدوا على مر الأيام، فسبحان من حباه بكل فضيلة، وخصه بكل خلة جميلة، وأبقى حاسديه تنقطع نفوسهم بالحسرات، وتشتعل أحشاؤهم بإدامة الزفرات، يحاولون لحاقه فيعجزون، ويعدون نفوسهم باتباعه فلا ينجزون، وقد تلقاه

السلطان السيد حسن ـ أطال الله سعادته، وحرس مجادته ـ في قدمته هذه عليه بالإنعام الذي لا مزيد عليه، وأظهر من الاعتناء به، والسرور بطلعته، ما لم يره أمير من سلطان قط، وفاوضه في أمر وهران فقال له: هي بلدك فتحتها بجدك واجتهادك، وأعدتها للإسلام بجهادك، فأمرها موكول لأمرك، لا يتقدم فيها نظر على نظرك.

وفي قَدمتِه عليه هذه، ذهب معه ولده الأجل الملحوظ بعناية الله الرحمـٰن، نبعة المجد والفضل السيد عثمان(1)، أناله الله من مواهبه النفيسة ما لا يُنال بأنفس الأثمان، فلما رآه السيِّد حسن علم أنه قد استحقَّ أكبر الولايات، وأن تخفق على رأسه جلائل الرايات، قياما بحق نباهته، وبعده عن النقائص ونزاهته، فأمر أباه ـ أبقى الله الملك في أعقابه، وأمنه يوم القيامة من عقابه ـ بأن يوليه رتبة الخلافة عنه ويُلبسه خلعتها، فامتثل أمره وولَّاه إياها في نحو التاسع من ربيع الأول، وولى الأمير أخاه الأسمى السيد محمَّدا قيادة (فليته) بدل ابنه، وخرج من (**الجزائر**) في اليوم المتقدِّمِ ذكره لابسا للريشة المذكورة، وقد تسامع الأمراء الأكابر بها وبما ناله في حضرة السلطان من الإنعام والتحفِّي، فحسدوه أتم الحسد بحيث تقطعت به نفوسهم، وبادت عقولهم، ولا شك أن لكل ذي نعمة حسودا، وأنَّ الحسدة مسلطون على كل من يسود، وقد تقدَّم أول الكتاب دلائل على صحة هذا المعنى من كلام الأوائل.

ولما رجع الأمير لأوطانه، مغمورا بمِنَنِ سلطانه، استشار العلماء في المغاطيس الذين بوهران هل يُؤَمِّنُهم خوفا من أن يذهبوا مع الكفار إلى بلادهم فيتنصَّرون، أو يتنصَّر عَقِبُهم، فأشاروا عليه بتأمينهم، فبعث إليهم كتابا يأمرهم بالقدوم عليه آمنين،

---

(1) **عثمان** هذا قائد جيش فتح وهران، وقد خلف أباه بايا على وهران بعد موته، ثم عزل، ثم عين بايا على قسنطينة وبها قتل حوالي 1220هـ عند اندلاع ثورة ابن الأحرش الدرقاوي.

فبعثوا إليه يقولون له: ابعث لنا بالأمان مع بعض المرابطين لتطمئن نفوسنا، فبعث إليهم بقاضي البلد العلَّامة السيِّد عبد الله بن حواء، وخطيب المسجد الأكبر أخينا السيِّد أحمد والسيِّد محمَّد بن فريحة، فقدم معهم نحو الأربعين منهم، والباقون منهم من وعد بالقدوم بعد بيع أثاثه، ومنهم من كان مرتابًا في الأمان، فبقي يترقَّب هل يسلَمُ القادمون من سطوة الأمير فليحق أو لا فلا، ومنهم من كان مرتابا في تسليم الكفرة البلد فبقي ينتظر ما يؤُول إليه أمرها هل التسليم، فيخرج إلينا، أو لا فيبقى معهم، ومنهم من غلب على قلبه حُبُّ الكفرة فلم تَطِبْ نفسه بفراقهم، ورضي أن يسير معهم حيث ساروا، ويصير معهم في الدنيا والآخرة أينما صاروا، فبقي معهم آيسا من الإسلام، لا ينوي الرجوع إليه على ممرِّ الأيام، فلم يرع الكافرين، وهم بين مصدق ومكذب، إلَّا وبريد طاغيتهم قادم عليهم يأمرهم بتعجيل الترحُّل من البلد، وهدم ما شرط على المسلمين هدمه، وقد كانوا بعثوا له صورة البلد مرسومة في كاغد بأبراجها وأسوارها وخنادقها وغير ذلك، فكتب لهم على كلِّ موضع أراد هدمه علامة الهدم، وعلى غيره بالإبقاء، فكان أول ما بدؤوا به أن حملوا جميع المغاطيس الباقين لديهم فبعثوهم إلى (سبتة) كرها عليهم على أسوء حالة تشمت بهم حاسدهم، وقد كان الأمير ـ أدام الله نصره، وأناله من المواهب ما لا يمكن حصره ـ لما رأى قرب الأجل ولم يبلغه شروعهم في الانتقال ظهر له أن يبعث إليهم قُوَّاده مع صهره السيِّد محمَّد بن إبراهيم ـ وفقه الله ـ لينظروا ما هم فيه، فلم تنفصل رسله لذلك إلَّا وبريد السلطان قادم عليه يأمره بمثل ذلك، فذهب قُوَّادُه إلى صهره المذكور وهو بـ: **مرسى أرزيو**، فذهب بهم إليها، فأكبر الكفرة نزله وأعظموه، وبقي لديهم يومَين يسعى أكابرهم لخدمته ويقومون بواجب حرمته، وقد وجدهم في جهد جهيد وتعب شديد في نقل آلاتهم للبحر وحفر اللغوم تحت الأماكن التي يهدمونها وغير ذلك، واعتذر إليه حاكم الكفرة عن عدم

سرعتهم بالرحيل بعدم أمر الطاغية لهم بذلك، إلَّا بعد قرب الأجل، وسألوه أن يطلب من الأمير بعض التأخير لعجزهم عن ركوب البحر، فوعدهم وعدًا جميلا، ورجع إلى الأمير فأخبره بجميع ذلك، فصفت قلوب المرتابين من كدر الشك وابتهج أهل اليقين وقلق الناس على دخولها أشد القلق، وصاروا يستطيلون الساعات القصيرة، فضلا عن الأيام الكثيرة، وقد قيل:

وأبرح ما يكون الشوق يوما ... إذا دنت الخيام من الخيام

وفي الأبيات: الجناس اللاحق والمضارع، والعكس.

أحسن بها من سنة لو أنها ... بيعت لكان المشتري ثمنها

للحسن في بسيطها انبساط ... وفي الربى من زهرها بساط

في كل ما نجد وكل غور ... قلائد تجمع كل نور

من كل ذي لطافة بديع ... تمت به محاسن الربيع

أحمر كالنعمان منسوب له ... قد زانه الطَّلُّ الذي قد بله

وأبيض وأصفر نارنجي ... وآخر من شكله أُترُنجي

وأزرق كأزرق الغضِّ على ... خدٍّ مليح في الجمال قد علا

وأَشكَلُ قد جمع الألوانا ... وفَضلَت ألوانُه الألوانا

يقال: **أحسن بزيد،** عند التعجُب كما يقال ما أحسنه، و(**المشتري**) هو الدري المعروف في الفلك السادس، وفيه تورية بالمشتري المقابل للبائع مرشحة بذكر البيع والثمن، و(**البسيط**) المتسع منها، ثم يحتمل أن يكون على ظاهره من أن البسيط هو زمنها أو يكون على حذف مضاف، أي: بسيط أرضها والأول أحسن، والانبساط والانتشار، والبساط بالكسر ما يبسط كالزربية ونحوها، و(**النجد والغور**) ضدان، الأول ما ارتفع من الأرض، والثاني ما انخفض، و(**النعمان**) الدم، والضمير في (**له**)

عائد على النعمان، ثم إن قلنا: إنَّ **النعمان** الذي تُنسَب إليه الشقائق هو الدم فالأمر واضح، وإن قلنا إنه النعمان بن المنذر كما هو الأشهر فهو هنا من باب الاستخدام، وهو أن يذكر المتكلم أمرا له معنيَين أو أكثر، فيستعمل لفظ الظاهر في أحد معانيه وضميره في المعنى الآخر، فيكون راجعا إلى اللفظ دون المعنى، ومنه قول الشاعر:

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم   شبوه بين جوانحي وضلوعي

فالغضُّ اسم لمكان مخصوص، ويُطلق على الجمر فاستعمل لفظه في المكان، وأعاد الضمير من شبوه عليه لا بقيد كونه دالًّا على المكان المخصوص، وحمل كلامنا على هذا المعنى الأخير أولى للشُّهرة، ولما فيه من زيادة هذا المعنى المعدود من المحسِّنات، وإنما نسبت الشقائق إلى النعمان بن المنذر؛ لأنَّه انتهى إلى موضع، وقد اعتم نبته من أصفر وأحمر، وفيه من الشقائق ما راقه، فقال: ما أحسن هذه الشقائق أحمرها، فكان أول من حماها، وكان يفرش له في وسط رياضها بساط مُوشًّى بصور جميع الأزهار فيشرب عليها، ولذلك قال سيدي **الشريف**:

حدائق أنبتت فيها الغوادي   ضروب النَّور رائقة البهاء

تجود بكل هطَّال كفيل   لها في كل يوم بارتواء

فما يبدو بها النعمان إلا   نسبناه إلى ماء السماء

وهي توريةٌ عجيبة، و(**الطلُّ**) هنا النَّدى الذي يصبح في عيون الأزهار، و(**النَّارَنْجي**) منسوب إلى النارنج باعتبار مشابهته له في اللون، وهكذا ينسب إلى كل ما اشتهر من الأشياء بلون مخصوص، فيقال: أحمر وردي، وأزرق لازوردي أو بنفسجي، وأصفر نارنجي أو ليمي أو أترنجي، وأبيض قرطاسي، إلى غير ذلك، كما يقال: أصفر فاقع، وأبيض يقق، وأسود فاحم أو حالك، إلى غير ذلك، والأرنج والأترنج ما يقال له

الآن الزنبوع، والأشكال من الألوان ما جمع بين لونين منها، أو فيه بياض وحمرة مختلفة، أو ما فيه بياض يضرب إلى الحمرة والكدرة.

وهذه الأبيات مرح بها اللسان في ميدان الطرب، وترنح بها الجنان مستريحا من أعباء الكرب، وسمح بها الخاطر الماطر ببقية لطائف ظرائف العرب، أوجب إبرازها ما غمر القلب من الفرح وخامره من الأنس واستهواه من التيه حتى تشبث بأذيال المعاني، وأبى أن ينصرف عن التفنن في رياض المدح التي يبتهج بها العاني، ويستغني الشجي بألفاظها عن جميع الأغاني، على أنَّ المقام مقام إطناب، لا يعذب فيه إلا مدُّ النفسَ في الإسهاب، فلو أمكن اللسان أن يستعين بجوانحه ويستنطق جميع جوارحه لأصبح بها مستعينا، وللنطق بها مستعيرا أو مستدينا، ومعناها: أنَّ هذه السنة بلغ من نفاستها ووفور محاسنها وسني اللطائف التي عمَّت البرايا فيها أنها لو أمكن بيعها لكان المشتري الذي هو دري الفلك السادس ثمنا لها، فما بالك بغيره من العين والمتاع، لأنها نفيسة إنما تباع بالنفيس لا بالممتهن الرخيص، وقد شمل الحسن سائر فصولها وجميع أوقاتها، فله انبساط وانتشار في بسيط أزمنتها وأرضها، وفوق كل الربى من أزهارها الناشئة بكثرة أمطارها وحسن إقبالها، بساط جامع لجميع أنواعها، أي أنه نبت فوق الربى المرتفعة من الأزهار ما كان شبيها بالبساط المرقوم، فكيف بالمطمئن من الأرض ومستنقع المياه، ففي كل نجد أي مرتفع من الأرض وكل غور قلائل وعقود زهرية جامعة لجميع الأنواع النورية من كل ذي شكل لطيف بديع رائق، بسببه تمت محاسن الفصل المشهور وهو الربيع المتعارف، لأن الربيع مختلف فيه عند العرب، فمنهم من يسمي به الفصل الذي نسميه نحن الخريف ويسمي الربيع المتعارف الصيف والفصل الذي بينهما القَيظ، ومنهم من يسمى هذا الربيع المتعارف الربيع الثاني، وكلهم متفقون على تسمية الخريف ربيعا.

فالمراد أن الربيع كملت محاسنه بهذه الأزهار اللطيفة الشكل، البديعة الجنس، لأن المبتغى من الربيع الزهر، فإذا كثر تمت المحاسن المبتغاة منه، وهذه الأزهار ليست مقصورة على لون واحد، بل منها الأحمر الشبيه بالدم في حمرته المنسوب إلى النعمان، الذي زاده حسنا وزينا ما أصبح في عيونه من درر الطل، فكان كالجواهر المرصعة في العقيق، والحباب الراقي على أديم الرحيق، ومنها الأبيض الحسن الشبيه بالنجوم الفلكية كالسوس والنرجس وغيرهما، ومنها الأصفر الشبيه بالنارنج في لونه، والأصفر الموازي للأترنج في منظره وحسنه كالبابونج والأقحوان ونحوهما، وفي البابونج وهو الذي يسميه العوام بالجمرة، قلت:

الزهر أعجب ما يـدعوك للعجـب ... وخـير سر بـه تهـدى إلى الطـرب
فابرز ـ فديتك ـ في غب السماء ترى ... شكل اليواقيت في لون من الـذهب
إن قلت أصفر كان القول مقتصـرا ... أو قلت أحمر لم تنسـب إلى الكـذب
كأنـــه مقـــل قـــد شـــابها رمـــد ... أحداقها سلمت من ذلـك العطـب
أمست به الأرض في حلى وفي حلل ... قـد طرزتهـا يـد الأنـواء بالعجـب

ومنها الأزرق الشبيه بآثار العظ الباقية على جسم المحبوب الشديد الجمال من عظ محبه، ومنها الأَشكَل الجامع للألوان المختلفة من حمرة وبياض، أو حمرة وصفرة، وغير ذلك من الزهر الذي فضلت ألوانه بسببه جميع الأوان، وفاقت جميع الأوقات والأحيان، وابتهجت به النفس، وطابت بعَرفه محاضر السرور والأنس، وفي مثله أطنبت الأدباء وصفا وتشبيها، وتحاضروا به إشادة بذكره وتنويها، وقد أوجبت علينا هذه الأبيات الإلمام بشئ مما قيل في الأزهار، من كلام ذوي الأخطار، غير أنه كفانا ذلك كثرة ما يوجد منه في الكتب الأدبية، والتآليف العربية، على أن ميدان الكلام فيها

فسيح، لا يستوفيه بليغ أو فصيح، فالواجب في هذا المضمار، إثناء العنان إلى الاختصار، ولا يخفى ما في الأبيات من أنواع البديع كالجناس والطباق والتورية والاستخدام.

كأنها من أثر الجود الذي — جرى على يدي ملاذ المحتذي
كأنما رونقها البهيج — وحسنها وعَرفُها الأريج
من أثر الفتح الذي أنشاه — وملبس الفضل الذي وشاه
كأنها في كثرة الأعداد — مِنَنُه الغُرُّ على العباد
كأنها في حسنها المبلاج — يوم دخول الناس للأبراج
إذ تم وقت غضب الهواري — سقى ضريحه السحاب الساري

(**المحتذي**) اسم فاعل مِن احتذى الرجل، إذا قصد منه حذوه، أي: عطيته، و(**الرونق**) الحسن، و(**البهيج**) الحسن، و(**حسنها**) معطوف عطف تفسير على الرونق، و(**العرف**) بالفتح الرائحة، والأريج الكثير الأرج وهو الرائحة الطيبة، و(**المبلاج**) مفعال من البلج وهو الوضوح والإشراق، و(**الأبراج**) المراد بها هنا أبراج (**وهران**) ويلزم من دخولها الدخول إلى البلد.

و(**الهواري**)[1] هو قطب وهران الذي عليه مدارها، وبدرها الذي أخجل الأقمار المتزايد إبدارُها، ومطأطئ الأعناق الرفيع مقدارها، والرؤوس العلية أقدارها، سيدي محمَّد بن عمر بن عثمان بن منيع بن عياشة بن عكاشة بن سيد الناس بن أمين الناس الغيار المغراوي والمشهور بالهواري كذا نقل ابن صعد [2] نسبه عن سيدي **إبراهيم التازي** (رضى الله عنه).

---

(1) نسب الولي الصالح سيدي محمد الهواري.

(2) عبد الله بن صعد الأنصاري التلمساني، ألف كتاب: (**روضة النسرين في الأشياخ الأربعة المتأخرين**)، وكان أول الأربعة المترجم لهم محمَّد الهواري هذا دفين وهران.

و(**الهواري**) نسبة إلىٰ هوارة، إحدىٰ طوائف البربر وأعمدة نسبها، سُمُّوا بجدهم هوار بن اوريغ بن برنس بن بربر، وأصل البربر علىٰ جزءين عظيمين، البرانس وهم بنو برنس بن بربر، والبتر وهم بنو مداغس الأبتر بن بربر، والمغراوي نسبة إلىٰ مغراوة قبيلة من زناتة، وزناتة من البربر.

يقال إنهم بنو زانة بن اجانا بن يحيىٰ بن تمصيت بن ضمريس بن زجيك بن مداغس الأبتر بن بربر، فهم من البربر البتر لا من البرانيس، وهوارة من البرانيس، وبهذا يظهر لك أن في قول ابن صعد الهواري المغراوي تناقضا لا يرتفع إلا بحمل إحدىٰ النسبتين علىٰ الوطنية والأخرىٰ علىٰ الأصلية، وكانت رياسة زنانة أوائل الإسلام لوزمار بن صقلاب جد بني خزر، وهو الذي أسر عند حرب افريقية وحمل إلىٰ سيدنا **عثمان** (رضي الله عنه) فأسلم علىٰ يده فمَنَّ عليه وأطلقه وعقد له علىٰ قومه، وقيل إنما وصله وافدا وأسلم، ومن ثمة بقي قومه مغراوة عثمانيين، وبنو وزمار هذا هم الذين بنوا (**وهران**) في التاريخ المتقدم عند ذكرها ثم هدمها الشيعة وبنوها ـ كما قدمناه ـ.

واختلف في نسب البربر فقيل: إنهم من العرب من لخم وجذام، وقيل: من غسان تفرَّقوا عند سيل العرم، أومن ولد النعمان بن حمير بن سبأ، وأنَّ النعمان هذا بعث ولده إلىٰ المغرب ليعمروه، وكان منهم لمت أبو لمتونة، ومسفو أبو مسفوية، وأصناك أبو صنهاجة، ولمط أبو لمطة، فنزل بعضهم بجبل درن، وبعضهم بالسوس، وبعضهم بدرعة، ونزل لمط عند كزول وتزوج ابنته، ونزل اجانا أبو زناتة بوادي شلف، ونزل بنو ورتجين ومغراو بأطراف افريقية، ونزل مصمودة بمقربة من طنجة، وقيل إنهم أخلاط من كنعان، وقيل: إنَّ البربر هو ابن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام، وقيل: إنهم قبائل شتىٰ من حمير ومضر والقبط والعمالقة وكنعان وقريش تألقوا بالشام ولغطوا فسماهم

افريقش البربر، وقيل غير ذلك من الأقوال، حكم **ابن خلدون** بضعفها، وصحح أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ـ انظر كلامه ـ

ومساكن هذه الأمم في القديم جميع المغرب، أقصاه ووسطه وأدناه، فالمغرب الأقصىٰ حدُّه من نهر ملوية إلىٰ آسفي حاضرة البحر المحيط، وفيه نهر أم الربيع وهو نهر عظيم ربما وصل إلىٰ سبعين ميلا منبعه من جبال درن، ويسكن هذا المغرب في الأغلب المصامدة وبرغواطة ونحمارة، ومعهم عوالم من صنهاجة ومطغرة وأوربة وغيرهم، والمغرب الأوسط حده من وادي ملوية إلىٰ بجاية، وكان في الأغلببة به منازل زنانة ومغراوة وبني يفرن ومغيلة معهم، وكذا كومية ومطغرة وغيرهم ومطماطة، ثم صار لبني ومانو وبني بلوهىٰ ثم صار لبني عبد الواد، وتوجين من بني يادين وقاعدته في القديم تلمسان ولما تملكه الترك صارت قاعدته الجزائر، ويمرُّ به نهر الشلف منبعه من جبل راشد في الصحراء ثم يدخل التل من بلاد حصين، ثم يمر مغربا، وتجتمع فيه سائر أنهار المغرب الأوسط المقاربة له إلىٰ أن يصب في البحر الرومي ما بين كلميتو[1] ومستغانيم، وأما المغرب الأدنىٰ فمبدأه بجاية، وهي قسنطينة، ديار زواوة، وكتامة، عجيسة، وهوارة، ثم صارت ديار العرب إلا مُتمنَّع الجبال ففيه بقاياهم.

وأمَّا افريقية إلىٰ طرابلس فبسائط فيح كانت ديار النفزاوة وبني يفرن ونفوسة، وهوارة، ومن لا يحصىٰ من قبائل البربر، وكانت قاعدته القيروان ثم صارت الآن تونس، وأما برقة فقد كانت ديارا لـ: لواتة، وهوارة، وغيرهم، وكانت بها الأمصار المستبحرة مثل لبدة وزويلة، وبرقة، وقصر حسان وغيرها، فدرس الجميع وصارت مجالات للعرب.

---

(1) مدينة أثرية تعرف الآن بالسور، قرب عين تادلس.

وعلىٰ أنَّ هذه القبائل لها أمكنة مخصوصة فقد يكون لكل من عيناه في موضع منازل في غير ما عُيِّن له، ألا ترىٰ أنَّا عيَّنا صنهاجة في المغرب الأقصىٰ وقد كانت منهم عوالم في المغرب الأوسط لهم في الجزائر ومتيجة ولمدية إلىٰ بجاية، وكذا هوارة كانت منهم أمة بهذا المغرب الأوسط، إليهم ينسب جبل هوارة الذي فيه بنو شقران وزجرارة وبنو غدو، وإليهم تنسب أكثر مداشره، كـ: مسراتة، والقلعة التي بناها محمَّد بن إسحاق، قال **ابن خلدون**: ومن أشهر هوارة بالمغرب الأوسط أهل الجبل المطل علىٰ البطحاء[1]، وهو مشهور باسم هوارة، وفيهم من مسراتة وغيرهم من بطونهم، ويعرف رؤساؤهم ببني إسحاق اهـ. ـ وانظر بقية كلامه ـ

قلت: ولم يبق من مداشر ذلك الجبل إلَّا القلعة والدبة ومدشر مسراتة وتليوانت مدشر سيدي أبي عمران الشريف معاصر شيخ أهل الحضرة سيدي عبد القادر الجيلي (نفعنا الله بهما) وهو الذي كان يقطع في مدشره هذا الشهد من أجباحه ويجعله علىٰ أتان له، ويوجهها لناحية ببغداد وهو يقول لها اذهبي به إلىٰ الشيخ سيدي عبد القادر الجيلي (رضي الله عنه) فتصل به إليه في الحين، فيُنزل الشيخ العسل ويردُّها إليه كذلك، فبقيت يوما نحلة عند الشيخ فرآها تدور فقال لها كأنك أردت الرُّجوع إلىٰ مقرك اركبي علىٰ إصبعي فأركبها علىٰ إصبعه ومَدَّ يده فردّها إلىٰ جبحها وهو جالس بمجلسه الشريف.

ولم يزل لهذه الأمم البربرية فضل مشهور، وباع في المحامد من أول الدهور، ولم ينفك منهم قائم يصادم بهم أعداءه، ويحسم من قطرهم داءه، فمن مشاهيرهم من أهل

---

(1) **البطحاء**: مدينة قديمة يذكرها الرحالون ابتداء من القرن الخامس، وهي ما بين مازونة والقلعة، وقد اضطربت أقوال المتأخرين في موقعها، وهو مدينة المطمر الحالية، وقد عرفها **أبو راس** و**الصباغ** بدفينها **عبد الهادي أبي غنيسة** دفين محطة السكك الحديدية بالمطمر.

الطبقة الأولى بلكين بن زيري بن منَّاد بن منقود الصنهاجي يقال: إنه هو الذي بنى الجزائر ومليانة ولمدية، وهو الذي خرَّب تاهرت، وكان جدُّه منَّاد ملك جانبا من إفريقية والمغرب الأوسط، مقيما لدعوة آل العباس، وقام بعده ابنه زيري فكان من أعظم ملوك البربر، ولما استوثق للشيعة الملك تحيَّز إليهم ولاية **علي** (كرم الله وجهه) التي فيهم، لأن صنهاجة كانت موالية لسيدنا **علي**، ومغراوة كانت موالية لسيدنا عثمان (رضي الله عنهما)، وصار من أعظم أوليائهم، وهلك **زيري** سنة ستين وثلاثمائة، فنهض ابنه **بلكين** إلى زناتة وثار بأبيه [كذا] محمَّد سلطان الشيعة أثره، وعقد له على عمل أبيه بأشير وتاهرت، وهي ما حوالي كزول إلى السرسو، وقاعدتها تاقدمت، فاستعجل أمره، ثم إنَّ السلطان نهض إلى القاهرة فاستخلفه على المغرب كله، وسماه يوسف بدل بلكين، فشتَّت شمل زناتة، ومحا دعوة بني مروان من المغرب، وخرَّب تاهرت، وملك تلمسان، وفاس، وسلجماسة، وهلك سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

ومن مشاهيرهم أيضا محمَّد بن خزر وابنه الخير المغراوي، وعروبة بن يوسف الكتامي ويوسف بن تاشفين ملك لمتونة، وعبد المؤمن بن علي شيخ الموحدين وصاحب المهدي، وأخبار كل هؤلاء شهيرة، وهي مع ذلك محتاجة إلى الدواوين الكبيرة.

ومن مشاهيرهم من الطبقة الثانية بالمغرب الأقصى والأوسط كبيرهم يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين، ويغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الوادي، ومحمد بن عبد القوي بن وزماز كبير بني توجين، وثابت بن منديل أمير مغراوة أهل شلف، ووزمار بن إبراهيم زعيم بني راشد المتعاصرون في زمنهم، المتناغون في تأثيل مجدهم، ولكل منهم أخبار عُنيَ بنقلها الأثبات.

وقد كان لهذه الأمة من الأنفة والمنعة والإباية ما كان يمنعهم من الانقياد إلى الملوك، والرضا باستدامة الدول، والدخول تحت جناح الذل، فكانوا لا يقرون لملوكهم على قرار، ولا يزالون يثورون على حكامهم في سائر الأعصار والأقطار، فلا يقوم لهم قائم إلا وطالبه من خلفه، ولا تتم قوة سلطان إلا والثورة تبشره بضعفه، حتى ضعف الطالب والمطلوب، وهرمت دولهم فأوفت شمسها على مرقب الغروب، واستولى الخراب على مدنهم وقراهم، وهلكت حاميتهم وانحلت عراهم، فكم من قاعدة لهم أمست مُقعَدة، ومن مدينة قاهرة لهم أمست عقود مبانيها مبدَّدة، فنحن نمرُّ على آثارها، لا نجد مَن ينبئ بأخبارها، ولا مَن يعلم باسمها، إلا ما يظهر مِن طللها ورسمها، ولما خمدت نارهم، وبادت ملوكهم وثوارهم، وهلك السلف، وضعف الخلف، طمحت إلى بلدهم نفوس الكفرة المتغلبين على عَدْوَة الأندلس، فانتزَوا على وهران فانتزعوها من يد قلموس، من بني عبد الوادي المتأخرين وتغلبوا على جميع أعمالها من بلاد بني عامر إلى قلعة بني راشد وما يليها، وربما تجاوزت غاراتهم بلد غريس، وقد خربوا مدشر **الكُرط** قرب **المعسكر**، وأسروا أهله إلا مَن فرَّ منهم.

وكثيرا ما ضربوا الضرائب على أهل جبل هوارة من بني شقران وغيرهم، وكانت القلعة المذكورة محل ميرتهم ـ كما أسلفناه سابقا ـ وكذلك أرض البطحاء، وسرات، وملاتة، وتليلات، وغيرها، كلها كانت لهم خاصة يزرعون بها المزارع ويستعبدون أهلها طوعا وكرها كل ذلك بنصرة بني عامر لهم الداخلين في طاعتهم طلبا لعرض الحياة الدنيا كحميان وجيدزة، وشافع، وأولاد علي وعبد الله، وكبراء أولاد خالفة، والحجز وغيرهم ممن طبع الله على قلبه فنبذ حدود الله وراء ظهره ورفض دينه فلم يلتفت إليه، ومع ذلك فلا يخلو متطوعة المسلمين من جهادهم مرة بعد مرة تارة يكون

النصر لهم وتارة عليهم، والاشتغال بجلب ذلك يفضي إلى الطول، ثم تغلبوا على تلمسان قاعدة المغرب الأوسط لنصرة أحد بني عبد الواد لما استغاث بهم ـ كما سنذكر ـ وكان ذلك عند ابتداء ظهور الترك بالجزائر أيام عروج وأخيه خير الدين رحمهما الله تعالى وهما إذ ذاك مشتغلان بجهاد الكفرة في البحر، ونقل المسلمين من جبال عَدوة الأندلس إلى هذه العَدوة، ولهم في ذلك أخبار مأثورة، ومفاخر مشهورة.

وقد نقل منها مؤرخ سيرتهم ما يُحيِّر الألباب، ويوقف العقول على التعجب من أمرها العجاب، ولما شاعت أخبارهم، وحُمِدَت في تلك الناحية آثارهم، طمحت لهم الآمال، وتشوَّفت إليهم سائر الأعمال، فقال الشيخ العالم سيدي **محمد التواتي** (رحمه الله تعالى) يخاطب أهل وهران لما رأى كثرة فسادهم، وتقاعدهم عن حفظ بلادهم، ينهاهم عن ذلك ويأمرهم باستقدام الترك إلى بلادهم، لما تفرَّس فيهم من الحزم، وسمع عنهم من القيام بالجهاد والحرص على هتك حرم الكفرة، ومنعهم الأرض التي بأيديهم من توثُّبهم عليها، قصيدة أولها:

أيا أهل وهران انظروا نظر شفقة ... لبلدكم قبل أن تُستردَّتِ
وقبل مجيء المنشآت ببحرها ... وأي القلوب عندها مستقرَّةِ
ولا تكِلوها غيركم ولئن يكُن ... فما غائبٌ مثلَ المقيمِ ببلدةِ
وما ينفع الترياقُ إن بَعُدَ المدَىٰ ... وقد نال منه الشم شاكٍ بعلَّةِ

إلى أن قال بعد التوبيخ السديد، والتأسف الشديد:

فيا قادرا عن دفع ذاك مقصِّرا ... فما العذر يا ذا الطَّول يوم القيامة
ولا يحمي مرساكم ضعاف رجالكم ... ولا البدو، بل تحميه أهل الجزيرة
فإن لهم بالطعن والضرب خبرة ... وكم فتكوا بالكفر أكبر فتكة

فلـم يعبـؤوا مهـما رأوهـم بكثـرة ولم يشـتكوا مهـما لقـوهم بقلـة
فـلا أنكـى للكفـار مـنهم وإنهـم لنصـرة ديـن الله أعظـم نصـرة
عليكم بهم فاسـتعملوا في وصـولهم إلـيكم ذكـا عقـل وألطـف حيلـة
رعى الله من يخطو لما قلـت خطـوة معينـا بتحصـين ولـو جـا بكلمـة

ثم إنَّ مولاي أبا عبد الله سلطان تلمسان أحد بني عبد الواد عدا عليه أحد قرابته فانتزع ملكه من يده، فلم ير من الرأي إلا أن يقصد حضرة الجزائر فقَدِمَها على السلطان عروج رئيس (رحمه الله) مستنصرا به فقدم لنصرته في جنده المنصور فأخذ القلعة وقطع منها الميرة على النصارى ـ دمرهم الله ـ فضاقت حواصلهم بذلك واشتد عليهم الأمر غاية الشدة، ثم قدم تلمسان فانتزعها من يد غاصبها وأقعد فيها صاحبها الأول، وهرب المعتدي إلى المغرب الأقصى وكاتب كفار **وهران** يقول لهم: انظروا كيف قطع عروج عنكم ما كنا نصلكم به من الميرة، وضيق عنكم ما كنا نوسعه عليكم، فلو أعنتمونا عليهم بالمال والجند لرجع لكم جميع ما فقدتم مع مزيد الإحسان، فأجابوه بما أحب ووعدوه بالإعانة، فقدم من المغرب واستغوى الأوباش ومن لا خَلاق له ممن يطير لكل هيعة ويقوم مع كل قائم، وبعث له الكفار مالا فرقه على أوباشه، ثم خرجوا لإعانته فملكوا تلمسان وقتلوا قائم الترك بها ببعض أحوازها، ودخلوا البلد، وربطوا دوابهم في المسجد الجامع وأوقدوا فيه النار، بعد أن أتوا القلعة وحاصروها مدَّة فأخذوها، وقتلوا بها الإسكندر (رحمه الله تعالى)، وذلك في جمادى الثانية سنة أربع وعشرين وتسعمائة.

وقد كان بالقلعة قبل ذلك بعض الأولياء يُقال له سيدي محمَّد الشريف تلميذ سيدي أحمد بن يوسف فكان يدخل المسجد حافيا ويقول أنا أنجسه قبل أن ينجسه الكفار، فلم يمض إلا قليل حتى قدم عروج والإسكندر ذاهبَين إلى تلمسان، فأقام

عروج بتلمسان حتىٰ قتل ورجع الإسكندر من تلمسان إلىٰ القلعة فحصروه فيها وقتلوه ودخلوا المسجد فنجسوه ـ كما قال الشريف المذكور ـ.

ولما قُتِلَ **عروج** وأخوه بقي ثالثهما الأجلُّ يصادم الكفرة ويدافعهم عن الجزائر ويلاقيهم في البحر فيشتت شملهم ويفل جموعهم ويغنم سفنهم ويسبي أهلها، وله في ذلك الأخبار المشهورة، والآثار الأثيرة، ثم إنه وقع له مع أهل الجزائر ما أوجب أن خرج عنها وتركهم في أودية ضلالهم يهيمون، فأتىٰ تونس واتخذ بها سفنا بأمر سلطانها، وصار يجاهد منها في البحر، إلىٰ أن كثرت في الكافرين نكايته، وعظمت فيهم وطأته، وامتلأت يده وأيدي جنده وسلطانه من مغانمهم.

ثم حدثت بينه وبين سلطان تونس وحشة فرأىٰ النبي ﷺ في النوم يعاتبه علىٰ تركه الجزائر ويشوقه إليها وانضم إلىٰ ذلك أن جنده كانوا غازين ومدوا بمرسىٰ الجزائر فمنعوهم من الإرساء بها، فرجعوا إليه وشكوه ذلك وقالوا: كيف ساغ لنا ترك بلاد فتحناها وقارعنا عليها العداة حتىٰ تمهدت، فصرنا نمنع الاستراحة بها، هذا والله ما لا صبر عنه، وما زالوا به حتىٰ خرج إليها فعارضه بعض المتوثبين علىٰ أعمالها فدارت بينهم حروب آلت إلىٰ أن غلب خير الدين واستولىٰ علىٰ الجزائر وبقي بها علىٰ سننه الأول يقاتل الكفار ويقارعهم ويردهم عن البلاد ويدافعهم إلىٰ أن بعث له الخليفة بإسلامبول يأمره بالقدوم عليه، فامتثل أمره وودع أهل الجزائر ونوب عنهم خليفته حسن آغة وأوصاه بهم خيرا، وذهب إلىٰ الخليفة فتلقاه بالإكرام الذي لا مزيد عليه وجعله علىٰ سفنه يجاهد بها كيف شاء، وأخباره في جميع ذلك طويلة الذيل، محتاجة إلىٰ الإفراد بالتآليف العظام.

ثم إنَّ دولة الأتراك ضربت الأرض بِجرانها، وألقت بهذا المغرب الأوسط كَلكَلِها،

ومدت رواقها على ما بين وجدة إلى منتهى أعمال تونس، واتصلت بأطراف عمالة الخليفة في القديم فدوخوا عصاتها ودانت لهم أهلها، فانقطعت عروق الفتن، وذهبت مواد الشقاق ولم يبق بها صائل غيرهم، ولا ثائر من سواهم، واختصروا ما كان يكثر غيرهم لطلب الملك من الثورة بالقبائل، وإقامة الحروب وإثارة الفتن الجلائل، فصار ذلك مقصورا على دار الملك لا يتعداها إلى الزقاق، وكانوا إذا قام أحد على السلطان فقتله في داره، وكان له أنصار يحمونه تولى مكانه، فإن مات السلطان بغير قتل اجتمع أهل الربط والحل فتشاوروا فيمن يولونه الملك حتى يتفق رأيهم على أحد فيقيمونه سلطانا، ثم ذهبت الشحناء كلها فصاروا يتوارثون السلطة بإيصاء السلطان بها إلى من يختاره منهم، وكانوا قبل ذلك يأتيهم الباشا من عند الخليفة كل عام، فإذا تمت السنة رجع إلى بلده ويحمل معه جميع ما في الخزنة من المال، فأضر ذلك بالدولة لكونهم يحتاجون إلى بقاء الأموال لديهم لمرتب الجند وتحصين البلاد وغير ذلك، وربما مات السلطان فيبقون فوضى بدون سلطان حتى يأتي الخبر [من] عند السلطان، وهم يخافون من توثب العدو عليهم، فكتبوا إلى السلطان يشكونه ذلك فرضي منهم بالخطبة والسكة وفوض إليهم الأمر في تولية السلطان عليهم، ولما أَمِرَ أمرُهم واستقر قرارهم جعلوا قواعد على وفق قواعد السلطان الأعظم، وفرضوا على الناس المغارم شتاء وصيفا، وعينوا للجند عطاء مخصوصا يتوصلون إليه بالتدريج، ومن بلغ ذلك القدر المخصوص لم يمكن أن يزاد عليه شيء جل أو قل، وضربوا عليهم البعوث تخرج في كل سنة أواسط أبريل إلى عمال الجباية فمنها من يرجع إلى الجزائر بعد أربعة أشهر ومنها من يرجع بعد سنة وغير ذلك، وعينوا لكل ثغر في بلادهم عددا مخصوصا من الجند يخرج إليه كل سنة فيمكث به سنة ثم يرجع بعد إتيان غيره، وهكذا، فركدت بذلك رياح الفتن وشُلَّت أيدي العُداة، ونُسِخت أسماء الأمم البربرية في جميع المغرب

الأوسط، فلا هوارة ولا مغراوة، وصار الجميع مشتركا في اسم القبائل، والأمر لله وله البقاء الدائم.

وهنا جمح بنا القلم عما قصدنا التلميح به من ذكر البربر، ومآل أمرهم، فلنرجع إلى ذكر السيد **محمَّد الهواري** (رضي الله عنه) فنقول: إنه كان (رحمه الله) ممن باع نفسه من ربه بتُقاه، وأفنى ذاته في محبته فرفعه ورقَّاه، واستسقى منه أمطار المواهب والمعارف فسقاه، جمع له بين العلم والعمل، وأكمل له بما خصه من ولايته القصد والأمل، وكان صواما، قواما، جوادا، كريما، محبا لآل البيت النبوي، رافعا لمقدارهم، محافظا على حدود الشريعة، زاهدا في الدنيا، حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وآتاه الله الحكم صبيا، وهداه إلى طريق الولاية وكان به حفيا، وأول ما فتح الله به عليه أنه خرج من وطنه بعد حفظه القرآن فدخل بلد كلميتو فوجد بها شيخا من أولياء الله تعالى فزاره وسأل منه أن يدعو له الله تعالى فدعى له أن يجعله من أهل الطريقة، فقبل الله دعاءه، ثم فارقه فطاف البلاد شرقا وغربا يجول في الصحاري البعيدة والفلوات المقفرة، وطعامه فيها الحشيش وأوراق الأشجار، وتخالطه فيها الوحوش والسباع ولا يخافها.

وكان مبدأ قراءته العلوم بمدينة بجاية، دخله بعد بلوغه بسنة، فقرأ بها على أعيانها الجلة كالشيخ سيدي **عبد الرحمٰن الوغليسي**[1]، والسيد **أحمد بن إدريس**[2]، ثم أخذ فيها في حفظ **المدوَّنة البراذعية**، فلما بلغ منها باب الصيد سافر إلى فاس فكمَّل بها حفظ

(1) الشيخ سيدي عبد الرحمٰن الوغليسي بلده بجاية.

(2) **أحمد بن إدريس**: صاحب المعهد المشهور بالقبائل الكبرى، وهو من أساتذة عبد الرحمٰن ابن خلدون الذي كان يلقبه بشيخ الاسلام، وأما تلميذه عبد الرحمٰن الوغليسي فإنه كذلك كان من أكبر فقهاء بجاية ومؤلفيها، وله تآليف قيِّمة.

المدونة سنة ست وسبعين وسبعمائة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكان طلبة فاس يقرؤون عليه القرآن والعربية والفقه ويتحدثون أنهم ما رأوا أبرك من قراءته، ثم سافر إلى الحج وزيارة الروضة المشرَّفَة، فكمُل قصده بذلك، ثم سافر إلى بيت المقدس فكمل له فضل الصلاة في المساجد الثلاث ثم رجع فأتى وهران فاستقرَّ بها قراره، واطمأنت بها داره، فانتفع الخلق بها على يديه، وهداهم إلى الله بأَزمَّة دعايته، وكان يتكلم عليهم ويشير إلى كل الحاضرين بما في خاطره، ويجيبه عما في ضميره، حتى إنَّ العلماء يعضل عليهم فهم النوازل ويعجز عن حلها أكابرهم فيحضرون مجلسه ومعهم أرباب الحوائج التي انبهم عليهم أمرها، فيتكلم بكلام مشترك يفهم منه كل حاضر حاجته من غير أن يسأله عن شيء، وأخباره في مثل ذلك كثيرة ذكر ابن صعد بعضها.

ومن مناقبه (رضي الله عنه) أنه بعث خديما له إلى أحد طغاة بني عامر يقال له عثمان ليرد مالا لبعض أصحاب الشيخ أخذه ظلما، فلما وصله أفحش له في القول وأمر بتثقيفه، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل خلوته بعد أن غضب حتى اسودَّ وجهه، فسُمِعَ يقول: مفرطخ مفرطخ، فاتفق أن ركب يومئذ عثمان يلعب في عرس كان في حيِّه، فرأى الحاضرون شيخا أبيض أخذه وضرب به الأرض، فأقبلوا إليه فوجدوه مفرطخا، قد دخل رأسه في جوفه فأطلقت أمه خديم الشيخ وقامت تندب ولدها.

وذكر **الصباغ**[1] أنَّ امرأة أُسِرَ ولدُها، فأتت سيدي **محمد** تشكوه أسره، فقال لها: اذهبي واجعلي قصعة مِن الثريد واللحم وأْتيني بها، ففعلت ذلك، وأتَت به إليه،

(1) **الصباغ** هذا، كان قاضيا بقلعة بني راشد، وكان والده تلميذا لأحمد بن يوسف دفين (مليانة)، وقد ألف تآليف في مناقب أحمد بن يوسف شيخ أبيه، إلا أن الشيخ الهواري توفي قبل احتلال الإسبان لوهران بما يزيد على السبعين سنة.

فأعطىٰ القصعة لسُلوقيَّة كانت عنده تُرضع أولادها، فأكلتها، فلما فرغت قال لها: اذهبي لموضع كذا ـ من عدوة النصارىٰ ـ وجيئي بابن هذه المرأة، فذهبت في الحين وقطعت البحر بقدرة الله تعالىٰ، فوجدت ابن المرأة قد اشترىٰ فؤادا لمالكته، فخطفته من يده، فصار يتبعها خوفا من النَّصرانية، إلىٰ أن عرضت له ساقية، فتخطَّاها وعدىٰ في إثرها إلىٰ أن دخلت به علىٰ أمِّه في وهران.

وكان (رضي الله عنه) قاطعا لأوداج الظلمة، ما تعرَّض له أحدٌ إلا عاجله الله تعالىٰ بالهلاك، **قال ابن صعد**: «وبهذا جرت عادة الله فيمن تعرض لزاويته، وإخافة الجُناة اللائذين بحرمه، فقد شاهدنا كثيرا من ولاة وهران وعمالها الذين سبقت لهم الشقاوة فحملتهم النفوس الأمارة علىٰ التهاون بحرم الزاوية وإخراج من استجار بها منها ينتقم الله منهم سريعا، ويظهر غضب الله عليه في أهله وماله وولده ونفسه، حتىٰ لا يستقيم له حال في الوقت وفي الاستقبال» انتهىٰ.

وذكر صاحب (**حزب العارفين**) أنه هو الذي باع وهران للنصارىٰ لما قتلوا ولده، فقال في قصيدته الملحونة عند استصراخه الأولياء (رضي الله عنهم).

أيــن مــن وهــران بــه ســادا   لــولا ان بــاعهم بيــع ارخــيص
لمــــا أن مســــوه بالعطبــــا   عطبــوا منــه الأهــل والجــورا

قال شارحه: «أشار بهذا إلىٰ الشيخ الإمام سيدي **محمَّد الهواري** نزيل وهران ـ أعادها الله دار إسلام ـ وهو شيخ سيدي **إبراهيم التازي** الذي يقول فيه:

وقد عدم الناس الشيوخ بقطرنـا   وآخرهم شـيخي وغايـة إجـلالي
وقـد قـال لي لم يبـق شـيخ بغربنـا   وذا منـذ أعـوام خلـون وأحـوال

يشـــير إلى أهـــل الكـــمال كمثلــه　　　　عليه من الله الرضى مــا تــلا تـــال

وأشار المصنِّف إلى أنَّ هذا الشيخ هو سبب تدمير وهران ـ أقالها الله العثرة والهوان ـ قال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ (الإسراء: 16)، ومن أعظم الفسوق نبذ الشريعة وإيذاء أهل الحقيقة.

حكى لنا الشيخ سيدي **محمَّد العبدلي** أنه ما أهلكهم الله تعالى حتى تركوا حكم الشريعة وصاروا يتحاكمون إلى العامة، فآثروا العوائد المضِلَّة، والناظم صرَّح بأنهم آذوا هذا الوليَّ الذي كان بين أظهرهم، وعطبوه في أهله وجيرانه، فروَى أنهم قتلوا ولدَه، فدعا عليهم، وباع وهران للطُّغيان بَيعًا بلا استثناء ولا إقالة، إلَّا مَن اشتَرَى نفسَه مِن الأَبرار الحضَّار، سلَّمه الله مِن الكفَّار.

وحُكيَ أنَّ سيدي علي الأصغر المدفون قبالة سيدي الدَّاودي بن نصر كان حاضِرا لهذا البَيع، فقال: إلى وقتِ كذا، وعمره ثلاثمائة سنة، فيُؤخَذ مِن هذا جواز الدُّعاء على الظَّالم ولو بالأسر، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال: 25)، ولكن رخصوا فرخصوا واستهانوا، وأذلوا فذلوا، وإلا فالإسلامُ لا يُعادِله شيءٌ حتى يُباعَ به.

سئل الإمام **مالك** عَن دية اليد، فقال: خمسمائة دينار، فقيل له: ما بالها تُقطع بِرُبع دينار؟ فقال: لما خانت هانت.

قال: وينعِشُ هذه الحكاية ما حكاه لي الأخ في الله الحاج **أحمد الصَّغير**، قال: قدمتُ الجزائر فقصدتُ سيدي **عبد الرَّحمـٰن الثَّعالبي** وبتُّ فيه عند ضريحه ثلاثا، وأنا مهتمٌّ بأمر وهران، فرأيتُه في النَّوم فقال لي: تُفتَح إن شاءَ الله تعالى، وأنتَ تَبلغ لأَهلك

فَتجِدُها قد فتحت، أو تحضر لفَتحِها، فقلت: يا سيدي، وسيدي محمَّد الهواري باعها ؟ فقال: هو باعَها والناسُ اشتَروها مِن بَعده مِن الله عزَّ وجلَّ.

قلتُ: وكذا ذكر لنا سيدي يوسف الشريف يوم الجمعة بجامع سيدي أبي مدين، وزاد أنها لا تؤخذُ بطبول ولا عساكر، وإنَّما يفتَحها فُرسانٌ قلائل بكلمة التَّوحيد، ـ انظر بقية كلامه ـ.

وفي **مناقب سيدي أحمد بن يوسف** (رضي الله عنه) أنه ذهب مع جماعة مِن الفقراء لمدينة وهران، فلما بلغَها قدِمَ قائدُها يسلِّم علىٰ الشَّيخ، فقال بعض أصحابه: هذه السلطنة ليست كسلطنة اليهود، فغاظَه ذلك، وكتبَ لأَميره أبي عبد الله[1] في تلمسان يخبره، فقيل للشَّيخ ذلك، فرجع إلىٰ أهله برأس الماء، ثمَّ إنَّ أبا عبد الله كتبَ إلىٰ قائد وهران يأمُره بِحَبس الشَّيخ أو قتلِه، فكتبَ قائدُ وهران بذلك إلىٰ قائدِ بني راشد، وهو أحمد بن أبي غانم، فأعلمَ الشَّيخ بذلك، وقال: ارتحِل مِن وَطنِهم، فدعا عليهم الشَّيخُ وقال: شوَّشونا شوَّشَهم الله مِن البرِّ والبحر، فلم يمضِ إلَّا قليل حتىٰ أُخِذَت وهران، وارتحَلَ الشَّيخُ مُشرِّقا إلىٰ مَوضع يُقال له: يلَّل، الحالية مِن بلاد بني أُوغدُّو مِن وطن هوارة، فعرض له بعض سُويد يُريدون أخذَ بِغاله وبقَرِه ومالِه، فأخذ حجَرين صَلدَين أَملسَين، وقال لهم: هكذا يفعلُ الله بمَن أضمرَ لنا السُّوء، وحكَّهما بِيده فصارتا تُرابا كالدَّقيق المغَربل، ونفخَ فيه فطار وهم ينظرون، فقبَّلوا يدَه ورِجلَه وانصرفوا.

ولا اعتراض علىٰ الأولياء في مثل هذا، إذ لم يقَع شيءٌ بأَمرهم، وإنما الأمورُ كلُّها جارية بقدرِ الله وقُدرته، وهم إنما يتكلَّمون بما شاهدوه مِن أنباء الغَيب التي أَطلعهم الله عليها.

---

(1) **أبو عبد الله الزياني** الذي أتىٰ بعروج من الجزائر كما ذكرناه قبل.

فهذا الوليُّ لما كان مُطَّلِعا على هذا السِرِّ ووردَ عليه مِن الغَيظ على انتهاك حدود الله ما خامَره، صرخَ بإفشائِه، غير أنَّه مَوَّه على السَّامعين بإِسنادِ البَيع إِلى نفسه لئلا يُعَدَّ مذيعا للسر الذي بينه وبين مولاه، وكون ذلك الغيظ لأجل قتل ولده ليس بمخرج له عن كونه غضبا لله تعالى، إذ الظلم كله حرام، يجب عليه أن يغضب له، لا فرق بين كونه على قريبه أو بعيده.

وحدثني بعض من يُستندُ إلى قوله أنَّ أبا الشلاغم هرب منه بعض الجناة إلى ضريح الولي سيدي **محمَّد الهواري** فأمر جاوِشَه بإخراجه منه، ففعل، فلما نام أبو الشلاغم رأى سيدي محمَّد في النوم يقول له أتتعدى على حرمي وتخرج منه الجاني ؟! إنَّ النصارى يأخذون من يدك البلد يوم كذا، وإذا انتبهت رأيت ما وقع بجاوشك، فلما أفاق سأل عن جاوشه فوجده قد انتفخ كالزق حتى مات، وأخذت منه البلد في اليوم الذي عينه له.

وقول شارح حزب العارفين وعمره ثلاثمائة سنة يحتمل أن يكون الضمير فيه عائدا على الاستثناء أو على الوقت، أي عمر الأمد الذي استثناه على الشيخ ثلاثمائة سنة بمعنى أنه استثناء ما بعد تمامها عليه، والتعمير مجاز، وكذلك كان الأمر ـ والحمد لله تعالى ـ فإنها أُخذت من المسلمين سنة أربع عشرة وتسعمائة ـ كما تقدم ـ وها هي قد رجعت إليهم سنة ست ومائتين وألف ومجموع ما بقيت بأيديهم ثلاثمائة سنة غير سبعة ـ وما قرب من الشيء يُعطى حكمه ـ والسبعة بالنسبة إلى الثلاثمائة من التافه الذي لا يعتدُّ بنقصه، ولا ينتقص ذلك بالخمس والعشرين سنة التي بقيت فيها بيد أبي الشلاغم، إذ الأمر لم يتم فيها للمسلمين فكأنها لم تخرج من أيدي الكفرة فيها، وإذا صحَّ هذا فقد أيس الكفر من هذا البلد وانقطعت عروق مطامعه منها وبقيت للإسلام خالدة تالدة إلى يوم القيامة، نسأل الله تعالى أن يحقِّق لنا ذلك بمنِّه وكرمه.

وكانت وفاة الشيخ سيدي **محمد الهواري** يوم السبت الثاني من ربيع الثاني سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة، وعمره اثنان وتسعون عاما، وقبره بمدينة وهران حسبما يُفهم من قول سيدي محمد بن عبد المؤمن، يحرِّض السيد حسن سلطان الجزائر في وقته على أخذ وهران بقوله:

نادتـــك وهــــران فلـــبِّ نِـــداها   وانـــزل بهـــا لا تقصـــدن ســـواها
واحلل بهاتيـك الأبـاطح والربـى   واستصـــرخن دفينهـــا الأواهـــا

قال شارح[1] **(الحلفاوية)**: «مراده بدفينها السيد **محمد الهواري** (رحمه الله تعالى)، وإنما أمره باستصراخه لإنقاذها لأنه هو سلطان مصرها ومتولِّي أمرها، وهو الذي أسلمها في يدي النصارى فتملَّكوها لبغي أهلها على ولده، حيث استهلكوه فسبق دعاؤه بذلك وأسلمهم ـ وكان ممن لو أقسموا على الله لأبرَّهم ـ ولما مات الشيخ ورث سره تلميذه ومريده السيد إبراهيم التازي، وورث مخلفه بالنسب ولده سيدي **عبد الرحمٰن بوحامد** (رحمه الله تعالى) وله عقب متصل منتشر فالواجب احترام الجميع فإنه غيور على أولاده».

ومعنى الأبيات المشروحة التي خرج بنا تفسيرها إلى هذا الطول المفرط أنَّ تلك الأزهار التي كثرت في هذه السنة المطيرة، وأنواع الكلأ الرائقة النضيرة، كانت كأنها نشأت من آثار الجود الذي جرى على يد هذا الأمير الذي أغنى العفاة، وشاع كرمه حتى أمَّه الركبان والحفاة، ولاذت به السُّؤَّال، وعلِقَت بحضرته سائر الآمال، وكأن

(1) شارح الحلفاوية هو الرحالة عبد الرحمٰن الجامعي الفاسي الذي شرح منظومة الحلفاوي التلمساني في تاريخ وهران وفتحها الأول على يد بكداش باشا سنة 1119هـ (آنسة).

رونقها الزائد الحسن، وعَرفها الذي يُذهِب عن قلب الكئيب بالحزن، من آثار هذا الفتح الذي قام له وقعد، وجدَّ فيه واجتهد، حتىٰ تضوَّع عَرفُه في الأكوان، وطابت به الآفاق والأوان، ولبس به الدين من ملابس الفضل حللا مختلفة الألوان، وكأن أعدادها الكثيرة مِنَنُه الغرُّ ونعمه الأثيرة وكأنها في حسنها أيضا وسناها المبلاج اليوم الرائق البهيج الذي دخل فيه الناس أبراج وهران ومدينتها ـ كما سنذكره بعد إن شاء الله تعالىٰ ـ وذلك في الوقت الذي تم فيه الأمد الذي أسلم فيه السيد **محمد الهواري** (رضي الله عنه) مدينة وهران للكفار علىٰ حسب ما أسلفناه قريبا، نسأل الله أن يسقي جَدثَه بسحاب الرحمة، وينفعنا به بجاه شفيع الأمة، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله أجمعين، صلاة وسلاما تامَّين دائِمَين إلىٰ يوم الدِّين، آمين.

وارتحل الكفار بالصليب	**تحدو بهم عواصف الجنوب**
والحزن في أحشائهم قد استكن	**من خيبة القصد وفرقة الوطن**
كم تركوا من مَنزه مَصون	**وجنَّة مائسة الغصون**
تسقى بنهر قد غدا مقهقها	**لأن غدا الثغرُ السقيم نقها**
ومدفع لم يغن في الدفاع	**وقلعة تبدو على اليفاع**
فطهرت تلك البقاع الدنسه	**من خبث الكفر وأمست آنسة**
وانقطعت علائق التثليث	**والاعتقاد الفاسد الخبيث**

(**الصليب**) عند النصارىٰ الخشبة التي صلب عليها سيدنا عيسىٰ عليه السلام في زعمهم وحاشاه من ذلك: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: 187) وهذه الخشبة لها خطان أحدهما مقاطع للآخر، وقد يُطلق علىٰ الخشُب التي يتخذونها علىٰ صورة سيدنا عيسىٰ عليه السلام، ويتقربون إليها بالسجود والعبادة المطلقة، فهم يعبدون الأصنام ولا يشعرون، وبيد كل واحد منهم صنم يصاحبه في حضره وسفره

يخصه بعبادته، ولهم في كلِّ بيعة صورة من ذلك عظيمة يجتمعون على السجود إليها من دون الله، ويعتقدون أنهم يسجدون لعيسى عليه السلام لقيام صورته مقامه، وهذا ـ لعمري ـ من الجهل العظيم، والخبط العَشو الذي لا يقبله الذوق السليم.

و(**الجنوب**) ريح يخالف الشمال مهبه من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا، و(**المنزه**) محل التنزه كالبساتين، ومواضع الخضر ومجاري المياه والمباني الرائقة وغيرها من ملائمات النفوس، و(**الجنة**) الحديقة ذات النخيل والشجر، و(**مائسة**) متبخترة، و(**المقهقه**) المُرجِّع في ضحكه، وهو استعارة تبعية لصوت خرير هذا النهر القوي، ويقال: نقه من مرضه إذا صح منه وفيه ضعف، والمراد بالمرض هنا مرض وجود الكفر في ذلك الثغر، والصحة منه مفارقة الكفر إياه، والقلعة واليفاع تقدم تفسيرهما.

و(**أنِسهْ**) يصح أن يكون فعلة، كفرحة، من أنس إذا حصل له الأنس بالضم والتحريك، ويُقالُ أيضا: الأنسة، بالتحريك، وهما ضد الوحشة، وأن يكون من قولهم: جارية آنسة، أي: طيبة النفس.

و(**التثليث**) هو معتقد النصارى ـ دمرهم الله ـ من كون الله تعالى ثالث ثلاثة ـ وقد تقدم بيان ذلك ـ ومن تأمَّل وجدهم يقولون بتعدد الآلهة على عدد رؤوسهم إذ بيد كل واحد صورة يعبدها معتقدا أنها صورة إلهه، وذلك لا يخرجه عن كون عبادته لنفس تلك الصورة لا لإلهه ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ، وقولنا: (**وارتحل**)، معطوف على: (**تم**)، من قولنا: (**إذ تم وقت غضب الهواري**)، فهو من متعلقات الظرف، وقولنا: (**وجنة ... الخ**)، من عطف الخاص على العام.

والمعنى أنَّ ذلك الأمر المتحدَّث عنه سابقا، وهو يوم دخول الناس للأبراج كان حين تم وقت غضب **الهواري**، وحين ارتحل الكفار ـ دمَّرهم الله ـ بصليبهم الذي كانوا

يخصُّونه بعبادتهم، ويبتهلون إليه عند أوقات شدائدهم، في حال كونهم تُزجي بهم سفنهم رياح الجنوب الشديدة، وتدفعهم من ورائهم كأنها في زفيفها خلفهم الحادي الذي يحدو بالإبل، والحزن الأليم والهم الدائم قد استكن، أي: استتر في قلوبهم من أجل ما نالهم من خيبة القصد بخروجهم من البلد التي كان قصدهم البقاء بها إلى آخر الدهر، وغلبة المسلمين إياهم عليها، وقد كان قصدهم الظهور عليهم، ومن أجل فُرقة الأوطان التي لا شيء أشد على القلب منها، فكم تركوا بها من منازه رائقة كانوا يصونونها عن الابتذال، ويمنعونها أن تُنال، ومن المباني العالية، والحدائق الحالية، والرياض الأريجة والسَّاح الفريجة، والنهر العظيم العذب الزلال الذي يسقي جميع أجنتهم، ويدوّر رحاهم، ويروي بلادهم، فبقي بعدهم يسلي نفس المحزون بخريره، كأنما صوته الشديد قهقهة صدرت منه فرحا بصحة ثغره من مرض الكفر بسبب ما دخله من الإسلام، وكم تركوا من مدافع لهم عظيمة لم تغنهم شيئا في دفاعهم، ومن قلعة شامخة رابضة على اليفاع لا تزلزلها الشدائد ولا تغيِّرها الحوادث، فطهرت بسبب رحيلهم جميع تلك البقاع التي كانت دنسة بهم من جميع خبث الشرك، وأمست أنسة أي: طيبة النفس، بمعنى أنها بقيت بسبب صفائها من خطل الكفر وخلط الكفار كالجارية الطيبة النفس، أو التي أمست آنسة، أي: غير موحشة وانقطعت جميع علائق القول بالتثليث منها، وكل اعتقاد فاسد خبيث، ولم يبق بها إلا التوحيد المحض، والاعتقاد الصحيح الجاري على وفق قواعد أهل السنة، فلله الحمد على مزيد إحسانه، ووفور امتنانه.

وحـل في أرجائهـا ليـث الـوغى ... أفضـل مـن جـاد بكـل مبتغـى
مقـــدما لمســـند البخـــاري ... وكـــل عـــالم مـــن الأخيـــار
وللبنـــادق رعـــود قاصـــفهْ ... والنصر في الرايات ريح عاصـفهْ

والخيل مـن فـرط السـرور تمـرح وطـائر السـعد المـبين يسـنح

فأجهشـت لرؤيـة الأعـلام وفرحـت بملتقـى الإسـلام

تاريخ ذا نقـط أمـن أيـدي العـدا وهران قد عادت لأصحاب الهـدى

في رابع الأيـام مـن شـهر رجـب والحمـد لله فقـد تم الأرب

وأول الربيـع مـن ذي العـام والحمـد لله علـى الإنعـام

وهـا هنـا قصـيدة الجهـاد تمـت وقـد جـاءت علـى المـراد

عقيلـة غاليـة الأثمـان زفَّـت إلى البحـر أبـي عثمـان

رافلـة في ملـبس بـديع حاليـة بحلـل البـديع

تاريخهـا في قـول مـن أملاهـا وهـران تم الكفـر مـن ولاهـا

وأكمـل الحمـد لمـن خولنـا نعمـه وأكمـل القصـد لنـا

ثـم الصـلاة والسـلام مـا بـدا بـدر علـى محمَّـد بـدر الهـدى

وآلـه وصـحبه الأعـلام فـذكرهم لبنـة التمـام

(**ليث الوغى**) المراد به أميرنا المنصور ـ أدام الله عزته على ممر العصور ـ والوغى تقدم، و(**مسند البخاري**) المراد به **صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري** (رضي الله عنه) وهو الكتاب المشهور الذي يستسقى به الغيث وتدفع به الشدائد ويطلب بقراءته تفريج الكرب، وتستمنح به المقاصد والإرب.

ويقال: مرحت الخيل: إذا تبخترت في مشيها، والسعد تقدم تفسيره، ويقالُ: جهش إليه، كسمع ومنع، و(**أجهش**)، إذا فزع إليه رائما البكاء، كالصبي إذا رأى أمه بعد اشتياقها.

و(**الأعلام**) جمع علم، يصح أن يراد بها الرايات، وأن يراد السادات، والإشارة بـ: (**ذا**) إلى حلول الأمير بالبلد المستفاد مِن قولنا: (**وحل في أرجائها ... الخ**)، وقولنا:

(**أمن أيدي العدا ... الخ**)، محكي بقول محذوف تقديره: نقط حروف قولنا: (**أمن أيدي العدا**)، وعدد ذلك بعد جمعه: ألف ومائتان وستة، وذلك عدد الأزمنة السابقة تاريخ هذه السنة التي دخل فيها المسلمون بلد وهران.

وبيان ذلك أن قولنا: (**أمن**) عدده واحد وتسعون، و(**أيدي**) خمسة وعشرون، و(**العدا**) مائة وستة، و(**وهران**) مائتان واثنان وستون، و(**قد**) مائة وأربعة، و(**عادت**) أربعمائة وخمسة وسبعون، و(**لأصحاب**) مائة واثنان، و(**الهدى**) واحد وأربعون، فالمجموع ما ذكر، وأما اليوم والشهر والفصل فقد صرَّحت بهم في النظم.

والمعنى أنَّ الأمير الشبيه في شجاعته في يوم الوغى بالأسد المقدام الذي بلغ من جوده أنه لا يمنع شيئا مما يمنعه لعزته غيره من الكرام دخل بلد (**وهران**) في حال كونه مقدِّما أمامه **صحيح البخاري** وعلماء إيالته على حسب ما سنبينه، والحال أن للبنادق بأيدي الناس رعودا قاصفة، أي: أصواتا شبيهة بالرعود القاصفة، وأنَّ للنصر في راياته الخافقة ريحا شديدة عاصفة، والخيل تمرح بركَّابها حينا، وحينا تعدو بهم، كأن ذلك حصل لها وصدر منها بسبب ما حصل لها من فرط السرور والسعد المبين الظاهر، (**يسنح**) أي يظهر على الوجه الذي يتيامن به ظهور الطائر السانح الدال ظهوره على اليُمن، فأجهشت البلاد، أي: كانت بمنزلة الجاهش، إلى رؤية الأعلام الإسلامية التي طالما غابت عنها، وفرحت بلقاء الإسلام الذي كانت تحن إليه منذ زمان، وكان ذلك في التاريخ المذكور.

ذكر دخول سيدنا الأمير

(أطال الله أوقات سروره، ولا أعدمه موجبات بروره)

ومعه المسلمون إلى مدينة وهران

وتدريج حاله من يوم خروجه من مقرِّ حكمه إلى يوم دخولها

وبعض متعلقات الدخول

قد قدَّمنا بعثه صهره إلى الكفار، وأنهم سألوا منه بعض التأخير لهيجان البحر عليهم، وكثرة الأثاث لديهم، الذي يحتاجون في بعثه إلى عَدوتهم إلى الزمن الطويل، فأنعم لهم بذلك ورجع وتركهم في جهد جهيد من الاشتغال ببعث الأثاث وهدم المواضيع التي اشترطوا هدمها وغير ذلك، وكان ذلك أواخر ربيع الثاني، ثم إن الأمير أمهل إلى أن ارتفعت الأمطار وصفا الجوّ من الأكدار، فخرج في الثاني من جمادي الثانية إلى بلاد هبرة[1] فبقي بتلك الأرض الفريجة والبطحاء البهيجة وبعث ولده المبجل إلى وهران فقدم بأواني ملآنة بمائها فبعثه إلى السلطان بالجزائر المحمية بالله ليبعثه إلى الخليفة الأعظم السيد سليم بن مصطفى خان مع مفاتيحها فبعثه، ولما بلغه ذلك زاد في رتبة سلطان الجزائر أمرا هو معلوم عند أهل الديوان، ثم رحل منها في الحادي عشر من الشهر المذكور إلى (**سيق**)، فنزل به وبعث إلى أولاده وسائر علماء بلاده وأكابر أهلها يأمرهم بالقدوم عليه، وبعث كاتبه السيد **أحمد بن هطال** إلى **وهران** يكشف خبر أهلها،

---

(1) هبرة: بين مدينتي وادي سيق والمحمدية.

فالتقى بكبارهم ـ دمرهم الله ـ فداروا معه بالبلد وأروه ما هدموا منها وأخبروه بأنهم رفعوا أيديهم عن هدم ما بقي من مبانيهم المستحدثة لأمر طاغيتهم لهم بذلك، وبامتثال أمر أميرنا المنصور في كل ما أمرهم به، وبأن يتركوا بالبلد مائة مدفع وثلاثة عشر مع ما يكفيها من البارود والكور، فرجع إلى الامير ـ أيده الله ـ فأخبره بجميع ذلك، ثم ارتحل الأمير ـ أدام الله عزه ـ من سيق يوم الجمعة السابع عشر من الشهر المذكور ـ بعد أن حمل **صحيح البخاري** في ربعة رائعة بين صندوقين ملآنين بالكتب على بغلة فارهة، وغطى الربعة بسجف حرير مغشى بلباس الكعبة المشرفة، موشى أحسن توشية، مكتوب بكلمة الإخلاص، وعين له راية رائقة تحمل أمام قائد البغلة، وأمر العلماء أن يسيروا وراءه يقرؤون البردة وسائر الأمداح النبوية، يسيرون به أمام جميع جنده ـ فساروا كذلك والناس يلعبون أمامهم على الخيل العتاق بالبارود، وكذاك من شاء منهم، وسار هو ـ أيده الله ـ بجنده الجرار خلف الجميع ـ وكان أصاغر أولاده مع الطلبة ـ فكان ذلك تزلزلت الجبال بأصوات باروده، وضاقت الفجاج والبطائح بخيله وجنوده، وحضرته الملائكة الأعلام، فرحا بجنود الإسلام، باسطة أجنحتها للمصلين على النبي عليه الصلاة والسلام .

فنزل يومئذ بنهر تليلات، ثم ارتحل يوم الأحد بعده على الهيئة الموصوفة آنفا، فنزل بمرأى من **ضريح سيدي الشحمي** (رحمه الله تعالى) وأمر فبُنِيَ كاليوم الذي قبله للعلماء، خباء وأفرش جيدة والزرابي المثمَّنة، ووضع فيه **صحيح البخاري** والكتب التي معه، وجلس العلماء فيه يقرؤون **صحيح البخاري** والأمداح النبوية صباحا ومساء، يأتيهم ما يكفيهم من الطعام فيه، ومن لا مقرَّ له بات فيه، وفي هذا المنزل وردت عليه هدية من المركيش فيها ما يناسبهم لا ما يناسبه من المأكول ونحوه مما دل على ضعفهم

وقصورهم، فأثابهم ـ أيده الله ـ بأحد وسبعين ثورا ومائة شاة وخمسة ووعدهم بأن يأذن للمسلمين في البيع والشراء معهم لينتفعوا من ذلك ويستريحوا من سجن ضيقهم.

ومن غد ذلك اليوم ركب في خواصِّه إلىٰ قرية كرشطل القديمة ليتصيد وينظر البلاد، وقد كان ورد عليه من الجزائر نصراني بعثه وكيل الطاغية ليحث الكفرة علىٰ الرحيل وينهاهم عن أن يزيدوا في الهدم شيئا، فبعثه مع الذين جاءوه بالهدية، وفي يوم الأربعاء ارتحل علىٰ الهيئة الموصوفة في رحيله السابق فنزل حذو المحل المشهور بحوض الزعفران علىٰ الضاية المعروفة هناك بالشفة ورجع إليه هناك النصراني ـ القادم من الجزائر إلىٰ النصارىٰ ـ فأخبره بأنهم في انتظار السفن تقدم عليهم فيرتحلون فيها إلىٰ عدوتهم، وقد كان هذا النصراني أخبرهم بأن السلطان السيد حسن باشا ـ أعزه الله ـ قال له إن لم يرحلوا لخمسة تمضي من مارس سلطت عليهم الأمير بجنوده فيستأصلهم، فورد عليهم المقيم المقعد، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، واشتعلت أحشاؤهم رهبا، وامتلأت قلوبهم رعبا، وفي الجمعة بعده أذن للناس في التسوق مع النصارىٰ فحملوا سلعهم إلىٰ قرب بابها، ومعهم أعوانهم يمنعون سفهاءهم من إقامة فتنة، وخرج الكفار من بلدهم مع بعض أعوانهم، فاشتروا من المسلمين سلعهم بسعر جيد، ولم يكن عندهم ما يُشترىٰ منهم لبعثهم أثاثهم إلىٰ عَدوتهِم أو لفقرهم، فاستمر السوق بينهم ثلاثة أيام، ربح فيها المسلمون ما شاءوا، ثم منعهم لنظر اقتضىٰ المنع.

وفي يوم الأحد السادس والعشرين من الشهر المذكور شرع الأمير في تعيين من يسكن البلد من المسلمين، فأمر بأن يكتب كل من عزم علىٰ سكناها ليأذن له في بيع شيء من القمح في المرسىٰ الكبير بالسعر المختص بالأمراء دون غيرهم، فكتبوا له، فأذن لكل منهم بحسبه، فحصل للناس بذلك أكبر الإعانة، وذلك في الحقيقة كله

خارج من يده، لأنه كان باع للنصارىٰ ذلك القدر الذي ولاه للناس، وله فيه ربح أكثر من عشرين ألف محبوب، وهو قادر علىٰ أن يدفع جميع ذلك القدر لمبتاعيه، ويحوز ربحه، فلا فرق بين ما أذن لهم فيه وبين ما لو دفع لهم قدر ربحه من يده إلا في سقوط مؤونة الحساب، وفي ذلك اليوم عيَّن الوكلاء والحراس علىٰ وهران.

ثم ارتحل يوم الجمعة الأول من رجب، فتقدم قليلا ونزل علىٰ طرف البساتين القديمة، فخرج اليه ترجمان النصارىٰ ـ قطع الله دابرهم ـ بهدية من الحلوىٰ السكرية ونحوها، وأخبره بأنهم في أجهد شغل بحمل أثاثهم، وإركاب جندهم في السفن، فأثابه ثوابا وافرا، ورده ردًّا جميلا وكان مما أخبره به هذا الترجمان أن جميع النصارىٰ أكابرهم وأصاغرهم، لو طلب منهم مركيشهم ـ دمرهم الله وإياه ـ أعز ما يملكون علىٰ أن يأذن لهم في الخروج لرؤية أميرنا المؤيد ـ نصره العلي قدره ـ ورؤية محلته المنصورة، وأجناده التي ليست أعدادها محصورة، لبذلوه، قال ومركيشهم أشد شوقا إلىٰ ذلك، غير أنه خاف إذا خرج إلىٰ ذلك لم يبق أحد بالبلد، كل ذلك وهم خائفون من وثبات الأمير محترسون من غضبه، متوهمون غدره، ويأبىٰ الله أن يكون الغدر من شيمته ـ أعزَّه الله وأبَّد نصره ـ .

ولما كان يوم الأحد الثالث من رجب ظهر للمسلمين حريق في أخصاص الكفار ـ أبد الله الحريق في أحشائهم ـ فبينما المسلمون ينظرون إليه ويتساءلون عن سببه، إذا باثنين منهم جاءا يركضان علىٰ فرسيهما ركضا شديدا، بعثهما مركيشهم يعتذر عن الحريق بأن سببه أن بعضهم جلس يصلح مكحلته فسقط زنادها بغير إرادته فوقعت نارها علىٰ خص فأحرقته، فعاقبه مركيشهم بما يستحق من العقاب، وكان حاكم برج مرجاج لما رأىٰ الحريق المذكور ظن بأمر المركيش فأحرق بعض أثاث عنده فأخذه

وحمله في السفين مقيدا إلى أن بعث له الأمير يأمر بإطلاقه، وكان هذا الاعتذار خوفا من بادرة الأمير أن يحمل عليهم المسلمين عند رؤية إفسادهم.

وبينما الأمير ينظر بالمرءاة إلى ناحيتهم إذ رأى الطريق الذاهبة إلى برج المرسى في البر ملأَى بهم ذاهبين إليها، فنبه الناس لذلك فاستبشروا وكادوا يطيرون من الفرح، وبعث يستخبر عن ذلك فقيل له إنه مقدمة ذهابهم.

ولما كان من الغد ضحى رأى فإذا الطريق قد امتلأت بِقضِّهم وقَضيضهم، وجاءه الخبر بذهابهم جميعا إلا من بقي منهم لخدمته، فبعث ـ لا زالت أفراحه متتالية، ونعم الله عليه متوالية ـ بالأعلام الإسلامية، فنصبت على شواهق الأبراج، وبالمدافعيين ليعمروا يومئذ من مدافع البشائر، وبمضربه الفياح يبنى لينزل فيه، وركب بعد ذلك وركب العلماء ـ وقد كانوا حشروا من كل بلد ـ وحُمِلَ **البخاري** كالعادة، وسار هو فارتفعت الأصوات بالصلاة على سيِّد ولد عدنان، وكثُر التكبير والأذان مِن كل إنسان، ولعبت الخيول، وقصفت أصوات البارود والطبول، وجرَّت المسرَّات على القلوب أسنى الذيول، وصفَت من أردان الشك مرائي العقول، ولما وصل الناس الأبواب ازدحموا أشد الازدحام، كاد أن يفضي بهم إلى المقاتلة والالتحام، حرصا على السَّبق إلى دخولها، والفوز بقَبْلية حلُولها، ولما دخلوها رأوا مِن شدَّة تحصينها ووثاقة حصونها، وعلوِّ بنائها وبُعدِ أرضها عن سَمائِها، ورسوخ أبراجِها الهضابية، ووجود المحارس منها على كل وَهدة ورابية، ما أدهشَ ألبابَهم، وأكثرَ إعجابهم، ما رأوا شيئا إلا قَضوا بتفضيله على سِواه، وكبَّروا تعجُّبًا مِن السِّرِّ الذي حَواه، ولم يكونوا هدَموا ـ دمَّرهم الله ـ إلَّا مَواضع لا إغاظةً للإسلام فيها، هي في حصونها كالشامة، وقع منهم هدمها تحقيقا لقوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى

ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (الحشر: ٢)، وأما دور السكنىٰ، فقد كانت تهدَّمت بالزلزلة، بحيث لم يبق إلا أطلالها، غير أنهم جعلوا خارجها بين الأبراج بيوتا من اللوح رائقة الشكل، بديعة الوضع، أكثرها يحتوي علىٰ ما تحتوي عليه الدار الرائعة من المنافع والمساكن.

وكان أول مَن دخلها ـ بعد الذين وضعوا الأعلام وعمَّروا المدافع، وبنوا مضرب الأمير ـ العلماء يَقدمُهم **صحيح البخاري**، ثم تلاهم الأمير في جنده الجرَّار، وفي يده رمح كاد أن يمزِّق أديم السماء طولا ويمسَّ الثَّريَّا، وأَسِرَّة وجهه تتهلَّل بلوامع البشرىٰ، وتتضوَّع بطيبٍ أعبقُ مِن المِسك نشرا، فنزل داخل البرج الأحمر بمضربه الفياح، الذي لا تهزه عواصف الرياح، فكان أول ما بدأ به أن صلىٰ ركعتين شكرا لله تعالىٰ، فضربت مدافع التهنئة وطبولها، ثم دخل عليه الناس يهنّونه أفواجا أفواجا، ولما تمثَّلتُ بين يديه استأذنته في الإنشاد فأذن لي فأنشدت قولي:

بشرى الوصال لطيفة الأخبار	فانشد حديث لطيفة الأبكار
كرر حديث وصالها متسلسلا	عن فرعها الداجي علىٰ الأشعار
عن سر ذاك السر في وجناتها	عن ريقها عن ثغرها المختار
هيفاء تنهل بالرحيق ضجيعها	وتعلُّه خمرا بغير خمار
قد طالما ضنت فجادت باللِّقا	الآن طاب الوقت للسمار
دع عنك ذكر العامرية واقتضب	مدح الأمير وصُغهُ في الأشعار
يا أيها الليث الهِزَبْرُ المتَّقىٰ	وأجلُّ مختارٍ من الأخيار
أبشر فثغر الفتح أصبح باسما	يثني عليك بِرَيِّه المعطار
ولوامع النصر المبين تكاثرت	حتىٰ كستك أشعة الأنوار
طهَّرتَ هذا القطر من دون الردىٰ	ورفعته عن سائر الأقطار

وسعيتَ للرحمٰن سعيا صادقا ... فجزاك عنه بخير عقبى الدار
وأخذت من أيدي العدا ما سلمت ... للعجز فيه شوامخ الأقدار
كم من مليك كان يزعم أنه ... صُلبُ القناة مرفَّعُ المقدار
ركض السوابق كي يفوز بفخرها ... فبدا عليه العجز في المضمار
حتى دعتك وقد تطاول أسرها ... دعوى ضليل القفر في الأسحار
ولنعم أنت إذا دعيت لحادث ... أمست غياهب ليله كالقار
تجد الدعاء إلى الملاحم لذة ... أحلى بسمعك من غنى الأطيار
فأتيتَها كالليث في أشباله ... وأمطت عنها شوائب الأكدار
وملكتَها بالجد غير منازع ... ملك ليوث الغاب غير مُعار
لا طيب للعيش الشهيِّ بنعمة ... إلا بملك معاقل الكفار
فاهنأ بعيشتك الشهية وابتهج ... فلقد ملكت منيعة الأسوار
هيفاء صِينَت في الحِجال مهابةً ... ممنوعةً عن أعيُنِ النُّظَّار
شماء تمنع قربَها رقباؤها ... محجوبة بجلائل الأخطار
تَخِذَتْ مِن الرَّوضِ النضير مناطقا ... وغلائلا خُضْرا مِن الأشجار
ومن النجوم قلائدا وأكلة ... ودروعها كانت من الأنهار
ومن البروج الشامخات عواذلا ... ترمي مريد وصالها بالنار
سلبَ العُداةُ جمالَها فأَعدتَه ... فغدت تبوح إليك بالأخبار
تُثني عليك بمنطق مُستعجِم ... في شرحه سِرٌّ مِن الأسرار
وتقول إنك خير شهم يُرتجى ... لجلائل الأَهوال والأضرار
حُزتَ الكمالَ بأَسره وتَخِذْتَه ... حُليًا يَلوحُ شُعاعُه للساري
نقَلَ الزَّمانُ حديثَ فضلِكَ صادِقًا ... فرَوَتهُ عنه بَقيَّةُ الأَعصار

هذي هي الدار التي سبقت بها　　لعلا مجدك سبق الأقدار
وقضى بها لعلاك أصحاب الصفا　　وجميع أهل العلم بالأجفار
أوقدت عن سكانها نار الوغى　　فغدا لك الفردوس أكرم دار
وأخفتهم فأمنت في أرجائها　　وأخذت من غُصَّابها بالثار
وسددت أبواب الخلاص عليهم　　ففتحتها قسرا بنصر الباري
وجليتهم من أرضها فترحَّلوا　　وجلَوتَها من سائر الفجَّار
فالحمد لله الكريم فإنما　　من فضله ما نِلتَ من أسرار
ورَقِيتَ في أَوج السِّيادة صاعدا　　حتى اقتعدت منازل الأقمار
لا زلت في درج الكمال مُرفَّعا　　حتى تفوز بأطول الأعمار
أنت المليك الفرد غير مدافع　　وأنا بمدحك رائق الأشعار

فأَمر لي ـ أدام الله جوده ـ بما لم تبلغه الأمنية، ولم تعقده النية، ولم تسمح به إلا نفسه الزكية، عطاء أغاظ به الحواسد، وقطع به عروق الفَقر المستأسد، فأمسيتُ به غنيا، وأصبح قلبي بإقباله هنيا، وأعظم مِن ذلك لدي، وأحبه إلي، أنه حيًّا وبَيًّا، وأقبل علي عند الإنشاد طَلقَ المُحيًّا، وأَثنى على نظمي وحكم أنه مِن النَّظم البديع، فلَم نَحتج لدَيه في القبول والتَّقريظ إلى شفيع.

ثمَّ أمر ـ أيَّده الله ـ فكتبت رسائل البشائر إلى الآفاق القريبة والشاسعة، بعد أن سبق البريد بكتابه إلى السُّلطان ليُشنِّفَ بهذه البشائر مسامعه، ومعه مفاتيح البار [كذا] ومفتاحان مِن خالص الذَّهب في زنتها وعلى صفَتها.

ونصُّ نسخة الكتاب الذي كتب إلى ملوك الآفاق بعد سطر الافتتاح: ... لا زالت البشائر تُجلَى عليكم عرائِسُها، وأَخبار المسرَّات تُتلى بحضرتكم نفائسها، وأبقى الله

سماحكم تُجلَىٰ به الغياهب، ومحاسنكم تستمطر منها المواهب، وذكركم يحدو به كل راكب، وتتهاداه المحافل والمواكب، وعليكم سلام يقوم بحقِّ ودادكم الأَكيد، ويخصكم بأجمل التحيات وأجلِّ المزيد، ورحمة الله تعالىٰ وبركاته، ورضوانه وتحياته، وبعد، فإن بيننا من الوداد المحكم الروابط، والمحبة المؤلفة الضوابط، ما يوجب أن نبشركم بما فتح الله به علىٰ المسلمين، وأفاء عليهم من نصره المبين، بيُمن طلعة قمر السيادة، الذي تلألأَت أنواره بأقطار المجادة، طالع السَّعد الذي حلت به شمس الإمارة في دارة الحمل، وأرست به سفينة النَّجاح علىٰ أقوىٰ من قاعدة الجبل، وأعلىٰ من مقرِّ زُحل، مُغني العُفاة بأَياديه، ومفني العُداة بحُسام غضبه فبؤسا لأعاديه، مولانا السيد حسن باشا، أبقاه الله وأزِمَّة الأمور تُقاد إليه بما شا، وجنود الكفرة من تَمَثُّل خياله تتلاشىٰ، ولا زالت نعمه آمنة من الانفصال، وأيامه محفوظة البُكَر والآصال، وجنوده تُرغِمُ أعداء الدين، وتحُلُّ حُبَىٰ المعتدين، وحرسَ ذاتَه للإسلام والمسلمين، وخلَّدَ مآثره في ديوان الفضل، آمين.

وذلك أنَّا كنَّا غزونا وهران وطيُّ الأيام عن ولايته لم يُنشَر، وسِرُّ الغَيب بسلطنته المباركة لم يَظهَر، فجالدناهم مجالدة ضاق عنها نطاقهم، واشتدَّ بها خناقهم، وقاتلناهم من الجبل والسهل، وسقيناهم علَلاً بعدَ نَهل، وأريناهم كيف تكون عاقبة أهل الجهل، ونصبنا لإضلالهم منارات المتارس، ودعوناهم إلىٰ الإسلام بأفواه المدافع والمهارس، حتىٰ كثرت فيهم المآتم، وضاقت الدنيا فأمست كحلقة خاتم، فأشرقت الأكوان بأيام سيدنا السعيدة، ولاحت بها أمارات النصر من طلعته الحميدة، وعمَّ البَرِيَّةَ النُّجحُ لما أجمعوا علىٰ بيعته السديدة، وقد كان الله ادَّخر له من هذا البلد فخرها، وكتب له قبل أن تُخلقَ أجرَها، فلم تمض إلا أيام من ولايته حتىٰ ألقَت إليه يدَ الاستسلام، وباءت علىٰ

يده بالرجوع إلى الإسلام، وجاءه أهلها يستجيرون به من جنوده، ويستدفعون به البلاء الذي نالهم بطالع سعوده، عند ظهور طالع صعوده، ملتزمين لجزية يُؤَدُّونها على ممرِّ الدَّهر، وهي ألف دينار لكل شهر، وضريبة أبدية، على كل سفينة أرست بالمرسى البلدية، بعد تسليمهم في البلد، بجميع ما كان فيها حين استيلائهم عليها من الآلآت والعُدد، فتفضل عليهم ـ أدامه الله ـ بالإجابةّ، ورفع عنهم يد جنده التي مزقّت من أديم كُفرهِم إِهابَه، وضرب لهم أجلا معلوما، وعيَّن لإخلاء البلد يوما محتوما، وهذا آخر الأجَل المضروب، وأول يوم زالت به عن تلك البلاد الكروب، فها هم خرجوا منها وقلوبهم بالحزن مكويَّة، وأحشاؤهم على جمار الأسف مطويَّة، وقد حملوا الصليب الذي كانوا يقولون بألوهيته، ويُقِرُّ كل منهم له بعبوديته، وقد طالما ابتهلوا عنده في ناديهم، وعوَّذوا به البلاد لئلا تنزع من أيديهم، واستَنصروا به على الإسلام فلم يفِ لهم بمَوعود، وهيهات أن تُرجى النصرة من عود، وقد حلَّ بها الإسلام أول الربيع وهو الرابع من رجب سنة ست ومائتين وألف وأصبح بها أميرا قريرا، بعد أن تغرب عنها ستين سنة لا يحلها إلا مجتازا أو أسيرا، فأجهشت تلك المواطن إلى الإيمان، وتطاولت مآذنها إلى الأذان، ومساجدها إلى التدريس وتلاوة القرآن.

وأجهشـــتُ للثوبـــاء لمـــا رأيتُــه   وكـــبر للرحمــــٰن لمـــا رآنيـــا

فلله الحمد على هذه النعمة التي لا يحصى ثناؤه على إسدائها، وله أتم الشكر على ما عود هذه الأمة من الظهور على أعدائها، فأبشروا أدام الله لكم البشائر، بظهور الإسلام الذي هوللمسلم أسنى من ظهور العشائر، فإنكم أولى من فرح بفرح الإسلام، وأجل من يحظى ببشائره والسلام » انتهى.

وانقضى ذلك اليوم والناس في رحابها بين أبراجها يضطربون، وفي منازهها

يتقلَّبون، ومن غده ركب الأمير في خاصته ينظر أبراجها التي لا يُوجد مثلها في البلاد، ولا تُبِيدُها الزلازل الشداد، فرأىٰ من ذلك ما أكثرَ حمدَه لمولاه، وشكرَه علىٰ جزيل ما أولاه، وفي اليوم الثالث أذن للناس في أخذ الدُّور فابتدروا يعين كل واحد منهم ما سبق إليه، ثم أمر بعد ذلك ولده الأجلَّ السيد **عثمان** فقسمها علىٰ الناس.

وفي الرابع ركب في البحر إلىٰ برج المرسىٰ وكنت فيمن ركب معه، فقلت يومئذ:

عجبا كيف يركب اليوم بحر ... طيب سيبه ببحر أجاج
أيها البحر خفف الموج واعلم ... أن فوقك قاصم الأعلاج
بحر جود إذا تلاطم يوما ... مُلِئَ البحرُ منه بالأمواج

فرأىٰ الناس يومئذ من عجائب برج المرسىٰ وضخامته ما أنساهم غيره، ورجع يومئذ في البَرِّ واشتغل بالبناء وقَسمِ الدُّور وغير ذلك مما لا يمكن تتبُّعه وإتمامُه، وقد كان قوَّادُه وأكابرُ جُندُه لما دخل أَتَوه بمالٍ كثير ضيافة كل واحد بحسبه، فامتنع ـ أيده الله ـ من قبول شيء من أحد، وقال إنَّ هذا أمر عملته لله تعالىٰ فلا أقبل فيه عوضا من أحد غيره تعالىٰ، نسأل الله تعالىٰ أن يتقبله منه مبرورا، ويجزيه عنه جزاء مشكورا.

وقولنا: (**تاريخ ذا**)، إشارة إلىٰ يوم دخوله وهران ـ كما تقدم ـ وتقدَّم أنه دخل في الرابع من رجب سنة ست.

ومن غريب الاتفاق أنه أخرج المدافع من بلده بنية الغزو في الثامن من رجب حسبما تقدم، فجازاه الله عن ذلك بأن دخلها ـ أعني وهران ـ في الرابع منه في السنة المقبلة.

ولما كان في تعجيل الدخول أتم مسرة قدمه له علىٰ اليوم الذي أخرج المدافع فيه

بأربعة أيام، وقولنا: (**وها هنا قصيدة الجهاد ... الخ**)، تصريح بختمها بعد استفادته بالإشارة بقولنا: (**والحمد لله فقد تم الأرب**)، فإن في ذلك براعة اختتام ظاهرة، وقولنا: (**على المراد**)، على حذف مضاف أي على وفق المراد، وقولنا: (**عقيلة**)، فيه تشبيه بحذف الأداة أي أنها تمت في حال كونها مثل عقيلة إن بيعت كان ثمنها غاليا، (**زفت**) وسيقت إلى (**البحر أبي عثمان**) أميرنا المنصور، أبقى الله الإمرة في عقبه إلى يوم النفخ في الصور، (**رافلة في ملبس**) سماحة حسن (**بديع**)، في حال كونها (حالية) أي غير عاطلة، (**بحلل**) جمع حلة، (**البديع**) الفن المعروف، و(**تاريخ**) إتمامها في اليوم الذي دخل فيه المسلمون بلد وهران من السنة المذكورة وهي الموجودة في ضمن قولنا: (**وهران تم الكفر من ولاها**)، والولي هوالقريب، و(**أكمل الحمد**) وأتم الثناء لله الذي (**خوَّلنا نعمه**) التامَّة ومِننَه الدَّارَّة، و(**أكمل**) لنا (**القصد**) بإتمام هذه القصيدة على وفق المراد، و(**الصلاة والسلام**) التامان الدائمان ما ظهر لنا بدر، وطلع نجم على سيدنا محمد النبي الهادي الذي هو للهدى بدر، مَن تبعه اهتدى، وأمن مِن الرَّدَى، وعلى آله الكرام، وصحبه الأعلام، الذين جعل الله ذكرهم في كلِّ مقصد لَبِنةَ التَّمام، ومِسكةَ الختام.

وها هنا تمَّ هذا الشرح المُسفِرُ عن ضوء النهار، المتضوِّعُ بِعَرفِ الورد والبَهار، سائلا ممَّن يُهدَى إليه القبول، والإِغضاء عمَّا تَضمَّنَه مِن الزَّيف غير المقبول، وقد كنتُ شرعتُ فيه أوان الشروع في القصيدة، فما وقع أمر من متعلقات الجهاد إلا نظمتُه، ولا نظمتُ شيئا إلا شرحتُه، حتى تمَّت القصيدة بِتَمام، وتمَّ هو بتمام القصيدة، ومن ثَمَّ يجد في آخره ما ظاهِرُه يناقِضُ ما تقدَّم في أوَّلِه، لأنَّ الأمر يقعُ على حسبِ ما ذكرت أولا، ثمَّ يَطرأ ما يُغايِره، فأَثبتُّه غيرَ مُنبِّهٍ عليه، ولم يقَع ذلك إلا قليلا، كقولي في ولده الأجل، السَّيد **عثمان** المبجَّل: (**المتولي الآن ولايات أبيه**)، وذلك قبل ولايته الخلافة.

وبالجملة فقد كفانا الاعتذار عن كلِّ مقال، قول مَن قال:

وعين الرضا عن كل عيـب كليلـة　　　أَلا إِنَّ عَين السُّخط تُبدي المسـاويا

وقد أوجب التطوُّفُ في البلاد، والنَّظر في عجائب آثارها التي تُنسي ذكر الأهل والأولاد، أن تأخَّر ختم هذا الشَّرح إلىٰ يوم الأربعاء الثالث عشر من رجب المذكور.

فالحمد لله حمدا لا ينقضي عدَدُه، ولا ينقطع مَددُه، والصلاة والسلام علىٰ سيِّدنا **محمَّد** خاتم الرُّسل الأعلام، وعلىٰ آله وصحبه الكرام، والله المسؤول أن يغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، ويجعل عاقبة أمرنا أحسن من أوله آمين.

انتهىٰ علىٰ يدِ كاتبه ثانيا مؤلِّفه **أحمد بن محمد بن علي** (لطف الله به، وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين)، والحمد لله ربِّ العالمين، يوم الثلاثاء الخامس من رمضان سنة سبع ومائتين وألف، ولا يخفىٰ علىٰ ذي اللبِّ أنَّ مَن كتبَ كتابَه بيده تصرَّف فيه كيف شاء، ففي هذه النُّسخة بعض الزيادة والنقص علىٰ نسخة الأصل، وذلك لا يقدحُ في كلٍّ منهما.

الفهرس

فهرس المحتويات